ألفونس إسكيروس

ميراث الترجمة

التربية الاستقلالية
أو
إميل القرن التاسع عشر

ترجمة: عبد العزيز محمد بك

تقديم: بثينة عبد الرؤوف رمضان

المركز القومي للترجمة

1104

ألفونس إسكيروس

التربية الاستقلالية

هذا الكتاب يرمى إلى غاية واحدة هى إنشاء الطفل حرا مستقلا تصدر أعماله وآراؤه عن إختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . ومن أصوله فى التربية أن لا تُحشر إليه قواعد العلم حشرا ويرغم على حفظها ، بل يُجعل له الدرس من وسائل التسلية ، بأن يخلّى بينه وبين ما حوله من الأشياء والحوادث ويلفت ذهنه إليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها إليه من العلوم .

فليقرأ القائمون على التربية هذا الكتاب؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من مائة عام على إصداره ، لا تزال أفكاره فى إصلاح التعليم وتجديده تنبض بالحياة كأنها كتبت بالأمس القريب . ولا تزال النخب الفكرية والثقافية والسياسية مشغولة بالقضايا نفسها التى انشغل بها الإمام محمد عبده منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا . يبدو أننا سوف نظل أصحاب المشروعات غير المكتملة .

تصميم الغلاف : عمرو الكفراوى

التربية الاستقلالية

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
محرر السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١١٠٤
- التربية الاستقلالية (إميل القرن التاسع عشر)
- ألفونس إسكيروس
- عبد العزيز محمد بك
- بثينة عبد الرؤوف رمضان
- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

التربية الاستقلالية

إميل القرن التاسع عشر

تأليف : ألفونس إسكيروس

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة

التربية الاستقلالية

إميل القرن التاسع عشر

تأليف : ألفونس إسكيروس
ترجمة : عبد العزيز محمد بك
تقديم : بثينة عبد الرؤوف رمضان

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إسكيروس ، ألفونس
التربية الاستقلالية : إميل القرن التاسع عشر / تأليف : ألفونس إسكيروس ؛ ترجمة : عبد العزيز محمد ؛ تقديم : بثينة عبد الرؤوف رمضان - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٥٤٨ ص ؛ ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة - العدد ١١٠٤)
١ - الاصلاح التعليمى . (أ) محمد ، عبد العزيز (مترجم).
(ب) رمضان ، بثينة عبد الرؤوف (مقدم) .
(جـ) العنوان . ٣٧٩,١٥

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٣١٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 266 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

مقــدمة

ترددت كثيراً فى تحمل تبعة قراءة هذا الكتاب وتقديمه، ويرجع ذلك إلى أننى وللأسف الشديد أنتمى إلى هذا الجيل الجديد من الباحثين الذين ينظرون إلى الدراسات التاريخية على أنها عودة إلى الماضى، وأن المهم هو الاهتمام بدراسة الحاضر والاهتمام الأكبر هو دراسة المستقبل، متجاهلين أن النظر إلى المستقبل لا يستقيم إلا بناء على بنية معرفية قوية، مستمدة من خبرة الماضى، وكم خجلت من منطقى و أنا أقرأ هذا الكتاب، فعلى الرغم من صعوبة اللغة التى كُتب بها مقارنة باللغة العربية الوسطى كما يطلق عليها، والتى نقرؤها الآن، ولا أخفى عليك، عزيزى القارئ، فقد تسلل الملل إلى نفسى فى الفصول الأولى (وربما يرجع ذلك إلى أنها بالنسبة للتربويين غدت من البديهيات الآن)، ووجدتنى رويداً رويداً مشدودة إليه أتجول بين أفكاره التربوية والسياسية والاجتماعية؛ فهو من نوع الكتب الرائعة التى اندثرت هذه الأيام؛ فالكاتب يقدم أفكاره التربوية والسياسية فى قالب قصصى بما يتميز به هذا الأسلوب من الوصف الدقيق للظواهر الطبيعية والشخصيات؛ مما يجعلك تشعر كأنك تعيش داخل الأحداث، مما جعلنى فى كثير من الأحيان أعيد قراءة بعض الأجزاء للوقوف على المغزى التربوى، وأشد ما أعجبنى فى الفصل الأول والثانى تلك العلاقة الجدلية بين التربية النظرية المقدمة من جانب الزوج لزوجته فى إطار مجموعة من الرسائل التى تتضمن مجموعة من النصائح التربوية، والرسائل الواردة من الزوجة التى تشرح الصعوبات التى توجهها ومحاولتها استخدام البدائل من خلال ما هو متوافر فى البيئة المحيطة، أما ما بهرنى حقيقة ما صادفته فى هذا الكتاب، وهو ما يمكن اعتباره أعمق

ما قرأت فى التربية السياسية التى وردت فى الفصلين الثالث والرابع[1]، وكم من مرة استغرقتنى قراءة هذه الأفكار إلى الدرجة التى أجد نفسى أعيد النظر فى عنوان الكتاب للتأكد من أنه كُتب منذ مائة عام ولا يقصد به الوقت الراهن، وعندما انتهيت من قراءة هذا الكتاب وجدتنى مشدودة لقراءة بعض الأجزاء التى قرأتها، لقد أحسست بنشوة المعرفة الحقيقية.

ولقد تعودت ألا أقرأ مقدمة الكتاب حتى الانتهاء من قراءته، ضمانًا للموضوعية، وكنت قبل القراءة قد لفت نظرى أن المترجم مستشار فى محكمة الاستئناف الأهلية سابقًا، وبعد قراءة المقدمة ومعرفة أن الذى قرأ الكتاب باللغة الفرنسية هو الشيخ الجليل محمد عبده أحد أهم دعاة الإصلاح وأعلام النهضة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وعرف قيمته التربوية ومدى حاجة البلاد إليه؛ لقد ساهم شيخنا الجليل بعلمه ووعيه واجتهاده فى تحرير العقل العربى عن الجمود الذى أصابه لعدة قرون، كما شارك فى إيقاظ وعى الأمة نحو التحرر، وبعث الوطنية، وكان يرى أن الإصلاح لا يتأتى إلا بالتعليم؛ فإنارة العقول لاكتساب القدرة على الفهم واختيار سبل الإصلاح لا تكون إلا بالتعليم وتدريب العقل على التأمل والتفكير.. لمواكبة التطورات السريعة فى العلم، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ما أحوج الأمة إلى أمثاله اليوم.

هذا وقد قام بترجمة الكتاب أستاذ فاضل من رجالات القضاء، ويبدو للوهلة الأولى تمكنه من اللغتين العربية والفرنسية، ولقد بدا ذلك جليًا فيما أضافه من حواش لتوضيح تلك الأساطير والشخصيات والأماكن والأحداث المرتبطة بالمجتمع الفرنسى، والتى قد يجهلها القارئ العربى، مما يمثل إضافة قيمة إلى الكتاب، وإن كانت هناك بعض الأسماء التى قد تختلط على البعض بسبب التعريب، على سبيل المثال ترجمة الأوديسة إلى (العديسى)، وهوميروس إلى (عمير).

---

(١) يُضاف إلى ذلك يوميات البطل فى الفصل الأول (فلتنظر إلى تشبيه الحكومة بالدجاجة) .

أما المؤلف ألفونس إسكريوس (الفرنسي) يبدو تأثره الواضح بفكر جان جاك روسو التربوي (١٧١٢ - ١٧٧٨)، بل إنه أطلق اسم إميل على الطفل إحياء لذكرى إميل القرن الثامن عشر ،على حد قول بطل القصة، ولقد وضح هذا التأثر بالمدرسة الطبيعية فى التربية، وإن كان إميل القرن التاسع عشر يتفوق على إميل روسو؛ ففى كتاب روسو كتب مجموعة من الرسائل ردًا على طلب سيدة أرسلت إليه ليرشدها إلى الطرق الصحيحة التى تربى بها أبناءها، ولقد وضع روسو أساسًا لتربية الطفل من الميلاد حتى بلوغه العشرين، ولقد اعتمد روسو فى تربيته على الطبيعة خاصة فى السنوات الأولى للطفل؛ فهو يرى أن كل ما خلقه الخالق هو حسن ثم تفسده يد البشر، فليس هناك فساد طبيعى فى النفس البشرية، بل إن الفساد يأتى من المجتمع، ولذلك وجب حماية الطفل من آثاره السيئة، لهذا رأى روسو وجوب ترك الطفل حرًا فى الطبيعة حتى تنمو ملكاته نموًا حرًا بعيدًا عن المجتمع، وأن تُبنى حوله حواجز تمنع عنه مؤثرات المجتمع حتى الثانية عشرة، وهو ما يطلق علية التربية السلبية، وبعد بلوغ الطفل الثانية عشرة يبدأ مرحلة العمل والتعليم العقلي، ولا يبدأ روسو التربية الأخلاقية والدينية حتى بلوغ سن الخامسة عشرة، ويشير الكتاب إلى أن لكل مرحلة عمرية خصائصها التى يجب مراعتها فى تربية الطفل، ولقد خصص روسو الفصل الأخير فى كتابه لتعلم الفتاة التى كان يرى أن دورها لا يتعدى إسعاد زوجها وإمتاعه، ولذلك فقد عنى بتربيتها جسميًا لكى تتمتع برشاقة جسمية واكتمال صحى، وأن تتعلم شئون التدبير المنزلى وكيف تربى أطفالها .... وسوف نلاحظ تأثر الكاتب الواضح بفكر روسو فى الفصول الأولى من الكتاب، ولكن إميل القرن التاسع عشر يبدأ فى التعليم المبكر، ويتضح تأثر المؤلف بفكر كل من فروبل (١٧٨٢ - ١٨٥٢)، وذلك من خلال اهتمامه بالأسس النفسية للتربية، وهربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٠)، حيث أكد ضرورة الاهتمام بالملاحظة والتجريب، كما وضح فى إعجابه الشديد بالتربية الإنجليزية لنزعتها العلمية التجريبية، هذا وقد اختلف ألفونس إسكريوس مع جان جاك روسو فى نظرته للمرأة؛ حيث رأى وجوب تعليم الفتاة إلى جانب الفتيان؛ حيث يقول: إنه يجب أن تنال المرأة ما تستحقه من الاحترام والإجلال، ويمكن القول إن هذا الكتاب جاء مكملاً لمسيرة إميل روسو .

وأشد ما أدهشنى أن هذا الكتاب كان مقرراً على طلاب المرحلة الثانوية ما بين عام ١٩٠٦ و ١٩٣٠ ، وذلك ليس فى فرنسا فحسب، بل فى مصر، ومما زاد دهشتى حقًا ليس ضخامة الكتاب الذى تصل عدد صفحاته إلى خمسمائة صفحة، بل ما يتضمنه من بعض الأفكار التى تتعارض وطبيعة المجتمع المصرى، ومن ذلك موقف الكاتب من الدين والتربية الخلقية[١]، وموقفه من المرأة والمساواة بينها وبين الرجل فى حق التعليم والخروج إلى العمل (وذلك فى بداية القرن العشرين)، قد يرد البعض على ذلك بأن المكتبات كانت ومازالت تمتلئ بالعديد من هذه الكتب وتلك الأفكار، ولكن هذه الكتب لا تقرر على تلاميذ المدارس، فهناك فرق بين كتب متاحة للقارئ وكتب مقررة على الطلاب، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على مدى سعة أفق القائمين على التعليم فى ذلك الوقت؛ حيث رأوا أن الفائدة الفكرية والثقافية التى تتضمنها هذه الصفحات تفوق بعض الأفكار التى قد تتعارض مع تقليدنا فى ذلك الوقت، ولينظر أحدكم إلى مناهج أبناء القرن الواحد والعشرين فى المرحلة الثانوية سوف يكتشف أن هؤلاء الطلاب لا يدرسون إلا قشور العلم، ومن هذه القشور تخرج الصيحات كل يوم من أجل رحمة الأبناء من تكدس المناهج التى تفوق طاقتهم !!!

فليقرأ القائمون على التربية هذا الكتاب؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من مائة على إصداره، لا تزال أغلبية أفكاره فى إصلاح التعليم وتجديده تنبضُ بالحياة كأنها كُتبت بالأمس القريب. ولا تزال النخب الفكرية والثقافية والسياسية مشغولة بالقضايا نفسها التى انشغل بها الإمام محمد عبده منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا. يبدو أننا سوف نظل أصحاب المشروعات غير المكتملة .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بالشكر للمركز القومى للترجمة لإتاحة هذا التراث الرائع لأبناء هذا الجيل الذى هو فى أشد الحاجة إلى تلك المصابيح لإضاءة مستقبله .

بثينة عبد الرؤوف رمضان

---

(١) أعتقد أنه لو أثيرت هذه الأفكار هذه الأيام لا تُهِم كل مَنْ تجرأ وطرحها للمناقشة بالكفر والردة .

كتاب

التربية الاستقلالية

أو

إميل القرن التاسع عشر

تأليف

الفونس اسكيروس

وترجمه بالعربية عن الفرنسية

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية سابقا

(قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب فى مدارسها الثانوية)

"مَا نَحَلَ[(١)] وَالِدٌ وَلَدَهُ مِنْ نُحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ"

(١) النحل : العطية والهبة . (حديث شريف)

"لَاعِبْ وَلَدَكَ سَبْعًا وَأَدِّبْهُ سَبْعًا وَصَاحِبْهُ سَبْعًا ثُمَّ اجْعَلِ الْحَبْلَ عَلَى غَارِبِهِ"

(حكيم عربي)

(حقوق الطبع محفوظة للمترجم)

(تَنْبِيهٌ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرْجِمِهِ يُحَاكَمُ وَيُجَازَ . وَمَنْ وُجِدَتْ بِيَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الْأُولَى) غَيْرَ مَخْتُومَةٍ بِخَتْمِ الْمُتَرْجِمِ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

فهـــرس الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم للطبعة الأولى ... ... (أ)

مقدمته للطبعة الثانية ... ... (س)

مقدمته للطبعة الثالثة ... ... (ف)

مقدمته للطبعة الرابعة ... ... (ش)

الكتاب الأول — فى الأم

الرسالة ١ — وصف حال المسجون ١

« ٢ — خبر سار من المسجون لزوجته ٤

« ٣ — تسلى المسجون بتعرف أماكن السجن ٥

« ٤ — السجن قيد للأشباح لا للأرواح ٦

« ٥ — مواساة الأصدقاء الخاملين فى حال الشدة... ... ... ٧

« ٦ — قول الطبيب فى الحمل (باميل) ٨

« ٧ — تأثر الزوجة بزيارة سجن زوجها ومشقة الرجوع منه وتخوفها من ثقل فروض التربية ٩

« ٨ — نقل الزوج من سجن الى آخر ١٥

« ٩ — خيبة الزوجة فى زيارة السجن... ... ... ١٦

« ١٠ — نهى الزوج زوجته عن السفر رعاية للجنين وما يلزم له ١٧

« ١١ — تفضيل الأمومة على الزوجية وأمانى الأم فى الولد ١٩

« ١٢ — وصف الزوجة للوندرة وسفرها الى بتزانس ١٩

« ١٣ — جبل القديس ميكائيل والمنزل الذى يصلح للتربية ٢٦

« ١٤ — محافظة الحامل على سلامتها ٣٣

« ١٥ — التربية الأولى من خصائص الأم ٣٧

صفحة

الرسالة ١٦ ــ تشابه السجون فى جميع البلدان وتسرية هم المسجون بالمطالعة ٣٩

« ١٧ ــ المسكن الجديد ومجىء قو بيدون و زوجته جورجية من فرنسة والمقارنة بين الفرنسيات والانكليزيات فى تربية الأولاد ٣٩

« ١٨ ــ موافقة الزوج لزوجته فى انتقادها التربية عند الفرنسيس ٥٢

« ١٩ ــ تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية فى فرنسة ٥٣

« ٢٠ ــ وصية الدكتور للحامل بالرياضة والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات و باجتلاء المناظر الرائعة... ... ... ٦٦

« ٢١ ــ وصف تعويد الانكليز أطفالهم الاستقلال والحرية ٧١

« ٢٢ ــ انتقاد أخلاق الانجليز وخضوعهم لتقاليد أسلافهم ٨١

« ٢٣ ــ أخبار الزوجة زوجها باقتراب ساعة الوضع و برؤيا رأتها ٨٣

صحف مقتطفة من يومية الدكتور إراسم

الصحفة ١ ــ أقل العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث فى سبيل الحرية... ... ٨٥

« ٢ ــ لا بد يوما أن يدال من المستبدين وأن ترد الحقوق المغصوبة الى أهلها ... ٨٦

« ٣ ــ من أعجب الظلم أن يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الأمم فى سبيل تحصيل لذة الملك لرجل هالك ٨٦

« ٤ ــ تمثيل الحكومة المستبدة فى الأمم الراقية بالدجاجة مع أفراخها ٨٧

« ٥ ــ تمثل زوجة المسجون له فى اليقظة ٨٧

الرسالة ٢٤ ــ البشارة بوضع « اميل » ٨٨

« ٢٥ ــ القابلات والعناية بالمولود ٨٩

« ٢٦ ــ مشابهة « اميل » لأبيه وحكاية فى التماثل بين الأحياء والأموات ٩٣

« ٢٧ ــ ظن الأم أن وليدها أنشأ يعرفها وبيان فضله عليها فى تحسين خلقها ٩٤

« ٢٨ ــ سؤال الزوج عن حقيقة التربية وبدايتها ونهايتها ٩٦

صفحة

الكتاب الثانى — فى الولد

الرسالة ١ — تعريف التربية وعسر تحديد زمنى بدايتها ونهايتها ٩٩

« ٢ — عمل الأم فى الشهور الأولى من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله الأمهات بأطفالهن ١٠٣

« ٣ — أول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس وتربية الحواس وتأثير التمدن فى قواها وتفضيل التربية فى الريف وعمل الأم فى تمرين حواس الطفل ... ١٠٥

« ٤ — شعور الطفل من أول نشأته بأنه أرق من الحيوان واستخفافه بالعالم واستعراف طباعه وذكر إهمال المربين ١١٣

« ٥ — حسن رأى الزوجة فى ولدها وسياسته ووصف الاقليم والأشجار... ... ... ١١٦

« ٦ — تلقيح الجدرى ووهم عوام الانكليز فيه وذكر الأم لأحوال ولدها ١١٩

« ٧ — بيان أن سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لا ضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها وتدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه ... ١٢٣

« ٨ — تعرف أذواق «اميل» وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل على مثالهما فى الطباع والأذواق وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها ودوائها ووجوب مقاومة التربية لأهوائه الفاسدة من طريق الهائه عنها وجعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها ١٢٨

« ٩ — استعمال السلطة فى سياسة الأطفال بقدر الضرورة وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال ١٣٧

« ١٠ — اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الإلهية والخوض معه فى المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات ١٤٢

« ١١ — بيان عدم فائدة أصول علم الأخلاق فى التربية... ... ... ١٤٥

« ١٢ — بيان قلة نفع القدوة ومطالعة قصص الحيوانات فى تربيـة الأطفال ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه ١٥٠

« ١٣ — بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة ١٥٣

« ١٤ — تربية النفس وبيان أن فى التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الأطفال حطا من كرامتها وأن للاطفال حاسة يميزون بها بين الحب الصحيح والموه ١٥٩

صفحة

الرسالة ١٥ ـ تفاهم الأم مع ولدها بالأصوات وظنها أنها أصل اللغات... ... ... ١٦١

« ١٦ ـ استعداد الأم لتعليم ولدها بالبحث فى أحوال النباتات ١٦٢

« ١٧ ـ تسنين إميل ١٦٤

« ١٨ ـ فى تفكر الطفل . وأصل اللغات وفى تعليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين فى ذلك ١٦٥

« ١٩ ـ التفكر مما يتعلمه الطفل ـ خطأ المربين فى عنايتهم بالألفاظ دون المعانى ووجوب تعويد الأطفال النظر والملاحظة تمرنا على التفكر ١٧٢

« ٢٠ ـ محاولة إراسم الهرب من السجن وخوفه انقطاع المراسلة ١٧٥

« ٢١ ـ بيان شغل «إميل» وان الأعمال الصبيانية ليست باطلة ١٧٦

« ٢٢ ـ أنس «اميل» بالدواجن وأنسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة ١٧٧

« ٢٣ ـ تأثير الجمال فى الأطفال واحتياجهم إلى كثرة التعلم ٨٤

« ٢٤ ـ أخبار الزوج زوجته بنقله الى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر اليه ... ١٨٥

« ٢٥ ـ تعليم الأطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل فى المعاملة واحترام الزمنى بحسن المعاملة ١٨٦

« ٢٦ ـ وجوب اعتراف المربى للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين فى دعواهم العلم بكل شىء وانتقاد التعليم الدينى والسياسى والطريقة المستحسنة فى التربيـة و بعض شروطها كنسيان المربى ما تعلمـه ليتعلمه مع الطفل ٢١٣

« ٢٧ ـ التـدرج فى تعليم العلوم للاطفال بلفت أذهانهم إلى ما حولهم وانتقاد الكتب التعليميـة ٢١٩

« ٢٨ ـ فوائد التصوير والمعارض فى التربية... ... ... ٢٢٦

« ٢٩ ـ التربيـة والتعليم بالفانوس السحرى والتمثيل والمعارض ٢٣٢

« ٣٠ ـ السفر بالأطفال ومعرفة الأرض بالعمل وتعليمهم الصناعة بمعالجة اللعب ... ٢٣٨

« ٣١ ـ تعليم القراءة والخط والرسم ٢٤٨

« ٣٢ ـ التدرج الفطرى فى تعليم الرسم والخط والقراءة ٢٥٦

صفحة

الرسالة ٣٣ ـ تربية الخيال والتلطف فى محاورة الأطفال ٢٦٦

« ٣٤ ـ خطاب الأب لابنه وحثه على تعلم الكتابة ٢٦٨

« ٣٥ ـ الصحة فى تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء ٢٦٨

« ٣٦ ـ تعليم التاريخ الطبعى بتمثيل الفانوس السحرى ٢٧٨

« ٣٧ ـ بقية أخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الأطفال ٢٨٦

« ٣٨ ـ تعليم السباحة وتربية العضلات ٢٨٨

« ٣٩ ـ اخبار المسجون بالعفو عنه ٢٩٣

« ٤٠ ـ بشرى الحرية (خروج إراسم من السجن)... ... ... ٢٩٣

صفحة

الكتاب الثالث فى تربية اليافع

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور إراسم

الشذرة ١ ــ حب الزوجة والولد والوطن ٢٩٥

« ٢ ــ تعليم المسميات قبل الأسماء ٢٩٨

« ٣ ــ تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا ٣٠٠

« ٤ ــ الجزيرتان والتعليم بضرب الأمثال ٣٠٦

« ٥ ــ الخـط الديوانى ٣١٢

« ٦ ــ مذهب تشـغيل المتعلمين بالأعمال المادية الشاقة ٣١٥

« ٧ ــ رؤيا تمثل التربية الكاملة وآثارها فى سعادة الأمة ٣١٩

« ٨ ــ تجلى العلم فى للعمل ٣٢٨

« ٩ ــ انتقاد تعليم الأطفال اليونانية واللاتينية ٣٣٤

« ١٠ ــ التقليد والذاكرة ٣٤٢

« ١١ ــ المؤلفات المفيـدة للناشئين واختيارها ٣٤٩

« ١٢ ــ لا يسلم وجه الشمس من كلف وانتقاد اللغتين اليونانيـة واللاتينية ٣٥١

« ١٣ ــ السفر من أركان التربية ٣٦٢

« ١٤ ــ التربيـة بركوب البحر ٣٧٣

« ١٥ ــ ما يتعلم فى السفينة ٣٧٧

« ١٦ ــ التربية بسفر البحر ٣٨٢

« ١٧ ــ طريقة صيد خنازير البحر ٣٨٤

« ١٨ ــ وصف ما يرى فى البحر من المشاهد الطبيعية ٣٨٥

« ١٩ ــ الأسماك الطيارة ، وصيد كلاب البحر ، والضوء الذى يرى فى المياه ليلا ... ٣٨٨

« ٢٠ ــ صيد السلاحف البحرية ٣٩١

« ٢١ ــ فخامة منظرى الشروق والغروب قرب خط الاستواء ٣٩٢

« ٢٢ ــ أفعال الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء ٣٩٢

		صفحة
الشذرة	٢٣ ـ سرعة تغير الإقليم بخط الاستواء والأعاصير المائية	٢٩٣
«	٢٤ ـ تبادل السفن صنائع المعروف	٢٩٤
«	٢٥ ـ موت ملاح والاحتفال بجنازته فى السفينة وحقيقة سبب تأثر الأطفال بفاجعة الموت	٢٩٤
«	٢٦ ـ أقاليم البلاد فصول ثابتة وفصول السنة أقاليم مرتحلة	٤٠٠
«	٢٧ ـ وصف بعض طيور بوغاز ماجلان وصيد نوع منها	٤٠١
«	٢٨ ـ الزوابع فى رأس القرن	٤٠٢
«	٢٩ ـ الشجاعة فى الملاحين والجنود وكونها كسبية وشجاعة النساء المحمودة	٤٠٢
«	٣٠ ـ مرح « لولا » فى السفينة بعد زوال الخطر	٤٠٧
«	٣١ ـ وصف جزر فرناندز التى كتبت عن احداها قصة روبنسن كروزو المشهورة ...	٤٠٧
«	٣٢ ـ وصف خليج قلاو وذكر نوع من الطير هناك	٤٠٩
«	٣٣ ـ فوائد العقبات...	٤١٠
«	٣٤ ـ التربية بالمعاينة	٤١١
«	٣٥ ـ أخلاق أهل ليمة وأحوالهم وأهل بيت « لولا »	٤١٥
«	٣٦ ـ فوائد الشدائد وبذل النفس للمحبوب أول الحب	٤١٨
«	٣٧ ـ الآثار والمدن المجهولة فى البيرو والموازنة بين الأعمال والقوى	٤٢٢
«	٣٨ ـ التربية بالتأثيرات الطبعية...	٤٢٦
«	٣٩ ـ فخامة مشهد الجبال	٤٢٩
«	٤٠ ـ انتهاء قضية « لولا » والعودة الى أوربة...	٤٣٠
«	٤١ ـ بيان ما عاد على « أميل » من الفوائد فى هذا السفر...	٤٣١

صفحة

الكتاب الرابع — في تربية الشاب

الرسالة ١ — مدارس ألمانية — معيشة إميل ووصف نادى الطلبة ومحاوراتهم ، وتهافتهم على خدمة الحكومة وتعلمه اللغة الألمانية وذكره «لولا» واستيحاشه من غربته ٤٣٣

« ٢ — فراق الولد لوالديه سنة فطرية — العلم فى ألمانية — نقد الطالب ما يقرؤه من أفكار غيره — القصد فى علوم المعقولات — نفع الأمة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة — اختيار الشاب العمل الذى يشتغل به بعد — لا حرية لأمة يتكالب شبانها على تولى أعمال الحكومة — التحذير من الملحدين — لاقيمة للرأى العام إلا إذا كانت الحكومة شورى — خدمة الأمة لذاتها لا للجزاء . ٤٤٠

« ٣ — عشق «إميل» قينة ممثلة ومكاشفة أمه بذلك ٤٥٠

« ٤ — شأن الوالدين مع الولد العاشق وتلطف الأم فى نصحه ٤٥٧

« ٥ — المدارس الجامعة فى ألمانية ٤٦١

« ٦ — التربية الدينية والحكمية ٤٦٥

« ٧ — بدء العشق وغرور العاشق ٤٧٥

« ٨ — حقيقة الحب وعاقبته بعد زواله ٤٧٩

« ٩ — الاستقلال فى العلم وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية — الاعتماد على العقل دون الخطابة — حب الوطن ٤٨٣

« ١٠ — يجب أن يكون للشاب المتعلم رأى فى سياسة بلاده ٤٨٧

« ١١ — خاتمة الكتاب — يجب إنشاء الأولاد بالتربية أحرارا لتصلح البلاد ويستأصل منها الشر والفساد وفيها الاحتفال ببلوغ إميل ٢١ سنة والعقد له على لولا وسفر أهله به الى وطنهم فرنسة ٤٩٧

كلمة المترجم الختامية للطبعة الثالثة ٤٩٩

مقدمة المترجم للطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله «الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة، ونبي الرحمة، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأتم له من مكارم الأخلاق وجلائل الشيم نصيبه، فصارت سيرته المحمودة أكمل مثال للمربين، وأفضل هدي للمرشدين، وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين.

أما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه في الإنسان أن يخلق عاجزاً، جاهلاً محتاجاً إلى الكافل الذي يحوطه برعايته، ويقيمه على الصراط السوي في معيشته. ثم يتدرج في القدرة والعلم حتى يبلغ ما أعدّ له من الكمال الحسي والمعنوي بحسب استعداده، وعلى مقدار عناية قيّمه بتربيته.

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتاً عظيماً في القدرة والعجز والعلم والجهل، وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعاً لا يحده وصف، ولا يشمله حصر، وتبع ذلك اختلاف الأمم بالترقي والتدلي والعزة والذلة.

فمن أمة عنيت بتربية أبنائها وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم وإنشائهم أحراراً عشاقاً للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون أنفسهم، فأشرقت في ربوعها شمس العلم، وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون،

فَاسْتَخْدَمَتْهَا فِي حَاجَاتِهَا وَحَاجَاتِ نُظَرَائِهَا ، وَاسْتَعَانَتْ بِهَا فِي تَحْسِينِ أَحْوَالِهَا وَتَرْفِيهِ مَعَايِشِهَا (١) .

لَانَ لَهَا الْحَدِيدُ عَلَى صَلَابَتِهِ وَشِدَّةِ بَأْسِهِ فَاتَّخَذَتْ مِنْهُ سِجْنًا حَصِينًا لِعَدُوَّيْنِ مُتَعَانِدَيْنِ هُمَا الْمَاءُ وَالنَّارُ ، فَكَانَ مِنْ كِفَاحِهِمَا (٢) فِيهِ أَنْ تَصَاعَدَتْ زَفَرَاتُ الْمَاءِ وَغَلَتْ مَرَاجِلُ (٣) غَيْظِهِ ، فَالْتَمَسَ الْخَلَاصَ ، فَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ طَارَ بِسِجْنِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِاسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْفَائِقَةِ فِي طَيِّ الْمَسَافَاتِ السَّحِيقَةِ ، وَتَقْرِيبِ الْأُمَمِ الْمُتَنَائِيَةِ ، وَكَسْرِ نَخْوَةِ (٤) الْبِحَارِ وَالتَّخْفِيضِ مِنْ غُلَوَائِهَا (٥) ، بِامْتِطَاءِ ظُهُورِهَا وَشَقِّ أَحْشَائِهَا ، وَالْأَخْذِ بِشَكَائِمِهَا (٦) . نَعَمْ وَفِي تَحْرِيكِ دَوَالِيبِ الصِّنَاعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ تَحْرِيكًا خَفَّفَ مِنْ أَوْصَابِ الصُّنَّاعِ وَمَتَاعِبِ الْعُمَّالِ ، وَغَمَرَ أَسْوَاقَ التِّجَارَةِ بِضُرُوبِ الْمَصْنُوعَاتِ الْبَدِيعَةِ فَأَصْبَحَ الْفَقِيرُ شَرِيكًا لِلْغَنِيِّ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْرُومًا مِنْهَا ، وَاتَّخَذَتْ لَهَا مِنَ الْحَدِيدِ أَيْضًا قَذَّافَاتٍ لِلْمَوْتِ ، جَلَّابَاتٍ لِلدَّمَارِ وَالْخَرَابِ ، لَا تَرُدُّهَا شَجَاعَةُ الشُّجْعَانِ . وَلَا تُغْنِي مِنْهَا مُصَاوَلَةُ الْفُرْسَانِ . فَمَلَّكَتْهَا نَوَاصِيَ الْأَعِزَّاءِ . وَبَسَطَتْ لَهَا السُّلْطَانَ فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ .

---

(١) رفه العيش : ألانه وأخصبه وأرغده .

(٢) الكفاح : في الأصل مواجهة العدو في الحرب ومضاربته والمراد به هنا المغالبة .

(٣) المراجل : جمع مرجل ، وهو القدر .

(٤) النخوة : العظمة .

(٥) الغلواء : الغلو والنشاط .

(٦) الشكيمة : هي الأنفة وتطلق أيضا على الحديدة المعترضة في فم الفرس وكل هذه الألفاظ يراد منها معانيها المجازية التي تتلخص في التسلط على البحار بقوة البخار .

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القوى الكونية، التي طالما مر عليها من غبروا من أجيال البشر وهم عنها معرضون، فحدست[1] أن فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى، وأنها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار، فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها، وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها، حتى اهتدوا إلى ينابيعها، وجمعوا شتاتها بعد أن كانت شعاعاً هملاً، وحصروها في سبل ضيقة لا قبل لها بتعديها، ثم ألقوا مقاليدها إلى الأمة فكان من تصريفها في مرافق الإنسان ومنافعه ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة إمكان عقل المخلوق: رعدة تحيل الماء هواء! وتقلب الليل نهاراً! ونبض أقرب من لمح البصر، يصير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين في مطارح الغربة، تستنجز بها الأمور وتقضى بها المآرب! وطوراً يكون مخاطبة شفوية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما يكون بينهما من بعد الشقة! وكرة يدفع جاريات تطير طيراناً على سطح الأرض مقلة ما شاءت أن تقل من الناس والمتاع! ومرة يزجي في جو السماء طيارات تسمو في علوها على السحاب، وتسخر بسرعة طيرانها بالعقاب، سقط بها اعتبار الزمان وزال الاكتراث بترامي البلدان.

ولو رحت أعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع في الأمم الراقية لاحتجت في تفصيل ذلك إلى مجلدات فأجتزئ عنه بما لمحت إليه تلميحاً.

وأمة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها، فلازمت حالتها الفطرية، ومعيشتها الوحشية، فكان ذلك مدعاة إلى وقوف نمو العقل

(١) حدست: خمنت.

فى أبنائها، وانمحاء ما فيهم من ضروب الاستعداد، وكان مصيرها خسران وجودها الذاتى وفناءها فى غيرها من الأمم الحية .

وأمة ثالثة خلقت مستعدة للرقى، وسارت فى سبيله شوطا بعيدا، بما نشأت عليه من الحرية، وارتاضت به من أصول التربية الدينية الصحيحة، فنالت فى الزمن اليسير من العزة والمجد وبسطة السلطان ما لم ينله غيرها من الأمم فى الزمن الطويل .

رباها مرشدها الأكبر بسيرته السنية على حب العدل، والإيفاء بالعهود وإنفاق الأموال فى وجوه الخير، والتآخى فى نصرة الحق، والترفع عن سفساف[1] الأمور، وأوجب طلب العلم من المهد إلى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علما بعينه، فنبغ فيها رجال لم تسمح الأيام بنظرائهم وأن تلد الوالدات أمثالهم — منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يعهدها التاريخ فى غيرهم من السواس، حرموا أنفسهم فيها من ملاذ العيش، وصبروها على مصلحة الناس، وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة — ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا أكبر دول الأرض لعهدهم، مع تمام العدل فى معاملة المغلوبين، وبذل الأمان للمستأمنين — ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم فى طلب الحقائق، فلم يدعوا بابا من أبواب العلم إلا دخلوه، على ما كانوا يلاقونه فى ذلك من صعوبة التحصيل، لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم، يشهد لهم بذلك

(١) السفساف من كل شىء الردىء .

مَا خَلَّفُوهُ مِنْ آثَارِهِمِ الَّتِي تَزْدَانُ بِهَا دُورُ الْكُتُبِ فِي مُعْظَمِ الْبُلْدَانِ — وَمِنْهُمْ مَهَرَةُ الصُّنَّاعِ الَّذِينَ أَقَامُوا مِنْ مَعَالِمِ الْحَضَارَةِ مَا يَحْكُمُ لَهُمْ بِالتَّبْرِيزِ(١) عَلَى مُنَاسِبِيهِمْ، وَيُوجِبُ لإِخْوَانِهِمْ حَقَّ الْمُفَاخَرَةِ بِهِمْ .

وَآأَسَفِي عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ! أَسَفٌ يَبْخَعُ(٢) النَّفْسَ أَسًى ، وَيُذِيبُ الْقَلْبَ حَسْرَةً، مَا لَبِثَتْ أَنْ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا، وَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ رَبِّهَا ، فَوَجَدَ(٣) عَلَيْهَا الزَّمَانُ، وَانْتَابَتْهَا(٤) نَوَائِبُ الْحِدْثَانِ(٥) ، طَالَ عَلَيْهَا أَمَدُ هِدَايَةِ الدِّينِ، وَبَعُدَ عَنْهَا عَهْدُ الْمُرْشِدِينَ، فَقَسَتِ الْقُلُوبُ ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ ، وَاسْتَحْكَمَتْ عِلَّةُ التَّرَفِ مِنَ النُّفُوسِ، فَمَلَكَهَا الطَّمَعُ، وَتَوَلَّاهَا الْحَسَدُ، وَمُنِيَتْ بِالْحُكَّامِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَالْأُمَرَاءِ الْغَاشِمِينَ، فَمَزَّقُوا وَحْدَتَهَا ، وَمَلَكُوا عَلَيْهَا أَمْرَهَا، وَصَرَّفُوهَا فِيمَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَاسْتَحَالَتْ حُرِّيَّتُهَا رِقًّا، وَانْقَلَبَ عِزُّهَا ذُلًّا، وَعَدْلُهَا ظُلْمًا، وَأُنْسُهَا بِالْعِلْمِ وَحْشَةً .

لَمْ يَغِبْ سُوءُ حَالِهَا عَمَّنْ يُجَاوِرُونَهَا مِنَ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ، بَلْ كَانُوا يُرَاقِبُونَهَا مُرَاقَبَةَ الصَّائِدِ الَّذِي يَتَحَيَّنُ الْفُرَصَ لِصَيْدِهِ، وَمَا عَتَّمُوا(٦) أَنْ نَاصَبُوهَا الْعَدَاوَةَ وَكَادُوا لَهَا الْمَكَايِدَ، فَوَقَعَ مُعْظَمُ بِلَادِهَا فِي قَبْضَتِهِمْ، وَتَغَلْغَلُوا فِي أَحْشَائِهَا، وَأَصْبَحُوا لَهَا حُكَّامًا يُدِيرُونَ شُؤُونَهَا عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ مَصَالِحُ بِلَادِهِمْ، وَفَتَحُوا عَلَيْهَا أَبْوَابًا مِنَ التَّرَفِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ أَلْهَتْهَا عَنِ الشُّعُورِ بِأَلَمِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَصَرَفَتْهَا عَنِ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِهَا الْقَوْمِيَّةِ .

(١) التبريز : التفوق والسبق . (٢) يبخع : يهلك . (٣) وجد عليها : غضب .
(٤) انتابتها : أصابتها مرة بعد أخرى . (٥) الحدثان بكسر الحاء وسكون الدال و يصح فتحهما جميعا : نوائب الدهر ومصائبه . (٦) ما عتموا : ما تأخروا .

لَمْ يُصبها كُلّ ذلِكَ إلاّ مِنْ عَدَمِ مُحافَظَتِها على حُرِّيَّتِهـا ، بإغفالِها التَّرْبِيَـةَ الصَّحِيحَةَ وَهَجْرِهَا الْعِلْمَ النَّافِـعَ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ شَأْنَ التَّرْبِيَةِ فِي رَفْعِ الأُمَمِ وَخَفْضِها ، كَانَ حَقًّا عَلَى الْعُقَلاءِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ أَنْ يُعْنَوا بِهَا وَيُفَكِّرُوا فِي الْوُصُولِ إِلَيْهَا مِنْ أَقْوَمِ طُرُقِهَا ، وَيُبَيِّنُوا أُصُولَهَا ، وَيُدَوِّنُوا فِيهَا الْكُتُبَ النَّافِعَـةَ وَيَحُثُّوا قَوْمَهُمْ عَلَى الأَخْذِ بِمَـا فِيهَا ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ عُهْدَةِ هَـذَا الْحَقِّ عُلَمَـاءُ الأُمَمِ الْحَيَّةِ فِي أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ ، فَوَضَعُوا مِنْ قَوَاعِدِهَا مَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا فِي أَقْوَامِهِمْ ، وَأَكْسَبَتْهُـمْ حُسْنَ الذِّكْرِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَغَفَلَ عَنْ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنْ خَوَاصِّ الأُمَمِ ، الَّتِي تَتَنَازَعُهَا الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ لِغَلَبَةِ الْقُنُوطِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُوجَدْ لَدَيْهَا مِنَ الْكُتُبِ الْحَدِيثَةِ فِي مَوْضُوعِ التَّرْبِيَةِ إِلَّا بَعْضُ رَسَائِلَ لَا غَنَاءَ بِهَـا فِيهِ .

كَانَ الأُسْـتَاذُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْـدُهُ طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُ بَرًّا بِقَوْمِهِ غَيُورًا عَلَى حَيَاتِهِمْ ، حَرِيصًا عَلَى إِيقَاظِهِمْ مِنْ سُـبَاتِ الْجَهْلِ ، وَإِنْهَاضِهِمْ مِنْ حَضِيضِ الذُّلِّ ، فَكَانَ دَائِمَ التَّصَفُّحِ لِمَـا كَتَبَهُ الأُورُبِّيُّونَ وَالأَمْرِيكِيُّونَ فِي التَّرْبِيَةِ وَالْحِكْمَةِ ، وَكَانَ مِنْ كَثْرَةِ اهْتِمَامِهِ بِالتَّرْبِيَةِ أَنْ تَرْجَمَ فِيهَا كِتَابًا مُفِيدًا لِلْحَكِيمِ الإِنْجِلِيزِيِّ "هِرْبِرْتَ سِبِنْسَر" . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّسِعْ وَقْتُهُ لِتَصْحِيحِهِ وَتَهْـذِيبِ تَرْجَمَتِهِ وَنَشْرِهِ فَبَقِيَ كَمَا هُوَ ، وَقَدْ وَقَعَ لَهُ كِتَابٌ آخَرُ فِيهَـا عَظِيمُ النَّفْعِ لِمُؤَلِّفٍ فَرَنْسِيٍّ اسْمُهُ (أَلْفُونْس أَسْكِيرُوس) فَأَعْجَبَ بِمَـا فِيهِ مِنَ الأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَانِي الشَّائِقَـةِ . فَعَهِدَ إِلَيَّ بِتَرْجَمَتِـهِ وَنَشْرِهِ فِي مَجَلَّةِ الْمَنَارِ الْمُفِيدَةِ ، فَوُفِّقْتُ لِلإِيفَاءِ بِعَهْدِهِ مُسَاعَدَةً لَهُ عَلَى مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ مِنْ

خدمة المصلحة العامة، وقياماً ببعض المفروض على منها، فالكتاب إذا أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده، ويد من أياديه الكثيرة عند قومه التي شكرها له منهم الشاكرون، وعرف له بها فضله العارفون، أجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده وغمره برحمته وإحسانه على مجاهدته في إعلاء شأن أمته.

هذا الكتاب الذي أتقدم بترجمته لقراء العربية يرمي مؤلفه إلى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حراً مستقلاً تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد. ومن أصوله في التربية أن لا تحشر إليه قواعد العلم حشراً ويرغم على حفظها، بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية، بأن يخلي بينه وبين ما حوله من الأشياء والحوادث ويلفت ذهنه إليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها إليه من العلوم.

تمكن هذا الأصل من نفس المؤلف تمكناً حمله على أن يبعد في تأليفه عن أساليب الكتب التعليمية المعهودة: وضعه على أسلوب يقرب من أسلوب القصص ليكون أشهى للنفوس، وأنفى للملل عن القلوب، تخيل زوجين سمى أحدهما إراسم والثاني هيلانة، منيا بالفراق لأول عهدهما بالاقتران، لاتهام الزوج بجريمة سياسية سجن من أجلها، ولم يلبثا بعد افتراقهما أن أحست الزوجة بالحمل فجرت بينهما رسائل في موضوعات شتى أدمجت فيها أصول التربية الصحيحة إدماجاً. وسنحت للزوج أثناء سجنه سوانح أفكار، ومرت بذهنه شوارد خواطر، كان يقيدها في جريدته اليومية، فاجتمع للمؤلف من الرسائل

وَالصُّحُفِ وَالشَّذَرَاتِ الْمُقْتَطَفَةِ مِنْ جَرِيدَةِ الزَّوْجِ هَذَا السِّفْرُ الَّذِي وَسَمَهُ (بإميل القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ) وَقَسَّمَهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ سَمَّى كُلًّا مِنْهَا كِتَابًا ، أَوَّلُهَا فِي الْأُمِّ وَثَانِيهَا فِي الطِّفْلِ وَثَالِثُهَا فِي الْيَافِعِ وَرَابِعُهَا فِي الشَّابِّ .

فَأَمَّا كِتَابُ الْأُمِّ فَمَسَائِلُهُ هِيَ : — مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مُرَاعَاتُهُ فِي طَوْرِ الْحَمْلِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِصِحَّتِهَا وَتَوْفِيرِ عَافِيَتِهَا ، وَمُلَازَمَةِ السَّكِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يُثِيرُ انْفِعَالَاتِهَا ، وَتَرْوِيحِ نَفْسِهَا بِالْمَنَاظِرِ الْبَدِيعَةِ وَالْمَشَاهِدِ الرَّائِعَةِ ، وَبَيَانُ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْأُولَى مِنْ شُؤُونِ الْأُمِّ خَاصَّةً — وَمَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنَ الْعِلْمِ بِتَدْبِيرِ صِحَّةِ الْمَوْلُودِ بَعْدَ الْوَضْعِ ، وَإِرْضَاعِهِ بِنَفْسِهَا ، وَتَعْوِيدِهِ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ الِاسْتِقْلَالَ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ — وَوَصْفُ مَا لِلنِّسَاءِ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى الْفَرَنْسِيَّاتِ فِي ذَلِكَ — وَانْتِقَادُ طَرِيقَةِ التَّرْبِيَةِ الْأُولَى فِي فَرَنْسَةَ ، وَانْتِقَادُ أَخْلَاقِ الْإِنْجِلِيزِ وَخُضُوعِهِمْ لِتَقَالِيدِ أَسْلَافِهِمْ .

وَأَمَّا كِتَابُ الْوَلَدِ فَمَسَائِلُهُ هِيَ : — تَعْرِيفُ التَّرْبِيَةِ وَبَيَانُ الصُّعُوبَةِ فِي تَحْدِيدِ زَمَنَيْ بِدَايَتِهَا وَنِهَايَتِهَا ، وَبَيَانُ عَمَلِ الْأُمِّ فِي الشُّهُورِ الْأُولَى مِنْ حَيَاةِ الطِّفْلِ ، وَانْتِقَادُ مَا يَفْعَلُهُ الْأُمَّهَاتُ بِأَطْفَالِهِنَّ فِي هَذِهِ السِّنِّ ، وَبَيَانُ أَنَّ أَوَّلَ عُلُومِ الطِّفْلِ تَأْتِيهِ مِنْ طُرُقِ الْحَوَاسِّ ، وَطَرِيقَةُ تَرْبِيَةِ الْحَوَاسِّ ، وَتَأْثِيرُ الْمَدَنِيَّةِ فِي قُوَى الْحَوَاسِّ ، وَعَمَلُ الْأُمِّ فِي تَمْرِينِهَا ، وَوُجُوبُ تَعَرُّفِ طِبَاعِ الطِّفْلِ ، وَبَيَانُ إِهْمَالِ الْمُرَبِّينَ لِهَذَا الْوَاجِبِ وَمَا يَلْزَمُ اتِّبَاعُهُ فِي سِيَاسَةِ الطِّفْلِ ، وَوُجُوبُ لَفْتِهِ إِلَى الْمَحْسُوسَاتِ ، وَتَدْرِيبِهِ عَلَى وِقَايَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَبَيَانُ خَطَإِ الْوَالِدَيْنِ فِي حِرْصِهِمَا عَلَى إِنْشَاءِ

أَوْلَادِهِمَا عَلَى مِثَالِهِمَا فِى الطِّبَاعِ وَالْأَذْوَاقِ ، وَكَوْنِ هَذَا هُوَ السَّبَبَ فِى نُدْرَةِ الرِّجَالِ الْمُسْتَقِلِّينَ اسْتِقْلَالًا حَقِيقِيًّا ، وَبَيَانُ مَاهِيَّةِ الطَّبْعِ . وَهَلِ الْإِرَادَةُ خِلْقِيَّةٌ أَوْ كَسْبِيَّةٌ .

وَبَيَانُ أَنَّ مَا يُبْدِيهِ الطِّفْلُ فِى حَالِ غَضَبِهِ أَوْ تَأَلُّمِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ لِشِفَاءِ مَا بِهِ ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ فِى حَمْلِهِ عَلَى الْكَفِّ عَنْهَا أَخْذُهُ بِالتَّسْلِيَةِ وَالتَّلْهِيَةِ لَا بِالتَّسَلُّطِ وَالْقَهْرِ ، وَوُجُوبُ مُقَاوَمَةِ التَّرْبِيَةِ لِأَهْوَاءِ الطِّفْلِ الْفَاسِدَةِ وَذَلِكَ بِطَرِيقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا إِلْهَاؤُهُ عَنْهَا ، وَالثَّانِيَةُ جَعْلُهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْبَوَاعِثِ الْمُثِيرَةِ لَهَا ، وَضَرُورَةُ اسْتِعْمَالِ السُّلْطَةِ فِى سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ ، وَوُجُوبُ التَّعْجِيلِ بِالْكَفِّ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا مَتَى تَيَسَّرَ ذَلِكَ .

وَبَيَانُ ضَرَرِ قَهْرِ الطِّفْلِ عَلَى الِامْتِثَالِ ، وَوُجُوبُ اجْتِنَابِ تَخْوِيفِهِ بِالْعُقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْخَوْضِ مَعَهُ فِى الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ ، وَوُجُوبُ تَرْكِهَا لَهُ لِيَنْظُرَ فِيهَا مَتَى كَبِرَ بِفِكْرٍ خَالٍ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ ، وَبَيَانُ عَدَمِ الْفَائِدَةِ فِى أُصُولِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ لِلْأَطْفَالِ ، وَقِلَّةِ جَدْوَى الْقُدْوَةِ ، وَمُطَالَعَةِ قِصَصِ الْحَيَوَانَاتِ لَهُمْ ، وَضَرُورَةِ اسْتِقْلَالِ طَبْعِ الطِّفْلِ ، وَتَعَلُّمِهِ سِيَرَ الْحَيَوَانَاتِ بِنَفْسِهِ .

وَبَيَانُ الطَّرِيقِ إِلَى تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِرِ الْبَاطِنَةِ ، وَبَيَانُ أَنَّ فِى التَّبْكِيرِ بِإِلْقَاءِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ عَلَى الْأَطْفَالِ حَطًّا مِنْ كَرَامَتِهَا ، وَكَيْفِيَّةِ تَفَاهُمِ الْأُمِّ مَعَ ابْنِهَا بِالْأَصْوَاتِ ، وَرُبَّمَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ أَصْلَ اللُّغَاتِ ، وَوُجُوبُ اسْتِعْدَادِ الْأُمِّ لِلتَّرْبِيَةِ بِالتَّعَلُّمِ ، وَتَفَكُّرُ الْأَطْفَالِ ، وَأَصْلُ اللُّغَاتِ وَتَعْلِيمُهَا لَهُمْ ، وَسُوءُ طَرِيقَةِ الْمُرَبِّينَ فِى ذَلِكَ ، وَأَنَّ التَّفَكُّرَ مِمَّا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ ، وَخَطَأُ الْمُرَبِّينَ فِى عِنَايَتِهِمْ

بِالْأَلْفَاظِ دُونَ الْمَعَانِي ، وَتَعْوِيدُ الْأَطْفَالِ النَّظَرَ وَالْمُلَاحَظَةَ لِيَتَمَرَّنُوا عَلَى التَّفَكُّرِ ، وَبَيَانُ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصِّبْيَانِيَّةَ لَيْسَتْ بَاطِلَةً بِرُمَّتِهَا بَلْ مِنْهَا مَا يَكُونُ مُفِيدًا ، وَأُنْسُ الطِّفْلِ بِالْحَيَوَانَاتِ وَأُنْسُهَا بِهِ ، وَتَعْلِيلُ انْقِطَاعِ تَأَنُّسِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوَحِّشَةِ بِزَوَالِ سَذَاجَةِ الْإِنْسَانِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعُوهَا إِلَى الثِّقَةِ بِهِ ، وَتَأْثِيرُ الْجَمَالِ فِي الْأَطْفَالِ ، وَاحْتِيَاجُهُمْ إِلَى كَثْرَةِ التَّعَلُّمِ ، وَتَعْلِيمُهُمُ الصِّدْقَ وَالْمُوَاسَاةَ وَالرَّحْمَةَ بِالْحَيَوَانِ وَالْعَدْلَ فِي الْمُعَامَلَةِ وَاحْتِرَامَ الزَّمَنِ بِالْعَمَلِ وَالْمُمَارَسَةِ دُونَ الْحِفْظِ وَالتَّلَقِّي ، وَوُجُوبُ اعْتِرَافِ الْمُرَبِّي لِلطِّفْلِ بِجَهْلِ مَا يَجْهَلُهُ ، وَانْتِقَادُ الْمُرَبِّينَ فِي دَعْوَاهُمُ الْعِلْمَ بِكُلِّ شَيْءٍ أَمَامَ الْأَطْفَالِ ، وَانْتِقَادُ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، وَأَنَّ مِنْ شُرُوطِ التَّرْبِيَةِ أَنْ يَنْسَى الْمُرَبِّي مَا تَعَلَّمَهُ لِيَسْتَأْنِفَ تَعَلُّمَهُ مَعَ الطِّفْلِ ، وَوُجُوبُ التَّدَرُّجِ فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ لِلْأَطْفَالِ بِلَفْتِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مَا حَوْلَهُمْ ، وَانْتِقَادُ الْكُتُبِ التَّعْلِيمِيَّةِ ، وَفَوَائِدُ التَّصْوِيرِ وَالْمَعَارِضِ فِي التَّرْبِيَةِ ، وَالتَّرْبِيَةُ وَالتَّعْلِيمُ بِالْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ وَالتَّمْثِيلِ وَالْمَعَارِضِ ، وَتَعْلِيمُ الْأَطْفَالِ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ وَمَعْرِفَةَ جِهَاتِهَا بِالْعَمَلِ ، وَتَعْلِيمُهُمُ الصِّنَاعَةَ بِمَا يُشْتَرَى لَهُمْ مِنَ اللُّعَبِ ، وَتَرْبِيَةُ خَيَالِ الصَّغِيرِ بِالْقِصَصِ وَالْأَسَاطِيرِ ، وَتَعَلُّمُ الْقِرَاءَةِ وَالْخَطِّ وَالرَّسْمِ وَالتَّدَرُّجُ الْفِطْرِيُّ فِي تَعْلِيمِهَا ، وَأَنَّ الصِّحَّةَ فِي تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ ، وَتَرْبِيَةُ الْخَيَالِ وَالذَّاكِرَةِ بِمَحَاسِنِ الْغَبْرَاءِ ، وَتَعْلِيمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ بِتَمْثِيلِ الْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ ، وَسُرْعَةُ تَفَاهُمِ الْأَطْفَالِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْكَلِمِ ، وَتَعْلِيمُ السِّبَاحَةِ وَتَرْبِيَةُ الْعَضَلَاتِ .

<u>وَأَمَّا كِتَابُ الْيَافِعِ فَمَسَائِلُهُ هِيَ</u> : — حُبُّ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ ، وَتَعْلِيمُ الْمُسَمَّيَاتِ قَبْلَ الْأَسْمَاءِ ، وَتَرْبِيَةُ الذُّكُورِ مَعَ الْإِنَاثِ وَتَعْلِيمُهُمَا مَعًا ، وَالتَّعْلِيمُ بِضَرْبِ

الأَمْثَالِ، وَالْكَلَامُ عَلَى الخطِّ الدِّيوانِى، وَتَمْرِينُ الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الأَعْمَالِ المَادِيَّةِ الشَّاقَّةِ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ التَّرْبِيَةُ، وَآثَارُهَا إِذَا كَانَتْ كَمَا يَجِبُ ، وَتَجَلِّى الْعِلْمِ فِى الْعَمَلِ ، وَانْتِقَادُ تَعْلِيمِ اليَافِعِينَ الْيُونَانِيَّةَ وَاللَّاتِينِيَّةَ وَإِقْرَائِهِمْ كُتُبَهُمَا، وَالْكَلَامُ عَلَى التَّقْلِيدِ والذَّاكِرَةِ ، وَالْمُؤَلَّفَاتُ الْمُفِيدَةُ لِلنَّاشِئِينَ وَاخْتِيَارُهَا ، وَكَوْنُ السَّفَرِ مِنْ أَرْكَانِ التَّرْبِيَةِ، وَالتَّرْبِيَةُ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ وَمَا يُتَعَلَّمُ فِى السَّفِينَةِ ، وَشَجَاعَةُ النِّسَاءِ الْمَحْمُودَةُ ، وَالتَّرْبِيَةُ بِالْمُعَانَيَةِ ، وَفَوَائِدُ الشَّدَائِدِ، وَكَوْنُ بَذْلِ النَّفْسِ لِلْمَحْبُوبِ أَوَّلَ الْحُبِّ ،وَوُجُوبُ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْقُوَى وَالْأَعْمَالِ، وَالتَّرْبِيَةُ بِضُرُوبِ التَّأْثِيرِ الطَّبِعِيِّ .

* * *

وَأَمَّا كِتَابُ الشَّابِّ فَمَسَائِلُهُ هِيَ : — انْتِقَادُ حَالِ الطَّلَبَةِ فِى الْمَانِيَةَ ، وَبَيَانُ حَالِ الْعِلْمِ فِيهَا، وَوُجُوبُ نَقْدِ الطَّالِبِ مَا يَقْرَؤُهُ مِنْ أَفْكَارِ غَيْرِهِ، وَوُجُوبُ الْقَصْدِ فِى الْإِشْتِغَالِ بِعُلُومِ الْمَعْقُولَاتِ ، وَأَنَّ نَفْعَ الْأُمَّةِ يَحْصُلُ بِالْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ، وَوُجُوبُ اخْتِيَارِ الطَّالِبِ لِلْعَمَلِ الَّذِى يَشْتَغِلُ بِهِ فِى حَيَاتِهِ ، وَأَنْ لَا حُرِّيَّةَ لِأُمَّةٍ يَتَكَالَبُ شُبَّانُهَا عَلَى تَوَلِّى أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ، وَأَنَّ الرَّأْىَ الْعَامَّ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ شُورَى، وَوُجُوبُ أَنْ تَكُونَ خِدْمَةُ الْمَرْءِ لِأُمَّتِهِ لَا لِلْجَزَاءِ ، وَالْكَلَامُ فِى الْحُبِّ وَابْتِدَائِهِ وَغُرُورِ الشُّبَّانِ بِالْمَعْشُوقَاتِ، وَوُجُوبُ عَدَمِ تَدَاخُلِ الْوَالِدَيْنِ مَعَ أَوْلَادِهِمَا فِى شُؤُونِ الْحُبِّ ، وَتَرْكُ الْفَصْلِ فِى تَمْحِيصِ صَحِيحِهِ مِنْ فَاسِدِهِ لِلتَّجْرِبَةِ، وَالْكَلَامُ عَلَى الْمَدْرَسَةِ الْجَامِعَةِ فِى أَلْمَانِيَةَ، وَالْإِسْتِقْلَالُ فِى الْعِلْمِ، وَحِكْمَةُ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَالْاجْتِمَاعِ وَالْمَدَنِيَّةِ، وَوُجُوبُ الاعْتِمَادِ عَلَى الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ

دُونَ الْخَطَابَةِ، وَحُبُّ الْوَطَنِ، وَوُجُوبُ أَنْ يَكُونَ لِلشَّابِّ الْمُتَعَلِّمِ رَأْيٌ فِي سِيَاسَةِ بِلَادِهِ، وَأَنَّ تَرْبِيَةَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ تَجْتَثُّ بِهَا جَرَاثِيمُ الشُّرُورِ الْمُخْزِنَةِ لِلْأُمَّةِ.

هَذِهِ هِيَ أَقْسَامُ الْكِتَابِ وَمَقَاصِدُهُ وَأُمَّهَاتُ مَسَائِلِهِ أَجْمَلْتُهَا لِلْقَارِئِ إِجْمَالًا حَتَّى إِذَا قَرَأَهَا حَرَّكَهُ الشَّوْقُ إِلَى اسْتِشْفَافِهَا (١) فِي مَوَاضِعِهَا مِنْهُ فَحَصَّلَ الْفَائِدَةَ الْمَقْصُودَةَ لِمُؤَلِّفِهِ وَمُتَرْجِمِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

لَمْ يَعْنَ الْمُؤَلِّفُ بِتَلْقِيبِ مَبَاحِثِ كِتَابِهِ فَاضْطُرِرْتُ إِلَى أَنْ أَضَعَ لَهَا أَلْقَابًا اسْتَنْبَطْتُهَا مِنْ سِيَاقِ كُلِّ مَبْحَثٍ وَشَارَكَنِي فِي وَضْعِهَا الْأُسْتَاذُ الْفَاضِلُ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا صَاحِبُ مَجَلَّةِ الْمَنَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ عِنْدَ نَشْرِ الْكِتَابِ فِي مَجَلَّتِهِ كَمَا أَنَّهُ حَفِظَهُ اللهُ كَانَ يُصَحِّحُ مَا كَانَ يَعْثُرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَغْلَاطِ وَأَنَا شَاكِرٌ لَهُ هَذَا الصَّنِيعَ.

حَرَصْتُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى عَدَمِ التَّصَرُّفِ فِي التَّرْجَمَةِ وُقُوفًا بِهَا عِنْدَ حَدِّ الْمَعَانِي الَّتِي قَصَدَ الْمُؤَلِّفُ أَنْ يَعْرِضَهَا عَلَى قَوْمِهِ، وَتَحَاشَيًا أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا بِالتَّوَسُّعِ مَا لَيْسَ مَقْصُودًا لَهُ، وَهَذَا هُوَ سَبَبُ مَا يَجِدُهُ الْقَارِئُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ عُجْمَةِ الْأُسْلُوبِ، وَلَمْ أَشِذَّ عَنْ هَذَا إِلَّا فِي تَغْيِيرِ لَفْظِ الطَّبِيعَةِ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ أَوِ الْفِطْرَةِ مُرَاعَاةً لِعُرْفِ التَّخَاطُبِ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ.

لِلْمُؤَلِّفِ رَأْيٌ فِي التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِالْمَكَانِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ، وَالْقَوْمِ الَّذِينَ نَشَأَ بَيْنَهُمْ لَا مَحَلَّ لِذِكْرِهَا هُنَا، فَلَا أَعِيبُهُ عَلَيْهِ وَلَا أُوَافِقُهُ فِيهِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ فِي مَطَاوِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَفِي مَوْضُوعَاتٍ أُخْرَى مَغَامِزَ تُبِينُ عَنْ

---

(١) استشف الشيء تبينه واستقصاه.

سُوءِ عَقِيدَتِهِ، وَذَلِكَ الرَّأْيُ هُوَ : أَنْ لَا يُتَكَلَّم مَعَ الصَّبِيِّ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ فِي صِغَرِهِ وَأَنْ يُتَرَبَّصَ بِهِ حَتَّى يَكْبَرَ وَيَدْرُسَ الْمَذَاهِبَ الدِّينِيَّةَ بِنَفْسِهِ، فَيَعْتَقِدَ مِنْهَا مَا يَشَاءُ. وَيَكْفِينِي هُنَا أَنْ أَقُولَ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ مَنْ يُشَايِعُونَهُ فِي رَأْيِهِ لَا يَبْلُغُونَ سِنَّ الشَّبَابِ حَتَّى تَحْتَوِشَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ (١) عَنِ النَّظَرِ فِي الدِّينِ، وَتَصْرِفَهُمْ شَهَوَاتُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ هَدْيِ النَّبِيِّينَ، فَيَنْبِذُوا الدِّينَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَيَفْشُو فِيهِمِ الْإِلْحَادُ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْهُ مِنَ الْإِبَاحَةِ وَالْفَسَادِ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ مَعْرُوفٌ.

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَمْثَلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ اتِّبَاعِ هَدْيِ الدِّينِ نَفْسِهِ وَمِنَ الْخَطَلِ فِي الرَّأْيِ أَنْ يُؤْخَذَ فِيهَا بِقَوْلِ غَيْرِ الْمُتَدَيِّنِ.

بَدَأْتُ بِتَرْجَمَةِ الْكِتَابِ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ ١٣١٧ هـ. الْمُوَافِقِ لِلْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ أُكْتُوبَرَ سَنَةَ ١٨٩٩ م وَفَرَغْتُ مِنْهَا فِي أَوَّلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ ١٣٢٤ هـ الْمُوَافِقِ لِلثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ يُولِيه سَنَةَ ١٩٠٦ م وَمَعْذِرَتِي فِي ذَلِكَ الْإِبْطَاءِ الْمُفْرِطِ أَنِّي إِنَّمَا اخْتَلَسْتُ السَّاعَاتِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي تَرْجَمَتِهِ اخْتِلَاسًا مِنْ أَوْقَاتِ فَرَاغِي مِنْ عَمَلِي الْقَضَائِيِّ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ كَثِيرَةً تَسَعُ أَضْعَافَ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ كَثِيرَ الضَّنِّ بِهَا عَلَى صَرْفِهَا فِيمَا يَنْفَعُ كَغَيْرِي مِنَ النَّاسِ فِي مِصْرَ.

كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ نَشْرَ الْكِتَابِ فِي الْمَنَارِ يَكْفِي فِي تَحْقِيقِ الِانْتِفَاعِ بِهِ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْإِخْوَانِ الَّذِينَ كَانُوا يُوَالُونَ مُطَالَعَةَ مَا كَانَ يُنْشَرُ مِنْهُ فِيهَا شَدِيدِي

(١) تحتوشهم : تحيط بهم وتستحوذ عليهم .

الْمَيْلِ إِلَى رُؤْيَتِـهِ مَطْبُوعًا عَلَى حِدَةٍ ، وَاتَّفَقَ لِي أَنْ زُرْتُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ الْوَزِيرَ الجَلِيلَ رِيَاض بَاشَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمَاضِي مَعَ الْأُسْتَاذِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ فَأَلْفَيْتُهُ مُعْجَبًا بِالتَّرْجَمَةِ أَشَدَّ الْإِعْجَابِ حَاثًّا عَلَى نَشْرِهَا مَجْمُوعَةً ، فَكَانَ كُلُّ هَذَا بَاعِثًا لِي عَلَى نَشْرِهِ الْآنَ جُمْـلَةً وَاحِدَةً تَعْمِيمًا لِفَائِدَتِهِ ، وَمُوَافَاةً لِرَغَائِبِ الْكَثِيرِينَ مِمَّنْ طَالَعُـوهُ مُنَجَّمًا .

وَجُلُّ مَا أَبْتَغِيهِ مِمَّنْ أُقَدِّمُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ إِخْوَانِي قُرَّاءِ الْعَرَبِيَّـةِ أَنْ لَا يَكُونَ حَظِّي عِنْـدَهُمْ مِنْ عَنَائِي فِي تَرْجَمَتِهِ اطِّرَاحَهُ وَإِغْفَالَهُ ، بَلْ أَرْجُو مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِقُـوَّةٍ وَيُقْبِلُوا عَلَى مُطَالَعَتِـهِ بِتَأَمُّلٍ ، لِيُقَارِنُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِنَا فِي الْعِنَايَةِ بِتَرْبِيَةِ النَّاشِـئِينَ وَيَعْلَمُوا أَيْنَ نَحْنُ مِنْ قَوْمٍ هَـذِهِ أَفْكَارُهُمْ فِيهَا ، حَتَّى إِذَا آلَمَهُمُ النَّقْصُ الْفَاضِحُ ، وَأَخْجَلَهُمُ التَّقْصِيرُ الْفَاحِشُ ، هَبُّوا إِلَى مُجَارَاةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ ، وَفَكَّرُوا طَوِيلًا فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ وَتَخَيَّرُوا عَنْ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، لَا عَنْ تَقْلِيدٍ مَحْضٍ ، أَكْمَلَ الطُّرُقِ لِإِنْشَائِهِمْ أَحْرَارًا جَامِعِينَ بَيْنَ مَلَكَاتِ الْعِلْمِ وَفَضَائِلِ الدِّينِ ، وَلَنْ يَتِمَّ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ وَالصَّبْرِ وَدَوَامِ الِاشْتِغَالِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ .

المترجم

عبد العزيز محمد

مقدمة المترجم للطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله أنْ أطْلَقَ لِسَانِى بِحَمْدِهِ عَلَى غَامِرِ إِحْسَانِهِ ، وَهَدَى جَنَانِى لِشُكْرِهِ عَلَى عَوَارِفِ فَضْلِهِ ، وَجَعَلَ حَمْدَهُ مَدْعَاةً لِفَيْضِ رَحْمَتِهِ ، وَشُكْرَهُ سَبَبًا لِزِيَادَةِ نِعَمِهِ ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، خَيْرِ مَنْ حَرَّرَ الْعُقُولَ مِنْ رِبْقَةِ الْجَهَالاَتِ وَطَهَّرَ النُّفُوسَ مِنْ لَوْثِ الْأَوْهَامِ . وَرَبَّى الْأَخْلاَقَ بِقَوِيمِ هَدْيِهِ الْإِلَهِىِّ . وَهَذَّبَ الطِّبَاعَ بِإِقَامَتِهَا عَلَى الصِّرَاطِ السَّوِىِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَئِمَّةِ الْمُرَبِّينَ . وَقَادَةِ الْمُرْشِدِينَ .

أَمَّا بَعْدُ فَلاَ شَىْءَ يَعْدِلُ اللَّذَّةَ الَّتِى يَجِدُهَا الْعَامِلُ إِذَا وَجَدَ عَمَلَهُ نَافِعًا مَقْبُولاً عِنْدَ قَوْمِهِ . تَحَقَّقَ صِدْقُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عِنْدَ نَشْرِ (كِتَابِ التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلاَلِيَّةِ) عَقِيبَ طَبْعِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فَإِنِّى وَجَدْتُ مِنْ إِقْبَالِ الْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيظِهِمْ لَهُ وَتَوَفُّرِهِمْ عَلَى مُطَالَعَتِهِ وَحَثِّ النَّاسِ عَلَى اقْتِنَائِهِ . مَا مَلَأَ قَلْبِى سُرُورًا وَغِبْطَةً . وَأَنْسَانِى مَا لاَقَيْتُهُ مِنَ الْعَنَاءِ فِى إِبْرَازِهِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ . وَزَادَنِى سُرُورًا أَنْ قَدَّرَتْهُ قَدْرَهُ نِظَارَةُ الْمَعَارِفِ الْجَلِيلَةُ فِى عَهْدِ صَاحِبِ السَّعَادَةِ الْعَالِمِ الْجَلِيلِ سَعْد بَاشَا زَغْلُول فَقَرَّرَتْ إِقْرَاءَهُ فِى بَعْضِ مَدَارِسِهَا الْعُلْيَا . وَتَفَضَّلَ صَاحِبُ السَّعَادَةِ أَحْمَدُ حِشْمَتُ بَاشَا نَاظِرُهَا الْحَالِى الشَّغِفُ بِحُبِّ الْعِلْمِ فَأَقَرَّ هَذَا الْقَرَارَ ، وَكَانَ مِنْ تَوَارُدِ طَلَبِ النَّاسِ لِنُسَخِ الْكِتَابِ أَنْ نَفِدَتْ جَمِيعُهَا ، وَهَذَا مَا دَعَانِى مَعَ نَاشِرِهِ بِالطَّبْعَةِ الاولَى إِلَى

إعادةَ طَبْعِهِ الآنَ، وهَا نحْنُ ذَانِ نُقَدِّمُ لقُرَّاءِ الْعَرَبِيَّةِ طَبْعَتَهُ الثَّانِيَةَ واللهَ أسْأَلُ أنْ يُدِيمَ النَّفْعَ بِهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ؞

المترجم

عبد العزيز محمد كامل

(تَنْبِيهٌ) مَنْ طَبَعَ هَـذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرْجِمِهِ يُحَاكَمُ وَيُجَازَى. وَمَنْ وُجِدَتْ بِيَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الأُولَى) غَيْرَ مَخْتُومَةٍ بِخَتْمِ الْمُتَرْجِمِ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

أَسْرَارِ حِكْمَتِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي أَرْسَلَ ﴿ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ سَيِّدِ الْهُدَاةِ الْمُرْشِدِينَ، وَإِمَامِ الْمُرَبِّينَ الْمُصْلِحِينَ، الَّذِي أَخْرَجَ النَّاسَ، بِوَاضِحِ هَدْيِهِ وَعَظِيمِ خُلُقِهِ، مِنْ غَمَرَاتِ الْجَهَالَاتِ وَمَتَاهَاتِ الضَّلَالَاتِ، إِلَى نُورِ الْعِرْفَانِ وَمَنَاهِجِ الْهُدَى، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنِ اتَّبَعَ هَدْيَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا تَلَوْتَهُ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا وَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُوَرِهِ الْكَرِيمَةِ، وَمِنْ مُعَايَنَتِكَ وَاخْتِبَارِكَ، أَنَّ الْإِنْسَانَ، مَعَ كَوْنِهِ أَشْرَفَ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَأَكْبَرَ مَا دَبَّ عَلَى ظَهْرِهَا، وَآثَرَهُمْ بِالسُّؤْدَدِ وَالسُّلْطَانِ فِيهَا، وَأَحَقَّهُمْ بِعِمَارَتِهَا وَتَسْخِيرِ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِهَا وَنَبَاتَاتِهَا وَمَعَادِنِهَا فِي مَرَافِقِهِ، وَتَصْرِيفِهَا فِي مَصَالِحِهِ، قَدْ خُلِقَ ضَعِيفًا فِي جِسْمِهِ وَعَقْلِهِ، نَاقِصًا فِي إِدْرَاكِهِ وَفِطْنَتِهِ، لَا يُؤْتَى الْكَمَالَ دَفْعَةً وَلَا يَبْلُغُهُ طَفْرَةً، وَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهِ رُوَيْدًا بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ، وَالتَّمْرِينِ وَالتَّهْذِيبِ، وَهَذَا الْكَمَالُ فِيهِ نِسْبِيٌّ، تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ بِتَفَاوُتِ دَرَجَاتِ اسْتِعْدَادِهِ، فَالْكَمَالُ الْمُطْلَقُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ مِنْ نَشْأَتِهِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ قَدْ فُرِضَ عَلَيْهِ، بِخِطَابِ رَبِّهِ وَبِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِ، أَنْ يَسْعَى وَيَكْدَحَ لِتَقْوِيَةِ مَلَكَاتِهِ، وَتَحْصِيلِ مَعْنَى الْكَمَالِ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لَهُ، وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ يَدْعُوهُ إِلَى الْاعْتِبَارِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، فَمَنْ قَصَّرَ فِي أَدَاءِ هَذَا الْفَرْضِ، وَقَنِعَ مِنْ حَيَاتِهِ بِالْمَعِيشَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ فَقَدْ سَفِهَ(١) نَفْسَهُ، وَأَنْزَلَهَا فِي دَرَكَاتِ الْهُونِ، وَرَضِيَ لَهَا بِالدُّونِ .

---

(١) سفه نفسه استهنها وأذلها واستخف بها .

مقدمة المترجم للطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أحسن الخالقين، وتبارك الله رب العالمين، ﴿الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾ فدل سبحانه بذلك على ما له من أكمل قدرة وأعظم رحمة وأبلغ حكمة، وأية قدرة أكمل من أن يجعل من الطين خلقا سويا مسبحا بحمده أو جاحدا لفضله، وأية رحمة أعظم من أن يتولى هذا الخلق العاجز الضعيف من بدايته فى ظلمات الرحم، إلى نهايته فى غيابة العدم، بصنوف عطفه وإحسانه وضروب عوارفه وبره، على قلة شكره وتماديه فى جحوده وخصامه وكفره، وأية حكمة أبلغ من أن يتدرج به فى خلقه هذا التدرج العجيب، فيستنبطه من الطين اللازب(١)، ويحيله ماء دافقا ﴿يخرج من بين الصلب(٢) والترائب(٣)﴾ فيقذفه فى قرارة الرحم المكين، ليمتزج فيه بمثله، فيصيره علقة ثم يقلب العلقة مضغة، ثم يقلب المضغة عظاما، ثم يكسو العظام لحما، ثم ينفخ فيه من روحه لينمو وتشتد أركانه، ثم يخلق له السمع والبصر والفؤاد، ليسمع ويبصر ويعقل ما يتلقاه من خطابه، وما يحيط به من آيات عظمته، ويهتدى بهذه الآلات فى الطريق الذى قدر له أن يسلكه لبلوغ غايته، ثم أرسل إليه من خلقه المصطفين الأخيار ليكملوا بهديهم نقصها، ويقوموا ما اعوج من زيغها، فسبحانه من إله تولهت العقول فى جلال عظمته، وتحيرت الألباب فى اكتناه

(١) لازب : يلزق باليد لشدته . (٢) الصلب : الظهر . (٣) الترائب : جمع تريبة وهى ما بين الترقوة الى الثندوة وهى حلمة الثدى .

مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا وَاجِبًا وَحَتْمًا لَازِبًا، عَلَى كُلِّ ذِى عَقْلٍ سَلِيمٍ، أَنْ يَتَعَاهَدَ نَفْسَهُ بِتَرْبِيَتِهَا، وَتَقْوِيمِ أَخْلَاقِهَا وَتَنْمِيَةِ مَلَكَاتِهَا، وَأَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِمَنْ يَعْنِيهِ أَمْرُهُمْ مِنْ أَهْلِهِ وَأَبْنَاءِ وَطَنِهِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَلَا يَتَأَتَّى لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ مَا أُوتِىَ مِنْ وَسَائِلِ الْإِدْرَاكِ، وَهِىَ حَوَاسُّهُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا يُرْشِدُهُ إِلَيْهِ عَقْلُهُ مِنْ نَتَائِجِ التَّفَكُّرِ فِى مَدْلُولَاتِهَا، وَالرُّجُوعِ إِلَى هَدْىِ النَّبِيِّينَ وَوَحْىِ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، لِخُرُوجِهِ عَنْ مُتَنَاوَلِهِ، ضَنًّا بِنَفْسِهِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهَا الْهَوَى فَتَرْدَى، وَبِعَقْلِهِ أَنْ يَعْتَسِفَ فَيَشْقَى.

وَقَدْ عُنِىَ عُقَلَاءُ كُلِّ جِيلٍ، وَالْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ، فِى جَمِيعِ الْعُصُورِ بِالْبَحْثِ فِى أَنْجَعِ الطُّرُقِ وَأَحْسَنِهَا لِتَهْذِيبِ النُّفُوسِ وَتَثْقِيفِ الْعُقُولِ، وَأَلَّفُوا فِى ذَلِكَ الْكُتُبَ الْجَمَّةَ وَالْمُصَنَّفَاتِ النَّافِعَةَ، فَكَانَ لَهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْغَزِيرَةِ وَالْعَوَائِدِ الرَّائِعَةِ مَا هُوَ كَالشَّمْسِ ظُهُورًا.

وَمِنْ أَفْضَلِ الْوَسَائِلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ الشَّرِيفِ: —

(أَوَّلًا) مُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفَهُّمُهُ، وَمُتَابَعَةُ سِيرَةِ النَّبِىِّ الْعَظِيمِ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ، وَمُطَالَعَةُ سِيَرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ، فَإِنَّ فِى ذَلِكَ كُلِّهِ أَفْضَلَ الْمُثُلِ لِلتَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ الْمُطَهِّرَةِ لِلنُّفُوسِ مِنْ دَنَسِ الشَّهَوَاتِ، الْمُبْعِدَةِ لَهَا عَنْ مَدَاحِضِ (1) الشُّبُهَاتِ.

(ثَانِيًا) النَّظَرُ فِيمَا وَضَعَهُ عُلَمَاءُ كُلِّ جِيلٍ مِنَ الْكُتُبِ الْقَيِّمَةِ فِى مُخْتَلِفِ الْعُلُومِ، خُصُوصًا عِلْمَ التَّرْبِيَةِ، وَالْأَخْذُ بِأَحْسَنِ مَا كَتَبُوا وَأَقْرَبِهِ إِلَى الدِّينِ، وَبَثُّهُ فِى النَّاسِ لِيَرُوضُوا نُفُوسَهُمْ بِهِ، وَيُقَوِّمُوا أَخْلَاقَهُمْ بِأَدَبِهِ، فَتُحْمَدَ فِيهِمْ آثَارُهُ، وَيَعُمَّهُمْ نَفْعُهُ.

(1) المداحض جمع مدحضة وهى المزلة أى محل السقوط.

وقد قيض الله لي ذلك الكتاب القيم المسمى بأميل القرن التاسع عشر في التربية وهو من أنفع الكتب التي ألفت في هذا الموضوع، وأجلها أثراً وأعظمها فائدة بشهادة جميع من طالعوه، فعربته بتسهيل الله سبحانه وحسن توفيقه تعريباً جمده جهابذة اللغة العربية، وطبعته مرتين نفدت جميع نسخهما من زمن بعيد، وحالت بعض الحوائل دون إعادة طبعه، رغماً من إلحاح كثير من العلماء وطلاب العلم ومحبي الكتب النافعة علي في ذلك.

ولما زالت بحمد الله هذه الحوائل، طبعته للمرة الثالثة، وقد بينت في مقدمة طبعته الأولى فوائد التربية وآثارها، ومقاصد الكتاب وموضوعاته بإسهاب، فلا حاجة إلى تكرارها، وها أنا ذا أبرزه لقراء العربية المتشوفين إليه في حلة جديدة، بالغت في اتقانها وتجريدها من النقص والعيب جهد استطاعتي، مع زيادة في التحلية والتوشية ببعض الهوامش النافعة والشروح المفيدة، راجياً من الله سبحانه أن ينفع به ويوفق للأخذ بأحسنه وهو حسبي وبه ثقتي.

المترجم

عبد العزيز محمد كامل

* * *

(تنبيه) من طبع هذا الكتاب غير مترجمه يحاكم ويجازى. ومن وجدت بيده نسخة منه (من غير طبعته الأولى) غير مختومة بختم المترجم يسأل عنها قانوناً.

مقدّمة المترجم للطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ عَلَى عَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ، وَمَا الْحَمْدُ إِلَّا مِنْ آثَارِ فَضْلِكَ، وَأَشْكُرُكَ عَلَى مُتَوَاصِلِ إِحْسَانِكَ وَمُتَرَادِفِ بِرِّكَ، وَمَا الشُّكْرُ إِلَّا مِنْ كُبْرَيَاتِ نِعَمِكَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى خَيْرِ أَنْبِيَائِكَ الَّذِي طَبَعْتَهُ عَلَى الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَرَبَّيْتَهُ عَلَى الْأَدَبِ الْكَامِلِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ بِأَتَمِّ دِينٍ، وَأَبْلَغِ هِدَايَةٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، أَعْلَامِ الْهُدَى وَيَنَابِيعِ الْعِرْفَانِ، الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ، تَنْبِيهًا لِخَلْقِهِ إِلَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْمُثُلِ فِي التَّرْبِيَةِ الْكَامِلَةِ لِمَنْ يَحْتَذِي، وَأَفْضَلُ الْأُسَى فِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ لِمَنْ يَقْتَدِي، وَعَلَى كُلِّ مَنِ اقْتَفَى سَنَنَهُمْ، وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ سَبَقَ لِي فِي مُقَدِّمَاتِ الطَّبَعَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى لِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ أَسْهَبْتُ فِي بَيَانِ وُجُوبِ التَّرْبِيَةِ، وَوُجُوهِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَمَا لِلْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ مِنْ فَرْطِ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَمَا لَهَا مِنَ الْآثَارِ الْجَمِيلَةِ فِي تَقْوِيمِ الطِّبَاعِ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَذَكَرْتُ الْبَاعِثَ لِي عَلَى تَرْجَمَتِهِ وَأَجْمَلْتُ مَبَاحِثَهُ وَمَسَائِلَهُ وَشَكَرْتُ لِقَوْمِي وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اطَّلَعُوا عَلَيْهِ شِدَّةَ تَأْهِيلِهِمْ بِهِ وَحُسْنَ تَلَقِّيهِمْ إِيَّاهُ فَلَا أَعُودُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَسْبِي مَا ذُكِرَ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبَيَانِ مَكَانَتِهِ بَيْنَ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ.

وَلَا يَسَعُنِي إِلَّا أَنْ أَسْتَأْنِفَ الشُّكْرَ لِوِزَارَةِ الْمَعَارِفِ الْجَلِيلَةِ عَلَى حُسْنِ تَقْدِيرِهَا لِلْكِتَابِ، وَعِرْفَانِهَا لِفَائِدَتِهِ، وَمَزِيدِ عِنَايَتِهَا بِهِ، فَإِنَّهَا بَعْدَ أَنْ أَنْفَدَتْ مُعْظَمَ نُسَخِ

طَبعَاتِهِ الثَّلاثِ الأُولَى بِتَوزِيعِهَا عَلَى مَدَارِسِهَا، كَلَّفَتْنِي إِعَادَةَ طَبْعِهِ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ طَبْعًا مَشْكُولًا مَضبُوطًا مَشْرُوحًا فِيهِ الأَلْفَاظُ اللُّغَوِيَّةُ ، لِأَنَّهُ مُقَرَّرٌ لِمَدَارِسِهَا الثَّانَوِيَّةِ، فَوَافَيْتُ رَغْبَتَهَا وَقُمْتُ بِهَذَا الْعَمَلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ، وَزِدْتُ بَعْضَ مَسَائِلِهِ إِيضَاحًا، وَعَلَّقْتُ عَلَى بَعْضِ آخَرَ مِنْهَا تَعْلِيقًا يُزِيحُ الشُّبْهَةَ، وَيَحْمِي مِنَ الْغَوَايَةِ.

وَهَا أَنَا ذَا أُقَدِّمُهُ لِأَبْنَاءِ وَطَنِي الأَمَاثِلِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَّاءِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ، فِي بِزَّةٍ جَدِيدَةٍ، يَزِينُهَا جَمَالُ الطَّبْعِ وَحُسْنُ الشَّكْلِ ، بِمَا وَسِعَهُ الإِمْكَانُ وَاحْتَمَلَتْهُ الطَّاقَةُ، رَجَاءَ أَنْ يَحِلَّ لَدَيْهِمِ الْمَحَلَّ اللَّائِقَ بِهِ، فَيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَيَنْتَفِعُوا بِمَا حَوَاهُ.

وَلَا أَزَالُ أُوصِيهِمْ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَلِمَتِي الْخِتَامِيَّةُ لِلطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ وَأَرْجُو أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ جُهْدَ اسْتِطَاعَتِهِمْ لِيَسْتَوْفُوا الْحَظَّيْنِ، وَيَفُوزُوا بِالْحُسْنَيَيْنِ، وَأَسْأَلُ اللهَ لِي وَلَهُمُ الرُّشْدَ وَالتَّوْفِيقَ .

المترجم

عبد العزيز محمد

* * *

(تَنْبِيهٌ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرُ مُتَرْجِمِهِ يُحَاكَمُ وَيُجَازَ . وَمَنْ وُجِدَتْ بِيَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الأُولَى) غَيْرُ مَخْتُومَةٍ بِخَتْمِ الْمُتَرْجِمِ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

كتب فى أول ذى الحجة سنة ١٣٤٩ (١٩ أبريل سنة ١٩٣١)

عبد العزيز محمد

الكتاب الأول

فى الأسر

الرسالة الأولى

(مِنَ الدُّكتُورِ إِرَاسْمَ إِلَى زَوْجَتِهِ فى ٣ يناير سنة — ١٨٥ [1])

فِي وَصْفِ حَالِهِ فِي السِّجْنِ

قَدْ مَضَى عَلَيَّ يَا عَزِيزَتِي هَيْلَانَةَ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ طِوَالٍ عَجَزْتُ فِيهَا عَنِ الْكِتَابَةِ إِلَيْكِ وَأَعْوَزَتْنِي الْعِبَارَةُ الَّتِي أَرْضَاهَا لِوَصْفِ مَا أُعَانِيهِ مِنْ مَضَضِ الْأَلَمِ. لَيْسَ مَا يُقَاسِيهِ الْأَسِيرُ مِنْ عَذَابِ الْأَسْرِ هُوَ الْحِرْمَانَ مِنَ الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ، وَالْعَجْزَ عَنِ الْمَشْيِ مُطْلَقَ السَّرَاحِ، بَلْ عَذَابُهُ الْأَكْبَرُ هُوَ ضِيقُ الصَّدْرِ وَابْتِئَاسُ النَّفْسِ. تِلْكَ الْقِبَابُ وَالْأَعْمِدَةُ وَالدَّهَالِيزُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا تَنْفَكُّ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْمَسْجُونِ هِيَ الَّتِي تُبَلْبِلُ مِنْهُ الْأَفْكَارَ، وَتُوقِعُهُ فِي الدُّوَارِ حَتَّى يَقْذِفَهُ هَذَا الْعَنَاءُ فِي مَهْوَاةِ الْفَنَاءِ. وَهَذِهِ الْأَحْجَارُ أَحْجَارُ الْبِنَاءِ تَمْسَخُهُ فَتُحِيلُهُ حَجَرًا مِثْلَهَا. وَفِي أَوَّلِ عَهْدِي بِالسِّجْنِ كُنْتُ صَنَمًا لَا أَرْجِعُ لِلنَّاسِ قَوْلًا، وَلَا أَمْلِكُ لَهُمْ وَلَا لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَكِدْتُ أَعْدَمُ الْحَرَكَةَ وَالْفِكْرَ بَلْ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي قَدْ فَقَدْتُ وُجُودِي وَفَنِيتُ عَنْ نَفْسِي،

---

(١) عن يمين رقم ٥ فى الأصل الفرنسى نقطة (صفر) لإبهام السنة والاكتفاء ببيان أن ذلك كان فى النصف الثانى للقرن وقد جعلنا بدل النقطة خطا عرضيا — المترجم.

وانتقلت حياتي إلى السجن نفسه ، لحصره إياى فى دائرة من الوجود مشئومة صناعية لا جولان للفكر فيها . وإنى أؤكد لك أن من هذه حاله يلزمه عمل كبير للرجوع إلى وجوده . وهذا العمل قد قمت أنا به . والآن قد ثابت إلى نفسى ، وأصبحت مالكا لحسى . لا ترجن منى أن أصف لك ... فإن المسجون قلما يعرف ما يسكنه من المحال وإنى قد نقلت من ... فى غروب الشمس ولما وصلنا إلى السجن كان الليل قد أرخى سدوله (١) ولم يبق لى من الضياء إلا بقية لا أكاد أميزها فى ظلمات الجو غير الأشباح السوداء لبروج السجن الصغيرة ، وأسهمه وأسنته الحجرية ، وكان يخيل إلى أن البناء قصر متين شيد (٢) بالظلمات . نزلنا من الجارية (العجلة) وصعدنا مشاة إلى طريق مدرج منحوت فى الصخر يفضى إلى سجن الحكومة وكنت أمشى فى هذا الطريق كأنى فى حلم على أنى قد راعنى منظر شيئين فى هذا المكان أولهما . جمال ذلك البناء الباهر ووقوعه من قمة الجبل المظلم موقع التاج من الرأس — ثانيهما : اصطخاب البحر وتلاطم أمواجه .

وليست تلك القمة فى الحقيقة إلا قطعة من الصوان برزت من صحراء رملية — ورمل هذه الصحراء يمتد إلى البحر تعلوه الكآبة والحزن وكنت أميز المحيط من بعد فى ضوء الصفائح المائية المضطربة وليس الحال كذلك فى جميع الأوقات ، لأن المحيط فى إبان المد يغمر الساحل ويعلو ويصطخب ويحدق بالجبل من كل جانب فتغمره زخرة (٣) أمواجه المتراحمة .

---

(١) السدول : الأستار . (٢) شيد : طلى . (٣) زخرة البحر : ارتفاعه .

يصل النور إلى مخدعي من السجن — وهو مقابل للمحيط — من كوة[١] صغيرة ككوى الأسلحة النارية فى المعاقل أو كالذى يسميه المهندسون « برنجا » على أنها مع ضيقها مسرح للنظر لا نهاية له . وهى من الارتفاع بحيث لا أشاهد منها سطح البحر إلا قائما على أطراف أصابع الرجلين فإذا جلست لا يبقى لى ما أمتع به نظرى إلا السماء ولا بأس فى ذلك على فإن لى فى السماء ناحية من الكون أشاهد فيها ساعات كاملة طائفة من ظواهر هذا العالم لم تكن تسترعى نظرى إلى هذا العهد، وهى ألوان الضوء المتغيرة والصواعق والبرد والضباب، وعلى الجملة ما للأحداث الجوية من الجمال الخيالى إذا برزت من حجب الظلام . غيرى من الناس يحب أن يشاهد السماء فى البحر حيث يتراءى السحاب فى مرآته وأما أنا فأخالفهم فى ذلك لأن البحر بالنسبة إلى هو الذى ينعكس على السماء فأراه فى مرآتها .

قد رأيت مما ذكرت أن لى مرقبا للعالم وحظا منه فما الذى يمنعنى أن أتخيل فى السحب سلاسل جبال وفى سهول الأثير أريافا ومزارع جميلة . تلك المناظر الخلابية المعلقة فى الهواء ليست كما أعلم إلا خيالات سانحة لأفكارى وما أتذكره من معلوماتى . قد تبعث الإنسان وحدته على البحث فى مخيلته عن صور ما عرفه من الأماكن ومن أحبهم من الناس فأنا الآن بسبب استحضارى لمرائى ماضى الجميلة فى حيز من النور — قد انفتح فوق رأسى — أرى مثالك فيه .

إن كان قدر على أن أصير خياليا كان ذلك آخر عقاب لعقل لم يشتغل منذ عشرين سنة بغير العلوم الحقيقية .

(١) الكوة : النافذة .

عَلَى أَنِّى لَسْتُ أَشْكُو مِنْ شَىْءٍ فَطُوبَى لِمَنْ يَصِحُّ لَهُ عِنْدَ سُقُوطِهِ أَنْ يَعْتَمِدَ على فِكْرَةِ أَنَّهُ دَافَعَ عَنْ حَوْزَةِ الْقَانُونِ وَذَبَّ عَنِ الْحَقِّ وَإِنِّى إِذَا كُنْتُ أَتَأَلَّمُ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّى كُنْتُ سَبَبًا فِى تَأَلُّمِكِ . اه

الرسالة الثانية

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِى ٦ يناير سنة — ١٨٥)

إِتْحَافُهُ إِيَّاهَا عَلَى بُعْدِهِ مِنَ الْعَالَمِ بِخَبَرٍ سَارٍّ

حَدَثَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ وَالْحَادِيَةَ عَشْرَةَ صَبَاحًا ضَبَابٌ كَثِيفٌ غَمَرَ الشَّاطِئَ كُلَّهُ، وَالْعَادَةُ فِى مِثْلِ هَـذِهِ الْحَالَةِ أَنْ تَدُقَّ الْأَجْرَاسُ إِيذَانًا(١) بِالْخَطَرِ، فَلِذَلِكَ طَفِقَتْ أَجْرَاسُ الْقَرْيَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ السِّجْنِ تُطَنْطِنُ وَتَيَسَّرَ لِى أَنْ أَفْهَمَ الْمَقْصُودَ مِنْ هَـذِهِ الْإِشَارَةِ . ذَلِكَ السَّاحِلُ الْمُحْدِقُ بِنَا مُمْتَلِئٌ بِالْأَخْطَارِ لِأَنَّ الرِّمَالَ الْمُتَحَرِّكَةَ وَمُسْتَنْقَعَاتِ الْمَاءِ الرَّاكِدِ وَالْمَدَّ وَالْجَزْرَ كُلُّهَا حَبَائِلُ(٢) تَتَرَقَّبُ اصْطِيَادَ السَّائِحِ الضَّالِّ كَامِنَةً لَهُ تَحْتَ أَسْتَارِ الضَّبَابِ، لِذَلِكَ تُنَادِيهِ أَصْوَاتُ الْأَجْرَاسِ وَتُحَذِّرُهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِى الْخَطَرِ وَتُرْشِدُهُ بِمَصْدَرِهَا إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِى يَلْزَمُهُ سُلُوكُهُ لِيَصِلَ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ أَسْرَعَ مَا يَكُونُ . وَقَدْ سَأَلْتُ فِى مَسَاءِ هَـذَا الْيَوْمِ سَجَّانًا لَنَا يَسْكُنُ أَهْلُهُ الْقَرْيَةَ عَمَّا حَدَثَ فَأَخْبَرَنِى بِأَنَّ طِفْلَيْنِ مِسْكِينَيْنِ قَدْ فَاجَأَتْهُمَا أَمْوَاجُ الْبَحْرِ فِى إِبَّانِ الْمَدِّ فَأَحَاطَتْ بِهِمَا وَكَادَا يَغْرَقَانِ لَوْلَا مَا بَذَلَهُ مِنَ الْجُهْدِ وَالْهِمَّةِ صَيَّادُو الشَّاطِئِ مِنْ ذَوِى النَّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ فِى إِنْقَاذِهِمَا مِنْ مَخَالِبِ الْمَوْتِ غَيْرَ مُبَالِينَ بِالْخَطَرِ الَّذِى كَادَ يَذْهَبُ بِقَوَارِبِهِمْ . مِنْ هُنَا تَرَيْنَ أَنِّى عَلَى بُعْدِى مِنَ الْعَالَمِ وَحِرْمَانِى مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ قَدْ قَدَرْتُ أَنْ أُتْحِفَكِ بِهَذَا الْخَبَرِ السَّارِّ . اه

(١) إيذانا : إعلاما . (٢) الحبالة : المصيدة .

الرسالة الثالثة

(من إراسم الى هيلانة فى ٨ يناير — ١٨٥)

تعرفه أماكن السجن تسلية لنفسه

أنا في السجن تتعاقب على الساعات وكلها متشابهة لا اختلاف بينها فليست الحياة هنا إلا يوما واحدا بسبب ما يحرج الصدر ويضيق على النفس من توحد الأشياء وتشابه الأطوار وعدم تغير شيء منها . آه لو عادت إلى نعمة العلم بما يقع في الخارج، وليتني أعرف شيئا من أخبارك . قد أذن لي في الخروج من مخدعى للتنزه كل يوم ساعة أو ساعتين على رصيف مرتفع للسجن فأنا أصرف هذا الزمن في إجالة نظري والسياحة به فيما حولي من الأشياء لأتعرفها فإني للآن ما كنت أعرف شيئا في هذا المكان بل كنت أجنبيا منه بالمرة إذ كنت كميت ألقى في مكان لا يدرى أين هو وقد ابتدأت منذ أسبوع أن أعرف أين مستقرى فتجدينني الآن أهتم بتعرف شكل الأماكن المحيطة بي تعرفا صحيحا يبعثني على ذلك وجدان لا شك في أنه عام في جميع المسجونين . ولا ينفك ناظراى عن استكشاف ما لم أكن رأيته حال دخولي في السجن وإخالني قادرا على أن أرسم في الورق صورة ما أحدثه البحر في الشواطئ من التقطع فنشأت عنه الخلجان والرءوس التي تمتد كالألسنة امتدادا عرضيا وصورة الصخور التي تتراوح بين البروز في ضوء الشمس والاختفاء إلى نصفها في ظلام الضباب البعيد . وقد عرفت أيضا رسم البناء الذي يحويني وأوضاعه الهندسية الجميلة وتنظيماته الحربية، ومعاقله الطبيعية، ومنحدراته ومناطق

أسراره . ولم يكن اهتمامى بمعرفة ذلك مبنياً على تدبير حيلة للهرب كلا ! إنه قد حاول ذلك غيرى من المسجونين وردوا بالخيبة لأننا إن أمكننا أن ننجو ممن يقومون على حراستنا من العساكر والسجانين الذين يتعسر علينا أن نخدع يقظتهم والتفاتهم ، فإننا لا ننجو من المحيط والرمال الخاتلة(١) بوعوثتها(٢) وغيرهما من العقبات الكثيرة . وإنما أنا أبحث فى ذلك عن طريقة أسلى بها نفسى وأشغل بها فكرى ، فلا شىء منى يريد الهرب والتخلص من السجن سوى عقلى . اﻫ

الرسالة الرابعة

(من إراسم إلى هيلانة فى ١٠ يناير سنة — ١٨٥)

السجن قيد للأشباح دون الأرواح

أتعلمين ما للسجن علىّ من الفضل ؟ إنه ليعلمنى الحرية ويدلنى على عجز الإنسان عن الاستيلاء على مثله . ذلك ما أحس به كلما تعاقبت علىّ الأيام فيه وآنس من نفسى نوعاً من الفرح تشوبه المرارة عندما أجدها أكبر وأقوى من أن يبهظها(٣) ثقل وطأة الظلم ، فليست أسوار السجن الصوانية وأغلاقه الحديدية ، وحفظته الأيقاظ ، إلا هباء فى طريق العقل لا حوائل تحبسه وتمنعه من الجولان . بل أشعة نوره تتخطى كل هذه العوائق ولا تقف عند شىء منها . وإن عزيمة المسجون لتقاوم عزيمة ساجنه ومصفده(٤) ، وإنه مهما جدل(٥) وصرع فلا يستسلم ، فإذا هو كان

(١) الخاتلة : الخادعة . (٢) وعوثة الرمال : لينها وانخسافها بمن يمشى عليها . (٣) أبهظه الأمر : ثقل عليه وغلبه . (٤) مصفده : مقيده وموثقه . (٥) جدل : رمى بالأرض .

عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ غَالِبِهِ وَأَسْمَى مِنْهُ مَكَانَةً وَمِنَ الْعَبَثِ مَا يُحَاوِلُهُ هَذَا الْغَالِبُ فَالْفِكْرُ كَالْهَوَاءِ لَا يَدْخُلُ فِي قَبْضَةِ أَحَدٍ . نَعَمْ إِنَّ مِنْ مَقْدُورِهِ أَنْ يَشُدَّ وَثَاقَ مَسْجُونِهِ ، وَلَكِنْ لِيَصِلْ بِيَدِهِ إِلَى أَعْمَاقِ قَلْبِهِ ، وَلْيَأْسِرْ مَا هُنَالِكَ مِنْ عِزَّةِ نَفْسِهِ وَمَنَعَةِ وِجْدَانِهِ ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي قُدْرَتِهِ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ تِلْكَ الْمَنَعَةُ الَّتِي أَجِدُهَا فِي نَفْسِي تَدْعُونِي إِلَى الثِّقَةِ الْعَظِيمَةِ بِالْمُسْتَقْبَلِ . لَا أُقْسِمُ بِغَيَابَاتِ السِّجْنِ (حُجُرَاتِهِ الْمُظْلِمَةِ الضَّيِّقَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِمْ بِهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ) وَلَا بِأَشْبَاحِ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَاتُوا هُنَا فِي زَوَايَا النِّسْيَانِ أَوْ فِي أَقْفَاصِ الْحَدِيدِ — إِنَّ الْحَقَّ وَالْحُرِّيَّةَ سَيَكُونُ لَهُمَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا . اهـ

الرسالة الخامسة

(مِنْ اراسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ١٢ يناير سنة — ١٨٥) .

مُوَاسَاةُ الْأَصْدِقَاءِ الْخَامِلِينَ فِي حَالِ الشِّدَّةِ

قَدِ اهْتَدَيْتُ بَعْدَ الْعَنَاءِ إِلَى طَرِيقَةِ إِيصَالِ هَذَا الْمَكْتُوبِ إِلَيْكِ فَسَيَصِلُكِ عَلَى يَدِ ...... الَّذِي تَفَضَّلَ عَلَيَّ بِأَنْ يَكُونَ رَسُولاً بَيْنَنَا عَلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُخَاطَرَةِ بِنَفْسِهِ . هَذَا يَدُلُّكِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَحْتَفُّ بِهِ فِي حَالِ رَخَائِهِ الْجُلَسَاءُ الْمُتَمَلِّقُونَ لَا يَعْدَمُ فِي حَالِ شِدَّتِهِ أَنْ يَرَى حَوْلَهُ أَحْيَانًا أَصْدِقَاءَ خَامِلِينَ يُخْلِصُونَ لَهُ الْوُدَّ . وَأَخْتِمُ قَوْلِي بِأَنِّي لَكِ طُولَ حَيَاتِي . اهـ

الرسالة السادسة

(مِنْ هيلانة إلى إراسم فى ٢٠ يناير سنة — ١٨٥)

إخبارُها إياه برأي الطبيب فى حملها وبعزمها على السفر لزيارته

قَدْ تلقيتُ مكتوبكَ أيُّها الحبيبُ مِنْ يَدِ البَرِيدِ السِّرِّىّ فكانَ لهُ فى نفسى أحسنُ أثرٍ وأنفعهُ . فإنِّى كُنتُ فى حاجةٍ عُظمى إلى شيءٍ يُسَلِّيني ويُسرى عنِّى بعضَ الألمِ فلشدَّ ما قاسيتهُ منهُ مُدَّةَ شهرٍ وقدْ ضعفتْ صحَّتِي وانحطَّتْ قُوَّتِي والطَّبيبُ الَّذى يُداويني فى غيبتِكَ يسألُني أسئلةً كثيرةً ولهُ فكرةٌ فى سببِ هذا المرضِ أراها تشفُّ عنْ جنونِهِ فإنَّهُ يزعمُ أنِّى... كلَّا إنِّي لموقنةٌ بخطائهِ فى ذلكَ. ومهما يكُنْ منَ الأمرِ فنفسى تائقةٌ لرؤيتِكَ فإنَّ هذا الفراقَ العاجلَ بعدَ الزَّواجِ الَّذى لمْ يمضِ عليهِ أكثرُ منْ سنةٍ خطبٌ هائلٌ لا يُطاقُ ، ولا سبيلَ إلى المعيشةِ معهُ ، وإنِّى مسافرةٌ مساءَ اللَّيلةِ منْ باريسَ ومعى إجازةٌ موقَّعٌ عليها منْ وزيرِ الحقَّانيةِ أذنَ لى فيها بزيارتكَ فلا بدَّ أنْ يُسمحَ لى بدخولِ السِّجنِ ولا يمكنُ أنْ يحلَّ استبدادُ المستبدِّينَ ما عقدتْهُ رابطةُ الحبِّ .

لا تخشَ شيئًا منْ هذهِ الزِّيارةِ فإنِّى لمْ أقصدْ بها الرَّغبةَ إليكَ فى أنْ تستميحَ الحكومةَ عفوًا عنكَ لأنِّى وإنْ كنتُ كثيرةَ التألُّمِ لغيبتِكَ أحترمُ وجدانكَ وهواجسَ نفسكَ وإنْ لمْ أفهمْها حقَّ الفهمِ . إعلمْ أنَّ فىَّ ما فى بقيَّةِ النِّساءِ منْ مواضعِ الضَّعفِ ومظانِّ العجزِ ، إلا أنِّى منزَّهةٌ عنْ دناءةِ الخدينِ(١) وخيانتِها لصاحبِها فإنَّ شرفكَ داخلٌ فيما أحبُّهُ منكَ ، وإنَّكَ على احتباسكَ عنِّى وبعدكَ عنْ ناظرى بما فيكَ منْ عزَّةٍ

(١) الخدين : الرفيقة ، الصاحبة ، الحبيبة .

النَّفس وَالشَّهامَةِ وَإِبَاءِ الضَّيمِ لِأَجَلّ فِي نَفْسِي مِنكَ وَأَنتَ بين يدىَّ لو فسدت مبادئك وَمُعتقداتك الَّتِي جَرَيتَ عَلى سَنَنِها طُول حياتك . إِنِّي لَمَّا تزوجتك تزوجت شيئًا آخر مَعَكَ أَلا وَهوَ ضميرك وَوِجدانك فإن بقيت عَلَى وَلائهِ متبعًا ما يُرشدك إِليه أَقسمتُ لَكَ إِنِّي أَكونُ فِي الإِخلاص لكَ كَمَا تَكونُ فِي الإِخلاص لَهُ طُولَ حياتي . وَالآنَ أُوَدِّعُكَ لِأَرَاكَ قَرِيبًا إِن شاءَ اللهُ وَأُكاشفك محبة قَلبي إِيَّاكَ وَامتلاءه بِالحُزنِ عَلَيكَ . اهـ

الرسالة السابعة (١)

(مِن هيلانة الى إراسم فى ١٥ يناير سنة — ١٨٥)

انفعال نفسها بزيارة السجن وما لاقته من المشقة فى الرجوع منه وإخبارها زوجها بالجنين وتخوفها من ثقل فروض التربية

لم يتيسر لِي أَن أُحدثك بشيء مِمَّا أَردتُ محادثتك بِهِ عِندَ اللقاء مَعَ أَنَّ حَديثي ذُو شُجُونٍ (٢) . مِن أَجلِ ذَلكَ أَردتُ أَن أَعتاضَ عَمَّا فَاتَنِي مِنهُ بِالمكاتبة فَسطرتُ لكَ هذهِ الكلمات .

كَانَ مَجيئي إِلَى السِّجنِ بِالأَمسِ وَاستفتاحي بابهُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بعد الظُّهرِ وَبعدَ أَن تحادثتُ مَعَ مُديرهِ هنيهة أَقبلَ نحوي أحد خزنته يهدج (٣) فِي مِشيتهِ وَأَنا أَسمع خفق نعليهِ شديدًا عَلَى البلاط وَأَخذني إِلَى الغُرفةِ الَّتِي كُنتُ أَنتظرك فيها . كَانَ

---

(١) قد تضمنت هـذه الرسالة أصدق عواطف الحب والرحمة التى ينبغى أن تكون فى قلب كل زوجة صالحة لزوجها والتى هى العروة الوثقى لنظام الأسر فيعمل لتربيتها وإنمائها بالإخلاص والوفاء — المترجم .

(٢) الشجون : الفنون المتشعبة . (٣) هدج : مشى فى ارتعاش .

قَلْبِي قد وعدني قَبْلَ دُخُولِي السِّجْنَ وَرُؤْيَتِي مَا فِيهِ أَنْ يَسْتَجْمِعَ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنَ الجَرَاءَةِ وَالثَّبَاتِ لِيَدْفَعَ بِذَلِكَ عَنِّي بَوَادِرَ الجَزَعِ وَخَوَاطِرَ الهَلَعِ. فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ دُخُولِي هَذِهِ الغُرْفَةَ أَنْ نَقَضَ مِيثَاقَهُ، وَحَلَّ وَثَاقَهُ، فَأَعْوَزَتْنِي رَبَاطَةُ الجَأْشِ(١) وَثَبَاتُ الجَنَانِ لَمَّا رَأَيْتُنِي وَحِيدَةً لَا أَنِيسَ لِي، وَجَمَدَ الدَّمُ فِي عُرُوقِي لِمَا اسْتَوْلَى عَلَيَّ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالوَحْشَةِ مَعَ انْقِطَاعِ الصَّوْتِ فِي قِبَابِ السِّجْنِ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ صَرِيرِ(٢) الأَبْوَابِ وَصَلْصَلَةِ(٣) أَغْلَاقِهَا مِنْ بَعِيدٍ أَثْنَاءَ فَتْحِهَا وَإِقْفَالِهَا فَلَمَّا بَدَا مُحَيَّاكَ لِنَاظِرِي فَقَدْتُ بَقِيَّةَ رَشَادِي وَغِبْتُ عَنْ وُجُودِي فَإِنَّ فَرَحِي بِرُؤْيَتِكَ بَعْدَ احْتِجَابِكَ عَنِّي وَحُزْنِي لِوُجُودِكَ فِي هَذَا المَكَانِ قَدْ أَثَارَا عَلَيَّ جَمِيعَ ضُرُوبِ الانْفِعَالِ فَفَدَحَتْنِي(٤) وَصَرَعَتْنِي، وَلَمْ تُبْقِ لِي مِنَ القُوَّةِ سِوَى مَا أَسْكُبُ بِهِ العَبَرَاتِ، وَأُرَدِّدُ الزَّفَرَاتِ، فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي عَلَيْكَ، وَكُنْتُ كَمَا تَعْلَمُ بَيْنَ يَدَيْكَ، رَأَيْتُكَ وَقْتَ التَّلَاقِي شَاحِبَ(٥) اللَّوْنِ مُمْتَقِعَهُ(٦). فَهَلْ كُنْتَ مَرِيضًا؟ وَلَيْسَ مِنَ العَجِيبِ أَنِّي نَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنِّي إِذْ ذَاكَ كُنْتُ فَانِيَةً فِيكَ فَمَا كُنْتُ أُفَكِّرُ وَلَا أَرَى وَلَا أُحِسُّ وَلَا أَقُولُ شَيْئًا.

أَتَعْلَمُ مَاذَا كَانَ يُقْلِقُنِي مِنَ الأَفْكَارِ فَوْقَ ذَلِكَ؟ إِنَّهُ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ لِتِلْكَ الجُدْرَانِ جُدْرَانِ السِّجْنِ المُخِيفَةِ أَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا وَإِدْرَاكًا وَأَنَّهَا تُحِسُّ بِي لَوْ صَافَحْتُكَ وَتَرَانِي لَوْ أَشَرْتُ إِلَيْكَ إِشَارَةً مَا، وَتَسْمَعُنِي لَوْ أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِسِرٍّ فَتُذِيعُهُ. لَمَّا عَادَ

---

(١) الجأش: نفس الانسان ورباطتها ثباتها. (٢) الصرير: صوت خاص يكون للباب عند فتحه أو اقفاله والقلم عند جريه على القرطاس وللأسنان اذا شدّ بعضها على بعض. (٣) الصلصلة: ترجيع صوت الجرس ونحوه مما يتخذ من المعادن. (٤) فدحه الأمر: أثقله. (٥) شحوب اللون: تغيره. (٦) امتقع الرجل بالبناء للمجهول تغير لونه من حزن أو فزع أو ريبة.

إلينا خازن السجن ونبهنا إلى أن وقت التلاقي الممنوح لنا قد انقضى من بضع دقائق قف[١] شعري واقشعر جسمي وطار لبي ، ولو أقسمت له عن سلامة صدر أنه لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وأن في الساعة خللا أدى إلى هذا الخطإ لما كنت في اعتقادي حانثة ووددت لو بعت حياتي وجميع ما أملكه من حطام الدنيا وإن قل بساعة أخرى أقضيها معك .

لم تكن لي مندوحة عن فراقك على غصتي بمرارته ففارقتك مملوءة الفؤاد من الحزن ، فارغة العينين من الدمع ، معتقلة اللسان من الوجوم[٢] ، على شرف[٣] من فقد الإدراك والشعور ، واجتزت مكان الأسلحة يتقدمني دليل يحمل مصباحا فإن الليل كان قد جن على ما ظهر لي ولم يكن ابتعادي عن حضرتك حائلا بيني وبينك ولا شاغلا قلبي عن الاستغراق في شهودك كلا إني كنت إخالني في كل خطوة أخطوها أسمعك تناديني مسترجعا إياي ، ولقد التفت مرة لأتبين هذا النداء الوهمي فلم يقع نظري إلا على وجه من الحجر ، ذلك هو أحد البابين العظيمين الحافظين لمدخل القرية . سار بي ذلك الدليل الخريت الواسع الخبرة بشاطىء المحيط ومواقعه على حافة الساحل متجها نحو قرية . . . حيث يجب أن أقضي ليلتي في ناموس[٤] الصيادين . هذا الطريق وعث[٥] أمضني[٦] فيه الحزن والنصب حتى لقد كدت أن أجلس فيه مرتين على الرمال طلبا للراحة وأستميحك العفو أن أقول إني كدت أود لو تم

(١) قف الشعر قام فزعا . (٢) الوجوم : السكوت أو العجز عن التكلم من شدة الغم .
(٣) على شرف : على وشك أو قرب . (٤) الناموس : لفظ مشترك بين جملة معان منها منزل الصيادين . (٥) الوعث : المكان السهل الكثير الدهس تغيب فيه الأقدام . (٦) أمضني : آلمني .

لِي ذَلِكَ فَإِنِّي كُنتُ أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِقَوْلِي إِنَّنِي بِجُلُوسِي هٰهُنَا أَنَامُ بِالقُرْبِ مِنْ سِجْنِهِ عَلَى الأَقَلِّ وَإِنِ اغْتَالَتْنِي الأَمْوَاجُ فَحَسْبِي أَنَّنِي قَضَيْتُ نَحْبِي وَاسْمُهُ عَلَى شَفَتَيَّ .

كُنتُ فِي سَبِيلِ تَوْطِينِ نَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ وَتَشْجِيعِهَا عَلَى احْتِمَالِ المَكْرُوهِ أُرَدِّدُ النَّظَرَ إِلَى جِهَةِ . . . . . . وَكَانَ اللَّيْلُ سَاكِنًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حَالِكَ الظَّلَامِ مُخِيفَهُ فَلَا كَوْكَبَ فِيهِ وَلَا قَمَرَ، وَكَانَ يَزِيدُ فِي كَثَافَةِ حُجُبِ الظَّلَامِ ذَلِكَ السَّحَابُ المَرْكُومُ وَمَا يَجُودُ بِهِ مِنَ الرَّذَاذِ (١) البَارِدِ . وَأَمَّا البَحْرُ فَكُنتُ أَسْمَعُ لَهُ مِنْ بَعِيدٍ زَمْجَرَةً وَهَدِيرًا وَأَرَى فَوْقَهُ أَبْخِرَةً سِنْجَابِيَّةَ اللَّوْنِ . وَقَدْ تَنَوَّرْتُ (٢) عَلَى مَا وَصَفْتُ لَكَ مِنْ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ ضَوْءًا ضَعِيفًا كَانَ يَظْهَرُ بَصِيصُهُ مِنْ نَافِذَةٍ فِي جِهَةِ الجَبَلِ وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ أَنْ أَحْكُمَ إِنْ كَانَ هَذَا الضَّوْءُ المُتَذَبْذِبُ مُنْبَعِثًا مِنَ السِّجْنِ أَوْ مِنْ أَحَدِ مَسَاكِنِ القَرْيَةِ وَكُنتُ مَعَ هَذَا الشَّكِّ الَّذِي كَانَ يُخَامِرُنِي فِي مَصْدَرِهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ المُحِبِّ إِلَى أَثَرِ حَبِيبِهِ وَكُنتُ أَتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِنِ انْطَفَأَ يَنْطَفِئُ مَعَهُ نِبْرَاسُ (٣) حَيَاتِي ثُمَّ وَصَلْنَا بِفَضْلِ هِمَّةِ الدَّلِيلِ وَخِبْرَتِهِ بَعْدَ الجِدِّ فِي السَّيْرِ إِلَى نُقْطَةٍ تُقَابِلُ . . . فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا سِوَى جَدْوَلٍ يُجْتَازُ عَلَى المَرْكَبِ . جَلَسْتُ فِي المَرْكَبِ عَلَى مَقْعَدٍ مِنَ الخَشَبِ أَرْشَدَنِي إِلَيْهِ الجَذَّافُونَ لَمَّا أَضْنَتْنِي الأَفْكَارُ وَنَهَكَتْ قُوَايَ الخَوَاطِرُ فَكَانَتْ هَذِهِ الرَّاحَةُ وَالسُّكُونُ المُسْتَتِبُّ حَوْلِي سَبَبًا فِي تَوْجِيهِ ذِهْنِي إِلَى فِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ فَبَيْنَا أَنَا أُفَكِّرُ فِيمَا كُنتُ أَفْضَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ مِنْ حَالَةِ صِحَّتِي وَمَا اسْتَنْتَجَهُ العِلْمُ مِنْهَا إِذْ شَعَرْتُ عَلَى الفَوْرِ بِحَرَكَةِ شَيْءٍ حَيٍّ تَحْتَ مِنْطَقَتِي . اللهُ أَكْبَرُ ! قَدْ كَانَ الطَّبِيبُ مُصِيبًا وَعَمَّا قَلِيلٍ أَكُونُ أُمًّا .

(١) الرذاذ : المطر الضعيف . (٢) تنور الشيء : أبصره من بعد . (٣) النبراس بكسر النون وتشديدها المصباح .

لا أحسبك نسيت أن أعظم أمنية كانت لنا في أيام الهناء الماضية أن يرزقني الله ولداً منك وإنني لترتعد فرائصي عند التفكر في ذلك .

على أنه لا ينبغي أن أخفي عنك نتيجة شعوري بالحمل وهي أني بعد أن تكدرت هنيهة أحسست بأن شعاعاً من الفرح والعزة يضيء في جوانب ظلمات حزني وأني في رجوعي من عندك لم أكن فريدة محرومة من الرفيق، وخلت أني قد وجدتك بعد فقدك، نعم أدركت مع الزهو والإعجاب أن ذلك الذي يحنه حشاي وتنضم عليه جوانحي هو أنت أيها الحبيب وهل هو إلا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك؟ ثم خيل إلي بعد ذلك بلحظة أن الأمواج المضطربة تحييني بلسانك تحية الزوجة والأم ، وقلت في نفسي قد صار في وسعي الآن أن أقتحم ظلمات الليل والرمال الوعثة ولا أبالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه، وصحت بأن هؤلاء ليس في قدرتهم أن يأخذوه مني وأنه هو على الجملة أبوه أو على الأقل بضعة منه يمكنني أن أخفيها في مستقرى فأجعلها حرة بعيدة عن عدوان المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في عرينها .

أقول هذا ولكنني أرى أمراً يروعني ويبلبل فكري وهو طريقة تربية هذا الولد فإني طالما سمعتك تتكلم فيما يجب على الوالدين لأولادهم بعبارات هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث إن قلبي كان يخفق لسماعها أملاً في أنه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الأمل وأنا من تحققه في إشفاق ورعب . من ذا الذي يقوم بتلك الفروض التي أنت تعلمها أكمل العلم . فقد كنت تقول لي :

لَوْ رَزَقَنِي اللهُ وَلَدًا لَوَقَفْتُ حَيَاتِي عَلَى تَعْلِيمِهِ وَتَرْبِيَتِهِ (١) وَكُنْتُ أُجَاهِرُ كُلَّ الْمُجَاهَرَةِ بِإِنْكَارِ الطُّرُقِ السَّائِدَةِ فِي تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ وَاسْتِهْجَانِهَا شَدِيدَ الاسْتِهْجَانِ . كُلُّ ذَلِكَ لَا يَزَالُ مَنْقُوشًا فِي ذَاكِرَتِي ، لَكِنِّي بِمِقْدَارِ مَا كُنْتُ أُعْجَبُ بِأَفْكَارِكَ وَمَقَاصِدِكَ تَعْتَرِينِي الْآنَ رِعْدَةُ خَوْفٍ أَمَامَ هَذَا التَّكْلِيفِ الَّذِي سَيَقَعُ ثِقْلُهُ عَلَى وَحْدِي فَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَنَا الْقَانُونُ الْبَشَرِيُّ بِهُوَّةٍ حَفَرَهَا لِتَكُونَ حَاجِزًا يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ فِي وَقْتٍ أَكُونُ فِيهِ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَى الاسْتِرْشَادِ بِنَصَائِحِكَ وَالاسْتِضَاءَةِ بِنُورِ مَعَارِفِكَ وَالاعْتِمَادِ عَلَى مَعُونَتِكَ الْأَدَبِيَّةِ . لَيْتَ شِعْرِي مَا سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْوَلَدِ إِذَا كَبِرَ وَهُوَ مَحْرُومٌ مِنْ رِعَايَةِ وَالِدِهِ وَعِنَايَتِهِ وَمَا عَسَى أَنْ أَفْعَلَ لَهُ وَأَنَا كَالْقَصَبَةِ الضَّئِيلَةِ قَدْ رَزَحَتْ (٢) بِضَعْفِي وَضَعْضَعَنِي سَقَمِي .

قَدْ وَجَدْتُ فُوبِيدُونَ الزِّنْجِيَّ الْبَارَّ الَّذِي أَحْضَرْتَهُ مَعَكَ مِنْ أَمْرِيكَةَ فِي انْتِظَارِي هُوَ وَزَوْجَتُهُ عَلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ لِلْجَدْوَلِ فَلَمَّا رَأَيَانِي أَرَادَا تَقْبِيلَ يَدَيَّ رَغْمًا مِنِّي قَائِلَيْنِ إِنَّ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ صَافَحَتَا يَدَيْكَ وَإِنَّ لَكَ الْفَضْلَ عَلَيْهِمَا فِي نَيْلِ حُرِّيَّتِهِمَا . وَمَا بَلَغْتُ الشَّاطِئَ إِلَّا وَأَنَا فِي قَفْقَفَةٍ مِنَ الْبَرْدِ قَدْ وَصَلَ أَثَرُهَا إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِي وَكَانَتْ ثِيَابِي مُبَلَّلَةً فَوَجَدْتُهُمَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ أَعَدَّا لِي فِرَاشًا فِي أَحَدِ نَوَامِيسِ الصَّيَّادِينَ الَّتِي عَلَى ضَفَّةِ الْجَدْوَلِ وَأَذْكَيَا لِي بِهِ نَارًا مِنْ قُضْبَانِ أَشْجَارٍ يَابِسَةٍ فَأَخَذَ الْبَرْدُ يَزُولُ عَنِّي تَدْرِيجًا بِتَوَقُّدِ اللَّهَبِ فِي الْمُسْتَوْقَدِ وَارْتَحْتُ لِمَا كَانَ يُبْدِيهِ لِي كُلٌّ

(١) ما أحسن هذه العاطفة وما أجدرها بأن تعمر كل قلب يدرك ما يجب عليه للأولاد من التربية والتهذيب وليت الناس يدركون مبلغ التبعة التي تلحقهم من جراء التقصير في هذا الواجب — المترجم .

(٢) رزح : ألقى نفسه إعياء وهزالا .

مِنْ هٰذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ مِنْ إِخْلَاصِهِ فِي الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ . مَا أَشَدَّ عَدْوَى بِرِّ الْإِنْسَانِ وَأَعْظَمَ أَثَرِ إِحْسَانِهِ ؟ فَإِنِّي نِمْتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ أَحْسَنَ مِنْ نَوْمِي فِي سَوَابِقِهَا بَعْدَ ذٰلِكَ النَّهَارِ الَّذِي قَضَيْتُهُ مُتْعَبَةَ الْجِسْمِ وَالنَّفْسِ وَكُنْتُ فِيهِ أَلْعَنُ الْحَيَاةَ وَأَسْأَمُهَا ، وَأَنَا أَكْتُبُ إِلَيْكَ الْآنَ فِي نَامُوسِ الصَّيَّادِينَ بَعْدَ اسْتِيقَاظِي مِنَ النَّوْمِ صَبَاحًا .

تَجِدُ مَكْتُوبِي كَمَا اتَّفَقْنَا بِالْأَمْسِ مُخَبَّأً فِيمَا أُرْسِلُهُ لَكَ مِنَ الْمَلَابِسِ الَّتِي تَوَلَّيْتُ طَيَّهَا وَإِصْلَاحَهَا بِنَفْسِي . وَوَرَقُ هٰذَا الْمَكْتُوبِ — وَإِنْ كَانَ رَقِيقًا — مَتِينٌ وَقَدْ طَوَيْتُهُ طَيَّةً جَعَلَتْهُ فِيهَا عَلَى شَكْلِ زِرٍّ . فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَتَيَسَّرُ لَكَ قِرَاءَةُ خَطِّي الَّذِي هُوَ كَأَرْجُلِ الذُّبَابِ .

سَأَعُودُ بَعْدَ غَدٍ إِلَى السِّجْنِ فَقَدْ وُعِدْتُ بِأَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الدُّخُولِ السَّاعَةَ الْأُولَى مَسَاءً وَعَسَى أَنْ أَتَجَلَّدَ فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ فَأَسْتَجْمِعَ شَتَاتَ فِكْرِي .

وَالْآنَ أُقَبِّلُكَ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ بِكُلِّ مَا فِي نَفْسِي مِنْ قُوَّةِ الشَّوْقِ وَالْمُلْتَقَى قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللهُ . اهـ

الرسالة الثامنة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ في ١٦ يناير — ١٨٥)

نَقْلُهُ مِنْ سِجْنِهِ إِلَى سِجْنٍ آخَرَ

أَكْتُبُ إِلَيْكِ هٰذَا وَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحًا وَعَلِمْتُ أَنَّ عِشْرِينَ مَسْجُونًا أَنَا مِنْهُمْ قَدْ فُصِلُوا لِإِرْسَالِهِمْ إِلَى سِجْنٍ ... وَبَلَغَنِي أَنَّ أَمْرَ نَقْلِنَا وَصَلَ إِلَى هُنَا لَيْلًا مِنْ بَارِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ لِإِنْبَائِكِ بِهٰذَا الْخَبَرِ قَبْلَ الْآنَ وَلَمْ

يبقَ لِى أملٌ فى لقائك فإنّ السفر سيكون فى السّاعة السّابعة صباحًا وسيصل إليك هـذا المكتوبُ وأنا فى طريقى إلى الجزيرة التى جعلت مقرًّا لى فأودّعك وداع محبٍّ ثابتٍ على عهده لا يثنيه عن حبّك اعتراض الحوائل ولا يلويه عن ذكراك تطويحُ المطاوِح .

(غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائه * وشوقٌ على بُعد المزار وقربه)(١)

الرسالة التاسعة

(من هيلانة إلى إراسم فى ١٧ يناير سنة — ١٨٥)

خيبتها فى زيارة السّجن وعزمها على اتّباع زوجها فى منفاه

جئتُ اليومَ إلى السّجنِ لزيارتك فمثّل لنفسك ما عرانى من هزّة الطّرب ونشوة الفرح لمّا علمتُ بأنّك أُخرجت منه . ما كانَ أبعدنى عن العقل وأقربنى من الجنون فى تلك السّاعة إذ ظننتُ أنّك فزت برجوع نعمة الحرّية إليك ! ... لكن لم يلبث كاتبُ السّجنِ أن أبانَ لى خطائى إذ أخبرنى بأنّك قد وُجّهت (هكذا عبارته) إلى جزيرة ... وإنّى سأتبعك قاطعةً أجوازَ البحار(٢) مقتحمةً فى سبيل القرب منك جميعَ الأخطار، فأينما تكن وإن فى آخر الدّنيا فلا بدّ لى من اللّحاق بك لا يعوقنى عنك هجيرُ الشّمس المحرقة ولا أخطارُ مجاهل الصّحارى والقفار ولا اعتراض سلاسل الجبال الشّامخة دونك لأنّ غايتى التى أسعى إليها هى أن نعيش مجتمعين فاكتب إلىّ حتّى أوافيك(٣) لأمتّع النفس بلقائك .

(١) هذا البيت ليس معناه موجودا فى الأصل المنقول عنه وإنما ذكر هنا لفرط مناسبته للموضوع .

(٢) جوز الشىء وسطه ومعظمه وجمعه أجواز .

(٣) هكذا يكون شأن الزوجة البارة المخلصة فى حب زوجها — المترجم .

الرسالة العاشرة (١)

(من إراسم إلى هيلانة فى ٢ فبراير سنة — ١٨٥)

نهيها عن السفر إليه رعاية للجنين وما يلزم له من السكون

أنا واثق أيتها العزيزة بحبك إياى وأقسم عليك بأطهر ما يوجد فى هذا العالم وأجدره بالتقديس أن لا تقاربينى وأن تهرولى هربا منى . نعم إننى قبل الآن بشهر أو شهرين كنت أقبل منك هذا الإخلاص الشريف طيبة به نفسى منشرحا له صدرى إذ لم أكن عالما بحملك وكنت أجد فيك وحدك حينا بعد حين تفريجا لكربتى فى وحدتى وإيناسا من وحشتى وكنت لاعتزازى بوجودك معى واغتباطى بقربك منى ولو ساعة من نهار أنسى كل ما أقاسيه فى لحظة من ألحاظك . أما اليوم فقد تغيرت الأحوال وتبدلت الشئون تبدلا عظيما فأصبحنا أنا وأنت لا نملك من أمرنا شيئا حتى حرية التحاب والتواد . أصبح ما هو فى العادة سبب اتصال واقتراب بين الرجل والمرأة سببا لانفصالنا ، وحائلا دون اجتماعنا ، وذلك للحال السيئ الذى نحن فيه . ألا يجب أن نهيئ هذه المجاملات وتلك الآداب لذلك الذى لم يوجد بعد الوجود الكامل بحيث يطلق عليه ما يعبر به عن الموجود؟ ألا إنه قد وجبت له علينا حقوق نحن مطالبون بأدائها . إياك أن تنسى أنك مسئولة أمام الله عما وهب لك من حلية الشرف بأن أهلك لأن تكونى أما .

إنى أخاطبك من حيث أنا طبيب وزوج — وأخشى أن أتعجل فأقول أب — بأن الذى ينبغى لك الآن هو شىء من السكينة والاستقرار . وأنصح لك بأن

(١) تتضمن هذه الرسالة نزاهة الأب البار وإيثاره مصلحة ولده على مصلحة نفسه — المترجم .

تُغَادِرِى بِلَادَنا الْآنَ وَتُهَاجِرِى مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَمِيدُ(١) بِزَلَازِلِ الْفِتَنِ، فَعِى نَصِيحَتِي وَاتَّبِعِيهَا، وَاعْلَمِي أَنَّ لِي صَدِيقًا فِي إِنْجِلْتِرَةَ مِنْ أَصْفِيَاءِ الْأَطِبَّاءِ يُنَاجِينِي حُسْنُ اعْتِقَادِي فِيهِ أَنَّهُ سَيَنْفَعُكِ وَيُرْشِدُكِ إِلَى كُلِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكِ عِلْمُهُ مِمَّا يَتَيَسَّرُ لَكِ بِهِ تَوَطُّنُ تِلْكَ الْبِلَادِ عَلَى حَالَةٍ مُوَافِقَةٍ، وَإِنَّ لَنَا وَالْحَمْدُ لِلهِ فِيمَا جَمَعْتُهُ بِكَدِّي مِنْ يَسِيرِ الْمَالِ سَدَادًا مِنْ عَوَزٍ بَلْ كَفَافًا مِنَ الْعَيْشِ، فَاسْتَجْمِعِي بِهِ أَوَّلًا لِنَفْسِكِ كُلَّ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَمُعَدَّاتِ الْمَعِيشَةِ الطَّيِّبَةِ ثُمَّ احْفَظِي مَا بَقِيَ لِتَرْبِيَةِ وَلَدِنَا . . . . آهِ لَوْ أَدْرِي عَاجِلًا أَنَّكِ قَدْ فَارَقْتِ فَرَنْسَةَ وَابْتَعَدْتِ عَنْ مَشَاغِبِ الشِّقَاقِ الدَّاخِلِيِّ، فَعَجِّلِي بِالرَّحِيلِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ .

أَقُولُ — وَاللهُ عَلَى مَا أَقُولُ شَهِيدٌ — إِنَّكِ لَمْ تَكُونِي فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ أَعَزَّ عَلَى نَفْسِي وَأَغْلَى قِيمَةً عِنْدِي مِنْكِ هَذِهِ السَّاعَةَ الَّتِي أَرْغَبُ فِيهَا إِلَيْكِ فِي عَدَمِ اللَّحَاقِ بِي فِي سَفَرِي الْمُحْزِنِ . لَا تُكْثِرِي هَمَّكِ بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ وَاعْلَمِي أَنَّ جُلَّ مَا يُعَانِيهِ الْمَسْجُونُ مِنَ الشَّقَاءِ هُوَ إِحْسَاسُهُ بِأَنْ لَا نَفْعَ فِي وُجُودِهِ وَقَدْ ذُقْتُ أَنَا هَذَا الْأَلَمَ النَّفْسِيَّ وَبَلَوْتُ مَرَارَتَهُ لَكِنِّي الْيَوْمَ قَدْ كُلِّفْتُ وَاجِبًا جَدِيدًا يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَدَاؤُهُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَقُومَ بِهِ مَهْمَا حَالَتْ دُونَهُ الْحَوَائِلُ .

وَفِي الْخِتَامِ أُوَدِّعُكِ وَدَاعَ حَبِيبٍ يَرَى فِي قَلْبِهِ مِنْ إِجْلَالِكِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّكِّ فِي حُبِّكِ إِيَّاهُ وَيَعْلَمُ بِهِ أَنَّكِ لَا تَشُكِّينَ فِي حُبِّهِ إِيَّاكِ .

(حَاشِيَةٌ) إِنِّي مُرْسِلٌ طَيَّ هَذَا مَكْتُوبًا لِلدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونَ فِي لُنْدُرَةَ . اهـ

(١) تميد : تتحرك .

الرسالة الحادية عشرة

(مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فى ١٥ فبراير سنة — ١٨٥)

تَفْضِيلُ الْأُمُومَةِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ وَأَمَانِي الْأُمِّ فِي الْوَلَدِ

أَطَعْتُ أَمْرَكَ وَسَمِعْتُ نُصْحَكَ وَسَأُسَافِرُ غَدًا إِلَى إِنْجِلْتَرَةَ ، وَإِنِّى قَدِ اسْتَرْجَعْتُ جُزْءًا مِنْ ثَبَاتِ جَنَانِى ، وَفَتَحَ مَكْتُوبُكَ لِى أَبْوَابًا أَرَى مِنْهَا مَشَاهِدَ جَدِيدَةً . لِتَفْنَ صِفَةُ الزَّوْجِيَّةِ فِي صِفَةِ الْأُمُومَةِ فَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ لَا مَحِيصَ لِى مِنَ اتِّبَاعِهَا . عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ الَّذِى وُعِدْتُ بِهِ سَيَكُونُ الرَّابِطَةَ بَيْنَنَا وَيُقَرِّبُ شُقَّةَ الْبَيْنِ الَّتِي تَفْصِلُنَا بَعْضَ التَّقْرِيبِ وَإِنِّى أَرْغَبُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ يَوْمَ يَمُنُّ اللهُ عَلَيْنَا بِانْتِظَامِ الشَّمْلِ مَوْضُوعَ سَلْوَةٍ لِأَحْزَانِنَا وَقُرَّةً لِأَعْيُنِنَا وَعِزَّةً لِأَنْفُسِنَا . حَقَّقَ اللهُ مَا نَرْجُوهُ مِنَ الْأَمَلِ وَوَقَانَا بِفَضْلِهِ عَوَادِىَ السُّوءِ . اهـ

الرسالة الثانية عشرة

(مِنْ هَيْلَانَةَ إلى إِرَاسْمَ فى ٢٥ مارس سنة — ١٨٥)

وَصْفُهَا لُنْدُرَةَ وَمُقَابَلَتُهَا الدُّكْتُورَ وَارِنْجِتُونَ وَسَفَرُهَا بِإِرْشَادِهِ إِلَى بَنْزَانْس وَإِقَامَتُهَا مَعَ زَوْجِهِ وَوَصْفُهَا مَا لَاقَتْ

كِتَابِى إِلَيْكَ وَقَدِ اسْتَقَرَّ بِيَ النَّوَى (١) الْآنَ فِي إِنْجِلْتَرَةَ أُكَاشِفُكَ فِيهِ بِمَا وَجَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ فَأَقُولُ . اسْتَأْجَرْتُ مَسَاءَ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ الْمَاضِى عَجَلَةً اجْتَزْتُ بِهَا مَا بَيْنَ

---

(١) النوى : البعد .

الْقَنْطَرَةِ الْمُسَمَّاةِ بِقَنْطَرَةِ لُنْدُرَةَ « لُنْدُنْ بِرِيدْج » وَالْمَيْدَانِ الْمَعْرُوفِ بِمَيْدَانِ أُوسْتُون . وَكَأَنِّي بِكَ سَائِلِي عَمَّا شَاهَدْتُهُ مِنْ عَاصِمَةِ الْجَزَائِرِ الْبِرِيطَانِيَّةِ : لَمْ أَرَ مِنْهَا شَيْئًا أَوْ إِنَّ مَا رَأَيْتُهُ لَا يَكَادُ يَكُونُ شَيْئًا يُذْكَرُ . كُنْتُ أُحِسُّ أَحْيَانًا بِأَنِّي أَدُورُ فِي الظَّلَامِ مَعَ الْعَجَلَةِ أَثْنَاءَ جَرْيِهَا فِي الْمَيَادِينِ الْفَسِيحَةِ الْمُحْتَفَّةِ بِالْبَسَاتِينِ وَالْبُيُوتِ الَّتِي كُنْتُ إِخَالُهَا هَاجِعَةً . وَكُنْتُ أَرَى عَقِبَ ذَلِكَ مِنْ كُوَّتَيِ الْعَجَلَةِ شَوَارِعَ طَوِيلَةً تَمْتَدُّ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ تَحُدُّهَا الْمَخَازِنُ التِّجَارِيَّةُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، وَيَمْتَدُّ فِي جَانِبَيْ كُلٍّ مِنْهَا عَلَى مَدَى الْبَصَرِ صَفَّانِ مِنَ الْمَصَابِيحِ الْغَازِيَّةِ ، فَكُنْتُ تَارَةً أَجِدُنِي فِي ظُلُمَاتٍ مُتَكَاثِفَةِ الْحُجُبِ وَأُخْرَى أَرَانِي بَيْنَ طَوَائِفَ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَصَابِيحِ . وَقَدْ كَانَ مَنْظَرُ ضَوْئِهَا الْمُنْعَكِسِ عَلَى رُصُفِ الشَّوَارِعِ الْمُبَلَّلَةِ وَعَلَى وَقَائِعِ(١) الطَّرِيقِ ، وَجُمْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ وَسِمَاتُ الْهَمِّ وَالِاشْتِغَالِ بَادِيَةٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَجَلَبَةُ الْغَوْغَاءِ(٢) الَّتِي كَانَ يَتَعَاوَرُهَا السُّكُوتُ فَجْأَةً — كَانَ كُلُّ هَذَا غَرِيبًا عِنْدِي غَيْرَ مَعْهُودٍ لَدَيَّ ، وَكَانَتِ السَّمَاءُ تُمْطِرُ وَكَأَنْ لَا مَطَرَ — ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ تُرْهِمُ(٣) إِرْهَامًا خَفِيفًا جِدًّا يَقُولُ رَائِيهِ إِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِرَّ هَكَذَا أَلْفَ سَنَةٍ ، وَقَدْ حَصَلَ فِي ذِهْنِي مِنْ سَفَرِي هَذَا فِي سُدَفِ الظَّلَامِ مُجْتَازَةً مُسْتَنْقَعَاتِ الْمَاءِ جَائِلَةً فِيمَا أَجْهَلُهُ مِنَ الْأَمَاكِنِ صُورَةُ مَدِينَةٍ لَا أَوَّلَ لَهَا وَلَا آخِرَ ، فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ ضُرُوبِ الْعَظَمَةِ وَالْبَذَخِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَقَارَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، فَهَلْ هَذِهِ هِيَ لُنْدُرَةُ ؟

---

(١) الوقائع : جمع وقيعة وهى النقرة فى الجبل أو فى السهل يستنقع فيها الماء.

(٢) الغوغاء : عامة الناس ، وجلبتهم : لغطهم غير المفهوم .

(٣) أرهمت السماء : أتت بالرهمة وهى بكسر الراء المطر الضعيف الدائم .

تبوأت النزل الذى كانت وصفته لى السيدة ... فألفيت كل ما فيه فى غاية النظافة والهدوء والنظام . قدم لى العشاء فى غرفة خاصة منه، فيها كفايتها من الفرش وهى ملاصقة للغرفة التى أعدت لنومى . وقد راعنى من خادمة المائدة جمالها البارع . فبعثنى ذلك على مراجعة ذاكرتى لادكار القليل من الإنجليزية الذى كنت تعلمته فى المدرسة لمخاطبتها بلغتها ، فكانت أجوبتها لى فى غاية الاختصار، ولم ألبث أن فهمت من احتراسها فى كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها أن الخادمات الانجليزيات لا يحفلن بخطاب المخدوم إياهن خلافا للفرنسيات . والذى أدهشنى كثيرا فى هذا النزل أن أهله لم يسألونى عن اسمى ولا عن حقيقة أمرى ! ! عجبا لهذه البلاد التى لا يظهر أن أهلها يعتقدون أنى ما أتيت بلادهم إلا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية) .

إتباعا لنصائحك قد اهتديت إلى محل الدكتور وارنجتون وذهبت إليه فى ثانى يوم من وصولى وقدمت إليه مكتوبك ـــ فما كاد يأتى على آخره حتى تذكر اسمك وأقبل على تلوح عليه علائم الوقار الفطرى . أنشأ هذا الدكتور يخاطبنى بالفرنسية وهو يحسن الكلام بها بعض الإحسان فقال : «لقد أصاب زوجك فى إرسالك إلى بلاد أجنبية فسترتاح نفسك إلى المقام فى إنجلترة بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة إلا أنى أنصح لك بأن تقيمى فى الأرياف فإنها أجود مناخا وأصفى هواء فإن السكنى فى الحواضر العظيمة لا تلائم النساء فى الطور الذى أنت فيه الآن ولا تلائم الأطفال أيضا ، وقد أنشأ الكبراء من تجارنا فى لندرة يفهمون مزايا الإقامة فى القرى ويقدرونها حق قدرها فتريهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل يوم

فى السكة الحديدية ولا بما يضيعه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة التى منها الحضور فى ناديهم مثلا وذلك ليمتعوا أسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الأيلى . ولكل امرئ منهم فى الحقيقة نصيب من فائدة هذه الإقامة غير أن الأطفال هم أصحاب الحظ الأوفر منها فهم ينشأون فى كمال الصحة من هذه المعيشة المطلقة فى هواء الفضاء ، ولا يكاد يرغب عن ذلك إلا الغنجات[1] المتورنات[2] اللاهيات بالتافه والمحقرات ، ولكن ما الحيلة فى إرضائهن وللأمومة واجبات لا بد من أدائها ؟ تأملى فى الأطفال الذين يتربون فى المدن الكبيرة ، ألا ترين معظمهم شاحبى الألوان سقيمى الأجسام كالنباتات الموشمة (النابتة فى الظل المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها) أتظنين أنهم على هذا الضعف يزدادون فى عقولهم بقدر ما يخسرون من صحتهم ؟ كلا إنى لا أرى هذا صوابا لأن جو المدن الذى أفسده ما فيها من ضروب اللذائذ وصنوف الأعمال لا يلائم بحال من الأحوال نمو العقل الخاق ، وإن الأطفال ليبلغون سن الرجولية قبل إبانه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التى فى المدن إلا أنهم فى الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون فى الكمال الدرجة المطلوبة » .

فاه الدكتور بهذه الكلمات الأخيرة وابتسم ابتساما انتهى بظهور خطوط عرضية على وجهه السكسونى المستدير الذى يشرف منه على خديه شعر الصدغين القصير الذى قد وخطه[3] الشيب ، ثم استأنف الخطاب فقال :

(١) الغنجات : ذوات الدلال . (٢) المتورنات : المبالغات فى التطيب والتنعم . (٣) وخطه : خالطه .

«دعيني أتولّى أمر سكناك في الخلاء فإنّ لي صديقا يملك في قرية مرازيون بيتا للنزهة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يبحث عن مستأجر يؤجره له بجميع أثاثه وریاشه لأنه على وشك الرحيل إلى إيطالية للمقام بها لأسباب صحية، فأنا أرغب إليك في الذهاب إلى هذا البيت ورؤيته وأحثك على ذلك وأرى أن في هذا السفر تسلية لك وترويحا، ولو أني طبيبك لكان من أول ما أصفه لك تبديل الهواء وكوني على ثقة بأن آلام النفس تزول بتغيير المؤثرات، فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاصى على هذا التغيير كما ثبت لي بالتجارب، فإنّ الإنسان إذا رأى مشاهد خلائية جديدة يحيا حياة جديدة . وليس لي أن أمدح لك أميرية (كونتية)[1] كورنواى فإنها مسقط رأسي، على أن الناس قد أجمعوا على القول بأنها أكثر جهات بريطانية العظمى اعتدالا في الإقليم وأنها هي التي يعيش في أرضها الريحان والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . إن كنت ممن يروقهن منظر الصخور فإنك ستشاهدين هناك منها جميع الأشكال في أبهج الأوضاع وأجدرها بالتصوير، ولست أعرف حق المعرفة مقدار الأجرة التي يطلبها صديقي في سكنى بيته لكني لا أشك في أنه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه وستجدين في بنزانس زوجتي السيدة وارنجتون فإنها هناك هي وأسرتها حتى الآن وستغتبط باستقبالك وأما أنا فسأذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من أشغالي في لندرة، فإننا معشر الإنجليز لا نقدر على إطالة الثواء في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجاتنا . وما كان أجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها

(١) الكونتية هي أرض الكونت وهو الأمير الشريف من أشراف فرنسة الغابرين .

وَلَا عَجَبَ وَأَصْبَحْنَا بِسَبَبِ هَذَا الِاخْتِرَاعِ أَقَلَّ الْأُمَمِ تَغَيُّرًا فَإِنَّنَا مَعَ سَفَرِنَا الدَّائِمِ فِي إِقَامَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِأَنَّنَا فِي أَوْطَانِنَا أَيْنَمَا كُنَّا » .

إِفْتَرَقْتُ أَنَا وَالدُّكْتُورُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الْوِفَاقِ وَالْمَوَدَّةِ وَقَدْ خَاطَبَنِي فِي شَأْنِكِ بِمَا شَفَّ لِي عَنْ كُنْهِ إِجْلَالِهِ لَكِ وَإِعْظَامِهِ لِقَدْرِكِ ، وَلَمَّحَ لِي مَرَّةً وَاحِدَةً فِي مَطَاوِي كَلَامِهِ تَلْمِيحًا خَفِيفًا إِلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْفُرْقَةِ الْحَاضِرَةِ فَأَبَانَ لِي بِهِ عَنْ عَطْفٍ عَلَيَّ وَمَيْلٍ إِلَيَّ وَلَمْ يَسْتَرْسِلِ اسْتِرْسَالَ النَّاسِ فِي عِبَارَاتِ التَّعْزِيَةِ وَالتَّسْلِيَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا أَذَلَّتْنِي وَهَضَمَتْنِي حَقَّ إِدْلَالِي بِصِفَةِ الزَّوْجِيَّةِ . تَمَّ الِاتِّفَاقُ بَيْنَنَا عَلَى أَنْ أُسَافِرَ فِي الْغَدِ إِلَى كُورْنُوَايَ وَإِنَّمَا عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ لِأَسْتَقِرَّ فِي مَكَانٍ مَا ، وَقَدْ رَضِيتُ هَذِهِ الْبَلْدَةَ لِي مَقَرًّا لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَمْكِنَةِ الَّتِي لَا أَرَاكِ فِيهَا سَوَاءٌ عِنْدِي .

لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى بَنْزَانْسَ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ تَلَقَّتْنِي السَّيِّدَةُ وَارِنْجْتُونُ عِنْدَ نُزُولِي مِنْ عَجَلَةِ الْمُسَافِرِينَ وَكَانَتْ فِي انْتِظَارِي لِأَنَّ زَوْجَهَا كَانَ كَتَبَ إِلَيْهَا بِذَلِكَ ، وَإِذَا أَرَدْتِ أَنْ تَتَصَوَّرِي تِلْكَ السَّيِّدَةَ فَمَثِّلِي لِنَفْسِكِ امْرَأَةً فِي نَحْوِ الْخَامِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا لَيْسَتْ حَسَنَةَ الْوَجْهِ وَلَا دَمِيمَتَهُ (١) ، وَلَكِنَّهَا مَحْبُوبَتُهُ ، سَوْدَاءُ الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعْرِ خَنْسَاءُ الْأَنْفِ (٢) عَظِيمَةُ الْفَمِ بَاسِمَتُهُ سَمِينَةٌ قَصِيرَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَفِيفَةٌ نَشِيطَةٌ قَدْ أُوتِيَتْ حَظًّا وَافِرًا مِنَ الْحَنَانِ وَالرَّأْفَةِ .

لَقَدْ كَثُرَ مَا لَاحَظْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بَيْنَ شَخْصَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ وَالْمَوْطِنِ تَشَابُهٌ كَالَّذِي يُوجَدُ بَيْنَ أَفْرَادِ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ أَنَّ كُلًّا

---

(١) دميمه : قبيحه .

(٢) خنساء الأنف أي أنفها متأخر عن وجهها وفي أرنبته ارتفاع .

مِنْهُمَا يَكُونُ أَجْنَبِيًّا مِنَ الْآخَرِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ . أَتَدْرِى مَنْ هُوَ الَّذِى حَضَرَتْ صُورَتُهُ فِى ذِهْنِى عِنْدَ وُقُوعِ بَصَرِى عَلَى السَّيِّدَةِ وَارِنْجِتُونَ ؟ ذَلِكَ هُوَ صَدِيقُكَ يَعْقُوبُ نُقُولَا ، خِلْتُنِى أَرَاهُ بِذَاتِهِ فِى زِىِّ امْرَأَةٍ .

حَمَلَ أَمْتِعَتِى خَادِمٌ كَانَ يَصْحَبُ هَذِهِ السَّيِّدَةَ فَوَضَعَهَا فِى عَجَلَةٍ رَكِبْنَاهَا فَأَوْصَلَتْنَا إِلَى مَنْزِلِ الدُّكْتُورِ الرِّيفِىِّ . وَلِهَذَا الْمَنْزِلِ مَنْظَرٌ بَهِيجٌ إِذَا شُوهِدَ لَيْلًا فِى ضَوْءِ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لِكَوْنِهِ مَبْنِيًّا بِالصَّوَّانِ كَمُعْظَمِ بُيُوتِ التَّنَزُّهِ الْخَلَائِيَّةِ وَالْأَكْوَاخِ الَّتِى فِى تِلْكَ الْجِهَةِ كَأَنَّ حِجَارَتَهُ صَفَائِحُ مِنَ الْيَرْمَعِ (١) وَالْمَهْوِ (٢) تَلْمَعُ كَأَنَّهَا شُهُبٌ تَسَاقَطُ مِنَ الْقَمَرِ ، وَفِى النَّهَارِ أَيْضًا لَهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنْ جَمَالِ الْمَنْظَرِ ، فَإِنَّهُ قَائِمٌ فِى وَسَطِ حَدِيقَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ الْمَجْلُوبَةِ مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ اللَّطِيفَةِ ، وَيَنْبَسِطُ عَلَى طُولِ مُقَدَّمِهِ إِيوَانٌ مَسْقُوفٌ تَتَسَلَّقُهُ شُجَيْرَاتُ الْفُوشِيَاءِ (٣) الَّتِى تَرْتَفِعُ ارْتِفَاعًا غَيْرَ مَعْهُودٍ فَهُوَ مُزْدَانٌ مِنْ دَاخِلِهِ وَخَارِجِهِ بِزِينَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ الْأَزْهَارِ لَمْ تَرَ عَيْنِى مِثْلَهَا قَطُّ ، وَلِبُيُوتِ النَّبَاتِ الزُّجَاجِيَّةِ الْمَحَلُّ الْأَوَّلُ فِى انْتِظَامِ هَذِهِ الدَّارِ عَلَى مَا أَرَى . لَا جَرَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْبَسَاتِينِ الْمَسْقُوفَةِ بِالزُّجَاجِ تَزِيدُ الْمَعِيشَةَ الْأَهْلِيَّةَ نَضَارَةً وَحُسْنًا . وَالْغُرْفَةُ الَّتِى تَفَضَّلَ أَهْلُ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ بِإِعْدَادِهَا لِى وَأَحَلَّتْنِيهَا السَّيِّدَةُ وَارِنْجِتُونُ نَفْسُهَا بِمَا أُوتِيَتْهُ مِنْ كَامِلِ اللُّطْفِ وَفَائِقِ الظَّرْفِ يَخَالُهَا الْإِنْسَانُ جَنَّةً — لَوْ أَنَّ لِلْأَرْوَاحِ الْوَحِيدَةِ الْجَرِيحَةِ أَفْئِدَتُهَا مِنَ الْحُزْنِ جَنَّةً فِى هَذِهِ الدُّنْيَا ... — وَمِنْ مَحَاسِنِ هَذِهِ الْغُرْفَةِ أَنِّى عِنْدَمَا أَهُبُّ مِنْ نَوْمِى فِيهَا أَسْمَعُ تَغْرِيدَ الْقُبَّرَةِ (٤) فَيَرُوقُنِى لَحْنُهَا .

(١) اليرمع : حجارة بيض تلمع فى الشمس . (٢) المهو : حجر أبيض يقال له بصاق القمر .

(٣) الفوشياء : شجيرة أمريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع أزهارها وألوانها وسهولة غرسها وهى من أشجار الزينة .

(٤) القبرة — بضم القاف وتشديد الباء — : نوع من العصافير .

السَّيِّدَةُ وَارِنْجتُونُ هِيَ وَالِدَةٌ كَامِلَةٌ عَاقِلَةٌ فَإِنَّهَا تَقْسِمُ وَقْتَهَا قِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا ، وَالثَّانِي لِلْعِنَايَةِ بِأَمْرِ أَزْهَارِهَا ، وَلَهَا مِنْ كُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْفَرَاغِ يَكْفِيهَا لِلْمُطَالَعَةِ (١) ، وَهِيَ عَلَى بُعْدِهَا عَنِ الدَّعْوَى بِالْإِحَاطَةِ بِالْعُلُومِ فِي الْمَنْطُوقِ وَالْمَفْهُومِ لَهَا مِنْ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى مَسَائِلَ شَتَّى أَحْكَامٌ صَائِبَةٌ وَآرَاءٌ سَدِيدَةٌ . وَأُسْرَةُ هَذِهِ السَّيِّدَةِ يُعْجَبُ بِهَا مَنْ يَرَاهَا ، فَبِنْتَاهَا الْكَبِيرَتَانِ اللَّتَانِ إِحْدَاهُمَا رُبَّمَا كَانَ عُمْرُهَا سَبْعَةَ عَشَرَ رَبِيعًا — كَمَا كَانَ يُقَالُ فِي تَقْدِيرِ السِّنِّ سَابِقًا — لِكُلٍّ مِنْهُمَا وَجْنَتَانِ يَذُوبُ الْوَرْدُ مِنْهُمَا غَيْرَةً وَحَسَدًا ، وَبَعْدَ هَاتَيْنِ الْبِنْتَيْنِ صَفٌّ مِنْ بَنَاتٍ أُخْرَيَاتٍ وَبَنِينَ يَتَأَلَّفُ فِيهِ مِنَ اخْتِلَافِ رُءُوسِهِمْ بِالصِّغَرِ وَالْكِبَرِ وَتَبَايُنِهِمْ بِالطُّولِ وَالْقِصَرِ نِظَامٌ يَحْوِي أَجْمَلَ الْفُرُوقِ وَأَبْهَاهَا . كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ النِّسَاءَ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ نُثُرٌ (كَثِيرَاتُ الْأَوْلَادِ) وَلَكِنْ : اللهُ أَكْبَرُ ؟ مَا هَذَا الزُّخْرُفُ زُخْرُفُ الشُّعُورِ الشَّقْرَاءِ وَالْأَكْتَافِ الْمَكْشُوفَةِ وَالْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ الْغَضَّةِ الَّتِي مَا كُنْتُ أَسْمَعُ بِهَا ! . اهـ

الرسالة الثالثة عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٢٨ مَارِسْ سَنَةَ — ١٨٥)

زِيَارَتُهَا جَبَلَ الْقِدِّيسِ مِيكَائِيلَ وَوَصْفُهَا الْمَنْزِلَ الَّذِي اسْتَأْجَرَتْهُ لِلسُّكْنَى

خَرَجْتُ بِالْأَمْسِ لِلنُّزْهَةِ أَنَا وَالسَّيِّدَةُ وَارِنْجتُونُ رَاكِبَتَيْنِ عَجَلَةً مَكْشُوفَةً سَلَكَتْ بِنَا الْمَهْيَعَ (٢) الَّذِي يَبْتَدِئُ مِنْ بِنْزَانْس وَيَلْتَفُّ حَوْلَ الْخَلِيجِ الْمُسَمَّى بِخَلِيجِ الْجَبَلِ عَلَى شَكْلِ

(١) من لنا بسيدات مثل هذه السيدة يفهمن قيمة الوقت ويستعملنه استعمالها فلا يضيعنه فيما يعود عليهن وعلى أولادهن وأزواجهن بالخسار والبوار كالتزين والتبرج والاختلاف الى مواطن اللهو وغشيان الأسواق بغير ضرورة — المترجم .

(٢) المهيع الطريق الواسع البين .

نصف دائرة عظيمة كحذاء الفرس فما أبهج ما رأيته وأجمله! على أنه ليس أول شيء أمال ذهني ونبه فكري هو البحر الزاخر أو شواطئه المرصعة بالصخور أو حركة أمواجه المتلاطمة المتعاقبة في تلاشيها على رمل الطريق، بل الذي استوقف نظري هو قطعة من الصوان يعلوها بناء كالدير أو القلعة الحصينة يسميها الإنجليز بالجبل. وهي بارزة على يسار بطن الخليج ولذلك نسب إليها فقيل له خليج الجبل. إخالني رأيت هذه الصخرة بما فوقها من الأبراج الصغيرة في منام أو في وقعة من وقعات الكابوس علي.

سألت السيدة وارنجتون بصوت متقطع من الرعشة عن هذا الشبح الحجري فأجابتني مترددة لما رأته من حالتي بقولها: هذا هو جبل القديس ميكائيل عندنا فلما سمعت منها هذه الكلمة أحسست بأن كل ما في جسمي من الدم قد جزر[1] عائدا إلى قلبي، فلمحت ما صرت إليه من الاضطراب وعرضت علي الرجوع إلى المنزل فصحت: لا، بل لا بد لي من الذهاب إليه، فاضطررنا من أجل ذلك إلى الطواف حول الخليج والذهاب إلى مرازيون.

لما أن صرنا حذاء الجبل كان البحر في إبان جزره وكانت هذه الصخرة الصوانية على شكل شبه جزيرة لانحسار الماء عن بعض جهاتها بعد أن كانت جزيرة كاملة بعض ساعات من النهار، سلكنا للوصول إليها شعبا رمليا موحلا يكتنفه من الجانبين قطع من الصخور مغطاة بالطحلب والعلق[2] المبللة وتيسر لنا به أن نجتاز

(١) جزر: يعني رجع.

(٢) العلق: نبت يكون واحدا وجمعا قضبانه دقاق عسر رضها تتخذ منه المكانس.

البحر يبسًا وبما كان يعرض لنا من القطع الصخرية كنا كأننا نمشى بين أطلال، وكنت كلما جد بنا السير أزداد دهشة وارتياعًا لتشابه ذينك الجبلين المتحدى الاسم فإن هذه الصخرة بما فوقها من البناء وما حولها من البحر تكاد تكون عين التى فى بلادنا، إلا أن تلك أسعد حظًا من هذه فإنها لم تدنس باتخاذها سجنًا فى زمن من الأزمان .

أفضى بنا المسير بعد حين إلى سفح ذلك الجبل، فإذا حوله لفيف من مساكن حقيرة يتألف من مجموعها قرية للصيادين والملاحين، فوقفنا تشرف علينا الصخرة الصوانية من سموها الرائع، ثم اقتحمناها فاضطررنا فى ذلك إلى الصعود على شعب بل سلم نحتت درجاته فى الصخرة وقد انتهى الأمر بالسيدة وارنجتون إلى أن ضاقت أنفاسها وطفقت تلهث من شدة التعب، فدعوتها إلى الاستراحة على كتلة من كتل صخرية كانت تعترضنا فى طريقنا ويظهر أنها خرجت من باطن الجبل بسبب انفجار نارى فما كان أسرع ما أجابت، وجلسنا طائفة من الزمن لا ننبس بكلمة لما أدهشنا من مشهد العظيم والخراب، فكان البحر محدقًا بنا وذلك البناء القائم الذى هو من آثار القرون الوسطى فوقنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا أطلال من الصخر يغطى جزءًا من عريها بعض الأعشاب البرية . وقد رأيت على ما فى هذا المكان من المحول[1] زهرة زرقاء نابتة فى صدوع الصخر على طبقة رقيقة من بقايا الأعشاب المتعفنة فقطفتها على ذكراك لعلها تكون بشرى السعادة. كنت إلى هذه الساعة التى رأيت فيها جبل القديس ميكائيل مترددة فى اختيار البقعة التى أتخذها متبوءًا وسكنًا، وأما الآن فقد استقر لمجرد مشاهدته رأيى وزال ترددى . فكأنما

(١) المحول : الجدب أى خلو الأرض من النبات .

يُوجَدُ شيءٌ مِنَ السِّحرِ فى أَسْمَاءِ الأَمْكِنَةِ وَأَشْكَالِهَا تَغلب عَلَى فِكْرِى فَحَمَلَنِى عَلَى تَرْجِيحِ الإِقَامَةِ بِهَذَا المَحَلِّ عَلَى أَنَّهُ لَا بِدْعَ وَلَا سِحْرَ، فَهَاتَانِ الصَّخْرَتَانِ — اللّتَانِ تَتَرَاءَيَانِ وَتَتَنَاغَيَانِ(١) مع فَصْلِ المُحِيطِ بَيْنَهُمَا — وَهُمَا جَبَلَا القِدِّيسِ مِيكَائِيلَ أُخْتَانِ فى إِنْجِلْتِرَةَ وَفَرَنْسَةَ مُتَشَابِهَتَانِ فِى جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالأَوْضَاعِ فَأَوَّلُ هَذَيْنِ الحِصْنَيْنِ وَهُوَ حِصْنُ الإِنْجِلِيزِ كَانَ حَظُّهُ مِنْ كَرِّ السِّنِينَ عَلَيْهِ التَّرْكُ وَالإِغْفَالُ، وَأَمَّا ثَانِيهِمَا وَهُوَ حِصْنُنَا فَإِنَّ لَهُ صُرَاخًا يَصِلُ إِلَى كَبِدِ السَّمَاءِ دَالًّا عَلَى اسْتِبْشَاعِ حَالَتِهِ وَأَمَلِهِ فِى الخَلَاصِ مِنْهَا .

ذَهَبْنَا فِى نَفْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ لِزِيَارَةِ المَنْزِلِ الَّذِى أَوْصَانِى الدُّكْتُورُ وَارِنْجتُونُ بِاسْتِئْجَارِهِ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مُؤَسِّسِى قَرْيَةِ مَرَازِيُونَ الَّتِى هُوَ فِيهَا مِنَ اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّجِرُونَ فِيهَا بِالقَصْدِيرِ قَبْلَ مِيلَادِ المَسِيحِ بِزَمَنٍ مَدِيدٍ . وَإِنِّى لَفِى شَكٍّ مِنْ وُجُودِ كَثِيرٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمِ الآنَ فِى هَذِهِ القَرْيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دَلَائِلِ وُجُودِهِمْ فِى هَذِهِ الجِهَاتِ إِلَّا اسْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ (أَمِيرِسِيُون) قَدِ ارْتَاحَتْ نَفْسِى لَهُ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُنِى بِفَرَنْسَةَ . تَتَأَلَّفُ تِلْكَ القَرْيَةُ مِنْ جُمْلَةِ مَسَاكِنَ جَدِيدَةٍ عَلَى بَعْضِهَا مِسْحَةٌ مِنْ طَلَاوَةِ المَدَنِيَّةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَهِىَ قَائِمَةٌ مِنَ الخَلِيجِ عَلَى شَاطِئِهِ المُقَابِلِ لِجَبَلِ القِدِّيسِ مِيكَائِيلَ الَّذِى يَتَرَاءَى مَعَهَا عَلَى بُعْدٍ ، فَلَهَا فِى ذَلِكَ مَنْظَرٌ ذُو بَهَاءٍ وَجَلَالٍ مِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّ هَذَا الخَلِيجَ — وَهُوَ تِلْكَ القِطْعَةُ الجَمِيلَةُ مِنَ المَاءِ الَّتِى تَكْتَنِفُهَا الرِّمَالُ وَتَتَخَلَّلُهَا الصُّخُورُ وَخُصُوصًا مَا هُوَ مِنْهَا جِهَةَ الشَّاطِئِ المُقَابِلِ لِلْمَنَازِلِ — تَكْثُرُ فِيهِ حَرَكَاتُ الأَمْوَاجِ المُعْتَدِلَةِ الَّتِى تُسَكِّنُ آلَامَ النَّفْسِ وَتُخَفِّضُ مِنْ بُرَحَائِهَا(٢) .

(١) تتناغيان : تتباريان فى الارتفاع وغيره من الصفات . (٢) البرحاء : شدة الأذى والمشقة .

بَقِيَ عَلَيَّ الآنَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنِ الْمَنْزِلِ فَأَقُولُ : إِنَّهُ لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَتَانَةِ وَالرَّصَانَةِ لِأَنَّهُ كُلَّهُ مَبْنِيٌّ بِالصَّوَّانِ الَّذِي يَكْثُرُ فِي هَـذِهِ الْجِهَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَلَمَّا كَانَتْ مَادَّتُهُ شَـدِيدَةَ الصَّـلَابَةِ تَتَعَاصَى عَلَى النَّحْتِ اعْتَادَ الْبَنَّاءُونَ الِاكْتِفَاءَ فِي إِعْدَادِهِ لِلْبِنَاءِ بِتَرْقِيقِ قِطَعِهِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ ظُهُورُ جُدْرَانِ الْمَسَاكِنِ على الْجُمْلَةِ خَشِنَةً وَغَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ ، وَطَرِيقَةُ الْبِنَاءِ فِي الدَّاخِلِ تُخَالِفُ كَذَلِكَ طَرِيقَتَنَا فِيهِ مُخَالَفَةً عَظِيمَةً لِأَنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ هُنَا عَلَى فَصْلِ الْبُيُوتِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِحَيْثُ لَا تَتَلَاصَقُ بَلْ هُمْ يَفْصِلُونَ بَيْنَ الْغُرَفِ أَيْضًا بِحَيْثُ تَكُونُ الْمَعِيشَةُ عُزْلَةً تَامَّةً .

ذَلِكَ الْبَيْتُ قَائِمٌ عَلَى رَبْوَةٍ رَمْلِيَّةٍ قَحْلَةٍ ، فَلِذَلِكَ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مُعَرَّضًا لِهُبُوبِ الرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْبَحْرِ ، لَكِنَّ النَّاسَ يُؤَكِّدُونَ لِي أَنَّ هَذِهِ الرِّيَاحَ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ تَكُونُ فَاتِرَةً صِحِّيَّةً فِي جَمِيعِ فُصُولِ السَّـنَةِ . وَأَمَّا الْأَثَاثُ فَهُوَ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ وَالْمُلَاءَمَةِ لِحَالَتِي ، وَأَكْثَرُ مَا دُهِشْتُ لَهُ فِي هَـذَا الْبَيْتِ هُوَ أَنِّي وَجَدْتُ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ غُرْفَتَيْنِ مُنْفَصِلَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى تَمَامَ الِانْفِصَالِ لَيْسَ لَهُمَا فِي ذَاتِهِمَا شَيْءٌ تَمْتَازَانِ بِهِ امْتِيَازًا ظَاهِرًا لَكِنَّهُمَا عَلَى هَـذِهِ الْبَسَاطَةِ قَدْ أَحْسَنَ الْبَنَّاءُ وَضْعَهُمَا فَكَانَ لَهُـمَا أَجْمَلُ مَنْظَرٍ وَأَحْسَنُ مَوْقِعٍ تُشْرِقُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، فَالضَّوْءُ يَسْبَحُ فِيهِمَا بِلَا حِجَابٍ يَعْتَرِضُهُ لِأَنْ نَوَافِذَهُمَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِالتَّكْرِيمِ تَكَادُ تَكُونُ مُجَرَّدَةً مِنَ السَّتَائِرِ وَهَذَا مِنْهَا نَوْعٌ مِنَ الْأَدَبِ وَالتَّرْحِيبِ بِلِسَانِ الْحَالِ فَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ : تَفَضَّلْ فَهَذَا مَحَلُّكَ لَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ مَانِعٌ . نَعَمْ إِنَّ عَلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ بَعْضَ قُضْبَانٍ مِنَ الْحَدِيدِ انْقَبَضَ قَلْبِي لِرُؤْيَتِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ إِلَّا أَنَّ هَذَا الِانْفِعَالَ السَّيِّئَ قَدْ زَالَ عِنْدَ مَا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الْمَحَلَّ هُوَ مَسْكَنُ الْأَوْلَادِ وَأَنَّ

هَذِهِ القُضْبَانَ لَمْ تُوضَعْ إِلَّا لِمَنْعِ مَا عَسَى أَنْ يَقَعَ مِنَ الحَوَادِثِ الَّتِي تَكْثُرُ عَادَةً مِنَ الْأَطْفَالِ بِمَا يُلَازِمُ سِنَّهُمْ مِنَ التَّهَوُّرِ وَالْجَهْلِ بِالخَطَرِ فَهِيَ إِذَنْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ التَّحَفُّظِ لَا عَلَامَةٌ عَلَى الْأَسْرِ. فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الغُرْفَتَيْنِ يَنَامُ الْأَطْفَالُ وَفِي الْأُخْرَى يَلْعَبُونَ بِالنَّهَارِ إِذَا كَانَ الجَوُّ بَارِدًا أَوْ السَّمَاءُ مُمْطِرَةً وَقَدْ أَكَّدَ لِي النَّاسُ هُنَا أَنَّ هَاتَيْنِ الغُرْفَتَيْنِ يُوجَدُ لَهُمَا نَظِيرَتَانِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الإِنْجِلِيزِ التَّامَّةِ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ.

وَلَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ أَثَّرَ فِي نَفْسِي فَإِنَّ مُعْظَمَ الدُّورِ عِنْدَنَا فِي بَارِيسَ تَامَّةُ الْبُيُوتِ وَالْغُرَفِ وَالْمَرَافِقِ اللَّازِمَةِ، وَهِيَ حُجْرَةُ الْأَكْلِ وَقَاعَةُ الِاسْتِقْبَالِ وَغُرْفَةُ النَّوْمِ وَالْمَكْتَبِ وَمَخْدَعُ الْخَلْوَةِ وَغَيْرُهَا مِمَّا يُطَابِقُ عَادَاتِ الرَّجُلِ الدُّنْيَوِيِّ وَأَهْوَاءَ الْمَرْأَةِ الْمُتَرَبِّيَةِ فَلَمْ يُنْسَ فِيهَا إِلَّا مَا يَلْزَمُ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ الطِّفْلُ.

الطِّفْلُ عِنْدَنَا بِسَبَبِ اضْطِرَارِهِ إِلَى مُلَازَمَةِ الكِبَارِ فِي مَعِيشَتِهِمْ وَتَقْضِيَتِهِ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ وَالِدَتِهِ العَصَبِيَّةِ الرَّقِيقَةِ الْمِزَاجِ وَوَالِدِهِ الْمُثْقَلِ بِالْأَعْمَالِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ضَيْفًا مُقْلِقًا لِغَيْرِهِ وَأَسِيرًا كَاسِفَ الْبَالِ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ يَدُهُ إِلَى الْأَثَاثِ فَتُفْسِدَهُ، وَتَتَنَاوَلَ الْكُتُبَ فَتُمَزِّقَهَا وَالْآنِيَةَ الصِّينِيَّةَ فَتُكَسِّرَهَا، وَيَجُرُّ عَلَيْهِ هَذَا النَّزَقُ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الإِتْلَافِ الخَفِيفِ تَوْبِيخًا مُسْتَمِرًّا، فَيُقَرِّعُهُ(١) وَالِدَاهُ وَيُعَاقِبَانِهِ عَلَى نَشَاطِهِ وَسُرُورِهِ وَلَغَطِهِ، أَعْنِي عَلَى كَوْنِهِ طِفْلًا.

وَلَيْسَ هَذَا كُلَّ مَا يُلَاقِيهِ عِنْدَنَا فَإِنَّهُ أَحْيَانًا قَدْ يُطْرَدُ مِنْ مَسْكَنِ أَبَوَيْهِ لِضِيقِ الْمَحَلِّ، فَلَا يَجِدُ لَهُ مَأْوَى سِوَى فِنَاءِ الْمَنْزِلِ وَأَنْتَ تَدْرِي مَا هِيَ أَفْنِيَةُ الْبُيُوتِ فِي مُعْظَمِ الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ فَلَيْسَتْ هِيَ إِلَّا جُحُورَ ضِبَابٍ.

(١) يقرعه: يعنفه.

قَدْ فَهِمَ الإِنجليزُ مُقْتَضَيَاتِ الْمَعِيشَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ مِنْ حَيْثُ سُكْنَى الْأَوْلَادِ أَحْسَنَ مِمَّا فَهِمْنَاهَا بِكَثِيرٍ فَهُمْ يَعْتَبِرُونَ الْمَوْلُودَ عِنْدَهُمْ شَخْصًا مُسْتَقِلًّا فَيُفْرِدُونَه بِغُرْفَةٍ قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا .

لَمْ أَصِفْ لَكَ حَتَّى الْآنَ شَيْئًا مِنْ بُسْتَانِ الْبَيْتِ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِى أَخَذَتْ بَهْجَتُهُ وَنَضَارَتُهُ بِلُبِّى ؛ لَيْسَ لِهَذَا الْبُسْتَانِ سُورٌ مِنَ الْبِنَاءِ وَإِنَّمَا هُوَ مُحَاطٌ بِسِيَاجٍ مِنَ النَّبَاتِ تُمْطِرُهُ فِى شَهْرِ يُونِيَه — عَلَى مَا يُقَالُ — شُجَيْرَاتُ الرَّتَمِ (١) الشَّوْكِيَّةُ ذَهَبًا مِنْ أَزْهَارِهَا الْعَسْجَدِيَّةِ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَصَوَّرَ جَمَالَ هَذَا الْبُسْتَانِ فَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ نَحْوَ أَكْرَيْنِ (٢) أَرْضًا تُغَطِّيهِمَا جَمِيعًا شُجَيْرَاتُ الْوَرْدِ وَعِنَبِ الثَّعْلَبِ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَشْجَارِ الصَّغِيرَةِ . وَإِنَّمَا كَانَ مَا فِى هَذَا الْبُسْتَانِ شُجَيْرَاتٍ لِأَنَّ أَرْضَهُ رَمْلِيَّةٌ وَمُجَاوِرَةٌ لِلْبَحْرِ فَهِىَ لَا تَصْلُحُ لِلْأَشْجَارِ الْكَبِيرَةِ، وَلَكِنْ قَدْ أَنْشَأَتْ تَتَفَتَّحُ بَيْنَ أَعْشَابِهِ الْعِطْرِيَّةِ عُيُونُ بَعْضِ أَزْهَارِهِ الْبَنَفْسَجِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ جَمَالُهُ بَعْدَ خَمْسَةِ أَسَابِيعَ أَوْ سِتَّةٍ إِذَا كَسَاهُ الرَّبِيعُ بِلَا حِسَابٍ مَا لَدَيْهِ مِنْ حُلَلِ الْبَهَاءِ وَالنَّضَارَةِ ؟

قَدِ اسْتَأْجَرْتُ الْمَنْزِلَ وَسَأَسْكُنُهُ فِى الْأُسْبُوعِ الْمُقْبِلِ، وَأَمَّا الْآنَ فَأَنَا سَاكِنَةٌ عِنْدَ السَّيِّدَةِ وَارِنْجْتُونَ الَّتِى تُحِيطُنِى بِأُنْسِهَا الدَّائِمِ وَكَرَمِهَا الْغَامِرِ ، وَكُلُّ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ وَسَائِلِ النَّعِيمِ يُؤْلِمُنِى وَأُوَبِّخُ نَفْسِى عَلَيْهِ عِنْدَ مَا أَذْكُرُ سِجْنَكَ وَمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الضِّيقِ وَالْأَلَمِ .

---

(١) الرتم : شجرة ذات أزهار صفراء، أصلها من أسبانية .

(٢) الأكر كا فى الأصل مقياس سطحى قدره ٤٨٤٠ ياردة مربعة وأحسبه محرفا عن الإكارة القريبة فى المعنى منه لأنها فى عرف الفقهاء الإسلاميين ما يعطى من أرض للأكرة أى المزارعين لزراعته .

أنا مُتطلعةٌ لأخبارك أيها الحبيب فأرجو أن توافيني بشيء منها ، فهل خفت عليك معيشة السجن بسبب تغيير المحل أو زادت ثقلا ؟ أسألك بالله أن تصدقني الحديث ولا تخفي عني منه شيئا .

وفي الختام أقبلك من وراء تلك البحار التي وإن حالت بيننا لم تفرق بين قلبينا . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من إراسم إلى هيلانة في ٨ أبريل سنة ١٨٥)

وجوب محافظة الحامل على سلامتها من الأمراض

تلقيت مكتوبك أيتها العزيزة هيلانة فذهب به روعي وثابت إلى سكينتي واطمأن به قلبي عليك كثيرا لشفيفه(١) لي عما فيك من الإقدام والسلطان على نفسك فأنت حقا أشرف صاحبة عرفتها في حياتي . قدر علي السجن وعليك النفي فاحتملت نصيبك من المقدور شريفة النفس عالية الهمة .

إن نصيحة صديقنا الدكتور وارنجتون لك بسكنى القرى صادرة عن حكمة وسداد فإن الإقامة بالأرياف أولى بك الآن من السكنى في المدن لكثرة ما في هذه من الصخب والشغب لأن الاعتكاف والرجوع إلى المعيشة الفطرية هما اللذان يتيسر لك بهما ولا شك استجماع قواك بعد ما لاقيته من الصدمات النفسية التي أخشى أن تكون زعزعت صحتك فأوهنتها .

(١) لشفيفه أي لكشفه .

إعلمى أنَّ من المفروض عليك أنْ تكونى صحيحة الجسم سليمة من الأدواء، لأنك مسئولة من الآن عن الوديعة التى استودعك الله إياها ، ولا تستغربى منى مخاطبتى إياك باصطلاح العلماء بمنافع الأعضاء فإنى ما تعلمت الطب عبثًا بل تعلمته للانتفاع به . كُلُّ كائن دخل فى بداية الحياة عُرضة للمرض والهلاك . ولذلك كان للجنين أمراض حقيقية . ومن هذه الأمراض والعلل الخفية ما لا شك فى عجز العلم عن إدراك كنهه، ولكن يحق لنا كل الحق أن نعتقد أن للمرأة دخلا فى بعض ما يولد به الطفل من التشوه فى كثير من الأحوال، ولا إخالك نسيت تلك السيدة د ... التى فتنت القلوب ببديع حسنها، فإنها لما أصابها هوس المرقص وبعثها على أن تقضى فصل الشتاء كله رقصا فى قاعات باريس — بل أداها إلى الاستمرار على ذلك حتى فى ساعة الوضع — قد وضعت بنتا فيها شىء من الجمال على أنها حدباء .

إذا عرفنا أن لأعمال المرأة تأثيرًا فى الجنين كما وصفنا، تأتى لنا أيضا أن نقف على العلاقة التى بين انفعالاتها النفسية وبين أخلاق ذلك الجنين الذى يحيا بحياتها، ويشمله شخصها وتضمه أحشاؤها، فقد كان الحكيم هوب (١) يعالل ما فيه من خلق الجبن بما لاقته أمه من الأهوال أثناء حملها به حينما كانت العمارة الأسبانية المسماة أرمادا الشهيرة تهدد إنجلترة وتطوف حول سواحلها، وكان ما يتخيله أهلها من صورة إغارة الأعداء عليهم يلقى الرعب فى قلوبهم .

(١) هوب هو توماس هوب الحكيم الانجليزى الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفى سنة ١٧٥٨ ميلادية وهو من أنصار مذهب الاستبداد فى السياسة .

قَدْ طَالَعَتْ وَقَائِعَ نِيجِلْ(١) فَمَا أَشَدَّ مَا تَجِدِينَهُ فِيهَا مِنْ مَسْكَنَةِ الْمَلِكِ يَعْقُوبَ الثَّانِي(٢)، فَلَشَدَّ مَا كَانَتْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ وَيَصْفَرُّ لَوْنُهُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ السَّيْفَ مُجَرَّدًا مِنْ قِرَابِهِ. فَجُبْنُ ذَلِكَ الْمَلِكِ — عَلَى كَوْنِهِ مِمَّا يُضْحِكُ الثَّكْلَى — رُبَّمَا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يُحَرِّكَ فِي الْإِنْسَانِ عَاطِفَةً أُخْرَى إِذَا صَحَّ أَنَّ ضَعْفَهُ هَذَا نَاتِجٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا الَّتِي كَانَتْ تُحِيطُ بِأُمِّهِ مَرْيَمَ إِسْتِوَارْتَ(٣) فِي أَثْنَاءِ الْحَمْلِ بِهِ.

يَصْعُبُ الْحُكْمُ الْيَقِينِيُّ عَلَى دَرَجَةِ تَأَثُّرِ الْجَنِينِ بِتَزَعْزُعِ الشَّجَرَةِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي تُظِلُّهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي حَالَةِ الْعِلْمِ الْحَاضِرَةِ، وَيَكْفِي وُجُودُ الشَّكِّ فِي تَأَثُّرِهِ مُوجِبًا عَلَى أُمِّهِ اتِّقَاءَ أَسْبَابِ الِانْفِعَالَاتِ الشَّدِيدَةِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْمَشْئُومَةِ وَالِابْتِعَادَ عَنِ الْمَتَاعِبِ وَعَمَّا يَجُرُّهُ الْإِخْلَاصُ فِي الْوَلَاءِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ.

الْمَرْأَةُ هِيَ قَالَبٌ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ يُفْرَغُ فِيهِ فَيَتَشَكَّلُ بِشَكْلِهِ إِلَى حَدٍّ مَحْدُودٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهَا لِهَذِهِ الصِّفَةِ رِعَايَةُ صِحَّتِهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا. فَيَلْزَمُهَا فِي الْحَمْلِ أَنْ تَكُونَ مُسْتَرِيحَةَ الْجِسْمِ وَالْفِكْرِ مُسْتَجِمَّةَ الْقُوَى، وَلَكِنْ يَنْدُرُ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ رَبَّاتِ الْجَمَالِ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَصْبِرُ فِيمَا جَرَى الْعُرْفُ بِتَسْمِيَتِهِ الدُّنْيَا الْكُبْرَى عَلَى تَرْكِ اللَّذَائِذِ

(١) نيجل كاتب قصصى شهير .

(٢) يعقوب الثانى هو أحد ملوك إنجلترة السابقين وهو ابن كارلوس الأول تولى الملك بعد أخيه كارلوس الثانى سنة ١٦٨٥ م وحاول ردّ المذهب الكاثوليكى الى إنجلترة و إرجاع حكم الاستبداد فخلعه صهره غليوم أورنجا فالتجأ الى لويس الرابع عشر ومات فى فرنسة سنة ١٧٩١

(٣) مريم استوارت هى بنت يعقوب الخامس ملك إيقوسية وأم مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ وماتت سنة ١٥٨٧ م، تزوجت ولى عهد الحكومة الفرنسية الذى صار بعد الزواج فرنسيس الثانى ولما توفى زوجها عادت الى إيقوسية وتزوّجت بهنرى دارنلى ثم تزوّجت ببوثو يل ثم ثارت عليها رعيتها فالتجأت الى اليصابات ملكة إنجلترة و بقيت فى الأسر تسعة عشر عاما حتى ماتت .

وَمَجَامِعِ الْأَفْرَاحِ وَمَلَاعِبِ التَّمْثِيلِ لِتَنَالَ شَرَفَ الإِتْيَانِ بِأَوْلَادٍ حِسَانٍ، بَلْ مِنْ خَسَارَةِ الصَّفْقَةِ (١) لَدَيْهِنَّ أَنْ يَجِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَاجِزَاتٍ عَنِ اسْتِئْجَارِ غَيْرِهِنَّ لِتَأْدِيَةِ وَظَائِفِ الْحَبَلِ كَمَا يَسْتَأْجِرْنَهُنَّ لِلرَّضَاعَةِ، فَإِنَّهُنَّ لَوْ وَجَدْنَ لِذَلِكَ سَبِيلًا لَاسْتَأْجَرَتِ الْمُثْرِيَاتُ مِنْهُنَّ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ بُطُونَ نِسَاءِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى لِحَمْلِ أَجِنَّتِهِنَّ (٢).

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُنَّ لِكَدِّهِنَّ فِي وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ لَا يَجِدْنَ لَهُنَّ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَهْتَمِمْنَ فِيهِ كَثِيرًا بِأَمْرِ ذُرِّيَّتِهِنَّ، فَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُنَّ وَقَدْ أُثْقِلْنَ حَتَّى كِدْنَ يُشَارِفْنَ (٣) الْوَضْعَ تُلْجِئُهُنَّ ضَرُورَاتُ الْمَعِيشَةِ إِلَى غَسْلِ الْمَلَابِسِ فِي نَهْرِ السِّينِ زَمَنَ الشِّتَاءِ، فَكُنَّ يَغْمِسْنَ أَذْرِعَتَهُنَّ فِي مَائِهِ الْمَثْلُوجِ أَوْ تَضْطَرُّهُنَّ إِلَى دَفْعِ عَجَلَاتٍ مُحَمَّلَةٍ لِتَمْشِيَتِهَا أَوْ إِلَى حَمْلِ أَثْقَالٍ بَاهِظَةٍ يَرْتَاعُ لَهَا الْأَشِدَّاءُ مِنْ حَمَّالِي الْأَسْوَاقِ. وَبِهَذَا تَعْلَمِينَ مَا جَرَّ عَلَيْنَا مَا فِي أَخْلَاقِنَا مِنَ الْأَثَرَةِ وَحُبِّ الِاخْتِصَاصِ مِنْ رَدَاءَةِ النَّسْلِ. كُلُّ مَا يُضْعِفُ الْمَرْأَةَ الَّتِي هِيَ قَرِينَةُ الرَّجُلِ وَصَاحِبَتُهُ يُضْعِفُ الذُّرِّيَّةَ وَيَحُطُّ مِنْ شَرَفِ الْجِنْسِ، فَإِذَا أَرَادَ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيُّ أَنْ يَضْمَنَ لِنَفْسِهِ إِنْتَاجَ أَوْلَادٍ حِسَانِ الْخَلْقِ يَكُونُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ رِجَالًا أَشِدَّاءَ، فَلَا يَتَسَنَّى لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَحَرِّي الْعَدْلِ فِي تَقْسِيمِ ثَمَرَاتِ الْعَمَلِ بِأَنْ يَعْرِفَ لِلْمَرْأَةِ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الِاحْتِرَامِ وَالْإِجْلَالِ.

---

(١) الصفقة البيعة وهى مستعملة هنا مجازا للدلالة على عقد الزواج .

(٢) كفى بذلك تهكما وسخرية وتقريعا للترفات من النساء المنغمسات فى شهواتهن اللاهيات بزينتهن عما فرضه الله عليهن من واجبات الأمومة التاركات أولادهن بين أيدى من لا يعنيه أمرهم من المراضع والخادمات — المترجم .

(٣) يشارفن : يقاربن .

الرسالة الخامسة عشرة

(مِنْ إراسْمَ إِلَى هيلانَةَ فِى ١٠ أبريل سنة ١٨٥)

التَّرْبِيَةُ الأُولَى مِنْ خَصَائِصِ الأُمّ

غَرَضُهُ مِنْ تَرْبِيَةِ وَلَدِهِ أَنْ يَكُونَ حُرًّا لَا أَنْ يَكُونَ مِنْ كِبَارِ الرِّجَالِ

لَيْسَتْ مَكْتُوبَاتِى إِلَيْكِ كَغَيْرِهَا مِمَّا يَكْتُبُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَإِنَّمَا هِىَ أَحَادِيثُ مَسْجُونٍ يُنَاجِى بِهَا فِى عُزْلَتِهِ أَعْظَمَ شَقِيقَةٍ لِنَفْسِهِ وَأَحْسَنَ قَسِيمَةٍ لِرُوحِهِ .

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَقَ إِلَى ذِهْنِكِ مَا أَقْصِدُهُ مِنْهَا فَفَطِنْتِ إِلَيْهِ. إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ مَا أَسْتَطِيعُ وَأَنَا فِى مَطَارِحِ(١) النَّوَى لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ لِذَلِكَ الَّذِى بَشَّرَنَا اللهُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِفِكْرِى أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ رُبَّمَا لَا يَعْرِفُنِى وَلَا يَرَانِى أَبَدًا، وَقَدْ يَتَّهِمُنِى يَوْمًا مَّا بِأَنِّى أَهْمَلْتُ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَىَّ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِى تَحْفَظُ حُقُوقَهُ بِالْقِيَامِ بِهَا، فَيَحْرَجُ لِذَلِكَ صَدْرِى، وَتَنْقَبِضُ نَفْسِى، وَلَكِنِّى لَا إِخَالُنِى مُسْتَحِقًّا لِهَذَا اللَّوْمِ إِذَا كُنْتُ عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنْ حِيَاطَتِهِ بِضُرُوبِ الرِّعَايَةِ وَصُنُوفِ الْمُلَاطَفَةِ أَدْفَعُ لَهُ دَيْنَ الْأُبُوَّةِ مِنْ نَقْدٍ آخَرَ .

إِنِّى بِمَا أَكْتُبُهُ مِنَ الرَّسَائِلِ سَأُؤَدِّى عَلَى بُعْدِى مِنْ وَلَدِى مَا فُرِضَ لَهُ عَلَىَّ مِنْ حُقُوقِ التَّرْبِيَةِ، لِإِعْوَازِ غَيْرِهَا مِنَ الطُّرُقِ الْمُثْلَى لِأَدَاءِ هَذَا الْفَرْضِ، فَقَدْ دَرَسْتُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ فِى تَطْوَافِى حَوْلَ الْأَرْضِ مُشْتَغِلًا بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ فِى السُّفُنِ،

(١) المطارح جمع مطرح وهو الموضع يطرح اليه شيء .

ورأيته في أقاليمها المختلفة . وفي أعمار مجتمعاته المتباينة ، ولذلك أرى في قدرتي أن أستنتج من أفكاري ومما تحفظه ذاكرتي من الحوادث طريقة للتربية مؤسسة على سنن الكون وتاريخ وقائعه ، فعلينا الآن أن نتبادل الأفكار في ذلك ، فسأكتب إليك بما يبذولي وتكتبين إلي بما يبدو لك ، حتى تتحد روحي وروحك في السهر على مهد هذا الولد العزيز رعاية له وعناية بشأنه .

سأراه في منامي يشب وينمو ، وأنت ستحدثينني عنه في مكتوباتك وستخبرينه بوجودي ، ولا موجب لاهتمامك بمستقبله ، فإن تربية الطفل الأولى هي من خصائص والدته ، وأنت أهل للقيام بها وحدك بما فيك من يقظة القلب وتوقد الذكاء ، وسننظر بعد فيما يلزم من أمور تربيته المستقبلة .

على أننا يجب علينا أن نعين الغاية التي يلزمنا أن نرمي إليها في مساعينا . إني لا أعلم مطلقاً بوجود قالب يفرغ فيه الناس فيخرجون من النابغين ، ولئن كان فليس هو للتربية قطعاً بل يكون بين يدي الخالق (سبحانه) ليهيئ به من يشاء لما يشاء ، فإذا جاء ولدنا ذكراً كان غرضي من تربيته أن يكون رجلاً حراً ، ولا أقصد بحال من الأحوال أن يكون من كبار الرجال وعظمائهم (١) . اه

(١) ان ما حوته هذه الرسالة من أن العناية بتربية الأولاد فرض لازم على الوالدين مما ينبغي أن يكون منهم دائما على بال ، وأن يلزموا أنفسهم القيام به وإلا فتبعة التقصير فيه جسيمة والحساب عليه عسير بين يدى العلى الكبير — المترجم .

الرسالة السادسة عشرة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِى ١١ ابريل سنة — ١٨٥)

تَشَابُهُ السُّجُونِ فِى جَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَتَسْرِيَةُ هَمِّهِ بِالْمُطَالَعَةِ

أَرَاكِ مُتَطَلِّعَةً إِلَى أَخْبَارِى رَاغِبَةً إِلَىَّ فِى أَنْ أُوَافِيَكِ بِشَىْءٍ مِنْهَا ، فَهَأَنَذَا أُخْبِرُكِ بِأَنَّ السِّجْنَ وَاحِدٌ فِى جَمِيعِ الْبِلَادِ ، فَلَيْسَ بَيْنَ الْمَكَانِ الَّذِى تَرَكْتُهُ وَبَيْنَ هَذَا الَّذِى أَسْكُنُهُ الْآنَ عَلَى رَغْمِى كَبِيرُ فَرْقٍ ، وَإِنِّى مِنْ عَهْدِ وُصُولِى إِلَيْهِ قَدْ لَجَأْتُ إِلَى الْمُطَالَعَةِ ، فَإِنِّى وَجَدْتُ الْكِتَابَ فِى غَيْبَتِكِ عَنِّى أَحْسَنَ قَرِينٍ لِى يُؤْنِسُنِى وَيُسَرِّى عَنِّى الْهَمَّ . مَا ذَا أَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ غَايَةُ مَا أَقُولُ لَكِ : إِنِّى عَائِشٌ رَاجٍ الْفَرَجَ ثَابِتٌ عَلَى حُبِّكِ وَالسَّـــلَامُ . اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فى ١٥ ابريل سنة — ١٨٥)

قَرَارُهَا فِى الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ — مَجِىءُ قُوبِيدُونَ وَزَوْجَتِهِ جُورْجِيَّةَ مِنْ فَرَنْسَةَ — مُقَارَنَتُهَا بَيْنَ الْفَرَنْسِيَّاتِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّاتِ فِى تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ

قَدْ تَمَّ لِىَ الْقَرَارُ فِى الْمَنْزِلِ الَّذِى اسْـتَأْجَرْتُهُ ، وَفِى صَبَاحِ هَـذَا الْيَوْمِ قَدِمَ عَلَى إِحْدَى السُّـفُنِ التِّجَارِيَّةِ خَادِمَانَا الزِّنْجِيَّانِ قُوبِيدُونُ وَزَوْجَتُهُ جُورْجِيَّـةُ آتِيَيْنِ مِنْ فَرَنْسَـةَ حَيْثُ كَانَا تَخَلَّفَا عَنِّى لِحَزْمِ أَمْتِعَتِنَا . فَأَسْكَنْتُهُمَا رُوَاقًا مُلَاصِقًا لِلْمَنْزِلِ مِنْ نَاحِيَةِ الْبُسْتَانِ ، وَأَنَا الْآنَ أُسَاعِدُهُمَا فِى نَفْضِ كُتُبِكَ وَتَرْتِيبِ مَجْمُوعَاتِكَ .

لم يكد يستقر هذا الزنجى البار حتى وجه عزيمته إلى أعمال شتى ، فصرح لى أن فى نيته قلب أرض البستان وبذر الحبوب وتطعيم الأشجار وغرس أنواع من النبات فيها — إلى غير ذلك من الأعمال ، وقال لى : إنه إن لم ينتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد وأجود بقوله فلا يكون هو الملوم فى ذلك ، وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الأرض أيام رقه ، وهو فرح فخور بأنه ينبعث الآن إلى العمل بسائق الشكر والإقرار بالنعمة ، بعد أن كان لا يلجئه إليه إلا خوفه من أليم الضرب بالسوط ، ويقول : ما أشد إتقان ما سيصير إليه شغلى ، فقد أصبحت مالكا لنفسى منفكا من ربقة الاستعباد .

لا أخفى عنك أن المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة للضحك ومثارا للاستغراب ، وأن سكان مرازيون يضحكون منه لأنهم يستصعبون التوفيق بين معنى العشق ، وبين مشفرى ذلك الزنجى الغليظين وأنفه الأفطس وجلده الأسود[1] ، وإنى لأخشى أن يكون هذا الاسم لم يطلق عليه من مواليه السالفين إلا تهكما وسخرية ، ولكنى على رأيى هذا لم أجسر أن أكلمه فى تغييره فإنى لو فعلت لكان هذا اعترافا منى له بأنه دميم ، أو تصريحا بأن البيض لا ينصفون مثله من سكان أفريقية .

أنا فى هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا أتردد إلا إلى دار السيدة وارنجتون حيث أصادف أحيانا بعض سيدات من بنزانس أو من ضواحى مدينة لندرة ، والذى يهمنى كثيرا فى اختلاطى بهؤلاء السيدات هو الطريقة التى يجرى

(١) « قو بيدون » هو فى خرافات اليونان ابن الزهرة الهة الجمال وهو عندهم إله العشق والغرام
والمشفر من البعير كالشفة من الإنسان شبهت به شفة الزنجى لغلظها .

عَلَيهَا الإِنجِلِيزِيَّاتُ فِى تَربِيَةِ أَولَادِهِنَّ وَأَنَا مُجتَهِدَةٌ بِمُلَاحَظَتِى إِيَّاهُنَّ فِى تَعَلُّمِ مِهنَةِ الأُمُومَةِ .

سُكَّانُ كُورنُوَاى — وَإِنْ صَحَّ أَنَّهُم لَيسُوا مِنْ نَسلِ الإِنجِلِيزِ السَّكسُونِيِّينَ لِمَا يُقَالُ مِنَ انتِسَابِهِمْ إِلَى نَصِيلَةٍ مِنَ الصَّقَالِبَةِ وَلِمَا أَرَاهُ بَينَهُم وَبَينَ البرِيتُونِيِّينَ (٢) مِنَ المُشَابَهَةِ التَّامَّةِ فِى لَونِ الشَّعرِ وَمَلَامِحِ الوَجهِ — يَعِيشُ بَينَهُم عِدَّةٌ مِنَ الأُسَرِ « العَائِلَاتِ » الإِنجِلِيزِيَّةِ وَمَنْ كَانُوا مِنَ البَاقِينَ غَيرَ إِنجِلِيزِيِّ الأَصلِ فَقَدْ تَخَلَّقُوا بِأَخلَاقِ تِلكَ الأُمَّةِ الَّتِى أَلحَقَهُم بِهَا الفَتحُ ، وَسَرَتْ فِيهِمْ عَادَاتُهَا عَلَى تَفَاوُتٍ فِى ذَلِكَ قِلَّةً وَكَثرَةً .

أُنظُرْ كَيفَ يَستَقبِحُ النِّسَاءُ فِى إِنجِلتِرَةَ طَرِيقَةَ تَقمِيطِ الأَطفَالِ وَيَستَهجِنَّهَا ، وَتَقُولُ الوَالِدَاتُ مِنهُنَّ استِهزَاءً بِنَا : إِنَّنَا نُدخِلُ أَطفَالَنَا فِى أَكيَاسِ رِثَاءِ النَّاسِ ، حَتَّى إِذَا سَنَحَتْ لَنَا الفُرصَةُ عَلَّقنَاهُم عَلَى مَسَامِيرَ فِى الجُدرَانِ ، وَاكتَفَينَا بِذَلِكَ مُؤْنَةَ مَا تَستَلزِمُهُ حَالَتُهُم مِنَ العِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ إِذَا كَانُوا غَيرَ مُقَمَّطِينَ . وَإِنَّمَا سَاغَ لَهُنَّ أَنْ يَقُلْنَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَطفَالَهُنَّ يَتَمَتَّعُونَ بِتَمَامِ الحُرِّيَّةِ فِى حَرَكَاتِهِمْ ، لِأَنَّهُنَّ يُلبِسنَهُم ثَوبًا طَوِيلًا مِنَ الصُّوفِ اللَّيِّنِ (فَانِيلَا) فَيَكُونُونَ فِيهِ مَالِكِى أَنفُسِهِمْ عَلَى قَدرِ مَا لَهُمْ مِنَ القُوَى الصَّغِيرَةِ فِى تِلكَ السِّنِّ ، وَإِنِّى وَالحَقَّ أَقُولُ مُعجَبَةٌ بِهَذِهِ العَادَةِ ، لِأَنِّى كَثِيرًا مَا سَاءَنِى رُؤيَةُ الأَطفَالِ يُربَطُونَ ، وَتُحصَرُ أَجسَامُهُم فِى لَفَائِفَ تَضُمُّ أَطرَافَهَا بِالدَّبَابِيسِ ، فَيَكُونُونَ كَجُثَثٍ مُحَنَّطَةٍ لُفَّتْ بِشَرَائِطَ مِنَ الكُولَانِ (١) .

---

(١) البريتونيون هم سكان بريطانية وهى أحد اقاليم فرنسة .

(٢) الكولان نبت البردى .

أَطِبَّاءُ الإِنْجِلِيزِ كَافَّةً يَمْقُتُونَ مَا يُجْعَلُ فِي أَثْوَابِ الأَطْفَالِ مِنَ الحِبَالِ الَّتِي يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا فِي دَبِيبِهِمْ، وَمَا يُتَّخَذُ لَهُمْ مِنَ الدَّرَّاجَاتِ الخَيْزُورِيَّةِ (١) وَالآلاتِ المُتَدَحْرِجَةِ لِأَجْلِ مُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى الدَّرَجَانِ (٢)، وَيُؤَكِّدُونَ أَنَّ اسْتِعْمَالَهَا مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَشَوُّهِ صَدْرِ الطِّفْلِ وَاعْوِجَاجِ سَاقَيْهِ بِمَا يَسْتَلْزِمُهُ ذَلِكَ الاسْتِعْمَالُ مِنْ وُقُوعِ ثِقَلِ الجِسْمِ كُلِّهِ عَلَى العَقِبَيْنِ .

بَلِ الدُّكْتُورُ وَارِنْجِتُونُ قَدْ بَالَغَ فِي الأَمْرِ حَتَّى قَالَ بِوُجُوبِ تَعْوِيدِ الطِّفْلِ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ عَنْ قَصْدٍ وَعَزِيمَةٍ، وَلِهَذَا يَجِبُ تَرْكُ إِقَامَتِهِ وَتَمْشِيَتِهِ بِالآلاتِ الصِّنَاعِيَّةِ حَالَ عَجْزِهِ عَنْ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، لِأَنَّ فِيهِ إِضْلالًا لَهُ فِي فَهْمِ مِقْدَارِ قُوَاهُ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَدْرُجُ بِنَفْسِهِ وَالدَّارِجُ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ تِلْكَ الآلاتُ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، وَهُوَ وَهْمٌ يَصْحَبُهُ طُولَ حَيَاتِهِ وَيَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي عَامَّةِ شُؤُونِهِ .

يَتَعَلَّمُ الأَطْفَالُ هُنَا الحَرَكَةَ وَالانْتِقَالَ بِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَتْرُكُونَ وَشَأْنَهُمْ فِي التَّحَرُّكِ فَيَتَدَحْرَجُونَ وَيَحْبُونَ عَلَى بِسَاطٍ يُفْرَشُ لَهُمْ، وَيَنَالُونَ مِنَ القُوَّةِ تَدْرِيجًا مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنَ الوُقُوفِ، ثُمَّ يُخَاطِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فَيَخْطُونَ خُطُوَاتٍ مُسْتَعِينِينَ فِيهَا بِالاعْتِمَادِ عَلَى مَا يَكُونُ قَرِيبًا مِنْهُمْ مِنْ أَثَاثِ المَكَانِ، فَإِذَا اضْطَرَبُوا لِضَعْفِهِمْ تَلَقَّتْهُمْ أَذْرِعَةُ أُمَّهَاتِهِمْ فَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الوُقُوعِ .

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي هِيَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ — وَلَيْسَتْ سِوَى التَّخْلِيَةِ بَيْنَ الطِّفْلِ وَعَمَلِهِ — هِيَ أَكْثَرُ انْتِشَارًا فِي أَمْرِيكَةَ مِنْهَا هُنَا، فَقَدْ سَمِعْتُ بِمُنَاسَبَةِ الكَلامِ فِيهَا

(١) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران .

(٢) الدرجان : المشى .

أَنَّ سائحًا إنجليزيًا صادَفَ يومًا وهو في الولايات المتحدة بأمريكة صبيًا في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه على حرف قنطرة مدعثرة (١) يتدفق من تحتها سيل صخب (٢)، فارتاع لقحوم (٣) هذا الحدث المتهور في الخطر، فأسرع في التماس والدته فأصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا، فمثل لها ما رآه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك، فما كان جوابها إلا أن قالت غير مدهوشة ولا منزعجة «إن الصبي معتاد العناية بنفسه ووقايتها، وإني إذا عدوت إليه لإبعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبًا لرشاده مضيعًا لسداده» فلما سمع السائح الأجنبي منها هذا القول اقتصر على مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد مكنه ما بذله من قواه من تنكب طريق الهلاك (٤).

أنا إن سبقت لي الدنيا بحذافيرها (٥) على أن أرى صبيًا لي في هذه الحالة ما رضيت. ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على ما رأيت كما يسبق إلى الذهن، بل هي قد فهمت فروض الأمومة الحقيقية أحسن مما فهمناها، فإن هذه الطريقة في سياسة الأحداث من بداية نشأتهم هي سبب ما نراه في سكان أمريكة الشمالية من ميلهم إلى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال.

---

(١) مدعثرة: مهدومة مكسرة. (٢) صخب: كثير الصخب وهو الصوت الشديد.

(٣) القحوم: الارتماء في الأمر بغتة بلا روية.

(٤) يوجد لهذه الحالة نظير في أولاد الطبقة الدنيا من الأمة عندنا وفي كل أمة، وسببها ضرورة اشتغال الأمهات بتدبير حاجات المعيشة وعجزهن عن استئجار غيرهن للقيام به، وحبذا لو جرى نساء باقي الطبقات على هذه الطريقة التي تؤهل المرء للاستقلال من بداية حياته. المترجم. (٥) بحذافيرها بأسرها.

الوالدات الإنجليزيات كافة يتمنعن من تغطية رءوس أطفالهن ولا يقبلن أن يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هي بحان الضعف. نعم إنه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الأطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم، ولكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم، وثانيا بأن الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه، فيلزم أن يربى فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها، لا أن يعول في حفظه على بعض طرق احتياطية لا تغني عنه شيئا، وهي دائما مبنية على الوهم والخطإ قل ذلك أو كثر. إذا شاهدت الطفل الإنجليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلته هرقل (١) صغيرا وإن كان لا يخنق الأفاعي لانقطاع دابرها من جزيرته، ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والإقدام، من أجل هذا كان لا يوجد دم أغزر مادة من دم الإنجليز ولا نسل أقوى من نسلهم، وأجسامهم مبرأة من العاهات فهي عندهم في غاية الندرة، ولا إخالك تصدقني إذا قلت: إني إلى الآن لم يقع بصري على أحدب منهم، وفي رأيي أن جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم.

المهد المذبذب الذي هو من لوازم الأطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء (بوغاز) المانش (أي في بلاد الإنجليز) وإنما يوجد للأطفال سرر كثيرة

(١) هرقل هو ابن المشترى على ما فى أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان طارصيته بأعماله التى منها خنق الأفاعى.

لَيست من الأراجيح التى تهتز باليد كالتى عندنا ، فالإنجليز عامة يسترذلون عادة هز الأطفال ويقولون إنها ذريعة إلى تعويدهم أن لا يناموا إلا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة أن يلتمسوا راحة أبدانهم عند غيرهم على حين أنه يلزمهم أن لا يطلبوها إلا من أنفسهم ومن الفطرة التى فطرهم الله عليها . نحن لا نهتم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب أطفالنا من الآثار السيئة فى طباعهم ، ولا نطيل النظر فى ذلك . الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون فى فطرته من الاحتيال ما يمكنه من الانتفاع بضعفه وتسامح من يكتنفونه . فكم من أناس انقضى دور طفولتهم وهم لا يزالون فى حاجة إلى الاهتزاز طول حياتهم ! فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة ، بل تراهم فى غفلة عن أنفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجى ، فيرون فى أحلامهم وخيالاتهم أنهم يهتزون ، وكان الأولى أن تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة فى ميدان الحياة .

أخشى أن يكون كل كلامى هذا قريب الشبه بالوعظ الدينى ، على أنى لم آت به من تلقاء نفسى بل سمعته بما يقرب من عبارتى من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بأن قولها حجة فى فن التربية فإن التربية فى إنجلترة هى أول علم يتلقاه النساء .

إخال أن الولدان فى إنجلترة أقل بكاء منهم عندنا ، ولست واهمة فى ذلك فإن بكاء الطفل إنما يكون لتألمه من عارض يلم به ، وإن مامنحه هنا من الحرية وما أحيط

بِهِ مِنْ ضُرُوبِ العِنَايَةِ الصِّحِّيَّةِ وَمَا سَنَّ لَهُ مِنْ قَانُونِ الغِذَاءِ يُسَاعِدُ عَلَى صِحَّتِهِ وَنُمُوِّهَا . وَلَا بِدْعَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْإِنْجِلِيزِ عِنَايَةٌ كُبْرَى بِتَرْقِيَةِ نَسْلِ العَجْمَاوَاتِ حَتَّى لَا تَجِدَ أَجْمَلَ مِنْ خَيْلِهِمْ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ كِلَابِهِمْ، فَكَيْفَ مَعَ هَذَا يُظَنُّ أَنَّهُمْ يُغْفِلُونَ تَرْبِيَةَ الآدَمِيِّ الجُسْمَانِيَّةَ .

الوَالِدَاتُ الإِنْجِلِيزِيَّاتُ عَلَى الجُمْلَةِ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ مُتَأَسِّيَاتٍ فِي ذَلِكَ بِمَلِكَتِهِنَّ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ لَفْظُ المُرْضِعِ عِنْدَهُنَّ لَا يُؤَدِّي المَعْنَى الَّذِي وُضِعَ لَهُ عِنْدَنَا ، فَلَا يُرَادُ بِهِ إِلَّا المَرْأَةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الوَلَدِ فِي تَرْبِيَتِهِ فَالمَرَاضِعُ عِنْدَ جِيرَانِنَا يَنْقَسِمْنَ إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَمَايِزَيْنِ كُلَّ التَّمَايُزِ (أَوَّلُهُمَا) الحَاضِنَاتُ وَيُسَمَّيْنَ عِنْدَهُمْ بِالمَرَاضِعِ الجَافَّاتِ (ثَانِيهِمَا) المَرَاضِعُ الحَقِيقِيَّاتُ وَيُوصَفْنَ بِذَوَاتِ البِلَالِ(١) إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَدَدًا مِمَّنْ عِنْدَنَا ، وَلَا يُرْجَعُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ المُلْجِئَةِ حَيْثُ تَكُونُ الأُمُّ فِي غَايَةِ العَجْزِ عَنْ إِرْضَاعِ وَلَدِهَا ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ الإِنْجِلِيزِيَّاتِ يُفَضِّلْنَ إِلْقَامَ وِلْدَانِهِنَّ زُجَاجَاتِ اللَّبَنِ عَلَى إِلْقَامِهِنَّ ثُدِيَّ الأَظْآرِ (المَرَاضِعِ المُسْتَأْجَرَاتِ) وَإِنَّهُنَّ لَيُوسِعْنَنَا لَوْمًا عَلَى تَفْرِيطِنَا فِي هَذَا الأَمْرِ . وَلَا إِخَالُهُنَّ إِلَّا مُحِقَّاتٍ فِي ذَلِكَ ، فَكَمْ مِنَ الفَرَنْسِيَّاتِ المُتْرَفَاتِ مَنْ يَكِلْنَ إِرْضَاعَ وِلْدَانِهِنَّ الَّذِينَ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَعَزَّ شَيْءٍ عَلَيْهِنَّ فِي هَذَا العَالَمِ إِلَى نِسَاءٍ مِنْ أَهْلِ القُرَى جَافِيَاتِ الطِّبَاعِ قَذِرَاتِ الأَبْدَانِ لَا يَرْضَيْنَهُنَّ مُسَاعِدَاتٍ لَهُنَّ فِي التَّزَيُّنِ وَالتَّحَلِّي(٢) .

(١) البلال — بكسر الباء — : ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن .

(٢) قد شاعت هنا أيضا عادة ترك الأطفال للمراضع بين نساء الخواص ، وما سببها إلا التزام مقتضيات التمدن الغربي الفاسد ، فهن جديرات أيضا بهذا اللوم الذي توجهه هذه الأم الحكيمة الى الفرنسيات — المترجم .

النَّظَافَةُ عِنْدَ الإِنجليزِ هِيَ فِي حَقِّ الأَطْفَالِ أَسَاسُ تَدْبِيرِ الصِّحَّةِ وهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ الطَّبَقَاتِ حَتَّى الفُقَرَاءِ فَإِنَّهُمْ يَغْسِلُونَ أَوْلَادَهُمْ فِي كُلِّ صَبَاحٍ .

يُشَدِّدُ الأَطِبَّاءُ هُنَا النَّكِيرَ كَمَا يَفْعَلُ رُصَفَاؤُهُمْ فِي البِلَادِ الأُخْرَى عَلَى لُبْسِ النِّسَاءِ الغَلَائِلَ المَحْزُوقَةَ (الضَّيِّقَةَ الضَّاغِطَةَ) فَلَا يُصْغِي لَهُمْ أَحَدٌ ، فَالصِّينِيَّاتُ يُتْلِفْنَ أَقْدَامَهُنَّ بِالنِّعَالِ الضَّيِّقَةِ وَنَحْنُ نُتْلِفُ قُدُودَنَا بِهَذِهِ الغَلَائِلِ المَحْزُوقَةِ جَارِيَاتٍ فِيهِ عَلَى مَا حَكَمَتْ بِهِ العَادَةُ فِرَارًا مِنَ السِّمَنِ وَبُرُوزِ البَطْنِ عِنْدَ الحَبَلِ ، عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الاعْتِرَافُ بِأَنَّ الإِنجليزِيَّاتِ أَقَلُّ مِنَّا عِنَايَةً بِإِخْفَاءِ حَبَلِهِنَّ . بَلْ هُنَّ يَفْتَخِرْنَ بِهِ ، فَقَدْ شَبَّهَتْ إِحْدَاهُنَّ المَرْأَةَ الحُبْلَى بِالشَّجَرَةِ المُثْمِرَةِ فَقَالَتْ «مَثَلُ المَرْأَةِ فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ الأُسْرَةِ كَمَثَلِ الشَّجَرَةِ تَحْمِلُ ثَمَرَتَهَا » .

أَلَا تَذْكُرُ أَنَّنَا فِي أَيَّامِ الهَنَاءِ الخَالِيَةِ لَمَّا كُنَّا نَتَمَشَّى فِي مُتَنَزَّهِ التُّوِيلِيرِيَّةِ[1] أَوْ فِي حَدِيقَةِ لُوكْسَمْبُورْج[2] كَثِيرًا مَا تَأَلَّمْنَا لِرُؤْيَةِ أُولَئِكَ الأَحْدَاثِ شُهَدَاءِ البِدْعَةِ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمْ أُصُولُهُمْ مُتَبَرِّجِينَ بِالزِّينَةِ ، فَتُلْبِسُهُمْ حَاضِنَاتُهُمْ ثِيَابَهُمْ وَزِينَتَهُمْ مِنَ القَدَمَيْنِ إِلَى الرَّأْسِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنَّ الطِّفْلَ الحَسَنَ البِزَّةِ لَا يُعْتَبَرُ طِفْلًا وَلَا يَكُونُ المَقْصُودُ مِنْ إِخْرَاجِهِ تَسْلِيَتَهُ وَتَرْوِيحَ نَفْسِهِ ، بَلْ تَحْصِيلَ اللَّذَّةِ لِغَيْرِهِ ، فَإِذَا أُولِعَ بِالبَحْثِ فِي الأَرْضِ بِيَدَيْهِ أَوْ جَرَى فِي مَهَبِّ الرِّيحِ فَعَبَثَتْ بِتَنَاسُقِ ذَوَائِبِ

(١) سراى التويليرية قصر كان مقرا للملوك فرنسة فى باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاترينة مديسيس والذى ابتدأ بناءه هو المهندس فيليبر درلورم وأتمه من بعده المهندسان جان لولان ولوفو وأحرق فى مايو سنة ١٨٧١ فى عهد حكومة الشعب ثم جدد .

(٢) لوكسمبورج قصر فى باريس بنى لمريم دومدسيس فى مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ الى سنة ١٦٢٠ والذى بناه المهندس يعقوب دو بروس .

شَعْرِهِ الجَعْدِ الجَمِيلِ وَبَخَ وَعَنَّفَ عَلَى أَنَّهُ وَسَّخَ نَفسه، ولم يَمتثِلْ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ السُّكُونِ فَكَأَنَّ ذَوِيهِ لَا يَرُومُونَ تَنْزِيهَهُ وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ عَرْضَهُ عَلَى الأَنْظَارِ فَلَيْسَ الَّذِي يُقْصَدُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ مِنْ تِلْكَ النُّزَهِ هُوَ إِمْتَاعُ الطِّفْلِ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ وَهَوَاءِ الفَضَاءِ اللَّذَيْنِ يُقَوِّيَانِ صِحَّتَهُ وَيُنَمِّيَانِ أَعْضَاءَهُ بِمَا يَكُونُ مَعَهُمَا مِنَ الرِّيَاضَةِ وَالحَرَكَةِ، بَلِ المَقْصُودُ مِنْهَا هُوَ اتِّخَاذُهُ أُلْعُوبَةً أَنِيقَةً يُطَامِنُ بَهَاؤُهَا وَرَوْنَقُهَا مِنْ نَخْوَةِ الأُمَّهَاتِ الأُخْرَيَاتِ وَيَكْسِرُ مِنْ زَهْوِهِنَّ، فَإِذَا رَأَتِ الأُمُّ بُنَيَّتَهَا تَرْفُلُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الخَزِّ مُزَيَّنٍ بِالطِّرَازِ المُنَقَّبِ، (التانتلا) قَالَتْ فِي نَفْسِهَا مُغْتَبِطَةً: لَوْ رَأَتْهَا السَّيِّدَةُ فُلَانَةُ أَوِ السَّيِّدَةُ فُلَانَةُ لَانْشَقَّتْ مَرَارَتُهَا غَيْرَةً وَكَمَدًا. إِلَى هُنَا أُمْسِكُ عِنَانَ القَلَمِ عَنِ الاسْتِرْسَالِ فِي هَذَا المَوْضُوعِ لِأَنِّي صِرْتُ عَيَّابَةً عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي.

النِّسَاءُ الإِنْجِلِيزِيَّاتُ يُجَمِّلْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَيْضًا بِفَاخِرِ الثِّيَابِ وَيَخْرُجْنَ بِهِمْ إِلَى المُتَنَزَّهَاتِ بَلْ هُنَّ يُبَالِغْنَ فِي ذَلِكَ أَحْيَانًا فَيَصِلْنَ إِلَى حَدِّ الإِفْرَاطِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي أَيَّامِ الآحَادِ، وَأَمَّا الأَطْفَالُ الَّذِينَ يَنْشَئُونَ فِي القُرَى فَيَنْدُرُ أَنْ يَأْنَسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمِ الحَاجَةَ إِلَى الخُرُوجِ طُولَ الأُسْبُوعِ لِأَنَّ القَائِمِينَ عَلَيْهِمْ يُخَلُّونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّعِبِ فِي حَدِيقَةِ البَيْتِ وَالمَرَحِ فِي حَرِّ الشَّمْسِ، وَعَلَى البَنَاتِ مِنْهُمْ دُرُوعٌ قَصِيرَةٌ وَعَلَى البَنِينَ قُمْصَانٌ خَفِيفَةٌ مِنَ الصُّوفِ وَلَا يُبِيحُونَ لِأَنْفُسِهِمِ التَّعَرُّضَ لَهُمْ فِي أَلَاعِيبِهِمْ؛ وَأَمَّا نَحْنُ فَيَحْمِلُنَا هَوَسُنَا بِتَدْبِيرِ كُلِّ شَيْءٍ وَإِدَارَتِهِ إِلَى التَّدَخُّلِ فِي تَنَزُّهِ الأَطْفَالِ وَاسْتِرَاحَتِهِمْ بِسِيَاسَتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَضَبْطِهِمْ بِقَوَاعِدَ لَا يَتَعَدَّوْنَهَا.

لَمْ يَغِبْ عَنْ ذَاكِرَتِكَ أَنَّا كُنَّا يَوْمًا فِي قَاعَةِ السَّيِّدَةِ... جَالِسِينَ مَعَهَا فَدَخَلَ عَلَيْنَا وَلَدُهَا الكَبِيرُ وَهُوَ صَبِيٌّ كَانَ وَقْتَئِذٍ فِي الرَّابِعَةِ أَوِ الخَامِسَةِ مِنْ عُمُرِهِ تَلُوحُ عَلَيْهِ سِمَاتُ

السماجة، والتفت إلى والدته فسألها قائلا : أماه، ماذا ينبغي أن أفعل لأتسلى وأروح نفسي ؟ لا أزال أتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه . على أن هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تنقد أجرة كبيرة جدا . ولذلك أحيل عليها لتسليه، وكان يظهر من حالها أنها في غاية الضجر من عملها .

فى بعض الأسر الإنجليزية أيضا حاضنات، إلا أن الذى عرفته بالمشاهدة من أمرهن أنهن يسسن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة إنجلترة رعاياها، أعني بذلك أنه لا يكاد يكون لهن سلطان عليها خصوصا فيما يتعلق بأنواع اللعب وضروب التسلي . يستدل جيراننا على وجوب إطلاق الحرية للأطفال فى ألاعيبهم بأدلة سديدة على ما أعتقد، فيقولون إن الكبار فى اشتراكهم مع جماعة الأحداث الفرحين المرحين فى تلك الألاعيب يرجعون دائما إلى أذواق أنفسهم أكثر من رجوعهم إلى أذواق أولئك الأحداث ، فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم فى مسألة لا مرية فى أن موضوعها القيام لهم بحقوقهم، وليست هذه الحقوق من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه إذا هو هضم منها شيئا . ولهم حجة أقوى من هذه وهى أن حرمان الأطفال من الاختيار يميت فيهم روح الافتطار (الابتداع والإنشاء) والانبعاث النفسي إلى العمل ، فإننا به نمحو آثار نوع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه . فهل هذا هو الوسيلة إلى تربية طباعهم؟ الطفل إذا كان نشيطا صحيح الجسم سهل عليه أن يستقل بنفسه فى التنزه والتروح فإذا جرى على ذلك اعتاد أن لا يكون تابعا لغيره فى لعبه ومرحه . ألم تكن عادة عدم الاستقلال عند الأطفال

فيما ذكر هى سبب ما كان يعتور أولئك الملوك الغابرين من الكدر والضجر فيضطرهم إلى أن يجعلوا فى حاشيتهم من المجانين(١) من يضحكهم .

يبدو لمن يدخل بيتاً إنجليزياً لأول وهلة خصوصاً إذا كان مثلى لا يزال متأثراً بالأفكار الفرنسية أن ما بين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام ، فيرى الوالدين فيه أقل تملقاً لأولادهما وأرغب عن ملاطفتهم منهما عندنا ، وكذلك يرى الأولاد أقل أنساً بالأجانب ومباسطة لهم ، وكلامى هذا إنما هو على جملتهم فلا ينافى أن يكون فيهم من هو على غير هذه الصفة . وإن أردت أن تعرف إن كان هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأه طبع الأمة الغريزى ، أو أنه مقصود جرياً على مقتضى مذهب أو قاعدة فى التربية فإليك رجع صدى محاوراتى فى هذا الموضوع مع القابلة الجليلة صاحبة الفضل على خصوصاً فى الإرشاد والتعليم قالت : إن الإنجليز يجتنبون إظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لأولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . وأما أنتم فإن الطفل عندكم يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعود أن يحب أكثر مما يجب ، هذا النوع من المعاملة ينتج الغنجات(٢) من النساء والعارمين(٣) والعوارم من الأطفال . المحبة تدعو إلى المحبة وأما أنواع التملق والمخادعة فإنها تنمى جراثيم الأثرة والزهو ، فالطفل الذى يتزلف إليه والداه كما يتزلف الناس إلى العظماء لنيل الحظوة لديهم —

(١) المجانون بتشديد الجيم جمع مجان وهو كثير المجون أى الهزل .

(٢) الغنجات : ذوات الدلال .

(٣) العارمون جمع عارم وهو المؤذى الشرس والعوارم جمع عارمة .

وهـذا هو شأنهما معه فى الغـالب — لا يلبث أن ينتهى به الأمر إلى اعتقاد أن الناس مدينون له بكل شىء وأنه ليس مدينا لأحد منهم بشىء (١) .

هذا ما بدا لى من الملاحظات نصحته لك على علاته موقنة بأنه سينال حظا من اطلاعك وبحثك ، وماذا أزيدك عليه؟ لم يبـق عندى ما أتحفك به سـوى أن مثالك العزيز لا يفارق خيالى وحبـك الراسخ لا يزايل قلبى . رتبت بيتى بجعلتـه لسكنى اثنين كما لو كنت ستحل به غدا ، ونظمت مكتبك أيضا بجعلت ما فيـه من الكتب والأوراق كلا فى موضعه ، وهو الآن مشوق إليك فعسى أن لا يطول عهد خلوه منك . هـذا أمل أرجو أن لا أحرم منه فإنه لولاه لقضى على الفراق ، وقد علقت رسمك فى مطعمنا الصغير ففى ساعات الأكل أجلس للمائدة مواجهة له فأرى لصورتك فيه نوعا من الحياة ، ويخيل إلى حينئذ أنى أتغذى معك وجها لوجه كما كنا أيام الغرب والصـفاء . ما أولعنى بالنظر إلى هذه الصورة فلا بد أن ولدنا سيأتى مشابها لك ، والسلام فى الختام .

حاشية — أسألك على ذكر هذا الولد ما ذا تريد أن تسميه ؟ اهـ .

---

(١) ليتأمل الوالدون المولعون بحب أولادهم العاجزون عن كتمانه عنهم المسرفون فى ملاطفتهم المسارعون فى مرضاتهم فيما أودعته هذه الكلمات الطيبة من الحكم القيمة والعبر النافعة وليجملوا فى ذلك رحمة بأفلاذ أكبادهم أن تفسد طباعهم وتسوء أخلاقهم وليضعوا كل شىء فى موضعه وليقتدوا بمن قال فيه القائل :

فقسى ليزدجروا ومن يك راحما * فليقس أحيانا على من يرحم — المترجم .

الرسالة الثامنة عشرة

(مِنْ إرَاسْمَ إلَى هيلَانَةَ فِى ٢١ ابريل سنة — ١٨٥)

مُوَافَقَتُهُ لَهَا فِى ٱنْتِقَادِهَا التَّرْبِيَةَ عِنْدَ الْفَرَنْسِيسِ

قَدْ أَصَبْتِ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ هيلَانَةُ فِى ٱنْتِقَادِكِ طَرِيقَتَنَا فِى سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ فَإِنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ ، وَلَكِنْ يَا لَهَا مِنْ طَرِيقَةٍ تُلَائِمُ أَخْلَاقَنَا وَأَوْضَاعَنَا السِّيَاسِيَّةَ مُلَاءَمَةً عَجِيبَةً . فَلَا إِفْرَاطَ فِى التَّضْيِيقِ عَلَى الطِّفْلِ وَحَصْرِهِ فِى لَفَائِفِهِ إِذَا كَانَ حَظُّهُ فِى مُسْتَقْبَلِهِ أَنْ يُقَمَّطَ وَيُشَدَّ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقَوَانِينِ وَالْأَوَامِرِ، وَأَمَّا حِبَالُ الْمَلَابِسِ الَّتِى نُمْسَكُ بِهَا عِنْدَ الْمَشْىِ فَلَا تُعْوِزُنَا وَعِنْدَنَا مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ جَمِيعَ الْأَعْمَارِ، لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ لَا نُحْسِنَ الْمِشْيَةَ فَتَلْزَمُنَا تِلْكَ الْحِبَالُ أَنْ نَمْشِىَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَأَنْ نَمْضِىَ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ مَنْ يَقُودُنَا . إِنَّ الْقَائِمِينَ عَلَيْنَا فِى تَرْبِيَتِنَا لَيَسْلُبُونَنَا مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِنَا كُلَّ مَا أُودِعَ فِينَا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِأَنْفُسِنَا وَثِقَتِنَا بِهَا، فَمَا أَعْقَلَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ نَظَرًا فِى الْعَوَاقِبِ ! هَذَا يُعَلِّمُنَا أَنْ نَكُونَ فِى جَمِيعِ أُمُورِنَا تَابِعِينَ لِغَيْرِنَا، مُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِ فِى حِفْظِنَا وَوِقَايَتِنَا فَإِنَّنَا بِتَعْوِيدِ النَّاشِئِينَ أَنْ يُقَادُوا فِى دَرَجَاتِهِمْ . وَيُهَزُّوا فِى مُهُودِهِمْ، وَيُسَاسُوا وَيُرَاقَبُوا فِى جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، نُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَعِيشُوا فِى مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ بِأَعْيُنِ الشُّرْطَةِ(١) وَتَحْتَ سَيْطَرَتِهَا فَمَا أَجْمَلَهَا طَرِيقَةً تَتَسَلْسَلُ أَجْزَاؤُهَا ! ! التَّسَلْسُلُ هُوَ أَحْسَنُ لَفْظٍ وَجَدْتُهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱتِّصَالِ غَايَاتِهَا بِمَبَادِئِهَا .

إِنَّ مَا ذَكَرْتِهِ لِى مِنَ الطَّرِيقَةِ الَّتِى يَجْرِى عَلَيْهَا الْإِنْجِلِيزُ فِى تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِمْ قَدْ أَسْفَرَ لِى عَنْ وَجْهِ الْحِكْمَةِ فِى حُسْنِ أَحْوَالِ إِنْجِلْتِرَةَ ، وَأَبَانَ لِى أَنَّهُ لَا سَبَبَ لِوُجُودِ مَا لَهَا

(١) الشرطة : جماعة من خير أعوان الولاة على حفظ الأمن والواحد شرطى (البوليس) .

مِنَ الأَوْضَاعِ وَالْقَوَانِينِ الْحُرَّةِ إِلَّا مَا تَتَّخِذُهُ مِنَ الطُّرُقِ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا عَلَى مَبَادِئِ الْحُرِّيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ. نَحْنُ فِي فَرَنْسَةَ نُفْرِطُ فِي تَعْلِيقِ آمَالِنَا بِالْحَوَادِثِ، وَنُفَرِّطُ فِي الِاعْتِمَادِ عَلَى مَا أُوتِينَاهُ مِنَ الْقُوَى، فَمَاذَا أَقُولُ فِي وَصْفِنَا غَيْرَ أَنَّنَا لَسْنَا فَرَنْسِيسَ بَلْ نَحْنُ يَهُودٌ لِأَنَّنَا دَائِمًا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ نُزُولِ الْمَسِيحِ فِي صُورَةِ حَاكِمٍ يَرْفَعُ قَوَاعِدَ الْعَدْلِ وَيُخَلِّصُ النَّاسَ مِنْ عَوَادِي الْجَوْرِ.

وَلَسْتُ أَقْصِدُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَنْ أُنْكِرَ قِيمَةَ مَا تَنَاوَبَ حُكُومَتَنَا مِنَ التَّغَيُّرِ فِي صُوَرِهَا وَمَا نَتَجَ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَزَايَا فَإِنَّ هَذَا بَعِيدٌ عَنْ فِكْرِي لِأَنِّي لَوْ كُنْتُ مِمَّنْ لَا يَعْبَأُونَ بِالشُّئُونِ السِّيَاسِيَّةِ لَمَا وُجِدْتُ حَيْثُ أَنَا الْآنَ. عَلَى أَنِّي قَدْ وَصَلْتُ بَعْدَ طُولِ النَّظَرِ وَمَحْضِ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ التَّغَيُّرِ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مُلْكَ الْحُرِّيَّةِ لَا قَرَارَ لَهُ إِلَّا فِي نُفُوسِنَا، وَأَنَّنَا إِذَا أَرَدْنَا تَمْكِينَ دَعَائِمِهِ فِي الْأُمَّةِ وَجَبَ عَلَيْنَا أَوَّلًا أَنْ نُؤَسِّسَ أُصُولَهُ فِي قُلُوبِنَا. اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(مِنْ إِرَاسْمَ الى هَيْلَانَةَ فِي أول مايو سنة — ١٨٥)

تَسْمِيَةُ الْمَوْلُودِ وَانْتِقَادُ طَرِيقَةِ التَّرْبِيَةِ فِي فَرَنْسَةَ

وَتَوْصِيَةُ زَوْجَتِهِ بِعَدَمِ اتِّبَاعِهَا فِي حَقِّ وَلَدِهِ

تَسْأَلِينَنِي فِي خَاتِمَةِ مَكْتُوبِكِ عَمَّا نُسَمِّي بِهِ وَلَدَنَا. نُسَمِّيهِ «أَمِيلَ» إِذَا جَاءَ ذَكَرًا إِحْيَاءً لِذِكْرِ هَذَا الْكِتَابِ (١) الَّذِي كُنْتُ أَقْرَأُهُ لَكِ فِي مُطَالَعَتِنَا

(١) يعني بالكتاب كتاب جان جاك روسو في التربية المعنون «بأميل القرن الثامن عشر».

اللَّيْلِيَّةِ فَكَانَ فِي نَفْسِكَ مبعث الطَّرَبِ وَالإِعْجَابِ حَتَّى إِنِّي كُنْتُ أَكُفُّ عَنِ الْقِرَاءَةِ حِيناً بعدَ حِينٍ لِأُشَاهِدَ وَجْهَكَ فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ فَأَتَبَيَّنَ فِيهِ ذَلِكَ . وَيَا لَهُ مِنْ عَهْدٍ تَحْفَظُهُ ذَاكِرَتِي لِتِلْكَ الأَيَّامِ السَّعِيدَةِ .

مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي جَرَتْ بِهَا أَلْسِنَةُ الأَكْيَاسِ(١) مِنَ النَّاسِ مُنْذُ حِينٍ سَبُّهُمْ جَانْ جَاكْ رُوسُو وَاحْتِقَارُهُمْ إِيَّاهُ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَرْمُونَ بِهِ قَبْرَ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْعَظِيمِ مِنْ نِبَالِ اللَّمْزِ وَالْقَدْحِ . وَإِنَّهُمْ لَجَدِيرُونَ بِالرِّثَاءِ لِعُقُولِهِمْ . لَمْ يَكُنْ ذَنْبُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ سِوَى أَنَّهُ خَالَفَ سُنَّةَ أَهْلِ النَّظَرِ فِي عَصْرِهِ وَهِيَ اعْتِمَادُهُمْ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ الإِنْسَانِيِّ عَلَى الرِّجَالِ وَمُخَاطَبَتُهُمْ إِيَّاهُمْ فِيهِ بِأَنْ وَجَّهَ خِطَابَهُ إِلَى الْوَالِدَاتِ وَالأَطْفَالِ، وَهُوَ أَمْرٌ هَدَاهُ إِلَيْهِ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ جَوْدَةِ الطَّبْعِ وَذَكَاءِ الْقَرِيحَةِ . عَلَى أَنَّنَا لَوْ جَرَّدْنَا كِتَابَ « أَمِيل » مِمَّا فِيهِ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْفَصِيحَةِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا صُحُفُهُ وَالشَّتَائِمِ الشَّدِيدَةِ الْمُنْبَعِثَةِ عَنْ وِجْدَانٍ كَبُرَ عَلَيْهِ احْتِمَالُ الضَّيْمِ وَالْهَوَانِ، وَمِنَ الْحَمَاسَةِ فِي نُصْرَةِ الْفَضِيلَةِ ، وَمِنَ الانْفِعَالَاتِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرُو مُؤَلِّفَهُ (الْمُؤْمِنَ بِاللهِ دُونَ وَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ) عِنْدَ نَظَرِهِ فِي بَدَائِعِ الصُّنْعِ وَمَحَاسِنِ الْكَوْنِ — لَوْ جَرَّدْنَا الْكِتَابَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ لَوَجَدْنَا بَقِيَّةَ مَا قَالَهُ الْمُؤَلِّفُ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَرَادَ وَضْعَهَا لِلتَّرْبِيَةِ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَهِيَ السَّيْرُ عَلَى مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَمُعَامَلَةُ الأَطْفَالِ مُعَامَلَةَ الْعُقَلَاءِ، وَلَوْ أَنَّا سَلَّمْنَا لَهُ مَا يَقُولُ لَرَأَيْنَا أَنَّ اتِّبَاعَ الْفِطْرَةِ فِي كُلِّ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ يُفْضِي بِالطِّفْلِ إِلَى حَالَةِ التَّوَحُّشِ وَالْهَمَجِيَّةِ . نَعَمْ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِي التَّرْبِيَةِ عَلَى رَأْيِ

(١) الأكياس جمع كيس بتشديد الياء وهو الظريف حسن العقل .

هذا الحكيم ، وإنه على عدم إيمانه بالوحي كان يعتقد بوجود الكمال فى أصل الفطرة من غير طريق الوحي . وأما كلامه فى معاملة الأطفال معاملة العقلاء ومخاطبة عقولهم فلا شك أنه جدير بأن تصاغ له من أجله أجمل عبارات المدح تنويها بفضله ، ولا بدع فى أن عرف له القرن الثامن عشر قدره بعد إنكاره ، فأقام له من الآثار ما خلد ذكره وأحيا اسمه . غير أن العقل من دون جميع قوى الإنسان هو الذى يكون فى طور الطفولية أقلها نموا ، فكيف إذن يعتمد على هذه القوة الكامنة فى إيصال معنى الخير إلى نفس الطفل .

لروسو فوق ذلك أغاليط أخرى كان يعتقد صحتها ، وكان من شأنها أن تعوقنا عن الارتقاء فى أخلاقنا وأوضاعنا . منها اعتقاده بوجوب الامتثال لما للجمهور الأغلب من السلطة المطلقة ، فإنا نجده فى كتابه المسمى بالعقد الاجتماعى قد انتصر للحكومة فيما تدعيه لنفسها من حق تربية الأمة بما أقامه عليه من البراهين .

وإن أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الأطفال خاصة بما نشره فى كتبه من الانتصار لهم والدفاع عن حقوقهم ، قلت إن ذلك إنما كان بما ألقته تلك الكتب فى نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها .

لم يقدر الناس ما نشأ عن هذه الحادثة الكبرى فى نظام البيت من ضروب التغير حق قدره ، فإنها قد خففت من ثقل الولاية الأبوية تخفيفا عجيبا على غير علم من الناس جميعا ، لأن المؤرخين قلما يلتفتون إلى ما يحصل فى البيوت

من تهذيب الأخلاق وصلاح العادات، فلم يكد رجال الثورتين اللتين حدثتا فى سنتى ١٧٨٩ و ١٧٩٢ يدركون ما يعتور تلك الأخلاق والعادات البيتية من الاستحالة على قربها منهم وسهولة ملاحظتها عليهم ذلك لأنه ليس فى وسع أحد أن يلاحظ أعمال جميع الناس، فإذا أريد الوقوف على أثر أنواع هذه الاستحالة وصنوف ذلك التغير وجب الرجوع إلى ما كتب من السير فى أواخر القرن السابع عشر أو فى أوائل القرن الثامن عشر . هنالك يرى ما كان بين الزوج وزوجه والوالدة وأولادها من التكلف فى العشرة ، والمقاسحة (١) والمجافاة فى المعاملة ، نعم إن قولى هذا خاص بأهل البيوتات لأننا لانعلم شيئاً من أحوال الطبقات الأخرى ، لكن هؤلاء لابد أنهم كانوا يحتذون مثال سراة الأمة وزعماء الدولة .

كان البيت فى ذلك العهد مؤسساً على إحدى الوصايا العشر التى وصى الله (سبحانه) بها موسى (عليه السلام) وهى « أكرم أباك وأمك » فلم يوص موسى قط بحبهما .

وكانت الزوجة فى الغالب تدعو زوجها سيداً وهو يدعوها سيدة، فكان تخاطبهما باسميهما مع كونه هو لذة العشرة والاختلاط لا يكاد يقع منهما فى حضرة الأجانب ، فالثورة هى التى أدخلت فى البيوت عادة التخاطب بضمير المفرد وسوت بين الولد البكر ومن يتلونه من إخوته فى الحقوق فاجتثت (٢) بذلك أصول التباين والاختلاف وأعلت من شأن المرأة ورفعت من قدرها، كما وثقت ما يربطها

(١) المقاسحة : المبايسة أى المعاملة بالشدة . (٢) اجتثت : اقتلعت .

بالرَّجُلِ مِنْ عَقْدِ النِّكَاحِ ، وَأَصْبَحَ الْبَيْتُ بِحُكْمِ الشُّئُونِ وَمَجْرَى الْحَوَادِثِ مَرْجِعًا لِأَصْدَاءِ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُنَاقَشَاتِ فِى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَصَارَ صَوْتُ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ فِى مُحَادَثَتِهِمَا أَخْلَصَ وَأَشَدَّ مِمَّا كَانَ قَبْلُ . وَكَانَ لِلْكَنِيسَةِ فِى الطِّفْلِ مِنَ الْحُقُوقِ إِلَى وَقْتِ قِيَامِ الثَّوْرَةِ فِى سَنَةِ ١٧٨٩ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لِأَهْلِهِ فِيهِ ، فَإِنَّ الْبَيْتَ كَانَ قَدِ اسْتَعَارَ مِنَ الدَّيْرِ مَا فِيهِ مِنْ صَلَابَةِ الْمُعَامَلَةِ الْبَارِدَةِ بِسَبَبِ أَنَّ الْوَالِدَةَ فِى الْغَالِبِ كَانَتْ تُرَبَّى فِيهِ . لَا أَعْنِى بِذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّ مَا كَانَتْ تُحِبُّ أَوْلَادَهَا قَبْلَ الثَّوْرَةِ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يَخْطُرَ هَذَا بِفِكْرِى ؛ وَلَكِنِّى مَعَ اعْتِقَادِى حُبَّهَا إِيَّاهُمْ أَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا ثَابِتًا أَنَّ الثَّوْرَةَ سَاعَدَتْ عَلَى تَخْلِيصِ مَحَبَّاتِ الْقُلُوبِ مِنْ قُيُودِ التَّكَلُّفِ ، فَكَمَا أَنَّ مَنْشَأَ جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الْعُظْمَى لِلْأَرْضِ هُوَ مَا فِى بَاطِنِهَا مِنَ النَّارِ كَذَلِكَ مَنْشَأُ حَوَادِثِ الْإِنْسَانِ الْكُبْرَى هُوَ مَا فِى قَلْبِهِ مِنَ الْحُبِّ .

ذَلِكَ شَأْنُ الْإِنْسَانِ فِى جَمِيعِ الْأَزْمَانِ ، فَمِنْ حَيَاتِهِ فِى الْهِنْدِ حَيْثُ كَانَ الطِّفْلُ لَا يُعْتَبَرُ إِلَّا بُرْعُومًا(١) مِنْ نَبَاتِ قَبِيلَتِهِ ، وَفِى رُومِيَةَ الَّتِى كَانَ الْوَالِدُ فِيهَا يَمْلِكُ عَلَى وَلَدِهِ حَقَّ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ ، إِلَى أَنْ صَارَ إِلَى هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْحَدِيثَةِ الَّتِى كَادَ يَكُونُ لِلطِّفْلِ فِيهَا وُجُودٌ مُسْتَقِلٌّ . قَدْ رَقِىَ الْبَيْتُ فِى أَطْوَارِ وُجُودِهِ الْأَصْلِيَّةِ جَمِيعَ مَعَارِجِ الْحُرِّيَّةِ ، فَلَا بُدَّ فِى تَغْيِيرِ شَكْلِ الْحُكُومَةِ وَإِصْلَاحِهَا مِنْ تَغْيِيرِ مَعْنَى الْأُبُوَّةِ أَيْضًا وَرَدِّهِ إِلَى حَدِّهِ .

أَطْوَلُ جَمِيعِ الثَّوْرَاتِ بَقَاءً وَأَخْلَدُهَا أَثَرًا هِىَ الَّتِى كَانَ لَهَا مِنَ الزَّمَنِ مَا اسْتَحْوَذَتْ فِيهِ عَلَى عُقُولِ النَّاشِئِينَ — فَالْإِصْلَاحُ الدِّينِىُّ مَثَلًا وَهُوَ مَذْهَبُ

(١) البرعوم : هو الزهر قبل تفتحه .

البُرُوتُسْتَانْتُ لا يَزَالُ حَيًّا فى أَلْمَانِيَة وَسْوِيسْرَةَ وَهُولَانْدَة وَإِنْجِلْتِرَة لِأَنَّ رِجَالَهُ فى هَذِهِ الْبُلْدَانِ وَفى غَيْرِهَا أَسْعَدَهُمُ الْحَظُّ بِتَأْسِيسِ مَدَارِسَ فِيهَا لِتَرْبِيَةِ الْأَحْدَاثِ عَلَى أُصُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ . وَأَمَّا الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ فَإِنَّ رِجَالَهَا عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَجِدُوا فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ لِتَنْفِيذِ مَقَاصِدِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ خَطَوْا عَلَى عَجَلٍ — وَإِنْ شِئْتَ فَقُولِى وَهُمْ فِى مَهَبِّ رِيَاحِ الْفِتْنَةِ — خِطَّةً مُثْلَى لِلتَّعْلِيمِ الْعَامِّ ، غَيْرَ أَنَّ أَعَاصِيرَ الْحَوَادِثِ دَافَعَتْهُمْ عَنْهَا لِحَيْلٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا كَانُوا يَقْصِدُونَ .

وَلَمَّا وُضِعَتِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي نَجْرِى عَلَيْهَا الْآنَ فِى التَّرْبِيَةِ كَانَتْ نِيرَانُ الْفِتْنَةِ قَدْ خَمَدَتْ ، وَمَرَاجِلُ الْعِصْيَانِ قَدْ سَكَنَتْ ، فَعُهِدَ إِلَى رِجَالِ الْحُكُومَةِ النِّيَابِيَّةِ — الَّذِينَ حَكَمُوا عَلَى الثَّائِرِينَ مِنْ رُصَفَائِهِمْ بِالْقَتْلِ حُكْمَ شِيشِيرُونَ(١) عَلَى كَاتِيلِينَا(٢) وَأَشْيَاعِهِ — بِتَجْدِيدِ مَا انْدَثَرَ مِنَ التَّعَالِيمِ الْقَدِيمَةِ ، فَمَا لَبِثَتْ هَذِهِ التَّعَالِيمُ أَنْ فَاضَتْ مِنْهَا عَلَى النَّاسِ أُصُولُ الْحُكُومَةِ الْفَرْدِيَّةِ أَىْ حُكُومَةِ الِاسْتِبْدَادِ وَأَصْبَحَتِ الْقُوَّةُ الْحَاكِمَةُ هِىَ مُدِيرَ الْمَدْرَسَةِ وَالْأُسْتَاذَ الْأَكْبَرَ لِتَعْلِيمِ الدِّينِ وَرَئِيسَ الْجُنْدِ الْأَكْبَرَ ، وَالشَّارِعَ الْأَكْبَرَ ، بَلِ الْكُلَّ الْأَكْبَرَ الَّذِى انْحَصَرَتْ فِيهِ جَمِيعُ الْوِلَايَاتِ . وَرَجَا النَّاسُ مِنْ هَذَا الْإِلَهِ الَّذِى هُوَ مِنْ صُنْعِهِمْ أَنْ يُضِىءَ عُقُولَ الْأُمَّةِ ، وَأَنْ يَصْنَعَ لَهُمْ عُلَمَاءَ وَأَنْصَافَ عُلَمَاءَ ، فَصَارَ التَّعْلِيمُ الِابْتِدَائِىُّ وَالثَّانَوِىُّ بَلْ صَارَتْ جَمِيعُ دَرَجَاتِ

(١) شيشيرون : هو مرقوس طوليوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفى سنة ٤٣ قبل المسيح وعين حاكما فى سنة ٦٣ وأخمد ثورة كاتيلينا والحرب التى قامت بين بومبى وقيصر .

(٢) كاتيلينا شريف من أشراف رومية كان جمع حزبا وثار به على مجلس الشيوخ وعلى رومية فقهره شيشيرون .

التَّعْلِيمِ مَحُوطَةً بِسِيَاجٍ حَصِينٍ مِنَ الْقَوَانِينِ . مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَكُونَ آسِفًا عَلَى مَا أَرَاهُ مِنَ انْتِشَارِ الْعُلُومِ وَعُمُومِ الْمَعَارِفِ ، وَلَكِنِّي ضَعِيفُ الْيَقِينِ بِتَأْثِيرِ عَمَلِ الْحُكُومَةِ إِذَا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيمِ هُوَ تَرْبِيَةَ رِجَالٍ أَحْرَارٍ ، لِأَنَّهَا مَا وُضِعَتْ لِذَلِكَ فَإِنَّ لِأَعْضَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا لِأَعْضَاءِ الْأَجْسَامِ أَعْمَالًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا بِمُجَرَّدِ تَوْجِيهِ الْعَزِيمَةِ إِلَى ذَلِكَ . سَمِعْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ : أَنَّ الْجَهْلَ كَانَ الْعَقَبَةَ الْكُبْرَى فِي طَرِيقِ كَمَالِ الْحُرِّيَّةِ ، وَأَنَا مُوقِنٌ بِصِحَّةِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ . وَسَمِعْتُ أَيْضًا مِمَّنْ قَالُوهَا : أَنَّ الْحُكُومَةَ قَدْ قَرَّرَتْ أَنْ يَكُونَ التَّعْلِيمُ مَجَّانًا وَإِلْزَامِيًّا وَسَتَكُونُ الْأَحْوَالُ حِينَئِذٍ عَلَى مَا يُرَامُ ، وَأَنَا لَا أُصَدِّقُ هَذَا وَأَضْرِبُ الصِّينَ مَثَلًا لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَرَوْنَ دَوَالِيبَ التَّعْلِيمِ الَّتِي تُدِيرُهَا يَدُ الْحُكُومَةِ وَسِيلَةً لِتَحْرِيرِ الْعُقُولِ — يَكَادُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، فَفِيهَا مِنَ الْمَدَارِسِ الِابْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ وَطُرُقِ الِامْتِحَانِ مَا يَفُوقُ الْحَصْرَ ، وَالصِّينِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا فَنَّ الطِّبَاعَةِ وَهُوَ أَكْثَرُ الْفُنُونِ الْيَدَوِيَّةِ أَثَرًا فِي قَلْبِ شُئُونِ الْعَالَمِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُعْرَفَ فِي أُورُبَّةَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَأَنْتِ تَعْلَمِينَ نَتِيجَةَ ذَلِكَ مِثْلِي . لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّعْلِيمِ الَّذِي كَانَتِ الْأَسَاتِذَةُ تُفِيضُهُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ أَتْقَنَ تَحْجِيرَ الْأَوْضَاعِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَجَعَلَهَا أَصْلَبَ مِمَّا كَانَتْ .

كَذَلِكَ يَكُونُ الشَّأْنُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّتِي يَكُونُ الْغَرَضُ مِنَ التَّرْبِيَةِ فِيهَا إِيجَادَ رَعَايَا لِلْحُكُومَةِ فِي الْقَالَبِ الَّذِي تُرِيدُهُ . وَلَوْ شِئْتُ لَذَكَرْتُ أُمَّةً أُورُبِّيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصِّينِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ كَبِيرُ فَرْقٍ ، فَإِنَّ التَّعْلِيمَ الِابْتِدَائِيَّ يُثَبِّتُ كُلَّ يَوْمٍ فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ خُلُقَ الِانْقِيَادِ الْأَعْمَى بِسَبَبِ تَدَاخُلِ السُّلْطَتَيْنِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ

فيه، فالمعلم فى هذه الحالة هو بطانة[1] الحاكم الغاشم، فعلى هذا لا غرابة مطلقا فى أن دينيس لما خلع من الملك تولى إدارة مدرسة[2].

من الخطإ أن يعتقد معتقد أن الحكومة المطلقة تكره تقدم سير التعليم العام وتعاديه عن قصد، فما الذى تخشاه منه وليس هو إلا جملة أنواع من العرفان هى تحررها وتصورها كيفما شاءت؟ أليس بيدها مقاليد هذه الجملة؟ أليست طرق التعليم التى تقررها وهى المتبعة دون غيرها هى أحسن ما وجدته لتمكين أصل الانقياد للقوة الحاكمة فى نفوس المتعلمين؟ إن أخوف ما أخافه على الأمة من المخازى المهينة التى تشين شرفها هى العبودية فى الاختيار، فإن الأصفاد التى تقيد الرقيق قد تسقط بمقاومة قليلة (والتاريخ يروى لنا فى ذلك أكثر من مثل) وأما ما يتزيا به حواشى الأمراء وخدمهم من الملابس الرسمية فما أطول بقاءه على أبدانهم. إذا تعلمت الأمة بالتربية الفاسدة الطاعة والانقياد، وكان الباعث لها عليهما المنفعة أو الأثرة أو الوجدان كان ذلك كل ما يطلبه منها مربيها.

إن مذهب القائلين بوجوب توسط الحكومة فى التعليم مؤسس على أمور الاعتقاد التقليدى وعلى أن السلف كانوا يأتمرون بأوامر مدير المدرسة أو رئيس القرية كما نقل إلينا ذلك فى آثارهم، فلا يطالب أصحاب هذا المذهب من يعلمونهم من الأطفال بالاستقلال فى الفكر والعمل، وإنما يحملونهم على العمل بما يقال

(١) بطانة الرجل: صديقه الذى يكاشفه أسراره لثقته بمودته.

(٢) دينيس هو حاكم جائر غاشم كان فى سيراكوزة فطرده منها ديون ثم تيمليون ومات وهو مدير مدرسة قورنتة سنة ٣٤٣ ق. م.

لهم فتكون قلوب الأطفال بأيدى معلميهم مادة لينة يتخذون منها للحكومة رعية نافعة مطيعة . وإذا كانت هذه هى غايتهم التى يرمون إليها فهم لا يبالون بما عداها بل أحب شئ إليهم أن تصير المدرسة بهذه الطريقة مربى يتخرج فيه أوساط الناس فإن الأمة تصير بذلك أسلس للوازع قيادا وأخفض جناحا .

لا يشك أحد فى أن معاهد التعليم عندنا يرأسها كثير من الرجال العارفين الأحرار، وللجامعة فوق ذلك مزية نادرة الوجود فى رأى أهل النظر، وهى أنه لما كانت الثورة الفرنسية هى الأصل فى وجود القسم الأكبر منها كان من المتعسر أن تتحول عن مبادئها وأصولها مهما تغيرت عليها الأحوال وتبدلت الشئون فهى المعقل الرفيع الذى يحمى الأفكار والآراء الحديثة من إغارات مذاهب الكهنوت عليها ، وكل يوم تتخرج فى مدارسنا الاختيارية وكلياتنا عقول سامية بل عقول حرة أيضا . نعم إن للحكومات أن تسن ماشاءت من قوانين التعليم، ولكن ليس فى وسعها أن تبطل تأثير علم الحكمة والأفكار التى ولدتها ثورة سنة ١٧٨٩ وغيرها من المؤثرات التى تعمل فى نفوس الأحداث على الرغم من كل قانون ونظام ، ومن أجل هذا أنا لا أعيب المدارس لذاتها وإنما أعيب فيها مجموع طرق التعليم من حيث هو مؤسس على أوهامنا وأخلاقنا وعاداتنا .

التربية الخاصة عندنا هى أيضا أقل قيمة من التربية العامة، فإن الوليد عندما يسلك سبيل الحياة لا يتوجه قصدنا إلا الى إلزامه الجرى على مألوف العادة . وما يلقى فى ذهنه من المعارف كله تجريبى، ولم يفكر أحد منا حتى الآن فى جعله

مُسَاوِقًا(١) لِفِطْرَةِ الإِنْسَانِ وَمُنَاسِبًا لَهَا . إِنَّنَا مُنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ تَقْرِيبًا قَدْ جَدَّدْنَا طُرُقَ تَنَاوُلِ العُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَفُنُونِ الاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَالتَّارِيخِ وَالحِكْمَةِ وَالأَدَبِ وَالاِنْتِقَادِ وَكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِتَرْبِيَةِ الأَطْفَالِ » عَلَى أَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَانَ يَجِبُ البَدَاءَةُ بِهَا فِي التَّغْيِيرِ .

أَوَّلُ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ يُحْتَرَمَ هُوَ وُجُودُ الإِنْسَانِ حَتَّى فِي ذَاتِ الطِّفْلِ .

إِنِّي إِذَا اتَّفَقَ لِي سَمَاعُ خُطَبِ عُلَمَاءِ الأَخْلَاقِ وَرِجَالِ الحُكُومَةِ فِي مَذْهَبِ الاِشْتِرَاكِيِّينَ لَمْ يَعُدْ يُخَامِرُنِي شَكٌّ فِي أَنَّ هَذَا المَذْهَبَ فَاسِدٌ مَمْقُوتٌ مُغَايِرٌ لِلدِّينِ ، لِمَا يُقِيمُونَهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الحُجَجِ القَوِيَّةِ وَالبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ ، فَأَنْحَازُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ حِزْبُ الاِسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ . هَذَا مَا يُقَالُ ، وَلَكِنِّي إِذَا دَخَلْتُ مَدَارِسَنَا الاِبْتِدَائِيَّةَ أَوِ الثَّانَوِيَّةَ لَا يَسَعُنِي إِلَّا أَنْ أَعْتَرِفَ عَلَى الفَوْرِ بِأَنَّ مَا شُيِّدَ لَهَا مِنَ الأَبْنِيَةِ وَوُضِعَ لِتَلَامِيذِهَا مِنْ ضُرُوبِ النِّظَامِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَوَحُّدِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ وَاخْتِلَاطِ الدُّرُوسِ ، لَمْ يُوضَعْ إِلَّا لِحَبْسِ الجِسْمِ وَالعَقْلِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمَا فَكَمَا أَنَّ المِصْرِيِّينَ — عَلَى مَا يُرْوَى عَنْهُمْ — قَدِ اخْتَرَعُوا أَفْرَانًا لِتَوْلِيدِ فِرَاخِ الدَّجَاجِ قَدِ اكْتَشَفْنَا نَحْنُ أَفْرَانًا لِإِنْضَاجِ التَّلَامِيذِ ، عَلَى أَنَّ القُوَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُعْنَى بِإِنْضَاجِهِمَا فِيهِمْ أَشَدَّ العِنَايَةِ عَلَى هَذِهِ الحَرَارَةِ الصِّنَاعِيَّةِ — وَهُمَا قُوَّتَا التَّقْلِيدِ وَالذَّاكِرَةِ — لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُمَا أَقَلُّ جَمِيعِ القُوَى الإِنْسَانِيَّةِ كَشْفًا عَنْ حَقِيقَةِ العَقْلِ وَإِظْهَارًا لِلْمَلَكَاتِ الصَّحِيحَةِ ، فَكَأَنَّ المَعْهُودَ إِلَيْهِمْ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ قَصَدُوا أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ شَبِيهًا بِجَمِيعِ النَّاسِ ، وَلَسْتُ أَعْدَمُ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّ ذَلِكَ هُوَ مِنَ النَّتَائِجِ الضَّرُورِيَّةِ لِتَطَلُّعِنَا إِلَى نِظَامِ

(١) مساوقا : متابعا .

الحُكُومَةِ الجُمْهُورِيَّةِ وَتَحقّقنا بأُصوله . فَأَجيبُهُ : أَنَّ هَذَا القَوْلَ مِنَ الخَبْطِ وَالخَلْطِ الْغَرِيبِ . فَكَيْفَ يُشَبِّهُ تَوَحُّدُ المَعَارِفِ وَالْمَلَكَاتِ بِالْمُسَاوَاةِ فِي الحُقُوقِ؟ أَلَا يُرَى أَنَّ سُكَّانَ الوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ أَشَدَّ مِنَّا إِيغَالًا فِي الْأَخْذِ بِسُنَّةِ النِّظَامِ الجُمْهُورِيِّ عَلَى العَكْسِ مِنَّا يَزْدَادُ فِيهِمْ شُعُورُ الِاسْتِقْلَالِ بِالْوُجُودِ الذَّاتِيِّ — الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْحُرِّيَّةِ — حَيَاةً وَقُوَّةً تَتَظَهَّرُ آثَارُهُ فِي أَعْمَالِهِمْ ظُهُورًا جَلِيًّا .

إِنَّ فِي وُسْعِ كُلِّ شَابٍّ — لَوْ صَحَّتْ عَزِيمَتُهُ — أَنْ يَتَعَلَّمَ بِنَفْسِهِ مِنْ جَدِيدٍ مَا لَمْ يَكُنْ أَجَادَ تَعَلُّمَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ وَهَذَا مَاوَقَعَ لِكُلٍّ مِنَّا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْهَا . وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يَفُكُّهُ مِنْ أَغْلَالِ الْعَادَاتِ الَّتِي تَخَلَّقَ بِهَا فِي صِغَرِهِ؟ وَكَيْفَ يَتَسَنَّى لِهَذَا الْمُنْفَلِتِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ أَنْ يَهْتَدِيَ فِي مُسْتَقْبَلِهِ بِمُجَرَّدِ مَا اكْتَسَبَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ، مَعَ أَنَّهُ إِلَى وَقْتِ مُبَارَحَتِهِ لَهَا كَانَ لَا يَسْتَقِلُّ بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ، بَلْ كَانَ يَعْمَلُهَا جَمِيعًا بِأَعْيُنِ مُعَلِّمِيهِ؟ وَمَا الْحِيلَةُ فِي إِحْيَاءِ قُوَّةِ نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَهَا التَّأْدِيبُ الْمُؤَدِّي إِلَى دَرَكَةِ الْبَهِيمِيَّةِ؟ وَمَا مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى الزَّاجِرِ النَّفْسِيِّ إِذَا كَانَ وِجْدَانُ الْيَافِعِ يُسْلَبُ مِنْهُ وَيُوضَعُ بِأَيْدِي مَنْ يُدِيرُونَ شُئُونَهُ ؟ ذَلِكَ هُوَ أَخَصُّ مَا أَخْشَاهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطَرِ . وَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ يَتَمَثَّلَ هُنَا بِبَعْضِ مَشْهُورِي الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ طُفُولَتِهِمْ فِي أَشَدِّ الْمُرَاقَبَةِ وَالْحَصْرِ وَلَمْ يُؤَثِّرْ هَذَا فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ ، فَيَقَالَ : إِنَّ فُولْتِيرَ (١) مَثَلًا تَرَبَّى فِي حِجْرِ الْيَسُوعِيِّينَ وَتَخَرَّجَ جَبَابِرَةُ الثَّوْرَةِ الَّتِي حَصَلَتْ سَنَةَ ١٧٨٩ عَلَى رِجَالِ

---

(١) فولتير: هو أرويت دوفولتير الشاعر الحكيم الفرنسى المولود سنة ١٦٩٤ المتوفى سنة ١٧٧٨ بعد الميلاد .

الكهنوت . لأنى لا أتكلم هنا عن أفراد الرجال وشذاذهم وإنما أقصد بكلامى جملة الأمة وعامتها ، وأسائل نفسى عما يحدثه مثل هذا النظام من الأثر فى طباع أوساطها : كونى على يقين أنه ليس من الميسور لكل واحد أن يجد ما يكفى من القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه بعد أن ألقى لغيره زمام عزيمته .

قد لاقيت فى الناس من جرى الاصطلاح بتسميتهم : الشبان العارفين : فهل رأيت منهم كثيرا يمتازون بجراءة الجنان الحقيقية ؟ ألم تريهم يقاومون غالبا من وسائل الترقى وطرق الإصلاح ما عسى أن يذهب ببعض آمالهم ، ويسخرون به ميلا مع الأثرة وحبا للاختصاص ؟ ألا تجدينهم أشد عداوة من جهلة العامة لبعض العلوم ؟ إنهم ليؤمنون على السواء بكل ما قدسه مرور الزمن عليه وآراء الناس فيه ، غير مهتمين بالتمييز بين صحيحه وفاسده وحقه وباطله . وما لهم ولهذا التمييز إذا كانت مهارتهم توصلهم إلى مقاصدهم ؟ وهل هم فى هذا العالم حتى يشتغلوا بمصالح غيرهم ؟ كلا ، بل هم قانعون بنقصهم الذى يظهرونه للناس فى مظهر الكمال ويهزأون بما كان من جد الخائبين وإخلاص المخلصين وصدق نفوس الصادقين ، وهم لما فيهم من خفة الأحلام وكثرة المجون والغرور والترف يلتمسون فى كل أمر وسيلة للانتفاع بحاضرهم ومع قلة ما لهم من المعارف الصحيحة يظهرون فى مظهر العارفين بكل شىء ، ولكون المجتمع الإنسانى حلبة سباق كبرى تريهم يعملون فيها لمزاحمة غيرهم فى الحصول على سبقها[1] أو على الألقاب التى تعطى عادة لمن يقاربون

(١) السبق بضم السين وفتح الباء جمع سبقة وهى المكافأة التى تعطى للسابق فى ميدان المسابقة .

فى هَـذَا السَّبْقِ، وَفِى هَـذِهِ الْحَلْبَةِ[(١)] الْجَدِيدَةِ أَيْضًا لَا يُعْتَدُّ كَثِيرًا بِجَدَارَةِ الْجَدِيرِينَ، وَلَا بِأَهْلِيَّـةِ الْمُسْتَحِقِّينَ، لِأَنَّ الْجَوَازِى[(٢)] تُمْنَحُ بِالْمُحَابَاةِ وَالْأَثَرَةِ وَالَّذِينَ يَنَالُونَهَا هُمْ أَهْلُ الدَّسَائِسِ وَالْخِدَاعِ، فَلَا بِدْعَ إِذَنْ أَنْ كَدَحَ[(٣)] الْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ الشُّبَّانِ بَعْدَ تَفَصِّيهِمْ[(٤)] مِنْ رِبْقَةِ[(٥)] النِّظَامِ الْمَدْرَسِيِّ لِأَجْلِ الدُّخُولِ تَحْتَ وِلَايَةِ الْحُكُومَةِ .

إِذَا صَدَّقْتِ قَوْلِي، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُرَبِّيَ وَلَدَنَا عَلَى الطُّرُقِ الْمُتَّبَعَةِ وَقَدْ يَكُونُ عَمَلُنَا فِى ذَلِكَ أَحْسَنَ مِنْ عَمَلِ غَيْرِنَا أَوْ مِثْلَهُ فِى الْقُبْحِ . إِلَّا أَنَّنَـا عَلَى كُلِّ حَالٍ نَكُونُ قَدْ أَقَمْنَـا حَقًّا مُقَدَّسًا، فَإِنَّ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ مَنُوطَةٌ بِالْبَيْتِ وَالْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ قَبْلَ أَنْ تُنَاطَ بِالْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ[(٦)]، مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي قَدْ جَمَحَ بِهَا قَلَمِي؟ قُلْتُ إِنَّ التَّرْبِيَةَ مَنُوطَةٌ بِالْبَيْتِ، وَلَكِنْ وَا أَسَفِي عَلَى بَيْتِنَا فَقَدْ هُدِمَ . نَعَمْ إِنَّ عُشَّنَا الَّذِى كُنَّا لَا بُدَّ أَنْ نَتَنَاجَى فِيهِ بِأَحْسَنِ أَمَانِينَا وَنُسْكِنُهُ أَعَزَّ آمَالِنَا قَدْ ثَارَتْ عَلَيْهِ عَوَاصِفُ الْمِحَنِ فَدَمَّرَتْهُ تَدْمِيرًا . وَلَكِنْ لَا بَأْسَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ فَسَنُعِيدُ بِنَاءَهُ بِرَوَابِطِ الْحُبِّ فَوْقَ جَوِّ الْفِتَنِ فَأَكُونُ مَعَكِ فِى هَذَا الْعَمَلِ بِقَلْبِي، وَأَنْتِ تَسْهَرِينَ وَتَنُوبِينَ عَنِّي فِى السَّهَرِ عَلَى حَرَاسَةِ ذُخْرِنَا فَإِنِّي قَدِ اسْتَوْدَعْتُكِ إِيَّاهُ وَالسَّلَامُ . اﻫ

---

(١) الحلبة : الدفعة من الخيل فى الرهان خاصة .

(٢) الجوازى جمع جازية وهى المكافأة على الشىء .

(٣) كدح فى العمل : سعى وعمل لنفسه .

(٤) التفصى من الشىء : التخلص منه .

(٥) الربقة : العروة .

(٦) عسى أن يعى الوالدون هذه الكلمة الحكيمة فيعنوا بتربية أولادهم ، ويعملوا على تثقيفهم على أحسن الطباع وأقوم الأخلاق ولا يتكلوا فى ذلك على المـدارس والمعاهد فإن التعليم فيها آلى لا علاقة له بالنفس . المترجم .

الرسالة العشرون

(مِنْ هَيْلَانَةَ إلى إرَاسْمَ فى ٨ مايو سنة — ١٨٥)

وَصِيَّةُ الدُّكْتُورِ وَارِنجْتُونَ لَهَا بِالرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالتَّنَزُّهِ وَالْبُعْدِ عَمَّا يُثِيرُ الِانْفِعَالَاتِ وَبِاجْتِلَاءِ(١) الْمَنَاظِرِ الرَّائِعَةِ

أَتَدْرِي أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِرَاسْمُ أَنِّي فَكَّرْتُ كَثِيراً فِيمَا خَتَمْتَ بِهِ مَكْتُوبَكَ الْأَخِيرَ وَوَرَدَ عَلَى ذِهْنِي مِنْهُ خَاطِرٌ يَجِبُ عَلَيَّ قَبْلَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْكَ بِهِ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ كَيْفَ وَرَدَ ؟

جَاءَ الدُّكْتُورُ وَارِنجْتُونُ وَأُسْرَتُهُ إِلَى هُنَا وَأَمْضَوْا يَوْمَيْنِ فَسَنَّ لِي شِبْهَ قَانُونٍ أُجْرِي عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِي — بَلْ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مُعْظَمُ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ الْحَوَامِلِ اللَّاتِي يُوصَفْنَ عَادَةً بِأَنَّهُنَّ فِي حَالَةٍ شَاغِلَةٍ . نَصَحَ لِي بِإِدَامَةِ الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالتَّنَزُّهِ ثُمَّ قَالَ مَا نَصُّهُ « إِيَّاكِ وَالِاقْتِرَابَ مِمَّا تَضُرُّ مُطَالَعَتُهُ مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْ قِرَاءَتِهَا الِانْفِعَالَاتُ الشَّدِيدَةُ الْبَاطِلَةُ . كَانَ الْيُونَانُ أَعْقَلَ مِنَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحِيطُونَ نِسَاءَهُمْ مُدَّةَ الْحَمْلِ بِالتَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ الْمَنْسُوبَةِ لِمَشْهُورِي الْأَسَاتِذَةِ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَجْزِمُ بِأَنَّ هَذَا كَانَ هُوَ السَّبَبَ فِي إِتْيَانِ أَوْلَادِهِمْ حِسَانَ الْخِلْقَةِ ، أَقُولُ : عَلَى كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْبَدِيعَةِ الصُّنْعِ يُحْدِثُ فِي نُفُوسِ ذَوِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ مِنَ النَّاسِ شُعُورَ الِارْتِيَاحِ وَالِانْبِسَاطِ ، وَيَكُونُ فِيهَا مَدْعَاةٌ لِاعْتِدَالِ الْأَمْزِجَةِ وَتَوَافُقِ الطَّبَائِعِ فَلِمَ لَا يَكُونُ مِنْ مُوجِبَاتِ حِفْظِ الصِّحَّةِ . كَثِيرٌ مِنَ السَّيِّدَاتِ عِنْدَنَا يَغْلِبُ عَلَيْهِنَّ

(١) اجتلاء المناظر : النظر اليها .

فى طور الخمل الخمود وفتور القوى بسبب البطالة التى هى منشأ الأمراض العصبية فإنهن لا شغل لهن فيه سوى مساورة الأوهام ومطاردة الخيالات وأما أنت فلما أعهده فيك من الشغف بالمناظر الخلابة أوصيك بالسعى وراء اجتلاء ما فى الخليقة من رائع الجمال ورائق الحسن وبأن تتخذى لنفسك أعمالا مرتبة تشتغل بها يدك وعقلك » .

رأيت أن هذه النصائح كلها حكمة وعلم، فأخذت نفسى بها وخرجت للتنزه اليوم التالى لتلقيها بعد تدبير بعض الشئون البيتية، فلما رأتنى نساء القرية مبكرة على الطريق بعثهن كرم أخلاقهن على أن يبتدرننى بالتحية قائلات : صباح بهى وبكرة سنية، ولم يكن الصباح كما قلن ولكنها عادة الناس هنا إذا تبادلوا التحية بالوقت، فهم دائما يميلون إلى امتداحه قليلا فشكرت لهن حسن قصدهن .

لم أسر فى تنزهى على الخليج بل اعتسفت[1] الطريق فى ريف يتسع فيه الفضاء للماشى كلما جد به السير . ومما لاحظته أن نساء كورنواى يضعن على رءوسهن كمات[2] من القش وقد اخترت أن أحذو مثالهن فى ذلك، فوضعت واحدة منها اتقاء لحر الشمس وحبا لما فيها من البساطة الكلية، وإخالنى أروق فى نظرك لو رأيتنى بها . كنت أتقدم فى هذا الريف على جهل منى بقراه ولكننى كنت آمنة من الضلال لأنى ما كنت قاصدة جهة معينة، وكان ذلك اليوم من الأيام التى كثيرا ما ترى فى غرب إنجلترة فكانت سماؤه محتجبة بالجهام[3]، وكانت تأتى من البحر

(١) اعتسفت الطريق : خبطته على غير هداية . (٢) الكمة — بالضم — : القلنسوة المدورة .

(٣) الجهام : سحاب لا ماء فيه .

رِيحٌ بَلِيلٌ(١) مُسَفْسِفَةٌ(٢) فَتَجْرِي بَيْنَ أَشْجَارِ الْعُلَّيْقِ فَتُوَلِّدُ فِيهَا رِعْدَةً طَوِيلَةً وَكَانَتِ الطُّيُورُ تُغَرِّدُ حَوْلَ عِشَاشِهَا .

قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ كُنْتُ فِيهِ أَجِدُ(٣) عَلَى الْخَلِيقَةِ إِذَا بَدَتْ عَلَيْهَا سِمَاتُ الِاغْتِبَاطِ وَالسُّرُورِ وَأَنَا حَزِينَةُ الْفُؤَادِ مُتَبَلْبِلَةُ الْأَفْكَارِ، فَمَا زِلْتَ بِي حَتَّى أَثْبَتَّ لِي أَنَّ هَـذَا الْوَجْدَ وَالِانْفِعَالَ بَاطِلَانِ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِنْصَافِ وَنَاشِـئَانِ مِنَ الْأَثَرَةِ وَحُبِّ الِاخْتِصَاصِ، فَأَصْبَحْتُ الْآنَ بِفَضْلِ نُصْحِكَ لِي أُسَرُّ بِمَـا أَجِدُهُ فِي سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ آثَارِ الْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا انْبَعَثَ فِي قَلْبِي مِنْ وِجْدَانِ الْحَنَانِ وَالرَّحْمَةِ ، وَبِمَـا عَايَنْتُــهُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ شَوَاهِدِ الْفَضْلِ وَالنِّعْمَةِ، أَنَّ اللهَ (سُبْحَانَهُ) لَمْ يَلْعَنِ الْأَرْضَ وَلَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهَا(٤) .

كَانَتْ بُكْرَتِي هَـذِهِ مِنَ الْبُكَرِ الَّتِي تَعْرِفُهَا : تَدُورُ فِي هَوَائِهَا عَلَى سُكُونِهِ مَادَّةٌ غَزِيرَةٌ مُخْتَلِفَةُ الْعَنَاصِرِ لِلتَّوْلِيدِ وَالْخِصْبِ، فَكَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ أَشْجَـارِ الْعَوْسَجِ وَحُقُولِ الْقَمْحِ وَالْمَخَارِفِ(٥) الْمُوَطَّأَةِ نَسَمَاتٌ فَاتِرَةٌ مُقَوِّيَةٌ كَانَتْ تَسْرِي بِسَبَبِهَا الْحَرَارَةُ فِي جِسْمِي فَتَصِـلُ إِلَى وَجْهِي، فَكَأَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ مُصَابَةً بِحُمَّى الرَّبِيعِ، وَلَقَـدْ تَذَكَّرْتُكَ فِي تَسْيَارِي بَيْنَ هَذِهِ الْمَزَارِعِ وَفَكَّرْتُ فِيمَا سَأَنَالُهُ عَمَّا قَلِيلٍ مِنْ شَرَفِ الْأُمُومَةِ إِنْ لَمْ يَحْدُثْ مِنَ الطَّوَارِئِ مَا يَقْطَعُ مَوْصُولَ آمَالِنَا ، وَفِي هَـذَا الْوَقْتِ أَحَسَّ قَلْبِي بِمَـا

(١) الريح البليل : هى الباردة الندية . (٢) المسفسفة : هى التى تجرى فويق الأرض .

(٣) أجد : أغضب . (٤) تشير الى ما فى إصحاح ١٧ : ٣ من سفر التكوين من الإنجيل ونصه «ملعونة الأرض بسببك» . (٥) المخارف جمع مخرف : وهو الطريق بين الأشجار والزروع والموطأة الممهدة .

آنطوى عليه مكتوبك فتسابقت إلى ذهني منه هذه الكلمات وهي « فإني قد استودعتك إياه » .

عند ذلك صحت قائلة : لماذا لا أكون أنا في الحقيقة معلمة ولدى؟ أليس من المعروف عن نساء الولايات المتحدة أن معظم تعليم الأطفال ذكورا كانوا أو إناثا موكول إليهن؟ بل مما يؤكده العارفون أنهن يفضلن الرجال في القيام بهذا العمل الصعب وإني سأجرب نفسي في الاقتداء بهن . على أن هذا هو ما يراه زوجي ، فمن حيث إنه قد عول على ترك المزايا التي لمدارسنا وغيرها من معاهد التعليم لاعتبارات أقدرها أنا حق قدرها فلا بد أن أحل محله ولو حينا من الزمن في القيام على تلميذنا الآتي وتربيته وسيكون هذا آكد فرض على وأخص ما أفتخر به وأزهى . أشهد الله على ما أقول وأشهد عليه أيضا أمومة الفطرة الكبرى التي تدعونى بما فيها من القدوة إلى العمل وإنماء جميع قواى .

ربما أضحكتك منى هذه المزاعم وإنى لعلى علم بكل ما يعوزني(١) لأداء هذا الواجب الصعب المعضل، فإنه ينقصني كثير من المعارف وإن كان والداى لم يغفلا تربيتي الأولى . ولكن لا شىء يمنعني من الاستمرار على التعلم بنفسى إذا كنت لا أزال في السن الملائمة له فسأعلم ولدنا في الزمن الذى يشب فيه وينمو وأتعلم أنا أيضا بتعليمه ، ولن أعتقد أنى أمه حقا إلا إذا نفثت في روعه أفكارك وزرعت في نفسه أصولك .

---

(١) يعوزنى : ينقصنى .

سنتعاون بقلبينا على هـذا الأمر الخطير فعليك الإرشاد وعلى العمل، وقد وعدتك بأن أكون قوية وهـذا هو قصدى وسأبلغه ملتمسة من الرياضة البدنية والمطالعة ما يلزمنى من الصحة والعافية فى جسمى وعقلى لأداء هذا الفرض العظيم. ومعاذ الله أن يكون من قصدى أن أصير إلى أحسن مما أنا عليه الآن، نعم إنى لست من الوليات ولا من الناسكات فقد أتى على زمن كانت تجذبنى فيه جواذب اللذات الدنيوية وليس هـذا الزمن عنى ببعيد فإنى لم أتجاوز الثالثة والعشرين من عمرى، ولم يكن تركى معاهـد التمثيل وملاهى الغناء وأندية الظرفاء التى كنت أفتخر فيها بمصاحبتك مبنيا على رغبتى عنها وميلى إلى غيرها، وإنما كان ذلك مما أصابنا من صروف الدهر ونوائبه التى سيظل ما جرته لى من الكآبة والحزن مخيما على طول حياتى، على أننى لست آسى على شىء مما فات فأرجو أن لا تظن بى ذلك. واعتقد أنى لو كنت مطلقة من قيود هـذه المصائب لما انفككت عن اختيارك لى خلا وقرينا، واعلم أن الفراق لم يزدنى فيك إلا حبا وإنما أنا أشكو من ألم فى نفسى، ولكن كما توجد طرق مادية لحفظ صحة البدن، توجد أيضا طريقة معنوية لحفظ النفس وسلامتها من الأمراض وهى رفعها إلى معالى الأمور، وسأجربها، فإن ذلك على ما يقال يسكن من آلامها، وإذا صح هـذا فأية غاية تسمو إليها أفكارى وتعلو بها نفسى أشرف من رعاية ولد أربيه على أصولك وأخلاقك؟ إن هذا لهو أكمل قصد وقفت نفسى على إدراكه.

أنا مع انتظارى لهـذا العمل الجليل أشتغل بشئون بيتية محضة، وأما قو بيدون فإنه صمم على أن يعمل عمل المزارعين، فجلب إلى مسرح الدواجن(١) فى بيتنا دجاجا وبطا

(١) الدواجن : الحيوانات المستأنسة .

وماعزًا وغيرها وكان في البيت برج عتيق مهجور فعمره بالحمام، وأنا مهتمة غاية الاهتمام بكل هذا العالم الصغير، وكنت قبلًا أعتقد في نفسي أني على شيء من علم الحيوانات لما قرأته من الكتب المختلفة في التاريخ الطبيعي وأما الآن فقد تبين لي مقدار خطائي في هذا الاعتقاد، فإني كل يوم أشاهد من عجائب الحيوانات ما لم يقل عنه العلماء شيئًا . وأنا وجورجية نوزع الحبوب على جميع هذه الدواجن التي يظهر من حالها أنها تدرك محبتنا إياها لأنها تأنس بنا وتفرح لرؤيتنا .

الرسالة الحادية والعشرون

(من هيلانة إلى إراسم في ٣١ يونيه سنة — ١٨٥)

وصف تعويد الإنجليز أطفالهم الاستقلال والحرية من صغرهم

أكتب إليك أيها العزيز إراسم قيامًا بما أخذته على نفسي من إنبائك بكل ما أفعل وما أرى وما أسمع فأقول :

اتفق لي منذ بضعة أسابيع أن كنت في بيت صديقك الدكتور، فرأيت عنده رجلًا من إيقوسية هو شيخ طويل نحيف علمت أنه من أصدقاء ذلك البيت وأنه غادر بلاده لأسباب مجهولة عندي ولكونه لا يستطيع المعيشة بعيدًا عن منظر البحار والصخور والرمال قد نزل بكورنواي إلى حين . يبدى هذا الرجل من التنطع (١) والتشدد في آدابه وهيآت أفعاله ما لو أبصرته الفرنسيات لضحك كثير منهن على

(١) التنطع في العمل : التحذق فيه أي تكلف الحذق .

ما أرى فإنه إذا سعل يسعل بانتظام، وإذا دخلت عليه سيدة فى قاعة الاستقبال وثب قائما كأنه حرك بلولب، وأقبل بوجه فيه من تكلف الوقار والرزانة ما يحاكى تكلفه فى شد رباط عنقه وإتقانه . ومهما كانت حاله فهو هنا محترم مبجل . ولا غرو فإنه ساح فى كثير من البلدان ويحسن التكلم بالفرنسية، ولديه بحسب ما أرى ذخر عظيم من المعارف . يسمى الرجل السر جون سانت أندروز وأخص ما اشتغل به فى سياحته البحث فى التربية وزيارة مدارس إنجلترة وإيقوسية وقارة أوربة . وجملة قولى فيه أن حديثه يهمنى ويفيدنى، ولما كنت أعلم أن موضوع أنظاره وأبحاثه داخل فى نوع ما نبحث فيه ونشتغل به أصغيت إليه لأجلى وأجلك فمما قاله لى : إن الناس فى بريطانية العظمى يهتمون قبل كل شىء بإنماء القوى الجسدية فى الناشئين — فبالرياضات البدنية تنشأ أعضاؤهم من صغرهم قوية تناسب الرجولية وتتهيأ أجسامهم لخدمة عقولهم وعزائمهم، وهذا هو سبب عنايتهم بالرياضات والألعاب التى تخالف ما عندنا مخالفة جوهرية .

نعم إنه يوجد فى المدارس الإنجليزية ما نسميه فى مدارسنا الفرنسية فن التمرين البدنى (الجنباز) إلا أن التلاميذ الإنجليز لا يرغبون فيه كثيرا، ويفضلون ما يكون فى ألعابهم من التمرن والارتياض على ما فى هذا الفن من أنواع التدريب المنتظمة التى تحصل عن أمر المعلم وتحت رعايته، فهم يختارون بكمال حريتهم ما ترتاح إليه نفوسهم من ألعاب المصارعة والمغالبة، فلهم فى ألعاب الكرة التى منها ضربها بالصولجان ومنها دحرجتها على الأرض، وفى العدو والملاكمة وغيرها من

طُرُقِ التَّسلّي وَسَائِلُ مُتنوِّعةٌ تَنمى فِيهِمْ قُوَّةَ الأَعْضَاءِ وتجعلهُمْ يَزْدَادُونَ بِالتَّعبِ شِدَّةً وَصَلابَةً .

بِهَذَا صَارَ الإِنْجليزُ أَكْمَلَ النَّاسِ اسْتِعْدَادًا لِلْمُصَارَعَةِ والْكِفَاحِ وَأَوَّلَهُمْ اقْتِحَامًا لِقِمَمِ الجِبَالِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يُقَاوِمُونَ صُعُوبَةَ الإِقْلِيمِ وَالْعَوارِضَ الْكَوْنِيَّةَ وَالأُمَمَ الوَحْشِيَّةَ فِي الْهِنْدِ وَأُسْتُرَالِيَةَ وزِيلَانْدَةَ الْجَدِيدَةِ وَفِي جَمِيعِ بِقَاعِ الأَرْضِ الَّتِي فِيهَا أَخْطَارٌ تُقْتَحَمُ ، فَلَا تَأْثِيرَ لِلْعَقَبَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي تِلْكَ الْعَزَائِمِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَقُومُ لَهَا بِمَطَالِبِهَا عَضَلاتٌ هِيَ الْحَدِيدُ بَأْسًا وَشِدَّةً .

لَمْ يُوضَعِ الْقَانُونُ فِي مَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَّا لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ الْمُطْلَقَةُ مِنْ حِفْظِ النِّظَامِ فِيهَا ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مُدِيرَ مَدْرَسَةٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْكُبْرَى كَانَ قَدْ أَمَرَ مَرَّةً عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ أَنْ يُرَاقَبَ التَّلَامِيذُ فِي مَلْعَبِهِمْ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَبَيَّنَ خَطَأَهُ فِي هَذَا الأَمْرِ وَنَدِمَ عَلَيْهِ وَاعْتَرَفَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ بِأَنَّ هَذَا التَّضْيِيقَ كَانَ يَمِيلُ بِأَنْفُسِ النَّاشِئِينَ إِلَى الانْحِطَاطِ مَيْلًا ظَاهِرًا .

التَّلَامِيذُ الإِنْجِلِيزُ فِي سَاعَاتِ الاسْتِرَاحَةِ مِنَ الدَّرْسِ أَحْرَارٌ ، فَلَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَيَتَنَزَّهُوا فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا أَوْ فِي الْمَزَارِعِ غَيْرَ مُحْتَاجِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ يُرْشِدُهُمْ أَوْ يُرَاقِبُهُمْ ، فَيَمْضِي كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ وَلَا يُطَالِبُهُمْ مُعَلِّمُوهُمْ إِلَّا بِأَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنْ يَكُونُوا فِي سِيرَتِهِمْ كَمَا يَكُونُ سَرَاةُ النَّاسِ أَدَبًا وَلُطْفَ مُعَامَلَةٍ . وَالْكَلِمَةُ الْمُقَابِلَةُ فِي اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ لِلَفْظِ سَرَاةٍ هِيَ « جنتلمين » وَمِنَ الصَّعْبِ تَرْجَمَتُهَا بِالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَيُعْنَى بِهَا مَنْ بَلَغُوا غَايَةَ الْكَمَالِ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، فَإِنَّ

وصف الشرف والسعادة يستفاد من التربية أكثر من استفادته من النسب[١]، فقد ينسلخ عمن ناله من جهة النسب ولو فى نظر غيره إذا هو تلبس بسافل العادات وسفساف[٢] الأخلاق. من أجل هذا كان الخوف من انحطاط القدر وسقوط المنزلة فى أعين أهل الفضل والأدب له من السلطان حتى على نفوس الناشئين ما لا تبلغه جميع أنواع المراقبة التى يتصورها العقل. يقول الإنجليز: «إذا أردت أن يصبح ابنك رجلا فى طفوليته فعامله معاملة الرجال» وهذا هو الأصل الذى يجرون عليه فى التربيـــة.

إخالك تندهش إذا لاقيت عددا عظيما من الغلمان الإنجليز فى السفن التجارية والمركبات العامة ومركبات السكك الحديدية يسيحون وحدهم بإذن أهليهم زمن عطلة المدارس وهم فى حداثة السن، ولكنهم على ما فى هذا من الخطر يعرفون كيف يتوقون المعاطب وكيف يعودون إلى مواطنهم، ويقول الإنجليز تعليلا لذلك فوق ما تقدم: إنه هو الوسيلة إلى استقلال هؤلاء الغلمان يوما ما بسلوك طريق الحياة فى هذه الدنيا.

يثق الإنجليز بالأطفال ثقة تامة، فإذا أخل بها هؤلاء أحيانا فلا بدع فى ذلك لأن من يرجو منهم أن يكونوا من الحكمة والدراية فى درجة أعلى مما تقتضيه سنهم فهو واهم فى معرفة الطبيعة البشرية. على أنه قد شوهد أن ما يقع منهم من الخطإ

(١) هذا مصداق لقول الشاعر العربى.

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا * ليس الفتى من يقول كان أبى – المترجم

(٢) السفساف الردئ من كل شئ.

يسهل أن تسد ثلمته[١] ، وأما تثقيف[٢] ما اعوج من الطباع بسبب سوء الظن والقهر فهو في غاية الصعوبة .

لا بد أن يكون لهذا النوع من التربية قوة معنوية تتأثر بها نفوس الناشئين فإني أراهم هنا أهلاً لأن يديروا بعض أعمال تقتضي كثيراً من وفرة العقل وتمامه ، وقد ضرب لي الرجل في هذا الموضوع مثلاً تاجراً من كبار التجار في لوندرة كان منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره يجوب شوارع المدينة متأبطاً محفظة مملوءة بأوراق المصارف (بنك نوت) ويعامل وهو في هذه السن عدة من المحال التجارية باسم أبيه . وليس ما يلقيه الإنجليز في أذهان أولادهم وهم صغار من الثقة بأنفسهم والاعتماد عليها مقصوراً على ما يكلونه إليهم من الأعمال التجارية والصناعية ، بل هو يشمل أيضاً الفنون العقلية كالشعر والإنشاء وغيرهما من الصناعات الفكرية ، نعم إن الإنجليز ليسوا بلا ريب أحسن ولا أعلم من غيرهم ، ولكنهم لتعودهم من نعومة أظفارهم الاستقلال في سيرهم بمعارفهم الذاتية وتحملهم تبعة أعمالهم يظهرون في كل شيء أكثر منا قياماً بأنفسهم ، وإذا لم أبال بالتصريح بكل ما أريده قلت : إنهم أقل منا شبهاً بخراف بانورج[٣] .

الساعات المقررة للدروس في المدارس الإنجليزية هي على الجملة أقصر منها في المدارس الفرنسية . ويؤكد الناس هنا أن هذا الأمر لا ينقص من نجاح التلاميذ

---

(١) الثلمة في الحائط وغيره الخلل . (٢) التثقيف التقويم والتسوية .

(٣) بانورج هو أحد المثلين في قصة هزلية للكاتب الشهير ربلي وله خراف عليها تقليد خروف لمثل آخر في هذه القصة اسمه دنديبولت انتقاما منه فصارت يضرب بها المثل في التقليد .

ولا يضر بترقيتهم كما قد نتوهمه لأن الطفل لا يقتصر فى تعلمه على ما فى الكتب بل هو يتعلم كذلك مما يراه أثناء تنزهه فى المشاهد الجميلة والمناظر الأنيقة ويستفيد استفادة حقيقية مما يكون بينه وبين رفاقه فى المجاورات والمحادثات وما يتلقاه من أهله من الدروس النافعة فى المعيشة اليومية، وليس من الضرورة المؤكدة أن يغل عقل الطفل من الصباح الى المساء حتى يكون من مشهورى الرجال. لا يعتقد جيراننا ذلك قطعا بل يرون أن فى راحة التلاميذ أى ترويح نفوسهم بالألعاب الرياضية المتنوعة شحذا[1] لأذهانهم وتقوية لعقولهم.

وهم فى تأييد هذا الرأى يضربون مثلا مدارس قللت أيضا فى هذه الأيام الأخيرة ساعات الدروس فى فرقها، وشغلت التلاميذ فيما وفرته منها بأعمال يدوية نافعة فضاعفت بذلك فيهم قوتى التنبه والحكم. إذا كان هذا كذلك كان ما صرف من الزمن فى تلك الأعمال غير ضائع بل عائدا بالربح على التلاميذ فى استفادتهم من الدروس، لأن نجاحهم لا يقدر بطولها وإنما يقدر بإدراكهم ما فيها من العلوم وارتياضهم بها[2].

أخص غاية يرمى إليها الإنجليز فى التربية هى سلامة العقل وهم يقولون ساخرين ما أجمل ما يعود على الطفل من الفوائد والمزايا إذا كان القائمون على تربيته يضعفون فيه الأعصاب المعدة للإدراك والفهم بالإفراط فى إجهادها،

(١) شحذا لأذهانهم أى تقوية لها.

(٢) أرجو أن يلتفت لهذا قوام التعليم فى المدارس والمعاهد الدينية عندنا وأن يلاحظوه فى وضع مناهجه حتى لا يرهقوا المتعلمين ويبلوا أذهانهم بالكلال والاعياء بكثرة ما يحملونها من المواد العلمية — المترجم.

ويغيضون ما في عيون قريحته من مادة الذكاء الغزيرة بحثه على العمل لإحراز مالا ثمرة فيه من قصب السبق في امتحاناته. فكم من سابق في هذه الامتحانات يأكل بهذه الطريقة ما يزرع قبل إبان صلاحه: (يعني أنهم ينفقون كل ما لبنيهم من المواهب العقلية قبل أن يصلوا إلى ثمرتها).

ليست العبرة عند الإنجليز بتعليم المعلمين بل العبرة بما يعمله التلميذ ويتعلمه بنفسه. ومما يحكى تأييدا لصدق هذه القضية أنه كان يوجد في إحدى دوائر الخوارنة(١) بإيقوسية مدرسة فيها قسمان من التلاميذ داخلي وخارجي، وكان جل عناية صاحبها موجها للقسم الأول ضرورة أنه هو الذي كان يعتمد عليه قبل كل شيء في إنماء كسبه، ومن أجل هذا كان يقضي مع تلاميذه كل سهرته في إعدادهم لتلقي درس الغد، على أن الذي كان يحصل في المدرسة هو غير ما كان يرجوه، لأن تلاميذ القسم الثاني — وهم من أبناء فقراء المزارعين الذين يسكنون الكفور والخصاص المجاورة للمدرسة على ما كانوا فيه من حرمانهم من معيد يكرر لهم الدروس واشتغالهم بأعمالهم المدرسية في زوايا تلك الخصاص على ضوء نارها في غفلة من أهليهم عنهم — كانوا يظهرون عادة على تلاميذ القسم الأول ويفوقونهم كثيرا مع إجهاد مدير المدرسة نفسه في تقويمهم وتمرينهم، فعظمت بذلك دهشة ذلك الرجل ولكونه كان ذا لب وفكر أخذ يبحث عن سبب هذا الأمر الذي ملأه سآمة وضجرا، فلم يلبث أن عرفه وهو أن التلاميذ الداخليين كانوا يفرطون في الاعتماد على تعليمه إياهم التعليم الأولي الذي لا عمل لفكرهم فيه، ويستغلون

(١) الخوارنة جمع خوري أي كاهن وهو أيضا بمعنى "مدير القرية".

ولكن لا بأنفسهم بل كالآلات يديرها محركها، وأما التلاميذ الفقراء سكان الأكواخ فلما كانوا مضطرين إلى حل رموز ما يتعسر عليهم فهمه من المسائل بأنفسهم كانت أذهانهم فى تيقظ ولذلك كانوا يشحذون قرائحهم ويقوون مداركهم بالمناقشة والمنافسة، وكان فى انقطاع المعلم عن رعايتهم أثناء مدارستهم الليلية مزية لهم، فلا جرم أنهم سبقوا إلى المقاعد الأولى فى فرقهم نهارا . استفاد المعلم من هذه الحكمة التى أهدتها إليه التجربة فترك من ذلك الحين التلاميذ الداخلين وشأنهم مقتصرا على أن يعطيهم كغيرهم مواد العمل وأدواته مثل كتاب فى النحو ومعجم فى اللغة وكان من وراء ذلك أنهم لم يلبثوا أن ساووا أقرانهم فى درجتهم .

تعلم من ذلك أن شأن جيراننا فى التربية كشأنهم فى جميع الأمور الدنيوية وهو أنهم يرجون من عمل المرء بنفسه من الخير ما لا يرجونه من وسائل المعونة والمساعدة كائنة ما كانت، فشعارهم فيها هو « استعن بنفسك يعنك معلمك » .

ربما كان أهل إيقوسية أيضا أكمل من الإنجليز عناية بأمر التربية فقد اشتغلوا به كثيرا فى هذه الأيام الأخيرة .

يوجد فى ايدنبورج (١) على ما سمعت مدارس ابتدائية لا يكتفى فيها المعلمون بتعليم التلاميذ مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم فى تأديب طباعهم وتهذيب أخلاقهم ، فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالأثرة والغش والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات، وليست طريقتهم فى ذلك مجرد إلقاء القواعد

(١) أيدنبورج عاصمة إيقوسية من بلاد الإنجليز .

وَالتَّعَالِيمِ الْمُبْهَمَةِ الْمُجْمَلَةِ بَلْ هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى وِجْدَانِهِمُ الْفِطْرِيِّ وَيُذَكِّرُونَهُمْ بِشَرَفِ الْإِنْسَانِ وَسُمُوِّ مَنْزِلَتِهِ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَالْأَطْفَالُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِسِ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُقَدِّرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ دَرَجَةَ أَفْعَالِهِمْ فِي الْحُسْنِ أَوِ الْقُبْحِ[1] .

وَلَوْ شِئْتُ لَسَرَدْتُ لَكَ كَثِيرًا مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِأَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ وَاحِدَةً مِنْهَا لِيَكُونَ فِي ذِهْنِكَ صُورَةٌ لِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ فَأَقُولُ :

تَأَخَّرَ تِلْمِيذَانِ ذَاتَ يَوْمٍ عَنِ الْوَقْتِ الْمُقَرَّرِ لِدُخُولِ الْمَدْرَسَةِ بِرُبْعِ سَاعَةٍ وَهُمَا أَخَوَانِ فِي الرَّابِعَةِ أَوِ الْخَامِسَةِ مِنْ عُمْرِهِمَا فَقَرَّرَ الْمُدِيرُ أَنْ يُسْئَلَا عَنْ سَبَبِ التَّأَخُّرِ وَيُقْبَلَا فِي فِرْقَتِهِمَا بِلَا عِقَابٍ إِنْ أَبْدَيَا عُذْرًا صَحِيحًا، وَجَعَلَ الْحُكْمَ عَلَى صِحَّةِ الْعُذْرِ وَفَسَادِهِ لِلْمَدْرَسَةِ بِتَمَامِهَا كَمَا هِيَ الْعَادَةُ عِنْدَهُ فِي جَعْلِهَا مَحْكَمَةَ شَرَفٍ تَقْضِي عَلَى التَّلَامِيذِ وَلَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ، فَلَمَّا مَثَلَ الْمُتَّهَمَانِ الصَّغِيرَانِ أَمَامَ هَذِهِ الْمَحْكَمَةِ اعْتَذَرَا مُتَعَاقِبَيْنِ عَنْ تَأَخُّرِهِمَا بِأَنَّهُمَا صَادَفَا فِي طَرِيقِهِمَا دُودَةً غَلِيظَةً لَمْ يَكُونَا رَأَيَا لَهَا نَظِيرًا فِي حَيَاتِهِمَا فَرَاعَهُمَا مَنْظَرُهَا وَمُلِئَا مِنْهَا عَجَبًا، لِأَنَّ هَذِهِ الْحَشَرَةَ كَانَتْ تَتَمَثَّلُ فِي أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ غَيْرِ مَعْهُودَةٍ لَهُمَا، فَكَانَتْ تَارَةً تَقِفُ عَلَى ذَنَبِهَا وَطَوْرًا تَمْتَدُّ عَلَى الْأَرْضِ وَآوِنَةً تَكُونُ ذَاتَ أَثْنَاءٍ[2] مُلْتَوِيَةٍ . وَأَنَّهُمَا بَيْنَمَا كَانَا يَصْرِفَانِ زَمَنَهُمَا فِي مُشَاهَدَتِهَا، كَانَتْ تَنْسَابُ[3] حَتَّى بَلَغَتْ عَوْسَجًا فَغَابَ عَنْهُمَا أَثَرُهَا فِيهِ —

(١) ينبغي أن تكون هذه الطريقة في تقويم الطباع وتهذيب الأخلاق شعار كل مرب يقدر التبعة الملقاة على عاتقه قدرها — المترجم .

(٢) أثناء أي تضاعيف وطيات .

(٣) تنساب تمشي مسرعة .

فلم يمهلهما المدير ريثما يتمان قولهما بل سألهما : لماذا لم تقتلا هذه الدودة ؟ فحدق[1] إليه الغلامان ولم يحيرا جواباً ، فاستأنف السؤال قائلا : أما كان لديكما من الوسائل ما يعينكما على قتلها حتى كنتما بذلك تقطعان سبب إبطائكما في الطريق ؟ فقال له أكبرهما : بلى كنا قادرين على قتلها من غير شك ولكنا لو كنا أتيناه لكان ذلك منا شراً وقسوة . فقوبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالاستحسان والتحبيذ[2] وحكم ببراءتهما من التقصير .

من ذا الذي لا يرى في محاكمة الطفل إلى لداته[3] وأقرانه جرثومة وضع المحلفين[4] الذي يعتبره جميع العارفين به معقلا يذاد فيه عن حمى الحرية بجميع أنواعها في إنجلترة وإيقوسية ، فلا شك أن تلك المحاكمة أخذ بالناشئين في طريق الوصول إليه وإشراف بهم عليه من بعيد ، ولا بدع فإن جيراننا يزعمون أن التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل لا إفراط فيه يذم مهما توسع في التعجيل به ، ففي رأيهم أنه متى أريد أن تكون الحكومة على صورة ما يجب أن تهيأ لقبولها نفوس الناشئين وأن ما يحفظ القانون وجوده ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر إلا بارتياض الناس به من بداية عمرهم ودوام اعتيادهم إياه . ومما قاله لي الشيخ الإيقوسي الذي حدثتك عنه : أنا لا أشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية ما لم يقارنه زرع ما لدينا من ضروب الحرية في نفوس أهله . فنحن

(١) حدق إليه نظر إليه بحدة . (٢) التحبيذ : المدح بقول حبذا .

(٣) لدات الطفل : المساوون له في السن . (٤) المحلفون : هيأة تتألف من عدد من الأهلين لا يقل عن اثني عشر ينتخبون ويحلفون طبقاً للقانون على أن يقرروا الحق فيما يعرض عليهم من الدعاوى .

فِي بِلَادِنَا نَحْتَاجُ إِلَى رِجَالٍ مَطْبُوعِينَ عَلَى حُبِّ الاِسْتِقْلَالِ مُوَافَقَةً لِمَا تَقْتَضِيهِ قَوَانِينُنَا وَأَوْضَاعُنَا ، أَكْفَاءَ لِإِطَالَةِ مُدَّةِ بَقَائِهَا بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُجَاهَدَةِ الشَّدِيدَةِ . وَإِنَّ طَرِيقَتَنَا فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ إِذَا اتُّبِعَتْ فِي غَيْرِ بِلَادِنَا نَشَأَتْ عَنْهَا رَعِيَّةٌ يَتَعَذَّرُ حُكْمُهَا وَسِيَاسَتُهَا . اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

(مِنْ هَيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٢ يوليه سنة — ١٨٥)

إِنْتِقَادُهَا أَخْلَاقَ الْإِنْجِلِيزِ وَخُضُوعَهُمْ لِتَقَالِيدِ أَسْلَافِهِمْ وَالْتِمَاسُهَا عِلَّةً لِذَلِكَ

أَرَى مِنَ الْبَوَاعِثِ الْكَافِيَةِ مَا قَدْ يَسُوقُنِي إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ الْكَمَالَ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ، وَالْحُسْنَ لَا يَعْرَى مِنْ قُبْحٍ . فَمَا عَايَنْتُهُ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْجِلِيزِ وَأَخْلَاقِهِمْ يَنْطَبِقُ انْطِبَاقًا تَامًّا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ عَلَى مَا سَمِعْتُهُ عَنْهُمْ مِنَ السَّرْجُونْ سَنْتْ أَنْدُرُوز . وَلَكِنَّ تَصَفُّحِي هَذِهِ الْأَخْلَاقَ وَتَرْدِيدَ فِكْرِي فِيهَا قَدِ اضْطَرَّنِي إِلَى الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ فِي امْتِدَاحِهَا وَتَرْكِ الْمُجَازَفَةِ (١) فِي إِطْرَائِهَا (٢) . لِأَكْثَرِ الْأُمَّهَاتِ اللَّاتِي أَلْقِيهِنَّ فِي بَيْتِ السَّيِّدَةِ وَارِنْجْتُونَ أَوْلَادٌ عَدِيدُونَ ، فَمَا أَعْجَبَ مَا يُرَى فِي جَمِيعِهِمْ مِنْ مِقْدَارِ ارْتِيَاضِهِمْ (٣) بِمَا لِمُخَالِطِيهِمْ مِنَ الْأَوْهَامِ وَسُرْعَةِ انْطِبَاعِ مُعْتَقَدَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ فِي نُفُوسِهِمْ فَتَرَاهُمْ عَلَى قِلَّةِ عِلْمِهِمْ بِالْأُمُورِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مُطْلَقِ رَجُلٍ وَالسَّرِيِّ الْمُهَذَّبِ مِنَ الرِّجَالِ وَمُطْلَقِ امْرَأَةٍ وَالسَّيِّدَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ النِّسَاءِ فَرْقًا تَامًّا ، وَيُمَيِّزُونَ مَنْ وُلِدُوا لِخِدْمَتِهِمْ مِمَّنْ يَجِبُ

(١) المجازفة فى الكلام ارساله بلا قانون . (٢) الاطراء المبالغة فى المدح .

(٣) الارتياض : التخلق والاعتياد .

لهم عليهم الإجلال والتعظيم لأول نظرة إليهم غير مترددين في ذلك ولا مرتابين، ويحافظون على شرف الاقتداء بعظماء الناس في سيرهم، لا لأن ذلك مطلوب لذاته بل لعدم الإخلال بما تواضع عليه أولئك العظماء من الآداب، وإني على يقين من أنك لو اطلعت على هذا العالم الناشئ لوجدت فيه شيئاً من التصلف، فلشد ما يرى فيهم من العجرفة وما يبدونه أمام الأجانب من ظواهر الأبهة الصبيانية.

وحقيقة الأمر أن هؤلاء الإنجليز أنفسهم على ما لهم من الحرية الواسعة وما فيهم من كمال استحقاقها هم في غاية الخشية والخضوع لرأي الجمهور، وشأنهم في هذا شأن باسكال (١) الذي يسمى ذلك الرأي: ملك الدنيا.

على أنني لا أدري أي تأثير له فيما يستحق به هذه التسمية، ولكني إخال أن له في إنجلترة من السلطان والسيطرة ما ليس مثله لفكتوريا (٢). فإن جيراننا ينشأون من صغرهم عبيداً مختارين لبعض مواضعات قومية فيوجبون على أنفسهم تعظيم ما عظمه جمهور المهذبين من قومهم بدون بحث فيه ولا نظر، فكل منهم في سيرته وآرائه تبع لغيره معتمد على ما لهذا الغير من الاعتبار وعلو الكلمة، وتراهم في منتدياتهم قليلي الكلام بل لا تخرج محادثاتهم عن حدود الأمور التي قدسها استقرار العادة فلهم جمل من المعاني والأفكار كأنها تحجرت في أخلاقهم وعوائدهم فأجمعوا على عدم المناظرة والجدال فيها.

(١) باسكال ويسمى بليز باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كلير مونت فراندسة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها أفكار باسكال. (٢) فيكتوريا: ملكة الإنجليز.

إنّي إلى الآن لم أعرف الإنجليز معرفة تكفي لإدراك سرّ هذه المباينات، وإنّما الذي أراه في كبارهم أنّهم قد جمعوا بين غاية الاستقلال في أفعالهم وغاية التّقليد في آرائهم، وأمّا صغارهم فإنّهم كذلك أحرار في حركاتهم وفي معظم ما تتوجّه إليه عزائمهم من أعمالهم - لكنّهم يحجرون على أنفسهم أن تتعلّق هذه العزائم من الأعمال بما يخالف تقاليد أهليهم وآثار سلفهم وعوائد الصّالحين من مخالطيهم، وربّما كانت الحكمة في كلّ ذلك أنّ القوم قد رأوا طباعهم تجري بهم في بحر لجّي من الحرّية جري السّفن مدّت شرعها، فاضطرّهم ذلك إلى طلب مرساة (١) يوقفون بها جريها فالتمسوها في ضبط الأخلاق البيتيّة وفي العوائد القوميّة والأصول الملّيّة (٢). اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة إلى إراسم في ٦ يوليه سنة ١٨٥ -)

إخباره باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها

كأنّي أيّها الحبيب بساعة الوضع قد اقتربت، وإنّي وإن كنت لا أزال في كفاية من جودة الصّحّة فما أخوفني من هول تلك السّاعة وما تأتي به من الشّدائد

(١) المرساة أنجر السفينة، أى الآلة التى ترسو بها على البر .

(٢) قد أحسن الإنجليز صنعا فى تقييد حريتهم بتلك القيود التى هى السر فى عظمتهم وامتداد سلطانهم، وهى التى صيرتهم أعظم الأمم شأنا وأعلاهم فى ذرى المجد مكانا كما فعلت بالعرب من قبلهم، فالحرية المطلقة من كل قيد مدعاة الى الشر والهمجية، فليتأمل ذلك طلاب الحرية وليمعنوا الفكر فيه وليحملوا الناس على الاحتفاظ بآدابهم الدينية وأخلاقهم القومية، ولا يكونوا كالترك فى عهدهم الجديد فان الأخبار المنقولة عنهم تدل على تفصيهم من كل قيد ونبذهم كل عادة وذلك نذير سوء لا يعلم عاقبته إلا الله - المترجم .

والمحن التي كان شهودك فيها وحده كافلاً تخفيف آلامها عني . رباه ! كيف لا تكون بقربي أيها العزيز إراسم ؟ وأخص وقت تكون فيه المرأة كالعشقة (شجرة اللبلاب) لزاماً لمن تحبه وتعلقاً به إنما هو أمس ذلك اليوم المعروف بالعناء والخطر .

في الليلة الماضية رأيت رؤيا تحيرت في تأويلها . رأيتني أزور قبر والدتي لابسة الحداد، فعظمت دهشتي لما رأيته هناك من شجر الورد والآس وغيرهما من الأزهار لأني لم أكن أوصيت بغرسها، ولما رأيت أن يداً مجهولة قد عنيت بآخر منزل لمن كنت أحبها فزينته بهذه الأزهار هاجت أشجاني وانهطلت عبراتي وأحسست بالبكاء في نومي وقلت في نفسي: ليت شعري! من هذا الذي عرف كيف يتحبب إلي ويسترضيني عنه، ثم تبينت من جملة وقائع متتابعة مبهمة أنك أنت الذي غرستها فغرقت في شبه لجة من الفناء في حبك، وما عسى أن أصف لك مما خطر في ذهني حينئذ ! فقد تمثلت لي جميع الأحوال التي تلاقينا فيها لأول مرة وما انعقد بيننا من روابط الحب الأولى تمثلاً ليس كالذي يحصل عند ذكر المرء حوادث ماضيه، بل كما يحصل في الحلم حيث تتشكل فيه الأشياء الحية وغير الحية بأشكالها الحقيقية . فما قولك في هذه الرؤيا ؟ وأما أنا فلو كنت من الموسوسات لاعتقدت أن فيها إنذاراً ببعض المصائب .

أبشرك أيها الحبيب بأن أول مكتوب يأتيك مني بعد هذا سأكتبه إليك وأنا أم . وكلما فكرت في ذلك تعروني هزة الفرح ونشوة الطرب، فالآن أودعك وأقبلك بكل ما في نفسي من قوى الحب والشوق . اهـ

صحف مقتطفة من يومية الدكتور إراسم

(صَحِيفَةُ يوم ٦ يوليه سَنَةَ — ١٨٥)

أَقَلُّ شَيْءٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ يَعُوقُ الْعَقْلَ عَنِ الانْبِعَاثِ فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ

دَخَلَتْ فَرَاشَةٌ مَخْدَعِي مِنَ السِّجْنِ مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ، وَمَكَثَتْ رُبْعَ سَاعَةٍ تُحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنَ الشُّبَّاكِ، يَدْعُوهَا إِلَى ذَلِكَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الضِّيَاءِ وَالْفَضَاءِ وَالْحَيَاةِ بِمَا تَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ وَلَكِنَّهُ عَلَى ضِيقِهِ كَانَ مُحْكَمَ الْإِقْفَالِ، فَانْقَضَّتْ عَلَيْهِ بِنْتُ الْهَوَاءِ أَوَّلًا عَلَى جَهْلٍ مِنْهَا بِحَقِيقَةِ زُجَاجِهِ اللَّطِيفِ حَاسِبَةً أَنَّهُ لَا وُجُودَ لَهُ أَمَامَهَا ثُمَّ أَخَذَتْ تُصَادِمُهُ وَتَلْتَصِقُ بِهِ وَتُقَاوِمُهُ وَكُلَّمَا رَدَّتْهَا صَلَابَتُهُ خَائِبَةً أَعَادَتْ عَلَيْهِ الْكَرَّةَ .

هَكَذَا يَكُونُ شَأْنُ الْإِنْسَانِ مَعَ الْعَقَبَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ لَا يَحْسِبُ لَهَا حِسَابًا، لِأَنَّهَا لَا تَكَادُ تَكُونُ شَيْئًا يُذْكَرُ فَهِيَ كَسُمْكِ لَوْحٍ مِنَ الزُّجَاجِ مَثَلًا — لَكِنَّ هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي لَا يُذْكَرُ — كَوَهْمٍ أَوْ عَقِيدَةٍ أَوْ مَعْنًى غَيْرِ صَحِيحٍ أَوْ مُغَالَطَةٍ كَافٍ فِي تَعْوِيقِ(١) عَقْلِهِ عَنِ التَّحْلِيقِ(٢) بِجَنَاحَيْهِ فِي سَمَاءِ الْحُرِّيَّةِ، فَلَا يُجْدِي مَعَهُ اشْتِدَادُ الْعَقْلِ فِي اقْتِحَامِ عَقَبَاتِهِ، كَمَا لَمْ يُجْدِ تِلْكَ الْحَشَرَةَ اصْطِدَامُهَا بِالزُّجَاجِ وَإِيهَاءُ(٣) جَنَاحَيْهَا فِي مُغَالَبَتِهِ .

---

(١) التعويق : الحبس والتثبيط .

(٢) التحليق : الارتفاع فى الجو والاستدارة فى الطيران .

(٣) الايهاء : الاضعاف .

فَلَمَّا رَأَيْتُهَا قَدْ عَجَزَتْ عَنِ الْخُرُوجِ فَتَحْتُ لَهَا الشُّبَّاكَ وَقُلْتُ لَهَا : إِمْضِى أَيَّتُهَا الْمِسْكِينَةُ فِى سَبِيلِكِ وَطِيرِى بِجَنَاحَيْكِ كَمَا كُنْتِ فِى خَالِصِ الْهَوَاءِ وَحَرَارَةِ الشَّمْسِ، فَهَذَا يَكْفِيكِ مِنْ مَسْجُونٍ فِى حُجْرَتِهِ . اهـ

(صَحِيفَةُ يوم ٨ يوليه سنة — ١٨٥)

لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُدَالَ مِنَ الْمُسْتَبِدِّينَ وَأَنْ تُرَدَّ الْحُقُوقُ الْمَغْصُوبَةُ إِلَى أَهْلِهَا

كَثِيرًا مَا شَاهَدْتُ سَاحِلَ الْبَحْرِ بَيْنَ حَرَكَتَى الْمَدِّ وَالْجَزْرِ وَأَبْصَرْتُ عَلَى سَطْحِ رِمَالِهِ الْمُبَلَّلَةِ الرَّطْبَةِ آثَارَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْدَامِ وَالْعَجَلَاتِ وَنِعَالِ الْخَيْلِ وَرُسُومًا غَرِيبَةً فِى بَابِهَا نَقَشَتْهَا عَلَى صَفَحَاتِهَا أَيْدِى الْأَطْفَالِ ، وَأَسْمَاءً كُتِبَتْ بِأَطْرَافِ الْعِصِيِّ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، فَلَمَّا سَدَّ الْبَحْرُ مَحَاهَا جَمِيعَهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى سَبْقِ وُجُودِهَا . كَذَلِكَ شَأْنُ الْعَدْلِ وَالدَّهْرِ فَإِنَّهُمَا كَالْبَحْرِ مَدًّا وَجَزْرًا . فَاعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ تَأْلِيفِ الْكُتُبِ وَتَحْرِيرِ الصُّحُفِ وَإِقَامَةِ الْأَبْنِيَةِ وَوَضْعِ الْقَوَانِينِ ، وَارْسُمُوا مَقَاصِدَكُمْ عَلَى الرِّمَالِ كُلُّ ذَلِكَ يَغْمُرُهُ مَدُّ الْعَدْلِ فِى يَوْمٍ بَلْ فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَالْبَحْرُ يَقُولُ فِى مَدِّهِ : إِنِّى أَعُودُ إِلَى مَا تَرَكْتُ مِنْ مَكَانِى ، وَالشَّعْبُ يَقُولُ فِى مَدِّهِ : إِنِّى أَسْتَرِدُّ مَا اغْتُصِبَ مِنْ حُقُوقِى اهـ .

(صَحِيفَةُ يوم ٩ يوليه سنة — ١٨٥)

مِنْ أَعْجَبِ الظُّلْمِ أَنْ يُدَاسَ الْعَدْلُ وَالْحُرِّيَّةُ وَتُهْضَمَ حُقُوقُ الْأُمَمِ فِى سَبِيلِ تَحْصِيلِ لَذَّةِ الْمُلْكِ لِرَجُلٍ هَالِكٍ

كَانَ فِيمَا سَلَفَ مِنَ الْقُرُونِ رَجُلٌ مِنَ الْفَاتِحِينَ دَمَّرَ الْمَمَالِكَ وَدَوَّخَ(١) الْأَقْيَالَ(٢)، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ فِى كَثِيرٍ مِنْ وَقَائِعِهِ وَغَزَوَاتِهِ ، فَوَضَعَهُ رِجَالُ دَوْلَتِهِ عَلَى

(١) دوخ : قهر وأذل . (٢) الأقيال جمع قيل وهو الملك أو الرئيس .

سَرِيرٍ رَفِيعٍ مَحْفُوفٍ بِأَكْمَلِ مَظَاهِرِ الأُبَّهَةِ وَالجَلَالِ، مع أَنَّهُ بِالْمَوْتِ قد خُلِعَ مِنْ مُلْكِهِ وَأُنْزِلَ مِنْ عَرْشِ سُلْطَانِهِ، فاتفق أَنْ تَهَافَتَتْ على أَنفه ذُبَابَةٌ فلم تستطع يداه ذَوْدَهَا عنه على ما كَانَ فِيهِمَا مِنْ إِدَارَةِ شُئُونِ الْمَمَالِكِ وَقَمْعِ نَخْوَةِ الجَبَابِرَةِ . يا عجباً! أَلِلْوُصُولِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ يُوطَأُ الْعَدْلُ وَالْحُرِّيَّةُ بِالْمَنَاسِمِ(١) وَتُهْضَمُ حُقُوقُ الْأُمَمِ؟ . اه

(صَحِيفَةُ يوم ١٠ يوليه سنة — ١٨٥)

تَمْثِيلُ الْحُكُومَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ فِي الْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ بِالدَّجَاجَةِ مَعَ أَفْرَاخِهَا الَّتِي اسْتَغْنَتْ عَنْ وِلَايَتِهَا

أَرَادَتْ دَجَاجَةٌ أَنْ تُغَطِّي بِجَنَاحِيهَا أَفْرَاخًا تَفَقَّصَ عَنْهَا الْبَيْضُ(٢)، وَكَبِرَتْ فَقُلْنَ لَهَا : لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى عِنَايَتِكِ فَإِنَّكِ تُزْهِقِينَ أَنْفُسَنَا بِثِقْلِكِ ، فَكَانَ جَوَابُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ قَالَتْ لَهُنَّ : مَهْ(٣) فَإِنَّكُنَّ لَا تَدْرِينَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، أَمَّا عَدَمُ احْتِيَاجِكُنَّ إِلَيَّ فَهَذَا مُمْكِنٌ وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَسْتَغْنِي عَنْكُنَّ، أَوَّلًا لِأَنَّهُ يَلَذُّ لِي أَنْ أُلْقِيَ ثِقْلِي عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّ هَذَا يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِي، وَثَانِيًا لِأَنِّي آكُلُ مَا أُعِدَّ لَكُنَّ مِنَ الْحَبِّ .

هَذِهِ الْحِكَايَةُ تُمَثِّلُ الْحُكُومَةَ مَعَ الشُّعُوبِ الَّتِي بَلَغَتْ مِنْ دَرَجَاتِ التَّرَقِّي مَا يَكْفِيهَا فِي الِاسْتِقْلَالِ بِحُكْمِ نَفْسِهَا . اه

(صَحِيفَةُ يوم ١٢ يوليو سنة — ١٨٥)

بَيَانُ تَمَثُّلِ زَوْجَتِهِ لَهُ فِي الْيَقَظَةِ

كَانَتْ لَيْلَتِي هَذِهِ هَائِلَةً فَظِيعَةً، فَإِنِّي كُنْتُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِهَا أَرَى مِنْ خَوَاطِرِي مَا كَانَ يَمْثُلُ أَمَامِي كَمَا تَمْثُلُ الْأَشْبَاحُ فَكَأَنِّي صَائِرٌ إِلَى الْجُنُونِ! لَقَدْ رَأَيْتُهَا .. هِيَ بِنَفْسِهَا لَا فِي حُلْمٍ بَلْ فِي يَقَظَةٍ كَأَنَّهَا أَخْفَى مِنَ النَّوْمِ أَلْفَ مَرَّةٍ .

(١) المناسم : أخفاف الإبل . (٢) تفقص : تكسر . (٣) مه أى اسكتن .

رَأَيْتُ هيلانة نَائِمَةً عَلَى سَرِيرِهَا، وَكُنْتُ أُلَاحِظُ نَفَسَهَا الْمُخْتَنِقَ وَأَجُسُّ نَبْضَهَا الَّذِي دَلَّنِي عَلَى أَنَّهَا مَحْمُومَةٌ . وَاعَجَبًا ! إِخَالُنِي سَمِعْتُ صَوْتًا .

وَيْلَاهُ ! إِنَّهَا تَئِنُّ وَتَتَأَلَّمُ وَأَنَا بَعِيدٌ عَنْهَا . إِنَّمَا يُدْرِكُ ثِقَلَ وَطْأَةِ السِّجْنِ وَيُحِسُّ بِضِيقِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَاتِ الَّتِي تَغْلِبُ الْإِنْسَانَ فِيهَا حَيْرَتُهُ وَتَزْهَقُ نَفْسُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ قُدْوَةً لِزَوْجَتِي فِي الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ، فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ غَلَبَنِي فِيهَا السِّجْنُ عَلَى عَزْمِي فَانْثَنَى رَأْسِي وَانْجَرَحَ فُؤَادِي مِمَّا أُلَاقِيهِ مِنْ نَقَمِ الْقَانُونِ الْبَشَرِيِّ .

لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يُقَالُ : مِنْ أَنَّ فِي قُدْرَةِ الْأَمْوَاتِ أَنْ يَزُورُوا مَنْ كَانُوا يُحِبُّونَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَوَدِدْتُ أَنْ أَمُوتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ حَتَّى أَرَاهَا . اه

الرسالة الرابعة والعشرون

(مِنَ الدُّكْتُورِ وَارِنْجتُون إِلَى الدُّكْتُورِ إِرَاسْمَ فِي ١٢ يوليه سنة — ١٨٥)

الْبِشَارَةُ بِوَضْعِ إِمِيلَ

أُبَشِّرُكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْعَزِيزُ بِغُلَامٍ جَمِيلٍ وُلِدَ لَكَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ صَبَاحِ هَذَا الْيَوْمِ بَعْدَ مَا قَاسَتْهُ وَالِدَتُهُ مِنْ طَوِيلِ الْعَنَاءِ وَشَدِيدِ الْأَلَمِ . وَلَقَدْ كُنْتُ عَشِيَّةَ أَمْسِ مُشْفِقًا مِنْ أَنْ يَحِلَّ بِهَا مَكْرُوهٌ لِبَعْضِ عَلَامَاتٍ بَدَتْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ قَدْ أَعَانَتْهَا قُوَّةُ طَبِيعَتِهَا وَسَلَامَةُ خَلْقِهَا عَلَى النَّجَاةِ مِنَ الْخَطَرِ وَأَصْبَحَتْ صِحَّتُهَا مِنَ الْجَوْدَةِ عَلَى مَا كُنَّا نَرْجُوهُ لَهَا، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَحَلَّ مَا يَبْتَغِيهِ أَنْ يَعِيشَ لِيُخَلِّدَ بِهِ ذِكْرَكَ وَيَعْلُو بِنَبَاهَتِهِ قَدْرُكَ وَيَعْظُمَ فَخْرُكَ .

وَهٰذِهِ فُرْصَةٌ قَدِ انْتَهَزْتُهَا لِمُكَاشَفَتِكَ بِمَا فِي قَلْبِي لَكَ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَمَا فِي نَفْسِي مِنْ جَوَاذِبِ الْمَيْلِ إِلَيْكَ وَرَجَائِكَ فِي أَنْ لَا تَضَنَّ بِي عَلَى أَيَّةِ خِدْمَةٍ يَلْزَمُ لَكَ أَدَاؤُهَا، وَأَنْ لَا تَكْتُمَ عَنِّي حَاجَةً يُعْوِزُكَ قَضَاؤُهَا، إِنْ قَبِلْتَ هٰذَا الرَّجَاءَ اسْتَوْجَبْتَ خَالِصَ شُكْرِي لِأَنَّكَ بِذٰلِكَ تَكُونُ قَدْ بَرْهَنْتَ لِي عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَنْسَ صَدِيقَكَ الْقَدِيمَ. نَحْنُ مَعْشَرَ الْإِنْجِلِيزِ مُتَّهَمُونَ عِنْدَكُمْ بِأَنَّ فِينَا شَيْئًا مِنَ الِانْقِبَاضِ عَنِ النَّاسِ وَالِاحْتِرَاسِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ، وَلٰكِنْ رُبَّمَا كُنَّا خَيْرًا مِمَّا اشْتُهِرَ عَنَّا، وَإِنَّا عَلَى كُلِّ حَالٍ لَنَا قُلُوبٌ تَعْطِفُ عَلَى الْبَائِسِينَ وَتُكْرِمُ الْمَنْكُوبِينَ . اهـ

صَدِيقُكَ الْمُخْلِصُ

الرسالة الخامسة والعشرون

(مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٢ أغسطس سنة — ١٨٥)

وَصْفُ الْقَابِلَاتِ فِي إِنْجِلْتِرَةَ وَوَصِيَّةُ الدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونَ لَهَا بِالْعِنَايَةِ بِمَوْلُودِهَا

لَا بُدَّ لِي أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ تَارِيخِي فِيمَا يُسَمِّيهِ الْإِنْجِلِيزُ : اعْتِكَافَ النُّفَسَاءِ ، مُلْتَزِمَةً فِي ذٰلِكَ طَرِيقَ الْإِيجَازِ فَأَقُولُ :

اسْتَأْجَرْتُ مُمَرِّضَةً كَمَا هِيَ الْعَادَةُ هُنَا وَهِيَ امْرَأَةٌ وَاسِعَةُ الْخِبْرَةِ فِي أُمُورِ التَّمْرِيضِ وَالْوِلَادَةِ ، أَرَاكَ تَقْضِي مِنْهَا الْعَجَبَ لَوْ سَمِعْتَهَا تَتَكَلَّمُ فِي الطِّبِّ وَالْجِرَاحَةِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَطْفَالِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ دِرَايَتِهَا فِيمَا يَلْزَمُ لِمِهْنَتِهَا . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْقَوَابِلِ فِي إِنْجِلْتِرَةَ قَبِيلَةٌ بِتَمَامِهَا . وَعَمَلُهُنَّ فِي حَقِّ الْوَالِدَاتِ هُوَ

أَنْ يُرْشِدْنَ مَنْ يَكُنَّ مِنْهُنَّ حَدِيثَاتِ عَهْدٍ بِالْوِلَادَةِ إِلَى مَا يَعُودُ عَلَيْهِنَّ وَعَلَى أَوْلَادِهِنَّ بِالنَّفْعِ، وَيُنَفِّذْنَ مَا يَصِفُهُ الطَّبِيبُ مِنْ طُرُقِ التَّدَاوِى، وَعِنْدَهُنَّ بِحَسَبِ مَا يُسْمَعُ مِنْهُنَّ عِدَّةٌ مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الدَّوَائِيَّةِ لِمُدَاوَاةِ بَعْضِ طَوَارِئِ الْعِلَلِ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الشِّفَاءُ، وَأَمَّا قِصَصُهُنَّ فِى هَذَا الْمَوْضُوعِ فَإِنَّهَا لَا نَفَادَ لَهَا، وَلَوْ أَنِّى اعْتَقَدْتُ صِدْقَ كَلَامِهِنَّ فِى جَمِيعِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَدَّعِينَ أَنَّهُمْ نَجَوْا عَلَى أَيْدِيهِنَّ مِنَ الْمَوْتِ لَبَطَلَ عَجَبِى مِنْ كَوْنِ إِنْجِلْتِرَةَ قَدْ وَجَدَتْ مِنْ أَبْنَائِهَا الْعَدَدَ الْكَافِىَ لِعِمَارَةِ أُسْتُرَالِيَةَ وَزِيلَانْدَةَ الْجَدِيدَةِ وَسَائِرِ مُسْتَعْمَرَاتِهَا .

وَالَّتِى تَقُومُ عَلَى مِنْهُنَّ هِىَ — فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَاتِ — امْرَأَةٌ بَارِعَةٌ ذَاتُ فَضْلٍ يَظْهَرُ أَنَّ صِفَةَ الْأُمُومَةِ الْعَامَّةِ قَدْ صَارَتْ غَرِيزَةً مِنْ غَرَائِزِهَا، وَهِىَ قَصِيرَةٌ هَيْفَاءُ تَلُوحُ عَلَيْهَا سِمَاتُ الِاسْتِقَامَةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ شَهِدَتْ فِى مَاضِيهَا — كَمَا يُقَالُ — أَيَّامًا مُثْلَى(١) فَإِنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِرَجُلٍ كَانَ مُلَاحِظًا لِلْأَعْمَالِ فِى أَحَدِ مَنَاجِمِ كُورْنْوَاىَ، وَقُتِلَ بِسَبَبِ انْدِكَاكِ(٢) هَذَا الْمَنْجَمِ فَتَرَمَّلَتْ مِنْ بَعْدِهِ . وَقَدْ رُزِقَتْ هِىَ أَيْضًا عِدَّةَ أَوْلَادٍ فَارَقُوهَا مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ وَتَشَتَّتُوا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ابْتِغَاءَ الرِّزْقِ — اثْنَانِ مِنْهُمْ مَلَّاحَانِ صَالِحَانِ يَصِلَانِهَا حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِصُنْدُوقٍ مِنَ الشَّاىِ وَقِطْعَةِ نَقْدٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ مُمَرِّضَةً فِى مُسْتَشْفًى كَبِيرٍ فَلَمْ تَقْبَلْ عَلَى مَا فِى إِبَائِهَا مِنَ الْمُبَايَنَةِ لِمَصْلَحَتِهَا وَقَالَتْ : إِنِّى أُفَضِّلُ أَنْ أَتَلَقَّ الْوَافِدِينَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَرْجُوَ لَهُمْ حَيَاةً طَوِيلَةً فِيهَا عَلَى تَوْدِيعِ مَنْ يُفَارِقُونَهَا فِرَاقًا أَبَدِيًّا .

(١) مثلى : أى فضلى .

(٢) الاندكاك : الانهدام .

كَانَ الدُّكْتُور وَارِنْجتُونُ قَدْ أَوْصَى قَبْلَ سَفَرِهِ بِأَنْ يُؤْذَن [1] بِدُنُوِّ سَاعَةِ الْوِلَادَةِ فَلَمَّا حَانَ الْوَقْتُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَكْتُوبٌ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ مِنْ لُنْدرَة عَلَى أَثَرِهِ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَنِي الطَّلْقُ وَتَنْزِلَ بِي شَدَائِدُ الْمَخَاضِ وَأَهْوَالُهُ ، وَمِمَّا يُحْمَدُ فِي خِصَالِ الْإِنْجِلِيزِ أَنَّهُمْ إِذَا أَسْدَوْا إِلَى غَيْرِهِمْ مَعْرُوفًا لَا يَمُنُّونَ عَلَيْهِ بِهِ بَلْ لَا يُظْهِرُونَ لَهُ أَنَّ قَصْدَهُمْ بِذَلِكَ خِدْمَتُهُ أَوْ إِسْدَاءُ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ رِقَّةَ طَبْعٍ وَكَمَالَ أَدَبٍ أَوْ كِبْرًا وَتَرَفُّعًا عَنْ خِدْمَةِ سِوَاهُمْ ، يَدُلُّكَ عَلَى مَا أَقُولُ أَنِّي لَمَّا شَكَرْتُ لِهَذَا الدُّكْتُورِ مَجِيئَهُ وَتَرْكَهُ مَرْضَاهُ فِي لُنْدرَة ، كَانَ جَوَابُهُ لِي أَنْ قَالَ : رُوَيْدَكِ فَإِنِّي مَا جِئْتُ مِنْ أَجْلِكِ وَإِنَّمَا جِئْتُ لِزِيَارَةِ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي ، فَهَذَا الْجَوَابُ يُعْتَبَرُ فِي رَأْيِنَا مَعْشَرَ الْفَرَنْسِيَّاتِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ الظَّرْفِ ، وَيَعُدُّهُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَارِيسِيَّاتِ إِهَانَةً وَتَحْقِيرًا وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَّا إِلَى قَصْدِ قَائِلِهِ وَهُوَ جَلِيلٌ ، فَإِنَّهُ عَلَى يَقِينِي بِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ مَجِيئِهِ هُوَ غَيْرُ مَا يَقُولُ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُقْنِعَنِي بِأَنَّ وُجُودَهُ عِنْدِي إِنَّمَا كَانَ اتِّفَاقًا لَا تَعَمُّلًا ، فَلَا يَدٌ وَلَا مِنَّةٌ لَهُ عَلَيَّ ، أَوْ أَنَّهُ إِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَمَدَّحَ بِهِ أَوْ أَنْ يُذْكَرَ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَقِفْ فِي تَفَضُّلِهِ عَلَيَّ عِنْدَ حَدِّ مُسَاعَدَتِي بِعِلْمِهِ وَحِذْقِهِ فِي فَنِّ التَّوْلِيدِ عَلَى النَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي كُنْتُ مُشْفِقَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ ، بَلْ قَدْ تَكَرَّمَ أَيْضًا بِأَنْ مَحَضَنِي النُّصْحَ شَأْنَ الصَّدِيقِ مَعَ صَدِيقَتِهِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلُودِ مِنْ ضُرُوبِ الْعِنَايَةِ فَقَالَ : إِنِّي أُخَاطِبُ الْآنَ غِرَّةً لَا خِبْرَةَ عِنْدَهَا ، فَلَا تَدْهَشْ لِمَا سَأُلْقِيهِ عَلَيْهَا مِنْ

(١) يؤذن : يخبر .

أفكاري ، فإنّ أقلّ مزيّة لها أنّ أساسها التجربة والاختبار. قد نبّه كثير من رصفائي أفكار الناس في جميع البلدان إلى كثرة عدد الوفيات المروعة في الأطفال الحديثي العهد بالولادة ويمكن إرجاع هذه البلوى إلى عدة أسباب ككفاءة الوالدين وفساد أخلاقهما وعدم كفاية أقواتهما ، ولكنّي أعتقد أنّ أخص سبب يجب أن ينسب إليه ذلك هو جهل الأمهات بما يجب عليهن رعايته في شأن أولادهنّ ، فإنّ الإساءة في بعض طرق العناية بالمواليد كاتخاذها في غير وقتها أو الخطإ في تدبيرها لا تقلّ عن إهمال شأنهم شؤمًا وسوء مغبّة ، وإنّي لست أقصد بهذا أنّه يجب على الأمهات أن يجرين على ما تقتضيه الفطرة جرى عماية وغفلة ، فإنهنّ إن يفعلن ذلك يعصين الله (سبحانه) بتخليهنّ عن العقل الذي لم يهبه لهنّ إلّا لمراقبة سير الفطرة في مناهجها وإقامتها عليها إذا حادت عنها ، وإنّما أعني بذلك أنّ الأوهام والعادات والمعارف الفاسدة هي أعدى أعداء المواليد فيجب محاربتها ومحو آثارها ، وينبغي أن تعتقدي أننا لسنا أسوأ من غيرنا حالًا في تربية مواليدنا لأنّ شعبنا يزداد زيادة ظاهرة ، حتّى إنّه قد ضاقت عن سكّانه أرجاء بلادنا ، وها نحن أولاء نرسله أفواجًا إلى الأقطار السحيقة ليتوطّنها ويستعمرها ، ومن هذا تعلمين أنّ ازدياد الأجناس لا يكون على نسبة عدد الأطفال المولودين بل على نسبة عدد من يتخطاهم الموت منهم ، وعندي أنّ هذه النتيجة الحسنة الداعية إلى الاغتباط في بلادنا ترجع إلى ثلاثة أمور: وهي استعداد الدم الإنجليزي السّكسوني للحياة . وانطباع نسائنا على حبّ بيوتهنّ والعناية بها . وما لذوي العقول المستضيئة بنور العرفان من علمائنا

مِنَ التَّأثِيرِ فِى نُفُوسِ الْعَامَّةِ فَإنَّ كَثِيرًا مِنْ نُطُسِ الأَطِبَّاءِ الطَّائِرِى الصِّيتِ عِنْدَنَا لَمْ يَأْنَفُوا أَنْ يَقُومُوا بِبَثِّ الأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ وَالآرَاءِ السَّدِيدَةِ فِى فَنِّ الْقِيَامِ عَلَى الْمَوَالِيدِ بَيْنَ أَفْرَادِ الشَّعْبِ . وَلَمْ يَكَدِ الدُّكْتُورُ يَفْرُغُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى بَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ وَرَتَّبَ مَا رَآهُ غَيْرَ مُرَتَّبٍ فِى غُرْفَةِ نَوْمِى ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ وَجَدَ مَهْدَ (إمِيلَ) قَدْ وُضِعَ خَطَأً تِجَاهَ الشُّبَّاكِ فَغَيَّرَ وَضْعَهُ وَقَالَ لِى : إنِّى رَأَيْتُ أَطْفَالًا أَصْبَحُوا عُمْيًا أَوْ حُولًا بِسَبَبِ تَعْرِيضِهِمْ بَعْدَ وِلَادَتِهِمْ بِأَيَّامٍ لِضَوْءٍ شَدِيدٍ . هَذَا وَسَأُتْحِفُكَ بِنَصَائِحَ أُخْرَى وَعَيْتُهَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ لِمَا رَأَيْتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْحِكْمَةِ وَالسَّدَادِ وَلَمْ أُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَإنِّى لَا أَرْتَابُ فِى أَنَّهُ قَدْ تَكَلَّفَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ مَا لَمْ يَتَكَلَّفْهُ لِغَيْرِى مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِى يُدْعَى لِتَوْلِيدِهِنَّ وَعَامَلَنِى كَمَا يُعَامِلُ الرَّجُلُ زَوْجَةَ صَدِيقِهِ . عَلَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَكَّدُوا لِى أَنَّ الأَطِبَّاءَ الْمُوَلِّدِينَ هُنَا لَا يَرَوْنَ أَنَّ عَمَلَهُمْ قَدْ تَمَّ بِمُجَرَّدِ انْتِهَاءِ الْوِلَادَةِ بَلْ يُرْشِدُونَ الْوَالِدَةَ بَعْدَ ذَلِكَ إلَى جَمِيعِ مَا يَلْزَمُهَا فِى تَرْبِيَةِ وَلِيدِهَا . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

(مِنْ هَيْلَانَةَ إلَى إرَاسْمَ فى ٣ أغسطس سنة — ١٨٥)

مُشَابَهَةُ «إمِيلَ» لِأَبِيهِ وَحِكَايَةٌ فِى التَّمَاثُلِ بَيْنَ صُوَرِ الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ

كُلَّمَا رَدَدْتُ النَّظَرَ إلَى «إمِيلَ» رَأَيْتُ مِثَالَكَ مُحَقَّقًا فِيهِ ، وَلَا بُدَّ لِى أَيُّهَا الْعَزِيزُ إرَاسْمُ أَنْ أَحْكِيَ لَكَ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ حِكَايَةً طَبَّقَ ذِكْرُهَا الآفَاقَ فِى الْبَلَدِ الَّذِى

أسكنه. ذلك أن قسيسا بروتستنديًّا قاطنا فى جنوب إنجلترة وجد اتفاقا فى كورنواى يومًا من الأيام فطلب أن يزور قصرًا عتيقًا جدًّا فى ضيعة هنالك كانت لأسلافه فى غابر الأزمان ولذلك كان كثير الاهتمام برؤية أماكنها، فلما حل بها ملأه العجب وأخذ منه الاندهاش كل مأخذ إذ رأى فى الرواق المعلقة فيه صور أهل هذا البيت السالفين صورة كأنها تمثله بذاته مرسومًا على نسيج قديم لابسًا عدة الحرب كما كانت سنة الناس فى القرون الوسطى، لا بملابسه السوداء التى يلبسها اليوم؛ وبينما هو يتأمل فى هذه الصورة وفيما يليها من الصور إذ وقع بصره على صورة أخرى زادته ارتياعا ودهشة فتقهقر خطوتين إلى الوراء وهى صورة تمثل ابنه البكر وهو فتى فى الثالثة عشرة من عمره وكان معه فى هذا الرواق. فماذا تظن فى هذه الصور الوراثية؟ وأما أنا فإنى أكاد أفزع عندما أتصور أن رجلا من الأحياء يعرف نفسه وابنه فى شخصين مجهولين من أهله ماتا من عدة قرون.

فليت شعرى! هل نحن راجعون الى الدنيا بعد الفناء كما روى لنا التاريخ ذلك عمن يؤمنون بالرجعة والتناسخ؟

الرسالة السابعة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم فى ٤ اغسطس سنة ـــ ١٨٥)

ظنها أن «أميل» أنسأ يعرفها وبيان فضله عليها فى تحسين خلقها

لا أزال أشعر فى نفسى بكثرة الضعف حتى إنى فى تحرير هذا المكتوب اليك لم أستطع أن أكتبه مرة واحدة بل كنت أراوح فيه بين الكتابة والاستراحة

عِدَّةَ مرَّاتٍ، فَقَدْ كُنْتُ لَزِمْتُ الْفِرَاشَ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً مُوافَقَةً لِلْعَادَةِ الْمُتَّبَعَةِ فِي مُعْظَمِ جِهَاتِ إِنْجِلْتِرَة، وَالْآنَ أَصْبَحْتُ قَادِرَةً عَلَى الْقِيَامِ وَالْمَشْيِ فِي الْبَيْتِ قَلِيلًا وَصِرْتُ مِثْلَكَ أُجِيلُ نَاظِرِي وَفِكْرِي وَأَسِيحُ بِهِمَا فِيمَا حَوْلِي، وَإِنِّي أَجِدُ لَذَّةً فِي حَبْسِي لِأَنِّي أَنْوِي بِهِ مُشَارَكَتَكَ فِي حَبْسِكَ.

أَرَانِي لَا أَكُونُ وَاهِمَةً إِنْ حَسِبْتُ أَنَّ إِمِيلَ مَا لَبِثَ أَنْ عَرَفَنِي. فَإِنِّي لَا أُجِيزُ لِنَفْسِي مُطْلَقًا أَنْ تَعْتَقِدَ أَنِّي لَسْتُ فِي نَظَرِهِ «إِلَّا ثَدْيًا مَمْلُوءًا لَبَنًا» عَلَى قَوْلِ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ. عَلَى أَنِّي أَعْتَرِفُ اعْتِرَافًا تَامَّ الصَّرَاحَةِ بِأَنَّ هَذَا الْمَوْلُودَ الضَّعِيفَ الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ جَمَادًا مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ كَثِيرًا مِنْ غَيْرِهِ وَلَا يَكَادُ يُعْطِي شَيْئًا. نَعَمْ إِنَّ لَنَا فِيهِ قُرَّةَ عَيْنٍ وَانْشِرَاحَ صَدْرٍ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا اخْتِيَارٌ فَهُوَ كَالزَّهْرَةِ تَرْتَاحُ لَهَا النَّفْسُ وَيَبْتَهِجُ بِرُؤْيَتِهَا النَّاظِرُ عَلَى غَيْرِ إِرَادَةٍ مِنْهَا وَلَا قَصْدٍ، وَمَهْمَا كَانَتْ حَالُهُ فَأَنَا أَشَدُّ مِنْهُ أَثَرَةً لِأَنِّي أَنَا الْمُغْتَبِطَةُ بِحُبِّي إِيَّاهُ، ثُمَّ إِنِّي كَيْفَ يَسَعُنِي أَنْ أَرْتَابَ فِيمَا لَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيَّ فَإِنَّهُ قَدْ أَعَادَ لِي سَكِينَتِي وَكَفَّ عَنِّي مَا كُنْتُ أَجِدُهُ مِنْ غَرْبِي(١)، ذَلِكَ أَنَّ خُلُقِي — وَلَا أُخْفِي عَلَيْكَ — قَدْ خَالَطَهُ مِنْ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ شَيْءٌ مِنَ الْحِدَّةِ بِسَبَبِ الْعُزْلَةِ وَالِاغْتِرَابِ، وَمِنْ هَذَا تَعْلَمُ الْعِلَّةَ فِي غَضَبِي عَلَى جُورْجِيَةَ قَبْلَ الْآنَ بِأَيَّامٍ، عَلَى أَنَّهَا أَحْسَنُ النِّسَاءِ وَأَكْثَرُهُنَّ الْتِفَاتًا لِوَاجِبِهَا. وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهَا تَسْتَثْقِلُ الْقَابِلَةَ وَلَا تُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَيُوجِدُهَا(٢) عَلَيْهَا أَنْ تَرَاهَا قَدِ اسْتَحَقَّتْ نَصِيبًا مِنْ شُكْرِي لِأَنَّهُ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ لِمَنْ يَخْدِمُنَا. فَهَذِهِ الْغَيْرَةُ

(١) الغرب: الحدة.

(٢) يوجدها يغضبها.

المُنْبَعِثَةُ مِنْ قَلْبٍ مُخْلِصٍ لَمْ يَسْتَضِئْ بِنُورِ الْعِلْمِ هَاجَتْ غَضَبِي عَلَيْهَا فَلَمْ أَسْتَطِعْ كَظْمَ غَيْظِي وَلَا كَفَّ بَوَادِرِ لِسَانِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ . فَمَا كَانَ أَشَدَّنِي انْدِهَاشًا وَارْتِيَاعًا إِذْ ذَاكَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكَدْ أَفْرُغُ مِنْ تَقْرِيعِهَا حَتَّى أَبْصَرْتُ وَجْهَ أَمِيلَ قَدْ صَارَ أَحْمَرَ كَالْأُرْجُوَانِ[1] وَطَفِقَ يَصْرُخُ صُرَاخًا شَدِيدًا . فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِلْتُ إِلَى الِاعْتِقَادِ بِأَنَّ انْفِعَالَاتِ الْأُمِّ تُؤَثِّرُ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ فَيَكُونُ بُكَاؤُهُ وَتَغَيُّرُهُ رَجْعًا لِصَدَاهَا .

وَسَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الِاعْتِقَادُ صَحِيحًا أَمْ فَاسِدًا فَقَدْ عَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى أَنْ أَعْتَبِرَ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، وَأَصْبَحْتُ الْآنَ كُلَّمَا عَرَضَ لِي مَا يَكَادُ يَذْهَبُ بِحِلْمِي أَنْظُرُ إِلَى إِمِيلَ فَيَسْكُنُ غَضَبِي عَلَى الْفَوْرِ إِجْلَالًا لِوَلَدِي ، وَإِذَا كُنْتُ قَدْ صِرْتُ أَحْسَنَ خُلُقًا وَأَوْسَعَ صَدْرًا وَأَمْلَكَ لِنَفْسِي مِمَّا كُنْتُ قَبْلُ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِسَبَبِهِ وَبِيُمْنِ وُجُودِهِ . اهـ

الرسالة الثامنة والعشرون

(مِنْ هَيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٥ أغسطس سنة — ١٨٥)

سُؤَالُهَا إِيَّاهُ عَنْ حَقِيقَةِ التَّرْبِيَةِ وَزَمَنَيْ بِدَايَتِهَا وَنِهَايَتِهَا

تَلَقَّى الدُّكْتُورُ وَارِنْجْتُونُ مَكْتُوبَكَ[2] وَأَطْلَعَنِي عَلَيْهِ فَرَأَيْتُكَ قَدْ تَجَنَّيْتَ[3] عَلَى نَفْسِكَ إِذْ قُلْتَ : إِنَّكَ مَلُومٌ عَلَى مَا جَلَبَهُ لِي تَعِيسُ حَظِّكَ مِنَ الْخُمُولِ وَالذُّلِّ ، وَإِنَّكَ لَسْتَ

---

(١) الأرجوان : مادة حمراء تستخرج من نوع من المحار يصبغ بها .

(٢) هذا المكتوب لم يعثر عليه .

(٣) تجنى عليه ادعى عليه ذنبا لم يفعله .

جَدِيرًا بِأَنْ تَكُونَ وَالِدًا . رُوَيْدًا ، هَوِّنْ عَلَيْكَ الْخَطْبَ فَإِنِّى مِنْ عَهْدِ أَنْ جَمَعَتْنَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ كُنْتُ رَاضِيَةً بِكُلِّ مَا وَقَعَ لَنَا فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّى كَمَا تَقُولُ نَاشِئًا مِنْ شَرَفِ نَفْسِى أَوْ مِنْ رِعَايَةِ وَاجِبِي ! لا ! بَلْ كَانَ سَبَبُهُ مَا فِى قَلْبِي لَكَ مِنْ صَادِقِ الْحُبِّ وَخَالِصِ الْوُدِّ . فَمِنَ الْجُبْنِ وَالْعَارِ أَنْ تَأْسَى الْيَوْمَ عَلَى مَا قَدْ كَانَ ، وَاعْلَمْ أَنِّى لَسْتُ أَشْكُو أَبَدًا مَا ابْتُلِينَا بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ ، بَلْ أَزْهَى بِهَا وَأَفْتَخِرُ بِاحْتِمَالِهَا ، وَأَمَّا وَلَدُنَا فَقَدْ آنَ لَنَا — عَلَى مَا أَرَى — أَنْ نَشْرَعَ فِى تَرْبِيَتِهِ ، فَمَا هِىَ التَّرْبِيَةُ وَمَتَى تَبْتَدِئُ وَمَتَى تَنْتَهِى ؟ أَنَا فِى انْتِظَارِ جَوَابِكَ عَنْ ذَلِكَ .

حَاشِيَةٌ — إِمِيلُ مُسْتَغْرِقٌ فِى نَوْمِهِ وَقَدْ قَبَّلْتُهُ قُبْلَتَيْنِ فِى وَجْنَتَيْهِ عَلَى حُبِّكَ . اهـ

الكتاب الثاني

في الولد

الرسالة الأولى

(من إراسم إلى هيلانة في ١٠ أغسطس سنة — ١٨٥)

بيانُ الصُّعوبةِ في تحديدِ زمنَيْ بدايةِ التَّربيةِ ونهايتِها وتعريفُ التَّربيةِ

تسأليني في خاتمةِ رسالتِك الأخيرةِ عن التَّربيةِ متى يكونُ ابتداؤُها فأقولُ :

يصحُّ أنْ يُبتدأَ فيها قبلَ الولادةِ بزمنٍ طويلٍ، لأنَّهُ من المحقَّقِ الَّذي لا مساغَ للرَّيبِ فيه، أنَّ في أجيالِ البشرِ أنواعاً من الاستعدادِ الوراثيِّ تنتقلُ من الآباءِ إلى الأبناءِ ، فابنُ المتوحِّشِ يولدُ متوحِّشاً، وولدُ البربريِّ يخلقُ بربريّاً، ومن كانَ من أبوينِ متمدِّنينِ فإنَّهُ يولدُ مهيَّأً للتمدُّنِ .

كُلُّ من عرفَ ذلكَ، يرى فيهِ أنَّ هنالكَ قوًى سابقةً لخلقِ الحياةِ في الإنسانِ تحدِّدُ لكلِّ فردٍ من أفرادِهِ، درجةَ ملكاتِهِ ومقدارَها نوعاً ما من التَّحديدِ . وما نسمِّيهِ بالتَّصوُّراتِ الغريزيَّةِ، والقوى الحدسيَّةِ، والمواهبِ الخلقيَّةِ، والفيضِ الخفيِّ وغيرِها

ربما لا يكون شيئا آخر سوى ما نتوارثه من حالة العمران ، أعني نتيجة عمل العقل فيمن سبقنا من القرون ، فنحن الراجعون إلى الدنيا بعد الفناء كما تقولين (١) .

إن ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم فى إحدى مثانى مخنا على غير علم منا ، وتنقل المادة الحية من قرن إلى قرن مرتقية على الدوام فى صورها بعمل العقل ، وخروج المولود من غيابة الرحم إلى عالم الشهادة بأعضاء كملها التقدم وسواها الترقى — جميع هذه الأمور يغلب على ظنى أنها من أسباب النمو التى يصح ملاحظتها فى التربية ، ولكن لما كانت عزائمنا ليس لها على مثل هذه الأسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها .

لكن هناك أحوالا طبيعية يتأتى للعلم فيما أعتقد أن يتناولها و يغيرها خلافا للأسباب المذكورة . فلا شيء يمنع المشتغلين بعلم منافع الأعضاء — مثلا — أن يصلوا يوما ما إلى تحديد ما لسن الرجل والمرأة وحالتهما الصحية وطريقتهما الغذائية من التأثير فى التناسل . وقد وجه فريق من نابغى هذا العلم الذائعى الصيت أنظارهم إلى هذه الغاية وأعملوا أفكارهم فى سبيل الوصول إليها ، فإذا أدركوها وتقرر أنها أصبحت من ثمراته صار علم منافع الأعضاء فرعا من فروع علم التربية النفسية .

(١) هـذا وهم باطل فلا يصح اتخاذ التشابه الواقع بين صورة ميت مضى عليه جيل أو أجيال و بين صورة حى من الأحياء دليلا على الرجعة الى الدنيا بعد الفناء : فان فلتة واحدة من فلتات التشابه لا تكون قاعدة يبنى عليها حكم كهذا مخالف للعقل والنقل على أن مجرد التشابه الحسى على فرض حصوله من جميع الوجوه لا يكفى وحده للاستدلال به على صحة هذا الحكم ، بل لا بد من التشابه المعنوى أيضا فى كل شيء من الأخلاق والأفكار والعواطف مع استفاضة هذا التشابه بل الاتحاد فى كثير من الأفراد وشيوعه وهذا ما لم يقل به أحد يعتد برأيه — المترجم .

إذا علمت مما تقدم أنه من الصعب جدًا تحديد الزمن الذى تبتدئ فيه التربية اتضح لك أن تعيين الوقت الذى تنتهى فيه أصعب وأكثر مجازفة لأنها تستغرق العمر كله (١) .

وأما حقيقة التربية — وهى أول شىء تسألين عنه — فمن الميسور لى أن أجيبك عنها جوابًا سديدًا وهو : أنها — على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية اللغوى — عبارة عن تكميل عقل الناشئ وتهذيب نفسه بإظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد وأنواع القوى وإنمائها ، لأن ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أى زاد ونما ، لكنى خشية أن تخالى فى هذا التعريف إبهامًا أعجل بكشف معناه وتقريبه إلى ذهنك فأقول :

أراد جمهور علماء الأخلاق بالتربية الوصول إلى ما تصوروه فى الإنسان من معنى الكمال ، فغرضهم منها إيجاد الإنسان الكامل وهو غرض يظهر لأول نظرة أنه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة . فلقائل أن يقول : إن الإنسان الكامل ليس له إلا صورة خيالية لا تحقق لها فى الوجود الخارجى قطعًا ، فنحن إذن نحلم به كل على حسب تصوره . فإيانا والتشبث بهذه الصورة الوهمية التى يريد بها الخيال أن يتغلب على الواقع المحقق ، فإنه لا شىء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة ونعتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية حتى تكون نموذجا

(١) هذه حقيقة ثابتة يشهد لها العقل ويصدقها الوجدان وتقتضيها طبيعة الانسان فانه فطر عاجزا ناقص الادراك محتاجا الى تمية ملكاته وتكميل قواه بالنظر فى ملكوت السموات والأرض والاعتبار بأحوال المخلوقات وعمره أقصر من أن يبلغ به الكمال فى شىء من ذلك — المترجم .

لجميع الفضائل، ولكن من لنا بإنزال هذه الذات من السماء وإبرازها لنا إلى عالم الظهور .

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيها لو أن الإنسان كان ذاتا واجبة الوجود . لكنا في الحقيقة نراه على خلاف ذلك متغيرا لا يستقر على حالة واحدة، فإنه وهو في الرحم تتناوبه أطوار جنينية مختلفة، ولا أريد أن أبين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث، وإنما أقول : إن حياته من أولها إلى آخرها ليست إلا سلسلة استحالات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأ . أنظرى إلى شعره (الذى لا يوجد عادة حين الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات وإلى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف تتجدد كلما كبر . تأملى في الغلام الصغير عند ما تبتدئ ثناياه اللبنية بالزوال تجديه قد صار شيخا بالنسبة إلى ابن الرابعة والخامسة الذى لا تزال لثته محلاة بجميع لآلئها ، لقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية في دور نموها أعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها ، وأعد لها أعضاء أخرى تنمو في هذه المدة لتخلف الأولى . كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضا على نظام محدود، فإن المولود يذوق قبل أن يبصر ويبصر قبل أن يسمع، والذاكرة فيه تسبق القوة الحاكمة ، ووجدانه يكون قبل فكره بزمن طويل . فالحياة من الولادة إلى الشبيبة ومن الشبيبة إلى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب ويغذى بعضها بعضا ، والإنسان من مهده إلى لحده يسلك طريقا تفرقت فيه رفاته وبددت في جوانبه بقاياه .

أَنَّى يَكُونُ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ مَوْقِفٌ فِي هَـذِهِ الْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ ، وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى غَايَةٍ نَنْتَهِي إِلَيْهَا ؟ فَالَّذِي أَرَاهُ هُوَ أَنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيـهِ ، وَأَنَّ أَهَمَّ مَا تَجِبُ بِهِ الْعِنَايَةُ فِي عِلْمِ التَّرْبِيَةِ هُوَ اخْتِيَارُ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ سِنٍّ مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ النُّمُـوِّ وَأَمْثَلِهَا فَأَنَا الْآنَ أَقْتَصِرُ عَلَى الْكَلَامِ عَنِ التَّرْبِيَةِ فِي زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ . اهـ

الرسالة الثانيـــة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ١١ أغسطس سنة — ١٨٥)

عَمَلُ الْأُمِّ فِي الشُّهُورِ الْأُولَى مِنْ حَيَاةِ الطِّفْلِ وَانْتِقَادُ مَا يَفْعَلُهُ الْأُمَّهَاتُ بِأَطْفَالِهِنَّ فِي هَذِهِ السِّنِّ

إِعْلَمِي أَنَّ تَرْبِيَةَ الطِّفْـلِ فِي الْأُسْبُوعَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْ حَيَاتِهِ بَلْ يَصِحُّ أَنْ أَقُولَ فِي الشَّهْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْهَـا تَكَادُ تَنْحَصِرُ فِي مُجَرَّدِ وِقَايَتِهِ مِمَّـا عَسَى أَنْ يُؤْذِيَهُ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ ، فَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ انْتِظَارِ الْفِطْرَةِ وَمُرَاقَبَتِهَا فِي عَمَلِهَا وَإِعَانَتِهَا عَلَيْهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

الْمَوْلُودُ يَدْخُلُ عِنْـدَ وِلَادَتِهِ فِيمَا اصْطَلَحَ عُلَمَاءُ مَنَافِـعِ الْأَعْضَاءِ عَلَى تَسْـمِيَتِهِ بِالْحَيَاةِ الْمُسْتَقِلَّةِ وَلَكِنْ مَا أَضْعَفَ اسْتِقْلَالَهُ وَأَقَلَّ حُرِّيَّتَهُ فَإِنَّهُ بِمَـا أُودِعَ فِيهِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّغَـذِّي لَا يَكَادُ يُرَى إِلَّا مُلْتَقِمًا ثَدْيَ أُمِّهِ ، فَيَكُونُ مَعَـهُ كَالْغُصْنِ الْمُطَعَّمِ بِآخَرَ ، فَهُوَ إِذَنْ تَابِـعٌ لِغَيْرِهِ فَقِـيرٌ إِلَيْـهِ فِي غِذَائِهِ وَسَدِّ حَاجَاتِ مَعِيشَتِهِ الْمَادِّيَّةِ ، وَمَا أَخْفَى مَعْـنَى الِاسْتِقْلَالِ وَأَشَـدَّ إِبْهَامَهُ فِيهِ وَهُوَ فِي هَـذَا الطَّوْرِ مِنَ الْحَيَاةِ !

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَغْمُورًا فِي شِبْهِ سَحَابَةٍ مِنَ الْجَهَالَةِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَوَّلَ أَمْرِهِ عَلَى مَا يُرَى مِنْ حَالِهِ أَدْنَى إِدْرَاكٍ ظَاهِرٍ لِمَا يَضْطَرِبُ حَوْلَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ . مِسْكِينٌ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الْأَعْمَى ! فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ ثَدْيَ أُمِّهِ إِلَّا بِتَلَمُّسِهِ ، نَعَمْ إِنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ لَكِنْ لَا يُبْصِرُ بِهِمَا وَأُذُنَيْنِ لَكِنْ لَا يَسْمَعُ بِهِمَا وَيَدَيْنِ لَكِنْ لَا يَعْرِفُ أَنْ يَبْطِشَ بِهِمَا . هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي هُوَ وَثَنٌ لِأُمِّهِ تَعْبُدُهُ وَتَخُصُّهُ بِفَرْطِ مَحَبَّتِهَا قَرِيبُ الشَّبَهِ بِالْآلِهَةِ (١) الزَّمْنَى (٢) الَّذِينَ سَخِرَتْ مِنْهُمُ التَّوْرَاةُ ، لَكِنَّهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ قَدْ عُهِدَ إِلَيْهِ عَمَلٌ ذُو شَأْنٍ يُؤَدِّيهِ فِي الْعَالَمِ أَلَا وَهُوَ النُّمُوُّ .

يَكَادُ عَمَلُ الْأُمِّ يَنْتَهِي إِلَى عَدَمِ إِعَاقَةِ هَذَا الْعَمَلِ الْفِطْرِيِّ الْخَفِيِّ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ تَشْوِيشِهِ ، وَإِنِّي طَالَمَا أُعْجِبْتُ بِمَا تُهْدِيهِ إِلَيْهَا أُنْثَى الطَّيْرِ مِنَ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ ، فَإِنَّهَا لَشَدَّ مَا تَعْتَنِي بِحَجْبِ ذُخْرِهَا الْحَيِّ عَنْ دَنَسِ الْأَنْظَارِ ، وَتُبَالِغُ فِي إِخْفَائِهِ بِعُشِّهَا الْمُسْتَتِرِ تَحْتَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَالْمَرْأَةُ أَقَلُّ مِنْهَا دِرَايَةً بِمَا يَجِبُ لِلْأَوْلَادِ لِأَنَّنَا كَثِيرًا مَا نَرَاهَا تَتَّخِذُ مَوْلُودَهَا أُلْعُوبَةً لِشَفَقَتِهَا وَحَنَانِهَا ، وَمَاذَا نَقُولُ فِي أُمَّهَاتٍ مَا يَنْفَكِكْنَ يُرِينَ الْأَجَانِبَ أَوْلَادَهُنَّ فَيُدِرْنَهُمْ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ ، وَيَهِجْنَ انْفِعَالَاتِهِمْ بِمَا يَتَصَنَّعْنَهُ لَهُمْ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْإِشَارَاتِ ، وَيُعَذِّبْنَهُمْ بِالْمُلَاطَفَاتِ الْمُنْبَعِثَةِ عَنْ جُنُونِ الشَّغَفِ بِهِمْ . أَقُولُ قَوْلًا لَا أَوَدُّ مِنْكَ إِذَاعَتَهُ وَهُوَ : إِنِّي أَخْشَى أَنَّهُنَّ فِي ذَلِكَ يَنْظُرْنَ إِلَى تَسَلِّيهِنَّ أَوْ إِلَى زُهُوِّهِنَّ أَكْثَرَ مِنْ نَظَرِهِنَّ إِلَى مَصْلَحَةِ الطِّفْلِ .

(١) لعل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما اراد أن يتحدى امته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم ان يقربوا ثورا لآلهتهم ويقرب هو آخر ليظهر أى الآلهة يقبل قربان عباده فقربوا ثورهم ودعوا بعلا الههم من الصباح الى الظهر لينزل نارا تأكله فلم يجبهم فسخر منهم نبي الله وقال : ثابروا على الدعاء فلعله نائم .

(٢) الزمنى : جمع زمن وهو ذو العاهة .

وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيْضًا مِنْ بَعْضِ الْأَوْهَامِ الشِّعْرِيَّةِ فَإِنَّ شُعَرَاءَ هَذَا الْعَصْرِ وَكُتَّابَهُ قَدْ بَالَغُوا فِي إِطْرَاءِ الطِّفْلِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْخَيَالُ أَنْ يَرَوْا فِيهِ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ الْجَنَّةِ تَارِكًا فِيهَا جَنَاحَيْهِ، نَعَمْ إِنِّي فِي الْحَقِيقَةِ لَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَتَى، وَلَكِنَّ رَأْيِي فِيهِ هُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ رَأَى عَجَائِبَ فِي عَالَمٍ آخَرَ فَقَلَّمَا يَذْكُرُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُحَصِّلُ عُلُومَهُ جَمِيعَهَا بَيْنَنَا ، وَسَأُبَيِّنُ لَكَ فِي الرِّسَالَةِ التَّالِيَةِ كَيْفَ يُحَصِّلُ هَذِهِ الْعُلُومَ . اهـ

الرسالة الثالثة

(من إراسم إلى هيلانة فى ١٢ أغسطس سنة — ١٨٥)

أَوَّلُ عُلُومِ الطِّفْلِ تَأْتِيهِ مِنْ طَرِيقِ الْحَوَاسِّ — تَرْبِيَةُ الْحَوَاسِّ — تَأْثِيرُ الْحَضَارَةِ فِي قُوَاهَا — تَفْضِيلُ تَرْبِيَةِ « إِمِيلَ » فِي الرِّيفِ وَسَبَبُهُ — عَمَلُ الْأُمِّ فِي تَمْرِينِ حَوَاسِّ الطِّفْلِ

إِنَّ أَوَّلَ زَمَنٍ فِي حَيَاتِنَا نَكُونُ فِيهِ أَكْثَرَ تَعَلُّمًا وَأَشَدَّ تَحْصِيلًا هُوَ ذَلِكَ الزَّمَنُ الَّذِي لَا يُعَلِّمُنَا الْقَائِمُونَ عَلَيْنَا فِيهِ شَيْئًا تَعْلِيمًا نِظَامِيًّا ، فَجَمِيعُ الْأُمَّهَاتِ يَعْرِفْنَ أَنَّ الطِّفْلَ يَتَرَقَّى فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنَ الشَّهْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْ حَيَاتِهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ تَرَقِّيًا غَيْرَ مَعْهُودٍ فِي هَذِهِ السِّنِّ ، وَقَدْ حَسَبَ لَهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ مَا يَكْتَسِبُهُ مِنَ الْعُلُومِ وَهُوَ فِي سِنِّ شَهْرَيْنِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مِنْ عُمُرِهِ ، فَوَجَدَ أَنَّهُ يَكْتَسِبُ مِنْهَا ثُلُثَ مَا يَكْتَفِي بِتَحْصِيلِهِ أَوْسَاطُ النَّاسِ . هَذِهِ التَّرْبِيَةُ

الأولى لا ينكر أن لأمه دخلًا فيها ، ولكن أخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الأشياء وتناول مشاعره إياها ، فهذا الينبوع الأصلي من ينابيع العلم الإنساني — وأعني به الاحتكاك بالأشياء وتناولها بالحواس — هو الذي أريد توجيه فكرك إليه .

ولننظر ابتداء إلى ما يجري في الواقع ، فالمولود في مدة الأسابيع الأولى من ولادته يكون مخه لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن إجابة داعي ما يحتف به من الأشياء إجابة يكون من ورائها عمل ، فإنه يرى جميع هذه الأشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئا . ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ، ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها ، فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون[١] يكون ساكتا فإذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه . هذا هو شأن الطفل[٢] فإنه ينتعش بما حوله انتعاش ذلك الصنم بالشمس إن صح أن يسمى هذا انتعاشا .

هل يتعلم المولود الإبصار والسماع أم يأتيانه عفوا؟ تلك مسألة يصعب كثيرا على المشتغلين بعلم منافع الأعضاء الاتفاق على الإجابة عنها فلهم فيها أقوال مختلفة ،

(١) ممنون فى أساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تيتون ملك الحبشة وهو أيضا اسم لتمثال (معبود مصرى) كانوا يعبدونه فى طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت ناشئ من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس .

(٢) ما أبعد الشبه بين تنبه الطفل لما حوله وتأثر مشاعره به بنموه التدريجى وبين الصوت الذى يخرج من جوف ذلك الصنم الذى هو جماد لا يحس ولا يدرك ولا ينمو — المترجم .

ولكنّ الذى أجمعوا عليه أنّ المولود يتعلم بالتمرين إجادة هذين الفعلين، فليكفنا ذلك من جواب هذه المسألة والحكمة فى هذا أنّ من السنن الإلهية أنّ كلّ عضو يحسن عمل ما واظب عليه، وفوق ذلك أنّ قوة الانفعالات عند الطفل تزداد يوما فيوما بنفس ما يجده من اللذة فى استخدام ما أوتيه من وسائل العلم الصغرى، فقد قال بوسويه[1]: إنّ لذة الإحساس قوية جدا .

الإحساس فى الغالب يحصل فى المولودين عفوا من غير معاناة تعلم فلا يحتاج معظمهم إلى تعلم اللمس والذوق والإبصار والسماع، بل هم يجدون فيما وهبهم الله من الغرائز ما يلزم من القوة لإجراء هذه الأفعال التى هى من مقتضيات الحياة، ولكن من الميسور أن تعاون الفطرة على أدائها، بل أقول: إنّ فى قوة اقتداء الطفل بغيره ومباراته إياه وفى تحلية الأشياء المحيطة به — تحلية تزداد بها رونقا يجذب نظره إليها — ما يساعد على تنبيه مشاعره ودفعها إلى القيام بما خلقت لأجله . نحن نرى فى البهائم أنّ أنثاها لا تكف عن إرشاد صغارها إلى استخدام حاستى السمع والبصر وحملها على الانتفاع بهما، وهذا الإرشاد هو السبب — على ما أرى — فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض الفصائل الحيوانية .

كذلك المتوحش — كما تعلمين — يكاد يكون نصيبه من التربية قاصرا على المشاعر، ولشد ما برز علينا بهذا السبب فى بعض القوى، فالعادة والرياضة البدنية

---

(١) بوسويه هو يعقوب بنيى بوسويه المولود فى ديجون ١٦٢٧ والمتوفى فى سنة ١٧٠٤ ميلادية . كان اسقفا لكندوم ثم « لمو » ثم صار مربيا لولى عهد لويس الرابع عشر وهو من أكبر كتاب فرنسة وأعظم واعظ نبغ فيها .

وَطَرِيقَةُ الْمَعِيشَةِ تُنَمِّى فِى الْأَجْيَالِ الْبَدَوِيَّةِ عِدَّةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الإِدْرَاكِ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ فِى دِقَّتِهَا وَسَعَتِهَا ، وَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ سَبَبِ فَقْدِ الإِنْسَانِ بَعْضَ هٰذِهِ الْمَوَاهِبِ الْأَصْلِيَّةِ بِتَمَدُّنِهِ اكْتَفَيْنَا فِى الْجَوَابِ عَنْ ذٰلِكَ بِتَوْجِيهِ نَظَرِهِ إِلَى مَا حَصَلَ فِى بَعْضِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ مِنْ ضُرُوبِ التَّغَيُّرِ عِنْدَ انْتِقَالِهَا مِنْ حَالَةِ التَّوَحُّشِ إِلَى حَالَةِ الاسْتِئْنَاسِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِى كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَرَانِبَ إِذَا تَرَبَّتْ فِى خَابِيَةٍ نَسِيَتْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ بُطُونٍ طَرِيقَةَ احْتِفَارِ الْأَجْحَارِ لِلسُّكْنَى فِيهَا ؟ وَهٰذَا الْخَرُوفُ الَّذِى نَعْتَبِرُهُ مِثَالًا لِلذُّلِّ وَسَلَاسَةِ الْقِيَادِ وَالْغَبَاوَةِ لَمْ يَكُنْ كَمَا نَرَاهُ الْيَوْمَ فِى جَمِيعِ الْأَزْمَانِ ، فَإِنَّ أَصْلَهُ الَّذِى تَوَلَّدَ مِنْهُ وَهُوَ الْكَبْشُ الْوَحْشِيُّ عَلَى عَكْسِهِ فِى الطِّبَاعِ لِأَنَّهُ حَيَوَانٌ جَرِىءٌ يَزْهَى بِالْمُخَاطَرَةِ بِنَفْسِهِ فِى جِبَالِ قُورصَةَ(١) وَيُقَاوِمُ مَنْ يَبْتَغِى صَيْدَهُ مِنَ الصَّيَّادِينَ فَجَعَلَهُ الْإِنْسَانُ خَرُوفًا أَهْلِيًّا بِزَرْبِهِ (أَىْ بِنَاءِ زَرِيبَةٍ لَهُ) وَتَكْلِيفِ رَاعٍ الْقِيَامَ عَلَيْهِ وَكِلَابِ حِرَاسَتِهِ ،

كَذٰلِكَ الْإِنْسَانُ كُلَّمَا تَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُ بِالْمَدَنِيَّةِ وَتَحَضَّرَ تَدَرَّجَ فِى التَّخَلِّى عَنْ بَعْضِ خَوَاصِّ مَعِيشَتِهِ الْوَحْشِيَّةِ ، فَلَا تَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ فِى أَنْ يَكُونَ دَائِمَ التَّيَقُّظِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا كَانَ غَيْرُهُ يَسْهَرُ لِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ ، فَمُرَاقَبَةُ الْحَيَوَانِ الْمُؤْذِى مِنْ بَعِيدٍ وَإِلْصَاقُ الْأُذُنِ بِالْأَرْضِ تَعَرُّفًا لِخُطَا الْعَدُوِّ مِنْ بُعْدِ أَلْفَىْ أَوْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مِيلٍ لَا ضَرُورَةَ لَهُمَا إِلَّا فِى حَقِّ سُكَّانِ أَمْرِيكَةَ وَأُسْتُرَالِيَةَ الْأَصْلِيِّينَ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَفِى حَالَتِنَا الْعُمْرَانِيَّةِ مَا يُغْنِينَا عَنْ ذٰلِكَ فَإِنَّ لَنَا الشُّرَطِىَّ وَالْجُنْدِىَّ اللَّذَيْنِ نَسْتَأْجِرُهُمَا لِيَدْفَعَا عَنَّا

(١) قورصة جزيرة بالبحر الأبيض المتوسط وهى احدى مقاطعات فرنسة على بعد ١٧٠ كيلو مترا من شواطئها .

مَا نَخْشَاهُ مِنْ أَذَى الْمُعْتَدِينَ وَكَيْدِ الخَائِنِينَ . فَإِذَا زَالَ الخَطَرُ الْمُلازِمُ لِلْمَعِيشَةِ الْبَدَوِيَّةِ بِالتَّحَضُّرِ وَجَبَ حَتْمًا أَنْ يَزُولَ مَعَهُ مَا كَانَ لِحَاسَّتَيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ مِنَ الدِّقَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي هِيَ عَوْنُ وِجْدَانِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى النَّفْسِ .

كَأَنِّي بِكَ تَقُولِينَ : إِنَّ هَذِهِ الْمَزَايَا الْجَسَدِيَّةَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا فِي جَانِبِ الْقُوَى الَّتِي خَلَقَهَا الإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ بِارْتِقَاءِ الْحَضَارَةِ إِنْ صَحَّ أَنْ يُنْسَبَ لَهُ الْخَلْقُ (١) — وَأَنَا بِلَا شَكٍّ مُوَافِقٌ لَكِ فِي هَذَا . فَإِنَّنَا — وَالْحَقُّ يُقَالُ — قَدْ رَبِحْنَا مِنَ الْحَضَارَةِ أَكْثَرَ مِمَّا خَسِرْنَا، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يُقْنِعَنِي هَذَا الْفِكْرُ لِأَنِّي أَرَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ أَنْ يَسْتَجْمِعَ فِي شَخْصِهِ جَمِيعَ الْمَوَاهِبِ الَّتِي كَانَتْ لِمَنْ عَمَرُوا الأَرْضَ مِنْ قَبْلِهِ، وَكُونِي عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّا لَوْ بَلَغْنَا هَذِهِ الْغَايَةَ مَا عُدَّ ذَلِكَ مِنَّا إِفْرَاطًا فِي الْغِنَى وَلَا وَصَلْنَا فِي الْحَيَاةِ مُطْلَقًا إِلَى دَرَجَةٍ تَكْفِي لِأَنْ نُمَثِّلَ فِيهَا كُلَّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْيَى، وَأَنَّ قُوَى الإِدْرَاكِ الْحِسِّيَّةَ تَكَادُ تَكُونُ فِي لُزُومِهَا لِفَهْمِ مَعْنَى وُجُودِنَا مُسَاوِيَةً لِلْقُوَى الْفِكْرِيَّةِ .

أَمَّا كَوْنُ الْحَضَارَةِ مِمَّا يَزِيدُ الثِّقَةَ فِي الْمُعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَيُقَوِّي رَوَابِطَهُمُ الاجْتِمَاعِيَّةَ وَيُغَالِبُ الْفِطْرَةَ دَائِمًا مُغَالَبَةً يُقَلِّلُ بِهَا جِدًّا عَدَدَ الْبَلَايَا الَّتِي تَجْعَلُ الْبَدَوِيَّ عَلَى خَطَرٍ مِنْ حَيَاتِهِ فَهَذَا كُلُّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، وَأَمَّا كَوْنُ الشُّرْطَةِ تَحْفَظُ الأَرْوَاحَ وَالأَمْوَالَ فَهُوَ أَمْرٌ لَا أَجِدُ مَسَاغًا لِلطَّعْنِ فِيهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا أَسْتَنْكِرُهُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ طَرِيقَةَ الْحِفْظِ هَذِهِ تَصِيرُ مَدْعَاةَ كَسَلٍ وَخُمُودٍ لِمَشَاعِرِنَا، وَقَدْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الأَمْرَ

(١) معاذ الله أن ينسب له الخلق فالله هو الخلاق ذو القوة المتين .

المُتَمدِّنة أنفسُها تمام الإدراك ، فإنها قد أبقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها أدنى موجب — إن لم تكن قد اعتبرتها من وسائل إحياء قوى الفطرة الأصلية ، — وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلاً ، ولو أن رجالاً تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم إلى المحاكمة ، مع أنهم لم يفعلوا إلا ما يفعله الملاكمون من شباننا في ملاعبهم الرياضية (محال الجنباز) وإني أرى — مالم أكن واهماً — أنه كلما ترقى مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجاتنا ، صار من الضروري تكلف استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا . وإلا أصبح الإنسان عما قليل بسبب إحلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيهاً (بباشا)[1] غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة ، فلا بد لمنع تطرق الفساد إلى النسل من انهماك الناشئين في كل أنواع اللعب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ الجسم . ولولا هذه الألعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سبباً في انحطاط الدولاب[2] الإنساني من عرش سيادته .

العلم أيضاً يفرغ جهده وينفذ مهارته وحذقه في تكميل نقص أعضائنا بما يوجده لها من طرق المساعدة في أداء أعمالها ، وإني لكثير الإعجاب كجميع الناس باستكشاف المرقب (التلسكوب) لأنه جم الفوائد ، ولكن المتوحش الأمريكي

(١) ليتأمل القارى، اعتقاد علماء الإفرنج فى أعاظم رجال الشرق (الباشوات) وليحكم فيه بانصاف

(٢) المراد بالدولاب الانسانى جسم الانسان بما فيه من الأعضاء والقوى فانه شبيه بالدولاب — (المترجم) .

ذا الجلدِ الأحمرِ لا يحتاجُ في استكشافِ نقطةٍ فوقَ الأفقِ إلى شيءٍ يطيلُ به بصره سوى ما استقرَّ فيه من اعتيادِه إرسالَ أشعةِ بصرِه المجرَّدِ لتنفذَ في المسافاتِ السحيقةِ وتأتيَ إليه بصورِ ما فيها من الأشياء . إنَّ في إعانةِ المشاعرِ بالآلاتِ على القيامِ بأعمالها رفعَ جزءٍ من ثقةِ الإنسانِ بفطرتِه التي قضت بأن يفوقَ الوحشيُّ المدنيَّ ولو من بعضِ الوجوه . ولستُ أريدُ بهذا — كما لا يخفى عليك — وجوبَ الاستغناءِ مطلقًا عن مستكشفاتِ العلمِ والصناعة ، وإنما أريدُ به أن لا تتخذَ مزايا المدنيةِ ذريعةً إلى إنشاءِ الطفلِ المدنيِّ مترفًا جبانًا قصيرَ النظر ، فإنه لو اعتادَ الاعتمادَ في كلِّ شؤونه على ترقِّي وسائلِنا الصناعيةِ ولم يجعل لنفسِه وقوةِ أعضائِه نصيبًا من الاعتمادِ عليهما لصارَ إلى ذلك .

قد يسألُ سائلٌ : هل من وسيلةٍ لاسترجاعِ بعضِ الخواصِّ الأصليةِ التي أضاعها منا الانغماسُ في ترفِ المدنيةِ ؟ فأجيبُه : ربما وُجِدَ لذلك سبيلٌ فإني كثيرًا ما فكرتُ فيما للأصنافِ الإنسانيةِ — التي نعتبرها أحطَّ من صنفِنا لوقوفها عندَ أخلاقِ الطفوليةِ — من الشأنِ الإجتماعيِّ ، وسألتُ نفسي غيرَ مرةٍ عمَّا إذا لم تكن هذه الأصنافُ معدةً لسدِّ خللٍ فينا وهو الفضاءُ الذي يحولُ بيننا وبين حالتنا الفطرية .

الصنفُ الأسودُ في كثيرٍ من ولاياتِ أمريكةَ الجنوبيةِ هو الذي يعهدُ إليه خاصةً بتربيةِ مولودي الصنفِ الأبيض ، فنساؤه مراضعُ بارعاتٌ لهؤلاءِ المولودين ، والرجالُ يمرنونهم على إجادةِ النظرِ والسمعِ ولذلك كانت تربيةُ الأحداثِ الأمريكيين

أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا فإن المربين ، هناك يجتهدون فى أن يعطوا الأطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا ، على أن التعبير بالإعطاء هنا خطأ لأن التربية لا تعطى شيئا للطفل وإنما تنمى ما هو موجود فيه ، فكم من قوة جسدية لا يشك فى وجودها فيه تبقى كامنة لمجرد إغفال استعمالها .

نعم إن مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار فى السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ، ولكن أنديتنا وزخرفنا لا تلائم حالة الطفل الملاءمة المطلوبة ، فإنه يولد محبا للاستطلاع مقلدا لما يراه ، ففى إيجاده فى مثل هذه الأندية جذب له إلى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه ، وقلما يكتسب من يتربى من الأطفال فى هذه البيئة الصناعية الذوق الفطرى فيما بعد ، فأنا أفضل كثيرا أن يتربى « إميل » فى الريف حيث يوجد كل شىء على حقيقته ويصل إلى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعاتنا شيئا من صورته .

جميع المشتغلين بعلم منافع الأعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الأهمية ، بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها فى الصغر ، ولكنى لا أخفى عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تثق بها كثيرا فإن كل ما يذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه ، فالواجب — على ما أرى — أن يعتمد فى تنبيه مشاعر هذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية ، والأم هى التى من أعمالها اختيار الانفعالات التى تنشأ من الأصوات والأشكال والألوان والروائح والطعوم ، وتنويع

هٰذِهِ الانْفِعَالَاتِ وَتَدْرِيجُهَا ، فَعَلَيْهَا أَنْ تَجْرِيَ فِي ذَلِكَ حَسَبَ مُقْتَضَيَاتِ الأَحْوَالِ ، وَالعَالَمُ الخَارِجِيُّ لَا يَقْتَضِي سِوَى الوُلُوجِ إِلَى نَفْسِ الطِّفْلِ مِنْ طَرِيقِ مَشَاعِرِهِ فَيَكْفِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَبْقَى هٰذَا الطَّرِيقُ مَفْتُوحًا مَعَ تَنْبِيهِ الطِّفْلِ عِنْدَ مَسِيسِ الحَاجَةِ إِلَى مَا يَسْتَحِقُّ التَّنْبِيهَ .

إِنَّ بَيْنَ القُوَى الجَسَدِيَّةِ وَالقُوَى النَّفْسِيَّةِ — وَإِنْ كَانَتْ مُتَمَايِزَةً مُنْفَصِلًا بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ — رَابِطَةً تَرْبِطُهَا ، فَإِنَّ صِحَّةَ أَنْوَاعِ التَّصَوُّرَاتِ لَيْسَتْ بِمَعْزِلٍ عَنْ صِحَّةِ التَّصْدِيقَاتِ ، وَإِنَّ الذِّهْنَ بِمَا يَتَمَثَّلُ فِيهِ عَلَى التَّعَاقُبِ مِنْ صُوَرِ المُدْرَكَاتِ يُهَيِّئُ مَوَادَّ الفِكْرِ ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَةُ المَشَاعِرِ ابْتِدَاءً مَقْصُودًا بِهَا تَرْبِيَةُ العَقْلِ . اهـ

الرسالة الرابعة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١٣ أغسطس سنة — ١٨٥)

شُعُورُ الطِّفْلِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ بِأَنَّهُ أَرْقَى مِنَ الحَيَوَانِ الأَعْجَمِ وَاسْتِخْفَافُهُ بِالعَالَمِ لِانْتِسَابِهِ إِلَى الإِنْسَانِ — بَيَانُ أَنَّ لَهُ نَفْسًا — تَوْصِيَةُ زَوْجَتِهِ بِمُرَاقَبَةِ « إِمِيلَ » لِتَعَرُّفِ طِبَاعِهِ وَذِكْرُ إِهْمَالِ المُرَبِّينَ فِي ذَلِكَ

الطِّفْلُ يَتَلَقَّى عُلُومَهُ الأُولَى مِنَ العَالَمِ الخَارِجِيِّ ، وَلٰكِنَّهُ هَيْهَاتَ أَنْ يَرْضَى بِمُجَرَّدِ الانْفِعَالِ بِالمُؤَثِّرَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ كَغَيْرِهِ مِنَ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَخْضَعُ لِمَا يُقَرِّرُ لَهَا مِنْ أَحْوَالِ المَعِيشَةِ سَاكِتَةً عَلَيْهِ ، غَيْرَ مُفَرِّقَةٍ بَيْنَ ضَارِّهِ وَنَافِعِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ ظُلْمَةِ الرَّحِمِ إِلَّا وَيَكُونُ قَدْ أَثْبَتَ حُرِّيَّتَهُ بِصُرَاخِهِ الَّذِي يُعَارِضُ بِهِ

مُلِمَّاتِ الأَلَمِ وفَوَاعِلَ الخَلِيقَةِ ، فترينه يبكى ويتبرم ممن حوله من الناس والأشياء ويوجد عليهم إن لم يجروا على مقتضى رغائبه وهو على عزلة (خلوه من السلاح) وعجزه يلج فى الشكوى من سلطان القدر ويتذمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادته تنفتح عيناه وأذناه تدريجًا فى مشهد الكون . ولم يكن فى حسبان أحد أن هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوى الفواعل الكونية . بلى ! هو لا يحسب لها حسابًا فلا يلبث أن يتأمل فى هذا الدولاب الأرضى العظيم (١) ويرجع فيه بصره الرائق وهو هادئ البال آمن ، مع أن أقل أداة فيه ربما كانت كافية لسحقه ومحقه . وهو وإن ولد أسير الفطرة لا يلبث أن يكون حاكمها المستبد فيطلب إلى أمه بلغته المبهمة الخفية الدلالة أن تجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو . بل ربما استسهل أن يسألها إنزال القمر والكواكب من السماء تحصيلًا للذته . ولما لم تكن الأم فى نظره على كل حال إلا مثالًا حيًا للنوع الإنسانى ، كان شعوره بالقوة إنما يستمد من انتسابه لهذا النوع فتنسبق إلى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذى لتلك الذات المختارة على العالم . فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية — التى لا يدركها إلا حدسًا (٢) غريبًا — أدنى تأثير فى نفسه لعظم تسلط المادة .

---

(١) يريد بالدولاب الأرضى العظيم الأرض بجميع ما عليها وما فيها من الكائنات تشبيها لها بالدولاب فى حركته وسرعة دورانه . (المترجم)

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

ليس الطفل كما يقال لوحا مصقولا مجردا من الإدراك ؛ بل له نفس تشعر بالوجود ولا تلبث أن تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة فى المعيشة والإحساس، وبما يصدر عنها من الانفعالات اختيارا وبما لها من الغرائز خلقة . وكما أن مشاعره قد جعلت بينه وبين ما حوله من الأشياء اتصالا ، كذلك ضروب ميله ورغائبه تتدرج فى تعريفه من يعيش بينهم من الناس وتقريبه منهم . نعم إن معظم انفعالاته النفسية تأتيه فى أول الأمر من الخارج فيكون حبه لغيره وضحكه وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير إياه ورؤيته يضحك وسماعه يتكلم . لكنه عما قليل يبدى ما يستقر فى نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح وجملة القول أن طبعه يستبين وسأتكلم عن هذا الموضوع فى بحث آخر .

أنا لا أعتقد مطلقا أنى قد أجبت فى رسالتى هذه عن أسئلتك التى سألتنيها فى التربية، فإن توفية الإجابة حقها تستلزم زمنا، وأنا قد عدوت(١) فيها عدوا أسرع ما يكون ، فوصيتى إليك أن تفرضى على نفسك أنت أيضا مراقبة « إميل » فإن أبعد الأشياء عن نظر القائمين بأمر التربية إلى الآن وأكثرها إغفالا هو اختبار الطفل ومعرفته .

كلما فكرت فيك وفى « إميل » كان مثلى كمثل الخنفساء الطيارة يمسكها التلميذ ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير فى الشمس ناسية رباطها وتسبح فى الهواء وتطن ، فلم يكن إلا أن يجذب التلميذ الخيط حتى تسقط على الأرض ،

(١) عدوت : جريت .

فَها هُوَ ذا السَّجّانُ يَدْعُونِي لِأَنَّ هـذا الوَقْتَ هُوَ وَقْتُ التَّنَزُّهِ عَلَى أَسْوارِ السِّجْنِ ، فَأُوَدِّعُكَ وَأَرْجُو أَنْ يَبْقَى الحُبُّ بَيْنَنا وَثِيقَ العُرَى . اهـ

الرسالة الخامسة

(مِنْ هيلانَةَ إلى إرَاسْمَ فى ٣ أكتوبر سنة — ١٨٥)

حُسْنُ رَأْيِهَا فِي وَلَدِهَا . قَوْلُ الدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونَ فِي سِيَاسَةِ الأَطْفَالِ وَصْفُ الإِقْلِيمِ وَالأَشْجَارِ

«إميل» أَجْمَلُ غُلامٍ فِي الدُّنْيَا . أَقُولُ هَذَا القَوْلَ وَأَنَا عَالِمَةٌ حَقَّ العِلْمِ أَنَّ جَمِيعَ الأُمَّهَاتِ يَدَّعِينَ ذَلِكَ مِثْلِي لِأَوَّلِ مَوْلُودٍ يُرْزَقْنَهُ ، وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّنَا نَرَى أَيْضًا بِقُلُوبِنَا أَكْثَرَ مِمَّا نَرَى بِأَبْصَارِنَا .

المَرْأَةُ تَتَعَلَّمُ الحُبَّ وَتَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَكُونُ أُمًّا . فَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَبْدُو لِي شَوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَبْعَثُهُ فِي نَفْسِي هَذَا الغُلامُ المَحْبُوبُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالحُنُوِّ المُتَزَايِدَيْنِ ، لَكِنْ لَا يَدْعُونَّكَ هَذَا الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَخَافَ عَلَيَّ الاسْتِعْبَادَ لِوِجْدَانِي وَالعَجْزَ عَنِ القِيَامِ بِمَا فَرَضْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْ تَرْبِيَتِهِ ، فَإِنِّي اتِّبَاعًا لِنَصَائِحِكَ وَنَصَائِحِ صَدِيقِكَ أُقَدِّمُ مَصَالِحَهُ الحَقِيقِيَّةَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مَيْلِي وَذَوْقِي ، وَقَدْ أَقَامَ لِي الدُّكْتُورُ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ دَلِيلًا مُسْتَوْفِيَ الشَّرَائِطِ ، فَقَالَ بِمَا تَعَهَّدَهُ فِيهِ مِنْ أَدَبِ المَنْطِقِ وَحُسْنِ اللَّهْجَةِ :

« خَلَقَ اللهُ لِسَائِرِ الحَيَوَانَاتِ أَعْضَاءً تَقُومُ لَهَا مَقَامَ الأَسْلِحَةِ فِي الذَّوْدِ عَنْ أَنْفُسِهَا . وَأَمَّا الطِّفْلُ فَلا سِلاحَ لَهُ إِلَّا ضَعْفُهُ وَصُرَاخُهُ ، وَلَكِنْ مَا أَشَدَّ مُقَاوَمَتَهُ لَنَا

بهما وما أكثر ما يستفيد منهما ! فهو وإن كانت أنواع الإحساس فيه لا تزال مبهمة قد طبعت فيه غريزة حب العدل من نشأته فلا يلبث أن يميز بها ما يصدر عنا من الأفعال فى حقه صوابه من خطائه ، فاعلمى — وثقى مما أقوله لك — أن الواجب فى سياسة الأطفال خاصة هو أن نكون نحن المحقين لا هم لأنه لو انعكس الأمر بجعل الحق والسلطان لهواهم واستبدادهم لخسرنا كل شىء . ذلك أن الطفل يبكى أحيانا لتحصيل ما عوده أهله اشتهاءه ابتداء موافقة لهواهم . فإذا هم لم يبادروا إلى إرضاء شهوته إما إغفالا منهم لها أو غضبا عليه فإنه يستمر فى بكائه ساعات كاملة بل قد يبكى حتى يشارف (١) الموت ، فإذا انتهى الأمر بالإذعان إلى رغبته كان ذلك أيضا شرا من مخالفته لأنه يتبين منه أن والديه خلو مما يدرعانه (٢) لمقاومة شديد أهوائه . فلا ينبغى أن يعارض الطفل فى شىء مما يشتهيه إلا إذا كان فى المعارضة خير له ، وإذ ذاك يجب أن تكون عزيمتنا كالقانون ثباتا وصرامة» .

هذا ما قاله لى وإنى لإخاله عقودا من الذهب يلفظها من فيه ، فقد اتفق لى — ولا أخفى عنك — أنى كنت أنسى أحيانا الأخذ بنصائحه فى سياستى «لإميل» وفى هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان .

قرأت الفصل الأول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه فى التربية وأنا فى انتظار قراءة باقيه لأكاشفك برأيى فيه ، فاعتقد تمام الاعتقاد أن تربية

---

(١) يشارف : يقارب . (٢) ادرع : لبس الدرع وهو من آلات الدفاع والمراد به هنا اتخاذ الوسائل للقاومة .

« إميل » ستكونُ على وفقِ آرائِك ورغائبِك ، ولكنْ لا يعزُبْ عن فكرِك أنَّ خطَّ المعانِي على الورقِ أسهلُ من نقشِها في صُحُفِ الحياةِ ومجارِي الواقِع .

أنشأَ ورقُ الشَّجرِ هُنا يحُتُّ (١) ويسقُطُ ، لكنَّ فصلَ الخريفِ في هذا البلدِ جميلٌ وإنْ كانَ غزيرَ الأمطارِ ، فهو كوداعِ العزيزِ : ابتسامٌ في بكاءٍ ، وتأتي فيه أيَّامٌ قد يتوهَّمُ الإنسانُ فيها أنَّه لا يزالُ في فصلِ الصيفِ ، وممَّا يزيدُ هذا الوهمَ قوَّةً أنَّ زنجيَّنا البارَّ قد غرسَ في حديقتِنا المربعةِ المقابلةِ لشبَّاكِ غرفةِ نوبي أشجارَ العودِ والصُّبارِ والمانوليةِ (٢) ، وأرادَ بهذه العنايةِ اللَّطيفةِ أنْ يهدي إليَّ شيئًا من جنى أرضِ بلادِه التي يحفظُ لها في فؤادِه أشدَّ ذكرٍ . ويؤكِّدُ النَّاسُ أنَّ بعضَ نباتاتِ المنطقةِ الحارَّةِ يمكنُ إذا حيطتْ ببعضِ ضروبٍ من العنايةِ أنْ تُغرسَ هُنا وتنمو ولا ينالَها من فصلِ الشِّتاءِ أدنى أذًى ، فقد قالَ لي بستانيُّ السَّيِّدةِ وارنجتونَ ما نصُّه : «ليسَ السَّببُ في هلاكِ هذه النَّباتاتِ في غيرِ إقليمِها هو فقدانُها ما كانتْ فيه من الحرارةِ ، بلْ هو ما تلاقيه من الجليدِ في الأقاليمِ الأُخرى ، فهي حينئذٍ تنجحُ في كورنواي لأنَّ إقليمَها معتدلٌ إذْ ليسَ فيه إفراطٌ في الحرارةِ ولا في البرودةِ» .

كمْ من امرأةٍ تعيشُ معيشةَ هذه النَّباتاتِ مطوَّحًا (٣) بها عن مطلعِ شمسِ محبَّتِها فلا تموتُ لتستريحَ من عناءِ هذه المعيشةِ . اهـ

---

(١) يحت : يتناثر .

(٢) الصبار : هو شجر التين الهندى الحامض الذى يتداوى به ؛ والمانولية : نبات أمريكى بهى الأزهار .

(٣) المطوح : الذى طوح به فى الأرض أى ذهب به .

الرسالة السادسة

(من هيلانة إلى إراسم فى أول يناير سنة — ١٨٥)

تلقيح « إميل » بمادة الجدرى وبيان وهم الطبقة السفلى من أهل كورنواى فى التلقيح بهذه المادة — ذكر ما بلغته من تعرف أحوال « إميل »

قد حيرنى سكوتك وانقطاع رسائلك عنى، فقد مضى زمن طويل جداً لم أحظ فيه بشىء من أخبارك، فلعل السر فى ذلك أن دخول المكتوبات فى السجن أيسر من خروجها منه وإنى على يقين بأنك لا ذنب لك فى هذا، ولكنى لبعدى عنك ترانى أوجس خيفة من كل شىء.

فشا فى كورنواى منذ بضعة أسابيع مرض معد أودى بكثير من الأنفس، ويقال إنه وفد علينا من جنوب إنجلترة، ترى هل كان يدور فى خلدك أن مسقط رأس الطبيب جنار [(١)] يصح أن يكون أحد بلاد أوربة التى فيها طبقتا العمال والمزارعين هما أشد الناس مقاومة لنشر الفوائد التى نجمت من استكشاف ذلك الطبيب؟ فكثير من البيوت (العائلات) يرفضون تقديم أولادهم للتلقيح إما بلادة فهم أو حذراً أو وسوسة، بل منهم من يعتقدون أن فى إبعاد المرض باتخاذ الوسائل الواقية منه معارضة لمشيئة الله (تعالى)، ثم إن مصلحة الطبيبات فى هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطببن فى القرى على شاكلتهن (طريقتهن) تنحصر فى ترويج مثل هذه الأوهام [(٢)]. فإن هؤلاء النساء لما كان معظمهن يجهل طريقة

(١) جنار طبيب انجليزى هو المخترع للتلقيح بالمادة الجدرية فى أوربة حوالى سنة ١٧٧٦ م.
(٢) هذا الأمر منشاه الجهل ويشبه أن يكون عاما فى الطبقة الدنيا من كل أمة — المترجم.

التَّلقيح وكان شأنهن القيام على من يصابون بالمرض فلا يستغرب بعد هذا ازدياد عدد وفياته . لم يكتف الدكتور بتلقيح « إميل » بل أراد أن يجدد تلقيحى للتوقى من الخطر المحدق بنا .

إنى — ولا أخفى عنك — عند ما أفكر فى الجدرى آنس من نفسى رعبا واشمئزازا لا يحيط بهما الوصف ، وخصوصا إذا تمثل فى خاطرى أنه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع إلا قليل من رجال القرن الماضى ونسائه ، وإن الإنسان ليقضى يومه تألما وكدرا إذا خطر فى ذهنه أن كثيرا من أخدان الملوك كالآنسة لافاليير (١) والسيدة دوبارى (٢) وغيرهما من ربات الحسن اللاتى طار صيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جميعا مجدورات بدرجات متفاوتة فى القلة والكثرة (٣) ، وأما أنا

---

(١) الآنسة لافاليير واسمها فرنسيسة دوق؛ دولابوم لوبلان هى ابنة حاكم قلعة أمبواز ولدت على مقربة من توربفرنسة سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وأدخلت بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسة لتكون من قرينات العروس ليلة الدخول بها فعشقها الملك وعشقته ثم رزقت منه بولدين ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة فى دير تسمت فيه لويز الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى اعترافات مدام لا فاليير .

(٢) مدام دوبارى اسمها مريم حنا أميرة (كونتيسة) ماردوفوبرنيه ولدت فى فوكولور سنة ١٧٢٦ وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتبا فى مصلحة العوائد وكانت هى من العملة فى باريس ثم ادخلت حاشية غليوم دوبارى بواسطة أخيه حنا دوبارى وخادم فراشه ثم تزوجها غليوم ثم صارت حظية للويس الخامس عشر ثم نفاها لويس السادس عشر ثم حكم باعدامها لاتهامها بتأليب الناس على الجمهورية ونفذ فيها الحكم فى ديسمبر سنة ١٧٩٣ م .

(٣) الخدن : المعشوقة ، وكان حقها مهما برعت فى الحسن ومهما بلغت مكانة عاشقها من السمو أن تكون محلا للزراية والاحتقار لا أن تقضى المرأة المحترمة يومها فى كدر اذا فكرت فى أنها أصيبت بالجدرى ولكنها الخرافة تزين القبيح وتحسن المرذول — (المترجم) .

فإنى أشكر لعلم الطب نعمته على الإنسان وهى تحريره وجهه وإعفاؤه مما كان يؤديه من الحزنية لذلك الداء المروع فى أغلب إغاراته ، فقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أملها فى أن تحب قد انقطع بما كان ينمحى بسببه من محاسنها ، وإنى ـ ولست الآن فتاة ـ أقول : لو جعلت لى الدنيا بما فيها على أن أخسر مالى من بقية الجمال القليلة ما رضيتها منها بدلا ، فإنى إخال أننى لو فقدت تلك البقية لأنكرتنى وانقطعت عنك معرفتى (١) .

إنك بما كلفتنى من مراقبة أحوال الطفولية واستعراف شئونها فى شخص «إميل» كأنك قد بعثتنى لاستكشاف بلد مجهول ، فإنه من المحقق الذى لا ريب فيه وجود عالم للأطفال على حدته ، لأن جميع من رأيتهم منهم لا يكادون يختلفون فى شىء من طرق إحساسهم وإبداء انفعالاتهم ، ولكن من الصعب جدا الرجوع إلى دخول هذا العالم بعد الخروج منه . فإذا رجعنا إلى ما نذكره من ماضينا إبتغاء معرفة شىء من أموره تبينا أنه الجنة الأرضية التى لم يخرجنا منها إلا مجرد نمونا وكبرنا . وأنه يكون من العبث البحث عن موقعها فى خارطة ذاكرتنا ، وربما ملت إلى الاعتقاد بأن الطفل ساكن تلك الجنة التى هى مطلع فجر حياته ودار هدوه وسكونه يعرف من أمرها أكثر مما نعرف ، ولكن إذا كان الله (سبحانه) قد استودعه سرها فهذا السر هو فى غاية الحفظ لا يطلع عليه أحد ،

(١) ليس الجمال وحده هو الذى يحبب المرأة الى زوجها فقد يكون فيها من المحاسن الخلقية والسجايا النفسية ما يكون أبلغ تأثيرا فى قلب الرجل من الجمال الحسى المجرد ـ (المترجم) .

إذ كيف يصح تخمين ما يقع في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها؟ — اللهم إلا بلهجة مبهمة وأصوات غير معروفة المخارج . وقد تبينت بما ألاحظه في الأطفال كل يوم أن لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ، ولكن ما أبهمها وأعسر فهمها حتى على الأمهات أنفسهن ! وإني إخالني أفهم بعض رغبات « إميل » وأدرك أفراحه وأتراحه وهذا لا يكفي في معرفته .

منتهى ما يمكنني أن أقول فيما وصلت إليه من استعراف أحواله : هو أني لاحظت فيه حصول استحالات كبرى ، فإنه في مدة الشهرين الأولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (إن صح تسمية هذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي ، وأما الآن فهو يميز بعض ما يحيط به من الأشياء تمييزاً فيه نوع من الوضوح ، وفوق ذلك فهو يتبسم لي .

يومنا هذا هو عيد أول السنة الجديدة ، ولكن ما أشد حزني فيه وأعظم كدري ! . وأنت تعلم أن من عادة الناس في مثل هذا اليوم أن يرجوا لمن يحبونهم من الخير ما يشاءون ، وأنا أرجو لك شيئاً واحداً وهو أن تعود إليك نعمة الحرية .

حاشية — هديتي إليك في هذا العيد هي خصلة من شعر أميل أرسلها في طي هذه الرسالة . ١٠ هـ

———

الرسالة السابعة

(من هيلانة الى إراسم فى ٣ أبريل سنة — ١٨٥)

بيانُ أنّ سببَ فتورِ مشاعرِ الطفلِ عدمُ التفاته إلى المحسوسات لا ضعفُ المشاعرِ نفسِها ووجوبُ تنبيهه إليها — تدريبُ الطفلِ على المحافظةِ على نفسِه بنفسِه

قد جاءنى السيدُ ... ... بشىءٍ من أخبارِك بعدَ طولِ تطلُّعى إليها فاطمأنَّ قلبى قليلًا بما قالَهُ لى عنكَ وزالَ بعضُ ما كنتُ أجدُهُ من الجزعِ عليكَ .

لا يخطُرَنَّ ببالكَ أنّى نسيتُ ما تلقّيتُه من نصائحِكَ وتعليمِكَ فى تربيةِ « إميل » فإنّى باذلةٌ قصارى جهدى فى تعريفِه بما حولَه من الأشياءِ ، وفى هذا المقامِ أقولُ : إنّى أحسبُنى قد تبيّنتُ أنّ فتورَ مشاعرِ الطفلِ ينشأُ من عدمِ التفاتِه إلى المحسوساتِ أكثرَ من حدوثِه من ضعفِ تلكَ المشاعرِ فإنَّ فى قدرتِه أنْ يُدرِكَ أصواتَ كثيرٍ من الأشياءِ الخارجيةِ وألوانَها تمامَ الإدراكِ لو أرادَ أنْ يكلِّفَ نفسَهُ الإصغاءَ والنظرَ إليها ، ولكنْ لمّا كانتْ هذه الأشياءُ لا تستميلُه كانَ يُغفِلُها إغفالًا تامًّا ، وجملةُ القولِ فى ذلكَ أنّه لا بصرَ له ولا سمعَ إلّا فيما يحبُّ إبصارَه وسماعَه ، وإذا كانَ هذا شأنَه فكيفَ السبيلُ إلى معرفةِ ما يروقُه(١) من الأشياءِ وما لا يروقُه ؟ أعترفُ — وأنا صاغرةٌ — بأنّى كثيرًا ما أخطأتُ فى استعراضِ تلكَ الأشياءِ ، فليسَ كلُّ ما أتخيّرُه منها لتنشيطِ حاسّةِ اللمسِ فى « إميل » يجبُ أنْ يجيلَ

(١) يروقه : يعجبه .

فيه يديه الصغيرتين ، ثم إن أبهى الألوان وأجملها فى نظرى تمر أمام عينيه مرور الظلال فلا تلفتـه أدنى لفت ، وأنا أظن أننـا معشر الأمهات مدفوعات فى هذا الأمر وفى غيره إلى إحلال أذواقنا محل أذواق الأطفال .

وجورجية — على كونها أقل منى ارتباطا بالعـلم — كثيراً ما تكون أنجح منى فى سياسة « إميل » فإنها تجد بغريزتها ما يعجبه ويسليه وينبه قوة الاستطلاع فيه وربما كانت تستعرف رغائبه فتسعى فى تحصيلها له ، وسبب ذلك أنها — كما تعلم — قد كانت والدة لثلاثة أولاد حرمها منهـم الرق على التعاقب . ولا تدرى أين هم الآن . فلا بدع إذن فى شدة تعلقها « بإميل » ومحبتها له ، وأنا فى وجد (١) عليها من حبها إياه أكثر منى ، وحاشا أن يكون ذلك حسدا فإنه مستحيل ، وإنمـا الذى أحسدها عليه هو قدرتها على أن تكون طفلة مع الطفل وكأن هذا هو الذى تعنيه بكلامك فى استعداد المرأة الزنجية للأمومة .

لا إخالك تصدقنى إن قلت لك إن (أميل) قد صار أصدق التابعين لزوروا ستر (٢) أعنى أنه يعبد الشمس . ومن أجل أن تعتقد ذلك ينبغى أن تراه لتنظر كيف يبسط ذراعيه إلى ضيائهـا فرحا برؤيته .

---

(١) وجد : أى غضب .

(٢) زوروا ستر هو شارع دينى للأمم البكتريانية وهم سكان قسم من آسيه كان يدعى قديما بكتريانية وهو الآن تركستان ، وهذا الرجل هو المؤسس للديانة الفارسية التى تدعو الآخذين بها للاعتقاد بالهين وهما الضيا، والظلام أو منشآهما وهما روحا الخير والشر ، ويسمى الأول أورموزد والثانى أهريمان أو أهرمن وهذا هو أصل مذهب المانوية .

كَانَ الشِّتَاءُ عِنْـدَنَا فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ فَلَمْ يَنْزِلْ فِيـهِ الثَّلْجُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِيهِمَا يَذُوبُ بِمُجَرَّدِ مُلَامَسَتِهِ الْأَرْضَ، وَلَا تَزَالُ الْأَشْجَارُ مُجَرَّدَةً مِنْ أَوْرَاقِهَا، وَالرِّيفُ الْعَـارِي مِنَ الْخُضْرَةِ كَالْبَيْتِ الْخَـالِي مِنَ الْفِـرَاشِ وَالْأَثَاثِ . عَلَى أَنَّ نَفْحَةً مِنَ الْحَيَـاةِ أَنْشَأَتْ تَدِبُّ وَتَسْرِي فِي مَادَّةِ الْكَوْنِ جَمِيعِهِ وَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَمْلَأَ مَا خَلَّفَهُ الْفَصْلُ الْمُنْقَضِي مِنَ الْفَرَاغِ، وَقَدْ أَمْسَتِ الْآصَالُ (١) عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ وَاللُّطْفِ . وَلِذَلِكَ تَرَى (إِمِيـلَ) إِذَا رَأَى الْجَوَّ صَحْوًا أَبْدَى مِنَ الْقَلَقِ مَا يَدُلُّ عَلَى رَغْبَتِهِ فِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَلَمَّـا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي كُورْنُوايَ خُصُوصًا زَمَنَ الرَّبِيعِ لَا ضَرَرَ فِيهَـا عَلَى أَحَدٍ بَلْ هِيَ تُلَائِمُ الْأَطْفَالَ وَالشُّيُوخَ اعْتَادَتْ جُورْجِيَةُ أَنْ تَفْرِشَ سَجَّادَةً عَلَى الْحَشِيشِ الْجَـافِّ وَتُجْلِسَ عَلَيْهَا (إِمِيلَ) لِيَلْعَبَ وَيَمْرَحَ كَمَا يَشَاءُ، وَلَمَّا رَأَيْتُهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْنَـا فِي حِرَاسَتِهِ مُدَّةَ وُجُودِنَا مَعَهُ قَصَدْتُ أَنْ أُعَلِّمَهُ شَيْئًا مِنَ الثِّقَـةِ بِنَفْسِهِ وَالِارْتِكَانِ عَلَيْهَا . فَأَوْعَزْتُ إِلَى جُورْجِيَةَ بِالتَّنَحِّي عَنْهُ وَاخْتَفَيْتُ أَنَا أَيْضًا عَنْ بَصَرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَغِيبَ عَنْ عَيْنِي، فَلَاحَظْتُ أَنَّهُ فِي مَبْدَإِ الْأَمْرِ خَافَ عِنْدَ مَا شَـعَرَ بِوُجُودِهِ وَحِيدًا وَأَبْدَى بَعْضَ الْقَلَقِ، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ تَشَجَّعَ وَقَوِيَ قَلْبُهُ، فَكُنْتُ حِينَئِذٍ أَرَاهُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ وَيَلْتَفِتُ إِلَى كُلِّ مَا يَحْصُلُ حَوْلَهُ، وَيُحَرِّكُ يَدَيْهِ الصَّـغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ يَذُودُ ذُبَابَةً تَطِنُّ فَوْقَ رَأْسِهِ، فَأَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَـذَا الْوَقْتِ أَنْ أَكُفَّ عَنْهُ مُرَاقَبَتِي حِينًا بَعْدَ حِينٍ حَتَّى إِذَا أَحَسَّ بِقِلَّةِ حِمَايَتِي لَهُ تَعَـلَّمَ كَيْفَ يَسْتَغْنِي عَنْ مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ .

---

(١) الآصال جمع أصيل وهو وقت آخر النهار من بعد العصر الى الغروب .

كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي فُرُوضِ الْأُمُومَةِ بَدَا لِي مِنْهَا مَعْنًى قَلَّمَا يُشَابِهُ مَا يَفْهَمُهُ غَيْرِي مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَكْبَرَ (إِمِيلُ) أَنْ أَحْرِمَ نَفْسِي مِنْ لَذَّةِ مُكَاشَفَتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِأَنِّي مُهْتَمَّةٌ بِهِ لِأَنَّ أَكْبَرَ شَيْءٍ يَعُوقُ نُمُوَّ الْمَشَاعِرِ فِي بَعْضِ الْأَطْفَالِ وَيُعَطِّلُ اسْتِقْرَارَ طِبَاعِهِمْ إِنَّمَا هُوَ — فِيمَا أَرَى — طَرِيقَةُ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْبِيَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ بِكَثْرَةِ حِيَاطَتِهِمْ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ غَايَتَهَا مِنَ الظُّهُورِ وَالنَّاشِئَةِ عَنْ فَرْطِ الِاهْتِمَامِ بِهِمْ يُعَوِّدُونَهُمْ أَنْ يَعِيشُوا غَيْرَ مُهْتَمِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ الطِّفْلَ إِذَا كَانَ غَنِيًّا مُتَعَجْرِفًا لَا يَتَكَلَّفُ إِعْمَالَ مَلَكَةِ الِاحْتِفَاظِ بِنَفْسِهِ، بَلْ يَكُونُ شَأْنُهُ كَمُلُوكِ الشَّرْقِ الْحَمْقَى الَّذِينَ يَهُونُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسَمُّوا مُشِيرِي دُوَلِهِمْ «أَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ» طَيِّبَةً بِذَلِكَ نُفُوسُهُمْ، لِأَنَّهُ يَعْتَادُ أَنْ يَسْتَعِينَ فِي إِبْصَارِهِ وَسَمَاعِهِ بِالْمُرَبِّيَاتِ الْقَائِمَاتِ عَلَيْهِ الْمُكَلَّفَاتِ خِدْمَتَهُ وَتَعَرُّفَ حَاجَاتِهِ لِقَضَائِهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ الْمُبَالَغَ فِي حِفْظِهِ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ يَوْمًا مَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحُوطًا بِأَمْتَنِ أَسْبَابِ الْوِقَايَةِ قَدْ خُلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقَلِّ خَطَرٍ يُلِمُّ بِهِ يَكُونُ أَسْوَأَ النَّاسِ حَالًا وَأَكْسَفَهُمْ بَالًا، بَلْ يَكُونُ هُوَ الشَّخْصَ الَّذِي يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَخَافُ مِنْ ظِلِّهِ.

يَدْعُونِي (إِمِيلُ) بِأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ ذَكَّرَنِي بِالْأَمْسِ شَخْصًا مِنَ الْمَذْكُورِينَ فِي أَسَاطِيرِ الْأَقْدَمِينَ، ذَلِكَ أَنَّ الْأَطْفَالَ لَا حِسَابَ لِلْمَسَافَاتِ عِنْدَهُمْ، وَهَذَا الْأَمْرُ فِيهِمْ مَنْشَأٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَغَالِيطِ الْبَصَرِيَّةِ فَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَدِيقَةِ وَكَانَتْ جُورَجِيَّةُ وَاقِفَةً إِزَاءَ شُبَّاكٍ مِنْ شَبَابِيكِ الْمَنْزِلِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى مَكَانِي وَهُوَ عَلَى يَدَيْهَا، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ رَآنِي حَتَّى بَدَتْ عَلَيْهِ عَلَائِمُ الْإِبْتِهَاجِ وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَيْهِ

كَالْجَنَاحَيْنِ ، عَلَى أَنَّ الشُّبَّاكَ الَّذِى كَانَ يُطِلُّ مِنْهُ هُوَ فِى الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيْتِ ، فَلَمَّا لَمْ تَصِلْ إِلَىَّ يَدَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْإِنْدِهَاشُ ، ثُمَّ أَفْضَى بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ غَضِبَ وَاحْمَرَّ وَجْهُـهُ ، وَالَّذِى كَانَ يَبْتَغِيهِ مِنِّى بِحَسَبِ مَا يَحْلُو لِى اعْتِقَادُهُ — هُوَ مَا أُبْدِيهِ لَهُ مِنْ صُنُوفِ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُدَاعَبَةِ ، بَلْ كَانَ يُرِيدُ أَيْضًا الْتِقَامَ ثَدْيِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَضِـعَ مِنْ بِضْعِ سَاعَاتٍ . فَلَمْ يَكُنْ لِهَـذَا الْمَحْبُوبِ الْمِسْكِينِ مَثِيلٌ فِى عَذَابِهِ هَـذَا إِلَّا طَانْتَالَ (١) .

(إِمِيلُ) يَعْرِفُكَ بَلْ يَعْرِفُ صُورَتَكَ الَّتِى أُرِيهِ إِيَّاهَا ذَاكِرَةً لَهُ اسْمَكَ ، وَلَا إِخَالُنِى وَاهِمَةً فِى ذَلِكَ فَإِنَّهُ بِحَمْلَقَتِهِ فِى مِثَالِكَ وَابْتِسَامِهِ لَهُ وَمَدِّهِ يَدَيْهِ نَحْوَهُ يَظْهَرُ عَلَيْـهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ وَالِدَهُ تَخْمِينًا .

---

(١) طانتال فى أساطير الأقدمين هو ملك فريجيـة التى هى قطر من أقطار آسية الصغرى ، وكان قدم للآلهة أشلاء أولاده طعاما فعوقب بالجوع والعطش فى جهنم و يضرب بعـذابه المثل فيقال : فلان يعذب عذاب طانتال . اذا كان على الدوام يعتقد أنه قد صار من رغائبه بمكان اللامس وهو فى الحقيقة عاجز عن ادراكها .

الرسالة الثامنة

(من اراسم إلى هيلانة فى ١٥ يونية سنة ١٨٥ —)

تصويب رأيها فى تعرف أذواق «إميل» وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل على مثالهما فى الطباع والأذواق، وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها ودوائها، ووجوب مقاومة التربية لأهوائه الفاسدة وبيان أن لهذه المقاومة طريقين أحدهما إلهاؤه عنها، والثانى جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها

لا سبب لانقطاع رسائلى عنك إلا ترقبى فرصة تمكننى من إيصالها إليك، وقد تلقيت مكتوباتك الأخيرة فأخذ ما ذكرته فيها عن (إميل) بمجامع لبى وبعث فى دواعى الحنان والرحمة، ولم أكن إلى الآن أعرف شيئا من ذلك فى حياتى التى قضيتها فى الإشتغال بالعلم ومناظرة الحكماء ومقارعة خطوب الدهر، ولا غرو فإنى ولدت مستعدا للأبوة وأود لو أرى ولدى ولو بذلت فى ذلك جميع ما أملكه من الحطام وإنى مخبرك بأمر — وإن كان لا ينبغى مكاشفتك به — وهو أنى كنت عزمت عدة مرات على دعوتك إلى الحضور إلى به على ما بيننا من البحار الزاخرة والمسافات الشاسعة، لعلمى بأن ما فيك من الإقدام ورباطة الجأش تتضاءل دونه العوائق، فلا يثنيك منها شىء عن تلبية دعوتى، وكأنى بك بعد هذا تسألينى عن السبب الذى منعنى من هذه الدعوة ولا يزال يمنعنى منها، فأقول: إننى قلت

فى نفسى قد يكون من الأثرة أن أحمل بسجنى ذاتين هما من أحب الناس إلى وأخفض من حالهما ، ولا حق لى فى أن أستلب من هذا الطفل غرارته (١) وغفلته وبواكير (٢) سروره وابتهاجه، بإلصاقه بى فى محنتى التى خصنى بها القدر، معاذ الله أن يكون ذلك منى، فليشب وليترعرع حرا مغتبطا فى جناح والدته وكنفها .

أراك محقة فى اهتمامك بتعرف أذواق (إميل) ، فإن الوالدين على الجملة ينشئان أولادهما على مثالهما فى الطباع والأذواق ، على أن هذا الأمر هو الذى كان ينبغى اجتنابه، لأن الطفل إذا كان ألعوبة فى أيدى الكبار المنوطين بسياسته، وآلة تنفعل بمشاربهم وأفكارهم، فإنه يعتاد موافقتهم فى جميع الأمور، وهذا هو السبب فى ندرة الرجال المستقلين استقلالا صحيحا فى هذه الأيام . وإننا إذا فتشنا عن العلة فى وشك زوال ما فينا من أنواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة فربما وجدناها فى تربيتنا الأولى فإنها مثار آفاتنا ونقائصنا النفسية .

ولنبحث ابتداء فى ماهية الطبع فنقول : جرى اصطلاح العلماء بإطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التى لا شك فى أنها ترجع بأصلها إلى الفطرة، ولكنها على الدوام فى تغير وتجدد لأسباب باطنية وظاهرية، فمن الأسباب الباطنية : الإرادة، فإن لها شيئا من التأثير فى أهوائنا وشهواتنا ومحبباتنا، وكأنى بسائل يقول : وهل هذه الإرادة نفسها خلقية أو مكتسبة؟ فأجيبه : إنها تجمع الوصفين على ما أعتقد لأنها تكاد تظهر فى الطفل بمجرد ولادته، وكلما شب وكبر قويت

(١) الغرارة : السذاجة وقلة التجربة . (٢) بواكير جمع باكورة وهى أول ما يبدو من الشىء .

وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها ، وأما الأسباب الظاهرية فيكفي أن نمثل لها بالبيت (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم . فلو أن الفرنسي المسيحي ولد في الصين من أب نشأ على آداب كونفوشيوس[1] وتعاليمه لكان مغايرا لنا في آرائه وسيرته .

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون في الأيام التالية لولادته كأنها محجوبة بإدراك مشاعره وهو في هذا الوقت يشعر بوجود ذاته ، بل هذا الشعور قد يكون أحيانا هو الغالب عليه ولكنه قلما يبدو منه إلا بحركات إرادية ، وأعني بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وأنواع الصراخ التي تصدر عنه ، فإن كل ما من شأنه أن يولد ألما أو يحدث غضبا يكون فيه مدعاة إلى ظهور هذه العلامات الخارجية ، وكثيرا ما تبدو منه حركات نخالها مختلة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر في السبب الذي يحدثها ، ولو دققنا النظر لظهر لنا أنها لا تكون منه إلا طلبا لتحصيل لذة أو تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون ، فالغلام الذي في الثانية أو الثالثة من عمره إذا طلب من مربيته شيئا فمنعته إياه فاستلقى على الأرض وأنشأ يتمرغ وينتف شعره غيظا تكون أفعاله هذه معقولة في حقه لأنه يجد فيها بطريق الالهام شفاء لأعصابه من تهيجها فيتلاشى بها حنقه وتنكسر حدته ، وكذلك الشأن في البكاء وغيره من الوسائل التي يزول بها عن أعضاء الجسم ما تجده من الألم بسبب توتر أعصابها .

(١) كونفوشيوس هو أحد مشهوري فلاسفة الآداب وعلماء الأخلاق في الصين ولد في سنة ٥٥١ وتوفي في سنة ٤٩٩ قبل المسيح .

عَلَى أَنَّ بعضَ هذه الحَرَكاتِ الغريزيةِ يبقى مُلازِمًا لَنا حتى فى زمنِ الرُّجوليةِ، فإنّ كثيرًا مِنَ النّاسِ مَنْ يَضرِبُ بيدِه على جبهتِه إذا بلغه خبرٌ سيّءٌ . ومنهم من يُزغزِغُ أنفَه(١)، ومنهم من إذا جاءتِ الأمورُ على غيرِ مرادِه انبطح(٢) فوقَ فراشِه . ومن هذا تعلمين أنّ أعقلَ الرِّجالِ تصدرُ عنه غالبًا وهو فى شدّةِ انفعالِه حركاتٌ لا تصدرُ إلّا عن مجنونٍ، وأنا لا أُمارِى فى أنّه يفقِدُ ما لَه مِنَ السُّلطانِ على نفسِه فى هذه الحالةِ، ولكنّى أقولُ : إنّ فى هذه الأفعالِ التى تصدرُ عن غيرِ رويّةٍ حكمةً وإنْ كُنّا لا نرى فيها إلّا جنونًا وحمقًا . ذلك أنّ للنفسِ حالاتٍ تقتضى مِنَ الجسمِ أوضاعًا مخصوصةً لعلّةٍ محجوبٍ عنّا علمُها ، فمِنَ الآلامِ النفسيّةِ ما يميلُ بنا إلى الهجوعِ والسُّكونِ، ومنها ما يدفعُنا إلى المشيِ والحركةِ ولا سبيلَ إلى اكتناه علّة هذه البواعثِ الوقتيّةِ التى تدفعُ بعضَ أعضائنا إلى التحرُّكِ عند حدوثِ شيءٍ من ضروبِ الاضطرابِ العقلىّ إلّا الاعترافُ بأنّ الوصولَ إلى معرفةِ هذا السرِّ ممّا ليس فى مقدورِنا وهو سرٌّ آخرُ جديرٌ بالتفتيشِ عن سببِه .

أوّلُ حرّيّةٍ تجبُ علينا للطفلِ هى أنْ يكونَ مختارًا فى حركاتِه ومقتضياتِ غرائزِه، وإنّى ـ وإنْ كنتُ كغيرى مِنَ النّاسِ لا أُحبُّ أنْ أرى ولدًا مسكينًا يحمرُّ وجهُه مِنَ الغضبِ ويبلغُ به الانفعالُ إلى درجةِ الجنونِ ـ أرى أنّ الإغضاءَ عن بوادرِ ذلك الغضبِ أخفُّ ضررًا من قمعِها بالإفراطِ فى التسلّطِ أو القهرِ، فإنّه لا شيءَ أردأُ مغبّةً فى الغيظِ من إكراهِ صاحبِه على كظمِه، ولا أسوأُ فى الطباعِ

(١) زغزغة الأنف : فركه وحكه .

(٢) انبطح : انكب على وجهه .

وَلَا أَخَسَّ فِى الْخَلَائِقِ مِمَّا يُقْمَعُ دَائِمًا وَيُرْغِمُ صَاحِبَهُ عَلَى إِخْفَائِهِ . عَلَى أَنَّ الطِّفْلَ سَيَتَعَلَّمُ فِى مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ كَرَامَتِهِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَيَكُفَّ سَوْرَةَ انْفِعَالَاتِهِ وَأَنَّ الْبُكَاءَ وَحَرَكَاتِ الضَّجَرِ وَخِفَّةَ الْفَرَحِ الْخَارِجَةَ عَنْ حَدِّ الِاعْتِدَالِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِالرِّجَالِ قَطْعًا ، بَلْ يَكُونُ كَالْآلَاتِ الْبُخَارِيَّةِ تُحْرِقُ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ دُخَانِهَا ، وَلَكِنَّا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَ فِى بُلُوغِهِ هَذِهِ الْغَايَةَ رَيْثَمَا يَنْمُو عَقْلُهُ وَتَقْوَى إِرَادَتُهُ .

وَلَسْتُ أَعْنِى بِهَذَا أَنْ يُتْرَكَ الطِّفْلُ وَمَا يَعْتَوِرُهُ مِنَ الِانْفِعَالَاتِ لِعَدَمِ وُجُودِ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُزِيلَهَا ، كَلَّا ! فَإِنَّ الْأَطِبَّاءَ قَدِ اخْتَرَعُوا لِعِلَاجِ الْجُنُونِ طَرِيقَةً سَمَّوْهَا : التَّلْهِيَةَ النَّفْسِيَّةَ ، يُمْكِنُ اتِّخَاذُهَا فِى تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ عَلَى مَا أَرَى . عَلَى أَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ لِلْمَرَاضِعِ مِنْ زَمَنٍ لَا تَارِيخَ لِمَبْدَئِهِ . فَقَلَّمَا تُوجَدُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تُسَكِّنُ غَضَبَ الطِّفْلِ بِصَرْفِ وَجْهِهِ إِلَى مَا يُلْهِيهِ وَيَشْغَلُ فِكْرَهُ . وَيُمْكِنُ تَعْمِيمُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، فَإِنَّ مِنَ الْأَطْفَالِ الْحَدِيثِى السِّنِّ جِدًّا مَنْ يَكُونُ لَهُمْ شَغَفٌ بِالْمُوسِيقَى مِنْ صِغَرِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْهُلُ إِلْهَاؤُهُمْ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ فِى رُؤْيَةِ الْحَيَوَانَاتِ لَذَّةً مَخْصُوصَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ هَذِهِ اللَّذَّةَ فِى رُؤْيَةِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ ، فَيَنْبَغِى النَّظَرُ فِى هَذِهِ الْأَذْوَاقِ الْخُلُقِيَّةِ لِأَنَّ جَمِيعَهَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِى يُمْكِنُ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهَا فِى تَرْبِيَةِ الطَّبْعِ فِيهِمْ .

أَنَا لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ فِى الْإِنْسَانِ خَلَائِقَ شَرًّا مَحْضًا ، وَلَكِنْ يُوجَدُ مِنْ خَلَائِقِهِ مَا إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ وَأُسِىءَ تَصْرِيفُهَا فَإِنَّهَا رُبَّمَا تُؤَدِّى إِلَى عَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ ، فَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ :

هَل يجبُ إعدامُها ؟ أَجبتُه : لَيسَ هذا مِن رأيِي لأَنَّنا مع تسليمِ إمكانِ الوُصُولِ إلى هذهِ الغايةِ نكُونُ قد خالفنا مُقتضَى الفطرةِ مُخالفةً ظاهرةً، وإنَّما الَّذي ينبغِي علينا عملُه هو مُعارضةُ تلكَ الغرائزِ بمشارِبَ وأذواقٍ أُخرَى .

أَجدُ في نفسِي ميلًا إلى اعتقادِ أنَّه لا يُوجدُ طبعٌ مهما كانَ فسادُه إلَّا وقدِ انطوَتْ فيهِ وسيلةٌ لِلخلاصِ مِنهُ، فلَو أنَّ القائمينَ عَلى التربيةِ حذقُوا في التدرُّعِ بِتلكَ الوسائلِ لِمُكافحةِ الطِّباعِ السَّيِّئةِ ومُغالبةِ الأَخلاقِ الرَّديئةِ في الوقتِ المُناسبِ لِذلكَ لحفظُوا على المُجتمعِ الإنسانِيِّ كثيرًا مِن أفرادِهِ الَّذين خسِرهُم خُسرانًا مُؤبَّدًا في السُّجونِ ومعاهِدِ العِقابِ بالأشغالِ الشَّاقَّةِ ، ولَستُ أَضرِبُ لكَ تأييدًا لهذا القولِ إلَّا مثلًا واحِدًا أقتبِسُهُ مِن مُذكَّراتِي الخاصَّةِ : حدَّثني لِصٌّ أنَّه انزبقَ(١) ذاتَ ليلةٍ في ملهًى مُوسيقيٍّ فجلسَ على أحدِ مقاعِدِه لا لِيسمعَ المُغنِّينَ بل لِيرتقِبَ فُرصةً تُمكِّنُه مِن سرقةِ ما عسى أنْ يجِدَه في جيُوبِ مُجاوِرِيه ، فإنَّ هذا الأمرَ كانَ مِهنةً لَهُ ، ولكنَّه كانَ هُوَ المسرُوقَ في تِلكَ اللَّيلةِ لِأنَّه كانَ ذا كلَفٍ بالمُوسيقَى فلم يكُنْ إلَّا أنْ سمِعَ أوَّلَ رنَّةٍ لِلكمنجةِ حتَّى أحسَّ بأنَّ عقلَهُ قد سُلِبَ ، ولمَّا أنشأَ المُغنِّي دُوبريه(٢) يُغنِّي صارَ إلى حالةٍ أسوأَ مِن ذلكَ لِفنائِه عَن نفسِهِ فِيما وجدَهُ مِنَ اللَّذةِ في ذلكَ اللَّحنِ المعروفِ بِلحنِ الشَّيطانِ رُوبِرتَ الَّذي في الفصلِ الخامِسِ مِن تِلكَ القصَّةِ الغِنائيَّةِ، حتَّى إنَّه لَيُخيَّلُ إليهِ أنَّه لا يزالُ يسمعُ رجعَ صداهُ، وجُملةُ القولِ أنَّهُ نسِيَ الإشتِغالَ بِمِهنتِهِ تِلكَ اللَّيلةَ ، فلمَّا كانَ مساءُ اليومِ الثَّاني عادَ إلى ذلكَ

(١) انزبق : دخل خلسة .

(٢) دوبريه هو جيابرت لويس مثن فرنسى شهير ومعلم لفن الغناء أيضا وله فيه تآليف .

الملاهى نفسه عاقداً نيته على أن لا يفتتن ببنت البحر(١) ولكنه فى هذه النية لم يحسب حساب نزيله الذى بين جنبيه، أعنى ميله الفطرى إلى سماع الألحان، فخرج فى هذه الليلة أيضاً ممتلىء الأذنين صفر اليدين، ومن أجل هذه الخيبة أقسم أن لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلاً إنه إن نعل خسر به ميله إلى حرفته، وهو قول دال على قحته واجترائه على القبائح .

الأهواء الفاسدة فى الإنسان هى قوى مستبدة يبعثها نموها الفطرى أو المكتسب على أن تملك قياده فتتغلب على ما فيه من ضروب الوجدان أو الأفكار، فمن البدهى أن هذه الأهواء هى التى يجب أن تقاومها التربية من أول النشأة، وهذه المقاومة يصح أن تكون على طريقتين أولاهما: الرجوع إلى أنواع التلهية التى تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه إلى غيرها كما سبق لى بيانه . وثانيتهما: جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التى تهيج من غرائزه ما يغلب على الظن أن فى تحريكه وبالاً عليه، فإن فى بعض الأشياء شيطاناً رجيماً كما ستعلمين من حادثة جرت فى ايقوسية(٢) أقص عليك خبرها لتفهمى ما أريده بالبواعث الخارجية التى تهيج الغرائز :

وهى أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد حوانيت الطرف(٣) فلما انتقت ما أرادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن — وكان فى نحس طالعه

(١) بنت البحر فى أساطير الأقدمين هى ذات خيالية نصفها الأعلى نصف امرأة والأسفل نصف سمكة كانت تفتن السائحين بلذيذ غنائها فتجذبهم الى شعاب صعبة حيث يهلكون والمراد هنا المغنى ففى الكلام استعارة .

(٢) ايقوسية جزء من الجزائر البريطانية .

(٣) الطرف جمع طرفة وهى الشىء البديع .

كَرُبع ساعة رابليـه[1] — أخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنـك) قيمتها خمسـة جنيهات انجليزية فلما نقدها كاتب الحانوت لم يلبث أن عرف تزييفها، فبهتت المرأة المسكينة وأخرجت له أخرى لكنها لم تكن بأحسن من الأولى، فارتاب الرجل فى أمرها وسلمها إلى الشرطة ، ولم يكد التحقيق يأخذ مجراه حتى ظهر أنها خادمة فى بيت استوجبت احترام أهله إياها بما لها من حسن السيرة والصدق فى الخدمة وأن الأيقوسى الذى كانت فى خدمته كان قبض من أحد معامليه قبل هذه الحادثة ببضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين وأخطأ فى عدم تمزيقهما لتعاسة حظ هذه المحدودة[2] ، وأنها لاعتيادها دخول حجرته فى كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراهما مختلطتين بأوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيراً أول الأمر ، ولكن لما تكرر حضورهما أمام بصرها من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى آخر ومن شهر إلى تاليه — أنشأت تمعن النظر فيهما وكأن هاتين الورقتين اللتين كانت تخالهما — على بلاهما — صحيحتين كانتا ترنوان إليها من طرف خفى وتخدعانها وتناجيانها بنصائح غريبة ، فرفضت بادئ بدء فكرة أخذهما ، وأبعدتها عن نفسها فراسخ لكنها لم يبق فى وسعها أن تكف النظر عنهما متى وجدت فى الغرفة التى هما فيها ، ثم إنها فى ذات يوم لمستهما بيديها وبسطتهما وأخذت تقلبهما ثم ردتهما فوراً إلى

(١) رابليـه هو كاتب قصصى فرنسى مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م اتفق له ان حل فى نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الأكل لم يكن معه ما يدفعه فى حضنه فحرج صدره وكأن الساعة كانت دقت الربع اذ ذاك نضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع .

(٢) المحدودة : الغير الموفقة .

إضبارة(١) الأوراق البالية التي كانتا فيها، كأن فيهما نارا كانت تحرق أصابعها، وما زال بها هذا الإغراء حتى غلبها وأوقعها فيما علمت.

فإذا كان هذا تأثير الأشياء فى الكبار، فما ظنك به فى الصغار؟ نعم إنهم ولله الحمد ليسوا كلهم لصوصا، وفوق ذلك قلما تعرض لأنظارهم أوراق المصارف صحيحة أو مزيفة، ولكن توجد عدة من الخلائق الأخرى التى يهم المربين أن لا يقووها فيهم بنظر ما يوقظها من الأشياء. فإن رذائلنا وفضائلنا ليست مجرد معان ذهنية بل لها بالخارج ارتباط قوى، فهى تطابق فيه أمورا وأحوالا شتى يكون بها تأثرها وعنها انفعالاتها، فالشراهة مثلا تتحرك فى الإنسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها. والغيرة تتيقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام، ورؤية ما يعامل به من صنوف الملاطفة. فأول واجب على المربى هو البحث عن طبع الطفل ومعرفته، والواجب الثانى هو أن يقطع عنه مواد الفتنة أعنى البواعث المادية التى تتخذ مشاعره ذرائع لإغراء طبائعه السيئة وإثارتها، فلكثير من الأطفال الحق فى أن يقولوا للقائمين عليهم: ناشدناكم الله لا تدلونا بغرور(٢).

ثم لا ينبغى أن يعزب عن ذهن المربى هذا الناموس الفطرى وهو أن الطبائع والغرائز كما أنها تقوى وتنمو بالممارسة هى تضمحل وتزول بعدمها، فبه نملك قمع بعض المشارب الشديدة التى تظهر فى الطفل على أذواقه الفطرية الأخرى وتمنعها من بلوغها غايتها. فأكبر عمل للانسان فى إصلاح نفسه منفردا هو مكافحة

(١) اضبارة: أى حزمة.

(٢) دلاه بغرور: أوقعه فيما أراد من تغريره.

مَا يتغلَّبُ عليـهِ مِنْ سيِّئِ الأَخلاقِ وردىءِ الطِّبَاعِ، كَمَا أَنَّ أَجلَّ سَعْيٍ فِى إِصْـلَاحِ شَأْنِهِ مُجْتَمِعًا هُوَ رَدْعُ الْمُعْتَدِينَ وَكَسْرُ نَخْوَةِ الطُّغَاةِ الظَّالِمِينَ (١) .

كَأَنِّى بِقَائِلٍ يَقُولُ : هَلْ يَكْفِى فِى تَرْبِيَـةِ الطِّفْلِ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ جَعْلِهِ بِمَعْزِلٍ عَمَّـا يُثِيرُ فِيهِ غَرَائِزَ الشَّرِّ وَإِيجادِ التَّوَازُنِ وَالتَّسَاوِى بَيْنَ طَبَائِعِهِ ؟ فَأُجِيبُهُ : لَا شَكَّ فِى عَدَمِ كِفَايَةِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ هَذِهِ سَلْبِيَّةٌ وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نُنَبِّـهَ فِى الطِّفْلِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَشِبَّ ضُرُوبَ الْمَحَبَّةِ وَعَوَاطِفَ الْخَيْرِ . وَقَبْلَ الْخَوْضِ فِى هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْجَدِيدَةِ مِنَ الْمَسَائِلِ يَجِبُ عَلَىَّ أَنْ أَبْحَثَ أَوَّلًا فِيمَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الطُّرُقِ عَادَةً فِى تَرْبِيَـةِ طَبْعِ الطِّفْلِ كَحَمْلِهِ عَلَى الِامْتِثَالِ الْمُطْلَقِ وَتَخْوِيفِـهِ بِالْعُقُوبَاتِ ، وَتَرْغِيبِـهِ فِى الْمُكَافَآتِ ، وَكَقُوَّةِ الْقُـدْوَةِ وَالاعْتِقَادِ الدِّينِىِّ وَقَوَاعِدِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، وَأُسَائِلُ نَفْسِى عَمَّا تُسَاوِيهِ هَذِهِ الْحِيَلُ الْمُخْتَلِفَةُ : ا هـ

الرسـالة التاسـعة

(مِنْ اراسْمَ إِلَى هيلانَةَ فِى ٢ يونيه سنة — ١٨٥)

ضَرُورَةُ اسْتِعْمَالِ السُّلْطَةِ فِى سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ وَالتَّعْجِيلِ بِالْكَفِّ عَنْهَا مَتَى تَيَسَّرَ ذَلِكَ ، وَبَيَانُ ضَرَرِ قَهْرِ الطِّفْلِ عَلَى الِامْتِثَالِ

لَا مِرَاءَ فِى وُجُوبِ الِاسْتِعَانَةِ بِضُرُوبِ السُّلْطَةِ الْمُطْلَقَةِ فِى تَرْبِيَـةِ الْأَطْفَالِ إِذَا كَانُوا حَدِيثِى السِّنِّ جِدًّا رِعَايَةً لِمَصْلَحَتِهِمْ ، فَيُؤْمَرُ الطِّفْلُ مِنْهُمْ بِالْإِقْبَالِ فَيُقْبِلُ ،

(١) ما أروع هذا القول الحكيم وأبلغه فى النفوس وقعا وما أجل عوائده وأبهر فوائده لو اتبع ولكن ما أبعد المسافة بين القول والعمل — المترجم .

وَ يفعل كَذا فيفعل ، ويُنهى عن الانطلاق إلى جهة كذا مع قرن هذا النهي بفعل يحول بينه وبين الذهاب إليها فلا يذهب . مثل هذه الأوامر الصريحة التي تصدرها الأم أولادها مع تلطيف شدتها بنغمة الصوت فيها ومباشرة ائتماره بها بنفسها مما لا بد أن يقبل عذرها فيه، لأنها إنما تخاطب بها ذاتا مجردة من العقل ، على أن الأفضل التعجيل بالكف عن الإلزام والقسر متى صار ذلك ميسورا .

قهر الطفل على الامتثال وإلزامه إطاعة الأوامر يستلزم حتما إخماد وجدان التكليف في نفسه ، خصوصا إذا طال أمد ذلك القهر فإنه إذا كان غيره يتكلف الحلول محله في الإرادة والحكم المطلق على الخير والشر والإنصاف والجور لم تبق له حاجة في الرجوع إلى وجدانه واستفتاء قلبه ، وعسى أن لا يكون هذا شأننا مع «إميل» لأن الحلول محله في عمله أعني إلزامه اتباع أوامرنا يميت فيه قوى عزيمته الشخصية ، فمن أجل أن يكون له قيمة حقيقية يجب أن يصير خيرا صالحا باختياره لا رغم أنفه ، وأن تكون أفعاله صادرة عن إرادته ، وأود كثيرا أن يكون من صغره عارفا بخصائصه ونقائصه ليزيد في الأولى ويتجرد من الثانية بتقدمه في سبيل الحياة . فعلينا إذن أن لا نتعامى من أول الأمر عن حقيقة ولايتنا عليه وحدودها ، فإن الطفل لا يصير صالحا بعمل الغير بل يكون كذلك بنفسه ، وكل ولايتنا في تربيته تنحصر في إرشاده إلى استخدام وجدانه ، ويجب علينا أيضا ، في سبيل إرجاعه عما يقع منه من الهفوات في سيرته ، أن نقنعه بمضرة الأشياء القبيحة بما في تلك الأشياء من البراهين الذاتية على ضررها لا بما لنا من الحجج

الْمُتَسَلْسِلَةِ، وَلَوْ أَنِّي أَسْعَدَنِي الْحَظُّ فَتَوَلَّيْتُ تَرْبِيَتَهُ بِنَفْسِي لَمَا طَالَبْتُهُ بِطَاعَتِي فِيمَا آمُرُهُ بِهِ . بَلْ مَتَى تَمَكَّنْتُ مِنْ مُخَاطَبَةِ عَقْلِهِ نَصَحْتُهُ بِأَنْ يَسِيرَ عَلَى مُقْتَضَى الْقَوَانِينِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا شُئُونُ الْكَوْنِ الْمَعْنَوِيَّةُ وَحَوَادِثُهُ الْمَادِيَّةُ .

يَجْرِي مُعْظَمُ الْآبَاءِ مَعَ أَبْنَائِهِمْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَهِيَ : «اعْتَقِدْ صِدْقَ مَا أَقُولُهُ لَكَ وَافْعَلْ مَا آمُرُكَ بِهِ ، وَسَأُثْبِتُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ» وَأَنَا لَا أَسِيرُ عَلَيْهَا الْبَتَّةَ، بَلْ أَجْتَهِدُ فِي إِقْنَاعِ «إِمِيلَ» بِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَنْصَحُ لَهُ بِاتِّبَاعِهِ أَوِ اجْتِنَابِهِ هُوَ حَسَنٌ أَوْ قَبِيحٌ لَا لِأَنِّي أَرَاهُ كَذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مُفِيدًا لِلنَّاسِ أَوْ لَهُ أَوْ مُضِرًّا بِهِمْ ، وَكَأَنِّي بِكِ تَقُولِينَ إِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِلطِّفْلِ الْمُرَبَّى مَزَايَا عَقْلِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِهِ يَقِلُّ وُجُودُهَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْفَالِ فَأَقُولُ : لَا ، بَلْ لَا يَقْتَضِي إِلَّا ذَوْقًا كَبِيرًا وَبَسَاطَةً كَافِيَةً فِيمَنْ يَتَوَلَّوْنَ تَرْبِيَتَهُ وَتَعْلِيمَهُ ، فَلَيْسَ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ذَوْقِ الْأَطْفَالِ السَّلِيمِ هُوَ كَثْرَةَ الْكَلَامِ الَّذِي يُرْمَى بِهِ جِزَافًا ، أَوْ طُولَ الشَّرْحِ فِي الْقَوْلِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُؤَثِّرُ فِيهِمْ هُوَ حُسْنُ النِّيَّاتِ وَنُبْلُ الْمَقَاصِدِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَى بَصِيرَةً مِمَّا نَتَوَهَّمُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ .

الطَّاعَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ حُرِّيَّةٍ وَاخْتِيَارٍ تَرْفَعُ طَبْعَ الطِّفْلِ . وَالْإِذْعَانُ النَّاشِئُ مِنَ الْقَسْرِ يَحُطُّهُ ، فَلِلْأُمِّ وَمُعَلِّمِ الْمَدْرَسَةِ كَلِمَةٌ يَقُولَانِهَا عَنِ الطِّفْلِ الْعَنِيدِ الْعَاصِي لِأَوَامِرِهِمَا وَهِيَ قَوْلُهُمَا «سَأُذَلِّلُهُ» وَالْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ النَّاشِئِينَ عَلَى طَرِيقَتِنَا الْفَرَنْسِيَّةِ فِي التَّرْبِيَةِ مُذَلَّلُونَ دَائِمًا . نَعَمْ قَدْ يُقَالُ إِنَّ فِي اتِّبَاعِهَا مَصْلَحَةً لِلْأَحْدَاثِ وَلِلْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلَكِنَّ سَائِسَ الْخَيْلِ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ لِلْحِصَانِ الَّذِي يُرَوِّضُهُ : لَا تَجْزَعْ فَإِنِّي إِنَّمَا

أفعل هذا بك لمصلحتك» على أن إطلاق الترويض على الحصان أصلح من إطلاقه على الإنسان لأن هذا الحيوان لا يخسر بترويضه باللجام والمهماز إلا حدته الوحشية ، وأما الإنسان فإنك إذا أخذته بالقهر وسسته بالإرغام والقسر ذهبت بحب الكرامة من نفسه، وبخست قيمته فى نظره ، على أن الخوف وازع ضعيف فإنه لا لص ولا فاتك إلا وهو يرجو النجاة من العقوبة على جريمته حال ارتكابها ، ولا طفل يعصى ما يأمره به قيمه ومعلمه أو يعمل الشر إلا وهو يتخيل فى نفسه مهارة فى الخلاص من تبعة ذلك ، فإذا نجح فى هذا ولو مرة واحدة حمله هذا النجاح على الثقة التامة بنفسه فى خداع القائمين بتربيته وتهذيبه ومواربتهم . والطفل الذى يعامل بالقسوة ويؤخذ بالعقوبة يستجم(١) قواه ويستجن(٢) بكبره وعناده على حقارتهما ليقاوم سرا حملتنا عليه بولايتنا المعنوية .

لا شيء أسهل على الوالدين من إلقاء نير استبدادهما على عنق الطفل، كما أنه لا شيء أصعب عليهما بعد ذلك من استرداد ما يفقدانه من ثقته بهما ، ومتى شعر بأنهما يسوسانه بالهوى والاستبداد، لا يخضع لهما إلا بالضغط والإلزام، وفى هذه الحالة ترى عليه أمارات الانقياد والطاعة ، ولكنه يطوى جوانحه على نوع من التذمر والعصيان يستره الرياء، وتترقب إرادته — إذا انقبضت فى ظل السوط — الوقت الملائم لاستعمال الخداع والمكر ، فإن الخداع هو سلاح الضعيف يعده للاحتماء به من شر القوى ، ولكون الطفل عاجزا عن مكافحة أهله تجده يبحث

(١) يستجم : أى يستجمع .

(٢) يستجن بكبره : أى يتخذ كبره جنة يعنى وقاية .

دَائِمًا عَمَّا يُخَلِّصهُ مِنْ وِلَايَتِهِمْ ، وَطَالَمَا عَجِبْتُ مِنْ خُبْثِهِ وَاجْتِرَائِهِ عَلَى الِاخْتِلَاقِ فِى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَطْفَالِ لَا يَبْلُغُونَ السَّابِعَةَ أَوْ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهِمْ حَتَّى يُحَاكُوا فِى الْمَكْرِ أَسْرَى بلوت (١) واسقابينى موليير (٢) بل وفيجارو بومارشيه (٣) .

وَمِنْ عَوَاقِبِ الْقَهْرِ الْوَخِيمَةِ أَنَّهُ يُغِيضُ يَنْبُوعَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ فِى نُفُوسِ الْأَطْفَالِ ، فَمَا أَشْبَهَ الطِّفْلَ الْمَحْرُومَ مِنْ حُرِّيَّتِهِ بِفَصْلِ الرَّبِيعِ الَّذِى لَا تُشْرِقُ فِيهِ الشَّمْسُ ، أَتَحْسَبِينَ أَنَّ هَذِهِ الْعَوَاقِبَ تَنْتَهِى بِانْتِهَاءِ سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ فَلَا يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ فِى مُسْتَقْبَلِ حَيَاةِ الطِّفْلِ؟ كَلَّا ، إِنِّى لَأَعْرِفُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ رُؤْيَةِ الرَّجُلِ مَا كَانَ مِنْ نِعْمَتِهِ أَوْ بُؤْسِهِ فِى طُفُولِيَّتِهِ : تَرَيْنَ الَّذِينَ يُرَبَّوْنَ بِالْقَهْرِ جُبَنَاءَ عَابِسِى الْوُجُوهِ كَاسِفِى الْبَالِ ، وَيَكُونُ لِذَلِكَ ظُلْمَةٌ فِى عُقُولِهِمْ وَعَصَلٌ فِى طِبَاعِهِمْ (أَىْ اعْوِجَاجٌ بِصَلَابَةٍ) .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهُ (سُبْحَانَهُ) أَنْ يُخَلِّصَنَا مِنَ الْمُتَعَالِمِينَ وَالْمُعَلِّمِينَ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ أَخْلَاقَ النَّاشِئِينَ (٤) .

---

(١) بلوت شاعر هزلى لاتينى برع فى أشعاره زمن الحرب البونية الثانية وكتب عشرين رواية كان من الممثلين فى بعضها جماعة من الاسرى جعلهم مظهر الخبث والخداع .

(٢) اسقابينى موليير هم أشخاص من الممثلين فى بعض روايات موليير الكاتب الفرنسى الشهير جعلهم عنوانا للدسائس والخبائث .

(٣) فيجارو بومارشيه أشخاص من الممثلين فى روايات الكاتب الفرنسى الشهير بومارشيه ناطهم تمثيل الدسائس والفتن .

(٤) ما أقسى حكم المؤلف على هذه الفئة من الناس اللهم إلا ان كان الحال فى زمنه يستوجبه بسبب شيوع هذا النوع من التربية القهرية — المترجم .

الرسالة العاشرة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فى ٣ يونيه سنة — ١٨٥)

وُجُوبُ اجْتِنَابِ تَخْوِيفِ الطِّفْلِ بِالْعُقُوبَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ والْخَوْضِ مَعَهُ فِى الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَتَرْكِهَا لَهُ لِيَنْظُرَ فِيهَا مَتَى كَبِرَ بِفِكْرٍ خَالٍ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ

أَظُنُّ أَنَّ مَا يُنْسَبُ الَى الاِعْتِقَادِ الدِّينِيِّ مِنَ التَّأْثِيرِ فِى طِبَاعِ النَّاشِئِينَ وَأَخْلَاقِهِمْ مُبَالَغٌ فِيهِ كَثِيرًا(١) وَعَلَى كُلِّ حَالٍ نَقُولُ : إِنَّ التَّصْدِيقَ بِأَنَّ الْانْسَانَ

(١) معظم ما كتبه المؤلف فى هـذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكتراثه بتكاليفه التى لا يعتبرها الا من الأمور التى جرت بها العادة وكأنه لم يبلغه خبر الأمم التى وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسى وغاية التقدم الحسى ، فأى شىء أخرج الأمة العربية مثلا من ظلمات الجهل الى نور العلم ، ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذى جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدرى كيف أن الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال اذا هو غذى بالأعمال الصالحة وأسس على النظر فى ملكوت السموات والأرض ودعم بالتفكر فى سير النبيين وهدى المرسلين فرسخ وصار فى مأمن من أعاصير الشبه ومن مزعزعات الفتن ؟ لا شك أن القائل بهـذا منكر للبعث وهى ضلالة جره اليها التطرف فى النظر كما جر اليها كثيرا من أمثاله . ولا أراه الا مبالغا فى انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهى ولا نسلم أن هذا التهديد يكون له من الأثر ما يتوقعه ، وكأنه يعتقد أن الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينزه عقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام ، وليس الأمر خاصا به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو خطأ بين يدل عليه العقل والنقل ، وترجيحه تخويف الأطفال بالأغوال المشوهة على تخويفهم بالعقاب الذى أعده الله لمخالفى أوامره للعلة التى ذكرها من خطل الرأى فيما أرى لاطلاقه القول فيه دون تقييده بسن معينة ، لأنه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه إذا خالف أوامره مادام أنه يرغب أيضا بنيل رضاه ورحمته اذا أطاعها ، على أن عبارة المؤلف فى تعليل هـذا الترجيح بينة الفظاعة لا تليق بمقام الربوبية ، ثم أى ذنب للأديان التى لا يؤمن بها أربابها أو يكون إيمانهم بها ناقصا فيدعوه الى تحاميها والحذر منها ووصفها بأنها «أضر الأديان بكرامة الانسان» ألا ترى أن أقوم دين وأصحه فى نظر العقل وأدعاه الى سعادة الآخذين به وفلاحهم قد تحول دون الجرى على صراطه غلبات الهوى وعمايات الضلال فيقع أربابه فى مهاوى الوبال ، فكيف تأتى تبعة ذلك عليه اللهم ان هذا بهتان عظيم فانه لا دين إلا ما أرسلت به رسلك وليس =

يُوَفَّى جَزاءَ أعْمَالِهِ فِي دَارٍ أُخْرَى بَعْدَ هَـذِهِ الدَّارِ يُعَرِّضُ صَاحِبَهُ لِأَنْوَاعٍ مِنْ خَيْبَةِ الآمَالِ، تَكُونُ آلَامُهَا صَعْبَةَ الاحْتِمَالِ، فَإِنَّهُ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِ أَعَاصِيرُ الشُّبَهِ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ فَزَعْزَعَتْ أَرْكَانَ عَقِيدَتِهِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا الْفُرُوضُ وَالْوَاجِبَاتُ لَا تَلْبَثُ دَعَائِمُ تَرْبِيَتِهِ الْأُولَى أَنْ تَنْهَارَ انْهِيَارًا تَامًّا، فَكَيْفَ نَرْجُو إِذَنْ فِي هَـذَا الْعَصْرِ الَّذِي ثَارَتْ فِيهِ الشُّكُوكُ وَأُطْلِقَتْ حُرِّيَّةُ النَّظَرِ أَنْ لَا تُؤَثِّرَ عَوَارِضُ الشُّبَهِ فِي عَقَائِدِ الطِّفْلِ إِذَا كَبِرَ وَهِيَ إِنَّمَا تُفْرَغُ فِي مُخِّهِ حَالَ صِغَرِهِ إِفْرَاغًا وَتُلْصَقُ بِهِ إِلْصَاقًا؟ إِنْ صَحَّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ.

فَالَّذِي أَتَمَنَّاهُ «لِإِمِيلَ» هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِجْدَانٌ مُسْتَقِلٌّ عَنِ الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ يَهْدَأُ لِي بَالٌ وَلَا يَطْمَئِنُّ لِي قَلْبٌ عَلَى سَلَامَةِ شَرَفِهِ وَتَهْذِيبِ نَفْسِهِ إِلَّا بِحُصُولِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ.

كَثِيرًا مَا سَمِعْتُ بَعْضَ الْمَسِيحِيِّينَ إِذَا عَصَى أَوْلَادُهُمْ أَوَامِرَهُمْ يُهَدِّدُونَهُمْ تَهْدِيدًا وَحْشِيًّا وَهُمْ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِمْ بِقَوْلِهِمْ لَهُمْ: سَيُعَاقِبُكُمُ اللهُ وَيُهْلِكُكُمْ. كُنْتُ كُلَّمَا سَمِعْتُ مِنْهُمْ ذَلِكَ تَقَلَّصَ جَمِيعُ دَمِي مِنْ عُرُوقِي إِلَى قَلْبِي غَيْظًا وَغَمًّا. فَلَيْتَ شِعْرِي هَلِ الْإِسْتِعَانَةُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ عَلَى تَنْفِيذِ عُقُوبَاتِنَا السَّافِلَةِ عَلَى الْأَطْفَالِ وَالِاسْتِصْرَاخُ بِالذَّاتِ الْعَلِيَّةِ لِتَشْفِيَ غِلَّنَا بِالِانْتِقَامِ لَنَا مِنْهُمْ وَاقْتِضَاءُ فِعْلِ الشَّرِّ مِنَ

= فيه إلا ما يرفع شأن الانسان ويعليه أن يضع نفسه فى ذروة الكرامة والمجد . ثم إن ما تخوفه على الطفل من انهيار دعائم تربيته الأولى إذا هبت أعاصير الشبه فى مستقبل أيامه على عقائده الدينية ومن تعرضه بذلك لخيبة فى آماله يصعب عليه احتمالها ما تخوفه من ذلك لا مبرر له لأن الطفل إذا كبر فتولته الشكوك والشبه فزاغت عقيدته لا يكون قد خسر شيئا ، فان كل ما تبعث عليه هذه العقيدة من العمل هو خير يقره العقل فلا موجب للندم عليه — المترجم .

الله ليسكن بذلك وجدنا عليهم — هل كل ذلك هو ما يعبر عنه بتأسيس علم الأخلاق على الاعتقاد الديني ؟

أنا لا أجيز في أي حال من الأحوال الاستعانة في تربية الطفل بالمخوفات الإلهية ، بل أفضل تهديده بالأغوال ومشوهي الخلق من الناس على جعل الإله ذاتا مزعجة ، فالتهديد بالأغوال والمشوهين يعتمد فيه على روايات خيالية يزول وهمها في يوم من الأيام بتقدم الطفل في السن وأما التخويف بالله فيخشى منه أن ينتقش مبدأ الحياة العامة في مخيلته من صغره على صورة طاغية أو غول .

كأني بك تقولين : إنك لم تختر من أمثلة التربية الدينية لتوجيه انتقادك إلا أردأها وأحقها بالطعن . فأقول نعم ولكن هذه التربية على كل حال فيها عيب شنيع جدا وهو إلزام الناشئ في سيرته بأعمال لا يدرك عللها ، فلو أني قلت للطفل : يجب عليك أن تكون مؤدبا عاقلا لتكون محبوبا عند الله لكان ذلك مني بلا شك إلغازا وتعمية لأنه لا يعرف ما الله ولا يعرف علامة يميز بها ما يرضيه وما يغضبه ، وأما إن قلت له ، يجب عليك التزام الأدب لتحبك أمك فإنه يفهم هذه العلة أكثر من سابقتها بكثير .

من تكلم في الدين مع طفل حديث السن جدا فإنما يريد منه أن يفسد معنى ما يؤديه إليه من الأفكار الدينية ويقلب المراد منها ، فلو أن الأم أشارت بيدها إلى السماء دلالة لولدها على أنها هي محل الذات الذي يجب أن يتوجه إليه بدعائه لتوهم أن هذه السماء الدنيا المادية هي إلهه .

أنا أعلم أن كثيراً من الآباء لا يهتمون بهذا الأمر كثيراً ولا ينظرون فيه نظراً بليغاً، ولكنهم ممن يشكون في كل شيء تربيتهم يلزمون أولادهم أداء بعض الأعمال الدينية التي لا يؤدونها هم أنفسهم أو إنما يؤدونها أمامهم فقط، فكأنه لا شأن للصواب والخطأ في حق هؤلاء الأطفال ولا نتيجة لهما، وأن أهم شيء في حقهم هو أن تكون باكورة أعمالهم في أول حياتهم اتباع ما جرى عليه الناس من العادات مع إرجاء النظر فيها إلى المستقبل، فمثل هؤلاء الآباء يتسببون في إفساد وجدان أبنائهم وقوتهم الحاكمة بخفتهم وطيشهم أو عدم اكتراثهم بشأنهم، فأنا أتحامى الأديان التي يكون شأن الآخذين بها فيها كشأن من لا يؤمنون بها بالمرة أو من لا يؤمنون بها إلا إيماناً ناقصاً فإنها أضر الأديان بكرامة الإنسان.

فاحتراماً «لاميل» ولطائفة من المعاني التي يجب أن ينظر فيها متى كبر بفكر خال من التأثر بغيرها — أود أن يجتنب في تربيته زمن طفوليته الخوض في المسائل الدينية فإننا مؤتمنون على عقله وعلى حرية ضميره ومسئولون عن ذلك، فإذا نحن عجلنا بحرمانه من حق النظر فقد ثلمنا أمانتنا. اهـ

الرسالة الحادية عشرة

(من إراسم إلى هيلانة في ٣ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان عدم فائدة أصول علم الأخلاق في التربية

معظم من كتبوا في علم التربية يغالون بأصول علم الأخلاق ويرفعون من شأنها، وأنا مثلهم أعتقد أن المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم

فى بعض الأحوال على القيام بصالح الأعمال ، ولكنى لا أعتقد أن ما يلقفه الناشئون منها من أفواه معلميهم فى دروسهم يغير طباعهم تغيرا حقيقيا ، وهيهات أن أعول عليها فى ذلك فإننا نرى كل يوم فى المجتمع الإنسانى أناسا من الظرفاء الأكياس جفاة غلف القلوب ، على أنهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية إلى التحاب والتراحم المرغبة فى لذة الاتصاف بهما ، فما من فاسق أو شرير أو بخيل إلا وقد سمع ألف مرة من ألسنة الوعاظ قولهم « كن حكيما مهذبا تكن عزيزا مغتبطا »(١) لا تفعل بغيرك ما لا ترضى أن يفعله بك(٢) « لا تجعل لحطام الدنيا حظا من قلبك »(٣) إلى غير ذلك من النصائح والحكم .

الإنجيل كله مواعظ رائقة وأمثال شائقة ، فليت شعرى من ذا الذى يراعيها ؟ هل تجدين كثيرا من الأغنياء أنفقوا جميع أموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « إن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت السموات »(٤) ؟

هل تلاقين ولو فى القسيسين أنفسهم عددا كبيرا ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضى أوائل الناس أو الذين يعتبرون

(١) الحكمة واردة فى أمثال سليمان عليه السلام فى التوراة بهذا النص وهو « الرجل الحكيم فى عز » .

(٢) نص الكتاب المقدس فى هذا المعنى هو « كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم » (هكذا) راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١

(٣) نص الكتاب فى هذا المعنى هو « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ » راجع الأعداد ١٦ و ١٩ و ٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى .

(٤) واجع (٢٣ : ١٩) من انجيل متى « وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » .

أَنْفُسَهُمْ كَذَلِكَ أَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَةَ الْأَوَاخِرِ ؟ هَلْ يَسْهُلُ عَلَى الحَاكِمِينَ أَنْ يَنْقَلِبُوا مَحْكُومِينَ ؟ لَا ! بَلْ نَرَى عُلَمَاءَ الدِّينِ يُغَالِطُونَ فِى فَهْمِ نُصُوصِ الْكِتَابِ مُخَادِعِينَ وِجْدَانَهُمْ غَاشِّينَ ضَمَائِرَهُمْ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُؤَوِّلُونَهُ مِنْهَا تَخَلُّصًا مِنْ قَضَائِهَا عَلَيْهِمْ وَفِرَارًا مِنْ عَوَاقِبِ الْأَخْذِ بِصَرِيحِهَا ! .

جَاءَ الْمَسِيحُ يَدْعُو إِلَى السَّلَامِ فِى كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ ، فَهَلْ رَأَيْتَ الْمَمَالِكَ أَصْبَحَتْ أَقَلَّ قِتَالًا ؟ نَدَبَ إِلَى التَّآخِى بِقَوْلِهِ الْجَمِيلِ « كُلُّكُمْ إِخْوَانٌ »(١) فَهَلْ هَدَمَ هَذَا الْقَوْلُ دَعَائِمَ الاسْتِعْبَادِ وَمَحَا مِنَ النُّفُوسِ مَيْلَهَا إِلَى التَّسَلُّطِ ؟ تَوَعَّدَ مَنْ يُصْلِتُ سَيْفَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا بِالْهَلَاكِ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ « مَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ بِهِ قُتِلَ »(٢) فَهَلْ رَدَعَ هَذَا الْوَعِيدُ مَنْ كَانَ بِيَدِهِمِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ عَنِ انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْقَانُونِ بِالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ ؟ قَالَ « مَنْ أَخَذَ قَمِيصَكَ فَأَعْطِهِ رِدَاءَكَ »(٣) فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنَّا مَعْشَرَ الْفَرَنْسِيِّينَ الْمُتَشَدِّدِينَ فِى التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ اتَّبَعَ هَذَا الْأَمْرَ وَجَرَى عَلَى نَصِّهِ حَرْفِيًّا لَسُجِنَ فِى شَارَنْتُونَ(٤) خُصُوصًا إِذَا كَانَ لَهُ مِنْ أَقَارِبِهِ وَارِثُونَ .

لَمْ يَخْتَصَّ الْمَسِيحِيُّونَ بِهَذِهِ الْمَوَاعِظِ الْحَسَنَةِ فَإِنَّ لِلْيَهُودِ أَيْضًا وَالصِّينِيِّينَ وَالْفُرْسِ كُتُبًا فِيهَا حِكَمٌ بَالِغَةٌ ، وَكَلِمٌ نَابِغَةٌ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصِيرُوا بِهَا أَحْسَنَ مِنَّا حَالًا ؟ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ

(١) راجع ٢٣ : ٨ من إنجيل متى « وأما أنتم فلا تدعوا سيدى لأن معلمكم واحد هو المسيح وأنتم جميعا إخوة » . (٢) عبارة متى فى هذا هى (٢٦ : ٥٢) « فقال يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » . (٣) نص متى (٦ : ٤٩) « ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا » . (٤) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسة إحداهما تدعى شارنتون لوبونت وهى أشهر قرية فى اقليم السين بقضاء سو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون دوشير وهى أشهر قرية فى اقليم شير بقضاء سانت ارمند مونت روند و فى الثانية مستشفى للمجاذيب .

يَكْفِي فِي تَحْسِينِ أَحْوَالِ النَّاسِ وَتَهْذِيبِ نُفُوسِهِمْ وُجُودُ كِتَابٍ مُفِيدٍ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ لَكَانَتِ الدُّنْيَا قَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الْكَمَالِ مِنْ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، لِأَنَّهَا وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ لَمْ تَخْلُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ يَوْمًا ، عَلَى أَنَّنَا لَا نَسْمَعُ فِي جَمِيعِ أَرْجَائِهَا إِلَّا أَصْوَاتَ آلَامِ الْمَنْكُوبِينَ وَالْمَكْرُوبِينَ ، وَتَحْرِيقَ الْأُرَّمِ (١) مِنَ الْمَقْهُورِينَ الْمُتَغَيِّظِينَ .

أَرَى أَنَّهُ لَا ارْتِبَاطَ بَيْنَ مَذْهَبِ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عَمَلِهِ غَالِبًا إِلَّا فِي الْخَيَالِ وَالْوَهْمِ ، فَلَوْ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَالشَّرَّ كُلَّهُ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَعْزِلٍ عَنِ الْآخَرِ فِي مَجْرَى الْحَيَاةِ وَسِيَاقِ أَعْمَالِهَا لَسَهُلَ عَلَى النَّاسِ الْحُكْمُ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ آرَائِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَلَا نْقَطَعَ مِنْ بَيْنِهِمْ سَبَبُ الْخِلَافِ بِأَسْرَعِ مَا يَكُونُ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ مِنْهُمْ بِعِلْمِهِ إِلَّا الشُّذَّاذُ ، أُنْظُرِي إِلَى أُصُولِ الْأَخْلَاقِ الْإِنْجِيلِيَّةِ مَثَلًا تَجِدِي أَنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِأُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ هُمْ فِي الْغَالِبِ أَكْثَرُ اتِّبَاعًا لَهَا وَرِعَايَةً مِمَّنِ اتَّخَذُوا الْإِيمَانَ بِتِلْكَ الْأُلُوهِيَّةِ مِهْنَةً لَهُمْ .

أَنَا لَا أَعْنِي بِجَمِيعِ مَا قُلْتُهُ هُنَا أَنَّ عِلْمَ الْأَخْلَاقِ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي التَّرْبِيَةِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي أُرِيدُهُ بِهَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا لِهَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْأُصُولِ فِي الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَا يُنْشِئُ رِجَالًا كَمَلَةً مُهَذَّبِينَ ، وَقَدْ فَهِمَ ذَلِكَ حَقَّ الْفَهْمِ وَاضِعُوا الشَّرَائِعِ فَعَزَّزُوا مَا دُوِّنَ مِنْ تِلْكَ الْأُصُولِ فِي الْكِتَابِ بِأَوْضَاعٍ تَامَّةٍ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .

(١) تحريق الأرم كناية عن شدة الغيظ ، والارم : الأكل وهو من فعل الأسنان ومعنى ذلك أن يسحق بعضها ببعض .

ثُمَّ إنَّ الطِّفْلَ لَا يَسْتَفِيدُ مِمَّا يُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ دُرُوسِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا اذَا كَانَ مِنَ الاسْتِعْدَادِ وَالْكَفَاءَةِ بِحَيْثُ يُقَدِّرُ أَسْبَابَ أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبَهَا ، فَأَنَّى لَهُ إِذَنْ أَنْ يَفْهَمَ هَذَا الْأَصْلَ الْوِجْدَانِيَّ وَقَدْ حَجَبَهُ عَنْهُ إِدْرَاكُ مَشَاعِرِهِ الظَّاهِرَةِ وَاشْتِدَادُ أَهْوَائِهِ وَشِرَّةُ (١) غَرَائِزِهِ ؟ وَأَنَّى لَهُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْأُسَى وَالْأَمْثَالِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَأْخُذَ بِزِمَامِ عَزِيمَتِهِ إِلَى الْخَيْرِ وَيَصْرِفَهُ عَنِ الشَّرِّ ؟ وَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَجْرِي أُمُّهُ دَائِمًا عَلَى مُقْتَضَى مَا تُرْشِدُهُ إِلَيْهِ مِنْ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ وَجَمِيلِ الصِّفَاتِ؟ نَرَى الْوَالِدَ يُلْقِي عَلَى وَلَدِهِ خُطْبَةً طَوِيلَةً فِي وُجُوبِ مُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ ، ثُمَّ هُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَلُومَهُ إِذَا أَعْطَى لِفَقِيرٍ دِرْهَمًا مِنَ الْفِضَّةِ ، فَهُوَ بِذَلِكَ يَبْذُرُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ فِي ذَاكِرَتِهِ أُصُولَ الْإِنْجِيلِ ، وَيَنْقُشُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى عَلَى قَلْبِهِ صُوَرَ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ (٢).

---

(١) شرة غرائزه : حدتها .

(٢) جميع ما قاله المؤلف فى هذه الرسالة من عدم كفاية علم الأخلاق فى التربية وما ضرب به من الأمثال لذلك شبيه بما رآه من عدم تأسيس التربية على العقائد الدينية ومنشأ هــذا كله مذهبه الذى ارتضاه لنفسه وهو حرية النظر التى لا يدين صاحبها بدين ، ومن الخطأ البين الاستدلال على عدم كفاية أصول علم الأخلاق فى التربية بأنه لم يصلح الناس جميعا فان خروج كثير منهم على هذه الأصول وعدم اتباعهم لها لا يعتبر عيبا فيها بل عيبا فى عقولهم ونقصا فى نفوسهم ، وإنما كان عدم صلاحهم من انحرافهم عنها وعدم جريهم على سننها ، ولا يتخلف جميل أثرها فى التربية الا اذا كان المربون غير مرتاضين بهـا فاذا ارتاضت بهـا نفوسهم وظهرت آثارها فى أعمالهم فلا جرم أن يكون لها فى التربية أعظم الفوائد ، وما أظن المؤلف يجرؤ على القول بأن اتباع طريقته فى التربية وهى ترك الطفل وشأنه يتعلم مما يحوطه ينشئ الناس كلهم أخيارا صلحاء ، فالمشهود أن هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل ناقصة بدليـل تباين النـاس فى الآراء والأفكار والمشارب وهداية الله التى أودعها دينه هى جماع الخير وقصد السبيل . — المترجم .

الرسالة الثانية عشرة

(من إراسم الى هيلانة فى ٤ يونيه سنة — ١٨٥)

بيانُ نفعِ القُدوةِ وشرطِه، ومطالعةِ قصصِ الحيوانات فى تربيةِ الأطفالِ ووجوبِ استقلالِ طبعِ الطِّفلِ وتعلُّمِه سيرَ الحيوانات بنفسِه

يعوِّلُ علماءُ الأخلاقِ كثيراً فى تربيةِ الأطفالِ على قوَّةِ القدوةِ وتأثيرِ الأسوةِ، وأنا فى هذا موافقٌ لهم ولكن : أىُّ والدٍ يصحُّ له أن يتبجح بأنه على الدوام قدوةٌ صالحةٌ لولده ؟

نحنُ على الجملةِ نسعى فى غشِّ الأطفالِ وخداعِهم بما نتزيَّنُ به لهم من لباسِ الرياءِ الذى يجعلنا فى أعينِهم أحسنَ ممّا نحنُ عليه فى الحقيقةِ والواقعِ وبما يصدرُ عنّا كثيراً أمامهم من الأقوالِ والآدابِ المغايرةِ كلَّ المغايرةِ لمعتقداتنا وآرائنا الذاتيةِ، وحقيقةُ الأمرِ أننا نقصدُ أن نربِّى طباعَهم على ما نشأنا عليه موافقةً لحسنِ رأينا فى أنفسنا ورغبةً فى تحقيقِ هذا الرأىِ لغيرنا، وأن نكسوهم من الفضائلِ ما نتظاهرُ لهم بأننا متحلّون به، ولكن هيهات أن ينخدعوا بهذه الحيلِ، ومن ظنَّ بهم ذلك فقد أخطأ فى فهم معنى سذاجتهم وصفاءِ قلوبهم خطأً بيِّناً . إنَّ الأطفالَ يعرفون كمالَ المعرفةِ ما يعتمدون عليه فى كشفِ مقاصدِ آبائهم والوقوفِ على شئونهم، وهم يدركون بالحدسِ والتخمينِ ما يجتهدُ هؤلاءِ فى كتمانه عنهم، وإنى لفى شكٍّ من أنَّ هذا الكتمانَ وإن حمدت أسبابُه يزيدُهم فى نفوسِهم إجلالاً وتعظيماً .

عاقب والد ابنًا صغيرًا له لم يتجاوز الخامسة من عمره على أكذوبة قالها ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبرًا له بأن زائرًا ثقيلًا ينتظره في الخارج فقال له ذلك الرجل الوقور «أخبره بأني لست هنا» فياله من درس يستفيد الطفل منه الصدق والإخلاص !.

أنا على يقين من أن «إميل» لن يجد فيك إلا أحسن أسوة وأكمل قدوة، وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئنانًا عليه. ولكن أقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار، وهو أن غرضي من تربيته أن يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال، وأذكر لك هنا واقعة حضرتني الآن تدلك على أني محق في قصدي، وهي أني رأيت ذات يوم طفلًا في السادسة من عمره راجعًا مع والدته من تشييع جنازة، وهو من الأطفال الناجحين المتقدمين جدًا على حسب اعتقاد الناس، وكان يبكي أو يتباكى فارتبت في أمره وظننت أنه مخطىء في معرفة من فجع به لأن المتوفى لم يكن إلا ابن عم بعيد له (على أن الأطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لي أن قال «لا سبب سوى أني رأيت الآن والدتي تمسح عينيها بمنديلها فبكيت» فأضحكني منه هذا التأثر التقليدي وإن كان صادرًا بلا شك عن طبع ساذج وقلب سليم. لا أريد أن يكون «إميل» مثل هذا الغلام في تأثره بل أود أنه متى بلغ السن التي يرق فيها لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئًا عن غم كارث(١) ألم بنفسه وحزن ممض(٢) يضطرم في قلبه.

(١) كارث اسم فاعل من كرثه الغم اذا اشتد عليه و بلغ منه المشقة. (٢) ممض من أمضه اذا أحرقه وآلمه.

هَلْ يَجِبُ أَنْ يلحق مَا يُرَى مِنْ أَعْمَالِ الحيوانات وَسِيَرِهَا فى حياتها بما للقدوة مِنَ التَّأْثِيرِ فِى التَّرْبِيَةِ؟ وَكَيْفَ لَا وَنَحْنُ نَرَى كُتَّابَ الْأَمْثَالِ عِنْدَنَا ـ عَلَى بُعْدِ مُجْتَمَعَاتِنَا مِنْ مَعَاهِدِ الْفِطْرَةِ ـ تَزْدَانُ تَآلِيفُهُمْ وَتَزْدَهِى دُرُوسُهُمْ بِمَا يُودِعُونَهَا مِنْ سِيَرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَخْلَاقِهَا ، وَإِنَّ الطِّفْلَ مِنْ أَوْلَادِنَا لَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ الْمَفْهُومِ وَالْحِفْظِ حَتَّى يُحْمَلَ عَلَى حِفْظِ أُسْطُورَةٍ مِنْ أَسَاطِيرِ لَافُونْتِين[1] كَأُسْطُورَةِ الصَّرْصَرِ وَالنَّمْلَةِ مَثَلًا .

أَنَا لَا أُنْكِرُ أَنَّ فِى حَيَاةِ الْحَيَوَانَاتِ عِبَرًا كَثِيرَةً وَعُلُومًا شَتَّى يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُهَا ، وَلَكِنِّى أَقُولُ : أَلَا يَنْبَغِى لِهَذَا الْعَالَمِ الصَّغِيرِ الَّذِى يَحْفَظُ سِيَرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُمَثِّلَةِ رِوَايَةَ الْكَوْنِ الْكُبْرَى فِى مَشْهَدِهِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَعْرِفَهَا لِيَهْتَمَّ بِشَأْنِهَا اهْتِمَامًا حَقِيقِيًّا ؛ فَكَمْ نَرَى مِنْ أَطْفَالٍ نَشَأُوا فِى حَوَاضِرِنَا الْكُبْرَى وَقَرَأُوا أَسَاطِيرَ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الشَّهِيرِ لَمْ يَرَوْا فِى حَيَاتِهِمْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِى يَحْكِى لَهُمْ قِصَصَهَا وَيُمَثِّلُ لَهُمْ أَحْوَالَهَا إِلَّا قَلِيلًا . فَهُمْ عَلَى جَهْلٍ تَامٍّ بِأَخْلَاقِهَا وَعَادَاتِهَا . وَفِى رَأْيِى أَنَّ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَعْقَلُ مِنْ وَاضِعِى التَّعَالِيمِ الْحَدِيثَةِ إِذْ قَالَ لِلْكَسْلَانِ «عَلَيْكَ بِالتَّعَلُّمِ فِى مَدْرَسَةِ النَّمْلَةِ»[2] فَإِنَّهُ دَلَّهُ بِهَذَا الْإِرْشَادِ عَلَى يَنَابِيعِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ الْفَيَّاضَةِ لَا عَلَى حِيَاضِهِ الَّتِى ـ لِبُعْدِهَا عَنْ تِلْكَ الْيَنَابِيعِ ـ لَا يُوجَدُ فِيهَا إِلَّا صُبَابَةٌ لَا تَرْوِى ظَمَأً وَلَا تَبْرُدُ غُلَّةً .

---

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من أشهر كتاب الأساطير فى فرنسة ولد فى شاتوتيرى سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥م وملخص أسطورة الصرصر والنملة هو أن صرصرا ظل أيام الصيف كلها لاهيا بغنائه عن ادخار قوته بينما كانت نملة جارة له تسعى وتكدح فى جمع قوتها لوقت الحاجة فلما جاء الشتاء لم يجد الصرصر ما يسد به رمقه فالتمس المعونة من جارته فسألته ماذا صنعت فى الصيف فأجابها بقوله كنت أغنى فقالت له اذهب الآن فارقص .

(٢) عبارة الأمثال فى هذا المعنى هى : اذهب الى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما « هى » التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها . راجع الباب ٦ من أمثال سليمان والأعداد ٦ و ٧ و ٨ .

الرسالة الثالثة عشرة

(من إراسم إلى هيلانة في ٦ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان الطريق إلى تربية المشاعر الباطنة

اعلمي أن أخص ما يجب الرجوع إليه في إنشاء طبع الطفل هو علم منافع الأعضاء، وإذا كانت هناك وسائل أخرى يستعان بها في ذلك فلا ينبغي إغفالها .

الوليد يرى في أول أمره محبا لنفسه منقبضا عن غيره لضعفه وعجزه عن الإختلاط، فعمل المربي معه هو أن يعمد إلى ما وهبه الله (سبحانه) من الغرائز المحمودة الكافلة حفظه فيجعلها أصلا يفرع منه بالتدريج صنوفا من الوجدان أرقى وأشرف من محبة النفس والانقباض عن الناس — تربطه بأمثاله وتعطف به على أضرابه، ولا اعتداد عندي بما نسمي به هذه القوى السامية الطبعية فانسمها أواصر أو عواطف مثلا، وإنما الذي أعتد به ويهمني أن أقوله لك: هو أنها ليست خيالات ولا صورا ذهنية بل هي حقائق ثابتة لها أصول راسخة في نفوسنا وفي الخارج فكل عاطفة من تلك العواطف النفسية لها ارتباط في الخارج بطائفة من الوقائع، فالشفقة مثلا توجد عند رؤية آلام الغير ومصائبه، والشكر يوجد عند الإحسان وإسداء المعروف، وحب الوطن منشؤه اعتياد الثواء بالأمكنة والانتفاع بما فيها من الأشياء ومحبة الناس تنشأ وتقوى بحسن المعاملة ولطف المجاملة .

جميع العواطف الشريفة والسجايا الحسنة توجد في نفس الطفل، لكنها تكون كالنبات في طور البذر، فالعالم النباتي مملوء بأنواع من البذور ربما لا تتهيأ

لها ذرائع النجوم والنبت[1] طول حياتها، لما يعوزها من أشعة الشمس والأرض الصالحة للإنبات والماء بنسب مخصوصة . كذلك شأن أصول العواطف وضروب الوجدان الإنسانية فإنها تحتاج في ظهورها ونموها إلى مستقر ملائم ومؤثر خارجي .

كلنا نعلم أن طبع الطفل ينمو بالمؤثرات الخارجية أكثر من نموه بالبواعث النفسية ، فإن ما نفعله أمامه من الأفاعيل وما نرمي به من الأقاويل ، هو الذي يبعث فيه الفرح تارة والترح أخرى خصوصا في أوائل أيامه ، على أن ما لنا من التأثير في طبعه مباشرة لا يكاد يكون شيئا يذكر إلا ما تحوطه به أمه من ضروب العناية وما تبديه له من أنواع الحنو والرعاية ، فإنه يدعوه من غير شك إلى حبها ، ولكن الطبع كما علمت يتألف من قوى متمايزة كل التمايز يقتضي كل منها باعثا خاصا إن وسعني أن أقول ذلك . فليس الإنسان ذاتا بسيطة بل هو على ما اعتقد أكثر تركبا في نفسه منه في جسده[2] .

المشاعر الباطنة كالمشاعر الظاهرة في كيفية التأثر، فالثانية كما تعلمين لا تتأثر إلا في أحوال وبشروط خارجية مخصوصة ، لأن مشعر اللمس مثلا لا يتأثر إلا متى لاقى أشكال الأجسام وجهاتها ، ومشعر الذوق لا ينفعل إلا بما يقع عليه من الطعوم ، كذلك الأولى لا تنبعث إلا عند اجتماع أمور واقعية مخصوصة ، فإن حلول الخطر مثلا يولد إحساس الخوف ولكنه لا يبعث وجدان الإنصاف مباشرة

(١) النجوم : أول ظهور النبات .

(٢) هذا مصداق لقولهم فيه إنه العالم الأصغر — المترجم .

ورؤية الطفل ما يغمره به أهله من صنوف البر قد تلقى في نفسه وجدان محبتهم والميل إليهم ، ولكنها قلما توقظ فيه إحساس الاحتشام والتواضع . والأحوال التي تحرك في النفس عاطفة المروءة أو الشجاعة لا تؤثر في رقة الطبع كما أن الصوت لا يؤثر في العين والضوء لا يؤثر في الأذن ، فكل مشعر باطني أو عاطفة نفسية تقتضي شيئاً يناسبها ويلائمها ، والطفل كالآلة الموسيقية كله أوتار تهتز إذا نقرت ، ولكنها لا تهتز اهتزازاً حقيقياً إلا بما يقع عليها من الأشياء ، ولا تتأثر بجميع الأشياء على السواء وإنما لكل انفعال قلبي طائفة منها تلائمه .

فإذا أردنا مثلاً أن نلقي في نفس الطفل الذي في السابعة أو الثامنة من عمره وجدان الإحسان إلى الفقراء والزمنى (١) فإيانا والخطابة والوعظ لأن أحسن مواعظ الإنجيل لا تفيده في ذلك شيئاً . بل علينا أن نذهب به إلى خص حقير يكون فيه شيخ هرم أبلت الأيام قواه ونهكت الحمى جسمه وقد رقد على حصير ومد يده يسأل عواده قدح ماء بارد ، وننظر ما يكون منه في ذلك الوقت ، فإذا هو لم يبادر بنفسه إلى ملء جرة من أقرب مورد وتقديمها بين يدي الرجل المسكين فقد حق اليأس منه ، وأما إذا تحرك إلى هذا العمل الخيري فإيانا أن نسأله عن قصده به وعما يرجوه من الثواب عليه ، فإن في شوب انبعاثه الصالح إلى البر بتقال حبة من الفائدة الذاتية إفساداً له .

قد بانت لك مما قدمته الغاية التي أرمي إليها في قولي وهي أنه إذا كان يوجد في الطفل قوى كامنة تتنبه بالمؤثرات الخارجية التي تدعوها إلى الشخوص

(١) الزمنى : أصحاب العاهات .

للعمل وكان لهذه المؤثرات ارتباط ببعض الأمور والوقائع الخارجية فالواجب علينا هو أن ننبه فيه بهذه الأمور تنبيهاً ما عواطف الحفاوة والسخاء واحترام النفس والناس والنزاهة وغيرها من السجايا الحميدة، فطريقة تربية المشاعر الباطنة لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي بينها علماء منافع الأعضاء في تربية المشاعر الظاهرة، بل لا يوجد لتربية جميعها إلا طريقة واحدة لأنها كلها تجري على قانون واحد ليس هناك غيره.

يوجد فرق واحد بين التربيتين وهو أن الانفعالات في تربية المشاعر الباطنة وما يولدها من الأشياء تخالف ما يقابلها في تربية المشاعر الظاهرة، فإن الشيء الذي تنفعل العين برؤيته مثلا لا تنفعل به النفس دائماً، فعلى الأم أن تختار نوع الآثار التي تريد إحداثها في نفس ولدها وتجعلها صنوفاً وأشكالاً، وليس يعوزها في الحقيقة شيء من الأحوال الملائمة لذلك فإن حياة الإنسان ليست إلا مشهداً لسلسلة من الحوادث المؤثرة ترى فيها كل حين آلام تحرك عاطفة الرحمة، وعقبات تدعو إلى التدرع بالشجاعة، ومحن(١) أعدت ليبتلى بها الصبر، ولكن ينبغي لها أن تكون سليمة الذوق كثيرة الحذق في اغتنام الفرص التي تهيؤها لها الحوادث. ثم اعلمي أن الكتب قليلة الجدوى جداً في هذا الموضوع، فالذي عليك أن ترجعي إليه في سيرتك مع «إميل» هو قوتك الحاكمة وما يمليه عليك الوجدان من ضروب الإلهام. ولما كان الطفل لا يلتفت إلا إلى الأشياء

(١) محن جمع محنة وهي ما يمتحن به الانسان من بلية وشدة.

التي له فيها عمل كان من الحسن أحياناً أن تدس له فيها العراقيب (الحيل) لإثارة عواطفه الذاتية ، ولكن ينبغي هنا أيضاً الاحتراس الكلي من ظهوره على ما يتخذ في ذلك من الحيل فإن شعوره بخداع المربي له هو الخسارة الكلية .

اخترع المربون أنواعاً من الرياضة البدنية موافقة لإنماء الأعضاء وخاصة بها . والذي أعرضه عليك أنا هو فن من فنون الرياضة النفسية التي تقوى بها الغرائز والأخلاق ، لأن خصائصنا ونقائصنا تقوى بالمراس والاعتياد ، فالفضيلة تكتسب بالتعلم ولكن هيهات أن نتعلم إلا بممارستها والارتياض بها . وقد جاء في الأمثال « بطرق الحديد يصير الإنسان حداداً » فكذلك هو لا يكون خيراً إلا بعمل الخير فالعمل العمل ما دام حياً .

أرجىء البحث في قانون الأخلاق الحقيقي لأني لا بد لي من النظر فيه عند الوصول إلى محله ، وأكتفي الآن منه بذكر قاعدة في غاية الإيجاز والبساطة وهي : أن الطفل يصلح طبعه وتتهذب نفسه كلما زالت منه غرائز الأثرة وحلت محلها العواطف التي تأخذ بقياده إلى رعاية المصلحة العامة ، ولكن هيهات أن يكتنه[1] هذا الناشئ أسباب سيرته مع غيره خصوصاً معنى الواجب ، فإنه من الغموض والخفاء بحيث لا ينفذ إليه ذهنه الضعيف ، وغاية ما يمكنه إدراكه هو رضاه عن أعماله ورضى الناس عنها . على أنه لما يجده في الأعمال الصالحة من اللذة التي لا تقل عن لذة الأعمال السيئة لا يلبث أن يختار الأولى ويرجحها على الثانية متى

(١) اكتنه الشيء : وصل الى كنهه أي حقيقته .

ساعدناه قليلا بتوسيط البواعث الخارجية، فإن الأشياء كما يوجد فيها شيطان رجيم على ما علمت يوجد فيها أيضا في بعض الأحيان ملك كريم، فإذا كان بعضها يحرك فينا دواعي الطمع فإن بعضا آخر منها يبث فينا وجدان البر والخير .

يجب علينا أن نعين الطفل على تربية مشاعره الباطنة، ولكن علينا أيضا أن نحترم إرادته لا نغفلها . فلو أنى أوتيت القدرة على تدبير ما يحتف «بإميل» من بواعث العواطف وعلى مراقبته في سيرته مراقبة تامة وأمكنني بالإجمال اختراع طريقة للتربية النفسية تسمو بقاصده حتما إلى الكمال لما عولت عليها في إنشائه مهما كان فيها من الحسن ، فإني أرجو من صميم فؤادي أن يكون يوما من الأيام رجلا خيرا لا حيوانا خيرا، وأعيذه بالله من فضيلة لا يكون كسبها بسعيه وهمته ، ومن سعادة لا يكون هو الذي حصلها لنفسه، فإنه إن أوتي عفوا هذه السعادة التي هي الامتياز التعس لمن خلقوا لها يكن قد ابتاعها بثمن غال جدا وهو خسارة اختياره . كل فرد من أفراد المجتمع الذي أعد ولدنا للمعيشة فيه مسوق على الدوام إلى الجلاد والمغالبة في ميدان الحياة ، فيجب عليه أن يقاوم مقاومة البسلاء آراء الناس وتأثير الأسى وجميع مؤثرات العصر الخادعة، وإلا خسر معرفته قدر نفسه وأقدار الناس . لأن شرف الانسان وفضله مشروطان بأن يكون ذا إرادة تصدر عنها أفعاله وما على إن تكدر بعض الناس من هذا الشرط اللازم ما دمت أنا مسرورا به . فإذا لم يكن للمرء وجود مستقل ووجدان فبم يكون شرف حياته ؟ اهـ .

الرسالة الرابعة عشرة

(مِنْ هيلانة الى إراسم فى ٢٠ سبتمبر سنة — ١٨٥)

مُوَافَقَتُهَا لَهُ فِي طَرِيقَتِهِ فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ، وَبَيَانُ أَنَّ فِي التَّبْكِيرِ بِإِلْقَاءِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ عَلَى الْأَطْفَالِ حَطًّا مِنْ كَرَامَتِهَا، وَبَيَانُ أَنَّ لِلْأَطْفَالِ حَاسَّةً غَرِيبَةً يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ الْحُبِّ الصَّحِيحِ وَالْحُبِّ الْمُمَوَّهِ

إِخَالُنِي فَهِمْتُ طَرِيقَتَكَ فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَأُرَانِي مُرْتَاحَةً مِنْ عِظَمِ الْعَمَلِ الْمَعْهُودِ إِلَيَّ بِهِ وَالصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُنِي فِي سَبِيلِ إِتْمَامِهِ، لِأَنَّ أَمْرَ الطِّفْلِ بِفِعْلِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ أَهْوَنُ بِكَثِيرٍ مِنْ تَصَفُّحِ الْأَشْيَاءِ لِإِيجَادِ مَا يَبْعَثُهُ مِنْهَا إِلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ . عَلَى أَنِّي سَأُحَاوِلُ الْعَمَلَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَإِنِّي عَلَى يَقِينٍ تَامٍّ مِنْ أَنَّ الْكَلَامَ وَالنَّصَائِحَ وَالْمَوَاعِظَ لَا تَكْفِي لِتَهْذِيبِ الطَّبْعِ وَتَقْوِيمِهِ. بَلْ قَدْ وَصَلْتُ مِنْ هَذَا الْيَقِينِ إِلَى حَدِّ أَنْ أُحَدِّثَ نَفْسِي بِأَنَّ فِي التَّبْكِيرِ بِتَلْقِينِ الطِّفْلِ بَعْضَ الْمَوَاعِظِ وَإِيدَاعِهَا ذَاكِرَتَهُ حَطًّا مِنْ شَأْنِهَا وَنَقْصًا مِنْ قِيمَتِهَا مَهْمَا كَانَتْ حَسَنَةً مُفِيدَةً . فَإِنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ اعْتِيَادُ تَلَمُّسِ الْفَضِيلَةِ فِي الْكَلَامِ وَاعْتِبَارُ الْوِجْدَانِ أُسْتَاذَ مَدْرَسَةٍ .

عَلَى أَنِّي إِلَى الْآنَ لَمْ أَبْلُغْ مَعَ « إِمِيل » هَذِهِ الدَّرَجَةَ . فَإِنِّي لَوْ كَلَّمْتُهُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ لَأَلْفَيْتُهُ بِلَا شَكٍّ فِي غَايَةِ الْعَجْزِ عَنْ فَهْمِ مَا أَقُولُهُ، وَلَكِنَّهُ عَلَى صِغَرِهِ لَهُ دِينٌ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اتِّخَاذُ اللُّعَبِ الَّتِي يُعْطَاهَا آلِهَةً يَخُصُّهَا بِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ وَمَزِيدِ عِنَايَتِهِ،

فَلَوْ أَنِّي أَرَدْتُ مِنَ الآنَ تَغْيِيرَ الأَحْوَالِ الْمُقَارِنَةِ لِسِنِّهِ وَفِطْرَتِهِ فِي بِضْعِ سِنِينَ لَأَضَعْتُ وَقْتِي عَبَثًا وَلَمَا نَجَحْتُ إِلَّا فِي تَبْدِيلِ تَمَاثِيلِهِ بِأَوْثَانٍ أُخْرَى .

لَا تَزَالُ عَوَاطِفُ «إِمِيلَ» فِي غَايَةِ الْقُصُورِ كَمَا رَأَيْتَ فَأَصَبْتَ فِي رَأْيِكَ، عَلَى أَنَّ لِلْأَطْفَالِ مَهْمَا كَانُوا صِغَارًا حَاسَّةً عَجِيبَةً يُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الصَّحِيحِ مِنْ أَنْوَاعِ مَيْلِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ وَعَطْفِهِمْ عَلَيْهِمْ وَالْمُمَوَّهِ مِنْهَا ، فَهُمْ يُحِبُّونَ مَنْ يُحِبُّهُمْ وَقَلَّمَا يَنْخَدِعُونَ بِضُرُوبِ الرِّيَاءِ وَالْاسْتِمَالَةِ وَأَنْوَاعِ التَّذْلِيلِ وَالْمُلَاطَفَةِ، وَمِمَّا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنِّي فِي مُعْظَمِ أَوْقَاتِ زِيَارَتِي لِلسَّيِّدَةِ وَارْنِجْتُونَ أُلَاقِي عِنْدَهَا امْرَأَةً تَرَمَّلَتْ فِي شَبَابِهَا وَهِيَ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَعْشَقُ الْأَوْلَادَ عِشْقًا ، وَتَقُولُ : لِمَ لَمْ يَهَبْ لِيَ اللهُ (سُبْحَانَهُ) وَلَوْ وَلَدًا وَاحِدًا وَتَدَّعِي أَنَّهَا كُلَّمَا فَكَّرَتْ فِي ذَلِكَ يَكَادُ يُغْمَى عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّي فِي رَيْبٍ مِنْ أَنَّ قَلْبَهَا كَقُلُوبِ الْأُمَّهَاتِ لِأَنَّ «إِمِيلَ» لَا يُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهَا .

لَا مَنَاصَ لَنَا مِنَ الْإِنْفِعَالِ بِمَا يُحِيطُ بِنَا مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ — كَمَا تَقُولُ — وَإِلَّا فَمَا السِّرُّ فِي أَنِّي أُحِبُّ التَّنَزُّهَ فِي طَرِيقٍ مَخْصُوصٍ كُلَّمَا تَلَقَّيْتُ مَكْتُوبًا مِنْ مَكْتُوبَاتِكَ؟ وَكَيْفَ أَنَّ بَعْضَ الْأَشْجَارِ يَجْذِبُنِي إِلَيْهِ وَيَدْعُونِي إِلَى تَفَيُّئِهِ (١) وَالْجُلُوسِ تَحْتَهُ فِي حَالِ ثَوَرَانِ أَشْجَانِي خَاصَّةً؟ وَبِمَاذَا أُفَسِّرُ مَا أَجِدُهُ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ بَيْنَ رُؤْيَتِي لِصَخْرَةٍ، وَمَا أُحِسُّ بِهِ إِذْ ذَاكَ مِنْ نَمَصٍ فِي عَزْمِي وَوَهَنٍ فِي ثَبَاتِي؟ فَلَا شَيْءَ يُطَابِقُ جَمِيعَ حَالَاتِ النَّفْسِ وَيُلَائِمُهَا سِوَى الْبَحْرِ عَلَى مَا أَرَى . اهـ

---

(١) تفيئه : دخولى فى فيئه أى فى ظله .

الرسالة الخامسة عشرة

(من هيلانة إلى إراسم فى ٣٠ أكتوبر سنة — ١٨٥)

تفاهمها مع «إميل» بالأصوات وظنها أنها أصل اللغات

لا يزال «إميل» عاجزاً عن التكلم غير أن كلا منا يفهم مراد صاحبه ، لأن الأطفال قبل أن يصير فى مقدورهم إخراج الحروف من مخارجها بزمن طويل يعبرون عما يعروهم من الفرح والدهشة والخوف والألم بضروب من الصياح والصراخ الفطرى يندر أن تخطئ الأم فى فهم معانيها ، وهى إن لم تكن لساناً معروفاً فأقل ما فيها أنها لهجة تفصح عما فى نفوسهم من ضروب الوجدان والأفكار ، وأنا فى شك من أن الكلام يكون فى إعرابه لى عن الانفعالات ولدى أكثر من هذه الأصوات بياناً ، على أننى لا إخال أن صورة اخرى من صور التعبير عما فى النفس توافق حالته موافقة هذه لها .

لم يقتصر « إميل » على هذه اللهجة بل قد اخترع من بضع أسابيع طريقة للمحادثة معى ، فإذا أراد أن يكلمنى عن كلب البيت قلد نباحه بقدر ما فى أعضائه الضعيفة من الإستطاعة ، وإذا حملته جورجية وخرجت به للتنزه على ساحل البحر فإنه عند عوده يخبرنى بهبوب الرياح ، وذلك بأن ينفخ فيحدث صوتاً مخصوصاً ، وإذا صادف قطيعاً من البقر أو الغنم قص على ما رآه بأصوات أفهم ما يريده بها ؛ وإنى على ما أجده فى قصصه هذه من اللذة قد أنشأت أقلق لحالته وأحدث

نفسي بأنّي أفرطتُ في إغفاله وإسلامه إلى الفطرة، وأنّه ربّما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسيّة أكون أنا السبب في حدوثها . استفتيتُ في هذا الأمر السيّدة وارنجتون وكاشفتها بما أجد من الخوف لأنّها لمّا كانت زوجة طبيب كان لها هي أيضا بعض الدراية في الطبّ، فاجتهدت كثيراً في محو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روعي وقالت لي : إنّ هذا الأمر عامّ في جميع الأطفال الّذين يربّون في الأرياف .

وعلى كلّ حال فما أدرانا أنّ هذه الأصوات ليست هي أصل اللّغات الإنسانيّة؟ أقول هذا وأنا عارفة أنّه ربّما أضحكك ، ولكن ما المانع من أنّ الإنسان وهو في زمن طفوليّته إذ كان يسكن الآجام والكهوف كان يتلمّس مبادئ الكلام في ألغاط الغابات وأصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات . اه

الرسالة السادسة عشرة

(من هيلانة إلى إراسم في نوفمبر سنة — ١٨٥)

استعدادها لتعليم «إميل» بالبحث في أحوال النبات

لستُ أدري أيّها العزيز إراسم متى يتيسّر لي إيصال بقايا هذا المكتوب إليك . فقد توالت على الأيّام وتعاقبت الشهور في ارتقاب فرصة تمكّنني من ذلك . ولا ريب في أنّ ما أكتبه إليك خلوٌ من كلّ ما من شأنه أن ينفّر الحكومة ويزعجها . فإنّ أخصّ موضوع أحبّ مكاتبتك فيه هو الحديث عن «إميل» وشئونه : وأنت

تعلم أن «إميل» ليس من المؤتمرين بالحكومة المغرين بالخروج عليها، على أنه لا شيء في عواطفنا وآمالنا يدعو إلى ملاحظة أو يستوجب مؤاخذة، وأنا أراعى فى مكتوباتى الحياء والاحتشام حتى إنى لأفضل إحراقها على اطلاع غيرك عليها .

هاج غضب «إميل» صباح اليوم هياجا شديدا بلا سبب معروف، ولا بدع في ذلك فإننا مع تبجحنا بالعقل والرزانة لا نعرف على الدوام علة جزعنا وغضبنا، فقد يكفى فى إساءة خلقنا أن نرى فى السماء غيما كريه المنظر، أو فى ملبسنا انثناء مضايقا، أو نسمع ذبابة تطن فى أذننا، وأيا ما كانت علة غضب «إميل» فإن جورجية لما رأته فى هذا الهياج قدمت له مرآة جعلتها نصب عينيه فأثر ذلك فيه تأثير السحر بإسكان غضبه كأنه خجل من نفسه أو خاف من صورته .

أنا منجزة ما وعدتك إياه فتجدنى الآن أطالع وأبحث وأعمل لأتمكن يوما ما من تعاليم «إميل» وإنك لو رأيتنى فى هذه الحالة لنكرتنى لما صرت إليه من الوقار والرزانة .

إنك تعلم أنى ما برحت أتوق إلى علم النبات، وترانى الآن من بضع شهور مشتغلة بدرس أزهار الكتان لأنى وجدت من ظروف الأحوال ما ساعدنى على ذلك، فإن النباتات الطالعة هنا على رمال الساحل فى غاية الكثرة والتنوع، على أن لها بالبحر ارتباطا كثيرا ويوجد أيضا على مقربة من قرية للصيادين اسمها (نيوولين) مغارة شهيرة بدقة ورق السرخس النابت على جدرانها وجماله . فإن الظل والرطوبة اللذين فيها يشكلانه بأشكال متشعبة مشوشة تدعو إلى إعجاب الخبيرين

بِأَحْوالِ النَّباتاتِ ، وَلٰكِنَّ لِسانَ حالِهِ يَنْطِقُ بِتَأَلُّمِهِ وَمَرَضِهِ فَهَلْ مِنَ الآلامِ وَالأَمْراضِ ما يَكْسُو الصُّوَرَ رَوْنَقًا وَبَهاءً ؟ .

بَيْنَما كُنْتُ راجِعَةً هٰذا المَساءَ مِنْ نُزْهَةٍ قَضَيْتُها ارْتِيادًا لِلنَّباتَيْنِ المَعْروفِ أَحَدُهُما عِنْدَ النَّباتِيِّينَ بِالْقُورِيجِيُولِ الشّاطِئِيِّ وَالثّانِي بِالأَرَنْجِيُونِ البَحْرِيِّ أَوْ لِحْيَةِ التَّيْسِ (١) بَصُرْتُ بِبِنْتِ صَيّادٍ مُلْتَصِقَةً بِإِحْدَى نَوافِذِ بَيْتِها تَنْفُخُ فِي زُجاجِ هٰذِهِ النّافِذَةِ ثُمَّ تَكْتُبُ بِظُفْرِ أُنْمُلَتِها الصَّغِيرَةِ اسْمَ مَعْشُوقِها عَلَى ما يَظْهَرُ مِنَ الكَلَفِ فِي صَفْحَةِ الزُّجاجِ ، فَاسْتَمالَنِي ذٰلِكَ إِلَيْها وَخاطَبْتُها فَعَلِمْتُ مِنْها أَنَّ لَها خاطِبًا فِي أُسْتُرالِيَةَ وَأَنَّها تَتَرَقَّبُ مَجِيئَهُ وَلا تَعْلَمُ مَتَى يَجِيءُ لِتَحْظَى بِلِقائِهِ . فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ قَرِيبًا لِأَنِّي أَعْلَمُ ما يُقاسِيهِ الإِنْسانُ مِنْ مَضَضِ الغَرامِ . اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(مِنْ هيلانَةَ إِلَى إِراسْمَ فِي ٢٠ نوفمبر سنة — ١٨٥)

تَبْشِيرُهُ بِنَبْتِ أَسْنانِ «لاميلَ»

بَعْدَ هٰذا الانْتِظارِ كُلِّهِ قَدْ تَعَهَّدَ أَحَدُ مَنْ تَعْرِفُهُمْ بِإِيصالِ مَكْتُوبِي هٰذا إِلَيْكَ فَأَسْلَمْتُهُ إِلَيْهِ وَاسْتَوْدَعْتُهُ الرِّياحَ العاصِفَةَ وَالبَحْرَ المُضْطَرِبَ وَحَوادِثَ الأَيّامِ الكَثِيرَةَ لِأَنَّهُ لا مَحِيصَ مِنْ ذٰلِكَ وَلٰكِنِّي لَنْ أَسْتَوْدِعَها أَبَدًا حُبَّكَ فَإِنَّهُ فِي حِيازَةٍ ما لا يَعْتَرِيهِ التَّحَوُّلُ وَلا التَّقَلُّبُ (٢) .

بُشْرَى فَقَدْ نَبَتَتْ «لِلاميلَ» أَسْنانٌ . اهـ

---

(١) لحية التيس نبت كورق الكراث لكن يرتفع .

(٢) تريد به قلبها ولكن ما أشد تقلب القلوب وأكثر تحولها — المترجم .

الرسالة الثامنة عشرة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِى ١١ يونية سنة — ١٨٥)

بَيَانُ رَأْيِهِ فِى تَفَكُّرِ الطِّفْلِ وَفِى أَصْلِ اللُّغَاتِ وَفِى تَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْأَطْفَالِ وَسُوءِ طَرِيقَةِ الْمُرَبِّينَ فِى ذَلِكَ

قَطَعَ مَكْتُوبُكِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ جَمِيعَ الْعَقَبَاتِ الَّتِى كَانَتْ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَىَّ وَهُوَ الْآنَ بَيْنَ يَدَىَّ أَرَى فِيهِ شُعَاعًا مِنْ شَمْسِ الْحُرِّيَّةِ قَدِ اتَّصَلَ بِى وَهَا أَنَا ذَا الْاحِظُكِ بِفِكْرِى فِى تَرَيُّضِكِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَأُبْصِرُ «إِمِيلَ» مِنْ خِلَالِ مَا تُبْدِينَهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّأَثُّرِ وَالِانْفِعَالِ وَإِخَالُنِى أَعْرِفُهُ .

رَبَّاهُ كَيْفَ أَكُونُ وَالِدًا مِنْ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ وَلَا أَتَمَكَّنُ مِنْ تَقْبِيلِ وَلَدِى إِلَى الْآنَ .

أَتْرُكُ هَذَا الْأَسَفَ الَّذِى لَا جَدْوَى لَهُ وَأُعَاوِدُ الْحَدِيثَ مَعَكِ فِيمَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ أَهَمَّ مَا يَعْنِينَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا فَأَقُولُ : إِنَّ مِنْ أَغْلَاطِ الْمُشْتَغِلِينَ بِالتَّرْبِيَةِ صَرْفَهُمْ جُلَّ عِنَايَتِهِمْ فِى تَقْوِيمِ الْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَقِلَّةَ الْتِفَاتِهِمْ إِلَى غَيْرِهَا ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَسَعُهُمْ إِنْكَارُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ قُوَى الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مِنَ الِارْتِبَاطِ ، وَلَكِنِّى فِى هَذَا الْمَكْتُوبِ أُحِبُّ أَنْ أُوَجِّهَ فِكْرَكِ إِلَى تَرْبِيَةِ الْإِدْرَاكِ الْعَقْلِىِّ بِنَوْعٍ خَاصٍّ .

كَأَنِّى بِكِ تَقُولِينَ : هَلْ يُفَكِّرُ الطِّفْلُ ؟ فَأُجِيبُكِ أَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ لَهُ لِأَنَّهُ حَىٌّ وَلِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَانَ كُلَّمَا نَفَذَ فِى أَسْرَارِ حَيَاةِ النَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ كَشَفَ لَنَا فِيهَا بِدَايَةَ إِحْسَاسٍ ، بَلْ رُبَّمَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ بِدَايَةَ إِدْرَاكٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الطِّفْلُ إِذَا

أقل حظًا من هذه الكائنات التي هي أضعف خلق الله (تعالى)؟ نعم إن مخه في الأسابيع الأولى من ولادته يكون في نظرنا كالبيداء المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتيني بأنها مملكة عفاريت الجن، ولكنه يتدرج في تمييز الأشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الأحكام عليها، وإنك لا تكادين تجدين طفلًا في الشهر الخامس عشر أو السادس عشر من عمره إذا رأى صورة إنسان إلا وهو يفكر في أنها لشخص معروف.

من الأسباب التي تعين على إنماء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتف(١) به من الأشياء تعليمه اللسان.

وأنا أرجح ما تقولينه من أن الإنسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الأولى في أصوات الكون المحيط به، وقد يدلنا على أن هذه الأصوات هي أصل اللغات الإنسانية ما نجده في جميعها خصوصًا ما كان منها قديمًا جدًا من آثار التوافق الناشيء عن التقليد، وما أجل — مع هذا — كلام الإنسان وأعظمه! ومن العبث أن أقتنع بقولي: إن أسلافنا الغابرين قد جمعوا في بداية نشأتهم الأصوات المبهمة المنتشرة في جميع أرجاء الكون وصيروها لغة، فإن هذا القول لا يكشف لي جميع ما في كلام الإنسان من المعاني، لأنك تجدين لكل شيء في هذا العالم كلامًا، فالمعدن يتكلم لأنه إذا نقر صوت تصويتًا يخبر بماهيته نحاسًا كان أو ذهبًا، والحيوان يتكلم لأنه يدل في كل حين بما يبديه في صوته

(١) يحتف: يحيط.

منَ الْكَيفيَّاتِ الْمُخْتلفَةِ عَلَى حَاجَاتِهِ وَضُرُوبِ وِجْدَانِهِ وَشَهوَاتِهِ ، وَالْهَوَاءُ وَالْبَحْرُ وَالرَّعْدُ تَتَكَلَّمُ لِأَنَّ أَصْوَاتَهَا تُنْبِئُ عَمَّا يَقَعُ بَيْنَ الفَواعِلِ الْكَوْنِيَّةِ مِنَ الْكِفَاحِ وَالْمُغَالَبَةِ ، وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ كَلَامِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعِهَا وَكَلَامِ الإِنْسَانِ وَلَوْ كَانَ طِفْلًا ، فَإِنَّ الطِّفْلَ مَتَى قَدَرَ عَلَى النُّطْقِ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَلَوْ مَعَ التَّلَعْثُمِ فِيهَا وَاسْتَطَاعَ مَثَلًا أَنْ يَقُولَ « أَنَا » — مُثْبِتًا بِذَلِكَ اسْتِقْلَالَ الْإِنْسَانِ وَقِيَامَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ بِهِ — رَأَيْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْكَوْنِ أَمَامَهُ قَدْ دَخَلَ فِي شِبْهِ عُبُودِيَّةٍ وَخُضُوعٍ .

أَصْوَاتُ الْمَادَّةِ مَعْلُولَةٌ لِلْحَوَادِثِ الَّتِي تُوجِدُهَا وَأَصْوَاتُ الْحَيَوَانَاتِ نَاشِئَةٌ مِنَ الْغَرَائِزِ الْمُسْتَقِرَّةِ فِي أَنْوَاعِهَا . وَأَمَّا لَفْظُ الْإِنْسَانِ فَهُوَ حَتَّى فِي حَالِ تَمْتَمَةِ الطُّفُولِيَّةِ دَالٌّ عَلَى ذَاتٍ شَأْنُهَا الْحُرِّيَّةُ وَالِاسْتِقْلَالُ .

عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَعْمَى عَنِ الْفَائِدَةِ الْحَقِيقِيَّةِ مِنْ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ تَرْبِيَةِ الْإِدْرَاكِ . ذَلِكَ بِأَنَّ الطِّفْلَ لَا يَتَلَقَّى عَنَّا وَقْتَ الْكَلَامِ مَعَهُ إِلَّا أَصْوَاتًا فَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ تَعْلِيمًا مُفِيدًا لَهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَصْوَاتُ الَّتِي يَسْمَعُهَا مَقْرُونَةً فِي نَفْسِهِ بِمَدْلُولَاتِهَا .

أَنْتِ تَذْكُرِينَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا إِلَيَّ وَالِدَتُهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ تَسْتَفْتِينِي فِي أَمْرِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ شَبِيهَةً بِتِلْكَ الْمَغَارَاتِ الْمُقْفِرَةِ (١) تُرَدِّدُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ غَيْرَ فَاهِمَةٍ شَيْئًا مِنْهَا ، وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهَا لِجَمَالِهَا الرَّائِعِ لَوْ كَانَتْ شَهِدَتْ قُدَمَاءَ الْيُونَانِ لَاتَّخَذُوهَا إِلَهَةً لِصَدَى الْأَصْوَاتِ لِأَنَّهَا — لِفَرْطِ مَا أُوتِيَتْهُ مِنْ

(١) المقفرة : الخالية من السكان .

قوة السمع الميؤس من تعديلها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض — كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه إليها من الأسئلة بدون أن تجيب عن شيء منها، وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئاً.

فأنا أخشى كثيراً ألا يوجد بين هذه البلهاء المسكينة التي لا تفهم شيئاً مما ترَدده من الكلام وبين كثير من الأطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم إياه أو على فهمه مقلوباً إلا فرق خفيف.

على أني أرى أن الميل إلى التكلم بغير فائدة مرض من أمراض العقل عند الإنسان، فكم من نساء يجتهدن في تسرية ما يجدنه من الضجر والسآمة بأغان ليس فيها شيء من المعاني المعينة! . وكنت أعرف مسجوناً كان على قصور إدراكه جداً كلما وضع في السجن المظلم عقاباً له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام بأحاديث خالية من المعاني.

يوجد في الشعائر الدينية القديمة لكثير من الأمم صيغ من العزائم والتعاويذ هي عبارة عن كلمات أو جمل مرتبة تلتذ بسماعها الأذن ولكن لو أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولا عبثا. وما لنا وللرجوع إلى تلك الأزمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على ما نقول وأمامنا كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها إلا النزر القليل منهم.

على أني أرى أن عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة وإعانته على الجري في مضمارها من الأمور الشديدة الخطر على العقل فإذا لم يحترس منها أصبحت الألفاظ خلواً من معانيها وصارت عوذاً للعقل.

الطِّفْلُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَاصِيَّةِ الْبَبَّغَاءِ وَلَا وَجْهَ لِلشَّكْوَى مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ يَتَيَسَّرُ لَهُ الِاخْتِلَاطُ بِمَنْ حَوْلَهُ وَمُعَاشَرَتُهُمْ ، وَلَكِنَّ حَلَّ عُقْدَةِ لِسَانِهِ أَيْسَرُ مِنْ فَتْحِ مُغْلَقِ عَقْلِهِ ، فَالْأَلْفَاظُ لَا تُؤَدِّي دَائِمًا إِلَى فَهْمِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا . وَفِي لُغَةِ الْخُرْسِ مَزِيَّةٌ لَا تُوجَدُ فِي لُغَتِنَا مَعَاشِرَ النَّاطِقِينَ ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِشَارَاتِ عِنْدَهُمْ هِيَ رُسُومٌ لِلْمَعَانِي وَالْوَقَائِعِ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي النُّطْقِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَصْوَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَجْرَاسٍ(١) مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَعْلَمُهُ كُلٌّ مِنَّا . ثُمَّ اعْلَمِي أَنَّ مُحَادَثَةَ الْأَطْفَالِ مِمَّا لَا شَكَّ فِي فَائِدَتِهِ فَإِنَّهَا مِنْ دَوَاعِي ابْتِهَاجِهِمْ وَانْشِرَاحِ صُدُورِهِمْ ، وَلَكِنْ عَلَى شَرْطِ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَاتُ وَسِيلَةً إِلَى انْتِقَالِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مَدْلُولَاتِهَا ، فَيَجِبُ عِنْدَ تَلَقِّيهِمْ لِلدَّوَالِّ اللَّفْظِيَّةِ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَيَفْهَمُوا مَا بَيْنَ الدَّالِّ وَالْمَدْلُولِ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ ، فَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَعُودُ أَذْهَانُهُمُ الْإِسْتِقْرَارَ وَعَدَمَ التَّشَتُّتِ .

لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا نَهْتَمُّ كَثِيرًا بِمُقَاوَمَةِ مَا يَجِدُهُ الْأَطْفَالُ مِنَ اللَّذَّةِ فِي تَقْلِيدِ أَصْوَاتِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ ، فَمَا أَسْعَدَ حَظَّ امْرِئٍ يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْمَوَاهِبِ الْإِلَهِيَّةِ مَا يُؤَهِّلُهُ لِفَهْمِ جَمِيعِ مَا يَعِيشُ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ : وَلَا أَقْصِدُ بِقَوْلِي هَذَا أَنَّ مَنْ يُحَاوِلُ مُحَاكَاةَ أَصْوَاتِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ يَفْهَمُ مَعْنَى لِسَانِهَا ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ بِهِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا السَّعْيِ فِي التَّقْلِيدِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ مَا مِنَ النَّظَرِ وَالْمُلَاحَظَةِ ، فَالطِّفْلُ الَّذِي يُحَاوِلُ تَقْلِيدَ صَوْتِ الْكَلْبِ أَوِ الدِّيكِ مَثَلًا قَدْ لَاحَظَ أَنَّ فِي هَذَا الْعَالَمِ مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى غَيْرَهُ وَأَنَّ لَهَا فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي أَنْفُسِهَا مِنْ ضُرُوبِ الْوِجْدَانِ طَرِيقَةً خَاصَّةً بِهَا .

(١) أجراس جمع جرس وهو الصوت مطلقا او الخفي منه .

اللُّغَـةُ الانْسَانيَّةُ وَإنْ كَانَتْ وَضْعِيَّةً فَأصُولهَا عَلَى التَّحْقِيقِ فِطْرِيَّةٌ . أُنْظُرِى إلَى الأَطْفَالِ تَجِدِى لَهُمْ لُغَـةً مَعْرُوفَةً فِى جَمِيعِ أَقْطَارِ الأَرْضِ ، وَهِىَ — وَإنْ اخْتَلَفَتْ يَسِيرًا مِنْ أُمَّةٍ إلَى أُخْرَى — تَتَأَلَّفُ فِى الأَصْـلِ مِنْ أَصْوَاتٍ أُحَادِيَّةِ الْمَقَاطِـعِ ، فَأُصُولُ الْكَلَامِ الْمَلْفُوظِ عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ لَا تَخْرُجُ عَنْ حَرْفٍ سَاكِنٍ وَحَرْفِ لَيِّنٍ يَتَكَرَّرَانِ بِحَرَكَةِ الشَّفَتَيْنِ مِثْلُ «بَابَا ، مَامَا ، تَاتَا ، دَادَا» وَغَيْرِهَا مَاعَدَا بَعْضَ تَنْوِيعَاتٍ خَفِيفَةٍ ، وَالطِّفْلُ يَقْضِى مِنْ طَوْرِ طُفُولِيَّتِـهِ زَمَنًا طَوِيلًا لَا يَعْرِفُ فِيهِ أَدَاةَ التَّعْرِيفِ وَلَا الضَّمِيرَ ، وَأَمَّا الْفِعْلُ فَلَا يُدْرِكُ مِنْهُ إلَّا الْمَصْدَرَ وَلَا يَنْفُذُ ذِهْنُهُ إلَى فَهْمِ صِيَغِ الْمَـاضِى وَالْمُضَارِعِ وَالأَمْرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُشْتَقَّاتِ ، وَلَا يَعْرِفُ مِنَ النُّعُـوتِ إلَّا قَلِيلًا وَأَقَلُّ مِنْهَا مَعْرِفَتُهُ بِحُرُوفِ الْعَطْفِ فَلُغَتُهُ شَبِيهَةٌ بِلُغَاتِ الأَجْيَالِ الأُولَى .

رَوَى لَنَا أَحَدُ السَّيَّاحِ أَنَّهُ يُوجَدُ فِى أَفْرِيقِيَةَ قَبِيلَةٌ يَتَأَلَّفُ لِسَانُهَا مِنِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ كَلِمَةً لَا غَيْرُ ، وَقَالَ : إنَّ أَفْرَادَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ — عَلَى قِلَّةِ أَلْفَاظِ لُغَتِهِمْ إلَى هَذَا الْحَدِّ — يَتَفَاهَمُونَ جَيِّـدًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِإضَافَةِ الإشَـارَاتِ الَى الأَصْـوَاتِ ، وَكَمْ مِنْ أَطْفَالٍ يُفْهِمُونَ أُمَّهَاتِهِمْ مَا يُرِيدُونَهُ بِمَـا هُوَ أَقَلُّ مِنْ كَلِمَاتِ تِلْكَ اللُّغَةِ ! مِثْلُ تَحْرِيكِ الأَعْيُنِ أَوِ الإشَارَةِ أَوْ مَالَا يَكَادُ يَكُونُ شَيْئًا يُذْكَرُ مَعَ إفْصَاحِهِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَإظْهَارِهِ لِمَقَاصِـدِهِمْ .

وَهُنَاكَ أُمَمٌ أُخْرَى تَكَادُ تَكُونُ أُمِّيَّةً وَلَكِنَّهَا تَبْرُزُ عَلَيْنَا(١) فِى عِلْمِ رَبْطِ الْوَقَائِـعِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَانْتِزَاعِ الأَحْكَامِ مِنْهَـا فَالْعَرَبُ الْقَاطِنُونَ فِى مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ (الدِّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ) لَا يَكَادُونَ يَقْرَأُونَ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ لِأَنَّهُ لَا مَدْرَسَةَ لَهُمْ سِوَى الصَّحْرَاءِ ،

(١) تبرز علينا : تفوقنا .

وَلَكِنْ مِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ الْبَدَوِيَّ مِنْهُمْ إِذَا رَأَى آثَارَ الْخُطَا عَلَى الرَّمْلِ حَكَمَ فَوْرًا بِأَنَّهَا آثَارُ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ، وَإِنْ كَانَ إِنْسَانًا عَرَفَ قَبِيلَتَهُ وَكَوْنَهُ عَدُوًّا أَوْ صَدِيقًا، وَقَدَّرَ تَارِيخَ مُرُورِهِ سَوَاءً أَكَانَ قَدِيمًا أَمْ حَدِيثًا . وَاسْتَنْتَجَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ مِنْ سَفَرِهِ وَحَكَمَ أَيْضًا بِبَعْضِ عَلَامَاتٍ يَرَاهَا مُنْتَشِرَةً فِي الطَّرِيقِ عَلَى الْبَعِيرِ هَلْ كَانَ حَامِلًا شَيْئًا أَوْ خَالِيًا، شَبْعَانَ أَوْ جَائِعًا . مُسْتَجِمَّ الْقُوَى أَوْ مَهْزُولًا، وَعَلَى صَاحِبِهِ هَلْ هُوَ مِنْ سُكَّانِ الْحَضَرِ أَوِ الْبَدْوِ . فَإِذَا تَأَمَّلْنَا قَلِيلًا فِي سَبَبِ وُجُودِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ طَرِيقَةَ الْبَدَوِيِّ فِي رَبْطِ الْوَقَائِعِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَانْتِزَاعِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا هِيَ بِعَيْنِهَا الطَّرِيقَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ .

مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّ أَحَدًا لَا يَسَعُهُ إِنْكَارُ مَكَانَةِ اللُّغَاتِ وَمَا لَهَا مِنَ الْفَوَائِدِ فِي تَرْبِيَةِ عَقْلِ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مِمَّا يَنْبَغِي الِاعْتِرَافُ بِهِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ إِذَا كَانَتْ تُغْنِي مِنَ النَّظَرِ فِي الْأَشْيَاءِ وَمُلَاحَظَتِهَا كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِيهَا غَالِبًا فَهِيَ مُضِرَّةٌ بِالْإِدْرَاكِ لَا مُفِيدَةٌ لَهُ . فَالطِّفْلُ وَإِنْ قَدَرَ عَلَى تَسْمِيَةِ الْفَرَسِ بِخَمْسِ لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لَا يَعْرِفُ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَّا حَيَوَانًا وَاحِدًا، فَلَوِ اتَّفَقَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ فِي حَيَاتِهِ كَانَ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا .

أَرَاكِ تَذْكُرِينَ مَا اشْتَهَرَ عَنْ هَامْلِتْ (١) مِنْ تَعَجُّبِهِ مِنْ تَشَبُّثِ النَّاسِ بِالْأَلْفَاظِ حِينَ قَالَ: أَلْفَاظٌ أَلْفَاظٌ أَلْفَاظٌ، فَهَذَا الْأَمِيرُ كَانَ دَرَسَ فِي الْمَدَارِسِ، وَكَأَنَّهُ بِهَذَا الِاسْتِغْرَابِ يَنْتَقِدُ طَرِيقَتَنَا فِي التَّرْبِيَةِ، فَإِنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُوجِبُونَ عَلَى الطِّفْلِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِ تَرْبِيَتِهِ أَنْ يَحْفَظَ أَفْكَارَ غَيْرِهِ وَيُرَدِّدَهَا، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ

(١) هاملت أمير شبه جزيرة الديمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بثأر أبيه الذى قتله أخـــوه .

أَنْ يَسْأَلُوهُ دَائِمًا عَنْ أَفْكَارِهِ وَيُبَادِرُوهُ بِالْحَثِّ عَلَى النَّظَرِ فِى الْوَقَائِعِ وَالْقِيَاسِ بَيْنَهَا وَتَمْرِينِ نَفْسِهِ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهَا .

قَدْ رَأَيْتَ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ اللَّازِمُ فِى تَرْبِيَةِ الْعَوَاطِفِ الْفَاضِلَةِ وَضُرُوبِ الْوِجْدَانِ الشَّرِيفَةِ ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُرَبِّينَ أَنْ يَكُونَ مَرْجِعُهُمْ هُنَا أَيْضًا إِلَى الْعَمَلِ لِإِحْيَاءِ جُرْثُومَةِ (١) الْإِدْرَاكِ فِى الطِّفْلِ وَتَلْقِيحِهَا لِتُنْتِجَ الثَّمَرَاتِ الْمَطْلُوبَةَ . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(مِن إرَاسْمَ إِلَى هِيلَانَةَ فى ١١ يونيه سنة — ١٨٥)

بَيَانُ أَنَّ التَّفَكُّرَ مِمَّا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ وَخَطَإِ الْمُرَبِّينَ فِى عِنَايَتِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ دُونَ الْمَعَانِى وَوُجُوبِ تَعْوِيدِ الْأَطْفَالِ النَّظَرَ وَالْمُلَاحَظَةَ لِيَتَمَرَّنُوا عَلَى التَّفَكُّرِ

قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ ، هَلِ التَّفَكُّرُ مِمَّا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ ؟ فَأُجِيبُهُ : هَـذَا مَا أَعْتَقِدُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِى التَّمْيِيزُ التَّامُّ بَيْنَ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَبَيْنَ مَا يَسْتَنْتِجُهُ هُوَ مِنْهَا بِنَظَرِهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ ، وَنَحْنُ فِى تَخَاطُبِنَا مَعَهُ لَا نَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى تَأْدِيَةِ أَفْكَارِنَا إِلَيْهِ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ أَوِ النَّقْصِ ، مَعَ أَنَّ الَّذِى كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصْرِفَ هِمَّتَنَا إِلَيْهِ هُوَ إِيقَاظُ ذِهْنِهِ وَاسْتِنْبَاطُ أَفْكَارِهِ وَآرَائِهِ فَأَذْهَانُ مَنْ يُعَاشِرُونَ الْكِبَارَ مِنَ الْأَطْفَالِ مَحْشُوَّةٌ بِجُمَلٍ مِنَ الْكَلَامِ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهَا فِى مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ إِلَّا مَعَانِىَ فِى غَايَةِ التَّشَابُهِ وَالِالْتِبَاسِ ، وَلَيْسَ شَحْنُ أَذْهَانِهِمْ بِهَذِهِ الْجُمَلِ مِمَّا يُنَمِّى فِيهِمْ قُوَى الْإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَكِنَّهُ إِبْهَاظٌ (٢) لَهَا ، بِمَا لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا .

---

(١) الجرثومة : الأصل . (٢) الابهاظ : التثقيل وتحميل ما فوق الطاقة .

وكم لاقيت في سالف أيامي أطفالا يشتهرهم الناس بكونهم آيات في الذكاء والفطنة فرأيت أن كل ما يدعى لهم من العقل ينحصر في انطلاق ألسنتهم بما لا معنى له من القول، وكنت عند نظرى إليهم — وهم في تنوقهم (١) وإعدادهم أنفسهم لنيل الشهادات المدرسية — يعرونى من انقباض النفس وضيق الصدر مالا أجد سبيلا إلى دفعه كالذى يعروك (٢) لرؤية المتصنعين المدعين ما ليس فيهم، وكنت أقول في نفسي إن المشتغلين بتربيتهم يسلبونهم اليسير الذى آتاهم الله (سبحانه) من المواهب الخلقية بتعليمهم إياهم أفانين القول وأساليب الكلام ليسموهم بسمات العقل الذى لما يبلغوا رتبته. أما والله لو كان لى الخيار لاخترت «لإميل» أن يصدر عنه فكر ساذج ولو واحدا فقط يكون منبعثا عن محض اختياره وكسبه، ولفضلت هذا على كل ذلك الزخرف (٣) القولى والثرثرة (٤) التى لا نسبة بينها وبين العقل.

إذا نظرت إلى الكون رأيته مملوءا بأناس يتكلمون بما يوجد في الكتب، فإن كل من يسمعهم يذكر أنه طالع فيها جميع ما يقولونه والخطأ في هذا الأمر راجع إلى تربيتهم لأنهم قد تعلموا من نشأتهم أن يرددوا آراء غيرهم.

الأم بالنسبة إلى ولدها هي المجتمع الإنسانى بل المثال الحى لآثار السلف، ولا يشك أحد في أنها مكلفة أن تعلمه كثيرا ولكن يجب عليها في تعليمها هذا التلميذ الصغير أن تكون على غاية الحذر من أن تلقى في نفسه الخضوع للألفاظ والاستعباد لها، ذلك أن هذا الأمر ليس من شأنه أن يفتح مغلق عقله بل

(١) التنوق : الدعوى الباطلة والعجرفة . (٢) يعروك : يصيبك .
(٣) الزخرف القولى : المحسنات اللفظية . (٤) الثرثرة : تكثير الكلام وترديده في تخليط .

فِيهِ إِغَاضَةٌ (١) لِيَنْبُوعِ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَا بِدْعَ فِي ذَلِكَ فَأَنْتَ تَرَيْنَ النَّاسَ قَدْ سَمَّوْا أَعْمَالًا كَثِيرَةً قَدَّسَتْهَا الْعَادَةُ فُرُوضًا مَعَ رَفْضِ الْعَقْلِ إِيَّاهَا وَعَدَمِ تَسْلِيمِهَا، وَتَرَيْنَ الْحَقَّ يَدْمَغُ (٢) جَمِيعَ الْأَبَاطِيلِ عَلَى التَّعَاقُبِ، وَالْقُوَّةَ فِي كُلِّ زَمَنٍ تَسْلُبُ الْحَقَّ مَالَهُ مِنْ مُوجِبَاتِ الشَّرَفِ وَالِاعْتِبَارِ. فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ بِهِ عِلْمُهُ إِلَى الِاحْتِرَاسِ مِنْ غُرُورِ الْقَوْلِ وَبَاطِلِهِ وَالسَّيْرِ فِي ظُلُمَاتِ اللُّغَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى هُدًى فَذَلِكَ الَّذِي يَعِيشُ دَهْرَهُ مَفْتُونًا بِزُخْرُفِهَا أَسِيرًا فِي رِبْقَتِهَا.

فَالَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا لِلطِّفْلِ هُوَ تَعْرِيفُهُ بِحَالَةِ الْكَوْنِ الْمُحِيطِ بِهِ تَعْرِيفًا يَكُونُ بِلَا شَكٍّ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ عَلَى الظَّوَاهِرِ وَالِاقْتِصَارِ عَلَى مَالَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مَعَانٍ، وَأُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُؤَثِّرٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِي عَقْلِ الْإِنْسَانِ وَيُوَلِّدَ مِنْهُ فِكْرًا. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْأَطْفَالَ بَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ مِنْ عُمُرِهِمْ لَا يَكُونُونَ مُفَكِّرِينَ فَقَدْ ظَلَمَهُمْ وَحَطَّ مِنْ قَدْرِهِمْ. نَعَمْ إِنَّ أَفْكَارَهُمْ لَيْسَتْ كَأَفْكَارِنَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدْعُونَا أَيْضًا إِلَى اعْتِبَارِهَا وَعَدَمِ إِغْفَالِهَا، وَقَلَّمَا يُوجَدُ طِفْلٌ لَا يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ إِلَى مَالَا يُعَلِّمُهُ الْقَائِمُونَ عَلَيْهِ إِيَّاهُ إِذَا تَكَلَّفُوا إِقَامَتَهُ عَلَى طَرِيقِهِ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِالتَّجْرِبَةِ وَالتَّمْرِينِ عَلَى إِزَالَةِ بَعْضِ مَا تَقَعُ فِيهِ مَشَاعِرُهُ مِنَ الْأَغْلَاطِ، وَأَنْ يَحُثُّوهُ بِالْإِشَارَةِ وَالْكَلَامِ عَلَى النَّظَرِ وَالْمُلَاحَظَةِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ سَهُلَ عَلَيْهِ – بِمَا يُجْرِيهِ مِنَ الْأَقْيِسَةِ – رَبْطُ الْحَوَادِثِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَإِرْجَاعُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، كَإِرْجَاعِ اسْتِطَالَةِ ظِلِّ الرُّمْحِ مَثَلًا إِلَى

(١) اغاضه انقصه.

(٢) يدمغ يبطل ويمحق.

انحدار الشمس عن أوجها ، وأصبح القياس بهذه الطريقة ملكة راسخة في نفسه على ما يفيده إياه من العلوم الأولية فإن في اسناد الحوادث بعضها إلى بعض تعلما للحكم عليها .

الرسالة العشرون

من إراسم إلى هيلانة في ١٠ يوليه سنة ١٨٥

محاولته الهرب من السجن مع المسجونين وعدم إفلاحهم وخوفه انقطاع المراسلة

قد هم المسجونون بالهرب من سجن ... ... وشرعوا في ذلك فعلا فانكشف أمرهم ، وستقرئين في الصحف تفصيل هذه الواقعة وكانت الأحوال كلها مساعدة لنا على هذا الهرب ، وناهيك بليل غاب بدره ، وريح اشتدت عواصفها ، ومطر انهمرت سيوله على جدران السجن ، ولكننا أخفقنا بعد أن قطعنا أصعب العقبات وأشدها ، وأوشكنا أن نفوز بالنجاة .

وسيكون من نتائج هذه الحادثة بحسب الظاهر زيادة التشديد في مراقبة المسجونين ، وأن تصير المراسلات مع ما كانت محتفة به من العوائق على خطر الانقطاع مدة طويلة ، ولست أدرى هل يصل إليك هذا المكتوب أو تحول دونه الحوائل ، وأرجو أيتها العزيزة هيلانة أن لا يوجدك على هذا الأمر فإنى لم أستطع أن أصم أذنى عن نداء الفطرة التى تدعونى إليك وإلى ولدنا . اهـ

الرسالة الحادية والعشرون

(مِن هيلانة إلى إراسْم فى ديسمبر سنة ١٨٥)

بيانُ شُغلِ «إميل» وأنَّ الأعمالَ الصبيانيةَ ليستْ باطلةً برمَّتِها بل منها ما قد يكونُ مفيدًا

كتبتُ للحكومةِ ثلاثَ مرّاتٍ أستطلعُها شيئًا من أخبارِك ، فصدرَ فى كلِّ واحدةٍ منها أمرٌ رسميٌّ بإجابتى أنّكَ بخيرٍ ، وذلكَ تهكُّمٌ وسخريةٌ .

أنا لا أُطيقُ هـذا السكوتَ الذى طالَ أمدُهُ بيننا ثمانيةَ عشرَ شهرًا ، فإنّهُ قد أمضَّني وأحرجَ صدرى ، ولكنّى أرانى قد اهتديتُ إلى حيلةٍ لإيصالِ مكتوباتى إليكَ سترى حتمًا ما يكونُ من نجاحِها ، وسواءٌ علىَّ أفلحتُ فيها أم لم أُفلح فإنّى لن آلو[1] جهدًا فى ملازمةِ جدرانِ سجنِكَ ومحاصرتِها على النحوِ الذى أعرفُهُ .

إنقضتْ كلُّ هـذهِ المدّةِ ولا سُلوانَ لى عن همّى إلّا فى « إميل » أوَّهْ ! إنّى لأبذلُ أنفسَ ما عندى لمن يأتينى بكَ الساعةَ لتراهُ يغدو ويروحُ فى البستانِ مكشوفَ الساقينِ إلى نصفِهِما عارىَ الذراعينِ مرسلَ الشعرِ ، فإنَّ شهرَ ديسمبرَ هنا كما أخبرتُكَ فيما سبقَ غايةٌ فى اعتدالِ الإقليمِ ويقولُ صديقُكَ الدكتورُ إنَّ شدَّ أعضاءِ الأطفالِ وتقويتَها بتعريضِها لهواءِ الجوِّ يعودُ بالفائدةِ عليهم فى أبدانِهم . ثمَّ اعلمْ أنَّ «إميل» غلامٌ متعِبٌ فإنّهُ كَلِفٌ بلمسِ كلِّ شىءٍ يقعُ بصرُهُ عليـهِ ، فهل ينبغى منعُهُ من ذلكَ ؟ وليتَـكَ ترى ما يحدثُهُ كلَّ يومٍ فى البستانِ من ضروبِ الإتلافِ التى كانَ قوبيدونُ فى بدايةِ الأمرِ يتوجّعُ منها ويشكو فلمّا أعيتهُ الحيلُ

(١) آلو : أقصر .

انتهى بالضحك عجزا ويأسا . ذلك لأن ولدك له فى الاشتعال طرق شتى هو مخصوص بها ، فهو يقلب الأرض بمقلب صغير من الخشب ، ويغرس الأشجار ، استغفر الله بل أظنه يبني أيضا ولعلك تقول إنه يبني قصورا فى إسبانية[1] — لا ! وإنما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفا . ثم إن الذى يضحكني ويسليني منه أنه يسمى تلك الألاعيب شغلا وهى تسمية تشير إلى أن الأطفال مجبولون على تعظيم أعمالهم فى أنفسهم وتقديرها بأكثر من قيمتها ، على أن ما يصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من أنواع هذا التقدير ليس بجملته باطلا بطلانا تاما . فإن ثمرة البلوط مثلا اذا سقطت على الأرض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لا يمنع فى ذلك أن تصير يوما ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها فى الأرض) . اه .

الرسالة الثانية والعشرون

(من هيلانة إلى إراسم فى ١٢ يناير سنة — ١٨٥)

أنس « إميل » بالدواجن وأنسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الإنسان الفطرية التى كانت تدعو تلك الحيوانات إلى الثقة به

إتخذ « إميل » له خليلة ولهذه المناسبة ينبغى أن أقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعا بسببها ارتياعا عظيما : ذلك أن فوبيدون لما كان قليل الثقة

---

(١) مثل يضرب به الفرنسيون لمن يتشبث بالأماني الوهمية ويغتر بالخيالات الكاذبة .

بِشُرْطَةِ الحُكُومَاتِ المَدَنِيَّةِ فِي حِفْظِ الأَنْفُسِ وَالأَمْوَالِ لِمَا هُوَ لَاصِقٌ بِذِهْنِهِ مِنْ أَفْكَارٍ مُتَوَحِّشِي أَفْرِيقِيَةَ — قَدْ عَثَرَ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي عَلَى كَلْبَةٍ ضَخْمَةٍ طَوِيلَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الكِلَابِ تَوَحُّشًا فَسَمَّيْنَاهَا (الدُّبَّة) وَهُوَ اسْمٌ يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا كَمَالَ الانْطِبَاقِ فِي شَعْرِهَا الأَسْوَدِ وَقُوَّتِهَا العَظِيمَةِ وَغَرَائِزِهَا العِدَائِيَّةِ، وَقَدْ وَضَعَتْ مُنْذُ شَهْرَيْنِ خَمْسَةَ جِرَاءٍ تُمَاثِلُهَا لِأَنَّهَا مِنْ حِينِ وِلَادَتِهَا بَدَتْ عَلَيْهَا سِمَاتُ الدَّمَامَةِ وَالبَشَاعَةِ فَأَسْكَنَّاهَا فِي بَيْتِ الدَّجَاجِ وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ وَضْعِهَا أَنْ زَادَ تَوَحُّشُهَا الفِطْرِيُّ بِسَبَبِ حُنُوِّهَا الأُمِّيِّ كَمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ غَالِبًا مِنَ الحَيَوَانَاتِ الضَّارِيَةِ، فَقَدْ تَخَيَّلَتْ أَنْ تُخْفِيَ جِرَاءَهَا فِي سَقِيفَةٍ كَانَتْ تَحْرُسُ مَدَاخِلَهَا وَتَمْنَعُهَا بِنَفْسِهَا لِظَنِّهَا بِلَا رَيْبٍ أَنَّنَا نَأْخُذُهَا مِنْهَا، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُ بِأَنْ لَا يَدْخُلَ «إِمِيل» بَيْتَ الدَّجَاجِ بَعْدَ سُكْنَاهَا فِيهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهِ مُقَابَلَةَ هَذَا الحَارِسِ الجَهَنَّمِيِّ، وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟ وَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ لَمْ يَتَجَاوَزِ التَّهَادِي فِي مِشْيَتِهِ يَتَسَلَّلُ وَيَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَفِي عَصْرِ ذَاتِ يَوْمٍ افْتَقَدْنَاهُ فِي البَيْتِ وَالبُسْتَانِ فَلَمْ نَجِدْهُ، فَأَرْسَلْتُ قُوبِيدُونَ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ رَأَيْنَا بَيْتَ الدَّجَاجِ مَفْتُوحًا فَلَمْ يَبْقَ فِي نُفُوسِنَا رَيْبٌ فِي أَنَّهُ دَخَلَهُ، وَلَكِنْ ضَاعَ بَحْثُنَا فِيهِ سُدًى، فَأَوَّلُ خَاطِرٍ مَرَّ بِفِكْرِ الزِّنْجِيِّ هُوَ أَنَّ الكَلْبَةَ افْتَرَسَتْهُ وَهُوَ خَاطِرٌ فِيهِ رِيحُ التَّوَحُّشِ حَقًّا.

لَمْ تَكُنْ دَهْشَةُ قُوبِيدُونَ بِأَقَلَّ مِنْ ذُعْرِهِ (١) إِذْ دَخَلَ السَّقِيفَةَ مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ فَرَأَى «إِمِيلَ» وَقَدْ رَقَدَ عَلَى الدُّبَّةِ وَأَخَذَ بِأُذُنَيْهَا الطَّوِيلَتَيْنِ المُتَدَلِّيَتَيْنِ يَجْذِبُهُمَا إِلَيْهِ وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا خُرُوجًا عَنْ مَأْلُوفِ العَادَةِ وَأَبْعَدُ مِنْهُ عَنْ مَعْهُودِهَا أَنَّ ذَلِكَ الحَيَوَانَ

(١) ذعره: خوفه الشديد.

كان يتسامح له فيما كان يفعله به ويتحمل منه لجاجته في محكه[٢] بشهامة وعلو نفس لا يتصف بهما إلا الآخذون بطريقة زينون[٣] فلم يلبث قوبيدون أن فهم وهو مندهش أن الكلبة قد اتخذت (إميل) خليلا وأكرمت وفادته فقبلته بين أولادها، لكنها لم تمنح الزنجي شيئا من هذه المراعاة لأنها لما رأته أنشأت تهر وتكشر عن أنيابها زجرا له، فرأى من الحزم الفرار من أمامها فخرج داعيا (إميل) إلى اللحاق به فتبعه جذلا مبتهجا غافلا عما كان قد اقتحمه من الخطر.

ومن هذا الحين انعقد التعارف بين (إميل) وبين الدبة، وكأنها توهمته جروا صغيرا لم تحسن أمه حسه فكانت من أجل ذلك تعتبره ممن تجب لهم حمايتها، وتلحس ما انكشف من أعضائه بلسانها العريض، وعلى كل حال قد ظهر لي أنها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها على ولدي.

لم يقتصر (إميل) على مصادقة الدبة بل له أصدقاء غيرها لجميع سكان بيت الدجاج معارفه، ومن العجيب أن تراهم في غاية الائتلاف والوئام ولست أخفي عنك أني مهتمة بهذا العالم البيتي الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال.

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ماء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحلب من سطوح المنازل فخطر ببالنا أن نضع فيها بطا، وتعهد بذلك قوبيدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا وأصبحنا نتسلى

(١) رأم الكلبة : حبها وألفها . (٢) المحك : المشادة والمنازعة واستعير هنا للضايقة .

(٣) هو المسمى بزينون السيتيومي نسبة الى سيتيوم مدينة في جزيرة قبرص ولد في سنة ٣٧٢ ومات في سنة ٢٧٤ قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص في الفلسفة أساسه الصبر على المكاره .

رُؤْيَةِ رِيشِهَا الْأَخْضَرِ الْجَمِيلِ الْمُمَثِّلِ لِفِلَذِ(٢) الْمَعَادِنِ وَنَبْتَهِجُ بِمَا تُبْدِيهِ لَنَا مِنْ ضُرُوبِ الْمَرَحِ وَاللَّعِبِ فِى الْمَاءِ وَبِمَا تُسْمِعُنَا مِنَ الْبَطْبَطَةِ وَتُرِينَا مِنَ الائْتِلَافِ الصَّحِيحِ الَّذِى جَمَعَتْهَا وَشَائِجُهُ(٣) ، وَلَكِنَّ الزِّنْجِيَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ لَاحَظَ عَدَمَ التَّنَاسُبِ وَالتَّلَاؤُمِ فِى تَأَلُّفِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّهُ وَجَدَ فِيهَا ذَكَرَيْنِ لِأُنْثَى وَاحِدَةٍ مَعَ أَنَّ الْبَطَّ عَلَى مَا يَظْهَرُ يَمِيلُ إِلَى تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ عَلَى نَحْوِ مَا عَلَيْهِ التُّرْكُ : يَتَزَوَّجُ السُّلْطَانُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ ، فَمِنْ أَجْلِ مُدَاوَاةِ هَذِهِ الْعِلَّةِ الَّتِى جَزَمَ قُوبِيدُونُ بِمُخَالَفَتِهَا لِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ(٤) قَدِ اشْتَرَى زَوْجًا آخَرَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ هَذِهِ الدَّفْعَةَ مِنْ أُنُوثَتِهِ وَتَحَرَّاهَا كَمَا يَنْبَغِى وَبِذَلِكَ أَصْلَحَ الْخَطَأَ الْأَوَّلَ بَعْضَ الْإِصْلَاحِ وَبَقِىَ أَمْرٌ مَا كَانَ يَخْطُرُ لَنَا عَلَى بَالٍ قَبْلَ شِرَاءِ هَذَا الزَّوْجِ فَانْعَكَسَ فِيهِ تَقْدِيرُنَا وَخَابَ حُسْبَانُنَا ، وَهُوَ سُوءُ اسْتِقْبَالِ الْبَطَّاتِ الْقَدِيمَةِ لِهَذَا الزَّوْجِ فَإِنَّهَا بِمُجَرَّدِ أَنْ رَأَتْهُ وَلَّتْهُ

(١) الداجن المستأنس الذى يألف البيت .

(٢) الفلذ جمع فلذة وهى القطعة .

(٣) الوشائج جمع وشيجة وهى فى الأصل عرق الشجرة وليف يفتل ثم يشد بين خشبتين والمراد بها هنا الوصلة .

(٤) عجبا لقو بيدون وأمثال قو بيدون ممن يحكمون على الأمور عن غير بينة و يعيبون عوائد قومهم بلا ترو ولا بصيرة تقليدا للأجانب ومحاكاة لهم فى مذاهبهم فليس صحيحا أن تعدد الزوجات مخالف لمقتضى الفطرة كما يقول موافقة لرأى سيدته وتعاميا عن حالة التعدد الفطرية التى نشأ هو وقومه فيها من عهد الخليقة الأولى بل الفطارة تقتضى بقاء نسل كل ما دب على وجه الأرض من الحيوانات لاستمرار عمارة الأرض والمشهود أن الإناث من كل قبيل أكثر عددا من الذكور لذلك كان أدخل فى مقتضى الفطرة وأنسب لغرضها أن يكون للذكر الواحد أكثر من أنثى ولكن الله سبحانه الذى كرم الانسان وفضله على كثير من خلقه تفضيلا لم يتركه سدى بل أرسل له الرسل يحملون له صحفا مطهرة فيها كتب قيمة حددت له الحدود فى سيرته تهذيبا لفطرته وتقويما لسيرته فأباحت له التعدد ما دعت اليه الضرورة ومنعته منه عند عدمها حفظا للنسل ومنعا للعنت وتحقيقا للعدل — المترجم .

ظُهُورَهَا مُصِرَّةً عَلَى مُجَانَبَتِهِ وَكُلَّمَا حَاوَلَ الْقُرْبَ مِنْهَا نَهَرَتْهُ وَأَوْسَعَتْهُ نَقْرًا ، فَأَرَدْنَا التَّوَسُّطَ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فَلَمْ يُجْدِ ذَلِكَ نَفْعًا ، لِأَنَّنَا مَا كِدْنَا نُفَارِقُهُمَا حَتَّى عَقَدَتِ الثَّلَاثُ الْقَدِيمَاتُ مَجْلِسًا لِلشُّورَى بَيْنَهَا بِمَعْزِلٍ عَنِ الْحَدِيثَتَيْنِ وَأَنْشَأْنَ يُبَطْبِطْنَ طَوِيلًا ، وَلَمْ أَعْرِفْ مَا دَارَ بَيْنَهُنَّ مِنَ التَّدَاوُلِ وَالتَّشَاوُرِ بِنَصِّهِ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِي لِسَانَهُنَّ ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ كَانَ ظَاهِرًا فَكَأَنَّهُنَّ كُنَّ يَقُلْنَ : إِنَّنَا قَدْ سَكَنَّا هَذَا الْمَكَانَ قَبْلَهُمَا ، وَلَنَا الْحَقُّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْ نَعْتَبِرَهُمَا دَخِيلَتَيْنِ ، فَأَجْدَرُ بِنَا أَنْ نَشْوِيَ عَلَى السَّفُّودِ[1] شَيًّا وَأَنْ نُجَهِّزَ بِاللِّفْتِ طَعَامًا لِلْآكِلِينَ مِنْ أَنْ نَقْبَلَهُمَا فِي جَمَاعَتِنَا فَنَحْنُ بَطٌّ ، وَأَمَّا هُمَا فَلَيْسَتَا إِلَّا مِنَ السَّقَطِ .

لَمَّا لَاحَظَ قُوبِيدُونُ أَنَّ أَحَدَ أَفْرَادِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ — وَهُوَ ذَكَرٌ أَبْيَضُ ذُو قُنْزُعَةٍ[2] طَوِيلَةٍ — كَانَ أَشَدَّهَا لَجَاجَةً فِي النُّفُورِ صَمَّمَ عَلَى ذَبْحِهِ عَلَى نُصُبِ[3] الْوِفَاقِ فِدَاءً لِلِاتِّحَادِ وَالتَّآلُفِ فَلَمَّا فَعَلَ أَنْتَجَ هَذَا الْقُرْبَانُ — مَعَ أَسَفِي عَلَيْهِ — أَثَرَهُ الْمَطْلُوبَ ، فَأَخَذَ كُلُّ فَرِيقٍ يَتَدَرَّجُ فِي التَّقَرُّبِ مِنَ الْآخَرِ حَتَّى انْتَهَيَا بِأَنْ صَارَا جَمَاعَةً وَاحِدَةً ، وَإِنْ كَانَتِ الْبَطَّةُ الْقَدِيمَةُ هِيَ السُّلْطَانَةَ الْحَظِيَّةَ ، فَمَا رَأْيُكَ فِي ذَلِكَ الشَّمَمِ وَالتَّرَفُّعِ فِي هَذَا الْجِنْسِ الْحَيَوَانِيِّ ؟ أَتَرَى أَنَّ الْمَيْلَ لِلسُّؤْدُدِ وَالشَّرَفِ هُوَ الْأَصْلُ الثَّابِتُ فِي الْفِطْرَةِ وَأَنَّ الْمُسَاوَاةَ بِالْمَعْنَى الَّذِي نَفْهَمُهُ مِنْهَا أَمْرٌ عَارِضٌ عَلَيْهَا اكْتَسَبَهُ الْإِنْسَانُ بِالْعَدْلِ .

(١) السفود حديدة يشوى عليها اللحم .

(٢) القنزعة : خصلة من الشعر أو الريش تكون فى أعلى الرأس .

(٣) النصب مكان ذبح الضحايا والقرابين .

لو شئت لقصصت عليك أيضا وقائع كثيرة فى عوائد الحمام وأخلاقه هى بالنسبة إلىّ جديدة، فقد تبين لى من النظر فى معيشته فى برجنا أن أموره لا تجرى تمام الجرى على ما تصفه الكتب من جعله على الجملة مثالا للصداقة والوفاء بعقد الزوجية لأنى رأيت ذكرا عتيقا متزوجا بحمامة فتية كان حظه منها حظ أولئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم، فتركته فى يوم من الأيام واستبدلت به ذكرا فتيا متصلفا استمالها منه بلا ريب رقيق كلامه، وجميل تحيته وسلامه، وكأنى بك تقول: أى الزوجين كان مخطئا ؟ الزوجة لأنها طائشة وسريعة التحول والانقلاب ؟ أم الزوج لأنه أغفلها ولم يراعها كما ينبغى ؟ فأجيبك: أنه ينبغى الحذر من المجازفة فى الأحكام على غير علم، ومن أجل ذلك أمسك قبل كل شىء عن الحكم: وأقول إن الزوج المخون (١) على كل حال قد تلقى سقوط حرمته بعلو نفس يدل على الشجاعة الحقيقية، فكان إذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة فى طريق يمر بجوارها بدون أن يظهر عليه أنه رآها وأن يبدى أقل أمارة على حنقه عليها، إلا أنه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها منه لأنهما عند ما كانا يتقابلان كانا يتبادلان النقر الأليم الوقع كما كان منيلاس (٢) وباريس يتبادلان الطعن والضرب فى حومة الوغى ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت حضانة البيض لم تحسنها لأنها

(١) ما كان للديوث أن يوصف بعلو النفس والشجاعة وما به الا انحطاط النفس والتهاون فى العرض اللذين هما من مساوىء كل خسيس لئيم .

(٢) منيلاس هو ابن أتريه وأخو آغا ممنون صار ملكا لاسبارطة بتزوجه بهيلانة بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيبه وكان السبب فى انتشاب حرب تروادة الشهيرة بخطفه هيلانة زوجة منيلاس ملك أسبارطة قتل فى هذه الحرب اشيل وقتل هو أيضا بسيف بيروس — المترجم .

ورفيقها كانا من فرط اشتغالهما بدواعي الحب بحيث لم يكن ليتيسر لهما أن يكثرا من التفكر في فروض البيت، ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور، فإننا رأيناه ذات يوم يخرجهما من إحدى المحاضن حيث كانا مشتغلين بتربية أفراخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتيان بها على وجهها. وكأنه كان يقول لهما وقت إخراجهما «أف لكما أنتما لا تعرفان من التربية شيئاً فخليا مكانكما» فلم يكن إلا أن خلياه بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن أدعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه فنبهت فكرى هذه السيرة الشريفة[1] إلى أمر من المحتمل أن يكون هو سبب شقائه بزوجته وهو أن صفة الأبوة فيه غالبة على صفة الزوجية.

«إميل» كما لا يعزب عن فكرك يجهل كل هذه الإعتبارات المختلفة التي لاحظتها في معيشة الطيور، وبودى أن لا يفهم كل ما فيها وإنما الذي أعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الألفة والارتباط، هذا وإننا كثيرا ما تساءلنا عن السبب في أن تأنيس الحيوانات كاد ينقطع من عهد أن وجدت المجتمعات المدنية، ولا شك أن علة ذلك ليست هي إعواز الحيوانات المتوحشة، فإن في الصحراء كثيرا من أنواعها النافعة التي يكون من فائدتنا الظفر بها لو زال المانع من ذلك، فإذا كان الأمر كما أقول فقد يكون السبب في وشك انقطاع التأنيس هو كون الانسان في عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وأن صفات الطفولية هي اللازمة لذلك. اه

(١) ما أبعد سيرة هذا الديوث من الشرف وان نفسا ترضى بحضانة ولد المغير على حريمها الوالغ في عرضها المنتهك له لهى في غاية الضعة والحقارة لا حظ لها من الأنفة والإباء — المترجم.

الرسالة الثالثة والعشرون

(مِنْ هيلانَة إلَى إراسْم فِى ١٦ يناير سنة — ١٨٥)

تأثِيرُ الجمَالِ فِى الأطْفَالِ واحْتِياجُهُمْ إلَى كثْرَةِ التعلُّم

لَاحَظْتُ أَنَّ إمِيلَ كُلَّمَا صحِبَنِى إلَى دَارِ السَّيِّدَةِ وَارِنْجتُونَ وَوَجَدَ هُنَاكَ نِسْوَةً مِنَ الْمَدِينَةِ اصْطَفَى لِمَعْرِفَتِهِ مِنْهُنَّ عَادَةً أَحْسنَهُنَّ خَلْقًا ، وَرُبَّمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلجَمَالِ تَأْثِيرًا فِى نُفُوسِ الأَطْفَالِ .

وَبَدَا لِى مِنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ يحِبُّ الشُّيُوخَ وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِيهِ احْتِيَاجُ الأَطْفَالِ إلَى كَثْرَةِ التَّعلُّمِ وَمَيْلُ الشُّيُوخِ إلَى الإكْثَارِ مِنَ التَّكَلُّمِ .

لَكِنْ لَا يَدْعُونَّكَ هَذَا إلَى أَنْ تَتَصَوَّرَ فِيهِ أَنَّهُ مِثَالٌ لِأَتْرَابِهِ (١) ، عَلَى أَنَّنِى لَا أُرِيدُ أَنْ أَفْتَاتَ (٢) عَلَيْكَ بِالحُكْمِ فِى هَذَا الأَمْرِ فَأَدَعُهُ لَكَ تَحْكُمُ فِيهِ بِنَفْسِكَ . أَنَا أَلُومُ نَفْسِى وَأُبَكِّتُهَا عَلَى اسْتِمْتَاعِهَا دُونَكَ بِمَا تَجِدُهُ فِى مُنْتَآى (٣) مِنَ السَّكِينَةِ وَالدَّعَةِ (٤) ، وَقَدْ عَزَمْتُ مِنْ أَجْلِ هَذَا عَلَى أَنْ أَبْذُلَ نَفْسِى لَكَ كَمَا بَذَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ فَاسْتَأْجَرْتُ مَخْدَعًا فِى سَفِينَةٍ سَتُقْلِعُ مِنْ بَتْرَانِس إلَى ... فَعَلَيْكَ إذَنْ أَنْ تَرْتَقِبَ لِقَاءَنَا . اه

---

(١) الأتراب جمع ترب وهم الذين فى سن واحدة .

(٢) افتات : اعتدى .

(٣) المنتآى : المغترب أى محل الاغتراب والابتعاد .

(٤) الدعة : الراحة .

الرسالة الرابعة والعشرون

(من إرازمس إلى هيلانة فى ٢٠ منه سنة — ١٨٥)

إخبارها بصدور أمر بنقله إلى سجن آخر

وإقناعها بالعدول عن السفر إليه

ترددت حيناً فى الكتابة إليك لأنى لم أجد فى نفسى من الإقدام ما يبعثنى على إخبارك بآخر بلاء أصابنى وأنا — على ما أعلمه الآن من أنك قد تطالعين خبر هذا البلاء فى الصحف — أفضل أن أنبئك به على كل حال، ذلك أنه قد صدر من حيث لا أدرى أمر بنقلى ... ...

ليس شأنى كما تعلمين شأن المقضى عليه بعقاب فهو يذوق عذابه لأن هذا فى قبضة القانون، وأما أنا ففى قبضة القوة تصرفنى كيفما شاءت ، فلست أدرى من ذا الذى قضى على، وأمر اتهامى سر يعلمه الله، وإذا سألت : ما ذا يراد بى ومتى وأين ينتهى عقابى وهل هذا النقل الحديث آخر مرحلة من مراحل سفرى الأليم الممض ؟ فلا أجد جواباً لواحد من هذه الأسئلة .

على أنه لا ينبغى أن ترتاعى لهذه المحنة الجديدة فالبحار تعرفنى وأنا أعرفها ولاعتيادى المعيشة فى أقاليم مختلفة أصبح فى استطاعتى احتمال حرارة الشمس ورطوبة السواحل .

وعليك الآن أن تكفى عن التمسك بأمل اللقاء فإن بيننا بحراً كالصحراء وأرضين وبيئة ، وأن تبذلى نفسك فى سبيل تربية ولدنا ، وعلينا جميعاً أن ندأب فى عملنا وأن نتلقى كل ما يعترضنا من العقبات بعزيمة صادقة وقصد ثابت .

أَرْجُو مُوافاتِى بِأَخْبَارِ «إمِيلَ» مَتَى تَيَسَّرَ لَكَ ذَلِكَ .

فِيمَا انطوت عَلَيْهِ أَحْشَائِى أَمْرَانِ لَوِ اجْتَمَعَتْ قُوَى الْبَشَرِ عَلَى أَنْ تَسلُبَنِى إِيَّاهُمَا لَرُدَّتْ بالخَيْبَةِ وَالخَسَارِ أَلَا وَهُمَا فِكْرِى وَحُبُّكِ، فَيَكْفِينِى مَالَدَىَّ مِنَ البَرَاهِينِ الْيَقِينِيَّةِ عَلَى أَنِّى مُحِقٌّ فِى تَقوِيَتِى عَلَى احتِمَالِ مَا ابْتُلِيتُ بِهِ مِنَ الاضْطِهَادِ وَالظُّلْمِ . اهـ

الرسالة الخامسة والعشرون

(مِنْ هيلانَةَ إلى إراسْمَ فى ٦ مايو سنة — ١٨٥)

تَعلِيمُ الأَطْفَالِ الصِّدْقَ وَالإِحْسَانَ وَالرَّحْمَةَ بِالْحَيَوَانِ وَالعَدْلَ فِى الْمُعَامَلَةِ وَاحْتِرَامَ الزَّمَنِ بِالْعَمَلِ وَالْمُمَارَسَةِ دُونَ الْحِفْظِ وَالتَّلَقِّ

كَانَتْ عَاقِبَةُ جِدِّى فِى السَّعْيِ أَنْ فُزْتُ بِوَصْلِ حَبْلِ الْمُرَاسَلَةِ مِنْ وَرَاءِ مَا بَيْنَنَا مِنَ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ بَعْدَ طُولِ انْقِطَاعِهِ ، وَلَسْتُ أَعُدُّ مِنَ التَّرَسُّلِ مَا تَنَاوَبْنَاهُ مُنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ مِنَ الْمَكْتُوبَاتِ[1] غَيْرِ الْمُهِمَّةِ الَّتِى كَانَ دَأْبُ كُلٍّ مِنَّا فِيهَا الإِقْلَالَ مِنَ الْقَوْلِ جُهْدَهُ، فَأَنَا مُحْتَاجَةٌ فِى تَخَاطُبِي مَعَكَ إِلَى مُنَاجَاةِ قَلْبِكَ بِفِكْرٍ تَامِّ الاِخْتِيَارِ وَضَمِيرٍ كَامِلِ الْحُرِّيَّةِ .

لَا أَرْجِعُ إِلَى مَا مَضَى مِنَ الْحَوَادِثِ فَالْكَلَامُ فِيهِ عَدِيمُ الْجَدْوَى وَإِنَّمَا أَقُولُ: إِنِّى قَدْ عَرَانِى لِخَبَرِ نَقْلِكَ مِنْ سِجْنِكَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الأَلَمِ مَا أَلَحَّ بِى فِى التَّصْمِيمِ عَلَى اللَّحَاقِ بِكَ لِحَاجَةٍ لَمْ أُحِسَّ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَمْنَعْنِى مِنَ الْمُضِىِّ مَعَهَا سِوَى

(١) هامش الأصل — لم نورد تلك المكتوبات التى ذكرتها لأنا لم نر فيها مصلحة للقارئ فان أكثر فائدة فيها انما هى تكميل عدد الرسائل .

مَا غلبنِي مِنَ الإحساسِ بِوُجُوبِ طَاعَةِ أَمْرِكَ وَسَمَاعِ نَصَائِحِ صَدِيقِكَ الدُّكتُورِ ورِعَايَةِ مَصْلَحَةِ وَلَدِنَا فانصعتُ لِذَلِكَ الإحساسِ آسفةً مُرتقِبَةً تحقيقَ أَمَلِي فِي اللِّقاءِ.

عَلِمتَ مِمَّا سَبَقَ مِنْ رَسَائِلِي مَا عَلَيْهِ «إِمِيلُ» مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ ، وَأُرِيدُ الآنَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ تَقَدُّمِهِ فِي اكْتِسَابِ الْعِلْمِ فَأَقُولُ : لَيْسَ وَلَدُنَا بِدْعًا[1] مِنَ الأَطْفَالِ — وَهُوَ أَمْرٌ أَعْتَرِفُ بِهِ وَأَنَا فِي غَايَةِ الاسْتِكَانَةِ[2] وَالْغَضَاضَةِ[3] — بَلْ يَجِدُ النَّاسُ هُنَا فِيهِ شَيْئًا مِنْ تَوَحُّشِ سُكَّانِ أَطْرَافِ الْعَالَمِ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّهُ كَمَا هُوَ لأَنِّي أَرَى جَمِيعَ مَا فِيهِ مُنْبَعِثًا عَنِ الْفِطْرَةِ ، وَلَمْ أَعْنَ حَتَّى الآنَ بِتَعْلِيمِهِ مُوَاضَعَاتِ[4] الْمُعَاشَرَةِ وَآدَابِ الاخْتِلاطِ لأَنَّ جُلَّ عِنَايَتِي كَانَ مَصْرُوفًا إِلَى النَّظَرِ فِي أَخْلاقِهِ وَأَحْوَالِ نَفْسِهِ وَالاجْتِهَادِ فِي تَقْوِيمِ طَبْعِهِ وَتَرْبِيَةِ إِدْرَاكِهِ . وَسَأَسْرُدُ لَكَ مِنْ تَجَارِبِي مَعَهُ مَا تَحْكُمُ بِهِ عَلَى مَبْلَغِ نَجَاحِي فِي ذَلِكَ .

لاحَظْتُ أَنَّ فِيهِ نَهَامَةً وَهِيَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الأَطْفَالِ فَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ قَدْ أَتَتْ عَلَيَّ مَعَهُ سَاعَةٌ ارْتَعَدَتْ فِيهَا فَرَائِصِي خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ تَلَوُّثِ نَفْسِهِ بِرَذِيلَةٍ أَفْظَعَ مِنَ النَّهَامَةِ وَأَشْنَعَ مِنْهَا كَثِيرًا أَلا وَهِيَ الْكَذِبُ ، ذَلِكَ أَنَّ جُورْجِيَّةَ كَانَتْ تَخْبِزُ ذَاتَ يَوْمٍ قُرْصًا فَطِيرًا فَلَمَّا اسْتَوَى أَخْرَجَتْهُ مِنَ الْفُرْنِ وَوَضَعَتْهُ سَاخِنًا عَلَى الْخِوَانِ[5] ثُمَّ دَعَتْنَا شُؤُونٌ مُخْتَلِفَةٌ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْبُسْتَانِ فَتَرَكْنَاهُ وَخَرَجْنَا إِلا «إِمِيلَ» فَقَدْ لاحَظْتُ مِنْهُ أَمْرًا دَهِشْتُ لَهُ وَهُوَ اجْتِنَابُهُ الذَّهَابَ وَرَاءَنَا . فَلَمَّا عُدْنَا إِلَى

(١) البدع : الغاية فى كل شىء . (٢) الاستكانة : الذل والخضوع . (٣) الغضاضة : احتمال المكروه . (٤) المواضعات : جمع مواضعة وهى الاتفاق على أمر من الأمور .
(٥) الخوان بالكسر : المائدة .

الْمَطْبَخِ لَمْ نَجِدْ لِلْقُرْصِ أَثَرًا فَاسْتَوْلَتْ عَلَيَّ رِيبَةٌ شَدِيدَةٌ فِي أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّنِي تَجَاهَلْتُ السَّارِقَ وَالْتَفَتُّ إِلَى جَمِيعِ الْحَاضِرِينَ مُظْهِرَةً أَنِّي أُخَاطِبُ كُلَّهُمْ فَقُلْتُ : لَيْتَ شِعْرِي مَنْ ذَا الَّذِي أَخَذَ الْقُرْصَ مِنْ فَوْقِ الْخِوَانِ ؟ فَأَمَّا قُو بِيدُونُ وَجُورْجِيَّةُ فَإِنَّهُمَا لَمْ يَنْبِسَا بِكَلِمَةٍ لِعِلْمِهِمَا الْبَرَاءَةَ مِنْ نَفْسَيْهِمَا وَأَمَّا « إِمِيلُ » فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ شَأْنُهُ كَذَلِكَ لَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ خَجِلَ وَصَاحَ قَائِلًا : هِيَ الدُّبَّةُ الَّتِي أَخَذَتْهُ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ هَذَا الْجَوَابَ انْجَرَحَ فُؤَادِي غَمًّا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ أَحَدِ مَكْتُوبَاتِي السَّابِقَةِ أَنَّ الدُّبَّةَ هِيَ كَلْبَةُ الْبَيْتِ ، وَلَمَّا أَعْلَمُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ الْأُلْفَةِ وَالِارْتِبَاطِ رَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ فُرْصَةٌ سَنَحَتْ لِإِيقَاظِ وِجْدَانِ الْعَدْلِ فِي نَفْسِهِ فَصَمَّمْتُ عَلَى اغْتِنَامِهَا وَقُلْتُ إِنْ كَانَتِ الدُّبَّةُ هِيَ الْآثِمَةَ فَلَا بُدَّ مِنْ جَلْدِهَا ، وَأَشَرْتُ إِلَى قُو بِيدُونَ بِتَنْفِيذِ هَذَا الْحُكْمِ وَكُنْتُ كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَتَأَمَّلُ فِي وَجْهِ « إِمِيلَ » وَأُحِسُّ بِأَنَّ فُؤَادِي يَطِيرُ شَعَاعًا ، وَلَا غَرْوَ فَأَيُّ شَيْءٍ كُنْتُ أَرْجُوهُ مِنْهُ إِذَا كَانَ أَصَرَّ عَلَى الْكِتْمَانِ وَإِنْكَارِ الْحَقِّ ؟ أَدْرَكَ الزِّنْجِيُّ بِلَا رَيْبٍ مُوجِبَ جَزَعِي وَفَهِمَ مَا قَصَدْتُهُ فَتَقَدَّمَ إِلَى الدُّبَّةِ الْمُتَجَنَّى عَلَيْهَا تَلُوحُ عَلَيْهِ سِمَاتُ جَلَّادٍ مِمَّنْ تُمَثِّلُهُمُ الْقِصَصُ الْمُحْزِنَةُ وَكَانَتْ قَدْ بَدَتْ عَلَيْهَا مُنْذُ حِينٍ عَلَائِمُ الْأُنْسِ بِمَنْ فِي الْبَيْتِ وَالسُّكُونِ إِلَيْهِمْ لِفَرَاغِهَا مِنْ أَدَاءِ وَاجِبِ الْعِنَايَةِ وَالْحِمَايَةِ لِجِرَائِهَا ، وَكَأَنَّهَا أَدْرَكَتْ جَمِيعَ مَا حَصَلَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى « إِمِيلَ » نَظَرَ الْمُسْتَعْطِفِ الْآمِلِ وَلِسَانُ حَالِهَا يُخَاطِبُهُ بِقَوْلِهِ : أَهَكَذَا تَدَعُنِي أُعَاقَبُ ظُلْمًا ؟ فَاضْطَرَبَ الْغُلَامُ مِنْ هَذَا النَّظَرِ ثُمَّ أَجْهَشَ(١) بِالْبُكَاءِ وَاسْتَلْقَى بَيْنَ يَدَيَّ قَائِلًا : كَلَّا ! لَيْسَتِ الدُّبَّةُ هِيَ الَّتِي أَخَذَتْهُ بَلْ أَنَا الْآخِذُ ! ! عِنْدَ ذَلِكَ

(١) أجهش بالبكاء هم به وتهيأ له .

سُرِّىَ عَنِّى[(١)] مَا كَانَ أَبْهَظَ نَفْسِى مِنْ مُتَرَاكِمِ الْكَدَرِ، وَلَكِنِّى رَأَيْتُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىَّ فِى هَذَا الْمَقَامِ الثَّبَاتَ وَعَدَمَ التَّعَجُّلِ فِى إِظْهَارِ الْحُنُوِّ فَصِحْتُ قَائِلَةً لَهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّكَ تَجَنَّيْتَ عَلَى الدُّبَّةِ مَا لَمْ تَجْنِهِ فَهِىَ الَّتِى يَنْبَغِى الرُّجُوعُ إِلَيْهَا فِى طَلَبِ الْعَفْوِ، فَفَهِمَ أَنَّهُ فِى الْحَقِيقَةِ قَدْ فَرَطَ مِنْهُ فِى حَقِّهَا هَفْوَةٌ يَجِبُ الاسْتِقَالَةُ مِنْهَا، فَعَمَدَ إِلَى جَيْبِ صُدْرَتِهِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ نِصْفَ الْقُرْصِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَيَسَّرَ لَهُ أَكْلُهُ كُلِّهِ وَمَدَّ يَدَهُ بِهِ إِلَيْهَا قَائِلًا خُذِى ، فَتَدَلَّلَتْ عَلَيْهِ فِى بِدَايَةِ الْأَمْرِ وَلَكِنَّهَا لَمَّا رَأَتْ أَنَّ اسْتِمَاحَتَهُ الْعَفْوَ مِنْهَا صَادِرَةٌ عَنْ قَلْبٍ سَلِيمٍ ازْدَرَدَتْ[(٢)] تِلْكَ اللُّقْمَةَ اللَّذِيذَةَ وَسِمَاتُ الرَّحْمَةِ ، وَالْبِشْرِ بَادِيَةٌ عَلَى وَجْهِهَا، فَبَعَثَنَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ قَهْقَهْنَا جَمِيعًا .

أَنَا وَإِنْ كُنْتُ لَا أُقَوِّمُ طَاعَةَ الْأَطْفَالِ لِوَالِدِيهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تَرَاهُ فِيهَا أَجِدُنِى فِى بَعْضِ الْأَحْيَانِ مُضْطَرَّةً اضْطِرَارًا شَدِيدًا إِلَى قَمْعِ أَهْوَاءِ «اميل» وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى مَا قَدْ يَضُرُّهُ، وَرَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىَّ أَنْ أَسْتَعِينَ فِى هَذَا الْأَمْرِ بِاسْتِعْدَادٍ فِطْرِىٍّ يُوجَدُ قَطْعًا فِى جَمِيعِ الْأَطْفَالِ عَلَى السَّوَاءِ ذَلِكَ أَنَّ «إميل» لَمَّا يَحْصُلْ فِى ذِهْنِهِ مِنْ حَوَادِثِ الْعَالَمِ الْخَارِجِىِّ إِلَّا صُورَةٌ مُبْهَمَةٌ ، فَتَرَاهُ يَعْتَبِرُ مَا يَتَعَاصَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَوَاتِى فِى رَغْبَتِهِ ذَا قُوَّةٍ مُتَمَرِّدَةٍ وَإِرَادَةٍ مُتَصَرِّفَةٍ . خُذْ لَكَ مَثَلًا وَهُوَ أَنَّ لَهُ كَلَفًا بِأَنْ يَقْلِبَ مُرَبَّعًا مِنَ الْبُسْتَانِ بِمِقْلَبٍ صَغِيرٍ، فَإِذَا بَاشَرَ هَذَا الْعَمَلَ سَلَّانِى وَأَضْحَكَنِى مِنْهُ أَنْ أَرَاهُ يَسْحَقُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَدَرِ[(٣)] بِرِجْلَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ مُبْدِيًا دَلَائِلَ الِابْتِهَاجِ بِالظَّفَرِ كَأَنَّمَا فِى كُلِّ مَدَرَةٍ مِنْهَا عَدُوٌّ لَهُ قَدْ أَرْغَمَهُ

(١) سرى عنى زال عنى . (٢) ازدردت ابتلعت . (٣) المدرة القطعة من الطين الجاف .

وأذلّه ، وإذا اخترق الأسيجة[1] النباتية فأصابه فرع منها في وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخاً له بقوله «علام تؤذيني أيها الغصن الحقير» وإني لأخاله يجلد البحر إذا أغرق مركبه الصغير على نحو ما فعل به كزرسيس[2] .

هذه الشكاسة التي في الأشياء — وإنما أسميها بذلك موافقة لأفكار الأطفال — تدعو «إميل» إلى إظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه أكثر مما يعلم . فإن خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذي ألزم الإنسان المحافظة على رعاية أحكام التجربة واقتفاء آثار السلف ، ولذلك قد اتفقت مع قوبيدون على طريقة بها يعاقب «إميل» كلما عصى أوامري وأغفل الأخذ بنصائحي بحيث إني لا أتولى عقابه بنفسي بل أكله للجمادات المحيطة به ، فإنه بذلك يعتاد أن يلتمس في الطاعة جنة[3] تقيه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعتو .

جريت معه على هذه الطريقة بعينها في ضرب آخر من ضروب سيرته ، وإني وإن لم أصل بها في جميع الأحوال إلى النجاح المقصود إخالني على الطريق الموصلة إليه ، ذلك أني رأيته شغفاً بالاندلاق[4] من البيت ، وكثيراً ما أنذرته بأن في خروجه

---

(١) الأسيجة جمع سياج وهو السور — والحائط .

(٢) كزرسيس هو ابن داريوس الأول أحد ملوك الفرس خلف أباه سنة ٤٨٥ ق . م ومات سنة ٤٧٢ ق . م أراد اتمام فتح البلاد اليونانية الذى كان شرع فيه والده فأرسل أسطوله اليها فاضطرب البحر وأغرق قنطرة كان قد اتخذها من السفن فأمر بجلده ثلثمائة جلدة كما يعاقب الأسير العاصى .

(٣) الجنة بالضم الوقاية . (٤) اندلق الشيء خرج من مكانه .

منهُ وَحيدًا ضَرراً عليهِ فلم يجدِ ذلكَ نفعاً ، فلمّا رأيتُ منهُ قلّةَ الإصغاءِ إلى نصائحِي في هـذا الأمرِ أوعزتُ إلى قُوبيدُون بأنْ يُغرِي بهِ بعضَ أطفالِ القريةِ فكانُوا كُلّما رأوهُ في الخارجِ تظاهرُوا لهُ بأنّهـم يحسبونهُ وليدًا أضلّ بيتهُ وقبضُوا عليهِ وردُّوهُ إلىّ قهـرًا ، فأدركَ من ذلكَ الحينِ الموعظـةَ التي أردتُ أنْ أعظَها إيّاهُ وهِيَ أنَّ الانقيادَ والطّاعةَ أمثلُ منَ القسرِ .

على أنّني رأيتـنِي قدْ عرفتُ فيـهِ أنّهُ لمْ يُخلقْ لأنْ يعيشَ وحيـداً ولا لأنْ يقضِيَ جميعَ زمانهِ معَ الكبارِ لأنّهُ ما دامَ ذا عقـلٍ وكانَ مقصُوراً على مُخالطتنا يشـيخُ قبلَ بلُوغهِ سنَّ الشّـيخُوخةِ . وأمّا اذا اختلطَ بلداتِهِ (١) وعاشرَ أترابهُ أشرقَ في وجهِهِ نورُ الفرحِ بابتهاجِهِمْ ، وسرَى إلى نفسـهِ رُوحُ السُّرورِ منهُـمْ ، ولهذا رأيتُ منْ مصلحتهِ أنْ يتخذَ لهُ رُفقاءَ منْ أطفالِ القريةِ جعلتُ أمرَ اصطفائِهِمْ موكُولًا إليّ حتّى لا يكُونَ لهُ فيهِـمْ أُسى (٢) سيئةٌ ، ولمْ آلُ في هـذا الأمرِ صعُوبةً لأنَّ النّاسَ هُنا لاشتغالِهـمْ طولَ النّهارِ بتحصيلِ رزقِهِمْ يرونَ في تسـليمِ أطفالِهِمْ لِمنْ يقومُ بشأنِهِمْ تخفيفًا منْ حملِهِمْ ، فأصبحَ بيتُنا منْ هذهِ الجهةِ شبيهًا بملجاءٍ منْ ملاجِئِ الأطفالِ . أذكُرُ لكَ منْ أحصاءِ « إميلَ » اثنينِ فقطْ وهُمـا غُلامٌ اسمُهُ « ولِيمُ » يكادُ يُساويهِ في سِنّهِ ، أعنِي أنّهُ في الخـامسـةِ أو السّادسـةِ منْ عُمرِهِ ، وفتاةٌ في السّابعـةِ منْ عُمرِهَا عليها مخايلُ الحُسْنِ تُسمّى « إزابلّا » ولكنّ النّـاسَ يختزِلُونَ هـذا الاسْمَ إختزالًا لا شُبهةَ في وجهِ مناسبتِهِ فيدعُونهـا بلّا (كلمةٌ تليانيةٌ معناها جميلةٌ) .

(١) لدات : جمع لدة وهو المولود مع غيره فى زمن واحد .
(٢) الأسى : جمع أسوة ، وهى ما يتأسى به ، أى يقتدى به .

أَخَصُّ مَا أُعْنَى بِهِ فِي شَأْنِ أُولَئِكَ الأَطْفَالِ الثَّلَاثَةِ هُوَ إِيجَادُ رَابِطَةِ اخْتِلَاطٍ وَعِشْرَةٍ بَيْنَهُمْ فَتَرَانِي إِذَا صَرَّحْتُ لَهُمْ بِالانْطِلَاقِ إِلَى التَّنَزُّهِ أُوَزِّعُ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الطَّعَامِ ، وَلَكِنِّي أُرَاعِي فِي هَذَا التَّوْزِيعِ أَنْ يَكُونَ الخُبْزُ كُلُّهُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَاللَّحْمُ البَارِدُ مَثَلًا لِلثَّانِي وَالفَاكِهَةُ لِلثَّالِثِ فَإِذَا حَانَتْ لِهَؤُلَاءِ المُتَبَطِّلِينَ(١) سَاعَةُ اشْتِهَاءِ الأَكْلِ — وَقَلَّمَا تَتَأَخَّرُ لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ أَكْلَ صِغَارِ الذِّئَابِ — دَعَا مَنْ نَالَ الخُبْزَ مِنْهُمْ رَفِيقَيْهِ إِلَى مُقَاسَمَتِهِمَا إِيَّاهُ عَلَى شَرْطِ أَنْ يُقَاسِمَاهُ أَيْضًا مَا مَعَهُمَا مِنَ اللَّحْمِ وَالتُّفَّاحِ مَثَلًا فَتَقَبَّلُ مِنْهُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ لِأَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَصْلَحَةً فِيهَا ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَتَعَلَّمُونَ بِالغَرِيزَةِ الجَرْيَ عَلَى سُنَّةِ المُعَاوَضَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى مَا أَرَى حَقِيقَةُ مَعْنَى المُسَاوَاةِ .

مِنْ أُصُولِ الرَّذَائِلِ الخَبِيثَةِ الَّتِي أَصْرِفُ فِي اسْتِئْصَالِهَا مِنْ نَفْسِ « إِمِيلَ » جُلَّ اهْتِمَامِي الأَثَرَةُ فَإِنَّ الأَطْفَالَ مَجْبُولُونَ(٢) عَلَى الاسْتِئْثَارِ(٣) بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا الاسْتِعْدَادُ الفِطْرِيُّ مَبْنِيٌّ فِي الغَالِبِ عَلَى الشَّرَهِ وَالحِرْصِ ، ذَلِكَ مَا أَرَانِي لَاحَظْتُهُ فِيهِمْ وَأَوَدُّ أَنْ أُكَافِحَهُ وَأُغَالِبَهُ . وَمِمَّا رَأَيْتُهُ أَنَّهُ لَا يَنْجَعُ فِيهِ زُخْرُفُ القَوْلِ وَبَلَاغَةُ المَنْطِقِ ، وَأَنَّ الوَاجِبَ عَلَيَّ — كَمَا رَأَيْتَ فَأَصَبْتَ — أَنْ أُشَخِّصَ لِوَلَدِي مَا أَسُوقُهُ لَهُ مِنَ العِبَرِ فِي الأَعْمَالِ وَلَعَلَّكَ سَائِلِي عَمَّا فَعَلْتُهُ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ فَأَقُولُ : إِنِّي انْتَقَيْتُ مِنْ بَيْنِ الأَشْجَارِ المُثْمِرَةِ فِي بُسْتَانِنَا ثَلَاثًا جَعَلْتُ لِكُلٍّ مِنْ غِلْمَانِي وَاحِدَةً مِنْهَا مُدَّةَ السَّنَةِ وَلَكِنِّي أَنَا الَّتِي تَوَلَّيْتُ تَوْزِيعَهَا عَلَيْهِمْ أَعْطَيْتُ « لِإِمِيلَ » كَرْزَةً

(١) المتبطلين : المتعطلين الذين لا عمل لهم . (٢) مجبولون مطبوعون .

(٣) الاستئثار : الاختصاص .

«وَلِولِيَم» خَوخَةً «وَلِبِلّا» إجاصَةً طَعمَها قُوبِيدُونُ وَلَمَّا تُثمِرْ واحِدَةٌ مِنهَا لِتَأخُرِ فَصْلِ الصَّيفِ، وَأَنا وَالحقّ أقولُ فِي شَكٍّ مِنْ وَفْرَةِ أَحْمالِها هذِه السَّنَة. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ أَرَى أَنَّ هؤُلاءِ البُستَانِيِّينَ الصِّغارَ الثَّلاثَةَ مُهتَمُّونَ بِمُلاحَظَةِ مَا وَضَعُوا عَلَيهِ أَيدِيَهم ، وَقَلَّما يَفتُرونَ عَنْ ذَوْدِ(١) الدودِ وَغَيرِهِ من الحَشَرَاتِ المُهلِكَةِ عَنْهُ . وَلَيس يَبعُدُ عَلَى « إميلَ » فِي إبَّانِ الكَرَزِ أَنْ يأْكُلَ جَنَى شَجَرَتِهِ جَمِيعَهُ دُونَ أَنْ يُعطِيَ مِنْهُ شَيئًا لِرَفِيقَيهِ . إنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَصَبرًا لِأَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يأتِيَ يَومُ مُقَايَضَةِ الجَزَاءِ بِمِثلِهِ . ذَلِكَ أَنَّهُ مَتَى أَنشَأَ الخَوخُ والإجاصُ يَنضُجانِ ذَكَّرَ «وِلْيَمُ» وَ« بِلَّا» مُعامَلَةَ « إميلَ» لَهُما وَقَابَلاهُ بِنَظِيرِهَا مَالَمْ يَكُونا أَكرَمَ مِنْهُ نَفسًا وَأَسخَى كَفًّا فَيَرضَيا مُقاسَمَتَهُ مَا لَهُما عَلَى مَا فِيهِ مِنَ المَيلِ مَعَ الأَثَرَةِ وَفِي كِلْتَا الحَالَتَينِ عُقُوبَةٌ لَهُ .

مِنَ السَّهلِ كَثِيرًا عَلَى الأَطفَالِ أَنْ يُدرِكُوا مَعنَى المِلْكِ فِي حَقِّ أَنفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ مِنَ الصَّعبِ جِدًّا إقنَاعُهُم بِأَنَّ لِلغَيرِ مِلكًا يَجِبُ احتِرامُهُ .

يَشهَدُ لِذَلِكَ مَا سَأَقُصُّهُ عَلَيكَ وَهُوَ أَنَّ مِمَّا يُزرَعُ فِي انجِلتِرَةَ الرَّوَانْد وَهُوَ نَبَاتٌ بَهِيُّ المَنظَرِ شَدِيدُ النُّمُوِّ ، يُعرَفُ فِي مَزَارِعِهِ بِعَرضِ أَوْرَاقِهِ وَعُلُوِّ سُوقِهِ ، يُدخِلُهُ أَهلُ هذِهِ البِلادِ ـ لِنُدرَةِ الفَوَاكِهِ عِندَهُمْ ـ فِي عَمَلِ أَقرَاصٍ وَمُرَبَّيَاتٍ يُغَالُونَ بِهَا كَثِيرًا سَوَاءٌ أَخطَأُوا فِي هذِهِ المُغَالاةِ أَمْ أَصَابُوا ، فَتَرَى أَطفَالَ القُرَى ـ بِسَبَبِ بَقَاءِ أَذوَاقِهِمْ عَلَى حَالَتِهَا الفِطرِيَّةِ ـ كَلِفِينَ بِأَكلِ هذَا النَّبَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَحتَاجُونَ فِي تَعَاطِيهِ إِلَى تَسوِيَتِهِ بِالنَّارِ وَلَا إِلَى إدخَالِهِ فِي الأَقرَاصِ بَلْ هُمْ يأْكُلُونَ سُوقَهُ الغَضَّةَ فَجَّةً(٢)

(١) الذود : هو الدفع .   (٢) فجة : نيئة غير ناضجة .

وَيَجِدُونَ لَهَا طَعْمًا مُزًّا[(١)]، مِنْ أَجْلِ هَذَا حَصَلَ أَنَّ تَلَامِيذِى (لِأَنِّى أَعْتَبِرُهُمْ كَذَلِكَ) بَيْنَمَا كَانُوا يَتَنَزَّهُونَ وَحْدَهُمْ فِى ضَوَاحِى بَنْزَانْس لَمَحُوا حَقْلًا مِنْ حُمُولِهِ فَحَرَّكَتْهُمْ إِلَيْهِ ـ كَمَا حَرَّكَتْ حِمَارَ الْأُسْطُورَةِ ـ[(٢)] دَعْوَةُ الْفُرْصَةِ لَهُمْ إِلَى اغْتِنَامِهَا وَغُضُوضَةُ النَّبَاتِ وَطَرَاءَتُهُ وَبَعْضُ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تَخَطَّوْا مَا يُحِيطُ بِالْحَقْلِ مِنَ الْحَوَاجِزِ الْوَاهِيَةِ ثُمَّ انْقَضُّوا بِقُوَّتِهِمْ عَلَى بَعْضِ أَشْجَارٍ مِنْهُ رَأَوْهَا أَطْرَى مِنْ غَيْرِهَا فَأَكَلُوا مِنْهَا كِفَايَتَهُمْ وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ وِجْدَانُهُمْ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ يُنَاجِيهِمْ فِيمَا ارْتَكَبُوا،

(١) المز الذى بين الحلو والحامض .

(٢) تشير الى حكاية الحمار والكلب من أساطير لافونتين وها كها منظومة من كتاب العيون اليواقظ

عطارنا واسمه فلان — قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش — واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى — والكلب ذا اسمه أمان
فصاروا غابة فحطوا — لراحة زانها المكان
ونام مولى الجميع لما — رأى مروجا بها الأمان
أما الحمار اعتراه جوع — وحوله الند والليان
فصار يرعى وما توانى — وآن من حظه الأوان
قال له الكلب يا حبيبى — الخبز فى الخرج والدهان
أرقد على الجنب منك حتى — آكل فالجوع لى هوان
فاطرح القول ثم ولى — ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم أن أتاه ذئب — له للطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه — فانى معك لا أهان
قال له الكلب كيف هذا — لا فاتك الضرب والطعان
أحرمتنى الأكل فى نهارى — والجوع لا شك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عنى — فالموت أولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجرى — ولم يدافع ولا أمان
وهكذا فى الأصول قالوا — كما يدين الفتى يدان

فقال « إميل » وقد بدا تجلّه : أتحسبان أننا قد أحسنا فيما فعلنا فاضطر رفيقاه إلى الاعتراف بأنهم جميعاً قد أساؤا .

ثم استأنفوا الكلام فقال « ولْيم » قول القدرى الرزين . لقد كان ما كان فلم يبق فى قدرتنا إصلاحه . فأجابته « بللا » — وهى لكونها أكبر منه سناً أعرف بطرق المعاملات منهما — « بلى إن لنا سبيلاً للخروج من تبعة هذا الخطإ لأنه يصح لنا فى كل حال أن ندفع ثمن ما أتلفنا » فكان لما قالته لرفيقيها لمعة ابتهاج أشرق بها ضميراهما لأنهما عولا على إصلاح التلف وبذلك يؤبون إلى بيتهم هادئى البال .

على أنهم لم يلبثوا أن وقعوا فى حيرة عظيمة لأنه لم يكن مع ولْيم و « بللا » من النقود فلس واحد . وأما « إميل » فإنه كان غنياً بوجود بنى (عشر سنتيمات)(١) فى جيب صدرته ولم يتردد فى إخراجه ليدفعه ثمناً لما أكلوه . ولما لم يروا فى الحقل أحداً يقوم مقام مالكه فى قبض الثمن أدتهم سذاجتهم إلى أن وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من أوراق الراوند وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها إلى نهايتها من الجناة أنفسهم لأنى لما كنت لا أعاجلهم بالعقاب على ما يقترفونه كانوا يحسبوننى كأحد مسلمى الاعتراف فيقرون لى بما يقترفونه من الذنوب طيبة به أنفسهم ، ولما خفت أن يكون ما تركه الأطفال من الثمن غير كاف فى تعويض ما أتلفوه تراضيت مع المالك على

(١) البنى عملة انجليزية هى جزء من اثنى عشر جزءا من الشلن الذى هو جزء من عشرين جزءا من الجنيه الانجليزى وقيمته بالعملة المصرية أربعة مليمات .

قيمته ودفعتها له على أنها لم تكن كثيرة ، وبذلك حسمت[(١)] هذه المسألة بنفقات قليلة وكنت أبذل ما يطلب منى فى مقابلة ما أشرق فى بصائر أولئك النابين الصغار من بريق العدل فى الوقت المناسب له . ولو كان « إميل » هو الذى صدرت منه فكرة رد قيمة ما سلب لكان سرورى بذلك أعظم ، — كما لا أخفى عنك — وفرحى به أكبر ، على أن له فضلا ببذل ما كان معه على قلته .

كيف يكون تفهيم الأطفال أن كل ما ينبت على وجه الأرض ليس مباحا لجميع الناس ؟

أرى أن من أحسن مدارس الأخلاق للصغار الذين هم فى سن « إميل » المدرسة الخلائية فإنه يتعلم فيها من نظره إلى ما ينهمك فيه أهل القرى من الأشغال الشاقة أكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة ، لأنه يرى فى كل يوم أن القمح لا ينبت إلا إذا بذرت الناس حبوبه ، وأن أجود أرض لا تصلح للزراعة إلا إذا قلبت وحرثت .

ثم إن الحيوانات أيضا تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . أذكر من ذلك مثلا فأقول : يوجد فى ضواحى بنزانس على شاطئ جدول يجرى بعض أميال ثم ينصب فى البحر لفيف من الأشجار يحوم على واحدة منها فى غالب الأوقات طائر يقل وجوده فى هذه الناحية وهو المسمى عند الإنجليز بملك جوارح الطير : وعند الفرنسيين بالخطاف الصياد (لعله الذى يسمى بالعربية الزمج) .

---

(١) حسمت : فصلت وقطعت مادة الخلاف وسببه .

لفت هذا الطائر الجميل أنظار أولادنا في أول الأمر ببهاء لونه، ولكني نبهتهم إلى أن شهرته بالمهارة في كسب قوته، ليست بأقل من شهرته بجمال سرباله (١)، ذلك لأن هذا المسكين يكد في كسبه وينصب (٢) فإنه يجثم (٣) ساعات كاملة في مكانه أي وراء غصن من الأغصان يحجبه عن الأعين ولا يعترض بصره حيث يراقب — كما تعلم — بعينيه اليقظاوين اللتين لا يفوتهما فائت مرور السمك في الماء، فإذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقاره القوي إلى محله . وبعد أن يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود إلى ما كان فيه من الترقب الشاق لعلمه أن الحظوظ نادرة، ولأن شهوة الطعام حاكمة عليه.

في ذات يوم شهد الأطفال قتالا عجيبا وقع بينه وبين جارح آخر أراد أن يختلس (٤) ثمرة صيده فلم يلبث « إميل » أن فهم أن هذا الطائر الثاني هو السارق، لأنه أراد أن يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه .

من العواطف التي أريد أيضا أن أغرسها في نفس ولدنا احترام ما يصيب الناس من العاهات . وقد رأيت أن إلقاء المواعظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثا ، ولاحظت أيضا أن كثيرا من الآباء والأمهات يخطئون بتمثيلهم عيوب الخلقة وضروب التشوه الفطري لأولادهم في صورة عقوبات إلهية ، ومن الأمثال على ذلك أن فتاة تسكن النزل الذي أنا فيه شبت على هذه الأوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقادا راسخا في عجوز من جيراننا شوهاء (٥) قوساء (٦) أن الشيطان

(١) سرباله : لباسه والمراد به ريشه . (٢) ينصب : يجتهد . (٣) يجثم : يتلبد بالأرض . (٤) الاختلاس : الخطف . (٥) شوهاء : عابسة قبيحة الوجه . (٦) قوساء : منحنية الظهر .

يسكن حدبتها (١) . فالذى أريد إقناع « إميل » به هو عكس ذلك بالمرة . أريد أن أفهمه من غير إفراط فى تنبيه عاطفة الشفقة فيه أن من سلبهم الله من عباده محاسن الخلقة عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم . علمت أنه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام أكمه (٢) يعيش من ثمرة كد والديه اللذين هم من صلحاء الفلاحين . فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذى تصورته ، وطلبت من تلاميذى الثلاثة أن يقبلوه رفيقا لهم فرضوا بذلك لأنه متى كان المقصود للأطفال التسلى والانشراح فلا يعتبر عددهم كثيرا بالغا ما بلغ . وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو أن الانسان لا يكره مطلقا أن يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعلة فيه ككونه محروما من بصر يضىء له سبيله وإن كان ذلك الرفيق فى الحقيقة أشد منه قوة وأكبر سنا ، فإننا كثيرا ما نشوب حنونا بشىء من الكبر والصلف ، والأطفال مثلنا فى ذلك وإن لم يكونوا عالمين به على أنه لا حاجة بى إلى استقصاء أسباب أعمالهم .

يتسلى عرمة (٣) الأطفال هنا فى فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الخاصة بكورنواى وهو الغراب الأعصم (٤) ولكون هذا الطائر نفورا فى حالته الفطرية تراه لا يسكن غالبا إلا الأماكن المهجورة ولعلمه بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوه إدراكه إلى أن يتخذ وكنه (٥) فى وسط ما لا يكاد ينال من الصخور، ولكن

---

(١) حدبتها : خروج ظهرها ودخول صدرها وبطنها . (٢) الأكمه الذى يولد أعمى .

(٣) العرمة جمع عارم وهو النزق المرح . (٤) الغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين والمنقار الذى فى جناحه ريشة بيضاء . (٥) الوكن بالفتح عش الطائر فى جبل أو جدار أو مفرزه فى غير عش .

الصغار البحاثين المنقبين لا يفلت شيء من أيديهم ، فبعضهم مدفوع في بحثه بما فيه من حب الاستطلاع ، وبعضهم يحركه إلى ذلك طمعه في الربح لأن هذا الغراب غالي القيمة ثم إن أكثر وجوده في ضواحي بنزانس بالشعاف[1] الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يعتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها في غابر الأزمان من الرجفات والزلازل . ويوجد بالقرب من هذا المكان المنعزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناها جحر الفار وإنما سميت بذلك لتعلقها على الساحل كأنها جحر فأر في جدار .

أنا لا أستحسن بحال صيد هذا الطائر لأسباب مختلفة ، ولكني ربما توهمت أن في التعجيل بإظهار مذهبي في ذلك لتلاميذي خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أسى في أطفال القرية تحركهم إلى هذا الفعل ، ومن أجل ذلك لم أمنعهم من الذهاب للصيد . فانطلقوا في بكرة ذات يوم يصحبهم الأكمه ويتبعهم فو بيدون من بعد على غير مرأى منهم لخوفه عليهم أن يحل بهم خطر في تسلقهم الصخور . وكان ولیم و بللا يتناوبان العناية بشأن الأكمه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية إلا سبباً لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الأكمه لأنه كثيراً ما كانت تزل قدمه في أقل العقبات . وقد أنستهم كثرة اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث إنهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف[2] الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب

(١) الشعاف جمع شعفة وهي القنة أي الرأس . (٢) الشظف : اليابس .

فدهمهم الليل وهم لا يزالون على مسافة بعيدة من البيت وكان أصعب ما عليهم فى ذلك الوقت تمييز طريقهم الذى صعدوا الجبل منه ، فلما رآهم قو بيدون فى هذه الحيرة اشتدت رغبته فى أن يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك إلا إخلاصه فى اتباع ما أرشدته إليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم .

أتدرى أنه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فأمسى الأكمه بصيرا لأنه بما حفظت ذاكرته ودقة لمسه (التى هى من خواص العمي) من مواقع الطريق ميز الشعاب التى مر بها فى الصباح كل التمييز فبات قائدا بعد أن كان مقودا . فلما رآه الأطفال على هذه الحالة يسترشد فى الطريق بأطراف أصابعه كأن له فيها أعينا كادوا يعتبرونه فى ذلك الوقت أرقى منهم فهم فى ذلك كالمتوحشين يسهل انتقالهم من شعور متجاوز حده إلى شعور آخر ليس أقل منه خروجا عن الحد وقد يدلنا هذا على أن عبادة بعض الشعوب القديمة لذوى العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على أن ميل (إميل) ورفيقيه إلى الإتيان بمثل ما أتى به ذلك الأكمه قد بعث فيهم روح الاستطلاع ؛ فالموهبة التى أوتيها الأعمى قد يصح لغيره من البصراء أن يكتسبها بالتمرن لأنك ترى الأطفال يدلهم حدسهم الفطرى على بعض طرق من شأنها أنها تنمى فيهم قوة السمع ودقة اللمس أكثر من غيرها ،

فَمَنْ ذَا الَّذِى اخْتَرَعَ اللُّعْبَةَ الْمُسَمَّاةَ بِالْمَسَّةِ (١) ؟ لَا إِخَالُ أَنَّ مُخْتَرِعَهَا هُوَ حَاوِى (٢) أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَعْضَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِىِّ (أَكَادِيمِى) فَإِنَّ هَـذِهِ اللُّعْبَـةَ الَّتِى يُسَمِّيهَا الْانْجِلِيزُ هُنَا ضَرْبَةَ الْأَعْمَى لَيْسَتْ إِلَّا تَعَامِيًا نُتَعَرَّفُ بِهِ الطُّرُقُ الَّتِى لِلْأَعْمَى فِى مَعْرِفَةِ مَا حَوْلَهُ. أَنْشَأَ (إِمِيلُ) وَرَفِيقَاهُ يُمَارِسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْعَابِ وَطُرُقِ التَّدَرُّبِ الَّتِى تَقْتَضِى الِالْتِفَاتَ وَأَعْيُنُهُـمْ مُغَطَّاةٌ وَمَعَ كَوْنِ الْفَضْـلِ كُلِّهِ لِلْإِبْصَـارِ بِالْعَيْنَيْنِ كَانَتْ أَثَرَتُهُمُ الَّتِى هَيَّجَهَا فِيهِمْ مَا رَأَوْهُ مِنْ فِعْـلِ الْأَكْمَهِ تُوحِى إِلَيْهِمْ أَنَّ النَّظَرَ الدَّقِيقَ هُوَ النَّظَرُ بِاللَّمْسِ، وَأَنَا فِى شَكٍّ مِنْ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بِكَسْبِهِمْ مَا لِلْأَعْمَى مِنَ النَّظَرِ الطَّبِيعِىِّ وَلَوْ قَضَوْا فِى مُزَاوَلَةِ ذَلِكَ طُولَ حَيَاتِهِـمْ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ فَائِدَتِهِـمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا فِى اللَّعِبِ مَا بَيْنَ الْمَشَاعِرِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَقِيَامِ إِحْدَاهَا مَقَامَ الْأُخْرَى، وَلَسْتُ أَنْسَى مَا كُنْتَ تَقُولُهُ لِى كَثِيرًا مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ طُرُقَ السَّـمْعِ وَالْبَصَرِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا مَنْ تَعَاوَرَهُ (٣) الْخَرَسُ وَالْعَمَى.

يَجِبُ عَلَىَّ الْآنَ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَا كُنْتُ بِصَـدَدِهِ مِنْ حِكَايَةِ اصْطِيَادِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ فَأَقُولُ: لَمْ يَعْـثُرِ الْأَطْفَالُ عَلَى وَكْنٍ مَا فِى الصُّخُورِ وَذَلِكَ لِأَنَّ (إِمِيلَ) وَوَلِيَمَ لَا يَزَالَانِ مِنَ الضَّعْفِ بِحَيْثُ إِنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِ الْوُصُولَ إِلَى الشَّعَافِ الْوَعْرَةِ

(١) المسة: لعبة. للأعراب يقال لها الضبطة، فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على بدنه أو رأسه أو كتفه فهى المسة وإذا وقعت على رجله فهى الأسن — كذا فى معاجم اللغة. ويظهر أن هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الأمم ولها كيفيات وأسماء كثيرة.

(٢) حاوى: واسمه والنتين هو عالم فرنسى ولد فى سنة ١٧٢٥ م. ومات سنة ١٨٢٢ م. استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم أحداث العميان القراءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة فى باريس.

(٣) تعاوره أصابه على التعاقب.

الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الطَّائِرُ، وَأَمَّا بِلَّلا فَلِكَوْنِهَا بِنْتَ رَجُلٍ يَدِينُ بِمَذْهَبِ الْمُرْتَجِفِينَ (١) تَرَى أَنَّ اسْتِلَابَ أَفْرَاخِ الطَّيْرِ مِنْ أُمِّهَا مِنْ فِعْلِ الشَّرِّ . هَذَا الْمَذْهَبُ الدِّينِيُّ – كَمَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ – يُورِثُ أَصْحَابَهُ مَيْلًا عَظِيمًا لِلْأَحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانَاتِ. وَلِكَوْنِ فُو بِيدُونَ أَقَلَّ تَحَرُّجًا (٢) مِنْهَا فِي هَذَا الْأَمْرِ وَأَحْرَصَ دَائِمًا عَلَى فِعْلِ مَا يُرْضِي (إميل) كَانَ أَمْهَرَ مِنْهُمْ أَوْ أَسْعَدَ حَظًّا فِي بَحْثِهِ لِأَنَّهُ بِتِلْكَ الْخِفَّةِ فِي التَّسَلُّقِ الَّتِي تُمَثِّلُ إِنْسَانَ الْآجَامِ فِي شَخْصِهِ كَانَ قَدِ اصْطَادَ مِنْ بَيْنِ الْقُنَنِ (٣) الصَّوَانِيَّةِ وَالْأَدْغَالِ (٤) زَوْجًا مِنْ هَذَا الطَّائِرِ صَغِيرًا نَبَتَ رِيشُهُ لَكِنَّ أَجْنِحَتَهُ لَمَّا تَطُلْ لِتَسْتَطِيعَ الطَّيَرَانَ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَطْفَالُ الزِّنْجِيُّ دَهِشُوا دَهْشَةً عَظِيمَةً لِأَنَّهُمْ مَا كَانَ يَخْطُرُ لَهُمْ عَلَى بَالٍ أَنَّهُ بِهَذَا الْقُرْبِ مِنْهُمْ يَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهُوَ كَاللَّيْلِ فِي السُّكُونِ فَابْتَهَجُوا بِرُؤْيَتِهِ وَزَادَتْهُمْ فَرَحًا رُؤْيَةُ الْفَرْخَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا شَبِيهَيْنِ بِكُرَتَيْنِ مِنَ الزَّغَبِ رُكِّبَ فِيهِمَا مِنْقَارَانِ أَحْمَرَانِ حَتَّى إِنَّ « بِلَّلا » نَفْسَهَا أَبْدَتْ مِنَ الْبِشْرِ وَالِارْتِيَاحِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا نَسِيَتْ مَذْهَبَهَا الْقَدِيمَ .

وَلِعِلْمِي مَا يُعَامِلُ بِهِ الْأَطْفَالُ الطُّيُورَ عَادَةً إِذَا وَقَعَتْ فِي أَيْدِيهِمْ بَقِيتُ وَحْدِي غَيْرَ مُشَارِكَةٍ لَهُمْ فِي هَذَا الِابْتِهَاجِ الْعَامِّ الَّذِي وَلَّدَهُ اصْطِيَادُ هَذَيْنِ الْفَرْخَيْنِ ، وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَفْعَلَهُ أَوْ أَقُولَهُ ؟ فَلَوْ أَنِّي قُلْتُ لَهُمْ خَلُّوا سَبِيلَ أَسِيرَيْكُمْ

---

(١) المرتجفون لقب لجماعة الإخوان فى انجلترة وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود سنة ١٦٢٤ م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت فى دربى (من أعمال انجلترة) لأن جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله : إرتجفوا اذا سمعتم كلام الله : هكذا جاء فى جريدة جورج فوكس نفسه .

(٢) تحرجا أى احتياطا من الوقوع فى الحرج وهو الاثم والجريمة .

(٣) القنن جمع قنة وهى الجبل الصغير والرأس .

(٤) الادغال جمع دغل وهو الشجر الكثير الملتف .

لأطلقوهما ولكن مع الكراهة والأسف . من أجل هذا رأيت أن الأمثل بى الرجوع الى طريقة أخرى وهى أنى وضعت الفرخين فى حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها أدوات البستان فاتخذتها بيتا للطيور ثم أخذت أبين « لإميل » أنه يجب عليه أن يتولى بنفسه تغذيتهما لأنهما أصبحا محرومين من أمهما التى كانت تعولهما وبالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبعى ؛ فكان من ذلك أن حبس نفسه طرفا من النهار فى بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة أن عرف أنه قد أصبح أسيرا لأسيريه وصارت كراهته لهذا العمل أمرا محتما والذى استفاده فيه من العبرة هو أنه لا يتأتى للإنسان حرمان غيره من حريته إلا بفقد جزء من حرية نفسه ، ولذلك لم يمض بضعة أيام حتى جاءنى راجيا إطلاق الفرخين ليمضيا فى سبيلهما .

لما رأيتنى نجحت فى سوق العبرة « لإميل » فى الأكمه صممت على الاستمرار فى تجاربى فعلمت أن فى ضواحى قريتنا راعيا صغيرا مشهورا بالبله يسخر منه جميع عرمة (١) الأطفال فى القرية ويهزأون بسذاجته وكنت أرتعد خشية أن يفعل « إميل » فعلهم لأن القدوة شديدة العدوى ، والضحك مما ينبغى الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التى فى الأطفال ؛ ولكن أعانني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما أعملته من الفكر وما سنح لى من الفرصة . ذلك أنى قابلت هذا الراعى الصغير ذات يوم فى الحقول فتبينت فيه أنه يميز كل شاة (٢) من شياهه

(١) العرمة : جمع عارم وهو الطفل النزق المرح كما مر . (٢) الشاة : النعجة .

عَلَى حِينِ أَنَّ قَطِيعَهُ كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي نَظَرِي وَفِي نَظَرِ «إميل» إِلَّا شَاةً وَاحِدَةً مُكَرَّرَةً مِئَةَ مَرَّةٍ ، فَتِلْكَ إِذَنْ مَزِيَّةٌ لَهُ عَلَيْنَا عَاهَدْتُ نَفْسِي عَهْدًا أَكِيدًا عَلَى الانْتِفَاعِ بِهَا فِي سِيَاسَتِي «لإميل» فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِتِلْكَ الْمُقَابَلَةِ أَنْ يَصْحَبَنِي إِلَى الْكُثْبَانِ (١) إِذْ عَلِمْتُ بِوُجُودِ ذَلِكَ الرَّاعِي هُنَاكَ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ «وَيْكَأَنِّي بِهِ الْمَجْنُونُ !» وَهُوَ الاسْمُ الَّذِي يُطْلَقُ هُنَا عَلَى السُّخَفَاءِ وَالْبُلْهِ ، فَتَظَاهَرْتُ لَهُ بِعَدَمِ الالْتِفَاتِ إِلَى مَا قَالَ وَوَجَّهْتُ نَظَرَهُ إِلَى خَصِيصَتِهِ (٢) فِي تَمْيِيزِ شِيَاهِهِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ بِمُجَرَّدِ نَظَرِهِ إِلَيْهَا عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ مَعَ تَشَابُهِهَا عَلَيْنَا كَثِيرًا ، فَكَانَ ذَلِكَ بَاعِثًا لِدَهْشَتِهِ وَمَوْضُوعَ مُحَادَثَةٍ مَعَ ذَلِكَ الأَبْلَهِ تَبَيَّنَ لَنَا مِنْهَا أَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِأَسْنَانِ شِيَاهِهِ وَطِبَاعِهَا بَلْ بِأَقَلِّ الشِّيَاتِ (٣) الظَّاهِرَةِ فِيهَا ، فَتَسَنَّى بِذَلِكَ «لإميل» أَنْ يَقْتَنِعَ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّ هَذَا الْجَاهِلَ الْمِسْكِينَ أَعْلَمُ مِنَّا فِي بَعْضِ الأُمُورِ الْخَاصَّةِ بِهِ . وَلِكَيْ أَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا الاقْتِنَاعِ طَلَبْتُ مِنَ الأَبْلَهِ قَبُولَ وَلَدِي فِي مَدْرَسَتِهِ بِضْعَةَ أَيَّامٍ يُعَلِّمُهُ فِيهَا مَا أُوتِيَهُ مِنَ الْعِلْمِ فَقَبِلَ ذَلِكَ طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ مُنْتَظِرًا مِنْ وَرَائِهِ مُكَافَأَتَهُ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ أَيْضًا مُعَلِّلًا نَفْسَهُ بِحُسْنِ ظَنِّ النَّاسِ بِصَلاحِيَتِهِ لِبَعْضِ الأُمُورِ وَكَانَ هَذَا بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ لِي مِنْ حَالِهِ أَوَّلَ إِكْرَامٍ نَالَهُ فِي حَيَاتِهِ .

وَأَمَّا (إميل) فَإِنَّهُ كَانَ ـ عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي ـ أَقَلَّ ارْتِيَاحًا مِنْهُ بِكَثِيرٍ لِهَذَا الأَمْرِ لأَنَّهُ بِسَبَبِ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ وَعُجْبِهِ كَانَ يَتَأَلَّمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذًا لِشَخْصٍ يَعْتَبِرُهُ هُوَ وَرُفَقَاؤُهُ أَحْمَقَ وَيَرَى أَنَّ فِي ذَلِكَ غَضًّا مِنْ كَرَامَتِهِ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً أُخْرَى

(١) الكثبان التلال . (٢) الخصيصة : ما يختص به الانسان من المزايا .

(٣) الشيات جمع شية وهى العلامة .

لِلْوُصُولِ إِلَى مَقْصِدِى . عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِى ذَلِكَ فَلَشَدَّ مَا سَيَفْخَرُ عَلَى أَقْرَانِه بِإِبْدَاءِ مَا تَعَلَّمَهُ لَهُمْ وَإِنْ قَلَّ وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنَ الشَّمَمِ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ لِلْأَحْمَقِ عَلَيْهِ. اسْتَفَدْتُ لَهُ مِنْ هَذَا التَّعْلِيمِ فَائِدَتَيْنِ : أُولَاهُمَا أَنَّ مَلَكَةَ تَمْيِيزِ أَدَقِّ الْفُرُوقِ الَّتِى بَيْنَ أَفْرَادِ الْقَبِيلِ الْوَاحِدِ لَا تَقْصُرُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا فِى الْغَنَمِ بَلْ مَتَى حَصَلَتْ صَحَّ أَنْ تَتَعَدَّى إِلَى جَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ عَنْهُ عِلْمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ . وَالْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَأَرَاهَا أَنْفَسَ مِنَ الْأُولَى هِىَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّنَا عَلَى الدَّوَامِ مُحْتَاجُونَ إِلَى التَّعَلُّمِ حَتَّى مِنْ أَضْعَفِ النَّاسِ عَقْلًا[(١)] .

يَتَوَهَّمُ (إميل) أَنَّهُ لَا يَكُونُ رَجُلًا إِلَّا إِذَا لَعِبَ كَمَا يَلْعَبُ الْجُنْدِيُّ وَلِذَلِكَ تَرَانِى أُبِيحُ لَهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا اللَّعِبِ مُوَافَاةً لِمَيْلِهِ وَمُرَاعَاةً لِسِنِّهِ ، وَلَكِنِّى مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ رَأَيْتُ مِنْهُ فِى أَثْنَاءِ هَذَا اللَّعِبِ مَا رَاعَنِى وَأَطَارَ لُبِّى إِذْ رَأَيْتُ فِتْيَانَ الْقَرْيَةِ مُنْقَسِمِينَ إِلَى فِئَتَيْنِ مُتَحَارِبَتَيْنِ وَهُوَ فِى وَسَطِهِمْ يَحْمِلُ لَهُمُ اللِّوَاءَ .

نَعَمْ كَانُوا يَقْتَتِلُونَ بِسُيُوفٍ مِنَ الْخَشَبِ وَلَكِنْ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الصُّلْبِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَيْدِى الصَّغِيرَةُ الْعَامِلَةُ بِهَا ذَاتَ أَعْصَابٍ قَوِيَّةٍ لَتَمَثَّلَ أَمَامِى قِطَعًا مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ تِلْكَ الْمَذَابِحِ الْفَظِيعَةِ الَّتِى تَصْبُغُ أَدِيمَ الْأَرْضِ بِالدِّمَاءِ وَيُسَمِّيهَا النَّاسُ حُرُوبًا ، فَقُمْتُ أَنَا وَبِلَّلا بِمَا كَانَ يَعْمَلُهُ قُدَمَاءُ السَّابِينِيِّينَ[(٢)] أَعْنِى أَنَّنَا تَوَسَّطْنَا

---

(١) ما ابلغ هـذه الحكمة وأنفع هـذه الموعظة وما أجدر طلاب العلم وروّاد الحقيقة أن ينقشوها فى نفوسهم ويتخذوها شعارا لهم طول حياتهم — المترجم .

(٢) السابينيون : أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من إيطالية أقام قسم منها فى رومية مع تاتيوس وبقى القسم الآخر فى الجبال حتى أخضعه توريوس دانتاتيوس .

بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر . رأى «إميل» منى حتما أنى تألمت لهذه الحادثة لأنه لما رآني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدى طالبا مسامحته .

وإنى فى الحقيقة لا أخفى عليك قد انجرح قلبى لهذا المنظر وإن كنت أعلم أنك فى يوم ما ستعلمه من غير شك أن هناك حروبا مبنية على الحق والعدل، وأن من أجمل ما يتصف به الإنسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت فى سبيل الدفاع عن رأيه، ولكنه فى السن التى هو فيها الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى فى الكفاح على أى حال إلا ما يراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة إلى ظلم الأكفاء والنظراء . وسواء اتخذ الأطفال لواءهم من الورق أو الخرق البالية تراهم كالجنود منقادين إلى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا إيمان، فتبعثهم غرائزهم الوحشية على أن يرفعوا أيديا لا ينقصها من أول نشأتها إلا قوة القتل ليضربوا بها إخوانهم . إذا كانت الحروب تنشب بين الحكومات فليس ذلك إلا لأن غريزتها قد سكنت قلب الإنسان من أمد بعيد، وكيف لا تسكنه ونحن نرى القائمين على الأطفال يصرفون عنايتهم الكبرى فى إعلاء شأن عطش الإنسان إلى شرب الدم الذى يجعلنا كالوحوش الضوارى؟ فأى اسم من الأسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذى يعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ(١)؟ وأنا أستعيذ بالله من أن يكون قلب ولدى مغرما لهذه الشهوة التى كلها كذب وقسوة ...

(١) ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الأطفال قرابين .

لمّا انتهى أمر هذه الواقعة أخذتُ «إميل» بيده وانطلقنا فاتفق أن رأيت في طريقي تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كلٌّ منهما الآخر على عظمة قد قرض نصفها، فقلت له: تأمّل فتلك صورة جميع ميادين القتال، ولست على يقين من أنه أدرك هذه المرة معنى ذلك الكلام. ولكن أقل ما في هذا الأمر أنه نبهم سبب تأثري لأنه وربك كان بالغًا مني مبلغًا عظيمًا[1].

أنا مع يقيني بما في تقبيح هذه الأوهام السيئة في نظر «إميل» وتشهيرها من الفائدة له لا أرضى أن يكون جبانًا ولو أعطيت في ذلك ما في الأرض جميعًا.

ترى الوالدين على الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم في إساءة التصرف بما فيهم من وجدان الخوف فإنهم يجتهدون في إرهابهم بكل ما في وسعهم من طرق الإرهاب، فيخوفونهم من السماء بحجة أن سحبها تقل[2] صواعق الانتقام، ومن الأرض بقولهم «إن الله (سبحانه) قد لعنها وغضب عليها بسبب خطيئة آدم» ومن الحياة بأن أعمالهم فيها ستعرض على حاكم يحصيها جميعها. ومن الموت بجعله محفوفًا بمخاوف لا تنقضي إلى الأبد.

هذه التربية التي أساسها الإرهاب والتخويف إنما تلائم الأرقاء تمام الملائمة، ولكني في شك مريب من أنها تنشئ رجالًا أحرارًا فإذا كان لا بد «لإميل» أن

(١) نعما هي المرأة الصالحة التي تعمل لتطهير قلب ولدها من جرائم الشر والعداوة بضرب الأمثال الحكيمة. المترجم (٢) تقل تحمل.

يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه وسريرته[(١)]، ولكنى خلافًا لأولئك المربين أجتهد فى تطمين قلبه وتسكين روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التى كثيرًا ما تلازم أذهان الأطفال، وأود لو أراه شجاعًا جريئًا على الأشياء وديعًا مخفوض الجناح للناس. فالواجب أن تكسى الشجاعة حلة الشرف الحقيقى لا أن نتحلى منه بالبهرج الكاذب.

رأيت «إميل» كغيره من الغلمان الذين فى سنه يخاف من الليل ومن كل ما ليس معروفًا له، فيوجد فى أقصى البستان روضة من شجر البندق المتوسط فى الكبر لا يجرؤ على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى أن يؤكل فجأة، وعلى أى حال ليس فى الأمر ما يدعو إلى الإفراط فى الاستغراب فإن الأطفال لم يكونوا ليشتغلوا بأحدوثة الأصيبع[(٢)] كل هذا الاشتغال الذى نعلمه منهم

---

(١) كثير من أحرار الفكر من الغربيين ومن لف لفهم وأخذ إخذهم من الشرقيين يجعلون الوجدان قواما لسيرتهم وميزانا لأعمالهم وهم لا يرجون لله وقارا ولا يقيمون لدينه وزنا وما الوجدان الذى عليه يعتمدون وإليه يحتكمون إلا حاسة باطنة كغيرها من الحواس الظاهرة أودعها الله — الذى أتقن كل شىء خلقه — قلب الانسان ليميز بها الخير من الشر والطيب من الخبيث وهى عرضة للخلل والعلل كالحواس الظاهرة سواء بسواء. ومثل من يستهديها ويسترشدها دون صانعها كمثل من يستشفى بالدواء دون الطبيب. فليحذر المربون من هذه الأوهام وليبادروا من وكل إليهم أمر تربيتهم بمجرد بلوغهم سن التمييز بتعريفهم ربهم بآثار صنعه البديع وجلائل نعمه. المترجم.

(٢) أسطورة الأصيبع إحدى أساطير شارل بزولت الكاتب الفرنسى الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفى سنة ١٧٠٣ م التى وضعها للصغار وسماها أساطير الجن وملخصها: أن حطابا ضاقت به الحال لأن زوجه كانت نثورا أقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لأكبرهم عشر سنين ولأصغرهم سبع وولد هذا ضئيلا كالاصبع فسمى «الأصيبع» وكان غصة لوالديه مهضوما عندهما على أنه أذكى إخوته وأدهاهم. أصابتهم سنة شهباء اضطرت الوالدين إلى التواطؤ ليلا على إضلال الأولاد فى غابة لكيلا يشاهدا موتهم جوعا فسمعهما =

لَوْ لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ أَثَرٌ مِنَ الإِنْسَانِ الوَحْشِيِّ الَّذِى كَانَ يَعِيشُ مَحُوطًا بِجَمِيعِ مَا فِى الكَوْنِ مِنَ الأَغْوَالِ، وَرُبَّمَا كَانَ الَّذِى يَمْنَعُ «إِمِيلَ» مِنَ الدُّخُولِ فِى تِلْكَ الرَّوْضَةِ مَسَاءً هُوَ

= الأصيبع فبات مسهدا و بكر الى الشاطئ فلأ جيوبه حصى بيضاء وكان يلقى كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الأولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الأصيبع الطريق وسلموا ، ثم تواطأ الوالدان أخرى ولكن لم يتمكن الأصيبع من الخروج لأخذ الحصى فادخر الكسرة التى أصابته من الخبز ففتها وألقاها فى طريقهم الى الغابة ولكنه لم يهتد اليها بعد الاضلال لأن الطير أكلتها فصعد شجرة فآنس بصيص نار فى الظلام فأمه باخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجته ضيافتهم فى غرفة بناتها بخاء الغول وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستمهله الى الصباح وسمع الأصيبع فاستبدل تيجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتبه الأمر على الغول فذبح بناته ليلا وتسلل الاخوة لواذا(١) ثم تبعهم الغول بنعله ذات الفراسخ السبعة فأووا الى كهف أدركه الغول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرق الأصيبع النعل وعاد بها الى زوجه قائلا : إن اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنعل ليحضر له جميع ماله فصدقت العلامة وناد بالمال الى إخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة هى أن الناس يكرمون الجميل من ولدهم و يمتهنون الدميم مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله .

(١) يشير الى أسطورة أخرى من أساطير ذلك الكاتب ملخصها أن جارية بارعة الجمال ألبستها أمها قبيعة حمراء زادتها جمالا فعرفت بها وأرسلتها يوما الى جدتها — وكانت مريضة — بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب فى الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فأكلها ونام فى فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلدا صوت جدتها نفعلت وراعتها أعضاء جدتها التقليدية فقالت . أى جدتى ما أطول يديك . قال : ذلك لأحسن معانقتك . فقالت : ما أطول ساقيك ! قال : ذلك لأحسن العدو . فقالت : ما أعظم عينيك ! قال : لأجيد النظر . فقالت : ما أطول أنيابك . قال : انما خلقت كذلك لآكلك . وافترسها .

قصد الكاتب أن الأطفال الحسان ولا سيما البنات مخطئون فى الإصغاء الى كل من يكلمهم ولا غرو أن يأكل الذئب كثيرا منهم ، وما كل ذئب ذئب القبيبعة الحمراء فان من الناس ذئابا يصبصبون و يتملقون للفتيات و يغازلونهن متبعين خطواتهن فى الأزقة والشوارع ولكنهم — على ما يظهرون لهن من اللطف والحب — أضر عليهن من جميع الذئاب لانهم يفترسون شرفهن الذى هو أكرم من أجسادهن .

---

(١) لواذا : مصدر لاذ أى استتر وتحصن وتسلل منه لواذا هرب مستترا .

إشفاقه من أن يقابله فيها ذئب القبيبعة الحمراء وعلى الجملة فهو نفسه لا يعرف أن يعبر عما يرهبه والحقيقة أنه يخاف من ذلك الشيء الذى يسمع عنه أنه يجول فى الظلام .

لما رأيت أن آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات ، وأن التظاهر بمقاومتها لا يزيدها إلا ثباتاً اقتصرت على أن حسنت « لإميل » دخول الروضة المذكورة مستصحبا الدبة لأنها لا ترهب شيئاً ولاستعدادها فى كل وقت لاقتفاء أثره ، فلما رأى بهذه الواسطة أن له رفيقا لم يمتنع من الدخول ولم يلبث أن عرف أن الذى كان يشوش ذهنه إلى تلك الساعة إنما هو وحشة المكان وخلوه من الأنيس ولم تفتنى أنا أيضا الاستفادة من هذه العبرة لأنى قد فهمت بها جميع ما قد زاد فى نفس الإنسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة فى أعصره الأولى .

أنا إلى اليوم ملتزمة مع « إميل » عدم الخوض فى المسائل الدينية موافاة لرغبتك ، ولكن قد حصلت بيننا واقعة فى الأسبوع الماضى ينبغى أن أقصها عليك : ذلك أننا رأينا فى عصر ذات يوم من ذلك الأسبوع هيدبا (١) من السحاب رصاصى اللون كان أول ما رأيناه قزعا (٢) ثم تراكم حتى صار مكفهرا (٣) ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة أناخت على الماء بكلكلها (٤) وكنا نرى شعاعا أكدر من أشعة الشمس لا يزال

(١) الهيدب : السحاب المتدلى يدنو من الأرض مثل هدب القطيفة . (٢) القزع : قطع السحاب الصغيرة المتفرقة . (٣) مكفهرا : مسودا غليظا . (٤) الكلكل : الصدر والمراد به هنا الثقل والكلة .

يخترق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن إلا قليلا حتى غاب في شبه دجنة (١) مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه أقل نفحة ، وقلما كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بأمواجه وهي تعلو وتنخفض متثاقلة كأنها صدور المكروبين اللاهثين ونظرنا إلى الشاطئ فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك ، فكان الكون في سكونه هذا كالمشدوه (٢) الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن إلا أقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعا متمعجا (٣) وقصف الرعد لأول مرة قصفا اهتز له جميع البيت فارتعدت فرائص « إميل » وأسرع إلى محتميا بي مستندا إلى صدري كأن في قدرتي أن أمنعه من هياج الفواعل الكونية ، ثم تعاقبت البروق والصواعق وأنشأ ماء الخليج يغلي وهو أكدر مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم أخذت الريح بعد ارتفاعها فجأة تبدد سيول المطر منهمرة ، وكنا نسمع هزيم الرعد في السحاب من بعيد ونرى وميضا خفيا متتابعا ، ثم تبع ذلك كله الهدوء والسكون .

ولما كان « إميل » أكثر من في الأرض مسألة سألني وهو متأثر قائلا : «أماه! ما هذا الذي ثار غضبه فوقنا؟» فحرت هذه المرة حيرة شديدة في إجابته، لأني لو قلت له إن ذلك هو الله لكنت قد ألقيت في ذهنه معنى سخيفا لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرأ من الإنفعالات ، فاقتصرت على أن

(١) الدجنة : الليل والغيم المطبق . (٢) المشدوه المدهوش المتحير .

(٣) متمعجا : ملتويا متثنيا .

فَسَّرْتُ لَهُ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِفَهْمِهِ سَبَبَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ الَّتِي أَزْعَجَتْهُ . عَلَى أَنَّ الْغُلَامَ قَدْ أَدْرَكَ بِحَدْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي سَمِعَهَا مِنَ الْعَاصِفَةِ وَمِنْ هَذَا الْجَوِّ الْمُمْتَلِئِ بِالْمُفْزِعَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، بَلْ رُبَّمَا فَهِمَ أَيْضًا مِنْ عَيْنَيَّ اللَّتَيْنِ كَانَتَا عَلَى رَغْمِي أَكْثَرَ مِنْ لِسَانِي كَلَامًا — نَعَمْ أَدْرَكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ — أَنَّ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْآثَارِ شَيْئًا آخَرَ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ (سُبْحَانَهُ) لَيْسَ ظَاهِرًا لِلْعِيَانِ، فَيُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ، وَلَكِنَّهُ مَوْجُودٌ يُحَسُّ بِهِ الْوِجْدَانُ، وَيَعْرِفُهُ الْفِكْرُ وَالْجَنَانُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قُمْتُ أَنَا و « إِمِيلُ » وَأَدَّيْنَا فَرْضَ الْعِبَادَةِ لِذَلِكَ الْمُرِيدِ الَّذِي لَا حَدَّ لِإِرَادَتِهِ الْقَادِرِ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنْ كَانَ عَقْلُنَا لَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَاتِهِ .

كُلَّ يَوْمٍ تَبْدُو لِي صُعُوبَةُ الْعَمَلِ الَّذِي شَرَعْتُ بِهِ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ بِالْعَمَلِ الَّتِي أَسِيرُ عَلَيْهَا تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي الْمُرَبِّي مَعَارِفُ أَنَا خِلْوٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا وَلَكِنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ اعْتِقَادِ أَنَّهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِتَقْوِيمِ خُلُقِ « إِمِيلَ » ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ حَيَاتِي بِدُونِكَ إِنَّمَا هِيَ فَرَاغٌ أَجْتَهِدُ فِي مَلْئِهِ بِالْقِيَامِ بِذَلِكَ الْفَرْضِ الْعَظِيمِ، وَلَمْ يَبْقَ لِي مِنْ غَرَقِ سَفِينَةِ آمَالِي إِلَّا وَلَدُنَا الَّذِي أَتَشَبَّثُ بِهِ تَشَبُّثَ الْغَرِيقِ بِلَوْحِ النَّجَاةِ وَأُحِبُّهُ لِذَاتِهِ وَلَكَ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَوَاجِسَ مَشْؤُومَةٍ تَمُرُّ بِخَاطِرِي مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَتُكَدِّرُ صَفَاءَ مَا فِي قَلْبِي مِنْ نَفِيسِ عَوَاطِفِ الْحُبِّ؛ ذَلِكَ أَنِّي أَقُولُ فِي نَفْسِي : مَا يَكُونُ الْحَالُ إِنْ كَانَ هَذَا الطِّفْلُ بَعْدَ مَا بَذَلْنَاهُ لَهُ مِنْ صُنُوفِ الْعِنَايَةِ يَخُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ عُهُودَ وَالِدِهِ وَيُنْكِرُ مَبَادِئَهُ وَيَدُوسُهَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَلَا يَكْتَرِثُ بِمَا عَرَاهُ مِنَ الْآلَامِ طُولَ حَيَاتِهِ؟ إِذًا لَأَقْتُلَنَّهُ ... كَلَّا! بَلْ أَقْتُلُ نَفْسِي،

وَلَكِنَّ تَحَقُّقَ هَذِهِ الْهَوَاجِسِ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ، وَأَرْجُو أَنْ يَصِلَنِي كَلِمَةٌ مِنْكَ تُزِيلُ عَنِّي هَذِهِ الْمَخَاوِفَ الْمُكَدِّرَةَ الَّتِي بَلَغَ تَشْوِيشُهَا لِي إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِي . اه

الرسالة السادسة والعشرون

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فى ٣٠ يوليه سنة — ١٨٥)

وُجُوبُ إِعْتِرَافِ الْمُرَبِّي لِلطِّفْلِ بِجَهْلِ مَا يَجْهَلُهُ وَانْتِقَادُ الْمُرَبِّينَ فِي دَعْوَاهُمُ الْعِلْمَ بِكُلِّ شَيْءٍ وَانْتِقَادُ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَاسْتِحْسَانُ طَرِيقَةِ زَوْجَتِهِ فِي التَّرْبِيَةِ وَبَيَانُ بَعْضِ شُرُوطِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ يَنْسَى الْمُرَبِّي مَا تَعَلَّمَهُ لِيَعُودَ إِلَى تَعَلُّمِهِ مَعَ الطِّفْلِ

أَنَا أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ هَيْلَانَةُ أَعْرِفُ فَرْطَ حُبِّكِ لِي وَجَمِيلَ انْعِطَافِكِ نَحْوِي وَأُقَدِّرُهُمَا حَقَّ قَدْرِهِمَا، وَلَكِنِّي لَسْتُ مَعَكِ فِيمَا يُخَامِرُ (١) قَلْبَكِ مِنَ الْمَخَاوِفِ فِي شَأْنِ مُسْتَقْبَلِ « إِمِيلَ » فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ وَالِدَهُ لَا أَرَى لِي حَقًّا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي إِيجَابِ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذًا لِي، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَتَبَجَّحَ بِأَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْحَقِّ الْمُطْلَقِ وَإِنْ حَسُنَتْ مِنْهُ النِّيَّةُ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ يَذُوقُ الْمَكْرُوهَ مِنْ أَجْلِهِ . نَعَمْ إِنَّهُ لَيُؤْلِمُنِي أَلَمًا شَدِيدًا أَنْ أَرَاهُ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ مُخَالِفًا لِي فِي آرَائِي غَيْرَ آخِذٍ بِمُعْتَقَدَاتِي وَلَكِنِّي أَكُونُ أَنَا الْمُخْطِئَ الْمَلُومَ فِي ذَلِكَ دُونَهُ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ عَدَمَ حِذْقِي فِي إِيصَالِ أَفْكَارِي إِلَى نَفْسِهِ أَوْ حُكْمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ بِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هُوَ

(١) يخامر يدخل .

الحَقّ فِيهَا، أَعْنِي أَنَّهَا أَغْلَاطُ عَقْلٍ صَادِقٍ فِي بَحْثِهِ عَنِ الصَّوابِ مُخْلِص فِي تَلَمُّسِهِ طَرِيقَ الرُّشْدِ.

عَلَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي الاشْتِغَالِ بِالْمُسْتَقْبَلِ فَإِنَّ الَّذِي يَعْنِينَا هُوَ الْوَقْتُ الحَاضِرُ.

تَقُولِينَ: إِنَّ «إِمِيلَ مُحِبٌّ لِلاسْتِطْلَاعِ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ فَأُبَشِّرُكِ بِأَنَّ هَذِهِ أَمَارَةٌ حَسَنَةٌ عَلَى نَجَابَتِهِ، وَلَكِنِّي أَنْصَحُ لَكِ إِذَا سَأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ تَجْهَلِينَ حَقِيقَتَهُ أَنْ تَعْتَرِفِي لَهُ بِجَهْلِكِ اعْتِرَافًا خَالِصًا مِنَ الْمُوَارَبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُخَالِفًا لِمَا عَلَيْهِ مُعْظَمُ الْوَالِدِينَ وَمُعَلِّمِي الْمَدَارِسِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ ـ كَمَا وَرَدَ فِي الأَمْثَالِ ـ «لِكُلِّ فَتْقٍ رَتْقٌ(١) وَلِكُلِّ مَسْأَلَةٍ جَوَابٌ» فَكَأَنَّهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ بِهَذَا نَوْعٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى عُقُولِ تَلَامِيذِهِمْ؛ وَأَنْتِ بِحَمْدِ اللهِ فِي غِنًى عَنِ التَّذَرُّعِ(٢) بِهَذِهِ الذَّرِيعَةِ الخَطِرَةِ لإِثْبَاتِ وِلَايَتِكِ عَلَى «إِمِيلَ»، أَقُولُ إِنَّهَا خَطِرَةٌ وَلَا أَحُولُ عَنْ وَصْفِهَا بِذَلِكَ: فَإِنَّ فِي تَعْوِيدِ الطِّفْلِ اعْتِقَادَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنًى مُحَقَّقًا يُمْكِنُ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ مِنْ غَيْرِهِ بِسُهُولَةٍ مُبَادَرَةً إِلَى إِخْمَادِ قُوَّةِ الذِّهْنِ وَدَعْوَةً لَهَا إِلَى التَّبَلُّدِ، لأَنَّهُ مَتَى سَبَقَ إِلَيْهِ الْوَهْمُ بِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي النَّاسِ عِلْمٌ كَافِلٌ بِإِزَالَةِ جَمِيعِ الشُّكُوكِ الَّتِي تَعْتَرِضُ الذِّهْنَ فِي فَهْمِ مَعَانِي الأَشْيَاءِ لَا يَجِدُ مُوجِبًا لِتَكَلُّفِ الْبَحْثِ وَالْمُلَاحَظَةِ، وَأَمَّا إِذَا اعْتَرَفْتِ لَهُ بِأَنَّكِ لَمْ تُمْعِنِي النَّظَرَ فِيمَا يَسْأَلُكِ عَنْهُ إِمْعَانًا يَكْفِي لإِبْدَاءِ رَأْيِكِ فِيهِ فَإِنَّكِ تَكُونِينَ قَدْ عَجَّلْتِ بِتَعْلِيمِهِ أَنَّ إِصَابَةَ الْحَقِّ هِيَ ثَمَرَةُ عَمَلِ الْجَادِّ وَنَتِيجَةُ بَحْثِهِ، وَأَيُّ جَوَابٍ يُسَاوِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ؟(٣)

---

(١) الرتق ضم أجزاء المفتوق بعضها الى بعض. (٢) تذرع بالشيء توسل به والذريعة الوسيلة.

(٣) كنى بهذا ارشادا الى شحذ الذهن ودعوته الى التفكير فيما يعرض له من المسائل ومما يجرى نحوه ويجرى فى سبيله قولهم من قال لا ادرى فقد افتى.

ثم ليحذر الوالدون والمعلمون أن يكون في ادعائهم لأنفسهم نوعا من العصمة في العلم استدبارا للغاية التي يسعون إليها . ذلك أن الناشئ إذا كشف له المستقبل بغتة ما يقع فيه أولئك المصرفون لعقله من الأغلاط تزعزع اعتقاده فيهم مرة واحدة وزالت من نفسه الثقة التي أرادوا أن يجعلوها محلا لها ، وليس ما أخشى مغبته على «إميل» من أنواع الريب هو الحذر النافع الذي يكون فيمن تعلموا من صغرهم البحث في الأمور وعدم التسليم بها قبل اتضاح وجه الحق فيها ، وإنما الذي أخافه عليه هو مرض زوال الاعتقاد .

مما ينبغي التصريح به أن الصبغة الاعتقادية التي نراها في طريقة التعليم عندنا ناشئة من جميع مقومات أوضاعنا الاجتماعية ، فإنه متى اعتبر أن القائمين على الدين وعلى السياسة قد فكروا في مصلحة الأمة لزم بطريق البداهة أن تنزل من سماء علاهم طائفة من العلوم مقررة فيفرض على عقول الأحداث قبولها بلا نظر ولا مناقشة : فأنت تجدين في التعليم الديني أسرارا يتعاصى على عقل الانسان اكتناهها ، وأعمالا وعادات ليس في مقدور أحد من الناس تغيير شيء منها ، وأحكاما لا تقبل العرض على محك النظر بل تقيد قوة الإدراك إلى الأبد ، فلا تجد سبيلا إلى الجولان فيها (١) وأما التعليم السياسي فهيهات أن يكون ما يلقيه فيه الأستاذ على تلاميذه

(١) إنما دعا أراسم لتوجيه هذا الانتقاد الى التعليم الديني كونه من غلاة أهل النظر وله ولأمثاله بعض العذر في هذا الانتقاد لما دخل على الأديان من الفساد الذي دعا الى اختلاط الحق بالباطل ، والدين الحق لا يخالف النظر العقلي لأن الاسلام يعلمنا أن أساس الدين العقل وما أخبر به الكتاب الآلهي من أمور الغيب ليس فيه شيء ممنوع في نظر العقل . ومن لم يصدق إلا بما يراه لا يمكنه أن يثق بقول مؤرخ ولا طبيب ولا كيماوي ولا طبعي اذا قالوا أو استنبطوا شيئا حتى يراه بعينه ويستنبطه هو بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل انسان أجهل الجاهلين .

=

أَقَلّ مِمَّا ذُكِرَ إِلْزَامًا لِأَنَّ الْأُسْتَاذَ لَمَّا كَانَ أَجِيرًا لِلْحُكُومَةِ كَانَ بِالضَّرُورَةِ صَدًى يُرَدِّدُ أَصْوَاتَ أَحْكَامِهَا فَبَخٍ بَخٍ (١) لِهَذَا النِّظَامِ الَّذِى لَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَدِّيًا إِلَى اسْتِعْبَادِ النَّفْسِ لَمَا رَأَيْتُ لِي وَجْهًا فِي انْتِقَادِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُؤَدِّيًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَثَرِ فِي إِمَاتَةِ عَزِيمَةِ النَّاشِئِ يَحْصُرُ فَائِدَةَ التَّعْلِيمِ فِي مُجَرَّدِ تَمْرِينِ الذَّاكِرَةِ، فَوَارَحْمَتَاهُ لِذَلِكَ الْمِسْكِينِ الَّذِى هُوَ كَالْبَعُوضَةِ حُمِّلَتْ مِنْ تَوَارِيخِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَعُلُومِهَا وَأَقْوَالِ الثِّقَاتِ فِيهَا مَا أَبْهَظَهَا فَعَاقَهَا عَنِ الطَّيَرَانِ .

عَلَى أَنَّهُ يَنْدُرُ — وَالْحَقُّ يُقَالُ — أَنْ يَصِلَ أَرْبَابُ الْحَصْرِ وَالتَّضْيِيقِ النَّفْسِيِّ إِلَى تَمَامِ الْفَوْزِ الَّذِى كَانُوا يُؤَمِّلُونَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الزَّمَانِ الَّذِى يَعِيشُ فِيهِ الطِّفْلُ أَوْ مَا يُوجَدُ فِي طَبْعِهِ أَحْيَانًا مِنَ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ أَوْ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ آرَاءِ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَتَرَبَّى بَيْنَهُمْ يُخْلِفُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ظُنُونَ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّعْلِيمِ الرَّسْمِيِّ وَيَأْتِي بِعَكْسِ مَا كَانَ فِي حُسْبَانِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّهُ

= وقوله إنه متى اعتبر أن القائمين على الدين قد فكروا فى مصلحة الأمة الخ . يدل على اعتقاده أن رجال الدين هم واضعوا قواعده وأحكامه وناريضوا أعماله وعاداته التى يشكو من تعاصى أسرارها على العقل أن يكتنهها ومن عدم إمكان تغيير شىء منها ومن تقييدها قوة الادراك تقييدا لاتجد معه سبيلا للجولان فيها وذلك منه وهم محض لأن الأديان لو كانت من الأوضاع البشرية لأبلاها مر القرون ودثرها كر الدهور شأن كل ماهو من عمل ذلك المخلوق الضعيف الفانى الذى لا حول له ولا قوة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فبقاؤها على الأيام وملازمتها لكل جيل من أجيال البشر من أقوى الأدلة على أنها تنزيل من رب العالمين وهداية من أرحم الراحمين جعلها لخلقه سراجا منيرا يهتدون به الى سبيل الحق ويتنكبون بنوره عن متاهات الغى والضلال اذا جمح بهم فيها ذلك العقل المسكين الذى يريد له أرامسم التسلط على كل شىء حتى على خالقه وواهبه وما يتنزل منه على خلقه من هدى ورحمة نعوذ بالله من علم ينقلب جهلا وفتنة . المترجم

(١) بخ : اسم فعل يقال عند المدح والرضا بالشىء و يكرر للمبالغة وهو مقول هنا للتهكم .

لا يَنْجُو مِنْ وَحْدَةِ هَـذَا الْقَالَبِ الَّذِي تُصَاغُ فِيـهِ الْأَجْيَالُ النَّاشِـئَةُ عَلَى الشَّكْلِ الْمَطْلُوبِ إِلَّا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ، وَأَمَّا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ فَإِنَّ مَدَارَ تَعَلُّمِهِ يَكُونُ عَلَى التَّسْلِيمِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْوُقُوفِ عِنْـدَ حَدِّ مَا تَلَقَّاهُ عَنْ مُعَلِّمِهِ الَّذِي يُعِيـدُ عَلَيْهِ مَا أَخَذَهُ عَنْ أَسَاتِذَتِهِ، فَالتَّرْبِيَةُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ سِلَاحٌ ذُو حَدَّيْنِ يَتَسَنَّى بِهِ اسْتِعْبَادُ الْعَقْلِ كَمَا يَتَسَنَّى بِهِ تَحْرِيرُهُ، وَمَرْجِعُ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ، وَإِنِّي لَنْ أَرْضَى أَنْ أَكِلَ مُسْتَقْبَلَ « إِمِيلَ » إِلَى مَدَاحِضِ(1) مُصَادَفَاتٍ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهَا الْحَقُّ وَالْبَـاطِلُ، وَتَعْتَـوِرُهَا الْحُرِّيَّةُ وَالِاسْتِرْقَاقُ، وَلَوْ أُوتِيتُ فِي ذَلِكَ أَنْفَسَ شَيْءٍ فِي الْعَـالَمِ كُلِّهِ.

عَلَى أَنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَجْحَدَ مَا لِآثَارِ السَّلَفِ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَوَائِدِ، إِلَّا أَنَّ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ الْآثَارِ كَمَا فِي الْأَخْذِ بِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ حَدًّا وَسَطًا يَصْعُبُ تَمْيِيزُهُ، فَالطِّفْلُ الَّذِي لَا يَتَلَقَّى شَيْئًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ يَصِـيرُ إِمَّا مُتَوَحِّشًا وَإِمَّا أَحْمَقَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي يَتَلَقَّى مِنْـهُ كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّسْلِيمِ مُرْتَكِنًا عَلَى ثِقَتِهِ بِهِ مُجْتَنِبًا مَشَقَّةَ النَّظَرِ فِيمَا تَلَقَّاهُ مِنْـهُ بِدَعْوَى أَنَّ مَنْ سَبَقُوهُ قَدْ كَفَوْهُ مُؤْنَةَ ذَلِكَ وَكَانُوا أَصَحَّ مِنْـهُ نَظَرًا فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ أَبَدًا إِلَّا ضَعِيفَ الْعَقْلِ مُعَجَّلًا بِوَقْفِ نَفْسِهِ عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِ الِاسْتِعْبَادِ.

ثُمَّ اعْلَمِي أَنَّ مُعْظَمَ أَغْلَاطِنَا وَمُعْتَقَدَاتِنَا الْبَاطِلَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى آرَاءٍ يَتَدَاوَلُهَا النَّـاسُ وَيَرَوْنَ تَسْلِيمَهَا وَاعْتِبَارَهَا حَقَائِقَ مَعْصُـومَةً مِنْ تَطَرُّقِ الْبَاطِلِ إِلَيْهَا أَسْهَلَ عَلَيْهِـمْ

(1) مداحض جمع مدحضة وهي المزلة أي مكان العثور والسقوط.

بكثير من استقصائها واستجلاء الصواب فيها بنور العقل فمثل هذه الآراء تسرى إلى نفوسنا من أول نشأتها وينتهى أمرها إلى أن تكون من الامتزاج بها بحيث يلزم لاستئصالها فى المستقبل بذل جهد عظيم فى إعمال القوة الحاكمة والاستعانة بشىء من الإقدام والبسالة . نعم إنه من الصعب جدا أن لا يعلق بنفس «إميل» شىء من تلك الأفكار الفاسدة ، ولكن الذى يهمنا هو أن يكون ما يتصل به منها أقل ما يمكن وأن يجد فى مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها والخلاص منها .

وجملة القول أن طريقتك فى تربية « إميل » قد نالت من رضائى واستحسانى أكمل حظ ووقعت من قلبى أجل موقع ، فإن التربية عمل ملاكه بذل النفس وقوامه الحب ، وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الاحتراس والانقباض فى معاشرة الأخصاء ومخالطة الأصفياء ، فأمثال هؤلاء لا ينبغى أن تعهد إليهم تربية الأحداث لأنه يشترط فيمن يتولونها أن يكون فيهم من انبساط النفس ما يأخذ بقلوب الناشئين إليهم ، وأن يكونوا من المحدثين(١) فيها المبعوثين عليها ببعض البواعث الفطرية فمربى الطفل ومعلمه الحقيقى المستكمل لهذه الشروط إنما هو أمه .

ثم إنى مستحسن كذلك ما رأيته من إدامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك القيام بهذا الفرض الذى قدر لك ، ولكنى أعظك بأن تجعلى هذه الحقيقة دائما نصب عينيك ألا وهى : ليس أول شرط فى التربية أن يكون المربى عالما وإنما هو أن ينسى جميع ما تعلمه ليعود إلى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . اهـ

(١) المحدثون بصيغة اسم المفعول مع تشديد الدال هم الملهمون .

الرسالة السابعة والعشرون

(من إراسم إلى هيلانة فى ٢٣ اغسطس سنة — ١٨٥)

بيان وجوب التدرج فى تعليم العلوم للأطفال بلفت أذهانهم إلى ما حولهم وانتقاد الكتب التعليمية

أذكر أن رجلا فاضلا من أصدقائى كان قد وجد فى نفسه انبعاثا إلى التربية فأوجب عليها الاشتغال بها، ثم إنه ندب لإدارة مدرسة كان غيره أنشأها فألفى (١) نظام التأديب فيها بالغا من الشدة غايتها، إذ رأى فيها أفرادا من التلاميذ يخصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة فى فنائها كل يوم جثيا (٢) أو قياما فى مواقف الجزاء، ولم يكن يعوزها شىء مما تشرف به من طرق العقاب كالتكليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لأنها كانت على الأصول القديمة القويمة ! فما لبث صديقى هذا أن أبطل كل ذلك النظام التأديبى دفعة واحدة لعلمه بأنه لا يرهب إلا الجبناء ولا ينشأ عنه أثر للتهذيب فى نفوس المتعلمين، وقال للتلاميذ : أنا أعلم من سيعاقبكم بعد الآن إن أنتم أسأتم . ذلك هو وجدانكم الذى لا ينجو من سوط عذابه من أعفى من ضرب العصا .

كان شعار هذا المربى فى تعليمه . « لا قلنسوة (٣) لعالم ولا لحمار » .

وكان التلاميذ قبل وجوده فى المدرسة لا يتسنى لهم أن يخطوا خطوة فى دهاليزها الطويلة وفى عرصاتها وقاعاتها الفسيحة إلا وهم مصطفون مثنى

(١) ألفى وجد . (٢) جثيا جالسين على ركبهم . (٣) القلنسوة فى نظام التعليم الأوربى شارة العلماء ينالها من أتم الدراسة وأدى الامتحان فيها — المترجم .

تحت رعاية كبير لهم يسمونه ضابط الرجالة تهكماً به ويكرهونه من صميم أفئدتهم ولا يفترون عن مماحكته وابتلائه بضروب الحيل والخبث ، اجمعهم المعلم الجديد ليلقى عليهم نبأ عظيماً فقال لهم : إعلموا أنكم من الغد أحرار ولا سيطرة لأحد عليكم وإنه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذى تشعرون به . ولا أرانى بعد هذا فى حاجة إلى القول بأن كلا منهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الأمور به وألزمها له .

وبينما كان فى يوم من الأيام مجتازاً حديقة المدرسة بصر بتلميذ تسلق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس وأنشأ يأكل من قطوفه أكلاً لماً (١) ، فتظاهر له بالغفلة عن فعله ورجاه أن يلتمس له أمين المدرسة ، فأتاه من فوره يتبعه الغلام النهاب والريبة تدب إلى نفسه فقال المدير للأمين ، كيف يصح أيها السيد أن لا يعطى هذا الغلام من الطعام كفايته ، فإنه لم يكد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء إلى الكرم وطفق يجنى قطوفه خلسة ، فأرجو أن تأخذه الآن بنفسك وترده إلى المطعم ليأكل ما يكفيه .

كان هذا المربى أقل الناس شبهاً بمديرى المدارس وكان من أجل ذلك محبوباً لتلاميذه ، فإنى كثيراً ما رثيت لحال معلم الأطفال الذى هو شهيد الشهداء لمقتهم إياه مع إحسانه إليهم ، وعلى كل حال لست أدرى هل كنت مخطئاً فى ذلك أو مصيباً ، فلا إخال الطفل كفوراً بنعمة معلميه ولكنهم هم الذين أرادوا أن يطعموه من باكورة العلم صاباً (٢) وعلقماً (٣) ، كيف لا وفى التعلم سعادة المتعلمين . وفى التمرين

---

(١) لما : أى شديداً . (٢) الصاب عصارة شجر مر . (٣) العلقم الحنظل اذا اشتدت مرارته .

والتدريب حياة لكل قوة من قوى الإنسان، ولا شيء إلا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو . وهكذا شأن التلميذ، وإنما القهر هو الذي يحيل فرحه إلى ترح ومرحه إلى خمود ، فإنه يجيء إلى المدرسة وللحياة فيه دوى كدوى النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكا بالكتب واثقا بها ثقة الظالم الغاشم ، فياله من تنشيط للأحداث وترغيب لهم في التعلم .

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلو منها .

إنك إذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجدين فيها سوى مكاتب ملطخة بالمداد، ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم، وجدرانا أربعة عارية من الزينة وسقفا مرفوعا على خشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة ، فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقة السراح مغردة في الجو كأنها تسخر من التلاميذ ، فإن الكون الخارجي كله أصوات وأضواء وأشكال وألوان تدعو الطفل إلى التعلم بواسطة مشاعره وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره، فقلما يوجد فيها صورة وشيء من خوارت تقويم البلدان ، وما عسى أن يوجد من الصور فديم قبيح ومن الخوارت فهو يشبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان ، فأقسم بالله على المتولين أمر التربية أن يدخلوا في هذه المقابر التي أعدوها للأحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعا من أشعة الحياة .

كُلُّ أُمَّةٍ تُعْنَى بِالتَّرْبِيَةِ حَقَّ الْعِنَايَةِ يَنْبَغِى أَنْ لَا تَخْلُو مَدْرَسَةٌ مِنْ مَدَارِسِهَا مِنْ مِنْظَارٍ مُعَظِّمٍ (ميكروسكوب) لِمُضَاعَفَةِ أَجْرَامِ الْأَشْيَاءِ الَّتِى لَا تُرَى بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ : وَمِنْ مِرْقَبٍ (تليسكوب) تَسْهُلُ بِهِ رُؤْيَةُ أَشْكَالِ أَقْرَبِ الْكَوَاكِبِ إِلَى الْأَرْضِ، ومِنْ كُرَةٍ جَوْفَاءَ تُمَثِّلُ فِى بَاطِنِهَا أَقْسَامُ الدُّنْيَا (جيوراما) وَمِنْ مَرْبًى لِلْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ الْمَائِيَّةِ وَمِرْآةٍ لِلصُّوَرِ الْمَاثِلَةِ (استيريوسكوب) وَعَلَى الْجُمْلَةِ يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا جَمِيعُ الْأَدَوَاتِ اللَّازِمَةِ لِتَحْصِيلِ مَعْنَى الْكَوْنِ وَآيَاتِهِ الْكُبْرَى فِى أَذْهَانِ النَّاشِئِينَ .

إِعْلَمْ أَنَّ اللَّفْظَ وَالْخَطَّ طَرِيقَتَانِ قَاصِرَتَانِ جِدًّا عَنْ إِيصَالِ الْعُلُومِ إِلَى نَفْسِ الْحَدَثِ وَأَنَّ اللَّازِمَ لَهُ إِنَّمَا هُوَ رُؤْيَةُ الْأَشْيَاءِ، فَلِمُرَبِّيهِ تَوْجِيهُ فِكْرِهِ وَلَوْ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ الْقِرَاءَةَ إِلَى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا تَخْرُجُ بِحَالٍ عَنْ مُتَنَاوَلِ إِدْرَاكِهِ ، وَرَأْيِى فِيمَا عَلَيْهِ الْمُرَبُّونَ الْآنَ : هُوَ أَنَّهُمْ يُفْرِطُونَ فِى التَّعْجِيلِ بِتَعْلِيمِهِ بَعْضًا مِنْ فُرُوعِ الْعِلْمِ كَانَ حَقُّهَا التَّأْجِيلَ وَفِى تَأْجِيلِ بعض آخر كَانَ أَوْلَى بِالتَّعْجِيلِ ، وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِى اخْتِيَارِ الْعُلُومِ وَتَرْتِيبِهَا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى دَرْسِ الْقَوَانِينِ الَّتِى يَجْرِى عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِى نُمُوِّ جِسْمِهِ وَنَفْسِهِ وَعَقْلِهِ .

قَوْلُهُمْ «لَمَّا يَجِئْ وَقْتِى» كَلِمَةٌ تَصْدُقُ عَلَى مُعْظَمِ قُوَى الْإِنْسَانِ فِى سَاعَةٍ مَا مِنْ عُمُرِهِ، فَالطِّفْلُ الَّذِى وَصَلَ إِلَى أَنْ يُدْرِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَبْعَادَهَا وَعَلَامَاتِهَا الظَّاهِرَةَ يَكُونُ عَقْلُهُ فِى غَايَةِ الْقُصُورِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا بَيْنَهَا مِنَ الرَّوَابِطِ، وَيَكُونُ أَيْضًا أَشَدَّ قُصُورًا عَنِ النُّفُوذِ فِيمَا تَجْرِى عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَيَقْصُرُ عَقْلُهُ خُصُوصًا عَنْ تَتَبُّعِ

سِلْسِلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا ، فَالْيَافِعُ يَتَأَثَّرُ بِالْقَضَايَا الشِّعْرِيَّةِ وَتَرْتَاحُ نَفْسُهُ إِلَيْهَا ، وَلَا يَمِيلُ إِلَى الْقَضَايَا الْمَنْطِقِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْحِكْمِيَّةِ . وَمَنْ حَاوَلَ اسْتِمَالَتَهُ إِلَيْهَا فَقَدْ عَبَثَ ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ ضُرُوبَ الِاسْتِعْدَادِ الْمُنَاسِبَةَ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ لَمَّا تُوجَدْ فِيهِ أَوْ أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ مِنْهَا إِلَّا جَرَاثِيمُهَا ، فَالْإِدْرَاكُ لَفْظٌ عَامٌّ يَدْخُلُ فِي مَفْهُومِهِ عِدَّةُ قُوًى مُتَمَايِزَةٍ كُلَّ التَّمَايُزِ لَا تَنْمُو إِلَّا بِالتَّدْرِيجِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا طَوْرُ كُمُونٍ ثُمَّ تَظْهَرُ تَابِعَةً فِي ذَلِكَ لِجُمْلَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَشْخَاصِ وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ وَلَكِنَّهَا فِي التَّحْقِيقِ مَحْدُودَةٌ بِسُنَنِ الْكَوْنِ وَالزَّمَانِ ، فَأَفْكَارُنَا وَضُرُوبُ الْوِجْدَانِ فِينَا لَهَا أَعْمَارٌ كَأَعْمَارِنَا .

الشَّيْءُ الْوَاحِدُ يَقْتَضِي أَنْ يَتَعَلَّمَهُ الْإِنْسَانُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَمِنْ وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ . خُذِي لَكِ مَثَلًا : الطِّفْلُ لَا يَرَى فِي الْوَرْدَةِ بَادِئَ بَدْءٍ إِلَّا وَرْدَةً ثُمَّ إِذَا نَمَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْإِدْرَاكِ قَلِيلًا انْتَزَعَ مِنْ شَكْلِهَا وَلَوْنِهَا وَرَائِحَتِهَا مِثَالًا عَقْلِيًّا مُمْتَازًا يَعْرِفُ بِهِ الْوَرْدَةَ كُلَّمَا وَقَعَتْ فِي يَدِهِ وَهُوَ فِي هَذَا الطَّوْرِ مِنَ الْحَيَاةِ لَا يَهْتَمُّ بِمَرْتَبَتِهَا الَّتِي عَيَّنَهَا لَهَا عُلَمَاءُ النَّبَاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلَا بِتَرْكِيبِهَا وَمَعِيشَتِهَا ، فَتِلْكَ طَائِفَةٌ مِنَ الشُّئُونِ وَالْأَفْكَارِ يَجِبُ عَلَى مُرَبِّيهِ الِاحْتِرَاسُ التَّامُّ مِنَ الْخَوْضِ مَعَهُ فِيهَا إِذَا كَانَ يَعْنِيهِ أَنْ لَا يُضِلَّ مُدْرِكَتَهُ ، وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ .

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُعَلِّمَ « إِمِيلَ » عِلْمَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ (الجيولوجية) مَثَلًا وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَعْتَبِرُهُ الْعَارِفُونَ أَبَا الْعُلُومِ فَإِنِّي أُنَبِّهُهُ أَوَّلًا إِلَى مَا يُوجَدُ فِي الْأَحْجَارِ بَلْ فِي حَصَا الطُّرُقِ مِنْ أَشْكَالِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعُضْوِيَّةِ الْمُنْطَبِعَةِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ حُبَّهُ لِلِاسْتِطْلَاعِ وَمَيْلَهُ

بالاستئثار بالمعرفة مع مساعدة الفرص بعودانه فى أقرب وقت تمييز أهم العلامات التى توجد فى دفائن الأرض من بقايا تلك المخلوقات ، فجميع ذلك مناسب لسنه أو قريب منها ثم بعد ذلك ببضع سنين أدعوه إلى أن يقيس ما قد يكون جمعه من هذه النموذجات بعضه ببعض وأن يرتبها على حسب ما بينها من التشابه وفى هذا الوقت دون غيره أتلطف فى تسريب معنى أطوار الأرض وعصورها إلى ذهنه ، واقص عليه تاريخها مستعينا بتلك الحصا والحجارة فقد قال شكسبير (١) « إن فى الحجارة لموعظة وذكرى » وأنا أقول : إن فيها ما هو أسمى من ذلك فهى وحى يعلمنا كيف خلقت الأرض . ثم إذا بلغ « إميل » الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ، أى صار فى سن تؤهله لفهم كل ما أقوله له حق الفهم استعنت بعلم طبقات الأرض على تعليمه حكمة التاريخ فهو أمثل مقدمة لها .

فيما كاشفتك به من أفكارى هذه غناء عن تعريفك أننا لا ينبغى لنا فى تعليم « إميل » أن نعول على شىء من المؤلفات الموجودة . فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التى بين أيدى الأطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التى نقصدها . فإنها مختصرات علمية توهم واضعوها أنها تكون ملائمة لإدراك الأحداث لسهولة عباراتها ، وليس العيب ها هنا فى شكل الكتب وإنما هو فى أصل وضعها ، فإن أول شىء يتسنى للطفل إدراكه من نظام الكون هو ما يدركه منه الانسان فى أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها ، فالمعلمون لا يفتأون ينسون

(١) شكسبير هو أشعر شعراء الانجليز كما مر فيما سبق .

أَنَّ التَّعَارِيفَ وَالتَّقَاسِيمَ وَالْقَوَانِينَ لا تُوجَدُ إلَّا بَعْدَ التَّجَارِبِ، كَمَا أَنَّ عُلُومَ اللُّغَةِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا فِى الْوُجُودِ وَكَذَلِكَ عُلُومُ الدِّينِ، وَيَغِيبُ عَنْ أَذْهَانِهِمْ أَنَّ عُلُومَ الإِنْسَانِ لَمْ تَتَكَوَّنِ الْبَتَّةَ بِالصُّورَةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ عَلَيْهَا الأَحْدَاثُ الآنَ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَمْ يَصِلْ إِلَى إِيجَادِ طَائِفَةٍ مِنَ الْعِلْمِ مَحْدُودَةٍ إِلَّا بِالانْتِقَالِ مِنْ حَادِثَةٍ جُزْئِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى وَمِنْ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ مُرْتَبِطٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى غَيْرِهَا، وَبَعْدَ أَنْ وُجِدَتْ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْهَا أَنْشَأَ يَسْتَنْبِطُ لَهَا الْقَوَانِينَ الَّتِي تَضْبُطُهَا ثُمَّ تَفَرَّعَتْ دَوْحَةُ الْمَعَارِفِ وَتَمَايَزَتْ فُرُوعُهَا وَانْفَصَلَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الآخَرِ .

فَالْجَرْىُ فِى تَعْلِيمِ الطِّفْلِ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قَلْبٌ لِنِظَامِ عَقْلِ الإِنْسَانِ ، فَالْمُعَلِّمُونَ إِنَّمَا يُلْقُونَ عَلَيْهِ نَتَائِجَ الْعُلُومِ وَخُلاصَاتِهَا قَبْلَ أَنْ تُؤَسَّسَ قُوَّتُهُ الحَاكِمَةُ مَبَادِئَهَا وَتُدْعَمَ بِمُقَدِّمَاتِهَا، فَتَرَيْنَهُم يَنْحَدِرُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنَ الذِّرْوَةِ الَّتِي رَقِيَ إِلَيْهَا الْعِلْمُ فِى عَصْرِنَا بِعَمَلِ الأَجْيَالِ المَاضِيَةِ إِلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حَضِيضِ الْجَهْلِ ، وَالَّذِى يَسْتَحْسِنُ أُولئِكَ الْمُعَلِّمُونَ تَسْمِيَتَهُ مَبَادِئَ الْعُلُومِ إِنَّمَا هُوَ فِى حَقِّ الطِّفْلِ ثَمَرَاتُ الْعَقْلِ الْمُبَالِغِ فِى تَحْضِيرِهَا وَمِنْ نَتَائِجِ رَبْطِ الأَشْيَاءِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ .

أَنَا لَا أَجْرِى عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِى تَعْلِيمِ «إميل» فَإِنِّى أَوَدُّ قَبْلَ أَنْ أُعَلِّمَهُ تَارِيخَ الْمَوْجُودَاتِ أَنْ أُعَرِّفَهُ بِمَا فِى الْكَوْنِ، فَأَجْعَلَ لَهُ بِهِ أُنْسًا بِأَنْ أُوَجِّهَ نَظَرَهُ إِلَى حَوَادِثِ الْحَرَارَةِ وَالضَّوْءِ وَالْكَهْرَبَاءِ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ قَوَانِينَ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، وَأُعَلِّمَهُ شَيْئًا مِنْ أَوْصَافِ أَشْكَالِ الأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَمَوَاقِعِهَا مِنْ قُبَّةِ الْفَلَكِ قَبْلَ الْخَوْضِ مَعَهُ فِى عِلْمِ الْهَيْأَةِ، بَلْ قَصْدِى إِلَى انْ أَشْرَحَ لَهُ فِى الْمُسْتَقْبَلِ مَا أُعَلِّمُهُ مِنْ سُنَنِ الْكَوْنِ

أقل بكثير منه إلى إيقاظ وجدان الملاحظة فيه ، فإن تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وإنما الأمر الخطير هو أن يؤتى وسيلة التعلم بنفسه وتحرك فيه دواعي الإقبال عليه ، فدروسي « لاميل » كلها لا يكون فيها إلا ماله شأن في تنبيه عقله وتقويته لأنه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

رأيت مما قدمته لك أنه قد قضى عليك أن تكوني (لاميل) كتابا يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صغار الكتب وموجزاتها ومختصراتها ، وعليك أن تلتمسي له أبسط المعاني وأليقها بحالة إدراكه مع التدرج في ذلك بحسب ارتقائه في الفهم وأن تجعلي تعليمك مطابقا لأحوال سنه .

الرسالة الثامنة والعشرون

من إراسم إلى هيلانة في ١٥ أغسطس سنة — ١٨٥

فوائد التصوير والمعارض في التربية

لو أني عهد إلي ببناء مدرسة كبرى للناشئين في أمة من الأمم العظيمة لبذلت وسعي في أن أبث في جدرانها من العلم روحا وعقلا .

ذلك لأن القائمين على التعليم لم يزالوا في سبات من الغفلة عما كان لمعاهد التربية من التأثير في خيال المتعلمين خصوصا في سنيهم الأولى . ولقد كان القدماء أنفذ منا إدراكا في سر التعليم بالمشاهدة ، جروا في ذلك على نواميس الفطرة الإنسانية الحقيقية .

ليست المعابد والبيع[١] عند جميع الأمم إلا مدارس اتخذها الكهنة والقسيسون في الأديان القديمة والحديثة صحفاً لمجموع عقائدهم ومذاهبهم بما أوجدوه لذلك من الوسائل الكبرى في فن العمارة ونحت التماثيل وصناعة التصوير، وبقاء العبادات إلى الآن يدلنا على درجة انتقاش الرموز والصور الاعتقادية في أذهان العامة، فإن مخترعات الخيال التي يبرزها الرسم للوجود الخارجي في صور فخمة تبقى شائعة بين الناس بعد فناء الفكرة التي أنتجتها بعدة قرون، يشهد لذلك بقاء مظاهر المعتقدات الجمادية، مع أن الأمم قد كفت من عهد بعيد عن توهم أنها لا تزال على عاداتها في عبادتها[٢] .

إذا كنا قد رفعنا هياكل للآلهة الباطلة كالحرب والروع والظفر بالأعداء وجميع بلايا الانسان ومصائبه، فما لنا لا نرفع للعلم هيكلا؟ وأى كلفة في هذا العمل على أمة عظيمة؟ لا يقال إن أول عائق دونه هو قلة المال وغلاء المواد اللازمة لإقامته لأنى أرى أننا في غنى عن الذهب والمرمر والخشب النفيس، وفي مقدورنا ألا نتعرض في إنشائه لشيء من صنوبر لبنان ولا من نفائس المعادن التي تم بها العظم والجلال لهيكل سليمان، فإن في الجبس بل في الورق المقوى غناء عن ذلك كله في سبيل التربية إذا وجد له أناس صنع اليدين يهيئونه ويستخدمونه في الدلالة على المعاني، وقد أصبح اليوم من الميسور تحصيل أهم مثل الأشياء الخلقية والصناعية بنفقات زهيدة، وذلك بفضل ما اخترع من طرق إفراغ المواد في القوالب،

(١) البيع : متعبدات النصارى . (٢) ما قاله المؤلف هنا لا يصح قبوله على اطلاقه بل يجب تقييده بالعبادات الوثنية لأن العبادات الخالصة من شوائب الشرك التى مناطها القلوب ليس فيها أشكال ولا رسوم . المترجم

وإنَّ فيما يوجد بمعاهد التمثيل عندنا من تماثيل الزينة وصورها لبرهانًا ناطقًا بأنَّ فى قدرة المصوِّر أن ينقل الرائى إلى رومية (١) وأثينة (٢) ومنفيس (٣) ببعض جولات يتحرك بها قلمه وبشىء من المغالطات البصرية ، لأنه متى أتقن تمثيل ما يمثله من الأشياء فى شكله ولونه كاد أن يحدث فى الخيال ما يحدثه أصله من الأثر فلا عبرة بالمادة وبما يتخذ من الوسائل لبث الروح فيها ما دامت الصورة تنبه المشاعر وتؤدى إلى العقل معنى صحيحًا لما يراد تعريفه إياه .

كل دين إذا استكنهناه رأيناه يرجع إلى فهم ما ذهب إليه أربابه من الآراء فى خلق العالم، ونظامه (٤) لكن فهم هذه الآراء هو فى الغالب غاية فى الصعوبة ، وأنه لولا الاستعانة بالرموز فى إدراكها لنبت (٥) عنها عقول العامة نبوًّا كليًّا . وأمَّا الهيكل الذى أقصد رفعه للعلم فهو معرض تجلى فيه الحوادث على الناشئين، بل هو تاريخ حىّ محسوس للعالم الذى يعيشون فيه ، مواده كلها موجودة لكنها

(١) رومية هى عاصمة إيطالية الآن وكانت فى غابر الأزمان عاصمة مملكة الرومانيين ثم عاصمة لولايات السلطة الروحية ومقرا للبابا كما أنها مقره الآن .

(٢) اثينة هى مدينة شهيرة من القدم فى بلاد اليونان وهى الآن قاعدة حكومة تلك البلاد .

(٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر فى الأزمان الغابرة أطلالها قريبة من القاهرة .

(٤) فى هذه القضية الكلية مجازفة فى الحكم دالة على أن قائلها بعيد بعدا كبيرا عن فهم حقيقة الأديان خصوصا الدين الاسلامى الذى جوهره الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقوامه التفكر فى بدائع صنعته والنظر فى ملكوت السموات والأرض للاستدلال عليه بآثار قدرته والاقرار له بالعبودية الخالصة من شوائب الشرك وملاكه تطهير النفوس من أرجاس الذنوب وتزكيتها من الشر لتعمر الدنيا أحسن عمارة مؤسسة على أقوى دعائم العدل وأوثق أواصر الأخاء فتستمد بذلك للقائه فى دار البقاء وتنال من رضوانه أكبر الجزاء . فهذا الدين هو الملة الحنيفية السمحاء التى لا رموز فيها ولا إبهام ولا خفاء – المترجم .

(٥) نبت : نفرت ولم تقبل .

متفرقة فيما عندنا من المتاحف والمكتبات والمجموعات ونحن عنها غافلون .
فليس من الحق أن يكلف اليافع التماسها في أماكنها لأن ما في هذه الأماكن من العظام النخرة (١) ، والحيوانات المصبرة (٢) ، وجذاذ (٣) الأوثان المكسرة إنما يفيد العلماء . وأما الأحداث فاللازم لإفادتهم إيجاد مشهد تجتمع لهم فيه المثل الحية الكبرى للإنسان وغيره من المخلوقات على صورة جاذبة لنفوسهم .

هذه معارضنا العامة التي تقام في باريس ولندرة قد تعلم منها الجهلة — وهم في كل أمة سوادها الأعظم — من مناشيء الصناعة وتوزع الأجيال (٤) على سطح الأرض وأحوال الترقي في الأمم المختلفة أكثر مما يتعلمونه من جميع الكتب التي وضعت في التدبير السياسي وتقويم البلدان، فكيف إذا عززت مشاهدة الأشياء وكملت بتعليم خاص . تلك المعارض لا تتسنى إقامتها مسانهة (٥) وهي فوق ذلك لا تحتوي إلا على طائفة من الوقائع والأمور المخصوصة ، وإذا كنت قد نوهت بها فإنما قصدت بذلك أن أبين لك ما يعود على الأحداث من الفائدة إذا أقيم لهم معهد آخر للعلوم تمثل لهم فيه صورها .

أصبح علم الكرة الأرضية خلوا مما يستميل نفوس المتعلمين مورثا للسآمة والضجر بيمن ما رسمناه له من الخوارت وألفناه فيه من الكتب ، أفلا يكون الحال على خلاف ذلك لو أن هذه الخوارت استعيضت بنسيج تصور عليه الأرض وما فيها

(١) النخرة : البالية المتفتتة . (٢) المصبرة المحنطة أي المدبرة بمواد تحفظها من البلى .
(٣) الجذاذ : المكسر . (٤) الأجيال : أصناف الناس .
(٥) مسانهة كل سنة .

تَصويرًا إذا جَالَ النورُ في أرْجائه ضاعف مُغالطة بصر الطفل فخُيِّل إليه أنه على الجانب الآخر للمحيط مثلًا ؟ وليس يلزم لذلك إلا مُصورٌ صادقٌ في عزيمته باذلٌ نفسه من أجل البلوغ الى غايته .

قام بفكرٍ أمريكيٌّ شُجاع اسمُهُ "جون بانفارد" يومًا من الأيام أنْ يُصور مجرى نهر المِسيسيبي[(١)] فركبه وحده في قارب مكشوف مُصرًا على إنفاذ فكره غير مُبالٍ بما كان يعترضه من الصعوبات الكثيرة ويعتريه من الآلام الشديدة فيبست يداه وخشنتا . بسبب استعمال المِجذاف واحتراق جلده بحر الشمس فصار عمًّا قليل كواحد من هنود أمريكة في لونه ، وقضى أسابيع كاملة بل شهورًا لم يصادف فيها إنسانًا يكلمه ، ولم يكن له رفيق سوى قربينته[(٢)] ، فقد كانت هذه الرفيقة تتكلم بأعلى صوت كلامًا حقًّا لا خطأ فيه يفهم بعضه طيور النهر والأجمة ، وكان يخرج في كل مساء من قاربه إلى البر ويوقد نارًا فيشوى عليها ما يصطاده ثم يرقد ملتفًا في غطائه مكفئًا فوقه القارب ليكون له جُنةً دون الحيوانات الوحشية وسقفًا يقيه طلّ الليل ، وكان عند شروق الشمس يهب من نومه ويمضى عامة يومه في اجتياز النهر من شاطىء إلى آخر على التوالى طلبًا لمنظر جديد ، فكان يسترعى طرفه في مكان خليجٌ عميق وفي آخر أسرابٌ من الطير وتلفته في ثالث جزيرة صغيرة عليها خضرة نضرة وهو لا يفترعن تسويد ما يلاحظه فلم يغادر شيئًا مما يستحق التصوير إلا رسمه خطفًا واختلاسًا ، ولما فرغ من تقييد إشاراته وملاحظاته اتخذ له في

(١) المسيسبي نهر عظيم في أمريكة الشمالية يصب في خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوفل أورليانس وصوله ٥٥٠٠ كيلو مترا . (٢) القربينة : نوع من السلاح النارى .

الْمَدِينَةِ الْمُسَمَّاةِ «لُويِسْفِيلْ» بِوِلَايَةِ «كِنْتُوكِى»[١] بَيْتًا مِنَ الْخَشَبِ حَيْثُ أَنْشَأَ يُصَوِّرُ مَا قَيَّدَهُ عَلَى النَّسِيجِ — وَمَا كَانَ أَطْوَلَهُ ! — فَقَدْ بَلَغَ ذَرْعُهُ[٢] ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ .

لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ الْمُصَوِّرَ كَانَ أَهْلًا لِأَنْ يَأْتِىَ بِطُرْفَةٍ مِنَ الطُّرَفِ وَإِنْ كَانَ رَسْمُ مَنَاظِرِ الْمِسِيسِبِّى لَيْسَ فِى الْحَقِيقَةِ إِلَّا حِكَايَةً صَادِقَةً لِسَفْرَةٍ خَطَّهَا قَلَمُ الرَّسْمِ خَطًّا بَطِيئًا ، وَنَحْنُ عَلَى كُلِّ حَالٍ نَرْجُو اللهَ (سُبْحَانَهُ) أَنْ يُقَيِّضَ لَنَا مَنْ يَحْتَذِى مِثَالَ «جُونْ بَانْفَارْدَ» مِنَ الْمُصَوِّرِينَ وَأَنْ يَهَبَهُمْ مِنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِخْلَاصِ لِلْعَمَلِ مَا وَهَبَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ لَأَصْبَحْنَا بِسَطْحِ الْكُرَةِ الَّتِى نَسْكُنُهَا أَعْلَمَ مِنَّا الْآنَ بِكَثِيرٍ .

وَلَيْتَ شِعْرِى أَىُّ مَانِعٍ يَحُولُ دُونَ إِنْفَاذِ عَمَلٍ كَهَذَا يَكُونُ تَارِيخًا لِلْأَرْضِ وَمَنْ يَقْطُنُهَا مِنَ الْأُمَمِ ؟ رُبَّمَا قِيلَ : ذَلِكَ هُوَ مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ إِنْفَاقِ الْمَالِ الْكَثِيرِ فَأَقُولُ : هَذَا مُسَلَّمٌ وَلَكِنَّا نُنْفِقُ فِى تَبْدِيلِ سِلَاحٍ بِآخَرَ أَوْ طَرِيقَةٍ مِنْ طُرُقِ الْقِتَالِ بِغَيْرِهَا أَوْ فِى بِنَاءِ بَارِجَةٍ أَوْ إِقَامَةِ حُكُومَةٍ جَدِيدَةٍ مُدَّةُ بَقَائِهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا عَلَى الْأَكْثَرِ نُنْفِقُ فِى هَذَا أَضْعَافَ مَا تَقْتَضِيهِ مِنَّا طَرِيقَةُ التَّرْبِيَةِ عَلَى سُنَنِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اهـ .

لَا شَأْنَ لَنَا فِى ذَلِكَ وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ وَالِامْتِثَالُ فَإِنَّ هَيْكَلًا كَالَّذِى وَصَفْتُهُ تَتَجَلَّى فِيهِ الْوَقَائِعُ وَالْمَعَانِى إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ الْخَيَالِ لَا وُجُودَ لَهُ فِى الْخَارِجِ وَلَنْ يُوجَدَ بِلَا شَكٍّ فَيَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا بَنَاؤُهُ فِى الْمُسْتَقْبَلِ فِى ذِهْنِ «إِمِيلَ» بِمَوَادَّ أُخْرَى اهـ .

---

(١) كنتوكى هى احدى الولايات المتحدة فى أمريكة الجنوبيـة سكانها ١ر٨٥٥ر٤٥٠ نفسا وعاصمتها فرنكفورت .

(٢) ذرعه مقاسه .

الرسالة التاسعة والعشرون

(مِنْ هيلانة إلى إرَاسْم فى ٣ فبراير سنة — ١٨٥)

التَّربيةُ وَالتَّعْلِيمُ بِالْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ وَالتَّمْثِيلِ وَالْمَعَارِضِ

وَهِمْتَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ فِى دَعْوَى أَنَّ ذَلِكَ الْهَيْكَلَ الَّذِى تَمَنَّيْتَ إِقَامَتَهُ لِلْعِلْمِ لَا يُوجَدُ وَلَنْ يُوجَدَ فَإِنَّهُ مَوْجُودٌ بِالْفِعْلِ فِى سَايْدِنْهَام(١) عَلَى غَايَةِ الْقُرْبِ مِنْ لُنْدُرَة وَاسْمُهُ «الْقَصْرُ الْبِلَّوْرِىُّ» وَفِى نِيَّتِى أَنْ أَزُورَهُ أَنَا وَ «إِمِيلُ» مَتَى أَمْكَنَتْنِى الْفُرَصُ وَصَارَ فِى سِنٍّ تُؤَهِّلُهُ لِإِدْرَاكِ مَا فِيهِ مِنْ مَوَادِّ التَّعْلِيمِ، نَعَمْ إِنِّى لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مُطَابَقَةِ طَرِيقَةِ بِنَائِهِ لِآرَائِكَ تَمَامَ الْمُطَابَقَةِ، وَلَكِنَّ أَقَلَّ مَا فِيهِ عَلَى مَا سَمِعْتُهُ أَنَّ الْقَصْدَ مِنْ إِنْشَائِهِ مُوَافِقٌ لِقَصْدِكَ وَقَدْ يُدْهِشُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لَيْسَ لِلْحُكُومَةِ يَدٌ فِى بِنَاءِ هَذَا الْقَصْرِ الْعَامِّىِّ (وَإِنَّمَا أَصِفُهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَصْلِيَّ مِنْ إِقَامَتِهِ إِنَّمَا هُوَ تَرْبِيَةُ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ) فَإِنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنَ الْبَسَاتِينِ الْوَاسِعَةِ وَالْبِنَاءِ الْبِلَّوْرِىِّ وَالْآثَارِ الْقَدِيمَةِ وَالتَّمَاثِيلِ وَجُمَلِ الْأَشْيَاءِ الْمُفِيدَةِ مِلْكٌ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَسَاهِمِينَ وَقَدْ عَهِدَ بِرَفْعِهِ إِلَى مَشْهُورِى الْعُلَمَاءِ وَالصُّنَّاعِ وَالْأَثَرِيِّينَ فَكَانُوا يُبَاشِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ إِفْرَاغَ الْمَوَادِّ فِى الْقَوَالِيبِ وَتَحْصِيلَ مُثُلِ الْأَشْيَاءِ. ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْجِلِيزَ إِذَا قَصَدُوا تَحْقِيقَ غَرَضٍ مُفِيدٍ أَوْ إِنْشَاءَ مَعْهَدٍ جَدِيدٍ لِمَنْفَعَةٍ عَامَّةٍ اعْتَمَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ مَا آتَتْهُمْ ضُرُوبُ الْحُرِّيَّةِ وَوَسَائِلُ الْعَمَلِ الذَّاتِيَّةُ مِنْ قُوَّةِ الْعَزِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ غَيْرَ رَاجِينَ

---

(١) سايدنهام قرية من قرى انجلترة واقعة على بعد ثمان كيلومترات من لوندرة بنى فيها القصر البلورى للعرض العام الذى أقيم فى سنة ١٨٥١

مِنَ الحُكُومَةِ مُسَاعَدَةً مَالِيَّةً وَلَا قَوْلِيَّةً لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْعُمْرَ يَنْقَضِي دُونَ الْوُصُولِ إِلَى مَا يَرْجُونَ، فَهُمْ مَتَى أَرَادُوا أَقَامُوا تَمَاثِيلَ لِعُظَمَائِهِمْ وَرَفَعُوا هَيَاكِلَ لِفِكْرَةٍ يُبْدِيهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ .

أَرَاكَ تَشْكُو مِنْ عَدَمِ وُجُودِ مَعَاهِدَ لِلتَّمْثِيلِ عِنْدَنَا خَاصَّةً لِلْأَطْفَالِ فَاعْلَمْ أَنَّ لِأَطْفَالِ الْإِنْجِلِيزِ وَاحِدًا مِنْهَا، ذَلِكَ أَنَّكَ فِي صَبِيحَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ تَجِدُ مُعْظَمَ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كَأَنَّهَا قَدِ انْفَكَّتْ عَنِ الْإِخْتِصَاصِ بِالْقِصَصِ الْجِدِّيَّةِ وَالْهَزْلِيَّةِ وَلَا يُقْبِلُ فِيهَا مِنَ الْكِبَارِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُوْلَعًا بِسَمَاعِ الْأَسَاطِيرِ كَأُسْطُورَةِ إِهَابِ الْحِمَارِ(١) وَأُسْطُورَةِ الْأُصَيْبِعِ ،

---

(١) أسطورة أهاب الحمار من أساطير شارل برولت الذى سبق التنوية بذكره فى هامش الرسالة الخامسة والعشرين وملخصها أن ملكا كانت له زوجة يحبها جدا ورزقت منه بينت فائقة فى الجمال ثم مرضت وعند احتضارها استحلفته أن لايتزوج إلا بمن تكون أجمل منها فلم يجد فى عقائل مملكته من تحقق فيها الشرط إلا بنته فأفضى إليها بميله إلى تزوجها فأنكرت عليه الأمر فصمم فاشتكت الى جنيتها فأرشدتها الى أن تطلب منه حلة كالزمن فى لونه . فاستصنعها لها فأوعزت اليها بطلب أخرى كلون القمر، فما كان أقرب من تقديمها لها، ثم بثالثة كلون الشمس فكان ماطلبت ، وكان لأبيها حمار يحبه كثيرا لأنه كان يجد تحته كل يوم مقدارا وافرا من النقود فلما أعيت الحيلة تلك الأميرة وظنت أن لا خلاص لها إمتلأ قلبها حزنا فأوحت اليها الجنية بأن تطلب إهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعا فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فالبسى اهاب الحمار وأخرجى فانه لا يشعر بك أحد وسأتبعك بحليك وحللك أينما قصدت فخرجت فى ذلك الإهاب وساحت فى الأرض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمها زوجة مزارع فى رعاية الديكة وكنس معلف الخنازير لرثاثة حالتها وقذارتها ، فرآها ابن ملك تلك الجهة من خصاص(١) كوخها(٢) وقد تعرت عن اهاب الحمار ولبست حلة من حللها ففتن بها وذهب الى أهله مدنفا سقيما وحار الاطباء فى أمره وقالوا انه لامرض به إلا الفكر ، وبعد الحاح من والديه طلب أن تصنع له الخادمة التى تلبس اهاب الحمار قرصا ففعلت ودست فيه خاتمها لأنها قدفهمت حقيقة الأمر فلما تناول الخاتم فى فمه قال لوالديه =

---

(١) الخصاص : الخلل والخرق يكون فى الباب .

(٢) الكوخ : البيت المسنم ، أى المحدودب السقف المتخذ من القصب أو الحطب ولا كوة له .

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَصِحُّ أَنْ يُعنونَ بِمَعْهَدِ الرُّؤسِ الشُّقْرِ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ فِي شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ مِنَ السَّنَةِ يَكُونُونَ هُمُ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي إِخْتِيَارِ نَوْعِ الْأَلَاهِيِّ الْعَامَّةِ وَالْمُتَمَتِّعِينَ بِكُلِّ مَا فِي الْمَعَاهِدِ مِنَ الْمَقَاعِدِ الْمُخَمَّلَةِ (١) وَالْمُوسِيقِي وَضُرُوبِ الْغُرُورِ وَالْفِتْنَةِ ، وَيُؤَكِّدُ لِيَ النَّاسُ هُنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ يَحْصُلُ فِيهِ التَّمْثِيلُ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الظُّهْرِ لِمَنْ يَتَعَجَّلُ فِي النَّوْمِ مِنَ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَا يَقْوَوْنَ عَلَى السَّهَرِ وَالثَّانِيَةُ فِي الْعَشِيِّ لِلْيَافِعِينَ وَالآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَلِلشُّيُوخِ الَّذِينَ حَفِظُوا لِلشَّبَابِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ أَذْهَانِهِمْ شُعَاعًا مِنْ ضِيَائِهِ وَلَمْعَةً مِنْ بَهَائِهِ ، وَيَنْبَغِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ شَرْطٍ يَلْزَمُ تَحَقُّقُهُ فِي النَّظَّارَةِ (٢) أَنْ يَكُونُوا صِبْيَانًا أَوْ مُسْتَصْبِينَ ؛ وَإِلَّا فَكَيْفَ يَرُوقُهُمْ سَمَاعُ مَا يُرْوَى هُنَالِكَ مِنْ أَقَاصِيصِ الْجِنِّ وَمَا يُمَثَّلُ مِنَ الْأَضَاحِيكِ ؟ نَعَمْ إِنَّ مَوْضُوعَاتِ تِلْكَ الْأَلَاهِيِّ الْبَهِجَةِ هِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ غَايَةٌ فِي الِابْتِذَالِ ، وَإِنَّكَ لَتَأْسَفُ عَلَى مَا يَضِيعُ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ الْإِدْرَاكِ بِهَذِهِ الْأَمَاكِنِ مِنْ نَفَقَاتِ الزِّينَةِ وَالثِّيَابِ وَغَيْرِهَا مِنْ عَتَادِ التَّمْثِيلِ (٣) لِأَنَّ مَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنْ تَغْيِيرِ الْمَنَاظِرِ قَلَّمَا يُفِيدُ إِلَّا إِثَارَةَ وِجْدَانِ الْإِعْجَابِ وَالدَّهْشَةِ ، وَلَكِنْ مَا أَشَدَّ مَا يُبْدِيهِ الْأَطْفَالُ عِنْدَهَا مِنْ دَلَائِلِ الْفَرَحِ الْمُنْبَعِثِ عَنِ السَّذَاجَةِ ! وَمَا أَبْلَغَ مَا يَظْهَرُ مِنْ تَشَوُّفِهِمْ إِلَيْهَا وَأَعْظَمَ

= إنى أريد أن أتزوج بصاحبة هذا الخاتم فنودى فى المدينة بأن أية فتاة يوافقها الخاتم الذى فى بيت الملك تكون زوجة لولىّ عهده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا فى نعيم و رغد وأسطورة الأصيبع تقدم تلخيصها فى هامش الرسالة الخامسة والعشرين .

(١) المخملة : المفروشة بالخميلة وهى القطيفة .

(٢) النظارة : المتفرجون .

(٣) عتاد التمثيل : عدده وأدواته .

مَا يَكُونُ مِنْ بَرِيقِ أَبْصَارِهِمْ وَحَمْلَقَتِهَا[(١)] بِسَبَبِ اسْتِغْرَابِهَا وَالِافْتِتَانِ بِهَا ! خُصُوصًا إِذَا جَاءَ دَوْرُ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْمَعْرُوفِ الْمُسَمَّى « مَنْظَرَ الِانْقِلَابِ وَالتَّحَوُّلِ » ، فَلَشَدَّ مَا تَخْفِقُ الْقُلُوبُ هُنَالِكَ خِفَّةً وَمَرَحًا .

وَمَهْمَا كَانَ فِي تِلْكَ الْمَرَائِي مِنَ الِابْتِذَالِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَخَفَّ بِمَا يَتَجَلَّى لِلْأَطْفَالِ فِيهَا مِنْ تِلْكَ الْقُصُورِ الْمَسْحُورَةِ وَأَمْطَارِ الْعَسْجَدِ وَالشَّرَرِ وَالْأَنْوَارِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى جَمِيعِ مَا يُرَى فِي الْفَجْرِ الْقُطْبِيِّ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَبَايِنَةِ وَالْجُزُرِ السَّعِيدَةِ (الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ) وَالنِّسَاءِ الْعَائِشَةِ فِي السُّحُبِ وَفِي الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ لَا تَصِحُّ الِاسْتِهَانَةُ بِتِلْكَ الْمُخْتَرَعَاتِ الْخَيَالِيَّةِ الْعَامِّيَّةِ الَّتِي تُمَثَّلُ فِي أَضَاحِيكِ الْمَنَاظِرِ، فَإِنَّمَا طَارَ بِنَا الْخَيَالُ وَإِنْ عَلَى أَجْنِحَةٍ مِنَ الْوَرَقِ الْمُقَوَّى وَلَمْ يَرْفَعْنَا إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّهُ يَفُكُّنَا سَاعَاتٍ مِمَّا يُبْهِظُنَا مِنْ أَغْلَالِ الْعَادَاتِ وَالْحَاجَاتِ . تِلْكَ الْمَنَاظِرُ الْغَرَّارَةُ لَنْ تَنْفَكَّ أَنْ تَكُونَ مَحْبُوبَةً لِلْعَامَّةِ وَالْأَطْفَالِ لِأَنَّهَا تَفْتَحُ لَهُمْ جُزْءًا مِنْ أَبْوَابِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ الْبَالِغِ أَقْصَى غَايَاتِهِ .

لَمَّا رَأَيْتَنِي لَا أَمْلِكُ الْآنَ الذَّهَابَ « بِامِيلَ » إِلَى الْقَصْرِ الْبِلَّوْرِيِّ وَلَا إِلَى مَعْهَدِ التَّمْثِيلِ عَوَّلْتُ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ بِآلَةٍ يُطَافُ بِهَا هُنَا فِي الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَهِيَ الْفَانُوسُ السِّحْرِيُّ ، وَكَأَنِّي بِكَ تَضْحَكُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْآلَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ لِتَحْصِيلِ اللَّذَّةِ وَالْإِعْجَابِ مِنْ وَسَائِلِ التَّعْلِيمِ أَيْضًا ؟ فَلَيْسَ ذَنْبًا لِلْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ أَنَّهُ قَلَّمَا اسْتُعْمِلَ إِلَّا لِتَمْثِيلِ الصُّوَرِ الْمُضْحِكَةِ الْغَرِيبَةِ فِي دَارَةٍ مُضِيئَةٍ بَلْ هُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُفِيدًا إِذَا قُصِدَ بِهِ الْجِدُّ، وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ تَفَضَّلُوا

(١) حملقتها : فتحها والنظر بها شديدا .

عَلَى الْمُصَوِّرِينَ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا يَخْتَارُونَ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْعَمَلِ وَإِلَى طَرِيقَةِ التَّصْوِيرِ عَلَى الزُّجَاجِ لَأَدَّى الْفَرِيقَانِ لِلْأَطْفَالِ — فِيمَا أَرَى — فَوَائِدَ حَقِيقِيَّةً ، وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْمُتَوَلِّينَ أَمْرَ التَّرْبِيَةِ فِي انْجِلْتِرَةَ سَبَقُوا إِلَى اتِّخَاذِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي بَعْضِ الْمَدَارِسِ لِتَأْدِيَةِ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِي عِلْمِ الْفَلَكِ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ وَالتَّارِيخِ إِلَى عُقُولِ النَّاشِئِينَ .

أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عُلَمَاءَ الْفَلَكِ قَدْ رَسَمُوا صُوَرَ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ الْكُبْرَى وَخَطَّطُوا آثَارَ ذَوَاتِ الذَّنَبِ وَالشُّهُبِ وَالْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ أَوِ انْتَزَعُوا صُوَرَهَا بِآلَةِ التَّصْوِيرِ الشَّمْسِيِّ (الْفُوتُوغْرَاف) فَلَوْ أَنَّنَا أَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَ الْفَانُوسَ السِّحْرِيَّ الَّذِي هُوَ الْآنَ مَشْهَدُ الْأَوْهَامِ وَالْمُغَالَطَاتِ مَشْهَدًا لِلْحَقَائِقِ أَيْضًا لَكَفَانَا فِي ذَلِكَ أَنْ نَنْسَخَ على زُجَاجِهِ رُسُومَ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا مُصَوَّرَةً عَلَى الْحَالَةِ الْفِطْرِيَّةِ تَصْوِيرًا مَضْبُوطًا .

إِذَا كَانَ الْمُرَادُ تَمْثِيلَ الْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْآلَةِ فَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صَلَاحِيَتِهَا لِتَحْصِيلِ صُوَرِ جَمِيعِ مَا فِيهَا مِنْ سَلَاسِلِ الْجِبَالِ الْكُبْرَى وَمَجَارِي الْأَنْهَارِ الْعُظْمَى وَمَجَاهِلِ الصَّحَارَى الْمُرَوِّعَةِ وَأَشْكَالِ السَّوَاحِلِ الْوَعِرَةِ الْمَغْمُورَةِ بِالْمُحِيطِ، وَلَا حِيلَةَ لَنَا فِي ذَلِكَ فَعَلَيْنَا أَنْ نَكْتَفِيَ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا مِنْ تَصْوِيرِهَا فِيهَا . عَلَى أَنَّ الطِّفْلَ يَرُوقُهُ نَظَرُ الْأَشْيَاءِ تَفْصِيلًا أَكْثَرَ مِنَ النَّظَرِ فِيهَا جُمْلَةً فَهُوَ إِذَا نَظَرَ إِلَى صُوَرِ الْأَقَالِيمِ وَهَيْئَاتِهَا فَإِنَّمَا يَلْتَمِسُ أَثَرًا يَرُوعُهُ وَيُدْهِشُهُ كَصَخْرَةٍ غَرِيبَةِ الشَّكْلِ أَوْ نَبَاتٍ أَجْنَبِيٍّ أَوْ حَيَوَانٍ عَجِيبٍ أَوْ إِنْسَانٍ مُغَايِرٍ لَنَا بِلَوْنِ جِسْمِهِ .

وَأَمَّا التَّارِيخُ فَلَا شَكَّ فِي صَلَاحِيَةِ الْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ لِتَعْلِيمِهِ فَإِنَّهُ يَتَأَتَّى بِهِ إِحْضَارُ خَيَالَاتِ مَنْ يُتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنَ الْمَاضِينَ، فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُرْسَمَ عَلَى

صَفحَتِه صُوَرُ الشُّجعَانِ الغَابِرِينَ بِزِيِّهِمْ وَبِزَّتِهِم(١) وصُنُوف مَا وُجِدَ مِنَ الصُّوَرِ الغَرِيبَةِ كَأَبِى الهَـوْلِ وَالثِّيرَانِ ذَاتِ الأَجْنِحَةِ وَذَاتِ الرُّءُوسِ الانْسَانِيَّـةِ وَاللُّحَى السَّوْدَاءِ وَالجِنِّيَّاتِ وَالآلِهَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الصُّوَرِ الخُرَافِيَّةِ لِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ خَرَجَتْ مِنَ اللَّيْـلِ فَلَا عَجَبَ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ .

أَنَا لِسُوءِ حَظِّى لَسْتُ عَالِمَةً وَلَا مُصَوِّرَةً وَلَكِنِّى أَرْسُمُ رَسْمًـا مُنَاسِبًا لِحَـالَتِى؛ وَكُنْتُ أَرَى مِنْكَ أَحْيَانًا اسْتِحْسَانَ رُسُومِىَ الكَثِيرَةِ الأَلْوَانِ، نَعَمْ إِنِّى لَا أُحْسِنُ طَرِيقَةَ التَّصْوِيرِ عَلَى الزُّجَاجِ فَإِنَّهَا حِرْفَةٌ تُتَعَلَّمُ وَكَمَالٌ سَأَفْتَخِرُ بِأَنْ يَكُونَ « اميل » هُوَ صَاحِبَ الفَضْلِ عَلَىَّ فِى كَسْبِهِ، وَأَصْعَبُ مَا عَلَىَّ فِى ذَلِكَ — فِيمَا أَرَى — إِنَّمَا هُوَ تَحْصِيلُ مُثُلٍ مُتْقَنَةٍ لِأَنِّى إِخَالُ أَنَّ الوَاجِبَ عَلَى المُرَبِّى هُوَ أَنْ يَكُونَ دَقِيقًا فِيمَا يُعَلِّمُـهُ الطِّفْلَ وَأَكْرَهُ أَنْ لَا أُبْرِزَ الأَشْـيَاءَ لِوَلَدِى فِى صُوَرِهَا الصَّحِيحَةِ ، وَقَدْ وَعَدَنِى الدُّكْتُورُ «وارنجتون» — وَهُوَ مُوَافِقٌ لِى فِى كَثِيرٍ مِنْ أَفْكَارِى — أَنْ يَنْتَقِىَ لِى مِنْ لُونْدُرَةَ صُوَرًا مُنْـتَزَعَةً بِآلَةِ التَّصْوِيرِ الشَّـمْسِىِّ (الفوتوغراف) أَوْ رُسُومًا أُخِذَتْ مِنْ عُلَمَـاءِ الطَّبِيعَةِ وَعُلَمَـاءِ الآثَارِ وَالسَّيَّاحِ ، وَأَنَا بِفَضْلِ مَعُونَتِهِ عَلَى أَمَلٍ مِنْ إِنْشَاءِ مَشْهَدِىَ الصَّغِيرِ عَمَّا قَلِيلٍ اهـ .

---

(١) بزتهم : ثيابهم وهيأتهم .

الرسالة الثلاثون

(من هيلانة إلى إراسم في فبراير سنة — ١٨٥)

تعلم الأطفال الضرب في الأرض ومعرفة جهاتها بالعمل وتعلمهم الصناعة بمعالجة ما يشترى لهم من اللعب

أحب أن أصف لك « إميل » فأما صورته فقد عرفتها في الرسم الذي أرسلته إليك منتزعا بآلة داجير التصويرية (الفوتوغرافية) وأما سيرته وأحواله فهي التي أريد أن أحدثك عنها فأقول :

أرى له جراءة على السير والتجوال لا توجد في أترابه ففيه ما أظنك تسميه بغريزة خرت الأرض[1] وقد بلغ تمكن هذه الغريزة من نفسه مبلغا ما أراني فيه قادرة على إضلاله ولا هو يحتاج في الاهتداء إذا أنا أضللته إلى إلقاء الحصى وفتات الخبز في الطرق لتكون كالصوى[2] والأعلام لأنه يهتدي بنفسه ولا يلبث أن يميز بمهب الريح وحركة السحاب الجهة التي ينبغي أن يؤمها وأرى أن الذي أظهر هذا الاستعداد فيه هو ما استفاده بالعمل من صحبة فوبيدون فأنت تعلم أن في عيني هذا الزنجي ورأسه بيت إبرة مغناطيسية .

لا أنكر أن مثل هذه العلوم من الأوليات، وذلك يؤكد وجوب أن يتعلمها الأطفال وكلامي في ذلك عن خبرة وتجربة فإنني تربيت في مدرسة داخلية كانت

---

(١) خرت الأرض (كنصر) عرفها ولم يخف عليه طرقها ولعل لفظ (الخارطة) أو الخريطة مأخوذ من هذا اللفظ محرفا .   (٢) تشير الى أسطورة الاصيبع التي سبق ذكرها .

التِّلميذات فيها غافلات عمّا وراء المدرسة من شؤون الحياة ومتاعبها . وكنت بعد ذلك إذا خرجت إلى المزارع والرياض لا أعرف الشمال من الجنوب ولا أميز بين الشرق والغرب، وأخجل ذلك الخجل الضار أن أسألك عنها خشية ظهورك على جهلي، ولو كان هذا الجهل خاصا بمثلي لكان الخطب سهلا، وأرانى صادقة إذا قلت ، إن كثيرا من أهل النهاية فى العلم ليسوا بأوسع منى علما ببعض موضوعات مساحة الكرة الأرضية العملية . أنا لا أدرى بالضرورة إن كان كتب على « إميل » أن يكون سائحا وجوّاب آفاق، ولكنى أرى أن الناس محتاجون فى جميع اطوار الحياة إلى معرفة الجهات والأمكنة إحتياجا تختلف درجاته، فبعضهم أحوج إلى التوسع فيها من بعض وإن صدق النظر إذا تعزز بالتجارب كان للانسان ركنا من أركان الحرية .

يأكل « إميل » على المائدة كالإنجليز أعني أنه يأخذ السكين بيده اليمنى والشوكة بيده اليسرى يأكل بها، وقد أنكرت هذه العادة أولا ثم تبين لى أنها أسهل فإن استعمال كلتا اليدين معا يمكن من القطع والتناول فضل تمكين، فالانجليز عسر (١) فى الأكل دون الأعمال الصناعية ولست أدرى ما هو عذرنا فى ترك تمرين عضو من أعضائنا على العمل، فهل كانت أعضاؤنا زائدة عما نحتاج إليه فى استعمار الأرض ومقاومة ما يعترضنا من العقاب (٢) المادية فى سبيل الحياة فنستغني عن بعضها ونغفله ؟

(١) عسر : جمع أعسر وهو من لا يستعمل إلا يده اليسرى .

(٢) العقاب جمع عقبة وهى المرقى الصعب من الجبال .

قرأتُ فى ترجمة حياة (جمس وات) المهندس الإنجليزى الشهير أنه كان يستعمل فى طفوليته أدوات والده النجار فى اختراع لعب لنفسه أو تحويلها من شكل إلى شكل ، ويقال إن هذا التمرين ساعده كثيرا فى تدريب يده على الصناعة وقوى ما كان فى نفسه من الإستعداد لعلم الآلات (الميكانيكا) حتى صار ملكة راسخة فيه . ولست أطمع أن يكون «إميل» مخترعا لآلات جديدة، ولكنى أرغب أن يكون ماهرا فى تحريك أصابعه ولهذا لا أمنعه من تكسير لعبه ليرى ما فى جوفها — كما يقول — إذا تعهد لى بإرجاعها إلى أصلها .

على أننى لاحظت أمرا أحب أن أعرضه عليك ، وهو أن لعب الأطفال تكون مناسبة لطبيعة البلاد التى ينشؤن فيها فأهل السواحل يلعب أطفالهم بما تحدثه فى نفوسهم صناعة الملاحة . وقد أجاب فوبيدون الذى هو كالقرد فى الخفة والمهارة رغبة «إميل» ورفيقيه فصنع لهم بسكين مركبا شراعيا صغيرا أنزلوه فى خليج الجبل باحتفال حافل فكان بذلك قدوة لهم فى هذه الصناعة البحرية حتى إنهم أنشأوا لهم أسطولا مؤلفا من طرادات وسفن من ذوات السارية ومن ذوات الساريتين وقوارب وزوارق، وبعض هذه السفن مسلح بمدفع من الخشب، فكأن لسان حالهم يقول : ها نحن أولاء مستعدون . فليهاجمنا المهاجمون ، وكنت إذا سئلت عن قيمة هذه الأشياء السابحة على وجه الماء أظهر ترجيح ما يصنعه الأطفال من سفن اللعب على ما يبتاع من التجار من نوعها وإن كان أحسن منها صنعا .

يحبُّ «إميلُ» العملَ ويميلُ إلى سماعِ القصصِ كما هو المعهودُ من مثلِه .

وأنا موافقةٌ لك في انتقادِ توسّعِ النّاسِ في مخاطبةِ الأطفالِ خصوصًا مخاطبتهم بما يعلو إدراكهم وأفهامهم وينبو عن مشاربهم ، وهذا من آفاتِ التربيةِ التي يجب تجنُّبها ، وما أعظمَ الفوائدَ والمزايا التي يستفيدها الأطفالُ من تعليم أمهاتهم الشفوي إن تجنّبنها . وإنّما حدانى[1] إلى هذا الفكرِ في ما يُؤثَر[2] عن جميعِ الأممِ قبلَ اختراعِ الكتابةِ والتصنيفِ ممّا كانَ الاعتمادُ في حفظِه على الذاكرةِ فقد قرأتُ في كتابٍ لا أذكرُ اسمَه الآنَ أنّ بعضَ اليونانيينَ كانوا يعارضونَ «قدموس»[3] في وضعِ الحروفِ الهجائيةِ محتجّينَ بأنّ اعتيادَ النّاسِ إثباتَ حوادثِ التاريخِ على الألواحِ يضعفُ الذاكرةَ بالتدريجِ . وكانَ لهم وجهٌ في هذهِ المعارضةِ فهي تشبهُ المعارضاتِ التي توجّهُ الآنَ إلى كلّ ضربٍ من ضروبِ ارتقاءِ الإنسانِ .

نرى الأطفالَ قبلَ تعلّمِ القراءةِ والكتابةِ ينتحلونَ كثيرًا من الأفكارِ والآراءِ فأهمُّ شيءٍ يبتدئُ به المربّى هو النظرُ في اختيارِ أمثلِ ما يودعُه في نفوسِهم من المعارفِ ثمّ في اختيارِ أمثلِ الطرقِ لإيصالِ ذلك إلى أذهانِهم الخاليةِ ونقشِه في ألواحِ نفوسِهم الصّقيلةِ[4] ، وكثيرًا ما خرجتُ مع «إميلَ» عن أساليبِ لغتي وقواعدِها لأجلِ ذلك ، وما كانَ أشدَّ اغتباطي وسروري عندَ ما كنتُ أراني قد ملكتُ سمعَه بتكلّمي بلغتِه ، والنجاحُ في هذا يتوقّفُ على إخلاصِ التعلّبِ ونسيانِ النفسِ وهذانِ الأمرانِ إنّما يحصلانِ بالرياضةِ والمزاولةِ على ما أرى .

(١) حدا بى : ساقنى . (٢) يؤثر : ينقل ويحكى . (٣) قدموس هو الرجل الفينيق الذى أنشأ مدينة طيبة ونقل الحروف الهجائية من مصر الى بلاد اليونان . (٤) الصقيلة : الصافية .

مِنَ الثَّابِتِ الْمُقَرَّرِ أَنَّ لِلأَطْفَالِ شِعْرًا خَاصًّا تَعْرِفُهُ الأُمَّهَاتُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ وَلَكِنَّنَا نُحَكِّمُ فِيهِ شِعْرَنَا وَخَيَالَنَا، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حِفْظِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الشِّعْرِيَّةِ وَبَقَاءِ غَضَاضَتِهَا بِحَيْثُ لَا يُسْقِطُ عَبَثُنَا بِهَا زَهْرَهَا، وَلَا يَذْوِيهَا (١) وَيَذْهَبُ بِنَضْرَتِهَا لِاحْلَالِ شِعْرِنَا مَحَلَّهَا .

الدُّنْيَا مَمْلُوءَةٌ بِالْحِكَايَاتِ الَّتِي يُدَّعَى أَنَّهَا وُضِعَتْ لِلأَطْفَالِ وَأَمْثَلُهَا حِكَايَاتُ (برولت) وَأَرَى أَنَّ مَا فِيهَا مِنَ الصَّنْعَةِ وَالْحَذْلَقَةِ (٢) يَخْرُجُ بِهَا عَنْ مَهْدِ الطُّفُولِيَّةِ إِلَى مُسْتَوَى الْكُهُولِ وَمَرْتَبَةِ الشُّيُوخِ . وَأَفْعَلُ الْحِكَايَاتِ فِى اسْتِمَالَةِ «إِمِيلَ» وَتَحْرِيكِ رَغْبَتِهِ وَمَيْلِهِ لَيْسَ مِمَّا يُعْهَدُ فِى الشُّعُورِ الْعَامِّ وَالْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ أَعْنِي مَا يَجُولُ فِى أَذْهَانِ الْبَالِغِينَ دُونَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ فِى السَّادِسَةِ أَوِ السَّابِعَةِ فَالْحِكَايَاتُ الْخُرَافِيَّةُ الْقَدِيمَةُ جِدًّا الَّتِي لَمْ يُجَفِّفِ الدَّرْسُ وَالصَّنْعَةُ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي الشِّعْرِ الْفِطْرِيَّةِ هِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعَ الْقَبُولِ فِى مِثْلِ هَذِهِ السِّنِّ .

فَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمُتَدَاوَلَةِ فِى الْبَلَدِ الَّذِى نَسْكُنُهُ مَا فِيهِ ذِكْرُ الْمَرَدَةِ وَالأَغْوَالِ وَالْجِنِّيَّاتِ وَالتَّنَابِيلِ (الْقِصَارِ جِدًّا) وَهُوَ مَا يَذْهَبُ بِنَوْمِ الأَطْفَالِ فِى لَيَالِي الشِّتَاءِ وَيَجْذِبُهُمْ إِلَى السُّمَّارِ (٣) لِسَمَاعِ تِلْكَ الْقِصَصِ مُحَدِّقِينَ (٤) بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّامِرِ، وَلِي أَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مُخْتَزَلَةٌ مِنْ أَشْعَارٍ وَقَصَائِدَ قَدِيمَةٍ ضَاعَ أَصْلُهَا وَتَنَاقَلَتِ النَّاسُ مَا بَقِيَ مِنْ مَعَانِيهَا مُرْضِعٌ عَنْ مُرْضِعٍ وَأُمٌّ عَنْ أُمٍّ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْنَا فِى شَكْلٍ يُخَالِفُ شَكْلَهَا الأَوَّلَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا .

(١) يذويها يذبلها . (٢) الحذلقة : إظهار الحذق وادعاء المرء ما ليس فيه .

(٣) السمار بتشديد الميم جمع سامر وهو الذى يتحدث فى الليل . (٤) محدقين ناظرين اليه شديدا .

زعم عالم من كورنوای ألاقيه أحيانا فى منزل صديقنا الدكتور أن لديه وسيلة هو واثق بأنها توصل إلى معرفة أصل هذه الخرافات ومناشيء تلك الحكايات، والذى فهمته عنه من هذه الوسيلة هو أنه يستعين على تلك المعرفة من حيث هو عالم أثرى بلحن(١) تلك الحكايات ونحواها(٢) من حيث مشابهتها لما نخترعه من الحكايات وعدم مشابهتها له، فهو يرى أنه كلما كان معنى الحكاية بعيداً عن تصورنا واختراعنا كانت أوغل فى القدم فإذا بحثنا فى شأن الجنيات فى هذه الحكايات نرى أنها فى الأعصر القديمة كانت توصف بأنها مجردات منزوية عن الناس، شرسة صعبة المراس، وقوى طبعية رفعت إلى مرتبة الآلهة وألبست شعار الدين ثم ما زالت تقرب من الناس وتتشكل بشكل الإنسان قرناً بعد قرن وتأنس به حتى صارت إناثاً يتزوج بها الرجال. ومما يروونه فى هذا أن رجلا تزوج جنية وعاشا معاً عمراً طويلا فى كوخ وقد كان من طول أنسه بها أن نسى كونها جنية إلا أنها فرت ذات ليلة متعلقة ببعض أشعة القمر. كذلك شأن المردة فإن هذه الكائنات الوحشية المشوهة كانت تعرف فى الزمن القديم بأنها مثار الوساوس المخيفة والهواجس المفزعة وبكرور الزمان ومرور الأيام اقتربت من الإنسان فى أحوال معيشته وضعف سلطانها فى نفسه وتأثيرها فى وهمه وخياله وتحول الرعب الذى كان مقروناً بذكرها وتصورها إلى الضحك والسخرية وهكذا تنتهى دولة الخرافات وتزول.

(١) لحن الكلام: معاريضه ومذاهبه.

(٢) الفحوى: المعنى.

لا ريب أنك واقف على قصة يعقوب مواثب المردة وقاتلهم الذى كان يعيش فى كورنواى على ما يروى فى الأساطير (قاميل) يحب حديثى عن غزوات هذا الشاب الشجاع ابن أحد الزراع، وأشهر وقائعه التى سار بخبرها الركبان ما يروى أنها وقعت فى جبل ميخائيل قديس انجلترة وهو صخرة تكاد تكون بإزاء منزلنا وكان المارد الذى يخطف الناس والبهائم قد تبوأها منزلا واتخذها مثوى له. وقد كان أعظم خدمة قام بها حماة الحق فى عصور الهمجية — إن لم أكن واهمة — هى مقاتلتهم السلبة والوحوش الضارية وقتلهم لهم فإنهم بذلك قد طهروا الأرض من العتاة والبغاة الذين كانوا يعيثون فيها فسادا. وبهذا الاعتبار نرى اليونانيين قد انصفوا فى رفع مكانة هرقل[1] وتيزيه[2] وجعلهما من أنصاف الآلهة كذلك فعل يعقوب بالمارد فإنه هاجمه فى مغارته وانتصر على تلك القوة الوحشية الفاتكة بالحيلة فكان جديرا بأن يكون خلفا لأولئك الشجعان الأقدمين.

لهذه الخرافات فضل وقيمة ولو أنها ألغيت من التعليم القولى لأسفت كثيرا فإن أمام الطفل فى هذا العصر الذى كله حقائق زمنا طويلا يتسنى له فيه الارتياض بأخلاقنا وعوائدنا الحقيرة، فلنغنم فرصة فجر حياته القصير الأمد الذى ترتاح فيه نفسه للأحاديث الخرافية وتتأثر بغرائب الأساطير لنودع فيها أنواع الوجدان الأعلى، ونبعثها على حب الأعمال الجليلة والسجايا الفضلى؛ فإن طبع الطفل يتكون وينشأ فى قوالب المثل التى تكون لها مكانة فى نفسه عند ما يلق

(١) هرقل أو هرقول اليونانى كما هو فى أساطير اليونان (مزاوجيا) ابن جو بيتر (المشترى) كبير الآلهة من زوجه الكمين وأعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون التنانين والضوارى والأفاعى العظيمة.

(٢) تيزيه من شجعان اليونان المشهورين وهو ابن (أجيه) ملك أثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصفه آدمى ونصفه ثور واشتهر فى وقائع عصر الأبطال.

إليه خبرها وتمثل له صورها . نعم إن (إميل) لن يكون قاتل مردة — وأين المردة اليوم — ولكن قصارى ما فى قص هذه القصص عليه من الفائدة أنها تهز نفسه وتحرك نخوته (١) بما فيها من ذكر غزوات عصر الأبطال، ولو كنت أجد منه انقباضا وشكا عند ما أقص عليه تلك الوقائع التى أبالغ عن قصد فى بيان إخلاص أبطالها وعلو نفوسهم وأمانتهم لساءنى ذلك وأحزننى .

نحن فى شؤون الحياة لا نزال دون غايات الكمال المبتغاة يجب علينا — إن لم أكن واهمة — أن نعجب بما يروى عن أولئك الأبطال من فضيلة الشجاعة وإن بعد احتمال وقوعها حتى لا نكون فى أسفل دركات الجبن .

فى نفسى أمر أنا فى أشد الحذر من الافضاء به إلى (إميل) بسببين أحدهما أنه لا يفهمه والثانى أنه يذهب بما لهذه الخرافات من الشأن الرفيع عنده، وهو أن تلك المردة التى هى موضوع تلك الأساطير ليست سوى أشخاص هذه الصخور الكثيرة فى كورنواى . فالحق والحق أقول إن هذه الأجرام الصوانية الهائلة تحتمل فى كل يوم أقصى ما قدر فى هذا العالم على كل قوة ذات مقاومة غير مألوفة أن تحتمله : ذلك أن تنبالا كان يتسلق تلك الصخور العظيمة المحيطة بذلك المكان الذى يسمونه نهاية الأرض **(Land's End)** وينقر بأداة من الحديد نقرة يضع فيها قرطاسا من البارود ذا فتيلة ويشعل الفتيلة ويكر راجعا فيكون الانفجار وتتصدع الصخر وتتزلزل الأرض ويضطرب البحر . فيعللون فى الأساطير مثل هذا التزلزل والاضطراب بسقوط المارد .

(١) النخوة : العظمة والحماسة والمروءة .

يتراءى لى أن محو الخيالات من أذهان الأطفال لا يفيد المربين شيئاً فأين تلك الحكايات والقصص الغريبة التى كان الأطفال يفتنون بها لما فيها من السذاجة والغرابة ؟ لقد ضاعت ونسيت وصار عصرنا هذا وهو عصر القصص والروايات الخيالية أبعد الأعصر عن القصص والأساطير المذكورة ، فإن القصص التى ندونها فى هذا العصر لا تمثل إلا الوقائع المعهود للناس نظائرها ، لأننا بما كنا من أهل الحقائق المعتمدين على الوقائع الثابتة ومن سكان المدن الآهلة والحواضر البعيدة عن الوهم والتخيل كانت عنايتنا فى التربية محصورة فى إيداع جميع أذواقنا ورغائبنا فى نفوس أولادنا . أقول ما قلت لا لأننى أدعى الحكمة والعلم وأعوذ بالله من دعوى الإشراف على الغيب والحكم على الاستقبال ؛ ولكنى أسائل نفسى عن حال هؤلاء الأطفال الذين صاروا شيوخا وهم فى سن اللبان[(١)]، وقد قطعنا عليهم طريق الوهم والخيال ، فنحن نعلمهم قيمة الفضة وهم فى طور يجهلون فيه الحسن المطلق والجمال الذاتى . ومن العبث أن يقال إن ما تصفه لنا الأساطير من الأخلاق الفاضلة والمزايا العظيمة لا أثر له فى الوجود ، فإن عدم وجود أولئك الرجال والنساء الموصوفين بما ذكر من الأخلاق والمزايا فى أنديتنا وسمارنا ، وعدم تجوالهم فى أسواقنا وشوارعنا ، يجب أن يكون من الأسباب التى تحملنا على عدم إخراجهم وطردهم من جنة الطفولية حيث يتمتع الأطفال ، فى عالم التصور والخيال . فأستحلف القائمين بأمر التربية بالله (تعالى) أن يدعوا لهم متبوءاً فى البيوت . وأما أنت يا عالم الخيال من الجنيات والأبطال الذى هززت قلوبنا فى طور الطفولية ، وحركت نفوسنا للخيرات والفضائل

(١) سن اللبان هو سن الرضاع .

النَّفسيَّة، بِمَا كَشفتَ مِنَ النِّقَابِ عَنْ وَجهِ الكَمَالِ، وَأَبرزتَ مِنْ مَظَاهِرِ الجَمَالِ وَالجَلَالِ فَلَا تَزُلْ وَلَا تَحتجِبْ عَنَّا فِى جَوِّ هَذَا العَصْرِ الوَخِيمِ، المُثقَلِ بِضُرُوبِ الحُسْبَانِ وَالهُمُومِ، الَّذِى شَغَلَتْ أَهْلَهُ الأَغْرَاضُ المَادِّيَّةُ، وَطَلَبُ المَنَافِعِ الجُسْمَانِيَّةِ، فَإِنَّا نَصْغُرُ وَنَحْتَقِرُ إِذَا صَرَفْنَا أَوْلَادَنَا عَنِ الاعْتِقَادِ بِعَظَمَتِكَ الخَيَالِيَّةِ الَّتِى عَلَّمَتْنَا الحُسْنَ الذَّاتِىَّ وَالعَظَمَةَ الحَقِيقِيَّةَ.

أَرَى مِنَ الخَطَإِ أَنْ تُعَابَ هَذِهِ الخُرَافَاتُ بِبُعْدِهَا عَنِ الحَقِيقَةِ فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا فَهُوَ مَحْمُودٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طَوْرٍ آخَرَ مِنْ أَطْوَارِ العُمُرِ فَمَا يَظْهَرُ لَنَا بَعِيدًا عَنِ الحَقِيقَةِ حَقِيقِىٌّ فِى نَظَرِ الطِّفْلِ. أَخَذْتُ هَذَا الحُكْمَ مِنْ طَبْعِ (إِمِيلَ) الَّذِى أَتَبَجَّحُ بِأَنِّى سَبَرْتُهُ وَخَبَرْتُهُ فَهُوَ عَلَى عَدَمِ سَمَاعِهِ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ مُتَدَيِّنٌ بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، وَلَهُ قُوَّةٌ عَجِيبَةٌ فِى ابْتِدَاعِ الصُّوَرِ الخَيَالِيَّةِ الَّتِى يَمْتَازُ بِهَا الإِنْسَانُ فِى طَوْرِ الطُّفُولِيَّةِ وَتَضْعُفُ فِى سَائِرِ أَطْوَارِهِ بِالتَّدْرِيجِ. فَإِنَّهُ يَرَى وَرَاءَ كُلِّ حَادِثَةٍ كَوْنِيَّةٍ كَالمَطَرِ وَالرِّيحِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ قُوَّةً حَيَّةً بَلْ ذَاتًا مُشَخَّصَةً، فَقَدْ فَرَّ مُنْذُ أَيَّامٍ مِنَ البُسْتَانِ مَذْعُورًا لِأَنَّهُ رَأَى سَحَابًا مَرْكُومًا ظَهَرَ فِى السَّمَاءِ بِأَشْكَالٍ غَرِيبَةٍ وَقَالَ لِى إِنَّهُ رَأَى فِيهِ رَأْسَ شَيْخٍ ذِى لِحْيَةٍ بَيْضَاءَ. أَلَيْسَ لِمِثْلِ هَذَا التَّأَثُّرِ النَّاشِئِ مِنَ الخَوْفِ خَوْفِ الإِجْلَالِ وَالإِعْظَامِ الفَضْلُ فِى إِدْرَاكِ أَوَّلِ مَعْنًى لِلأُلُوهِيَّةِ فَهِمَهُ الإِنْسَانُ. ؟ اهـ

الرسالة الواحدة والثلاثون

(مِنْ هَيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِى ١٥ مارس سنة — ١٨٥)

تَعْلِيمُ الْقِرَاءَةِ وَالْخَطِّ وَالرَّسْمِ

لَمَّا يتعلَّمْ (إِمِيلُ) الْقِرَاءَةَ وَلَا يَكَادُ يَعرِفُ حُرُوفَ الْهِجَاءِ وَرُبَّمَا كُنْتُ أَنَا الْمَلُومَةَ عَلَى ذَلِكَ لِأَنِّي لَمْ أَحثُّهُ عَلَى التَّعَلُّمِ إِلَّا قَلِيلًا . ذَلِكَ أَنِّي لَا أَنفكُّ أَذْكُرُ تِلْكَ الْغَضَاضَةَ وَالْكَرَاهَةَ لِلتَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَمَا سَبَبُهَا ـ عَلَى مَا أَرَى ـ إِلَّا الْإِكْرَاهُ عَلَيْهِ وَهَضْمُ مَا كَانَ يَجِبُ لِطِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ مِثْلِي مِنْ حَقِّ الْحُرِّيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ . وَأَرَى أَنَّ حَمْلِي «إِمِيلَ» عَلَى التَّعَلُّمِ ـ لِأَنَّ غَيْرَهُ يَتَعَلَّمُ كَمَا كَانَ يُقَالُ لِي ـ جِنَايَةٌ عَلَيْهِ لِأَنَّ عَاقِبَةَ هَذِهِ الْحُجَّةِ أَنْ يُطْبَعَ النَّاشِئُ عَلَى التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَالِاقْتِدَاءِ بِالنَّاسِ فِي جَمِيعِ عَادَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ . وَلِمَ نَخْتَارُ رُكُوبَ الصَّعْبِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ وَلَدَيْنَا الْمَرْكَبُ الذَّلُولُ وَهُوَ حَمْلُ الطِّفْلِ عَلَى التَّعَلُّمِ بِالتَّشْوِيقِ وَالتَّنْوِيهِ بِمَا فِي الْمُطَالَعَةِ مِنَ اللَّذَّةِ فَقَدْ يَسْتَغْنِي الْإِنْسَانُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجْهَلُ فَوَائِدَهَا وَمَزَايَاهَا .

أَنَا جَاهِدَةٌ فِي تَلَمُّسِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تُنَبِّهُ اشْتِيَاقَ «إِمِيلَ» إِلَى الْحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ وَتَبْعَثُ فِيهِ الْمَيْلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا . وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْقِصَصَ الْعَجِيبَةَ وَالْأَسَاطِيرَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي أُفَكِّهُهُ بِمُلَحِهَا وَأَقَاكِيهِهَا كُلُّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكُتُبِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ بِهِ الْمَيْلَ وَتَحْمِلَهُ الرَّغْبَةُ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ مِنْ مَصَادِرِهَا وَيَسْتَخْرِجَهَا مِنْ يَنَابِيعِهَا بِنَفْسِهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . وَإِذَا تَوَلَّدَتْ فِيهِ هَذِهِ الرَّغْبَةُ يَوْمًا مَا فَكُلُّ مَا بَعْدَهَا يَتْبَعُهَا مِنْ نَفْسِهِ وَإِنِّي لَا أَفْتَأُ أَنْتَظِرُ تَوَلُّدَهَا وَانْبِعَاثَهَا الْحَسَنَ فِيهِ وَقَدْ طَالَ تَأَخُّرُهَا .

نَحْنُ مَعَ صَيْرُورَةِ الْقِرَاءَةِ حَاسَّةً سَادِسَةً لَنَا بِمَا رَسَخَتْ مَلَكَتُهَا فِينَا لَمْ نُحِطْ خُبْرًا بِالْعَقَبَاتِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ وُصُولِ الطِّفْلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحُرُوفِ الْهِجَائِيَّةِ بِسُهُولَةٍ ، وَأَنَا بَاحِثَةٌ عَمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَنْشَأً لِهَذِهِ الْعَقَبَاتِ الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ وَيَشُقُّ عَلَيَّ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا كَانَ مَنْشَؤُهَا أَنَّ مَا دُونَ عِلْمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ يُسَاعِدُ بَعْضُهَا عَلَى مَعْرِفَةِ بَعْضٍ ، وَيُعَدُّ مُتَعَلِّمُ أَحَدِهَا وَيُؤَهِّلُهُ لِفَهْمِ الْآخَرِ إِذَا هُوَ انْتَقَلَ إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَهَا مِنَ الصِّلَةِ وَاتِّحَادِ طُرُقِ الدَّلَالَةِ . وَأَمَّا عِلْمُ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ فَإِنَّهُ يُخَالِفُهَا فِي ذَلِكَ لِانْقِطَاعِ الصِّلَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ الصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا . فَإِذَا انْتَقَلَ الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مُسَمَّيَاتِ الْأَشْيَاءِ إِلَى أَسْمَائِهَا الْمَرْسُومَةِ فِي الْوَرَقِ انْقَطَعَ الِاتِّصَالُ بِهِ فَجْأَةً .

لَا يَصْعُبُ عَلَى «إِمِيلَ» أَنْ يُمَيِّزَ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ صُوَرِ الْأَشْخَاصِ الْمَرْسُومَةِ وُجُوهَ أَصْحَابِهَا إِذَا كَانَ رَآهَا لِأَنَّ الشَّكْلَ فِي الصُّورَةِ وَالْمُصَوَّرِ يَكَادُ يَكُونُ وَاحِدًا ، فَأَمَّا الْاسْمُ الْمَكْتُوبُ فَإِنَّهُ لَا يُمَثِّلُ لَهُ شَخْصَ الْمُسَمَّى بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فَهَلْ تُوجَدُ طَرِيقَةٌ لِرَبْطِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي فِكْرِهِ وَأَعْنِي بِهِمَا الرَّسْمَ وَالْكِتَابَةَ ؟ هَذَا أَمْرٌ يُطْلَبُ مِنْكَ الْجَوَابُ عَنْهُ .

أَنَا أُكَلِّمُ (إِمِيلَ) بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ أَهْلِ كُورْنُوَايَ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ فَهُوَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَتَعَلَّمُ لُغَتَيْنِ مِنَ اللُّغَاتِ الْعَصْرِيَّةِ بِلَا مَشَقَّةٍ بَلْ لَا حَرَجَ عَلَيَّ إِذَا قُلْتُ بِلَا شُعُورٍ مِنْهُ بِذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّهُ يَغْلَطُ فِيهِمَا غَلَطًا غَرِيبًا فَيَمْزِجُ أَحْيَانًا بَعْضَهُمَا بِبَعْضٍ مَزْجًا يَكُونُ مِنْ أَشَدِّ الْأَضَاحِيكِ اسْتِضْحَاكًا . مَثِّلْ لِنَفْسِكَ غُلَامًا يَقُولُ مُخْبِرًا لَكَ بِأَنَّهُ

يريد الخروج (Je voudrais to go out) ألست تغرب لهذا الخلط ضحكا؟[١] لا غرو،[٢] فما كان تكون اللغات المختلطة فيما سبق إلا في مثل هذه الحالة وهي تجاور جنسين متمايزين واختلاطهما زمنا في مكان واحد. أنا أعتقد أنني أعلم (إميل) وهو في الحقيقة معلمي لأنه قد فتح عيني وهداني إلى عدة مسائل ذهب تعبي في البحث عن حلها في الكتب سدى. وليت شعري هل تصدقني إذا قلت لك إنه يعلمني التاريخ.

يعرف (إميل) الرسم والتصوير وإن كان لما يعرف القراءة والكتابة فهل ولد مصورا ورساما؟ لا أنكر أن النظر إلى خرابيشه[٣] يضعف هذا الاعتقاد أو يذهب به ولكنها على كل حال صور آدميين وحيوانات ومساكن وغير ذلك. وهو لا يكتفي بأن يحاكي بالقلم العادي أو الرصاصي شكل ما يقع عليه بصره بحسب ما يتفق له بل أراه يحاول التعبير عما في نفسه من ضروب الوجدان وما في فكره من الحكايات بما يرسمه على هذه الأوراق من خرابيش الخطوط والصور. أنظر كيف حاول أن يكتب إليك مكتوبا — أستغفر الله قد أخطأت في كلمة يكتب مكتوبا وكان ينبغي أن أقول: يرسم لك خطا بربائيا[٤] وأنا لأخشى أن يصعب عليك فهم الرسم الذي يرسله إليك نأرجو أن أكون أنا في هذه الدفعة شامبوليون[٥] هذا الرسم فأقول:

(١) مدعاة الضحك في هذا هي أن لفظتي (Je Voudraes) فرنسيتان ومعناهما أود لو وكلمتي (to go) انجليزيتان ومعناهما أن أخرج فخلط بين اللغتين في جملة واحدة. (٢) لا غرو: لا عجب.

(٣) الخرابيش جمع خرباش أو خربوش وهي الخطوط الفاسدة غير المنتظمة ويقال خربش الخط.

(٤) البربائي الخط الذي يوجد على جدران البرابي وهي هيا كل ومعابد معروفة في مصر.

(٥) شامبوليون هو أول من حل الخط البربائي الهير وغليفي بقراءة حجر رشيد المشهور.

يمثل لك الرسم رسما عصوفا هبت لليلتين من شهر إبريل وظلت تعصف إلى الليلة الثالثة منه وليس هذا مما يحصل هنا نادرا، ولله بيوتنا فإنها مبنية بالصوان (وهو الحجر الموجود فى الضواحى) ولولا ذلك لتداعت أو لدكت بقوة العواصف والأعاصير الشديدة التى تضطرب لها هنا السماء والأرض والماء . على أن البحر لم ير منذ سنين بمثل هذا الاضطراب الذى أحدثته هذه العاصفة ولا يجد الواصف لهذه الحالة وصفا إلا أن يقول : إن حجاب الروع والفزع قد أسدل على هذا الكون الذى لا نهاية له .

لا يسمع من لغط الناس المشئوم فى هذه الحال إلا أخبار الغرق والغرقى تتردد من ساحل إلى ساحل، ولم يكن لخفراء السواحل يومئذ هم منذ طلع الصباح إلا مراقبة البحر الهائج بمناظيرهم المقربة للبعيد يصوبونها إلى الأفق من على تلك الصخور الوعرة المحيطة بالخليج، وكانوا لا يكادون يبصرون فى ضوء ذلك الصباح الملون بخضرة البحر الحواء (الضاربة إلى سواد)، على أن أشعة أبصارهم قد خرقت تلك الحجب الجوية، وعلم الناس أنهم ميزوا على بعد من وراء تلك الأمواج المتراكبة المصطخبة(١) سواد سفينة قد وقعت فى شعب مخيف فانكسرت ساريتها الكبرى وتحطمت جوانبها فسقطت تضطرب كحوت أصيب بجروح عظيمة فصار يتقلب على جنبيه وكان مما يثير الخوف أن الأمواج التى كانت تهيجها العواصف فتعلو فجأة كالجبال ربما تتداول السفينة المتلفة من حين إلى حين فتقذفها على تلك

---

(١) المصطخبة .

الصُّخُورِ الصُّمِّ[(١)] . وَصَارَ يَتَمَنَّى لِلإِنْسَانِ فِى ذَلِكَ الْجَوِّ الْمُطْبِقِ الْمُحْزِنِ أَنْ يُمَيِّزَ فِى ضَوْئِهِ السِّنْجَابِىِّ اللَّوْنِ أَيْدِىَ النَّاسِ فِى السَّفِينَةِ تُشِيرُ بِقِطَعٍ مِنَ الشِّرَاعِ

لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حِينَئِذٍ مِنْ أُمْنِيَّةٍ إِلَّا نَجَاةُ هَؤُلَاءِ الْغَرْقَى ، عَلَى أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ صُعُوبَةَ إِنْقَاذِهِمْ وَتَعَسُّرَهُ ، نعم إِنَّ أَهْلَ كُورِنْوَاى أُولُو شَجَاعَةٍ وَنَجْدَةٍ وَلَكِنَّهُمْ مع ذَلِكَ أَصْحَابُ حَذَرٍ وَفِطْنَةٍ . هدأتِ الرِّيحُ قَلِيلًا بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ كَامِدَةً شَاحِبَةً وَالْبَحْرُ مَا زَالَ مُتَمَادِيًا فِى طُغْيَانِهِ مُصِرًّا عَلَى عُدْوَانِهِ ، فَكَانَ يُخَيَّلُ لِرَائِيهِ أَنَّهُ يَتَحَرَّكُ بِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ أَخَذَتْهُ حُمَّى نَافِضٌ[(٢)] مِنَ الْقَاصِفِ[(٣)] فَأَحْدَثَتْ فِيهِ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْعَجِيبَةَ فِى الرِّعْدَةِ وَالاضْطِرَابِ ، وَكَانَ بَعْضُ الصَّيَّادِينَ الْمُحَنَّكِينَ يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى الْأَمْوَاجِ يَتَتَبَّعُونَ حَرَكَاتِهَا بِأَعْيُنِهِمُ الْمُدَرَّبَةِ ثُمَّ يَنْغِضُونَ رُءُوسَهُمْ وَتَعْلُو وُجُوهَهُمْ كَآبَةُ الْيَأْسِ ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِمْ يَقُولُ : لَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ عَلَى إِنْقَاذِ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ .

أَتَى عَلَى النَّاسِ نَحْوُ نِصْفِ سَاعَةٍ وَهُمْ يَتَرَاوَحُونَ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ كَانَ عَلَيْهِمْ كَنِصْفِ قَرْنٍ . ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ بَعْضَ إِخْوَانِهِمْ بَيْنَ مَخَالِبِ الْمَوْتِ وَنَابِهِ وَهُمْ يَرْجُونَ مِنْهُمُ النَّجْدَةَ فَلَا يَجِدُونَ لِإِنْجَادِهِمْ ، سَبِيلًا وَ بَيْنَمَا هُمْ فِى هَذِهِ الْحَالَةِ إِذَا بِزَوْرَقِ النَّجَاةِ قَدْ أُحْضِرَ فَصَاحَ النَّاسُ صَيْحَةً وَاحِدَةً كَانَتْ مُنْبَعِثَةً عَنْ جَمِيعِ الصُّدُورِ ، وَهَذَا الزَّوْرَقُ يَعُدُّهُ الْمَلَّاحُونَ لِلدَّوَاهِى الْكَبِيرَةِ وَقَدْ أُحْضِرَ بِقُوَّةِ السَّوَاعِدِ وَالْخُيُولِ وَوُضِعَ فِى مَكَانٍ مِنَ السَّاحِلِ يُرْجَى مِنْهُ الْوُصُولُ إِلَى الْغَرْقَى وَمَا عَتَّمَ أَنِ امْتَلَأَ بِالنَّاسِ عَلَى وَهَنِهِ وَخِفَّتِهِ ، وَعِظَمِ الْخَطَرِ فِى رُكُوبِهِ ، وَقَدْ تَحَمَّلَ «قُوبِيدُونُ» الَّذِى تَطَوَّعَ

(١) الصم الغليظة الشديدة . (٢) حمى نافض هى الحمى التى فيها رعدة .

(٣) القاصف الشديدة التى تكسر ما يلاقيها .

فِى هَذِهِ الخِدْمَةِ مُنْذُ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ كُلَّ مَشَقَّةٍ فِى الذَّوْدِ عَنْ مَكَانِهِ وَحِفْظِ مُجَذَّافِهِ وَكَانَ الَّذِينَ رَكِبُوا الزَّوْرَقَ يَحْسُدُونَهُ عَلَى شَرَفِ التَّعَرُّضِ لِمَخَاتِلِ المُحِيطِ وَفِخَاخِهِ، وَمَا نَجَحَ فِى ذَوْدِهِ وَدِفَاعِهِ هَذَا إِلَّا بِقُوَّةِ حُقُوقِهِ المُكْتَسَبَةِ بِسَابِقِ هَذِهِ الخِدْمَةِ . أُنْزِلَ الزَّوْرَقُ فِى البَحْرِ وَانْحَنَى المُجَذِّفُونَ الجَرِيئُونَ عَلَى مَقَاعِدَ تَعْلُو نِصْفَهَا الأَمْوَاجُ وَأَوْغَلُوا فِى البَحْرِ وَكَانَ «إِمِيلُ» ــ عَلَى مَا أَرَى ــ يَأْسَفُ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ السِّنِّ وَالقُوَّةِ مَا يُؤَهِّلُهُ لِمُسَاهَمَةِ رُفَقَائِهِ قُوبِيدُونَ فِى هَذِهِ السِّيَاحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى جَرَاءَةِ الجَنَانِ، وَشَرَفِ الوِجْدَانِ ، وَأَرَاهُ قَدِ اكْتَسَبَ فِى هَذَا المَشْهَدِ مِنَ العِبْرَةِ بِإِخْلَاصِ المُخْلِصِينَ ، وَالأُسْوَةِ بِإِحْسَانِ المُحْسِنِينَ، مَا لَا أُبِيحُ لِنَفْسِى التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِالكَلَامِ ، وَمُحَاوَلَةَ شَرْحِهِ بِفَصَاحَةِ البَيَانِ، لِئَلَّا أُضْعِفَ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَأُشَوِّهَ مِنْ صُورَتِهِ فَإِنَّ حُضُورَ المَشَاهِدِ العِظَامِ، وَرُؤْيَةَ الأَخْطَارِ الجِسَامِ، تُعَلِّمُنَا بِغَيْرِ كَلَامٍ، وَتُرَبِّينَا بِدُونِ إِلْزَامٍ.

غَابَ الزَّوْرَقُ سَاعَاتٍ وَالنَّاسُ فِى قَلَقٍ مُمِيتٍ وَإِذَا بِصَائِحٍ يَصِيحُ : هَا هُوَ ذَا رَاجِعٌ ، وَكَانَ يَقْتَرِبُ مِنَ الشَّاطِئِ حَقًّا وَالنَّاسُ فِى رَيْبٍ مِنْ نَجَاحِهِ فِى مَسْعَاهُ الشَّرِيفِ . وَمَا كَانَ أَشَدَّ شَجَاعَتَهُ فِى مُسَاوَرَةِ غَضَبِ الأَمْوَاجِ الثَّائِرَةِ! وَأَنْتَ وَلَا شَكَّ تَعْرِفُ مَا تَأْتِى بِهِ صِنَاعَةُ المِلَاحَةِ مِنْ هَذِهِ العَجَائِبِ، أَعْنِى الزَّوَارِقَ المُنْشَأَةَ مِنَ الهَوَاءِ وَالبَلُّوطِ الَّتِى هِىَ فِى الخِفَّةِ كَالرِّيشَةِ وَفِى القُوَّةِ وَالمَتَانَةِ كَمَا يُحِبُّ الخَبِيرُ وَيَرْضَى . كَانَ يُخَيَّلُ لِلرَّائِى فِى كُلِّ لَحْظَةٍ أَنَّ الفَوَاعِلَ الكَوْنِيَّةَ المُصْطَخِبَةَ سَتَبْلَعُ بِقُوَّتِهَا هَذِهِ الصَّدَفَةَ الخَشَبِيَّةَ الَّتِى تَطَاوَلَتْ بِجَرَاءَتِهَا إِلَى مُنَازَعَةِ البَحْرِ فِى غَنِيمَتِهِ وَلَكِنَّهَا تَطَاوَلَتْ فَطَالَتْ وَحَارَبَتْ فَظَفِرَتْ؛ فَكَأَنَّ هَذَا الزَّوْرَقَ كَانَ إِنْسَانًا يَسْبَحُ وَقَدْ أَعْطَتْهُ جِنِّيَّةٌ

طلسمها ليتقى به مفزعات النوء ، وما كان أبدع منظر رجاله والماء يتدفق من فوق قلانسهم المشمعة وثيابهم المزيتة وهم راجعون أعزاء ظافرين ، وإن كان الموج نال منهم وترك أجسامهم كأجسام الضفادع ونحوها من حيوان الماء ، وقذف بهم أحيانا فى مهاوى عميقة كبطون الأودية ، وطفر بهم أخرى إلى قنن عالية كشعاف (١) الجبال يظهرون بها للأبصار فى ضوء الشمس السقيم ، وكلما غلبتهم الأمواج على مجاذيفهم فنزعتها من أيديهم بادروا إلى استرجاعها بقوتهم كما يأخذ الشجاع سلاحه من عدوه . صاح قوم من الملاحين كانوا على صخرة قائلين : «نجوا» .

فلما سمعت هذا الصياح شخصت ببصرى إلى الزورق الذى كان يدنو من الشاطئ دنوا غير محسوس وأنشأنا نميز بين رجال الزورق ثلاثة من الغرقى شاحبى اللون شحوبا مفزعا وفتاة صغيرة ليس فيها أدنى علامة على الحياة .

وصل الزورق بمشقة شديدة ورسا فى مرسى من المراسى المحمية بالخليج فلم ألبث أن تلقفت بعض التفصيل عن حادثة الغرق فعلمت أن إنقاذ الغرقى كان عسرا خطرا ، وأنهم لقوا الألاقى (٢) الشديدة ، ويظن أنهم قضوا يومين على الطوى (٣) . وقد وجدوا معششين كالطير البحرى حول بقايا أدوات السفينة التى لم يدمرها البحر كلها تدميرا ، ولا شك أنهم لما صاروا عرضة لجميع شدائد الجو تسلقوا هذا الموضع الحرج عند اغتيال الأمواج سطح المركب وثبتوا فيه بخوارق الشجاعة

(١) الشعاف رءوس الجبال . (٢) الألاقى : الشدائد .

(٣) الطاوى : الجوع .

وَقَدْ تَعِبَ مُنْقِذُوهُمْ فِي تَخْلِيصِ الحِبَالِ مِنْ أَيْدِيهِمْ الَّتِي أَيْبَسَهَا الْبَرْدُ، وَكَانُوا عَاجِزِينَ حَتَّى بَعْدَ نَجَاتِهِمْ عَنْ مُدَافَعَةِ النُّعَاسِ الَّذِي كَانَ يُنِيخُ عَلَيْهِمْ بِكَلَاكِلِهِ .

كَانَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ : مَنْ هُمْ وَمِنْ أَيْنَ أَتَوْا ؟ وَمِمَّا كَانَ يَزِيدُ فِي سُوءِ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يُحِيرُونَ جَوَابًا[1] لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْهَمُونَ خِطَابًا فَحَسِبْتُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ غَيْرَ الإِنْجِلِيزِيَّةِ فَخَاطَبْتُهُمْ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَبِالأَلْمَانِيَّةِ بَلِ اسْتَنْفَدْتُ جَمِيعَ مَا أَعْرِفُ مِنَ اللُّغَاتِ فَلَمْ أَرَ فِي وُجُوهِهِمْ أَمَارَةً عَلَى فَهْمِ شَيْءٍ مِنْهَا، وَكَانَ فِي الْمِينَاءِ بَعْضُ الْمَلَّاحِينَ الرُّوسِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ وَالنَّرْوِيجِيِّينَ فَلَمْ يَكُونُوا أَسْعَدَ مِنِّي حَظًّا فِي مُخَاطَبَتِهِمْ . تَجَلَّتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ بِشَكْلِ الأُمُورِ الْغَرِيبَةِ فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْغَرْقَى فِي نَظَرِ النَّاسِ أَمْوَاتٌ بُعِثُوا وَلَمْ يَعْرِفُوا لُغَاتِ الأَحْيَاءِ .

وَأَمَّا الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَظْهَرُ أَنَّهَا بِنْتُ خَمْسٍ فَكَانَتْ نَجَاتُهَا كَمُعْجِزَةٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ فَقَدْ كَانَتْ أَبْصَارُ الْمَلَّاحِينَ زَاغَتْ عَنْهَا وَلَمْ تَهْتَدِ فِي الضَّبَابِ الَّذِي أَثَارَتْهُ الأَمْوَاجُ إِلَيْهَا وَلَكِنَّ قُو بِيدُونَ لَمَحَ بِعَيْنِهِ الَّتِي تُحَاكِي عَيْنَ الْفَهْدِ شِبْهَ كُتْلَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي بَقَايَا أَدَوَاتِ السَّفِينَةِ وَخَاطَرَ بِنَفْسِهِ فِي التَّسَلُّقِ لِاسْتِكْشَافِهَا أَشَدَّ الْمُخَاطَرَةِ فَأَلْفَاهَا بِنْتًا قَدْ لُفَّتْ فِي نَسِيجٍ وَلْبُوسٍ وَعُلِّقَتْ عَلَى ارْتِفَاعِ عِشْرِينَ قَدَمًا وَسْطَ الْحِبَالِ الْمُتَقَطِّعَةِ وَكَانَتْ مُغْمًى عَلَيْهَا مِنَ الْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْخَوْفِ فَأَخَذَهَا وَأَلْقَاهَا فِي الزَّوْرَقِ فَظَلَّتْ فِي غَيْبَةِ نُعَاسِهَا كَذَلِكَ الطَّائِرِ الْبَحْرِيِّ الْمُسَمَّى «مُوِيتَة» الَّذِي يُرَى مُتَخَدِّرًا طَافِيًا عَلَى سَطْحِ الْمُحِيطِ . أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ الْغَرْقَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَجِبُ إِنْقَاذُهُمْ

(١) أحار الجواب : ردّه .

فِيهِ إِذْ لَمْ يَمْضِ عَلَى ذَلِكَ بِضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى هَاجَ الْبَحْرُ هَيْجَةً حَطَّمَتْ بَقَايَا السَّفِينَةِ وَبَدَّدَتْ أَلْوَاحَهَا تَبْدِيدًا وَكَانَتِ الْقَرَائِنُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْجُ مِنْ رُكَّابِهَا إِلَّا هَؤُلَاءِ .

أُخِذَ الْغَرْقَى إِلَى مَلْجَأِ الْمَلَّاحِينَ لِيُسَاعِدُوا عَلَى ضَعْفِهِمْ ، وَطَلَبْتُ أَنَا أَنْ تُضَمَّ الْبِنْتُ إِلَيَّ وَالْفَضْلُ كُلُّهُ فِي هَذَا الْبِرِّ لِإِخْلَاصِ فُوبِيدُونَ ، وَلَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ هِيَ ؟ إِنَّ مَلَامِحَ وَجْهِهَا وَشُعُورَهَا الْحَالِكَةَ وَجِلْدَهَا الذَّهَبِيَّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْبِلَادِ الْجَنُوبِيَّةِ . هَلْ هِيَ يَتِيمَةٌ ؟ وَهَلْ غَرِقَ أَبُوهَا ؟ وَمَنْ هُوَ صَاحِبُ الْيَدِ الَّتِي عَلَّقَتْهَا فِي بَقَايَا السَّارِيَةِ ؟ تِلْكَ أَسْرَارٌ مَحْجُوبَةٌ عَنِّي وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِأَحَدِ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْغَرْقَى ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَقِفَ قَرِيبًا عَلَى خَبَرِ السَّفِينَةِ وَمَنْ فِيهَا ، وَسَأَكْتُبُ إِلَيْكَ بِمَا أَعْلَمُهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ قَائِلَةً إِنَّ مِنْ حُبِّكَ أَنْ أَتَأَثَّرَ بِمَصَائِبِ النَّاسِ وَأَهْتَزَّ لَهَا .

(حَاشِيَةٌ) عُرِفَ اسْمُ السَّفِينَةِ وَهُوَ (ايا كو كو) وَغَرْقَاهَا مِنَ الْبِيرُوفِيِّينَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ الْأَسْبَانِيَّةَ غَيْرَ الصَّحِيحَةِ . هَذَا كُلُّ مَا عُلِمَ إِلَى الْآنَ عَنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْبَحْرِيَّةِ الْمُحْزِنَةِ . اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

(مِنَ الدُّكْتُورِ إِرَاسْم إِلَى زَوْجَتِهِ فِي ١٨ أبريل سنة — ١٨٥)

التَّدَرُّجُ الْفِطْرِيُّ فِي تَعْلِيمِ الرَّسْمِ وَالْخَطِّ وَالْقِرَاءَةِ

تَلَقَّيْتُ رَسْمَ «اميل» فَاغْتَبَطْتُ بِهِ وَلِلَّهِ مَا تَفَضَّلْتِ بِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرْحِ الَّذِي كَانَ كَالْمِفْتَاحِ لِمُغْلَقِهِ فَلَوْلَاهُ لَمَا نَفَذَ ذِهْنِي فِي سِرِّ خَطِّهِ الْبِرْبَائِيِّ ، لَا شَكَّ

أَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ الْكَبِيرَةَ السَّوْدَاءَ تُمَثِّلُ الْعَاصِفَةَ وَالْبَحْرَ الْمُضْطَرِبَ وَالسَّمَاءَ الْمُظْلِمَةَ بِالسُّحُبِ وَهَذِهِ يَدِى رَهْنٌ لِمَنْ شَاءَ، عَلَى أَنِّى أَرَى فِيهِ السَّفِينَةَ الْغَرِيقَةَ وَإِنْ كَانَتْ قَوَانِينُ عِلْمِ الْمَرْئِيَّاتِ لَمْ تُرَاعَ فِى الرَّسْمِ بِالتَّدْقِيقِ، وَذَلِكَ الشَّىْءُ الطَّافِى عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ زَوْرَقَ النَّجَاةِ، وَأَمَّا هَذَا الْوَجْهُ الْمَصْبُوغُ بِالْمِدَادِ فَلَا وَجْهَ لِلْخَطَإِ فِى مَعْرِفَتِهِ فَهُوَ وَجْهُ قُوبِيدُونَ، وَكَأَنِّى أَرَى بِعَيْنِ الارْتِيَاحِ فِى الصُّورَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى الْأَرْضِ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْمُغْمَى عَلَيْهَا الَّتِى نَجَتْ مِنَ الْغَرَقِ، أُرَاكِ تَجِدِينَنِى فَهِمْتُ ذَلِكَ الرَّسْمَ الَّذِى لَا أَعْرِفُ مِنْ آثَارِ وَلَدِى سِوَاهُ، وَقَدْ عَلَّقْتُهُ هُوَ وَصُورَتَهُ عَلَى جِدَارِ حُجْرَتِى .

إِنَّ صِنَاعَةَ الْأَطْفَالِ تُذَكِّرُنَا دَائِمًا بِطُفُولِيَّةِ الصِّنَاعَةِ، وَإِنَّ تَصْوِيرَ بَعْضِ أَشْكَالِ هَذَا الْعَالَمِ الْخَارِجِىِّ هُوَ مَلَكَةٌ غَرِيزِيَّةٌ فِى نَوْعِنَا وَرُبَّمَا كَانَتْ هِىَ الَّتِى تُمَيِّزُنَا عَنْ غَيْرِنَا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ أَجْلَى تَمْيِيزٍ فَإِنَّ إِنْسَانَ الْغَابِ الْوَحْشِىَّ الَّذِى لَا تُعْرَفُ لُغَتُهُ وَلَا تَارِيخُهُ قَدْ عُلِمَ عَنْهُ الْيَوْمَ أَنَّهُ كَانَ فِى زَمَنٍ مَّا يَنْقُشُ بِالظُّرَّانِ (١) عَلَى الْحَجَرِ أَوْ عَلَى قَرْنِ الْأَيِّلِ الْقُطْبِىِّ صُوَرًا سَمِجَةً لَا أَثَرَ لِلْإِتْقَانِ فِيهَا كَصُورَةِ الْفِيلِ الْقَدِيمِ ذِى الْفَرْوَةِ الْمُسَمَّى (بِالْمَمُّوثِ) كَمَا رَسَمَ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ الْأَوَابِدِ الَّتِى كَانَ يُغَالِبُهَا فِى التَّسَلُّطِ عَلَى الْآجَامِ وَالْغَابِ .

لَدَيْنَا كَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِ الْأُولَى مَارَسَتْ فُنُونَ التَّقْلِيدِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَضَعَ لِنَفْسِهَا قَوَانِينَ ثَابِتَةً تَكْفُلُ لَهَا حَاجِيَاتِ مَعِيشَتِهَا .

(١) الظران بالضم والكسر مع تشديد الراء جمع الظر وهو الحجر المحدد .

أستنتج مما قدمته أن تعليم الأطفال ينبغي أن يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي نتلمسينها لنقل الطفل من التصوير إلى الكتابة . قد أحسنت النظر إذ انتبهت إلى أن حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكلها، وإنه ما ثم(١) إلا المواضعة والاصطلاح ، فإن الطفل ما رأى في الكون شيئاً هو (ا) أو (ب) ولكن اختراع هذه الحروف هو من أعظم الآثار وضروب فوز العقل الإنساني المخلدة في صفحات تاريخه . واذكرى أن الأمم القديمة كانت قد استعدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه إليها ، فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم ، وأما أبناء هذا العهد فإن هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم ، فإنه ينتقل فجأة إلى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة . وبعد هذا يندهش معلمه من استثقاله ما يراه أمامه من العقبات . ليس هو وحده الذي يحق له المعارضة في مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك .

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد أن الحروف الهجائية التي اخترعت أولا ربما لا تكون إلا صوراً لبعض أشياء كانت تنسب إليها أكثر من غيرها ، والخط ابتدئ باختصار في الرسم ، وليت شعري هل محيت تلك الآثار الربانية بتمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة ؟ أقول إن هذا الأمر محل للشك ، وإني أعرف

(١) ثم : هنالك .

رجلا كيسا كان يرجع أشكال حروف لغتنا المطبوعة إلى بعض الصور الخلقية . نعم إن مضاهاته كانت أحيانا تشف عن بعض التكلف ، ولكنى أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق فى ذهن «إميل» بين طائفتين من الأشكال تظهران لأول نظرة متباعدتين كأن بينهما بحرا رهوا[(١)] . فإذا رسم مثلا مسطحا مستديرا يمثل به الشمس أكتب فى أسفل هذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنسية (Soleil) معتنيا بإظهار حرف O مكبرا فإذا كان الرسم « منزلا » (Maison) أو ثعبانا (Serpent) أو طريقا متعرجا (Zigzag) أو عينا باصرة (œil) بذلت جهدى فى بيان وجوه الشبه التى عسى أن توجد بين الحرف الأول من هذه الكلمات والأشياء التى تمثلها فى الذهن فإن «إميل» يفهم بهذه الطريقة أن الخط هو كيفية أخرى للرسم بها يبين الإنسان مراده بأوضح مما يحاوله بالرسم وفى زمن أقل .

إن الذى يحير الطفل ويضله هو إلزامه اتباع طريقتنا فى النظر بدل أن نستدرجه من المعلوم إلى المجهول استدراجا سهلا ، فترينا نبادر إلى صب المعانى العقلية فى ذهنه صبا على حين أنه لم يكتسب بعد ملكة تمييز هيآت الأشياء المادية — نضطره إلى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ، ولكنى أرى أننا بهذه الطريقة نجنى على ذهنه جناية تقضى بالأسف ، فإن إلزامه التعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله إلى الملاحظة والتعلم بنفسه ، وضرر الاستبداد فى البيوت لم يكن أقل من ضرر استبداد الحكومة .

---

(١) رهوا مفتوحا ذا فجوة واسعة .

أرى أنّ الرَّسْمَ وَالْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ هِيَ ثَلاثَةُ ضُرُوبٍ مِنَ التَّمْرِينِ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي التَّفْرِيقُ بَيْنَهَا فِي التَّرْبِيَةِ الْأُولَى؛ عَلَى أَنَّ الرَّسْمَ هُوَ الَّذِي تَجِبُ الْبَدَاءَةُ بِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَزَايَا كَثِيرَةً: أَوَّلُهَا كِفَايَةُ الطِّفْلِ مُؤْنَةَ مَا لِلدَّرْسِ مِنَ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، فَإِنَّ مُعْظَمَ الْأَطْفَالِ يَكْرَهُونَ الْكُتُبَ، وَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ مَيْلٌ إِلَى الصُّوَرِ، بَلْ فِيهِمْ دَافِعٌ طَبْعِيٌّ يَحْمِلُهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى أَنْ يَرْسُمُوا بِأَيْدِيهِمْ مَا يَقَعُ تَحْتَ أَبْصَارِهِمْ، فَالرَّسْمُ عِنْدَهُمْ ضَرْبٌ مِنَ اللَّعِبِ خُصُوصًا إِذَا مَارَسُوهُ بِدَعْوَةِ الْغَرِيزَةِ وَاجْتَهَدُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِي أَنْ يُمَثِّلُوا أَشَدَّ الْأَشْيَاءِ اسْتِمَالَةً لَهُمْ. وَلَا أُنْكِرُ أَنَّ مَلَكَةَ التَّمْثِيلِ وَالْمُحَاكَاةِ لَا يَسْتَوِي فِيهَا جَمِيعُ الْأَطْفَالِ وَلَكِنَّ التَّأَسِّي(١) كَافٍ فِي تَنْبِيهِهَا غَالِبًا.

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ وُلِدَ الْإِنْسَانُ رَسَّامًا؟ هَذَا مَالَا أَعْلَمُهُ وَإِنَّمَا الَّذِي يُثْبِتُهُ لَنَا التَّارِيخُ هُوَ أَنَّ فُنُونَ الرَّسْمِ كَانَتْ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ سَابِقَةً لِانْتِشَارِ الْكِتَابَةِ وَالْعُلُومِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالتَّارِيخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْأَطْفَالِ كُلَّ يَوْمٍ بِأَعْيُنِنَا. وَمِنْ مَزَايَا الرَّسْمِ أَيْضًا أَنَّهُ يُرَبِّي الْقُوَّةَ الْحَاكِمَةَ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ، فَإِنَّ فِي فَتْحِ أَبْوَابِ الْكَوْنِ لَهُ قَبْلَ فَتْحِ الْكُتُبِ أَمَامَهُ مُبَادَرَةً إِلَى إِرْشَادِهِ إِلَى يَنْبُوعِ الْعِلْمِ، فَمُحَاكَاةُ الْجَمَادِ أَوِ الْحَيَوَانِ أَوِ النَّبَاتِ تُوَجِّهُ نَظَرَهُ دَائِمًا إِلَى الصِّفَاتِ الْمُقَوِّمَةِ لِمَاهِيَّةِ مَا يُحَاكِيهِ وَإِنْ جَاءَ الرَّسْمُ نَاقِصًا. الرَّسْمُ هُوَ تَمْثِيلُ أَشْكَالِ الْأَشْيَاءِ وَحُدُودِهَا بِخُطُوطٍ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الرَّاسِمُ قَدْ رَآهَا وَقَامَ فِي نَفْسِهِ مَعْنًى مَا يُمَيِّزُهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْعَلَامَاتِ وَالصِّفَاتِ الْأَصْلِيَّةِ.

---

(١) التأسي الاقتداء بالغير.

وأمّا الكلمات المكتوبة فإنها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة، فإنه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه أن يسمي عددًا لا نهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة، وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة أضلّت معظم العقول البسيطة التي لا همّ لها إلّا القشور.

لا يوجد الاستقصاء والتعمق في معرفة الأشياء إلّا حيث يوجد القياس والمضاهاة، فإذا لم يعتد الطفل التفكر فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جدًّا بتفهم ما يقرأه.

آخر ما أذكره من مزايا الرسم أنه إعداد أوّلي كبير النفع في تعلم الخط فإن «إميل» بتخطيط صور الأشياء التي يستملحها تخطيطًا حسنًا أو رديئًا يمرّن أصابعه على الحركة ويكتسب نوعًا من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية، ولكن الغرض إنما هو إعداد الذهن للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور إلى الخط الذي هو رسم المعاني فلو أننا تيسر لنا أن نربط في حكم «إميل» التمثيل الخطي للأشياء المشهودة بالعلامات المعنوية التي تقوم مقامها لكنا كأننا وضعنا على البحر الفاصل بينهما جسرًا، على أنه لا شيء أيسر من تصغير الرسم في العمل فإن «إميل» كلما رسم شجرة أو ثمرة أو حيوانًا أقول له: إنك قد رسمت حروفًا من حيث لا تدري غير أنه توجد حروف أخرى أصعب من هذه رسمًا وقراءة يكتبها المتعلمون، فإذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الإعجاب هيجًا شديدًا أكتب له الكلمة الموضوعة للشيء الذي رسمه وأحرضه على محاكاتها أفعل ذلك كله وأنا أضحك.

سَوَاءٌ عِنْدِى أَنجح فِى ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَنْجَحْ مَا دَامَ يَجْتَهِدُ فِى كِتَابَةِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَجْتَهِدُ فِى ذَلِكَ إِذَا حُمِلَ عَلَيْهِ بِالْحِذْقِ وَالْمَهَارَةِ، وَلَا بُدَّ له مِنْ إِعَادَةِ الْكِتَابَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ قَبْلَ أَنْ يَكْتَسِبَ شَيْئًا مِنْ مُمَارَسَتِهَا وَلَكِنَّ الْأَصْلَ بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَعْرِفُ (إِمِيلُ) مِنْ هَذَا الْحِينِ السَّبَبَ فِى الْكِتَابَةِ وَكَيْفَ أَنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَبْدَلُوا بِرَسْمِ الْأَشْيَاءِ حُرُوفًا اصْطِلَاحِيَّةً تَدُلُّ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الرَّسْمُ وَتَمْضُلُهُ بِكَوْنِ مَسَاحَتِهَا أَصْغَرَ وَوَقْتِ وَضْعِهَا أَقْصَرَ. هَاتَانِ هُمَا مَزِيَّتَا الْخَطِّ عَلَى الرَّسْمِ وَهُمَا اللَّتَانِ أُطِيلُ لَهُ الشَّرْحَ فِيهِمَا لِأَنَّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى فَهْمِهِ وَأَدْنَى مِنْ عِلْمِهِ.

الطِّفْلُ يَجْرِى فِى تَعَلُّمِهِ تَكْوِينَ الْحُرُوفِ عَادَةً كَمَا يَجْرِى الدُّولَابُ فَمَا أَحْسَنَهَا طَرِيقَةً لِلدُّخُولِ فِى عَالَمِ الْمَعْقُولِ!

نَعَمْ إِنِّى عَرَفْتُ بَعْضًا مِنَ الْمُصَوِّرِينَ كَانُوا لَا يَسْتَصْوِبُونَ مُطْلَقًا تَرْكَ مَلَكَةِ الْمُحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ مُطْلَقَةً بِلَا قَيْدٍ فِى الطَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحَيَاةِ وَيَرَوْنَ أَنَّ الطِّفْلَ إِنَّمَا يَرْسُمُ فِى الْغَالِبِ بِالْهَوَى لَا بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ كَمَا يَعْتَقِدُ، وَهَذَا الْإِطْلَاقُ يُفْسِدُ عَلَيْهِ عَمَلَ يَدِهِ بِمَا يَعْتَادُهُ مِنْ عَدَمِ النِّظَامِ، وَلَوْ صَدَّقْنَاهُمْ فِى ذَلِكَ لَقُلْنَا بِوُجُوبِ الْوِلَايَةِ وَالتَّأْدِيبِ فِى تَعْلِيمِ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يُمْكِنُ اخْتِلَافُ آرَاءِ النَّاسِ فِيهَا كَغَيْرِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ وَلَكِنَّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ مَحَلَّ نَظَرِى فَإِنِّى أُرَاهِنُ بِأَلْفٍ إِزَاءَ وَاحِدٍ عَلَى أَنَّ (إِمِيلَ) لَنْ يَدَّعِىَ اسْتِحْقَاقَ جَائِزَةٍ رُومِيَّةٍ عَلَى الرَّسْمِ، فَأَىُّ وَجْهٍ لِى فِى الْخَوْفِ أَوِ الرَّجَاءِ فِى أَنْ يَصِيرَ بَعْدُ مُصَوِّرًا؟ الَّذِى أَبْتَغِيهِ هُوَ أَنْ يَكُونَ

رَجُلًا، وَلَا شَكَّ فِى أَنَّ الشُّعُورَ بِمَا يُوجَدُ فِى الْكَوْنِ يُعِينُ عَلَى إِنْمَاءِ الْعَقْلِ وَالطَّبْعِ، وَمَهْمَا كَانَتْ رَدَاءَةُ رُسُومِهِ فَإِنَّ أَقَلَّ مَا فِيهَا أَنَّهَا تَشْهَدُ لَهُ بِبَعْضِ الْتِفَاتٍ وَتَوَجُّهٍ إِلَى مَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَهَذَا يَكْفِينِى مِنْهُ الْآنَ، فَإِذَا كَانَ مِمَّنْ لَهُمْ مَلَكَةٌ حَقِيقِيَّةٌ فِى الْفُنُونِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فِيهِ يَوْمًا مَا. أَلَيْسَ مِنَ الشَّوَاهِدِ الَّتِى تُذْكَرُ فِى هَذَا الْمَقَامِ ذَلِكَ الرَّاعِى الصَّغِيرُ الَّذِى كَانَ يَتَعَلَّمُ الرَّسْمَ بِنَفْسِهِ فِى أَثْنَاءِ رَعْيِ نِعَاجِهِ وَلَمَّا تَكَمَّلَ فِيهِ بَعْدُ بِوَاسِطَةِ التَّعَلُّمِ فِى الْمَدْرَسَةِ صَارَ (الْأُسْتَاذَ رَفَايِيلَ)؟

أَرَى أَيْضًا أَنَّ تَعْلِيمَ الْكِتَابَةِ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَسْبِقَ تَعْلِيمَ الْقِرَاءَةِ أَوْ أَنَّ هَذَيْنِ التَّمْرِينَيْنِ يَجِبُ أَنْ يَتَّصِلَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ. كَانَ أَنْدْرُوبِلُ — وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونِى سَمِعْتِ شَيْئًا مِنْ سِيرَتِهِ فِى انْجِلْتِرَةَ — يَبْحَثُ مِنْ سِنِينَ عَدِيدَةٍ عَنْ طَرِيقَةٍ مَعْقُولَةٍ لِتَعْلِيمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَلَمَّا كَانَ فِى الْهِنْدِ اتَّفَقَ أَنَّهُ رَأَى يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فِى مَدْرَسَةٍ بِضَوَاحِى (مَدْرَاس) ثُلَّةً(١) مِنْ أَحْدَاثِ الْهُنُودِ يَرْسُمُونَ بِأَصَابِعِهِمْ حُرُوفًا عَلَى الرَّمْلِ فَوَقَفَ يُلَاحِظُهُمْ مُلَاحَظَةَ الْمُتَأَمِّلِ، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ طَرِيقَتَهُمْ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ قَائِلًا: «قَدْ وَجَدْتُ مَطْلُوبِى». لَيْتَ شِعْرِى كَيْفَ كَانَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ؟ هِىَ وَلَا شَكَّ طَرِيقَةٌ بَسِيطَةٌ جِدًّا، ذَلِكَ أَنَّ أَطْفَالَ الْهُنُودِ لَمَّا كَانُوا أَقْرَبَ مِنَّا إِلَى الْفِطْرَةِ وَكَانُوا لِذَلِكَ أَعْمَلَ بِمُقْتَضَيَاتِ الْعَقْلِ كَانُوا يَبْتَدِئُونَ بِرَسْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِى يَرَوْنَهَا مَكْتُوبَةً ثُمَّ يَبْحَثُونَ عَنْ أَسْمَاءِ حُرُوفِهَا وَيَتَهَجَّوْنَ مَقَاطِعَهَا ثُمَّ يَنْتَهُونَ بِقِرَاءَتِهَا.

---

(١) ثلة : جماعة.

أخص فائدة أراها في هذه الطريقة أنها تشغل اليد والفكر معاً ، فإن الذي يتعب الطفل ويسئمه عند ما يقف أمام كتاب إنما هو التفاته الذي يطلب منه بلا بصيرة ، فإن عمل الإنسان بنفسه وبحثه وتخمينه وسيره من المعلوم إلى المجهول طريقة فضلى في مخاتلة الضجر وخداعه .

لست – والحق أقول – معجباً كثيراً بطرق التعليم المخترعة فإنها تفوق الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطلقاً ، ويحضرني أن هو لاندياً أعرفه خطر بفكره أن يجمع مجموعة من النعال وأراك تقولين ضاحكة : هذا خاطر غريب . نعم إنه غريب ولكنه وقع فإن الإنسان لا يكون هو لاندياً بلا شيء ، وقد وجدت في خزائنه المقفلة بالزجاج كثيراً من الأنموذجات المفيدة ففيها من جميع الأنواع ومن جميع البلدان والأعصر : من البابوج ونعل المشخصين إلى جرموق الصينيين ، ومن نعل متوحشي أمريكة الشمالية إلى بابوج كبراء الترك ، ففي هذه المجموعة من النموذجات المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسي صناع النعال شيئاً واحداً ألا وهو شكل قدم الإنسان . إذا صح ما أقول فربما دعاني إلى توجيه مثل هذا اللوم إلى واضعي طرق التعليم ، ذلك أنهم يتعقلون كما ينبغي وبعضهم ليس مجرداً من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الإنسان في أطوار حياته المختلفة .

الطريقة الفذة[1] التي أراها تلائم حالة التلميذ إنما هي سلامة ذوق معلمه ، ولا أقصد بذلك أنه لا موصل غيرها يمكننا أن نسترشد به في تيه[2] التربية ، بل

(١) الفذة : الوحيدة . (٢) التيه : المكان الذي يتيه فيه السائر أي يضل فيه وتيه التربية طرقها المتشعبة .

أعتقد أن كثيرا من الطرق العملية التي استعملتها الأجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالا مفيدا في تعليم الأطفال . لا شك أنك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) التي أدخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلاميذ بواسطة استعمال كرات من العاج ، هذه الآلة وإن لم أقف على مزيتها تمام الوقوف أنا على يقين من أننا أخذناها عن الصينيين وهى الحاسب الكرى المسمى في مملكة السماء (سوان بان) .

وعلى كل حال أعوذ بالله أن أنتقد مثل هذا الأخذ بل آسف من عدم رجوعنا كثيرا إلى الطرق الصناعية والممارسات العملية للأمم المتأخرة لتسهيل الوصول إلى بعض العلوم الأولية على المبتدئين .

هؤلاء الأقوام المتأخرون هم أطفال التاريخ ، وقد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الأرض تكون اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة(١) ، ولم نقف عند حد معرفة مناشئ العلوم فقط بل أدى بنا البحث في دوال المعاني أثناء أطوار الحضارة الأولى إلى معرفة استعداد العقل البشرى وطرقه المتعاقبة في الوصول إلى العلوم ، فإما أن أكون مخطئا خطأ فاحشا وإما أن يكون هذا الترتيب الطبيعي في الترقي هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الأحداث .

طرق التعليم عند الأمم التي وقفت فيها حركة الترقي والتقدم عبارة عن شؤون دائمة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون إلا وسيلة وقتية للطفل

(١) لم يصل الباحثون فى كل ما ذكره الى نتائج قطعية وانما هى ظنون وتخرصات عرضة للتغيير والتبديل فى كل وقت — المترجم .

فِى الْأَجْيَالِ الْمُتَمَدِّنَةِ ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِى الْأَصْلِ جَاهِلًا مِثْلَ هٰؤُلَاءِ الْأُمَمِ يَمْتَازُ كُلَّ يَوْمٍ عَنِ الْوَحْشِىِّ وَالْبَرْبَرِىِّ بِمَلَكَةِ التَّحَوُّلِ الَّتِى كَأَنَّهَا مَرْسُومَةٌ فِى أَعْضَائِهِ . فَهُوَ يَعْرُجُ بِسُرْعَةٍ عَلَى مَعَارِجَ حَالَتْ بَيْنَ الْأَجْيَالِ الدَّنِيئَةِ وَبَيْنَهَا عَقَبَاتٌ كَئُودٌ (١) فَلَا يَقِفُ فِى عُرُوجِهِ هٰذَا إِلَّا عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِى تَضَعُهُ لَهُ ضُرُوبُ اسْتِعْدَادِهِ وَمَلَكَاتُهُ الشَّخْصِيَّةُ وَنَوْعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعِيشُ بَيْنَهُمْ وَتَأْثِيرُ الزَّمَنِ فِيهِ . فَنِسْبَةُ طُرُقِ التَّعْلِيمِ إِلَى التَّرْبِيَةِ كَنِسْبَةِ الْأَوْضَاعِ وَالْقَوَانِينِ إِلَى الْمُجْتَمَعِ : فَهِىَ لَا تُلَائِمُ إِلَّا حَاجَةً وَقْتِيَّةً مِنْ حَاجَاتِ الْعَقْلِ فَيَجِبُ اعْتِبَارُهَا جَمِيعِهَا وَقْتِيَّةً فَيَكُونُ مِنَ الْحُمْقِ حَصْرُ عَقْلِ التِّلْمِيذِ فِى بَعْضِ الْأَشْكَالِ التَّعْلِيمِيَّةِ كَمَا كَانَ مِنَ الْجَوْرِ فِى الْقَرْنِ السَّادِسِ إِرَادَةُ إِبْقَاءِ الْأُمَمِ عَلَى قَوَانِينِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَعَقَائِدِهَا (٢) .

الرسالة الثالثة والثلاثون

(مِنْ إِرَاسْمَ الَى هَيْلَانَةَ فى ٢٢ أبريل سنة — ١٨٥)

تَرْبِيَةُ قُوَّةِ الْخَيَالِ وَالتَّلَطُّفُ فِى مُحَاوَرَةِ الْأَطْفَالِ

أَرَى أَنَّ (إِمِيلَ) عَلَى مَا وَصَفْتِهِ لِى قَدْ حُبِّبَتْ إِلَيْهِ بَدَائِعُ الْخَيَالِ وَغَرَائِبُهُ وَأَنَا مَسْرُورٌ بِذٰلِكَ مَهْمَا بَلَغَتْ دَرَجَتُهُ فِى نَفْسِى لِأَنِّى لَا أُحِبُّ مِنَ الْأَطْفَالِ مَنْ كَانَ مُشَكِّكًا مُرْتَابًا فَإِنَّ الِارْتِيَابَ فِيهِمْ مِنْ دَلَائِلِ نُضُوبِ قُوَّتِهِمُ الْخَيَالِيَّةِ

---

(١) كئود صعبة المرتقى .

(٢) العقائد الصحيحة المطابقة للعقل لا تكون وقتية تتغير بتدرج الانسان فى النمو والرقى لأن مناطها وهو الإله الحق ثابت لا يتغير و باق لا يزول وصفاته لا تحول ، وأما العقائد الفاسدة المبنية على الأوهام والأضاليل فلا جرم أنها تضمحل وتتلاشى بتقدم الانسان فى مدارج العرفان — المترجم .

وَعُقْمِهَا . وَلَسْتُ أَدْرِى إِنْ كَانَ حَنِينُ الإِنْسَانِ إِلَى مَا وَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ مِنْ أَسْبَابِ شَرَفِهِ أَوْ مِنْ أَمَارَاتِ خِسَّتِهِ وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ فِى نَظَرِى سِيَّانِ إِذَا كَانَ هَـذَا الْحَنِينُ يَرْفَعُ نَفْسَـهُ مِنْ حَضِيضِ هَـذَا الْكَوْنِ الْمَـادِّىِّ وَيَسْمُو بِهَـا إِلَى مَا يَتَمَثَّلُ فِى الْخَيَالِ مِنْ مَعَارِجِ الْكَمَالِ الرُّوحِىِّ ، وَأَنَا أُقَاسِمُكَ الْأَسَفَ عَلَى مَا يُضَيِّعُهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الْأَطْفَالِ مِنْ قُوَّةِ الْخَيَالِ الَّتِى كَانُوا يَجُوبُونَ بِهَا مَفَاوِزَ عَالَمِ الْغَيْبِ وَهُمْ مُتَعَلِّقُونَ بِشُعُورِ جِنِّيَاتِهِ . ذَلِكَ لِأَنَّ لِلَّهِ (سُبْحَانَهُ) حِكْمَةً فِى قِسْمَةِ الْمَوَاهِبِ بَيْنَ النَّـاسِ حَتَّى فِيمَا هُوَ أَشَدُّهَا خَطَرًا وَهُوَ الْمَوَاهِبُ الْخَيَالِيَّةُ فَلَمْ يَهَبْهَا لَنَا عَبَثًا ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَسْعَى فِى إِمَاتَةِ قُوَّةٍ مِنْ قُوَانَا لِمُجَرَّدِ حُكْمِنَا عَلَيْهَا بِأَنَّهَا وَهْمِيَّةٌ أَوْ خِلْوٌ مِنَ الْفَائِدَةِ ، بَلِ الْأَجْدَرُ بِنَا فِى شَأْنِهَا أَنْ نَطْلُبَ لَهَا مَا يُقَابِلُهَا وَيُوَازِيهَا ، فَقُوَّةُ الْخَيَالِ مَثَلًا سَيَأْتِيهَا الزَّمَنُ بِمَـا يُعَارِضُهَا مِنْ قُوَّةِ مُلَاحَظَةِ الْحَوَادِثِ وَمَلَكَةِ التَّعَقُّلِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، فَأَسْتَحْلِفُ الْمُرَبِّينَ بِحَقِّ الْحَيَاةِ وَقَدْرِهَا فِى نُفُوسِهِمْ أَنْ لَا يَقْسِرُوا مِنْ قُوَى الْأَطْفَالِ وَأَنْ لَا يَمْحُوا مِنْهَا شَيْئًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْغِنَى بِهَا حَدًّا تَزِيدُ فِيهِ عَنْ حَاجَتِهِ .

إِنَّ لَنَـا فِى الْكَوْنِ لَعِبْرَةً فَلْنَنْظُرْ إِلَى حَوَادِثِهِ فَإِنَّنَـا نَرَى جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ فِى حَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَتَغَالُبٍ وَجِلَادٍ وَتَرَقٍّ وَازْدِيَادٍ وَنُشَاهِـدُ أَنَّ الْقُوَى الْمُتَعَانِدَةَ تَزْدَوِجُ فَتُوَلِّدُ نِظَامًا ، وَالْفَوَاعِلَ الْمُتَبَايِنَةَ تَأْتَلِفُ فَتُنْشِىءُ مُلَاءَمَةً وَوِئَامًا ، فَأَىُّ ضَرَرٍ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ إِذَا جَرَى فِى تَرْبِيَةِ نَفْسِهِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ .

الرسالة الرابعة والثلاثون

مِنْ إرَاسْمَ الَىٰ هَيْلانَةَ فِي ٢٣ ابريل سنة ١٨٥

خِطَابُهُ لإميلَ وَحَثُّهُ عَلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ :

إِلَيْكَ مَكْتُوبًا «لإميلَ» فِي طَيِّ مَكْتُوبِي لَكِ وَهُوَ :

وَلَدِيَ الْعَزِيزَ ! لَقَدْ أَبْهَجَنِي مَكْتُوبُكَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ وَانْشَرَحَ بِهِ صَدْرِي كَثِيرًا غَيْرَ أَنِّي أُنَبِّهُكَ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةً أُخْرَى لِلْكِتَابَةِ هِيَ إِلَى الْكَلَامِ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقَتِكَ إِلَيْهِ ، وَأَحُثُّكَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى تَعَلُّمِهَا ، فَاسْأَلْ وَالِدَتَكَ أَنْ تُعَلِّمَكَ طَرِيقَتَهَا فِي قِرَاءَةِ رُسُومِيَ الْقَلَمِيَّةِ الَّتِي تُغَايِرُ رُسُومَكَ بَعْضَ الْمُغَايَرَةِ. فِي نَفْسِي أُمُورٌ كَثِيرَةٌ أَرُومُ الإِفْضَاءَ إِلَيْكَ بِهَا ، فَهَلْ لَدَيْكَ مَا تُحِبُّ أَنْ تُكَاشِفَنِي بِهِ ؟ فَإِنِّي عَلَى عَدَمِ تَمَتُّعِي حَتَّى الْآنَ بِرُؤْيَتِكَ ، مَشْغُولُ الْفِكْرِ بِكَ ، عَامِرُ الْفُؤَادِ بِحُبِّكَ ، فَإِذَا وَافَتْنِي كَلِمَةٌ مِنْكَ اسْتَبْشَرْتُ بِهَا وَهَشَّتْ لَهَا نَفْسِي ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ أَصِفُ مَا أَجِدُهُ مِنَ الْفَرَحِ لَوْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِلِقَائِكَ فَضَمَمْتُكَ إِلَى صَدْرِي .

الرسالة الخامسة والثلاثون

مِنْ هَيْلانَةَ الَى إرَاسْمَ فِي ٢٠ يونية سنة ١٨٥

الصِّحَّةُ فِي تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ . وَتَرْبِيَةُ الْخَيَالِ وَالذَّاكِرَةِ بِمَحَاسِنِ الْغَبْرَاءِ (١)

كَانَ «إميلُ» عَلِيلًا وَكُنْتُ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ فِي بِدَايَةِ مَرَضِهِ مِنَ الْحُمَّى الْحَصْبِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُصَبْ بِالْحَصْبَةِ وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ إِخْبَارِكَ بِذَلِكَ هُوَ أَنَّ الدُّكْتُورَ كَانَ

---

(١) الغبراء : الأرض الكثيرة الشجر .

قد تعهد بأن يكاشفك بسير المرض، ثم إنه لما لم يجد فيه أدنى خطر عليه رأى من العبث أن يوقظ ما نام من همومك ويحرك ما سكن من دواعى قلقك، ولقد عجلت إليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة، وثابت إليه أوابد القوى(١)، وأما أنا فكان شأنى غير ذلك لأن ما قاسيته من التعب فى ليالى سقمه التى لازمت فيها السهاد، وما كان يساورنى(٢) فيها من الحزن والإشفاق قد تزعزعت له صحتى، ووهت به عافيتى، وللطب الإنجليزى فى مثل حالتى هذه دواء لا بد أن يكون هو سيد الأدوية على ما أرى، وسندى فى هذا الرأى ما أراه من ثقة الأطباء به فى وصفه لمرضاهم، ومن إذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم، وهذا الدواء هو تغيير الهواء.

نعم إن الهواء الذى نستنشقه فى مرازيون جيد، غير أن أخص ما يعول عليه أطباء الإنجليز فى إيصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم إنما هو الانتقال من مكان إلى آخر والنظر فى مجالى الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم، وإنى والحق أقول قد أعجبت بهذا الرأى بعض الإعجاب لأنى أعلم أن ضواحينا التى يتوارد عليها السياح كثيراً غاصة بضروب المحاسن الحقيقية، ولهذا السبب لم أعارض فى هذا الرأى بل أذعنت له إذعان المريض المطيع الذى يجل أحكام العلم ويكبرها.

---

(١) الأوابد : النافرة .

(٢) يساورنى : يثب على ويهاجمنى .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية ، فإن السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت أن تشرع لنا طريق السير ، وسقط قو بيدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف مقدمها مرت عليها أيام كانت فيها أسعد حالا بأصحابها ، وعلى فرس كبير السن لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط فى أنجاد هذه الجهة وأغوارها (١) الكثيرة ، فاستأجرناهما بأجرة قليلة ، وفى صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجى البار على كرسى المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه .

كان وجه « إميل » — وقد زال شحوبه وعاد إليه لونه — يتلألأ فرحا ويزهو بشرا وطلاقة ، لأنه لا شىء يلذ للأطفال كتوقع الحوادث ولكنا لم نصادف فى طريقنا شيئا منها نقص عليك حكايته ، فلم نلاق سلبة ولا وحوشا ولا أسارى مقيدين فى مغارات الصخور ، مع أننا قد جبنا أرضين مقفرة (٢) تحدها سواحل قحلة (٣) مهجورة معرضة لجميع ما يطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه .

لم يكن خروجى إلى التنزه لمحض التداوى بتغيير الهواء ، بل كنت أرمى إلى غرض آخر أيضا وهو أن ينفعل « إميل » بما يشاهده من المناظر الخلابة وصورها المدهشة فتنتقش لها فى نفسه آثار حية ، فإنه يقال إن أول شىء بعث

(١) الانجاد والأغوار المرتفعات والمنخفضات من الأرض .
(٢) مقفرة خالية من السكان .
(٣) قحلة خالية من النبات .

في نَفْسِ بايْرُونَ[١] تَبَاشِيرَ وَلَعِهِ وَلَهَجِهِ بِالشِّعْرِ إِنَّمَا هُوَ مَنْظَرُ مَا يُوجَدُ فِي هِضَابِ[٢] إِيقُوسِيَةَ مِنَ الْبُحَيْرَاتِ وَقِمَمِ الْجِبَالِ، وَلَسْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ «إِمِيلَ» سَيَكُونُ بَايْرُونَ عَصْرِهِ بَلْ لَا أَجِدُ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ فِي التَّطَلُّعِ إِلَى ذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَتَكَدَّرُ وَأَحْزَنُ إِنْ رَأَيْتُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لَا يَتَأَثَّرُ بِمَا هُوَ مُسَطَّرٌ فِي صَفَحَاتِ الْكَوْنِ مِنْ جَيِّدِ الشِّعْرِ وَبَدِيعِهِ.

قَدْ وَهِمْتُ فِيمَا عَلَّقْتُهُ عَلَى هَذَا السَّفَرِ الْقَصِيرِ مِنَ الْأَمَلِ الْكَبِيرِ فِي تَنْبِيهِ الْقُوَى الْحَاسَّةِ فِي «إِمِيلَ» وَهَا أَنَاذِهِ أَعْتَرِفُ بِخَطَائِي صَاغِرَةً إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنِّي تَعَجَّلْتُ فِي هَذَا الْأَمَلِ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ لَا يَشُوقُهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ وَاسْتِطْلَاعُ وَقَائِعِ الْأَرْيَافِ وَهُوَ مِنْ حَدَاثَةِ السِّنِّ بِحَيْثُ يَصْعُبُ عَلَيْهِ إِدْرَاكُ الْأَشْيَاءِ فِي جُمْلَتِهَا وَمَجْمُوعِهَا.

أَرَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى فِي تَنْبِيهِ الْأَطْفَالِ وَبَثِّ رُوحِ الْمُلَاحَظَةِ فِي نُفُوسِهِمْ هِيَ أَنْ لَا تُطْلَبَ مِنْهُمُ الْمُلَاحَظَةُ وَلَا يُحْمَلُوا عَلَيْهَا، وَقَدْ سِرْتُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي سِيَاسَتِي «لِإِمِيلَ» فَلَمْ أَشُذَّ عَنْهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً. ذَلِكَ أَنَّنَا كُنَّا فِي رَأْسِ لِيزَارْدَ[٣] — وَمَا أَكْثَرَ عَجَائِبَهُ — . وَإِنْ أَرَدْتَ تَخَيُّلَهَا فَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ صُخُورًا هَائِلَةً عَلَى جَمِيعِ الْأَشْكَالِ بَعْضُهَا قَائِمٌ وَبَعْضُهَا سَاقِطٌ وَشَيْءٌ مِنْهَا مُتَّصِلٌ وَآخَرُ مُنْفَصِلٌ يَهِيجُ بَيْنَهَا

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانجليزى مؤلف القصص الكثيرة التي منها قصة الغلام هار وقصة الدوق جوان ولد في سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

(٢) الهضاب : جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض .

(٣) رأس ليزارد هو رأس من رؤس سواحل انجلترة في الطرف الجنوبي الغربي لأميرية كورنواي .

الْبَحْرُ وَيَصْطَخِبُ ، وَمِنْهَا مَا غَمَرَهُ الْبَحْرُ فَطَوَّقَ جِيدَهُ بِقِلَادَةٍ مِنَ الزَّبَدِ وَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ سِوَى رَأْسٍ مَخْرُوطِيٍّ أَمْلَسَ مَصْقُولٍ لَاتَفْتَأُ الْأَمْوَاجُ تَغْسِلُهُ . ثُمَّ تَصَوَّرْ أَنَّ بَصَرَكَ يَتَتَبَّعُ مِنْ بَعِيدٍ خَطَّ السَّوَاحِلِ فَيَرَى مَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ نُقْطَةٍ إِلَى أُخْرَى مِنَ الصُّدُوعِ الْعَظِيمَةِ وَالْوِهَادِ وَالْمَغَارَاتِ الْمُظْلِمَةِ ، فَإِذَا وَقَفَ الْإِنْسَانُ وَسَطَ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْكُبْرَى كَانَتْ حَيْرَتُهُ فِي إِخْتِيَارِ الْمَكَانِ الَّذِي يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَيْهَا . وَقَفْتُ أَنَا وَإِمِيلُ تِجَاهَ (كِينَانِس كُونَ) وَهُوَ أَحَدُ الْخُلُجِ الَّتِي يُرَى فِيهَا الْبَحْرُ أَجْمَلَ مَا يَكُونُ وَسَطَ الْأَطْلَالِ وَقِطَعِ الصُّخُورِ ، وَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ نَظَرًا بَلِيغًا وَانْقُشْهُ فِي حَافِظَتِكَ فَلَعَلَّكَ لَنْ تَرَى هَذَا الْمَنْظَرَ بَعْدَ الْيَوْمِ .

كَأَنِّي بِكَ تَقُولُ ؟ هَلِ الْقُوَّةُ الذَّاكِرَةُ مِمَّا يَأْتَمِرُ بِأَمْرِنَا فَنَأْمُرَهَا بِالْحِفْظِ وَالذِّكْرِ ؟ فَأُجِيبُكَ بِأَنَّ لِي بَعْضَ الْحَقِّ أَنْ أَعْتَقِدَ هَذَا إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَادَلَّتْنِي عَلَيْهِ تَجْرِبَتِي ؛ ذَلِكَ أَنِّي أَيَّامَ كُنْتُ فِيمَا يُقَارِبُ سِنَّ « إِمِيلَ » سَافَرَ وَالِدَايَ إِلَى مُقَاطَعَةِ أُوفِرْنِي (١) وَأَخَذَانِي مَعَهُمَا ؛ وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ إِقَامَتِنَا هُنَاكَ صَعِدْنَا إِحْدَى شِعَافِ الْجَبَلِ الْمُسَمَّى « مُنْدُورَ » وَهُنَاكَ نَشَدَنِي اللهَ وَالِدِي جَاهِرًا بِصَوْتِهِ أَنْ لَا أَنْسَى مَا كُنْتُ أُشَاهِدُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَلَا أَرَاكَ إِلَّا سَائِلِي عَنْ نَتِيجَةِ هَذَا الْإِقْسَامِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَانَ يَنْبَسِطُ أَمَامَ نَاظِرَيَّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْمُحْدِقَةِ بِي وَهِيَ مَشَاهِدُ الْجِبَالِ وَالرُّبَى (٢) وَالْوِدْيَانِ لَا يَزَالُ مَرْسُومًا فِي لَوْحِ ذَاكِرَتِي ،

(١) مقاطعـة أوفرنى هى اقليم قديم من أقاليم فرنسة قاعدته "كلير مونت نيراند" تكونت منه ومن جزء الهوت لوار "والكروز" مقاطعتا "كانتال وبوى دودوم" .

(٢) الربى جمع ربوة وهى المرتفع من الأرض .

وَمِنْ هَذَا تَعرِفُ السَّبَبَ الَّذِى حَمَلَنِي عَلَى اتِّبَاعِ هَـذِهِ الطَّرِيقَةِ مَعَ « إميل »، نَعَمْ إِنَّ وَالِدِيّ قَدْ أَوْصَـانِي بَعْدَ هَـذِهِ الْمَرَّةِ بِحِفْظِ مَنْظَرٍ آخَرَ لَا أَذْكُرُهُ الْآنَ فَلَمْ يُجْدِ هَذَا شَيْئًا فِي الْحِفْظِ، وَأَنَا أَسْتَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ تَيَسَّرَ فِي وَقْتٍ مَا أَنْ يَكُونَ لِلْمُرَبِّي شَيْءٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى حَافِظَةِ الْأَطْفَالِ فَلَا يَنْبَـغِي الْإِفْرَاطُ فِي إِسْـتِعْمَالِهِ لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ فَعَّالَةٌ .

إِذًا وُكِلَ « اميلُ » لِنَفْسِهِ كَانَتْ دَهْشَتُهُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يَرَاهَا أَكْثَرَ مِنْ إِعْجَابِهِ بِهَا ، وَهَـذَا مِمَّـا يَحْمِلُنِي عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي رُؤْيَةِ الْأُمُورِ عَلَى حَقِيقَتِهَـا كَمَالَ الرُّؤْيَةِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْخَيَالِ . خُذْ لِذَلِكَ مَثَلًا وَهُوَ أَنَّ الطِّفْلَ لَا يَعْرِفُ مِنَ الْبَحْرِ سِوَى دَائِرَةِ الْأُفُقِ الَّتِي يَحْوِيهَا بَصَرُهُ وَهِيَ دَائِرَةٌ ضَيِّقَةٌ بِالنِّسْـبَةِ إِلَى الْوَاقِـعِ ، فَإِنَّ حِجَابَ الْمَسَافَاتِ يَحُولُ بَيْنَـهُ وَبَيْنَ مَا وَرَاءَهَا مِنْ بَقِيَّـةِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ يَفْنَى عَنْ شُهُودِهِ وَتَرْتَفِـعُ نَفْسُـهُ إِذَا وَقَفَ أَمَامَ مَشْهَدِ الْمِيَاهِ الْجَلِيـلِ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْظُـرُ بِفِكْرِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأُفُقِ مِنَ امْتِـدَادِ الْمُحِيطِ، فَإِنَّهُ مَتَى انْفَكَّ سَاعَةً مِنْ رِبْقَةِ عَجْزِ الْمَشَاعِرِ الظَّاهِرَةِ اتَّسَعَتْ فِي خَيَالِهِ حُدُودُ الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ فَيُضِيفُ إِلَى هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمَائِيَّةِ الْمُضْطَرِبَةِ - الَّتِي لَا يَرَى مِنْهَـا إِلَّا جُزْءًا حَقِيرًا مَهْمَا كَانَتْ دِقَّةُ بَصَرِهِ - صُورَةَ عَدَمِ التَّنَاهِي وَالْجَلَالِ وَكِلَاهُمَا مِنْ مُدْرَكَاتِ الْعَقْلِ لَا دَخْلَ لِلْحِسِّ فِيهِمَا وَعَلَى الْجُمْـلَةِ فَإِنَّهُ يَرَى الْجَلَالَ وَالْعِظَمَ فِي مَاهِيَّـةِ الْبَحْرِ وَمَعْنَاهُ الذِّهْنِيِّ لَا فِي صُورَتِهِ الْمَرْئِيَّـةِ .

فَخُلُوُّ نَفْسِ (إِمِيلَ) مِنْ مَلَكَةِ التَّفَكُّرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ بِتَقَدُّمِهِ فِي السِّنِّ يَكْشِفُ لِي سِرَّ عَدَمِ اكْتِرَاثِهِ بِمَا يَرَاهُ مِنْ مَنَاظِرِ الْكَوْنِ بَلْ تَقْلِيدِهِ غَيْرَهُ فِي الْإِعْجَابِ بِهَا ،

كما يبين لى سبب انبعاث شوقه إلى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالى مطلقاً ولهجه بها لهجاً شديداً . ذلك أن معظم الصخور التى يتكون منها رأسا ليزارد ولندس إند (طرف الأرض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها ، كأنه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الخريت[(1)] منها صور العمود وعرين الأسد والمطبخ والمنافيخ والقلاة والفرس ورأس الدكتور جونسن ووجه الدكتور سنتاكس وغيره ، فمن هذه الأسماء ما ينطبق ولاشك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها أو بعدها من الحقيقة ، غير أن منها أيضاً ما هو مبنى على وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الأصلية وبين تلك الصخور التى وضع لها ، ومن المحتمل أن تكون هذه الألعاب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التى تمثل هيئة الإنسان أو شكل شىء من الأشياء مع عدم نحتها بالمنحات هى التى بعثت فى نفوس الأولين فكرة صناعة التماثيل ، ومهما كان أصل هذه الصناعة فإن هذا الفن الفطرى الاضطرارى الذى نقشته على الصوان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التى هاجت شوق «إميل» إلى معرفتها ، فإنه كان يجتهد من نفسه فى إدراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الأشياء المعروفة تمام المعرفة من وجوه الشبه التى لم تعزب أيضاً — كما تدل عليه أسماء تلك القطع — عن فكر صيادى السواحل السذج البسلاء .

من عهد أن رأيت جميع النموذجات الأصلية لفن العمارة ظاهرة فى المغارات وسلاسل الصخور لم يسعنى إلا الارتياب فى أن هذا الفن من مخترعات الإنسان

(١) الخريت : واسع الخبرة بخرت الأرض أى تعرف أماكنها وطرقها .

ذلك لأنك تجد فيها أصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبابيك الطويلة المقبوة والعماد وغيرها من الأشكال الكثيرة ، فليس على الخيال إلا أن يتوجه إلى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مثلا لمعابد عتيقة ، وصفوفا من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة ، وزخرفا رمزيا ، ووحوشا خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصا مستقلة .

كان بودى — على كونى لست من العلماء ولا من الأثريين — أن أعلم (إميل) فى هذه الفرصة الجميلة بأن ألقى فى ذهنه معنى للآثار السلتية (١) التى لا تخلو منها بعض جهات كورنواى ، وأكثرها شيوعا هو — كما تعلم — الدوائر القسيسية (٢) والأحجار الطويلة القائمة فى الأرض على قواعدها كالمسلات ، والرؤوس الصوانية الطبعية التى صارت بعد عمل صناعى قليل هى الحصون الأولى للبلاد تحميها من لصوص البحر ، وكان أشد هذه الآثار استمالة لى مدرج بيلدين فى رأس ليزارد ، ومما يحمل على الظن أن يد الإنسان هى التى نحتت هذا المدرج فى الصخر ما يشاهد فى بعض أرجائه من آثار أعمال تلك اليد الفطرية التى محا نصفها كرور العصور وما نبت من الأعشاب الدقيقة على سطح الصخور . ومن الأقوال المروية فى شأن ذلك المدرج أن الدوائر العظيمة الناتئة (٣) فى سمك الحجر كانت فيما غبر من

(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطالية وبريطانية العظمى وايرلاندة . (٢) نسبة الى القسيس لأن القسيسين هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد فى غير محالهم . (٣) الناتئة : البارزة .

الزمن صفوف درجات وأن السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحنٍ خطته يد الفطرة ووهدة يزبد البحر في قاعها فجعلوها مسرحا لأبصار النظار وعملوا لجمعهم حولها. إذا صحت هذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذى كان يحشر الناس له في هذا المكان ؟ إن كان ذلك هو الكون وعظمه فإنه مشهد جدير بإثارة وجدان الإعجاب والإكبار خصوصا في هذه البقعة، ولكنى أرجح أن ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة(١) على سطح الأمواج تجاه المدرج يقال إن القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرابين وتلك شعائر أقل ما فيها العظم والجلال .

يوجد أيضا في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الأجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخلنج الأدكن المحزن فيورث رائيها الغم والخوف، ولكن ! أنى « لإميل » أن يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهى خلو من أثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ؟ وكيف يرجى منه الاهتمام؟ على أنى أرى أن نفسه قد انفعلت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوما ما، وإنى أستند في هذا الرأى على أمر صبيانى جدا غير أن كل شىء في عالم الطفولية هو أكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الأمر :

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد «إميل» فأراد أن يشهر هذا اليوم العظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضى به عادة أهل البلاد الذى نسكنه، وإنه فوق ذلك قد عمد

---

(١) ناهدة : بارزة .

فى هذا العيد إلى اختراع افتجره(١) افتجارا فقد أخذ بثوبى وسار بى إلى بستان فرأيت فيه -وأنا فى غاية الدهش- كوما من الأحجار المتوسطة فى الحجم مرتبة مرصوفا بعضها فوق بعض بنوع من الحذق والصناعة وقد عددتها فوجدتها سبعة فعلمت من ذلك أنه قد استفاد من مدرسة قدماء « السلت » فإنه لما فهم من الآثار التى زرناها على طول الساحل أنها أقيمت تذكارا لحادثة من الحوادث طبق ما رآه على نفسه فأصبح كما ترى، وله أن يقول ما قاله هوراس(٢) من قبله وهو: «قد رفعت لنفسى أثرا » .

على أنى أسائل نفسى : لماذا يسمى سن « إميل » سن التمييز والتعقل؟ فليت شعرى أى شىء يتعقله الطفل فى السابعة من عمره؟ لا أراه يتصور الجزئيات فإنه لم يعمر من الزمن ما يكفيه لتصورها، ولا يدرك الكليات فإنه يجب لإدراكها أن يكون العقل قد وصل إلى حد معلوم من الرشد ، وإنى إذا حكمت بمقتضى ما أدتنى إليه تجربتى واختبارى أقول إن « إميل » لا يزال أكثر انبعاثا إلى العلم بالأشياء منه إلى الحكم عليها، فالذى يهمه ويشغله إنما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر وأماراته . وسأبين لك مرادى بمثل آخذه من ضروب تسلينا فانتظره فى المكتوب الآتى اه .

---

(١) افتجره : ابتدعه .

(٢) « هوراس » هو شاعر لاتينى شهير ولد فى سنة ٦٨ ومات فى سنة ٨ ق . م .

الرسالة السادسة والثلاثون

(مِنْ هَيلَانَةَ إِلَى إِرَامْسَ فى ٢ نوفمبر سنة — ١٨٥)

«تَعْلِيمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ بِتَمْثِيلِ الْفَانُوسِ السِّحْرِيِّ»

فَرَغْتُ مِنْ إِقَامَةِ مَعْهَدِ التَّمْثِيلِ الصَّغِيرِ الَّذِي كُنْتُ حَدَّثْتُكَ عَنْهُ فِي بَعْضِ مَكْتُوبَاتِي السَّابِقَةِ، وَلِي أَنْ أَقُولَ وَلَا فَخْرَ إِنَّهُ نَاجِحٌ مُؤَدٍّ إِلَى الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ.

اسْتَحْضَرَ لِي الدُّكْتُورُ وَارِنْجتُونُ مِنْ لُونْدُرَة فَانُوسًا سِحْرِيًّا، وَهُوَ آلَةٌ جَمِيلَةٌ مُعَدَّةٌ لِأَنْ تَتَجَلَّى فِيهَا الْمَنَاظِرُ الْمُتَعَاقِبَةُ بِوَاسِطَةِ الضَّوْءِ وَاللَّوْنِ، وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَنَّهَا تُكَبِّرُ مَا يُمَثَّلُ فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكْبِيرًا فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ وَتَرْسُمُ عَلَى حِجَابِهَا الَّذِي هُوَ مِنَ النَّسِيجِ صُوَرًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى أَظْهَرُ وَلَا أَوْضَحُ مِنْهَا، لِذَلِكَ تَرَانِي قَدْ قُمْتُ بِمَا أَخَذْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْ رَسْمِ مُعْظَمِ الصُّوَرِ وَتَلْوِينِهَا عَلَى زُجَاجِهَا مُخْتَبِرَةً مَا يَكُونُ لِلْوَهْمِ مِنَ الْأَثَرِ فِي النَّفْسِ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَقَدْ بَدَا لِي أَيْضًا مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ أُؤَلِّفَ بَيْنَ مَا تُمَثِّلُهُ هَذِهِ الْآلَةُ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْمُخْتَلِفَةِ بِتَنْسِيقِهَا(١) وَجَعْلِهَا عَلَى شَكْلِ قِصَّةٍ وَجِيزَةٍ تَجْعَلُ التَّمْثِيلَ مُرَتَّبًا مُتَوَاصِلَ الْأَطْرَافِ يَسْتَمِيلُ النُّفُوسَ وَيُبْهِجُ الْأَنْظَارَ. وَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ دَعَوْتُ إِلَى الْمَعْهَدِ فِي الشِّتَاءِ الْمَاضِي عِشْرِينَ طِفْلًا مِنَ الْوِلْدَانِ وَالْوَلَائِدِ مُخَالِفَةً فِي ذَلِكَ سُنَّةَ الْأَمِيرَةِ «دِيكَارْبَانِيَاس» فَإِنَّهَا كَانَتْ تُشَخِّصُ فِي بَيْتِهَا الْقِصَصَ الْهَزْلِيَّةَ وَتَأْمُرُ بَوَّابَهَا بِأَنْ لَا يُدْخِلَ أَحَدًا؛ وَسَبَبُ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ

(١) تنسيقها : ترتيبها .

أَنِّي أَعْتَقِدَ أَنَّ الإنْسَانَ لَا يُمكِنُهُ أَنْ يَلتَذَّ بِشَيْءٍ مِنْ مُرَوِّحَاتِ النَّفْسِ إلَّا إذَا كَثُرَ عَدَدُ حَاضِرِيهَا وَأَنَّهُمْ إذَا كَانُوا أَطْفَالًا تَكُونُ الاسْتِفَادَةُ أَعْظَمَ وَالنَّفْعُ أَتَمَّ .

إبْتَدَأْتُ التَّمْثِيلَ بِعَرْضِ أَشْيَاءَ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ كَدَاخِلِ ضَيْعَةٍ أَوْ طَاحُونٍ، وَالْمَعِيشَةِ فِي سَفِينَةٍ، ثُمَّ مَثَّلْتُ هَـذِهِ السَّفِينَةَ فِي يَوْمٍ آخَرَ وَقَدْ نَقَلَتْنَا إلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ وَكَانَ أَبْعَدُهَا عَنْ أَخْلَاقِنَا وَعَوَائِدِنَا أَدْعَاهَا الَى إثَارَةِ الاسْتِغْرَابِ وَتَهْيِيجِ الشَّوْقِ فِي نُفُوسِ النَّظَّارَةِ (١) الصِّغَارِ فَكَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْا بُيُوتًا بُنِيَتْ عَلَى خِلَافِ طَرِيقَتِنَا فِي الْبِنَاءِ وَشَوَارِعَ وَسَاحَاتٍ وَرَحَبَاتٍ عَامَّةً فِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ غَرِيبُو الأَزْيَاءِ وَالْهَيْئَاتِ وَكَانَ فِيمَا عَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ صُورَةُ صَيْدِ الْحَيَوَانَاتِ الْوَحْشِيَّةِ خُصُوصًا أَضْخَمِهَا وَأَضْرَاهَا (٢) كَالْفِيلِ وَفَرَسِ الْبَحْرِ وَالْكَرْكَدَنِّ وَالأَسَدِ وَالنَّمِرِ فَلَمْ أَعْدَمْ مِنْهُمْ تَحَمُّسًا فِي الدَّهَشِ وَالإعْجَابِ بِهَا، ثُمَّ أَرَيْتُهُمْ قَافِلَةً تَجُوبُ الصَّحْرَاءَ فَشَاقَهُمْ مَنْظَرُهَا كَثِيرًا، وَلَقَدْ كَفَتْنِي هَـذِهِ التَّجَارِبُ فِي الاقْتِنَاعِ بِأَنَّ فِي فَانُوسِيَ السِّحْرِيِّ عَزِيمَةَ « يَا سِمْسِمَةُ انْفَتِحِي » (٣) وَأَنِّي إنْ لَمْ أَسْتَعِنْ بِهِ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَجْهُولَاتِ لِأَصْدِقَائِي الأَحْدَاثِ كُنْتُ مُخْطِئَةً مَلُومَةً .

يَتَشَوَّفُ الأَطْفَالُ كَثِيرًا إلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَكَوُّنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالصُّخُورِ وَتَتَشَوَّقُ نُفُوسُهُمْ إلَى مَعْرِفَةِ طَرِيقَةِ نُشُوءِ جَمِيعِ مَا يُشَاهِدُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ آذَنْتُ جَمَاعَةَ النَّظَّارَةِ جَهْرًا بِأَنَّنَا سَنُمَثِّلُ عَلَى الدَّوَامِ قِصَّةً ذَاتَ بَهْجَةٍ وَجَلَالٍ مُؤَلَّفَةً مِنْ عِدَّةِ فُصُولٍ تُسَمَّى تَارِيخَ الأَرْضِ .

(١) النظارة هم المتفرجون . (٢) أضراها : أكثرها اعتيادا للصيد وخبرة به .

(٣) ياسمسمة انفتحى عزيمة سحرية خرافية لفتح الابواب المقفلة ذكرت فى كتاب ألف ليلة وليلة .

استعنت عشية هذا التمثيل بجميع ما فى الفانوس من قوة الاستعداد وبصور اعتمد فى رسمها على آراء علماء طبقات الأرض من الإنجليز وبقليل ما حصلته من العلم بمطالعة الكتب، واستقر رأيى على أن أجعل فى التمثيل لفواعل الكون وقوى الطبيعة لسانا تفصح به عن الحقائق والحوادث وهو تجوز يمكن أن يسمح به فى الغناء والتلحين الشعرى ، على أنه لم يكن المقصود من ذلك قرض الشعر بحال بل كان الغرض منه إيضاح ما لم تكف آثار الضوء والألوان المتنوعة فى إظهاره على الحجاب إظهارا تاما بعبارات فى غاية السهولة ، مثال ذلك أن أقول للنظارة: أتدرون ماذا كان يقول المحيط الذى هو أصل الأشياء لما غمر سطح عالم لم أزهقت روحه مياهه ؟ الحق أقول إنى لم أقف على كلامه بل إخال أنه كان يدعو الحياة دعاء الأنبياء ويسألها أن تزيل الوحشة من أعماقه المظلمة ولججه القاحلة .

ولا غرو فقد بدا فى أشعة الضوء السحرى أقدم ما عرف من أشكال الحيوانات كالأودامية (١) والنجولة (٢) والأورتوسيراتيت (٣) طاغية البحار السيلورية (٤) والتريبوليت (٥) وغيرها من مخلوقات الكون الأولى التى رسمت صورها اعتمادا على بقاياها الأثرية أو على ما انطبع على الصخور من تلك البقايا .

(١) الأودامية حيوان هلامى من المكونات الأولى توجد آثاره ولا تعرف أخباره .

(٢) النجولة حيوان رخو ذو محارة مخروطية مستطيلة يشمل جنسه عدة أنواع بادت ولم تبق الا آثارها وأعضاء الحركة فى هذا الحيوان توجد فى رأسه .

(٣) الأورتوسيراتيت حيوان هلامى رخو يقوم فيه الذراعان مقام الرجلين ، محارته ذات فلقتين ، يشمل جنسه على عدة أنواع بعضها عائش و بعضها بائد فلم يبق الا آثاره .

(٤) السيلورية نسبة الى بلاد السيلور وهم أقوام كانوا يقطنون الغال فى بريطانية العظمى .

(٥) التريبوليت حيوان رخو محارته ذات فلقتين .

ثُمَّ تَلَا ذَلِكَ ظُهُورُ أَوَّلِ أَرْضٍ انْحَسَرَ عَنْهَا الْمَاءُ فَنَهَدَتْ عَلَى سَطْحِهِ، وَكَانَتْ طَوَائِفُ مِنَ الْجُزُرِ كَانَ يُخَيَّلُ لِلنَّظَّارَةِ بِوَاسِطَةِ الْمُغَالَطَةِ الْبَصَرِيَّةِ أَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ الْأَعْشَابَ الْبَحْرِيَّةَ تَنْبُتُ مِنْهَا وَذَلِكَ كَالسِّيجِيلَّارِيَةِ (١) وَالِاسْتِجْمَارِيَةِ (٢) وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمُثُلِ الْأَصْلِيَّةِ لِلنَّبَاتَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَلَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَنَاظِرِ هِيَ صُوَرٌ فِي نِهَايَةِ الْحَقَارَةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا تُمَثِّلُهُ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْكُبْرَى لِلْكَوْنِ فِي عَصْرِهِ الْأَوَّلِ، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا — كَانَ قَدْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَشْهَدَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ — حَضَرَ فِي مَعْهَدِ تَمْثِيلِ تِلْكَ الصُّوَرِ لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَضْحَكَ مِنْهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَشْبَاحَ لَاعِبٍ، وَلَكِنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ ذِهْنِ هَذَا السَّاخِرِ أَنَّ هَذَا التَّمْثِيلَ إِنَّمَا جُعِلَ لِلْأَطْفَالِ، وَأَنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ هُوَ تَعْلِيمُهُمْ وَهُوَ غَرَضٌ جَلِيلٌ يَجِبُ الْإِغْضَاءُ عَنْ حَقَارَةِ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الْوَسَائِلِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ.

كَانَ يَتْلُو كُلَّ عَصْرٍ مِنْ عُصُورِ تَارِيخِ الْأَرْضِ فَتْرَةُ جَهَالَةٍ عَمْيَاءَ وَسُكُوتٌ عَامٌّ كَانَ يَدُلُّ — كَمَا نَبَّهَتِ النَّظَّارَةَ إِلَيْهِ — عَلَى اشْتِغَالِ الدَّهْرِ بِعَمَلِهِ الْبَطِيءِ الْخَفِيِّ (٣).

ظَهَرَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنَ الْقِصَّةِ سِلْسِلَةُ مَنَاظِرَ مُخْتَلِفَةٍ آذَنَتْ بِحُصُولِ بَعْضِ الْحَوَادِثِ الْكُبْرَى عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، مِنْهَا أَنَّ جُزُرًا نَتَأَتْ مِنَ الْمَاءِ وَتَوَاصَلَتْ

---

(١) السيجيلارية نوع من النباتات البائدة التى لا يوجد منها الا آثارها يحتوى على نحو ستين صنفا ويوجد فى الطبقات الفحمية من الأرض. (٢) الاستجمارية نوع آخر من تلك النباتات.

(٣) جرت هيلانة فى نسبة نشوء المخلوقات وتكون الكائنات الى عمل الدهر على مذهب الفلاسفة الماديين الذى مبناه الأوهام والظنون وما هى الا صنع رب العالمين وابداع أحسن الخالقين وهيهات للعقل الذى لا يعرف كنه نفسهُ أن يدرى كيف نشأت «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا». وانما يدرك العقل منها شيئا من القوانين التى أودعت فيها لتجرى عليها فى نموها التدريجى واستحالاتها المستمرة.

فكانت بدايا تكوّن القارات المستقبلة ، ومنها أن ظهرت نباتات وحيوانات جديدة لم يكن عهد لها وجود في العالم إلى ذلك الحين . وأخص ما أثار دهش النظارة من تلك الحوادث وهاج إعجابهم دور ظهور الزواحف، وقد حملني ما رأيته من ذلك على اعتقاد أن بين طفولية الكون وطفولية الخيال مناسبة ومطابقة لما خلته من ارتياح نفوس تلاميذي الصغار لمشاهدة صور تلك المملكة الحيوانية البائدة ، فإني مثلت لهم الليبيرانتودون(١) وهو ضفدعة كالثور في الضخامة ، والأختوزيور(٢) ذا العين الهائلة ، والبليزيوزيور(٣) الذي عنقه كعنق الثعبان ؛ والميغالوزور(٤) فيل الزواحف الذي رأسه كرأس الضب ، والهيليوزور(٥) ذا الظهر الشائك، وصنوف الحيات الطيارة المسماة بالبترودا كتيل التي تشابه ذلك الوحش الخرافي ذا الأجنحة الذي وجهه وجه امرأة وجسمه جسم عقاب واسمه الهازلي، فأثارت دهشهم وإكبارهم لها بمقادير أجسامها الهائلة وقوة الدفاع فيها ثم تلاشت نوعا بعد نوع كما تتلاشى الأحلام .

كانت النظارة يعتقدون أن جميع هذه المخلوقات كانت عائشة على وجه الأرض لأني كنت أؤكد لهم ذلك بذمتي ، وكان هذا التأكيد مصدر استغراب

(١) الليبيرانتودون : هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانجليزي المسمى اوين بما عثر عليه من بقاياه .

(٢) الاختوزيور : نوع من الضب فني فلم تبق الا بقاياه .

(٣) البليزيوزيور : نوع آخر منه .

(٤) الميغالوزور : نوع ثالث منه أضخم من السابقة .

(٥) الهيليوزور : نوع من الزواحف الهالكة وجدت بقاياه في أرض انجلترة .

جَدِيدٍ لَهُمْ ، عَلَى أَنِّي مَا قَصَدْتُ إِضْلَالَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا التَّمْوِيهَ عَلَيْهِ بَلْ قَصَصْتُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيجَازِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَتِي إِيَّاهَا وَبَيَّنْتُ لَهُمْ مَا أَضَفْتُهُ مِنْ عِنْدِي إِلَى مَا عُرِفَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مِنْ تَرْكِيبِهَا وَتَارِيخِهَا ، وَلَوْ أَنَّ سَائِلًا مِنْهُمْ سَأَلَنِي عَنْ سَبَبِ انْمِحَائِهَا مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَأَعْضَلَنِي[1] سُؤَالُهُ ، عَلَى أَنِّي كُنْتُ أُجِيبُهُ : إِنَّا مَعَاشِرَ الْمَوْجُودَاتِ قَدْ زُجَّ بِنَا فِي مُحِيطِ الدَّهْرِ زَجًّا شَدِيدًا ، وَالدَّهْرُ كَمَا تَعْلَمُ مَنْشَأُ التَّقَلُّبِ ، وَقَدْ وُجِدَ فِي طَبَائِعِنَا الِاسْتِعْدَادُ لِجَمِيعِ مَا قُدِّرَ لَنَا مِنْ ضُرُوبِ تَصَارِيفِ الْحَيَاةِ وَاسْتِحَالَاتِهَا ، فَمَهْمَا كَانَ عُمُرُ الزَّوَاحِفِ الْقَدِيمَةِ طَوِيلًا فَلَا بُدَّ أَنَّهَا قَدْ مَرَّتْ بِمَا قُدِّرَ لِلْكَوْنِ مِنَ النِّظَامِ الْعَامِّ كَمَا كَانَتْ تَمُرُّ أَشْبَاحُهَا عَلَى الْحِجَابِ الْمُعَدِّ لِقَبُولِهَا .

آذَنَ الْفَصْلُ الثَّالِثُ مِنَ الْقِصَّةِ بِمَنَاظِرَ خَلَائِيَّةٍ اجْتَهَدْتُ فِي أَنْ أُمَثِّلَ فِيهَا آيَاتِ[2] الْعَصْرِ الَّذِي يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ فَجْرَ حَيَاةِ الْأَرْضِ الْحَالِيَّةِ (أَيوسين) ، وَظَهَرَ بَعْدَ الزَّوَاحِفِ الضَّخْمَةِ أَجْسَامُ الْحَيَوَانَاتِ الثَّدْيِيَّةِ كَالْمِيجَاتِيرِيُومِ[3] الْهَائِلِ ، وَالدِّينُوتِيرِيُومِ[4] مَارِدِ الْمَرَدَةِ فِي عَصْرِهَا ، وَالْمَسْتُودُونْتِ[5] كَبِيرِ الْحَيَوَانَاتِ الْبَائِدَةِ الصَّفِيقَةِ الْجُلُودِ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَمْ أَذْكُرْهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَغْرَبِهَا ، أَحْضَرَهَا سِحْرُ الْفَانُوسِ فَعَرَضَهَا عَلَى الْأَنْظَارِ بُرْهَةً ، ثُمَّ لَمَّا رَأَتْ أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ

---

(١) أعضلنى : غلبنى وأعيانى .

(٢) آيات : علامات .

(٣) الميجاتيريوم : نوع من الحيوانات الثدية انقرض وبقيت بقاياه .

(٤) الدينوتيريوم : نوع آخر منها أرقى من الفيل توجد بقاياه فى الأرض الرملية والحجرية .

(٥) المستودونت : نوع من الزواحف البائدة الهائلة .

لم يُخلق لها حتّى ما كانَ منهُ في حيّزِ الوهمِ والمغالطةِ لم تلبثْ أنْ لبّتْ دعوةَ العدمِ فزالتْ على التّعاقبِ كما بدتْ .

على أنّ ما تلا هذهِ العصورَ الأُولى منَ الاستحالاتِ والانقلاباتِ في النّباتاتِ والحيواناتِ الّتي كانتْ موجودةً فيها قدْ آذنَ بأنّ الأرضَ صائرةٌ إلى أحوالِ العصورِ الحاليّةِ فأنشأَ الأطفالُ يتدرّجونَ في الشّعورِ بأنّهمْ في أرضٍ يعرفونَها معَ ما كانَ لا يزالُ يوجدُ منَ التّباينِ بينَ ما فيها وبينَ ما يعرفونهُ منْ أرضِهمْ ، كانتْ تتجلّى أمامَهمْ غاباتٌ تقاربُ أشجارُها أشجارَ غاباتِنا تجولُ فيها أيائلُ(١) ضخمةُ الأجسامِ تعدو وراءَها السّباعُ الّتي لا يزالُ نسلُها يفترسُ فرائسَهُ إلى اليومِ في الصّحارى والقفارِ .

لمْ يكنِ البردُ إلى ذلكَ الحينِ قدْ كدّرَ صفاءَ هذهِ المشاهدِ الّتي كانَ يسبحُ فيها ضوءُ الشّمسِ ممزوجًا بحرارتِها القويّةِ . ولكنْ في آخرِ العشيّةِ بدتْ تباشيرُ الثّلجِ فكانَ لها مناظرُ محزنةٌ متعاقبةٌ استعنتُ في إبرازِها للعيانِ بكلِّ ما في فانوسي منْ قوّةِ الاستعدادِ ، ففهمَ منها النّظّارةُ أنّ حيواناتِ العصورِ الأولى قدْ أهلكتْها هذهِ المؤثّراتُ المبيدةُ أوْ أنّها أوتْ إلى أقاليمَ أخرى أشدَّ حرارةً منْ أقاليمِها الأُولى ، وكانَ صاحبُ السّلطانِ على هذهِ الأقاليمِ الباردةِ هوَ الوعلُ(٢) القطبيُّ والفيلُ ذو الفروةِ المسمّى بالمَموثِ ، وكانَ يُخيّلُ للأطفالِ أنّ الأرضَ صائرةٌ إلى الفناءِ ، وخلتُني أطالعُ في عيونِ أكثرِهمِ التفاتًا آياتِ القلقِ والحيرةِ ولمْ أرَ منَ الضّروريّ أنْ أسرّيَ عنهمْ هذا القلقَ فقدْ تكلّفتْ ذلكَ الحوادثُ ، أستغفرُ اللهَ بلْ صورُ الحوادثِ .

(١) الأيائل جمع أيل وأيل وهو ذكر الوعل .

(٢) الوعل : تيس الجبل .

بدت أمامهم مغارة نحتتها يد الفطرة فى سُمك الصخور . فكانت ملجأ أوت إليه الحيوانات الوحشية كالدب والضبع الذى هو نوع من الكلب وغيرها من النزلاء التى ترجع فى نسبها إلى أنواع من الحيوانات قد أصبحت اليوم مستأنسة . ثم ظهر لهم خلق جديد هو عجيبة الكون ذلك هو الإنسان ، رأوه على ضوء نار أوقدها لنفسه فى جانب منزل من الأرض وهو شبه حى (١) عرف كيف يختطه لنفسه . فليت شعرى ما هو ذلك الخلق ؟ ومن أين هو ؟ لا شك أن مثل هذين السؤالين هما من الأسئلة المعضلة التى يحار الإنسان فى الجواب عنها والمناقشة فيها أمام أطفال لا تتسع عقولهم لها ، على أنى لست متثبتة فى العلم بالإجابة عنهما ، من أجل ذلك رأيت من الحزم أن أطفئ فانوسى وأكف عن الخوض فيهما .

إجابة لطلب جميع النظارة — كما يقال فى إعلانات معاهد التمثيل — قد استعد معهدنا لإيجاد عدد عظيم من المشاهد ستمثل فى قصتنا .

عقدت النية على الاستمرار فى دروس التمثيل هذه وعلى أن أحكى لأصدقائى الأحداث بواسطة الفانوس تاريخ الإنسان ومغالبته لفواعل الكون وما اتخذه من آلات صيده وأدوات عمله الأولى وتجاربه الصناعية مذ كانت الصناعة فى مهد طفوليتها ، ثم أبين لهم بعد ذلك بهذه الطريقة عينها ما عرف من المجتمعات القومية والعوائد القديمة وآثار الفنون الأولى ، فإنى أرى أنه لا شىء إلا ويمكن أن يفهمه الأطفال على شرط اطلاعهم على كل ما تحدثهم به من الأشياء والتزول معهم فى التعبير إلى الحد الذى تطيقه أذهانهم .

(١) الحى محلة القوم التى يقيمون فيها .

لَسْتُ أَغْبَى(١) عَنْ قِيمَةِ صِنَاعَةِ رَسْمِ الْأَشْبَاحِ وَلَا أَجْهَلُ مَا تُسَاوِيهِ تِلْكَ الْأَلَاعِيبُ الْخَيَالِيَّةُ، وَلَا خَفَاءَ فِي أَنِّي لَا أَدَّعِي أَنِّي إِذَا اسْتَعْرَضْتُ أَمَامَ «إِمِيلَ» بَعْضَ الصُّوَرِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ وَالنَّاسُ فِي عُصُورِهِمُ الْقَدِيمَةِ أَكُونُ قَدْ عَلَّمْتُهُ عِلْمَ الطَّبَقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ أَوْ عِلْمَ التَّارِيخِ، وَأَنِّي أَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الصُّوَرِ السِّحْرِيَّةِ لَا تَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ أَثَرُهَا مِنْ أَذْهَانِ الْأَطْفَالِ كَمَا يَزُولُ مِنْ حِجَابِ الْفَانُوسِ، وَلَكِنْ كُلُّ هَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ يُخْشَى أَنْ يَثْبُتَ فِي أَذْهَانِهِمْ صُورَةٌ أَوْ صُورَتَانِ، فَإِنْ تَمَّ ذَلِكَ رَجَوْتُ لَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْكَوْنِيَّةِ أَوْ مِنْ مُدَارَسَةِ الْكُتُبِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْ تَعْلِيمِهِمْ فِي الصِّغَرِ أَنْ يُحَصِّلُوا الْعِلْمَ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رُوحَ الشَّوْقِ وَالْمَيْلِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ. اهـ

الرسالة السابعة والثلاثون

مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فى ١٤ يوليو سنة ١٨٥

« بَقِيَّةُ أَخْبَارِ السَّفِينَةِ الْغَرِيقَةِ وَسُرْعَةُ تَفَاهُمِ الْأَطْفَالِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْكَلِمِ »

لَقَدْ زَهَا «إِمِيلُ» بِالْمَكْتُوبِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيْهِ وَأُعْجِبَ بِهِ إِعْجَابًا كَثِيرًا. وَكَانَ فِيمَا رَأَيْتُهُ شَدِيدَ الْحَنَقِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْ قِرَاءَتِهِ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ عَلَى انْتِظَارِهِ بُلُوغَ أَهْلِيَّةِ التَّرَسُّلِ قَدْ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ بِمَا لَقِفْنَاهُ مِنْ أَخْبَارِ حَادِثَةِ الْغَرَقِ بَعْدَ الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ فَأَقُولُ: قَدِ ابْتُلِيَ مَلَّاحُوا السَّفِينَةِ بِضُرُوبِ الْمِحَنِ وَأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ

---

(١) غبى عن الشيء لم يفطن له .

ثم اخترمتهم[١] المنية فلم تبق منهم إلا واحدًا أنسًا يستجم ويستجمع ما تبدد من قواه، وتيسر التفاهم معه بواسطة ربان اسبانيولى يعرف لغته، ومما استفيد من أقواله أن السفينة الغريقة المسماة (أياكوكو) كانت لرجل من الملاحين فى بلاد البيرو[٢] شحنها بضاعة وقصد بها انجلترة، فما هو إلا أن أحاطت بها ريح عاصف من أشد ما يمكن تخيله من العواصف فأغرقتها، ومما يوجب الأسف أن غرق ذلك الرجل مما لا سبيل للريب فيه، وقد كان استصحب بنته وهى فى الخامسة من عمرها لأسباب لا تزال فى طى الخفاء. وكان من فى السفينة يدعونها « لولا » وهو اسم مختزل فيما أظن من دولوريس .

عهدت إلى بعض الناس هنا بمراسلة أهل الفتاة فى بلدهم ولما يجبه أحد منهم، ويقول الملاحون إنها فقدت والدتها من بضع سنين وليس لها أخ ولا أخت ولم يبق من ذوى قرباها إلا أباعدهم، ويؤخذ من كلامهم أن صاحب السفينة كان من المثرين، ولكن ما أدرانا أن ثروته لم تكن إلا قصورًا فى إسبانية[٣] لأن البيرو هى إسبانية وراء البحار .

أثار سوء حظ هذه الفتاة فى نفسى عواطف الرحمة والحنان فأمسكتها حتى يأتينى فيها أمرك، وأنا على يقين من أن عملى هذا لا يقع منك إلا موقع الرضا .

---

(١) اخترمتهم أخذتهم .

(٢) بلاد البيرو جمهورية فى أمريكة الجنوبية عاصمتها ليمة وسكانها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس .

(٣) يشير بقوله قصورا فى إسبانية الى المثل الفرنسى المشهور وهو قولهم إن فلانا يبنى قصورا فى إسبانية يضربونه لمن يتعلل بالأمانى الباطلة ويحلم بادراك المقاصد الخيالية وقد مر ذكره .

نَعَمْ إِنِّي قَدْ لاحَظْتُ فِي أَحْوَالِهَا وَهَيآتِ أَفْعَالِهَا شَيْئًا مِنَ الْجَفَاءِ وَالْوَحْشَةِ ، وَلَكِنَّنِي أَرَى عَلَى هَذَا الْجَفَاءِ الصِّبْيَانِيِّ مِسْحَةً مِنَ الْحُسْنِ وَالطَّلَاوَةِ كَمَا أَنَّ وَجْهَهَا تَبْدُو عَلَيْهِ مَخَايِلُ الْجَمَالِ وَالنَّضْرَةِ وَهِيَ الْآنَ تُعَلِّمُ «إِمِيل» مَا تَعْرِفُهُ مِنَ الإِسْبَانْيُولِيَّةِ عَلَى قِلَّتِهِ وَهُوَ أَيْضًا يُعَلِّمُهَا الْفَرَنْسِيَّةَ وَالإِنْجِلِيزِيَّةَ ، وَلَا غَرْوَ فَإِنَّ الأَطْفَالَ يَتَفَاهَمُونَ بِالنَّزْرِ مِنَ الْكَلَامِ أَسْرَعَ مَا يَكُونُ . اهـ

الرسالة الثامنة والثلاثون

(مِنْ هَيْلَانَةَ الَى إِرَاسْمَ فِي ١٧ يوليه سنة ١٨٥)

تَعْلِيمُ السِّبَاحَةِ وَتَرْبِيَةُ الْعَضَلَاتِ

أَنَا مَعَ اشْتِغَالِي بِتَرْبِيَةِ عَقْلِ «إِمِيل» أَرَى أَنَّ أَخَصَّ مَا يَجِبُ الاشْتِغَالُ بِهِ فِي سِنِّهِ هَذِهِ أَنْ تُعَدَّ فِيهَا أَعْضَاءٌ سَلِيمَةٌ قَوِيَّةٌ لِاحْتِمَالِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَجِدُنِي أَحُثُّهُ عَلَى مُمَارَسَةِ الرِّيَاضَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالإِكْثَارِ مِنْ قَبْضِ عَضَلَاتِهِ وَبَسْطِهَا اخْتِيَارًا ، وَاقْتِحَامِ الْعَقَبَاتِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْ وُسْعِهِ اقْتِحَامُهَا . نَعَمْ إِنَّ لِي رَجَاءً قَوِيًّا فِي أَنْ لَا يَصِيرَ مِنَ الْمُصَارِعِينَ وَلَا أُحِبُّ أَنْ أَرَى فِيهِ مِثَالًا صَغِيرًا لِذَلِكَ الْمُصَارِعِ الشَّهِيرِ الْمَدْعُو «مِيلُونَ دُوكْرُتُونَ» وَإِنْ أُوتِيتُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَسَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ كُلَّ ضَعْفٍ يَلْحَقُ الإِنْسَانَ بَدَنِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا يَصِيرُ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ اسْتِعْبَادِهِ .

بَدَتْ عَلَى قَوِيبِيدُونَ مُنْذُ حِينٍ سِمَاتُ الْكَدَرِ لِكَوْنِ «إِمِيل» لَا يَزَالُ جَاهِلًا بِالسِّبَاحَةِ ، وَلَمَّا كَانَ يُفْضِي إِلَيَّ بِأَسَفِهِ مِنْ ذَلِكَ كُنْتُ أَعْتَرِضُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ

مِنْ حَدَاثَةِ السِّنِّ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْسِكَ نَفْسَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَهُوَ اعْتِرَاضٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ قِيمَةٌ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَا يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَ وُجُودِهِ فِي مَكَانٍ مَجْهُولٍ لَهُ هُوَ أَكْبَرَ الْعَوَائِقِ الَّتِي تُعَطِّلُ جَرْيَ حَرَكَاتِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَلَا يَكُونُ تَقَدُّمُهُ فِي السِّنِّ إِلَّا مِنْ أَسْبَابِ ازْدِيَادِ هَذَا الْخَوْفِ وَقُوَّتِهِ . وَالَّذِي يُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِ الزِّنْجِيِّ الْبَارِّ أَنَّهُ كَانَ يَسْبَحُ مِنْ عَهْدِ وِلَادَتِهِ، وَهُوَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَذْكُرُ تَعَلُّمَهُ السِّبَاحَةَ كَمَا أَنَّهُ لَا يَذْكُرُ تَعَلُّمَهُ الْمَشْيَ عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الرِّيَاضَةِ هُمَا فِي نَظَرِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْفِطْرِيَّةِ . انْتَفَتْ عَنِّي شُكُوكِي وَمَخَاوِفِي بِتَأْكِيدِهِ أَنْ لَا خَطَرَ عَلَى «إِمِيلَ» مِنْ تَعَلُّمِهِ ذَلِكَ الْفَنَّ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ مِنْ مَزَايَا تَعَلُّمِهِ إِنْمَاءَ الْعَضَلَاتِ وَتَقْوِيَتَهَا، وَكَأَنَّهُ يُوَسِّعُ مَجَالَ حُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي حَرَكَتِهِ وَمَرَحِهِ فِي بَرْزَخٍ يَصِلُ بَيْنَ عُنْصُرَيِ التُّرَابِ وَالْمَاءِ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ النَّجَاةِ وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَكُونُ تَعَلُّمُهُ فَرْضًا عَلَيْنَا لِأَنْفُسِنَا وَلِنُظَرَائِنَا، عَلَى أَنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ فِي قُوبِيدُونَ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ التَّهَوُّرُ فِي تَعْرِيضِ نَفْسِهِ لِلْخَطَرِ يَحْرِصُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى حَيَاةِ «إِمِيلَ» فَلَا يُعَرِّضُهَا لِمَا يُخْشَى مِنْهُ وَلَوْ سِيقَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا (١) .

يُوجَدُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَّا شِبْهُ بُحَيْرَةٍ صَغِيرَةٍ نَاشِئَةٍ مِنَ اجْتِمَاعِ مِيَاهِ غَدِيرٍ يَصْرِفُهُ عَنِ الْإِنْصِبَابِ فِي الْبَحْرِ مَا يَعْتَرِضُهُ مِنَ الشِّعَابِ (٢) وَالْكُثْبَانِ (٣)، رَآهَا قُوبِيدُونُ مُوَافِقَةً لِتَعْلِيمِ

(١) أصل الحذافير المتهيأون للحرب واشدد حذافيرك أى تهيأ وأخذ الشيء بحذافيره أى بأسره .

(٢) الشعاب جمع شعب بكسر الشين وهو الطريق فى الجبل .

(٣) الكثبان جمع كثيب وهو التل من الرمل .

« إميل » مبادئ السباحة فأنشأ يعلمه فيها غير متخذ له منطقة من الفلين ولا مثانة مملوءة بالهواء ولا غيرهما من الآلات الأخرى التي تستعمل أحيانا — إن لم أكن واهمة — لمساعدة قوى المبتدئين في السباحة ، ولما كان يقال له في ذلك كان يجيب بلسانه الساذج قائلا : يجب أن يكون الطفل فلينة نفسه ، وأرى أن طريقته في التعليم سهلة جدا على حسب ما تيسر لي من الحكم عليها ، فأهم شيء بنيت عليه هو بث روح الثقة في نفس المتعلم ، وقد أكد لي من رآه في وقت التعليم أنه من أجل أن يكون قدوة في ذلك لتلميذه كان يستلقي على ظهره في الماء ناظرا إلى السماء سادا فاه متنفسا بأنفه وقد برز جزؤه من الماء ، فكان لسان حاله وهو في هذا الوضع يقول لناظريه : ها أنتم أولاء ترون أن الانسان لا يصح أن يغرق ، وأنه إذا غرق بعض الناس فإنما يغرقون مختارين .

لم يلبث هذا الأستاذ أن أبدى كثيرا من التيه والفخر بتقدم تلميذه ، غير أنه كان يرمي في سبيل نجاحه إلى غاية أبهر من ذلك وأظهر ، فكنت أسمعه يهمهم متهكما بالسباحة في البحيرة قائلا : ما أحسنها سباحة في مغتسل ! دعيني من البحيرات وحدثيني عن البحر تجدي أذنا صاغية ، فهو الذي يمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه ، ولكني كنت أعارضه وأنهاه عن الذهاب « بإميل » إليه وعن تجربة سباحته فيه لما كان يخامر قلبي من الروع والفزع المنبعث عن المبالغة في توهم ما عسى أن يكون في ذلك من الأخطار ، لأني أكبر هذا الخلق العظيم وأجله إجلالا مشوبا بالروع ، فإنه كثيرا ما اغتال أناسا في نواحينا ، ولا بد أن

أقول : إنَّ «إميلَ» أيضًا كانَ يُشاركني في هذا الرَّوع بعضَ المُشاركة، فإنَّ البحرَ خَلْقٌ حَيٌّ مُضطرِبٌ يرتفعُ ويجذبُ السابحَ فيه اليه مُصطخبًا، وفي كلِّ صفيحةٍ مِن صفائحِ أمواجِهِ شخصٌ بل عدوٌّ لذلكَ السابحِ عاملٌ على إهلاكِه، وفي دوامِ روحاتِ هذه الأمواجِ وجيئاتِها ما يُمثِّلُ للإنسانِ اضطرابَ بحرِ الأزلِ بعوالمِ المخلوقاتِ ويقومُ له منه أكبرُ موعظةٍ وذكرى تنبهه إلى ضعفِه وعجزِه .

لم يطُلْ عهدُ نفورِ «إميلَ» مِن البحرِ وخوفِهِ منه، وها أنا ذا مبيّنةٌ لكَ السببَ الذي قمع(1) ذلكَ النفورَ وشرَّد(2) هذا الخوفَ فأقولُ :

إنَّه يفهمُ مِن سجنِكَ معنًى مبهمًا، ولم أُرِدْ أنْ أكشفَ له حقيقةَ هذا الأمرِ الذي يهيجُ الكلامُ فيه ساكنَ آلامي ويثيرُ كامنَ أشجاني لسببين : أولهما أنه يصعبُ عليه فهمُ مرادي مِن الكلامِ (فماذا عسى أنْ يفهمَه مِن قولي له إنَّ والدكَ سُجِنَ بسببٍ سياسيٍّ ؟) وثانيهما أنَّ سوءَ إدراكِه للحوادثِ التي حصلتْ قد يبعثُ في نفسِه بغضَ فرنسةَ وعداوتَها، لذلكَ تراهُ قد جرَّه إمساكي عن الخوضِ في هذه المسألةِ إلى أنْ يخترعَ لها حكايةً يعلِّلُها بها : فهو يتوهمُ أنكَ أسيرٌ في قبضةِ جنيَّةٍ أو غولٍ أو تنينٍ، وأنكَ رهينُ قلعةٍ يحصِّنُها البحرُ، وربما كانَ الباعثُ له على هذا وجودَه يومًا ما فوقَ صخرةٍ وغشيانَ المدِّ إياه وإحاطةَ الأمواجِ به إحاطةَ ذلكَ الكلبِ الخرافيِّ ذي الرؤوسِ الثلاثةِ المقولِ عنه في أساطيرِ الأولينَ بأنه حارسُ جهنمَ، ومهما كانَ الحاملُ على ذلكَ الاعتقادِ

(1) قمعه : ردعه وقهره . (2) شرده : طرده .

فإنه قد وطن نفسه على أن يحمل حملته الأولى لتخليصك مصاحباً لعزم كعزم أشراف المائدة المدورة[١] أو كعزم شاب باسل قتال للوحوش غلاب للأغوال، على أنى لا يسعنى إلا اتهام الزنجى الخبيث بأنه زين له أوهامه وحبب إليه خدع نفسه ليحمله على مشايعته فى آرائه وموافقته لأفكاره .

دخل على البيت كلاهما ذات يوم ووجه فو بيدون تعلوه فترة[٢] الريبة ، وقد غلب على «إميل» ما يغلب على كل ظافر بطلبته من الفرح، فلم ألبث أن فطنت إلى المكان الذى جاآ منه وهاج غضبى عليهما إلى حد أن صار وجهى أحمر كالجمر، وعنفتهما على مخالفتهما لأمرى، فلم يتزعزع «إميل» لهذا الهياج، بل تلقاه بثبات الشجعان، وأجابنى وقد بدا على وجهه من الإصرار ما لم أعهده من قبل، فقال: إنى أريد أن أتعلم السباحة لأفك والدى من أسره وآتيك به ، فما سمعت منه هذه الكلمة وشاهدت لحظه المعرب عن حرية ضميره وخلوص طويته ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة عن سذاجته وعلمت مقاصده النبيلة — حتى سكنت ثائرتى[٣] وكفت بادرتى[٤]، فبششت فى وجهه بعد العبوس وتبسمت له وضممته إلى صدرى وأشبعته تقبيلا فى جبينه الذى كان لا يزال مندى بماء البحر .

(١) أشراف المائدة المدورة هم رهط من الأشراف عددهم اثنا عشر يجعلهم كتاب القصص القديمة من رفقاء ارتوس وهو شجاع قصصى من شجعان بريطانية العظمى .

(٢) الفترة : الغبرة .

(٣) الثائرة : الشغب والضجة .

(٤) البادرة : ما يبدر من الانسان عند حدته من شتم ونحوه .

الرسالة التاسعة والثلاثون

من هيلانة إلى إراسم في ١٨ يوليو سنة — ١٨٥

إخباره بالعفو عنه

إذا صح ما نشرته الجرائد الإنجليزية وما ذاع من الإشاعات في الهواء لم تبق حاجة « لإميل » في أن يتسلح تسلح الأشراف ولا أن يطوى البحار ليخلصك من قبضة التنين (١) الذى يعتقد أنك في أسره — لأن الناس هنا يتكلمون بحصول عفو سياسي ، وإني كنت أتمنى أن يحصل لك من الحكومة فوق هذا العفو عمل يكون جزاء لما لحقك من الضرر وتحقيقا لمقتضى الإنصاف ، ولكني لم أطلب لك شيئا من ذلك فلا تعجل بالرفض واعلم أن قلبي يرقص طربا كلما فكرت في وقت التلاقي . اه

الرسالة الأربعون

من الدكتور وارنجتون إلى هيلانة

بشرى الحرية

أيتها السيدة .

علمت الليلة في لندرة خبرا أبادر بإبلاغك إياه : ذلك أن زوجك قد منح نعمة الحرية وفي الختام لك مني السلام والاحترام . اه

---

(١) التنين : الحوت ، والحية العظيمة .

الكتاب الثالث

(في اليافع)

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور إراسم

الشذرة الأولى

(حُررت في مرازيون في سنة — ١٨٥ الداخلة في سنة — ١٨٦)

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شئون حياتي كلها .

وجدتها هي بعينها[1] ولما تلاقينا كنا كأننا لم نفترق في حياتنا ، فإن النوى لم يغير شيئا من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلبينا على ما كانا عليه من الارتباط والاتحاد ، وغاية ما حدث أني أراني الآن آنس مني في جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها ، نعم إنها لم تبق طفلة كما عهدتها ولكنها لم تأخذ من مرور الأيام إلا ما يزيد المرأة في القلوب محبة وفي النفوس تأثيرا ، فكأن روحها وملامح وجهها تكملت وتطهرت بأدائها فروض الأمومة المقدسة .

كنت أوشكت أن أقنط من معرفتي لولدي ، ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن الذين هم أكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولادا أو رزقوهم

(١) يريد زوجته « أم اميل » .

وَحُرِمُوا مِنْ رُؤْيَتِهِمْ ، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ الْبَاعِثَ لَهُمْ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِالتَّرْبِيَةِ وَجَعْلِ الْبَحْثِ فِي شُؤُونِهَا غَايَتَهُمْ لِيُؤَدُّوا بِذَلِكَ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْأَدَاءِ .

فَلَيْتَ شِعْرِي بِمَاذَا اسْتَحْقَقْتُ أَنْ أَكُونَ أَسْعَدَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَعَ كَوْنِهِمْ أَجْدَرَ مِنِّي بِالسَّعَادَةِ ؟ .

مَا أَشَدَّنِي حُنُوًّا وَتَأَثُّرًا عِنْدَ تَقْبِيلِ وَلَدِي إِيَّايَ ! وَمَا أَعْظَمَ زَهْوِي وَإِعْجَابِي بِهِ عِنْدَ مَا آخُذُ بِيَدِهِ وَأَتَنَزَّهُ مَعَهُ فِي الْمَزَارِعِ وَإِنَّ الدُّنْيَا لَتُرَى فِي عَيْنِي جَدِيدَةً وَهُوَ مَعِي كَأَنْ لَمْ أَرَهَا مُنْذُ سَبْعِ سِنِينَ ، لَا جَرَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبْصِرُ وَهُوَ رَهِينُ السِّجْنِ مَحْرُومٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ ، فَكُلُّ مَا كُنْتُ أَرَاهُ مِنْ أَشْجَارٍ وَصُخُورٍ عَمَّرَتْ عُمْرَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا بِالْأَمْسِ .

خَطَرَ فِي ذِهْنِي سَاعَةً خَاطِرُ الْعَوْدِ إِلَى فَرَنْسَةَ وَلَكِنَّ أَلْفَ مَانِعٍ — وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ أَلْفَ وَهْمٍ — قَدْ تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ مَعِيشَتِهِ فِي وَطَنِهِ ، وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْمَوَانِعِ مَا يَعْتَرِينِي مِنَ الْأَلَمِ الْمُمِضِّ(١) الَّذِي لَا أَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ إِذَا رَأَيْتُ أُمَّةً عَظِيمَةً عَهِدْتُهَا حُرَّةً قَدْ أَصْبَحَتْ فِي قَبْضَةِ حَاكِمٍ ، وَجَمِيعُ مَا يَحْصُلُ فِي هَذَا الْوَطَنِ لَا يَقِلُّ عَنْ ذَلِكَ إِيلَامًا لِلْقَلْبِ وَلَا إِزْهَاقًا لِلنَّفْسِ .

يُوجَدُ فِي جَمِيعِ عُصُورِ التَّارِيخِ رِجَالٌ بَرَرَةٌ صَالِحُونَ رَأَوْا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَوْطَانِهِمْ أَنْ يَخْدُمُوا هَذِهِ الْأَوْطَانَ وَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْهَا ، فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ فِيمَا أَرَى أَشَدُّ حُبًّا لَهَا لِأَنَّهُمْ سَوَاءٌ قَرُبُوا مِنْهَا أَمْ بَعُدُوا عَنْهَا يَحْيَوْنَ

(١) الممض : المحرق .

بِنَفَحَاتِهَا وَيَنْتَعِشُونَ بِمُجَاهَدَاتِهَا فِى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَبِمَا لَهَا مِنَ الْآمَالِ فِى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، جَرْحَهُمْ فِى صَمِيمِ أَفْئِدَتِهِمْ مَا مَسَّ أُمَّتَهُمْ مِنَ الْقُرُوحِ وَإِنْ كَانَ يَبْدُو مِنْ حَالِ الْأُمَّةِ عَدَمُ شُعُورِهَا بِأَلَمِهَا كَأَنَّ فِى مُرُورِ الزَّمَنِ عَلَيْهَا وَاعْتِيَادِهَا احْتِمَالَهَا مِنْ قُوَّةِ التَّأْثِيرِ مَا يَكْفِى لِانْدِمَالِهَا (١) جَمِيعِهَا ، مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْمُتَطَوِّعِينَ بِالاغْتِرَابِ وَالنَّفْيِ يَلُومُونَ النَّاسَ وَحَوَادِثَ الدَّهْرِ وَلَكِنْ إِذَا حَاوَلَ مُحَاوِلٌ أَمَامَهُمْ أَنْ يَغُضَّ (٢) مِنْ كَرَامَةِ فَرَنْسَةَ وَيَحُطَّ مِنْ شَأْنِهَا اسْتَشَاطُوا (٣) غَضَبًا وَتَبَيَّغَ (٤) الدَّمُ فِى عُرُوقِهِمْ ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقِطْعَةَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِى تَنَازَلُوا عَنْ سُكْنَاهَا مُخْتَارِينَ قَدْ تَغَلْغَلَ حُبُّهَا فِى أَحْشَائِهِمْ وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ ، فَتَرَاهُمْ يَبْذُلُونَ الْوَطَنَ نَفْسَهُ فِى إِعْزَازِ شَأْنِ الْمَعْنَى الَّذِى قَامَ فِى أَذْهَانِهِمْ مِنْهُ وَيُفَضِّلُونَ الْحُكْمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْبُعْدِ عَنْهُ عَلَى رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ مُهِينًا ذَلِيلًا .

كَأَنِّى بِسَائِلٍ يَقُولُ : لِمَاذَا اتَّخَذْتَ هَذِهِ الْعَادَةَ وَهِىَ تَقْيِيدُ أَفْكَارِكَ وَمُذَكَّرَاتِكَ كُلَّ يَوْمٍ بِحَسَبِ الْمُصَادَفَةِ وَالاتِّفَاقِ؟ فَأُجِيبُهُ : إِنَّ هَذَا مَطْوِىُّ أَيَّامِ مَعِيشَتِى فِى السِّجْنِ أَنْشُرُهُ لِلنَّاسِ لِأَنِّى لَمَّا لَمْ يَكُنْ لِى فِيهِ أَنِيسٌ أُطَارِحُهُ الْحَدِيثَ كُنْتُ أَكْتُبُ كَأَنِّى أُرَاسِلُ نَفْسِى .

---

(١) اندمل الجرح تماثل وتراجع الى البرء

(٢) يغض : ينقص .

(٣) استشاطوا : التهبوا غضبا .

(٤) تبيغ الدم هاج وثار .

الشذرة الثانيـــة

تَعْلِيمُ الْمُسَمَّيَاتِ قَبْلَ الأَسْمَـاءِ

لَمْ تُخَالِفْ طَرِيقَتُهَا فِي تَرْبِيَةِ «إِمِيل» أَمَلاً مِنْ آمَالِي، فَلْتَبْقَ عَلَى مَا هِيَ بِسَبِيلِهِ مِنْ تَهْذِيبِهِ وَتَثْقِيفِهِ بِمَا تُقَدِّمُهُ لَهُ مِنَ الأُسَى[1] وَبِمَا تُوحِيهِ إِلَى نَفْسِهِ مِنَ الثِّقَةِ بِهَا، عَلَى أَنَّنَا مِنْ عَهْدِ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِاللِّقَاءِ رَأَيْنَا مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَقْسِمَ الْعَمَلَ بَيْنَنَا لأَنَّ التَّعْلِيمَ — إِنْ لَمْ أَكُنْ غَالِيًا فِي حُكْمِي — هُوَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ الأَبُ غَالِبًا وَأَمَّا التَّرْبِيَةُ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْمَالِ الأُمِّ وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَيْنَ نَحْنُ مِنْ قِيَامِ كُلٍّ مِنَّا بِعَمَلِهِ فَأَقُولُ :

لَمَّا يَدْرُسْ «إِمِيلُ» شَيْئًا دَرْسًا مُنْتَظِمًا فَهُوَ إِنَّمَا لَقِفَ[2] دُرُوسَهُ الأُولَى فِي عِلْمِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ مُتَفَرِّقَةً عَلَى نَحْوٍ مِنَ الإِتِّفَاقِ، وَذَلِكَ بِمُعَايَنَةِ مَا كَانَ يَجِدُهُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَارِ وَالصَّدَفِ، ثُمَّ إِنِّي أَمْكَنْتُهُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ مِنَ النَّظَرِ بِالْمِنْظَارِ الْمُعَظِّمِ (الْمِيكْرِسْكُوب) — وَهُوَ آلَةٌ شَائِعَةُ الاسْتِعْمَالِ جِدًّا عِنْدَنَا — مُحَرِّكًا أَجْزَاءَهُ بِنَفْسِي فَيُكَبِّرُ لَهُ بَعْضَ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الصِّغَرِ، وَأُرِيهِ بِالْمِرْقَبِ (التِلِيسْكُوب) وَهُوَ آلَةٌ أَرْصُدُ بِهَا النُّجُومَ لَيْلاً — عَجَائِبَ الْمَخْلُوقَاتِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الْكِبَرِ . وَقَدْ مَلأْنَا إِنَاءً مِنَ الزُّجَاجِ بِالْمَاءِ الْمِلْحِ وَوَضَعْنَا فِيهِ حَيَوَانَاتٍ هُلاَمِيَّةً وَحَيَوَانَاتٍ قِشْرِيَّةً وَأَسْمَاكًا وَكُنَّا نُجَدِّدُ مَاءَهُ كُلَّ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، وَمِنْهُ تَلَقَّى «إِمِيلُ» كُلَّ مَا عَرَفَهُ — فِيمَا أَرَى — مِنْ عِلْمِ حَيَاةِ

---

(١) الأسى جمع أسوة وهي ما يتأسى به أي يقتدى به .

(٢) لقف بكسر القاف تناول بسرعة .

الحيوانات التي تعيش في جوف البحر . وفي بعض الأحيان أكرر بمشهد منه بعض تجارب سهلة جدًّا في الكيمياء والطبيعة ، وهو على جهله باسمي هذين العلمين يدرك بعض الإدراك تأثير بعض الأجسام الفطرية في بعض . وفي ذات يوم رآني أصنع مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الإتقان في شيء بدا لي منه أنه أدرك استعمالها على الجملة لأني رأيته يريد محاكاتها . جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن .

لا بد أن أكون أنا « وإميل » تابعين في التعليم لمذهب أرسطاطاليس لأن أغلب درسنا يحصل في وقت التنزه ، فإني أدع لأمور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير إلا أن يكون إجابة عما يوجه إلي من الأسئلة مجتهدًا في أن يكون الشرح واضحًا والبيان وافيًا ، وقد عرفت من محاورته أن الوسيلة إلى إصغائه إلي هي تتبع سلسلة أفكاره عند محادثته . إن كثيراً ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الأطفال ليبالغون لهم في البيان ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة إلى أن يثبتوا بذلك لأنفسهم أنهم على معارف واسعة وعلوم جمة . أنا لا أعلم «إميل» شيئًا بل أتعلم منه ، فعوضًا عن كوني أعلمه طريقتي في النظر أجتهد في معرفة طريقته وتمييزها ، وما لا يميل إلى معرفته بحال أجهله مثله أو أتجاهله ، نعم إن هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الأستاذ في نظر تلميذه ، وإنه لا بد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن شهواته ، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الأطفال ليس هو إلا كرقم الألفاظ على الرمل .

مَلَكَةُ الْبَحْثِ عِنْدَ الطِّفْلِ هِى كَغَيْرِهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ تَنْمُو بِالاعْتِيَادِ وَالْمِرَاسِ فإنَّ الشَّوْقَ إِلَى مَعْرِفَةِ الأَشْيَاءِ يَتَوَلَّدُ فِي الْإِنْسَانِ وَلَا يُولَدُ مَعَهُ، وَإِنَّمَا يُكْتَسَبُ ذَوْقُ الْمُلَاحَظَةِ الاِسْتِقْلَالِيَةِ بِالْمُلَاحَظَةِ نَفْسِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أُعِينَ تَنَبُّهَ «إِمِيلَ» وَالْتِفَاتَهُ بِأَنْ أُرِيَهُ مَا لَا يَرَاهُ فِي الأَشْيَاءِ لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ إِلَيْهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مَصْدَرَ الْمَيْلِ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ صُدُورُ هَذَا الْمَيْلِ مِنْهُ فِطْرِيًّا، ثُمَّ إِنَّ الأَطْفَالَ على الْجُمْلَةِ مَدْفُوعُونَ جِدًّا بِسَائِقِ الطَّبْعِ إِلَى الإِكْثَارِ مِنَ السُّؤَالِ، فَرَأْيِي أَنَّ التَّعْجِيلَ لَهُمْ بِالْجَوَابِ قَبْلَ السُّؤَالِ وَتَجَاوُزَ حُدُودِ مَا يَطْلُبُونَ مَعْرِفَتَهُ هُوَ مِمَّا تَخْبُو(١) بِهِ نَارُ هَذَا الاِسْتِعْدَادِ الْمُبَارَكِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُفْضِى بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى الْتِزَامِ السُّكُوتِ لِيَكْفُوا أَنْفُسَهُمْ مُؤْنَةَ سَآمَةِ الدَّرْسِ وَطُولِهِ اهـ .

الشـــذرة الثالثة

(تَرْبِيَةُ الذُّكُورِ مَعَ الإِنَاثِ وَتَعْلِيمُهُمَا مَعًا)

إِنِّى أَخْشَى مَغَبَّةَ إِفْرَاطِى وَإِفْرَاطِ هِيلَانَةَ فِي مَيْلِنَا إِلَى تِلْكَ الصَّبِيَّةِ الَّتِي أَلْقَتْهَا الْعَاصِفَةُ بَيْنَ أَيْدِينَا لِجَوَازِ أَنْ يَطْلُبَهَا بَعْضُ ذَوِى قُرْبَاهَا يَوْمًا مَا، وَكَيْفَمَا كَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا الْمَيْلِ فَلَا بُدَّ لِى هُنَا مِنْ إِثْبَاتِ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ تَرْكِيبِ الْانْسَانِ وَمَنَافِعِ أَعْضَائِهِ فَأَقُولُ : كَانَتْ دُولُورِيسُ لَمَّا الْتَقَطْنَاهَا وَآوَيْنَاهَا إِلَى بَيْتِنَا مَحَلًّا لِجَمِيعِ الْعُيُوبِ الَّتِي تُوجَدُ فِي نَظَائِرِهَا اللَّاتِي مِنْ قَبِيلِهَا وَبِلَادِهَا .

---

(١) خبت النار تخبو سكنت وخمدت .

كانت مع ظرافتها مكسالا (١) وانية (٢) قليلة العناية بشأن نفسها، وإن كان لا بد من التصريح قلت إنها كانت كثيرة الوساخة، وكان هذا الإغفال منها لنفسها مع مقدار عظيم من التغنج (٣) والتدلل من موجبات كدر هيلانة وحزنها، ولم ينجح فى الكسر من زهوها والطأمنة (٤) من صلفها (٥) ما اتخذته لذلك من العظات وضروب التوبيخ وأنواع الإيلام الخفيفة. ولما كان فيها من حدة المزاج بل والتهيج عند مخالفتها فيما تريد كانت لا تبدى أدنى اشتهاء للتعلم. أفرغت هيلانة جهدها فى إيقاظ عقل هذه الحسناء ناعسة الغابة (٦) من سباته فأخفق مسعاها وبطل أثر ما استعملته من التعاويذ والطلسمات لرد هذا السحر الذى لا يدرى أية جنية خبيثة من جنيات البيرو رمتها

(١) المكسال والكسول نعت للجارية المنعمة التى لا تكاد تبرح من مجلسها .

(٢) الوانية : الفاترة البطيئة .

(٣) التغنج : التشكل والتدلل .

(٤) الطأمنة : التخفيض والتسكين .

(٥) الصلف : ادّعاء المرء ما ليس عنده تكبرا .

(٦) يلمح المؤلف بقوله «هذه الحسناء ناعسة الغابة» الى أسطورة من أساطير الكاتب الفرنسى شارل بيرولت المسماة حكايات الجن ملخصها أن أحد الملوك وزوجته ابتليا بالعقم مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسناء فجعلاها فى كفالة سبع جنيات وأولما لهن وليمة أعدا فيها لكل واحدة منهن صحفة فاخرة لها كيس من الذهب الخالص فيه ملعقة وشوكة وسكين من الذهب أيضا وفى أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية عجوز ثامنة لم يكن حضورها فى الحساب فقدمت لها صحفة بلا كيس فظنت ذلك احتقارا لها فخافت احدى الجنيات أن تسيء الى هذه المولودة فخرجت ثم ان كلا من الأخريات منح المولودة صفة جميلة ما عدا العجوز فانها قالت : ان الفتاة ستخرق يدها بمغزل وتموت فجاءت التى كانت خرجت وقالت : انها لاتموت ولكن يغشاها النعاس مائة سنة ولا يوقظها الا ابن ملك من الملوك ثم اتفق أن الفتاة رأت مغزلا فى يد عجوز فتناولته فخرق يدها فسقطت نائمة ثم نقلت الى قصر لوالدها فى غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك فتزوجها . المترجم .

بِهِ عَلَى مَا يَظْهَر ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعلم مَنِ الَّذِى أَبْطَلَ هَذَا السِّحْرَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ «إميل» ذَلِكَ لِأَنَّ مَيْلَ « لولا » إِلَى أَنْ تُعجِبَهُ وَأَنْ تَتحامَى ضُرُوبَ سُخْرِيَتِهِ بِهَا وَأَنْوَاعَ زِرَايَتِهِ عَلَيْهَا — كَانَ أَشَدَّ تَأْثِيرًا فِى إِرَادَتِهَا مِنْ جَمِيعِ عِظَاتِنَا وَنَصَائِحِنَا .

كَانَ هَذَا أَوَّلَ سُلْطَانٍ «لإميل» عَلَى قَلْبِهَا وَلَا خَطَرَ فِيهِ فِى سِنِّهِمَا .

مِنْ ذَلِكَ الحِينِ وَقَعَ التَّنَافُسُ بَيْنَهُمَا ، أَمَّا مِنْ جِهَتِهِ فَلِشِدَّةِ زَهْوِهِ وَفَخْرِهِ بِمَا لَهُ مِنَ التَّقَدُّمِ عَلَيْهَا فِى عُلُومِهِ القَلِيلَةِ ، وَأَمَّا مِنْ جِهَتِهَا فَلِغَيْرَتِهَا وَرَغْبَتِهَا فِى مُنَازَعَتِهِ ذَلِكَ التَّقَدُّمَ ، وَالمَرْجُوُّ مِنْ هَذَا التَّنَافُسِ أَنْ يَعُودَ دَائِمًا بِالفَائِدَةِ عَلَى كِلَيْهِمَا فَإِنَّ دَرْسَهُمَا مُجْتَمِعَيْنِ أَحْسَنُ وَأَتْقَنُ مِنْهُ مُنْفَرِدَيْنِ لِأَنَّهُ إِذَا اعْتَبَرَ « إِمِيلُ » نَفْسَهُ أَعْلَمَ مِنْ «لُولَا» اجْتَهَدَتْ هِىَ فِى التَّبْرِيزِ عَلَيْهِ فِى مَيْدَانِ المُطَالَعَةِ .

أَرَى أَنَّ هَذِهِ الصُّحْبَةَ تُفِيدُهُمَا فِى أَخْلَاقِهِمَا أَيْضًا فَائِدَةً كُبْرَى فَإِنَّ الأَطْفَالَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِمَا يَشْتَرِكُونَ فِيهِ مِنَ العُيُوبِ ، وَلَا يُبْقِى(١) بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى تَشْهِيرِهَا وَتَعْيِيرِهِ إِيَّاهَا ، لِذَلِكَ تَرَى « إِمِيلَ » قَلَّمَا يُوَقِّرُ «لُولَا» فِيمَا يَرَاهُ مِنَ النَّقَائِصِ ، وَهِىَ أَيْضًا لَا تُقَصِّرُ فِى أَنْ تَكِيلَ لَهُ الصَّاعَ بِمِثْلِهِ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ فِى هَذِهِ المُشَاغَبَاتِ الخَفِيفَةِ مَا يُكَدِّرُ صَفْوَ مَوَدَّتِهِمَا الشَّرِيفَةِ فِى شَىْءٍ ، وَكَأَنِّى بِقَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ المَزَايَا بِعَيْنِهَا تُوجَدُ فِى مُعَاشَرَةِ الأَخِ لِأُخْتِهِ وَوُجُودِهِمَا مَعًا ، فَأُجِيبُهُ بِأَنِّى فِى شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ لِعَدَمِ تَمَامِ الشَّبَهِ فِى الجِهَتَيْنِ .

---

(١) أبقى عليه : رعى عليه ورحمه .

زُرْتُ فِيما مضى مَدْرَسَةً لِلصُّمِّ وَالْبُكْمِ كَانَتْ تَنْقَسِمُ فِى أَوَّلِ نَشْأَتِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلذُّكُورِ وَالآخَرُ لِلإِنَاثِ ، فَلَمْ تَلْبَثْ التَّجْرِبَةُ أَنْ كَشَفَتْ عُيُوبَ هَذَا التَّقْسِيمِ فَإِنَّ الصَّبَايَا اللاتِى كُنَّ مَقْصُورَاتٍ فِى قِسْمِهِنَّ كَانَ يَبْدُو عَلَيْهِنَّ التَّأَخُّرُ عَنِ الْغِلْمَانِ سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْغِلْمَانُ أَنْفُسُهُمْ بَارِعِينَ فِى التَّقَدُّمِ وَالنَّجَاحِ ، فَخَطَرَ فِى بَالِ الْقَائِمِينَ عَلَى الْمَدْرَسَةِ أَنْ يَجْمَعُوا الْفَرِيقَيْنِ فِى غُرَفٍ وَاحِدَةٍ فَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا التَّغْيِيرِ مَحْمُودَةً ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْضِ إِلَّا يَسِيرٌ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى زَالَ تَأَخُّرُ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ وَانْحِطَاطُهُ عَنِ الآخَرِ وَتَقَدَّمَ الآخَرُ تَقَدُّمًا لا نِزَاعَ فِيهِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعُجْبَ الَّذِى هُوَ خُلُقٌ فِطْرِيٌّ فِى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى ، وَالطَّمَعَ الَّذِى هَاجَهُ فِى نُفُوسِ الْغِلْمَانِ وُجُودُ مُنَافِسَاتٍ زَاهِيَاتٍ بِأَنْفُسِهِنَّ بَيْنَهُمْ وَاهْتِمَامُهُمْ بِأَنْ يَظْهَرُوا فِى أَعْيُنِهِنَّ مُمْتَازِينَ عَنْهُنَّ ، كُلُّ ذَلِكَ سَاعَدَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى ازْدِيَادِ دَرَجَةِ مَعَارِفِهِمْ فِى دُرُوسِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ التَّلَامِيذَ الأَوَّلِينَ لَمْ يَتَغَيَّرُوا وَإِنَّمَا ظَهَرَ أَنَّ قُوَاهُمْ تَضَاعَفَتْ . لِمَاذَا لَا يَصِحُّ فِى حَقِّ النَّاطِقِينَ وَالنَّاطِقَاتِ مَا صَحَّ فِى حَقِّ الصُّمِّ الْبُكْمِ ؟

إِنَّمَا يُعَارِضُ الْقَائِمُونَ عَلَى تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ فِى الْجَمْعِ بَيْنَ الذُّكُورِ وَالإِنَاثِ بِحُجَّةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الأَخْلَاقِ وَالآدَابِ ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُعَارَضَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى سَبَبٍ صَحِيحٍ لَكَانَتْ وَجِيهَةً سَدِيدَةً ، وَلَكِنْ لا بُدَّ أَنْ نُجِيبَ هَؤُلَاءِ الْمُعَارِضِينَ بِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ أَحَدٌ الْبَتَّةَ فِى جَمْعِ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ فِى قَاعَاتِ النَّوْمِ الْعَامَّةِ وَلَا شَكَّ أَنَّ تَقْسِيمَ مَحَالِّ الْمَدْرَسَةِ وَأَفْنِيَتِهَا وَالرِّيَاضَاتِ الْمَدْرَسِيَّةِ بِالْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ يُجَنِّبُ كَثِيرًا مِنَ الْمَضَارِّ الَّتِى يُخْشَى مِنْهَا عَلَى الآدَابِ وَالأَخْلَاقِ .

عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الْعَقْلِيَّ إِنَّمَا جُعِلَ لِتَذْلِيلِ الْغَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ الْخَبِيثَةِ وَقَمْعِهَا لَا لِتَنْبِيهِهَا وَتَقْوِيَتِهَا، وَإِنِّي أَرَى — خِلَافًا لِأُولَئِكَ الْمُعَارِضِينَ — أَنَّ فِي التَّفْرِيقِ الْكُلِّيِّ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ خَطَرًا عَلَى الْفَضِيلَةِ ، فَإِنَّ فَرْطَ الاحْتِرَاسِ وَالاحْتِيَاطِ الصَّادِرَ عَنِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ لَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا دَعْوَةُ الْفَسَادِ إِلَى الاحْتِيَالِ لِلتَّطَرُّقِ إِلَى الأَخْلَاقِ مِنْ سَبِيلِ الشَّرِّ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَظْهَرَ فِيهَا، وَإِنَّ كَثْرَةَ بَثِّ رُوحِ الْحَذَرِ فِي أَطْهَرِ الْمُعَامَلَاتِ وَأَعَفِّهَا تُوقِظُ فِي الْيَافِعِينَ مَا هُوَ نَائِمٌ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ وَتُظْهِرُ مَا يَكُونُ كَامِنًا مِنْ أَشْوَاقِهِمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُزَالَ هَذِهِ الْحُدُودُ الْمَادِّيَّةُ وَيُعْتَاضَ مِنْهَا بِحُدُودِ اللهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا وَجَعَلَهَا فِي نُفُوسِهِمْ سِيَاجًا لِمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ .

لَا أُرِيدُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى فِي التَّرْبِيَةِ سِيَّانِ يَصْلُحُ لِأَحَدِهِمَا كُلُّ مَا يَصْلُحُ لِلآخَرِ، كَلَّا بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَقْتَضِي تَرْبِيَةً خَاصَّةً لِاخْتِلَافِهِمَا فِي الْمَوَاهِبِ وَالْفُرُوضِ وَالْغَرَضِ الَّذِي خُلِقَا لِأَجْلِهِ ، عَلَى أَنَّنَا نَرَى النَّابِغِينَ وَالنَّابِغَاتِ مِنَ الصِّنْفَيْنِ يَتَكَافَؤُونَ وَيَتَنَاسَبُونَ فِي بَعْضِ ذُرَى(١) الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ وَالشِّعْرِ، فَالأَجْدَرُ بِنَا أَنْ نُفَكِّرَ فِي إِعْدَادِ الأَزْوَاجِ بَيْنَ مَا أُوتِيَتْهُ الأُنْثَى مِنْ رِقَّةِ الْوِجْدَانِ وَمَا أُوتِيَهُ الذَّكَرُ مِنْ حَصَافَةِ(٢) الْجَنَانِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةَ حَيَاةِ الصِّنْفَيْنِ ، وَإِنَّ فِي تَرْبِيَةِ شَطْرَيِ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ مُنْعَزِلَيْنِ كَأَنَّهُمَا لَا يَشْتَرِكَانِ فِي شَيْءٍ مِمَّا خُلِقَا لِأَجْلِهِ تَعْجِيلًا بِقَطْعِ الصِّلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَأَمَّا تَقْدِيمُ الصَّبِيَّةِ إِلَى الصَّبِيِّ وَتَفْهِيمُهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ رَفِيقَةً فِي الْعَمَلِ وَالْكَدْحِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ

(١) الذرى : جمع ذروة وهى أعلى الشيء .

(٢) الحصافة : جودة الرأى وإحكام العقل .

فَهُوَ أَكْثَرُ انْطِبَاقًا عَلَى مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ سَتَتَعَلَّمُ «لُولَا» وَ«إِمِيلُ» مَعًا إِلَى أَنْ تَقْتَضِىَ الْحَالُ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا، وَإِنِّى لَأَرْجُو لِكُلٍّ مِنْهُمَا خَيْرًا كَثِيرًا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الاقْتِرَانِ الْعَقْلِيِّ (١). اهـ

---

(١) ما أرى أراسم إلا واهما فيما رآه من الجمع بين الصبيان والبنات فى المدارس، اللهم الا أن إراد تقييده بما دون سن المراهقة فان نفوس الولدان تكون فى هذا الطور من الحياة طاهرة نقية بعيدة عن دواعى الفتنة وبواعث الفساد، ولا نسلم له صحة الجمع بين الصنفين على اطلاقه، فان الواقع والعيان يشهدان بما فيه من الخطر على الأخلاق، وليس توقع هذا الخطر مقصورا على الاجتماع فى غرف النوم، بل هو متوقع فى قاعات الدروس نفسها لقصور مراقبة الأستاذ عن شمولها جميع تلاميذه كما هو معلوم خصوصا فى المدارس الكبرى، وقوله ان العمل العقلى انما جعل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة وقمعها لا لتنبيهها وتقويتها كلام مليح فى ذاته على أنه ليس له فى العمل ما يصدقه، وليس ما يتخذ من وسائل الاحتراس والاحتياط لدرء المفاسد الخلقية صادرا عن الرياء والنفاق كما زعم، وانما الرياء والنفاق الحقيقيان فى انكار المفاسد الشائعة الناجمة عن اختلاط الصنفين، وحبذا لو كان ما يدعو اليه من ازالة الحدود المادية التى بينهما والاعتياض عنها بحدود الله التى فطرهم عليها مؤديا الى الغرض، فليحذر العقلاء من الاغترار بهذا الزخرف القولى وليتأملوا فى الاحتياط الشديد الذى أمر الله سبحانه به المؤمنين فى خطاب أمهاتهم زوجات الرسول صلوات الله عليه ومكانهن من التصون والعفاف لا يجهله مؤمن، اذ قال جل شأنه: "يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبىّ الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه، ولكن اذا دعيتم فادخلوا، فاذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، ان ذلكم كان يؤذى النبىّ فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق، واذا سألتموهنّ متاعا فاسألوهنّ من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما". (سورة الأحزاب).

فاذا كان هذا هو أمر الخلاق العليم الذى جبل صنفى النوع الانسانى على ميل كل منهما الى الآخر وقد خاطب أفرادا من أقوم الناس سيرة وأكملهم خلقا وأوفرهم أدبا أفلا يكون فيه موعظة وذكرى لمن ليس لهم من هذه الصفات الفاضلة عشر معشار ما كان لهم؟ أوليس أمره تعالى للمؤمنين فى الآيتين الكريمتين الأخريين: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، ان الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو اخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهنّ وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" (سورة النور). أقول أوليس فى هاتين الآيتين دليل ساطع على الأمر بالحجاب وعدم اختلاط النساء بالرجال فان لم يكن هذا هو المقصود به فقل لى =

الشـــذرة الرابعـــة

الجَزِيرَتَانِ وَالتَّعْلِيمُ بِضَرْبِ الأَمْثَالِ

يَحْسُنُ أَحْيَانًا فِي حِوَارِ(١) الأَطْفَالِ أَنْ يَكُونَ تَفْهِيمُهُمُ الحَقَائِقَ عَلَى طَرِيقَةِ ضَرْبِ الأَمْثَالِ .

سَأَلَنِي « إِمِيلُ » مُنْذُ أَيَّامٍ . لِمَاذَا وُجِدَ فِي النَّاسِ فُقَرَاءُ وَبَدَا لِي مِنْ «لُولَا» كَثْرَةُ اهْتِمَامِهَا بِمَعْرِفَةِ العِلَّةِ فِي أَنَّ فِيهِمْ أَغْنِيَاءَ .

جَرَى عَلَى الأَلْسِنَةِ جَوَابٌ مَشْهُورٌ لِهَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ وَهُوَ « ذَلِكَ مَا أَرَادَهُ اللهُ » وَمَا كُنْتُ لِأُجِيبَهُمَا بِمِثْلِ هَذَا التَّعْلِيلِ ، لِأَنَّهُ فِيمَا أَرَى لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى أَذْهَانِ الأَطْفَالِ مَعْنًى كَبِيرًا لِعَدْلِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ ، وَمَا كُنْتُ أَيْضًا لِأُدْخِلَ مَعَهُمَا فِي أَعْوَصِ مَسَائِلِ عِلْمِ الاقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَأَصْعَبِهَا . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَأَيْتُ أَنَّ أَحْسَنَ جَوَابٍ أَخْرُجُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الحَيْرَةِ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِمَا قِصَّةً فَقُلْتُ :

═ بربك كيف يتسنى القيام بما تضمنتاه مع الاختلاط ، ولاسيما فى هذا العصر الذى للبدعة فيه وحب التبرج السلطان القاهر على قلوب النساء ، اللهم انى أشهدك انى مؤمن بك و بما أرسلت به رسولك متبع له ما استطعت فاعف عن تقصيرى وعاملنى برحمتك .

أكتب هذا و بين يدى الآن كلمة لأحد المهذبين أرسلها لمجلة « نور الاسلام » لنشرها فيها جاء فيها ما يلى : عقدت أخيرا نقابة المدرسات فى انجلترة مؤتمرا فى لندن خطب فيه كثير من المشتغلين بالتعليم نساء و رجالا وكان مما قالته فيه الآنسة بيدرقولها : " قد دلت التجارب على خطأ الجمع بين الذكور والاناث فى فصل واحد لأن اختلاطهم يؤدى الى اضطرابات لا مفر منها ما دام ان كلا الصنفين لا يخلو من أفراد فيهم فتنة وجاذبية ، وهذا فضلا عن أنه من اللغو القول بأن عقولها متلائمة تمام التلاؤم " .

وقال المستر هوات : " حينما يكن البنون والبنات فى غرفة واحدة تكن المتاعب والفشل " .

ولم آت بهذين القولين تأييدا لما سبق من الآيات الكريمة ، معاذ الله من ذلك «فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » وانما سقتهما ليعتبر بهما المفتونون بتقليد الغربيين فى كل شىء — المترجم .

(١) الحوار بكسر الحاء المجاوبة ومراجعة الكلام .

رُوِىَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ مِنْ بَحْرٍ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ جَزِيرَةٌ بَنَى فِيهَا الْأَغْنِيَاءُ قُصُورًا مِنَ الْمَرْمَرِ وَزَرَعُوا فِى أَرْضِهَا بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ رَبَّوْا فِيهَا مِنَ الْأَزْهَارِ مَا يَنْدُرُ وُجُودُهُ فِى غَيْرِهَا ، وَاحْتَفَرُوا بِرَكًا تَوْفِيرًا لِأَسْبَابِ اللَّذَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِى الدُّنْيَا مَا يُعَادِلُ زُخْرُفَ مَوَائِدِهِمْ ، فَقَدْ كَانَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنَ الذَّهَبِ فِيهَا أَفْشَارٌ ضَخْمَةٌ طُبِخَتْ بِمَرَقَةِ سَرَطَانِ الْبَحْرِ (وَهُوَ أَلَذُّ أَلْوَانِ الطَّعَامِ فِى ذَوْقِ « إِمِيلَ ») وَكَانُوا فِى لِبَاسِهِمْ بَالِغِينَ حَدَّ الْإِفْرَاطِ فِى التَّأَنُّقِ(١) خُصُوصًا نِسَاءَهُمْ ، وَكَانَ أَوْلَادُهُمْ يَلْعَبُونَ الْكُجَّةَ(٢) فِى الْمَيَادِينِ الْعَامَّةِ بِكُرَاتٍ مِنَ الْمَاسِ .

وَأَمَّا فُقَرَاءُ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ فَكَانُوا يَمْشُونَ حُفَاةً وَكَانَتْ صَبَايَاهُمْ تَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ فِى أَسْمَالٍ(٣) مِنَ الثِّيَابِ فَتَطُوفُ بِأَبْوَابِ الْأَغْنِيَاءِ الْتِمَاسًا لِمَا أَلْقَاهُ خَدَمُهُمْ مِنْ قُمَامِ(٤) مَوَائِدِ الْعَشِيَّةِ . وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَغْنِيَاءُ فِى سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى اسْتِعْبَادِهِمْ فِى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الْمَمْقُوتَةِ بَلْ كَانُوا يَحْتَقِرُونَهُمْ ، وَبَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى حَدِّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْظُرُونَ عَلَى ذَوِى الثِّيَابِ الرَّثَّةِ مِنْهُمْ أَنْ يُوجَدُوا فِى الْمُتَنَزَّهَاتِ الْعَامَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْحَظْرِ مِنْ سَبَبٍ سِوَى خَوْفِهِمْ عَلَى بُسُطِهَا السُّنْدُسِيَّةِ أَنْ تُدَنِّسَهَا أَقْدَامُهُمْ ، أَوْ خَشْيَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَنْظَرُ بُؤْسِهِمْ قَذًى فِى عُيُونِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ .

---

(١) التأنق : المبالغة فى تجويد الشىء وتحسينه .

(٢) الكجة : بالضم والتشديد لعبة : يأخذ الصبي خرقة فيدورها ويجعلها كأنها كرة ثم يتقامرون بها وتسمى هذه اللعبة فى الحضر باسمين فأما الخرقة فيقال لها التون وأما الآجرة فيقال لها البكسة .

(٣) الأسمال : الثياب البالية .

(٤) القمام : بضم القاف جمع قمامة وهى الكناسة .

مِنْ أَجلِ ذَلِكَ كُلِّهِ غادرَ الفُقَرَاءُ المَدِينَةَ ذَاتَ لَيلَةٍ وأَوَوْا إلى جَبَلٍ لِيأْتَمِرُوا(١) بِالأَغنِيَاءِ، فَكَانَ رأْىُ الشُّبَّانِ مِنهُم أَنْ يَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَيَسْطُوا عَلَيهِم وَهُمْ نِيَامٌ فِى مَضَاجِعِهِمْ وَيقتَسِمُوا أَموَالَهُمْ ، فَقَامَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَيخٌ حَكِيمٌ وَتَرَبَّصَ بِهِمْ حَتَّى قَرَّتْ شِقْشِقَتُهُمْ(٢)، ثُمَّ قَالَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيئاً لِأَسْبَابٍ ثَلاثَةٍ أُبْدِيهَا لَكُمْ : أَوَّلُهَا أَنَّ الأَغْنِيَاءَ يَقُومُ عَلَى حِرَاسَتِهِمْ فِى صُرُوحِهِمْ خَدَمٌ هُمْ شَرٌّ مِنْهُمْ ، وَكِلَابٌ أَضْرَى(٣) مِنَ الحُرَّاسِ أَنْفُسِهِمْ ، ثَانِيهَا أَنِّى لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ سَطْوَكُمْ هَذَا عَلَيْهِمْ وَسَلْبَكُمْ لِأَمْوَالِهِمْ يَكُونُ مِنَ العَدْلِ، لِأَنَّهُمْ قَدْ كَسَبُوا هَذِهِ الأَمْوَالَ الَّتِى تَحْسُدُونَهُمْ عَلَيْهَا أَوْ كَسَبَهَا أَسْلَافُهُمْ مِنْ وُجُوهٍ شَرِيفَةٍ أَوْ خَسِيسَةٍ ثُمَّ مَلَكُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُقْتَضَى قَوَانِينَ أَرَى — مَعَ كَوْنِى لَا أُدْرِكُ كُنْهَهَا كَمَالَ الإِدْرَاكِ — أَنَّهُ لَا بُدَّ لِوُجُودِهَا مِنْ سَبَبٍ لِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا مُطِيعُونَ لِأَحْكَامِهَا حَتَّى الآنَ ، ثَالِثُهَا أَنَّ مَا يَجُوزُ أَنْ تَنْزَعُوهُ اليَوْمَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ بِغَلَبَتِكُمْ عَلَيْهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَسْلُبَهُ غَدًا مِنْكُمْ غَيْرُكُمْ بِقُوَّتِهِ وَضَعْفِكُمْ ، فَعَلَيْنَا إِذَنْ أَنْ نُفَكِّرَ جَمِيعًا فِى اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ أُخْرَى : لَا بُدَّ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِوُجُودِ جُزُرٍ أُخْرَى فِى البَحْرِ غَيْرِ هَذِهِ الجَزِيرَةِ الَّتِى قَضَى عَلَيْنَا نَحْسُ طَالِعِنَا بِالوِلَادَةِ فِيهَا ، فَقَدْ حَكَى لَنَا فُقَرَاءُ المَلَّاحِينَ إِخْوَانُنَا — الَّذِينَ يَحْضُرُونَ إِلَى هُنَا بِسَفِينَتِهِمْ مَشْحُونَةً بِالأَرْزَاقِ وَمَوَادِّ الزُّخْرُفِ الَّتِى يَسْتَعْمِلُهَا الأَغْنِيَاءُ — أَنَّهُمْ رَأَوْا غَيْرَ مَرَّةٍ فِى أَسْفَارِهِمْ أَرَضِينَ تَنْهَدُ مِنَ المَاءِ مُكَلَّلَةً بِالنَّبَاتِ وَالأَشْجَارِ الكَبِيرَةِ المُثْمِرَةِ ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ حِكَايَتِهِمْ أَنَّ إِحْدَى

---

(١) ائتمروا بفلان يأتمرون به هموا به وتشاوروا فيه .

(٢) الشقشقة : شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج والمراد بها هنا فصاحة الكلام .

(٣) أضرى : أكثر اعتيادا للصيد والفتك .

هَذِهِ الجُزُرُ خَالِيَةٌ مِنَ السُّكَّانِ وَلَا يَنْقُصُهَا إِلَّا إِرَادَتُكُمْ حَتَّى تُصْبِحَ جَنَّةً جَمَّةَ[1] الثِّمَارِ دَانِيَةَ الجَنَى[2] ، فَإِنَّ لَنَا سَوَاعِدَ قَوِيَّةً تُسَاعِدُنَا عَلَى العَمَلِ ، وَهَا أَنَا ذَا مَعَ شَيْخُوخَتِي سَأَكُونُ لَكُمْ قُدْوَةً فِيهِ وَأَمُدُّكُمْ بِنَصَائِحِي عِنْدَ الحَاجَةِ ، هَذَا هُوَ رَأْيِي قَدْ أَفْضَيْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ فَانْظُرُوا مَاذَا تَفْعَلُونَ .

فَتَلَقَّى جَمِيعُهُمْ نَصِيحَتَهُ بِالقَبُولِ وَمَا عَتَّمُوا[3] أَنْ هَاجَرُوا إِلَى تِلْكَ الجَزِيرَةِ مُتَعَاقِبِينَ عَلَى سُفُنٍ وَاهِنَةٍ صَنَعُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَلْوَاحِ خِصَاصِهِمْ ، فَشَمِلَ الأَغْنِيَاءَ فَرَحًا لِسَفَرِ هَؤُلَاءِ الغَوْغَاءِ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا كِتْمَانَ فَرَحِهِمْ بَلْ كَانُوا يُصَفِّقُونَ وَيَجْهَرُونَ بِقَوْلِهِمْ : حَبَّذَا حَبَّذَا هَذَا الخَلَاصُ .

فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ السُّفُنُ تُقِلُّ إِلَّا أَشْخَاصَ المُهَاجِرِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا . أَسْتَغْفِرُ اللهَ ! بَلْ حَمَلُوا مَعَهُمْ فِيهَا أَدَوَاتِ عَمَلِهِمْ .

مَضَى عَلَى سَفَرِهِمْ بِضْعُ سِنِينَ انْقَطَعَتْ فِيهَا أَخْبَارُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ الجَزِيرَةِ فِي شَأْنِهِمْ ، فَمِنْ قَائِلٍ إِنَّ البَحْرَ ابْتَلَعَهُمْ وَمِنْ وَاهِمٍ بِأَنَّهُمْ أَكَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي هَذَا الاخْتِلَافِ إِذْ رَأَوْا ذَاتَ يَوْمٍ سَفِينَةً مَشْحُونَةً بِالغِلَالِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ رَسَتْ عَلَى مِينَاءِ جَزِيرَتِهِمْ فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَرَفُوا مِنْ لَهْجَةِ مَلَّاحِيهَا وَبَعْضِ مَلَامِحِ وُجُوهِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ سُكَّانِهَا السَّالِفِينَ ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ هَؤُلَاءِ المَلَّاحُونَ أَنَّهُمْ آتُونَ مِنْ جَزِيرَةٍ أُخْرَى اسْتَقَامَتْ فِيهَا أُمُورُهُمْ وَنَجَحَتْ نَجَاحًا عَظِيمًا ، لِأَنَّهُمْ

(١) جمه الثمار كثيرتها .

(٢) الجنى ما يجنى من الشجر اذا كان غضا أى أخضر طريا .

(٣) ماعتموا أن هاجروا ما لبثوا وما أبطأوا .

مَا حرثوا الْأَرْضَ وَأَحيوا مواتها حتى جلَّلتها(١) الحصائد وملأتها المزارع والمواشى فاعتبر الأغنياء هذه الأخبار من الأساطير وقهقهوا لسماعها قهقهة المجانين .

على أن الملاحين لم يكونوا مبالغين فى شىء مما قالوا ، فإنه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة القفرة على نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع ، وكان سكانها فى معيشتهم على وفاق تام لأنهم كانوا منها فى غبطة وهناء ، وقد ضربت عليهم السكينة رواقها ، وكانوا يعتبرون أبناءهم نذورا للخلف أرقى وأكثر منهم ، ولذلك كانوا يبكرون بتعليمهم العمل وإنشائهم على حبه .

أصبح الأمر على خلاف ذلك فى جزيرة الأغنياء ، فكانت الثروة فيها تنقص من يوم إلى يوم ، لأن سكانها لما كانوا من فرط الكبر والكسل بحيث إنهم يستنكفون أن يتولوا بأنفسهم حرث الأرض لم تلبث أن امتلأت عاقولا ، وتعطلت جميع الحرف والصنائع لفقد عمالها ، وتبع ذلك زوال مواد الزخرف ، وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يقيم منآدها(٢) .

فزع الأغنياء فى بداية هـذا الانحطاط إلى صناع الجزائر المجاورة لهم فلم يجيبوا دعوتهم لأنهم كانوا على بينة مما كانوا يعاملون به إخوانهم فلم يرضوا لأنفسهم ما قاساه هؤلاء من ضروب الإهانة .

نعم إن من بقى فى الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيرا من الذهب والفضة ، وإنهم اشتروا من التجار الأجانب كل ما كانوا فى حاجة إليه مدة من

---

(١) جللتها غطتها . (٢) المنآد المنحنى المعوج .

الزَّمن ، وَلَكِنَّ كُلَّ كَنْزٍ لا بُدَّ مِنْ نَفَادِهِ بَالِغًا مِنَ الْكَثْرَةِ مَا بَلَغَ خُصُوصًا إِذَا كَانَ أَصْلُهُ لا يَتَجَدَّدُ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَمْضِ إِلَّا بِضْعُ سِنِينَ حَتَّى غَاضَتْ (١) أَمْوَالُهُمْ ، وَأَنْشَأُوا يَنْدَمُونَ — وَلاتَ حِينَ مَنْدَمٍ (٢) — عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُمْ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالظُّلْمِ فِي مُعَامَلَةِ الْفُقَرَاءِ .

صَارُوا إِلَى حَالَةٍ مُحْزِنَةٍ جِدًّا ، فَقَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ مَنْ كَانُوا يَحُوطُونَهُمْ مِنَ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ لِعَجْزِهِمْ عَنْ دَفْعِ أُجُورِهِمْ ، وَعَجَزَتْ خَيْلُهُمْ عَنْ جَرِّ عَجَلاتِهِمْ لِفَقْدِهَا مَنْ كَانُوا يَقُومُونَ عَلَى تَغْذِيَتِهَا وَإِصْلاحِ شَأْنِهَا ، وَكَانَتْ نِسَاؤُهُمْ تُرَى فِي الشَّوَارِعِ مُنْتَعِلاتٍ نِعَالًا مِنَ الدِّيبَاجِ مُشَوَّهَةَ الْأَعْقَابِ ، وَلَابِسَاتٍ جَلابِيبَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُذَهَّبِ كُلُّهَا مُمَزَّقٌ وَمُخَرَّقٌ ، لِأَنَّهُ يَخْجَلُ أُولَئِكَ السَّيِّدَاتِ الْجَلِيلاتِ أَنْ يَرْقَعْنَ ثِيَابَهُنَّ بِأَيْدِيهِنَّ ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِنَّ نَاظِرٌ وَهُنَّ فِي هَذِهِ الْأَهْدَامِ (٣) بِهَذَا الصَّلَفِ وَالْعَجْرَفَةِ دَعَتْهُ حَالُهُنَّ إِلَى الضَّحِكِ وَالاسْتِهْزَاءِ بِهِنَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَسْوَةِ وَاللُّؤْمِ الاسْتِهْزَاءُ بِالتُّعَسَاءِ الْبَائِسِينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَشْرَارِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ جَزِيرَةَ الْأَغْنِيَاءِ الْمُتْرَفِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ جَزِيرَةَ الْفُقَرَاءِ الْمُعْدِمِينَ . كَانَ الْقَحْطُ يَزْدَادُ فِيهَا مِنْ سَنَةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَقَدْ ضَعُفَتِ الْأَرْضُ عَنِ التَّحْصِيلِ لِعَدَمِ مَا كَانَ يَخْدُمُهَا مِنَ الْأَيْدِي ، وَكَادَ الْأَغْنِيَاءُ يَمُوتُونَ جُوعًا فِي صُرُوحِهِمْ (٤) ،

(١) غاضت : نقصت .

(٢) ولات حين مندم : أى ليست الساعة ساعة ندم .

(٣) الاهدام : جمع هدم بكسر الهاء وهو الثوب البالى .

(٤) الصروح : جمع صرح وهو القصر .

وَلَوْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمْ أُولَئِكَ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ بِالْإِفْرَاطِ فِى سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ وَيُسَاعِدُوهُمْ بِمَا فَضَلَ عَنْ حَاجَتِهِمْ لَهَلَكُوا عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ(١).

كَانَ «إِمِيلُ» كَثِيرَ الْإِصْغَاءِ إِلَىَّ فِى حِكَايَتِى لِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فَرَغْتُ مِنْهَا حَتَّى ابْتَدَرَنِى بِقَوْلِهِ: يُسْتَفَادُ مِنَ الْقِصَّةِ إِذَنْ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ سَبَبُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ، فَأَجَبْتُهُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ مُطَّرِدًا وَلَكِنَّ أَقَلَّ فَائِدَةٍ لَهُ أَنَّهُ يُغْنِى الْأُمَمَ الَّتِى تَعْرِفُ مَنَاهِجَ الْعَدْلِ وَتَسْلُكُهَا اهـ.

الشذرة الخامسة

الْخَطُّ الدِّيوَانِىُّ

أَنْشَأَ «إِمِيلُ» يَخُطُّ بِالْقَلَمِ خَطًّا مُنَاسِبًا لِحَالِهِ وَلَكِنِّى فِى شَكٍّ مِنْ جَرْيِهِ عَلَى قَوَاعِدِ الْخَطِّ فِى شَىْءٍ مِمَّا يَكْتُبُهُ.

كَانَ الْخَطُّ فِيمَا مَضَى كَأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَاتِبِ الذَّاتِيَّةِ، وَكَانَ يَدُلُّ عَلَى حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ سَوَاءٌ فِيهِ الْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ، وَلِذَلِكَ وُجِدَ مُتَوَسِّمُونَ(٢) يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ فِى خَطِّ مَنْ لَا يَعْرِفُونَهُ مِنَ النَّاسِ ضُرُوبَ اسْتِعْدَادِهِ النَّفْسِىِّ، وَلَا بِدْعَ فِى هَذَا فَإِنَّ كُلَّ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ مُنْبَعِثَةٌ عَنْ أَخْلَاقِهِ وَسَجَايَاهُ، فَلَا شَىْءَ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ وَلَا مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْحَقِيقَةِ – عَلَى مَا أَرَى – فِى أَنْ يَكُونَ الْخَطُّ – وَهُوَ الْأَثَرُ الدَّقِيقُ الْمُثْبِتُ لِصُنُوفِ الْوِجْدَانِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَانِى عَلَى الْوَرَقِ – سِمَةً مِنْ سِمَاتِ النَّفْسِ وَأَمَارَةً مِنْ

---

(١) على بكرة أبيهم: جميعهم.

أمارات الطبع ، يشهد لذلك أن كثيرا من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا في حياتهم طريقتهم في صوغ حروفهم عدة مرات ، فلا يمكن أن يكون هذا التغيير — الذي يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم — أجنبيا عن بعض استحالات حصلت في عقولهم ، ومن الأمور التي اعتقد الباحثون في هذه المسألة أنهم تنبهوا إليها ولاحظوها أن أقرب أطوار الكاتب إلى الفطرة هو ذلك الطور الذي يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات إليها أيضا .

اخترع الناس في هذه الأيام للخط طرقا لا شك أن لها مزية في تهذيبه وتقويم يد الكاتب ، ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض ، فنحن في هذا القرن — قرن السكك الحديدية والأقلام الحديدية — نسارع كلنا إلى تحقيق الوحدة في كل شيء .

لو أن هذا الميل إلى الصناعة اقتصر على أمارات الفكر وقوالب المعاني لكان الخطب هينا ولكنه لم يقف عندها بل تعداها إلى الفكر نفسه .

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هي التي تعوزنا ، فقد وجدت طرق سهلة صيرت مبادئ العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس ، وكل يوم يتحدث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا ، وهو أمر أنا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره (١) وعظم شأنه . ولكني لا أرى علي حرجا إن سألت نفسي هذه الأسئلة وهي : هل ارتفع عقل الإنسان في هذا القرن إلى مدارك أسمى

(١) الخطر القدر والمنزلة .

مما بلغه فى القرن الثانى عشر . هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتى إلى العمل والأخلاق الممتازة التى تتجلى فى صورة مجتمعه المظلمة والأعمال البديعة أكثر مما كان له فى ذلك القرن ؟ هل ارتفعت قوة الإدراك مع انتشار تساوى الناس فيها كل يوم ؟

وآأسفى ! أنى التفت حولى عرانى الذهول وملكنى الدهش لما أراه من غلبة الأوساط فى العقل وكثرتهم ، وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا فى هذه الأيام حتى عما السابلة[1] والغوغاء ، ولو أنهم قالوا إن كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده لكان هذا القول أصح وأقرب إلى الصواب ، نعم إن قرننا قد وصل إلى طريقة بديعة فى الإكثار من الدواليب والآلات المحاكية للفكر ، وقامت المهارة فى الفنون مقام الاستعداد الفطرى والعزيمة ، وأزهق التكلف فى آداب اللغة روح الإلهام والسليقة[2] ، واستنزلت الدسيسة والخداع فى مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشهما وحلا محلهما ، فترانا الآن مسوقين بلا شعور منا على طريق عام إلى محو ضروب الفضل والرجحان فى العقل والخلق محوا تاما ، فعليك أيها الانسان من الآن أن تقنع بأن تكون كجميع الناس .

ولا شك أن هذه الحالة التى عليها العقول الآن ترجع إلى أسباب كثيرة ليس من غرضى استقصاؤها هنا ، منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية ، ومنها أمر لا يسعنى إغفاله وإلا استحققت

(١) السابلة المارون فى السبيل أى الطريق المسلوك . (٢) السليقة الطبيعة .

اللوم ، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب إلى ستر عيوب الأطفال وإخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريعة التي تكاد تكون آلية محضة، أقول : إنها أقرب إلى ذلك منها إلى استكشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها ، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم إلى أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم إنما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا نافعين وهو الواجب ، بل يجعلون غايتهم الإرتقاء إلى المناصب ونيل الغنى ، ويقتضون[1] منهم أن يبلغوا إليها ، وهم بذلك يبكرون بحمل الأحداث على أن يتبينوا أن المواضعة[2] والتصنع[3] هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة السادسة

« مذهب تشغيل المتعلمين بالأشغال المادية الشاقة »

توجد في بعض المدارس بانجلترة عادة قديمة يدهش منها الأجانب كثيراً وهي أن التلاميذ — فيما يوجد منها بمدينتي أتون[4] وهارو[5] وهي التي يدخلها أبناء السراة غالبا — يخدم بعضهم بعضا، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقا بمكانة

(١) يقتضون : يطلبون .

(٢) المواضعة الاصطلاح أي ما يتفق عليه الناس من العادات .

(٣) التصنع : التكلف .

(٤) أتون هي مدينة بمقاطعة بكنجهام في انجلترة واقعة على نهر التاميز مشهورة بمدرستها الكلية التي هي أكبر الكليات الانجليزية الخاصة القديمة يتعلم فيها أبناء الخواص والسراة .

(٥) هارو هي مدينة بمقاطعة مدلسكس في انجلترة تبعد عن لوندرة بانثى عشر ميلا وهي مشهورة بمدرستها المؤسسة في سنة ١٥٧١ التي يتعلم فيها أبناء الخواص والأغنياء .

التِّلميذ في قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم، بل بالأقدمية وبعض الدرجات المدرسية، فيجوز أن يلزم الطفل الغنيُّ السريُّ تنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وإيقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه إليه في قاعة الدرس . فيقع إيجاب الخدمة على من تجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذي أستهجنه من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية ، فإن الأقدمين من التلاميذ يسيرون أحياناً مع من يعدونهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة في غاية القسوة حتى إنه ليقع منهم في حقهم ما نقرؤه في قصص موليير[1] المضحكة من الشتائم وضربات الأكف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالي على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الخفيفة الحركة . أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صبراً[2] على الذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين، وهكذا شأن الدنيا، وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو[3] والطغيان من سلف إلى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً في هذه الطريقة ، فإنه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم ، ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالي الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين ، ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته إلى جماعات

(١) (موليير هو أكبر شاعر قصصي فرنسي ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات سنة ١٦٧٣ مسيحية .

(٢) صبر جمع صبور أي كثير الاحتمال .

(٣) العتو الاستكبار وتجاوز الحد .

مِنَ الغلمانِ واليافعين منقسمين إلى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطرى ، لأنهم كانوا فى هذه الأعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم إما لبادًا (١) أو كناسًا أو وقادًا للمصابيح أو موقظًا لإخوانه فى الصباح أو منظمًا لقاعة الدرس ، وكانوا يتناوبون خدمة المائدة ، وكانت الأعمال المسخرة التى تقتضى أكثر من غيرها إخلاصًا أجل من غيرها أيضًا فى نظر التلاميذ ، لأن رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات (٢) الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم إلى مباشرتها . وليتك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس المفرح الذى يبديه كل تلميذ فى القيام بعمله الذى كأنه فرض اختيارى على نفسه . كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ أنها كانت تسلية لهم من عناء الدروس ، لأنه كان من رأى رئيسهم أن فى المراوحة (٣) بين الأعمال استراحة من مشقتها ، وكان من غرضه فوق ذلك أن يلقى فى نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوى ، فإن الإنسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه .

تعرض لى فى بعض الأحيان أحوال تحملنى على اعتقاد أن ما ندعيه من حب المساواة ليس إلا رياء ونفاقا ؛ لأنى أرى من لا تفتر (٤) ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها فى أعمالهم ، فالطفل الذى يرى فى المدارس أو البيوت أناسا استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعا أن الأعمال الشاقة

(١) اللباد عامل اللبود . (٢) الشارة الزينة .

(٣) المراوحة بين العملين هى تداولها هذا مرة وهذا مرة . (٤) تفتر : تقصر .

أو الكريهة هى من حظ الطبقة السفلى من قومه، ولا يفيده فى محو هذا الاعتقاد من نفسه أن تحدثه فى المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة، فإنه يعلم كمال العلم أن ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم، ولما كان يتوسم فى والديه أنهما يعدانه لأن يكون من العلماء وبكفايته بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الأعمال التى من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه كان رأيه فى هذه الأعمال لا بد أن ينتقل إلى من يقارفونها (١) من الناس فيتحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون إلا كثير الانسياق إلى احتقار جميع الصناع والزراية (٢) عليهم .

صممت أنا وهيلانة على تكليف «إميل» أن يعمل كل ما يلزم لفراشه وحجرته وثيابه، ولا أكره أن أراه يمسح نعليه ويسوى عند الحاجة طعامه، فإن الفائدة التى تعود عليه من ذلك ليست مقصورة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الأعمال، بل فيه أيضا تنمية لحريته الشخصية بتعويده الاستغناء عن مساعدة غيره فالأسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه .

---

(١) يقارفونها : يتعاطونها ويخالطونها .

(٢) الزراية : العيب .

الشذرة السابعة

رُؤيا منام

فِيمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ التَّرْبِيَةُ وَفِى آثَارِهَا إِذَا كَانَتْ كَمَا يَجِبُ

رَأَيْتُنِي مُمْتَطِيًا جَوَادًا أَسِيحُ فِى بِلَادٍ مَجْهُولَةٍ لَا أَدْرِى أَهِىَ مِنَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ أَمِ الْجَدِيدَةِ ، وَلَكِنِّى بِحَسَبِ مَا بَدَا لِى مِنْ ظَوَاهِرِهَا أَرَى أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَاقِعَةً عَلَى تُخُومِ بِلَادِ الْأَلْدُورَادُو (١) أَوِ الْأُوتُوبِيَةِ (٢) وَبَصُرْتُ فِى طَرِيقِى بِحَظَائِرَ مُسَيَّجَةٍ بِأَسْيِجَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا قُطْعَانٌ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُجْتَرَّةِ (٣) الَّتِى لَا تُوجَدُ قَطُّ فِى مَرَاعِينَا — تَسُومُ آمِنَةً لَا كَلْبَ يَحْرُسُهَا وَلَا رَاعِىَ يُرَاقِبُهَا ، وَلَاحَظْتُ فِى انْتِظَامِ طُرُقِ الرَّىِّ فِى هَذِهِ الْبِلَادِ وَحُسْنِ تَوْزِيعِ الْمَاءِ بَيْنَ جِهَاتِهَا — عَلَى نَمَطٍ يُثِيرُ الِاسْتِحْسَانَ وَيَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ — أَنَّهُ كَانَ مِنْ مَزَايَاهُ امْتِلَاءُ جَوِّ رِيفِهَا بِالنَّسِيمِ الْبَارِدِ الْمُنْعِشِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّهَارِ ، وَشَاهَدْتُ سَلَاسِلَ مِنَ الْهِضَابِ مُكَلَّلَةً بِالْأَشْجَارِ كَأَنَّهَا فِى تَتَابُعِهَا وَاتِّصَالِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ تَخُطُّ لِلرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ طَرِيقَهُمَا ، ضَرَبَ الْغِنَى سُرَادِقَهُ حَوْلَ قُرَى هَذَا الرِّيفِ وَظَهَرَتْ عَلَى أَهْلِهِ آثَارُ النِّعْمَةِ وَالِاغْتِبَاطِ ، نِسَاؤُهُ حِسَانٌ وَوِلْدَانُهُ أَسْوِيَاءُ (٤) أَصِحَّاءُ الْأَبْدَانِ يُبَشِّرُونَ حُكُومَتَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ نَسْلًا قَوِيًّا بَاسِلًا .

(١) الالدورادو كلمة اسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطا من مدينة بيزار اهتدى اليها فى أمريكة الجنوبية وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الارض شىء كثير ثم أطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم .

(٢) الأوتوبية كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن ما يتخيل من النظام ووصفها كاتب اسمه توماس موريس فى كتاب له .

(٣) المجترة التى تأتى بالجرة بكسر الجيم وهو ما يكون فى بطنها لتمضغه تعللا به حتى يأتيها العلف .

(٤) أسوياء جمع سوى وهو المعتدل الخلق .

ثم رأيت حواضر هذا القطر ولم أكن لرؤيتها أقل منى دهشا لرؤية قراه ، ومما أرشدت إليه فى إحداها بناآن كانا أقيما فى عصر يسميه أهلها الآن عصر الهمجية ، أحدهما سجن والآخر مأوى للمساكين ، وقد أصبحا من أهلهما خلاء لعدم اللصوص والبائسين ، ومع أنهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظهما القائمون على شؤون المدينة ليكون فيهما ذكر لتاريخهم .

حدد فى هذه البلاد ما للناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما للحكومة وما عليها من ذلك ، وامتاز بعضه عن بعض امتيازا بينا ، ولهذا تجد الرعايا لا يولون حكامهم من شؤونهم إلا ما ليس من مصلحتهم أن يتولوه بأنفسهم . وحقيقة الأمر أن القوانين فيها — على قلتها جدا وصدورها عن رأى من اختارتهم الأمة نوابا عنها — لا سبيل لها إلا على ما كان من الأعمال متعلقا بالحكومة ، ولما كان الناس جميعا هم الذين قد سنوا لأنفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الامتثال لأحكامها حمقا وسخفا ، على أنهم يؤملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث أضواء العرفان .

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره ، النافذ قوله ، ولم يعهد أن ملكا من الملوك الممتنعين فى صياصيهم (١) ، المعتزين بحصونهم (٢) ، كان له من المعاقل (٣) والمتاريس (٤)

(١) الصياصى جمع صيصة وهى الحصن .

(٢) الحصن : كل موضع حمى محرز لا يوصل الى جوفه .

(٣) المعاقل جمع معقل وهو الملجأ .

(٤) المتاريس جمع متراس وهى خشبة توضع خلف الباب لمنع فتحه

مَا يُعادِلُ مَا حِيطَ بِهِ ذَلِكَ الحَاكِمُ مِنْ ضُرُوبِ الكَفَالَةِ ، وَأَنْواعِ الضَّمانِ المُؤَيِّدَةِ لَهُ ، القَائِمَةِ عَلَى إِعْزازِهِ ، فَالقَوْمُ أَحْرارٌ يَتَفَكَّرُونَ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُونَ وَيَكْتُبُونَ كُلَّ مَا فِيهِ يَتَفَكَّرُونَ ، وَقَدْ يُدْهِشُهُمْ كَثِيرًا — عَلَى مَا أَرَى — أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ فَوْقَ الأَرْضِ أُمَمًا فِي قُدْرَتِهَا أَنْ تَسْتَسْلِمَ لِحَاكِمٍ ، وَتُلْقِيَ بِنَفْسِهَا فِي قَبْضَةِ ظَالِمٍ .

لَاقَيْتُ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ شَيْخًا — لَا أَذْكُرُ أَيْنَ وَلَا كَيْفَ لَاقَيْتُهُ — وَقَعَ التَّعَارُفُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَشْرَحَ لِي نِظَامَ حُكُومَتِهِمْ وَيَطُوفَ بِي عَلَى المَعَاهِدِ المُعَدَّةِ لِلْمَنَافِعِ العَامَّةِ ، لِأَنِّي لَمْ أَرَ فِي المَدِينَةِ قُصُورًا بُنِيَتْ لِبَعْضِ الأَفْرادِ تَوْفِيَةً لِأَسْبَابِ لَذَّاتِهِ وَلَا مَسَالِحَ (١) وَلَا دُورًا لِلْجَيْشِ وَلَا مَوَاخِيرَ لِلْفُحْشِ .

لَمَّا رَاقَنِي مَا شَاهَدْتُهُ قُلْتُ لِلشَّيْخِ هَلْ لَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِاسْمِ ذَلِكَ الوَاضِعِ الكَبِيرِ الَّذِي سَنَّ لَكُمْ هَذِهِ القَوَانِينَ ؟ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِي وَقَالَ : أَرَاكَ آتِيًا مِنْ عَالَمٍ آخَرَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ قَوَانِينَنَا لَيْسَتْ مِنْ وَضْعِ البَشَرِ ، وَإِنِّي أَرَانِي الآنَ مُضْطَرًّا إِلَى أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ تَارِيخَنَا فِي كَلِمَاتٍ قَلَائِلَ فَاسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُ : إِنَّنَا قَبْلَ اليَوْمِ بِنَحْوِ قَرْنَيْنِ لَمْ نَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِنَا مِنَ الأُمَمِ ، وَآخِرُ مَلِكٍ تَوَلَّى عَلَيْنَا — وَلَا نَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى اسْمَهُ (لِأَنَّ النِّسْيَانَ أَحْسَنُ عِقَابٍ لِلْمُسِيئِينَ الأَشْرَارِ) — خُلِعَ مِنْ عَرْشِهِ بَعْدَ حُكْمٍ أَسْخَطَ عَلَيْهِ جَمِيعَ رَعَايَاهُ وَأَلَّبَهُمْ (٢) عَلَى نَبْذِ طَاعَتِهِ وَالخُرُوجِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ عَرَضَ الثَّائِرُونَ بَعْدَ خَلْعِهِ صُوَرًا مُخْتَلِفَةً وَأَشْكَالًا مُتَنَوِّعَةً لِلْحُكُومَةِ ، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى اخْتِيَارِ حَاكِمٍ لَوْلَا أَنَّ آبَاءَنَا — بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الحِكْمَةِ وَالدِّرَايَةِ — تَرَاجَعُوا وَقَالَ

(١) المسالح جمع مسلحة وهى موضع السلاح . (٢) ألبهم : استنجدهم وجمعهم .

بعضهم لبعض : إنَّ الأولى لنا أن نرجئ الفصل فيما شجر بيننا[1]، وأن نترك لأعقابنا النظر لأنفسهم فيما هو خير لهم، فإنه لا خير في أحسن الأوضاع ولا في أعدل القوانين إن لم تجد في أخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها . وحينئذ اتفق القوم على أن يبقوا من قوانينهم القديمة أكثرها مطابقة لحكم العقل حيناً من الدهر، وأن ينشئوا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والأخذ بها . ثم لعلك لم تر مدرستنا، إنها أصل نظامنا السياسي فهيا بنا إليها .

أخذني إلى مكان على مقربة من المدينة، فما هو إلا أن تجلى لنظري في أشعة الشمس المشرقة قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء[2] قد عادل اتساعه وانفساح أرجائه ما له من الفخامة والجلال، لو أردت أن أصف لك جملته لعييت بذلك، بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة، وبلغ من الازديان بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون إلى حيث إن جدرانه كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم، لكون ما حوته ينقش على أذهان التلاميذ ومشاعرهم، وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلا من أجيال الإنسان، وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأسر القلب وتأخذ باللب، بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف، فتجد حوله الآجام[3] والصخور ومساقط المياه وتحته البحر .

---

(١) شجر كان سبب النزاع والخصومة .

(٢) شجراء : كثيرة الشجر .

(٣) الآجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف .

وقفتُ على إحدى حلقات الدروس فإذا بغلمانٍ يمارسون أنواعاً مختلفة من الرياضات البدنية كالمصارعة والعدو والرماية بالقوس ، وأكثر ما دهشتُ له في هذه الحلقة أنّ معلميها كانوا من هنود أمريكة الحمر الأصليين كما تبينتُ ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية .

قال لي الدليل : إنّ هذه القبيلة المتوحشة لم تأتِ إلى بلادنا إلا من عهد قريب ، وإنما جذبها إلى حدودنا حسن أخلاق قومنا ورقة طباعهم ، فإنّا لم نعتبرهم أعداء لنا كما يفعل غيرنا ، بل دعوناهم إلى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم إلى ما تحصله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار رجحانها على البداوة ، ولما كنا لا نجهل ما لهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق ، فقبل فريق منهم ذلك منا ، وها هم أولاء الآن يروضون أبناءنا على احتمال الآلام الجسدية غير مغضنين(١) من جباههم ، وعلى استعمال أبصارهم وأسماعهم في اجتناب ما ينصب لهم من الحبائل ، وإبطال أثر ما يكاد لخنقهم من المكايد ، ويعودونهم البسالة في ثني أعضائهم ولينها موافقة لسلطان الإرادة وتعرف أخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية .

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم — كما قلتُ — إلى دارات مختلفة للتربية والتعليم شهدتُ أحد الأعياد التي تقام في هذه الدارات التاريخية أو العلمية من حين إلى حين تخيل لي أننا في أثينة (عاصمة بلاد اليونان) إن لم أكن

(١) مغضنين : مشنجين ومقبضين .

وَاهِمًا ، وَأَبصرتُ قلعتها المُسمَّاة بِالأَقرو بُولِ شَاخِصَةً أَمامي عَلى صَخرَةٍ يعلوها مَعبَد وَتَمَاثِيلُ وَآلِهَةٌ صُنِعَت مِنَ النُّحَاسِ الأَحمَرِ وَالمَرمَرِ ، ورَأَيتُ في الجَانِبِ الغَربِيِّ لِهَذِهِ القَلعَةِ دهَالِيزَهَا الَّتِي أَقَامَهَا بِرِيكلِيس (١) ، وَكُنتُ أُشَاهِدُ طَوائِفَ مِنَ الفِتيَانِ في أَزيَاءٍ يُونَانِيَّةٍ يشخصُونَ اليُونَانَ في أَطوَارِهِم وَأَحوَالِهِم تشخِيصًا يَقرُبُ مِنَ الفِطرَةِ ، وَيتَكَلَّمُونَ بِلُغَتِهِم وَيمَثِّلُونَهُم في تَنَزُّهِهِم في المَدِينَةِ أَو غُدُوِّهِم في مَرَافِيءِ بِيرِيه (٢) ومُونِيخِي (٣) (٤) وفَالِير (٥) ، فَاستَغرَبتُ مَا رَأَيتُ مَعَ قِلَّةِ استِغرَابِ الحَالِمِ ، وَأَقسَمتُ بِأَثِينِيه بُرُومَاخُوس لَأَكتَنِهَنَّ هَذَا السِّرَّ .

فَلَمَّا رَأَى صَاحِبِي شِدَّةَ وَلَعِي بِمَعرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا رَأَيتُهُ قَالَ لِي : إِنَّ الأَمرَ في غَايَةِ السُّهُولَةِ : ذَلِكَ أَنَّنَا لَمَّا تَبَيَّنَ لَنَا بِالاختِبَارِ أَنَّ التَّارِيخَ فِي تَعلِيمِهِ لِلأَحدَاثِ يَمُرُّ بِأَذهَانِهِم مُرُورَ الظِّلِّ غَيرَ تَارِكٍ لَهُ آثَارًا بَيِّنَةً اجتَهَدنَا فِي أَن نَجعَلَ لَهُ جِسمًا تَخلُدُ فِيهِ صُورَتُهُ ، فَتَرَى تَلَامِيذَنَا لَا يَقتَصِرُونَ فِي تَعَلُّمِهِ عَلَى مُطَالَعَةِ مَا كَانَ فِي العُصُورِ الخَالِيَةِ ، بَل هُم يَعِيشُونَ فِي تِلكَ العُصُورِ ، فَقُلتُ لَهُ لَا بُدَّ أَن تَكُونَ جُمهُورِيَّتُكُم قَد بَلَغَت مِنَ الثَّروَةِ غَايَتَهَا حَتَّى تَقُومَ بِنَفَقَاتِ هَذِهِ المَعَاهِدِ ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهَا غَنِيَّةٌ لِمَهَارَتِهَا فِي طُرُقِ الكَسبِ وَلِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُدَبِّرُ نَفَقَاتِهَا بِنَفسِهَا ، عَلَى أَنِّي أَرجُو أَن لَا تُخدَعَ بِمَا تَرَاهُ ، فَإِنَّ مَا تَظُنُّهُ بَذلًا لِلمَالِ وَإِسرَافًا فِيهِ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ تَدبِيرٌ لَهُ وَتَوفِيرٌ ، وَلَو صَحَّ مَا نَسمَعُهُ عَن أُورُبَّةَ القَدِيمَةِ لَكَانَ مَا تُنفِقُهُ أُمَمُهَا عَلَى حُكُومَاتِهَا فِي جَانِبِ التَّبذِيرِ ، وَمَا تُنفِقُهُ عَلَى التَّعلِيمِ العَامِّ فِي طَرَفِ التَّقتِيرِ ، وَأَمَّا نَحنُ فَأُمُورُنَا تَجرِي عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ،

---

(١) بركليس أحد رجال حكومة أثينــة الأقدمين (٣) و (٤) و (٥) بيرية ومونيخى وفالير كلها مدن يونانية فيها مرافىء . (٢) مرافىء جمع مرفإ ، وهو الميناء .

فحكومتنا لا تكلفنا أو لا تكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل أرزاقنا على مدارسنا، فكان لنا بالسير على هذا السنن ما يسمى في عرف التجارة صفقة رابحة، ولله طريقتنا في التربية! فإننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت(١) وغيرهما من الأثقال التي توقع الحكومات في مهواة الفاقة وتؤديها الى الخراب .

هذه الأمة التي ضل عني الآن اسمها لا تقصد في تربية عقول أبنائها وتقويم طباعهم إلى إعدادهم لأن يتبعوا في مستقبلهم نظاماً مقرراً كائناً ما كان ، بل قد عقدت النية على أن تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات ، فبعثها إقدامها على أن تمهد بمستقبل بلادها إلى معارف الأجيال الجديدة وعلومهم ، فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما أن للحكومة قوانينها ، وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه ، وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة ما يتحلى به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل إلى التأديب، ولكنهم لا يسلمون عليها(٢) بما يقترفونه(٣) ، فالمخالفون يحاكمون إلى محكمة ينتخب أعضاؤها من إخوانهم لمدة معلومة ، ومن مصلحة هؤلاء الأعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وأن لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في المآل، ويقوم أمام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار، ثم

(١) الكهنوت طائفة رجال الدين المسيحي . (٢) سلم عليه بكذا نجا منه بذنبه .

(٣) يقترفون يرتكبون .

يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم ، وهي واجبة الإحترام على الدوام ، وما يحكم به من الجزاء يصير — على كونه غاية في الخفة — شديد الإرهاب والزجر ، لأنه يؤدي إلى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لا من معلميه فقط .

يقيم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر منها غير قسم الصبيان ، ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهاراً .

قال لي الشيخ : إننا نعول كثيراً في طريقة تربيتنا الناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس ، فهن اللاتي نعهد إليهن بتوزيع الجوائز والمكافئات على التلاميذ ، فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم أمامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة ، والمستعدين منهم لأن يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويثير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حرباً عواناً ، كل ذلك في سبيل إرضائهن وهيج إعجابهن ، ولما كان المعروف فيهن أنهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كان معلموا المدرسة تطيب أنفسهم بالركون إلى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقى والتصوير ، فإذا صرن محكمات في الذوق أعلن حسان الأعمال ونوهن بقدرها وتوجنها تاج الشرف والفخار ، كذلك يعتاد أحداثنا أن يستشيروا النساء ويسترشدوا بآرائهن ويلتمسوا تصديق وجدانهن لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم من ترقبهم منهن من دلائل استحسان هذه الأعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة

وينشؤن على أن يميزوا عيون ربات الجمال مرايا تتمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أداؤها .

لا يزال صدى الكلمات الأخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني ، إذ قال لي في نهاية حديثه : «لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا ما لا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهش والعجب ، فحسبك أن تعلم كيف أننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود الذل والبؤس والاستعباد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة ونفيا لحرارة الحياة ، وأن تعرف أن الأمم الحرة إنما تنشأ برجالها الأحرار ، وأن آباءنا لم يخطئوا أن التمسوا في وجدان كل إنسان أقوى ناصر على الاستبداد ، لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجودا ، فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الأحداث وجدان العدل والحق الذي لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانونا نظاميا في كتاب ربما أن رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد ، وجملة القول أن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل المدرسة هي التي توجدها وتنشئها (١) » .

---

(١) ما أبدع هذا النظام لولا ما فيه من الاشارة الى امكان الاستغناء عن الهداية الدينية بنقش وجدان العدل والحق في نفوس الأحداث ، فانه لا سبيل الى معرفة العدل والحق بدون هذه الهداية ، ولعل له عذرا في أعمال رجال الكهنوت في بلاده ، ولولا دعوته الى قطع كل صلة بالماضي والعهد بمستقبل البلاد الى الأجيال الجديدة وعلومهم ، لأن علوم الانسان ومعارفه في جميع الأجيال سلسلة متصلة الحلقات لا يصح فصل بعضها عن بعض ولا يستغني بعضها عن بعض ، ولولا ما فيه من جمع البنين والبنات في أماكن الدروس ، لما يجر اليه من الفتنة والفساد كما علمت قبلا ، على أن هذا النظام انما هو أماني وأضغاث أحلام «ان الأماني والأحلام تضليل» المترجم .

الشــذرة الثــامنـــة

تجلي العــلم في العمل

زرت بالأمس أنا وإميل و « لولا » مسبك قصدير في بانزانس واقعاً على ضفاف خليج الجبل ، ولست أنسى العجب من منعطف هذا الخليج الذي كأنه في عظمه وجماله صدر تيتيس[1] أحاطت به السكة الحديدية فجعلت له من شريطها قلادة . يوجد المسبك تجاه الخليج ويتألف بناؤه من أماكن قديمة ، تقوم على أعمدة من الخشب يغطيها سقف من البلاط الأسود ، لا يتردد الناظر إليها في أن يحسبها سقائف ، لانخفاضها وانفراجها للرياح من كل ناحية .

رأينا في إحدى السقائف أكواماً من تراب أسمر يسمى بمعدن الحجر ، جمعت فيها ووزعت على غير نظام ، وتنحصر أعمال المسبك في إحالة هذا التراب الأدكن[2] إلى معدن يطلبه التجار كثيراً .

كانت زيارتنا للمسبك في نحو الساعة التاسعة من المساء أي بعد غروب الشمس بزمن طويل في ليلة ظلماء كان يتخلل ظلامها بصيص نار الأفران التي بنيت بالآجر[3] وجعل لكل منها باب حديد في وسطه ثقب مستدير كأنه حدقة من نار .

يصهر[4] القصدير وبعد مكابدته محناً[5] مختلفة يتجرد مما كان ممتزجاً به من المواد المكدرة لصفائه ، وهي الحصا والكبريت والنحاس ، فإذا تم ذلك حانت ساعة صبه

(١) تيتيس جنية من جنيات أساطير اليونان . (٢) الأدكن المائل الى السواد . (٣) الآجر الذي يبنى به . (٤) يصهر يذاب . (٥) محنا جمع محنة وهي هنا التصفية والتخليص بالنار .

وهى الساعة المشهودة : يخرج هذا المعدن الثقيل الصافى من ثقب فى أسفل الفرن وقد بلغ من الحرارة درجة البياض ويسقط فى خابية من الحديد المصبوب، فيذكر الناظر ساعة باستدارة سطحه ولمعانه القمر فى إحدى ليالى الصيف أبيض ساطعا .

إذا صب القصدير فى الخابية آخر مرة (ولا بد من إذابته أكثر من مرة) ألقيت عليه أغصان من الشجر الأخضر خصوصا أغصان التفاح فتفوره وتهيجه، وويل حينئذ للعمال والناظرين الذين لا يبادرون بالابتعاد عنه ليتقوا عوادى هذا المعدن الغضبان، ذلك أن فقاقيع(١) الهواء التى تنفصل منه ترتفع معها قطيرات محرقة تسمع لها نشنشة(٢) تنبجس(٣) من كل ناحية انبجاس الشرر من باقة نار الزينة .

لا جرم أن «إميل» و «أولا» لم يدركا السر الكيمائى فى جميع هذه الإستحالات التى تعاورت معدن الحجر قبل صيرورته قصديرا، بل ربما لم يحصل فى ذهنهما من مجموع ما حصل من الأعمال إلا معنى فى غاية الإبهام، ولكن قد شاقهما من هذا المنظر جدته، فإنهما رجوانى أن آخذهما إلى المسبك مرة أخرى .

أرى أن القائمين على تربية الناشئين قد أفرطوا فى التفريق بين العلم وبين ما يربطه بالصناعة من الروابط ، ومع كونى لا أنكر أن ما فى المدارس من المعامل الكيمائية والمجموعات التعليمية والدروس العامة هو من المساعدات

---

(١) فقاقيع جمع فقاعة وهى نفاخة الماء .

(٢) النشنشة : صوت حركة الدروع والقرطاس والثوب الجديد .

(٣) تنبجس : تنفجر .

الْعُظْمى عَلى التَّعْلِيم ، وأَقْصِدُ قَصْدًا أكِيدًا أنْ أَسْتعِينَ بِهِ عَلى تَعْلِيمِ وَلَدِى فى مُسْتَقْبَلِه ، تَرَانِى أُفَضِّلُ أَنْ أَخْتَلِفَ بِهِ إلَى مَعْهَدٍ آخَرَ تَتَمثَّلُ فِيهِ أمَامَهُ الأَعْمَالُ وَتَتَراءَى لَه الْوقَائِعُ .

زُرْنَا مَعًا مُتْحَفًا مِنْ مَتَاحِفِ الدَّفَائِنِ الأَثَرِيَّة فِى بَانْزَانْس وَهِىَ لَيْسَتْ كَثِيرَةً فى بِلَادِ كُورْنُوَاى ، والْكَثِيرُ فِيهَا إنَّمَا هُوَ الْمَعَادِنُ الْمُفِيدَةُ كَالرَّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ والنُّحَاسِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَادِنِ الْحَجَرِيَّةِ الْغَرِيبَةِ ، فَلَمْ يَلْفِتْ ذِهْنَ « إمِيل » مَافِى خَزَائِنِ هَذَا الْمُتْحَفِ مِنْ قِطَعِ هَذِهِ الدَّفَائِنِ الْمُرَتَّبَةِ إلَّا قَلِيلًا ، وَأمَّا « دُولُورِيسُ » فَأَخَصُّ مَا اسْتَرْعَى نَظَرَهَا مَا يُوجَدُ فِيهَا مِنْ فِلَذِ(١) الْبِلَّوْرِ وَبَعْضِ الْحِجَارَةِ الَّتِى لَوْ تَنَاوَلَتْهَا يَدُ الصِّنَاعَةِ لَصَارَتْ مِنْ مَوَادِّ الزِّينَةِ الْجَمِيلَةِ .

ثُمَّ أَخَذْنَا طَرِيقَنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَنْحَتٍ(٢) كَبِيرٍ يَمْتَدُّ مَكْشُوفًا عَلَى ضِفَافِ الْمُحِيطِ بَيْنَ جِبَالٍ مِنَ الصَّوَّانِ بَعَجَتْهَا(٣) يَدُ الإنْسَانِ فَكَانَ مَرْآهُ فِى نَظَرِ الْغُلَامَيْنِ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيعِ مَتَاحِفِ الدُّنْيَا .

فَفَرْقٌ عِنْدَ الطِّفْلِ بَيْنَ أَنْ يَرَى مِنْ وَرَاءِ الزُّجَاجِ مَعَادِنَ حَجَرِيَّةً رُتِّبَتْ فِى رِوَاقٍ تَرْتِيبًا خَالِيًا مِنْ دَوَاعِى التَّأَثُّرِ وَبَيْنَ أَنْ تَتَمَثَّلَ أَمَامَهُ الصُّخُورُ فِى وَضْعِهَا الطَّبِيعِىِّ ، وَيُشَاهِدَ الأَرَضِينَ وَقَدْ شَاهَ وَجْهُهَا وَانْقَلَبَتْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ، وَكُتَلَ الْبَلَاطِ الأَسْوَدِ وَالرُّخَامِ السُّمَاقِ(٤) فِى جَسَامَتِهَا الْمُرَوِّعَةِ وَقَدْ تَنَاوَبَهَا الْمِصْدَعُ(٥) وَبَارُودُ الْمِدْفَعِ فَأَوْسَعَاهَا

---

(١) فلذ جمع فلذة وهى القطعة . (٢) المنحت محل نحت الحجارة أى قطعها من الجبل وتسويتها .

(٣) بعجتها حفرتها . (٤) السماق : العالى الشامخ .

(٥) المصدع بكسر الميم هو المنقص وهو أداة من أدوات النحات يشق بها الحجر .

صدعًا وأشبعاها كسرًا، وقد هاج شوق «إميل» منظر أعمال النحت هياجًا شديدًا فطفق يخاطب النحاتين، ولا بدع فالإنسان في سنه لا يستنكف أن يخاطب كل من يراه لأن قلبه حينئذ لا يكون أفسده الكبر، وقد استفاد من محاورته معهم، فلم تذهب عليه عبثًا. إن فتى إيقوسيًا اسمه «هوج ميلار» صار من أشهر العلماء في بريطانية العظمى ببركة تكسيره الأحجار ونحتها من منحت حجر رملي قديم، واستولى استيلاء المالك على إقليم ذلك المنحت الحافل بالدفائن الأثرية وأصبح اسمه كأنه علم له.

ربما احتذى(١) «إميل» مثال هذا العالم إذا زرنا معًا إقليم «ديفونشاير» فاعتضد(٢) المطرقة(٣) وحمل المنحات(٤)، فإني أراه مدفوعًا على ذلك بسائق الطبع، لأنه يشتهي كغيره من أترابه أن يهجم على ما يلاقيه من العقبات فيدمره ويزيله، ولأن الدفائن الأثرية التي يستخلصها الإنسان بنفسه من الصخرة أغلى في نظره كثيرًا مما يجده منها مرتبًا في المتاحف، ذلك لأن آثار الأجسام العضوية تكون غالبًا من الاختباء في باطن الحجر بحيث إنه لا بد قبل استخلاصها من تمييزها منه، بل ربما صح لي أن أقول: إنه لا بد من تخمين وجودها بما يبدو من تحت غطائها الخافي من سمة تدل عليها أو طرف من أطرافها، ثم إن الصخرة تارة تكون صلبة فتقاوم منحات الناحت وتحتمله، وطورًا تكون هشة(٥) فتتلاشى وتتفتت،

(١) احتذى المثال اقتدى به.

(٢) اعتضد الشيء أخذه في عضده وحضنه واستعان به.

(٣) المطرقة آلة من حديد يضرب بها الحديد ونحوه كالحجر.

(٤) المنحات آلة النحت. (٥) هشة: رخوة لينة.

وفى كلتا الحالتين يهدم الخرق (١) والخطأ بنقرة واحدة عمل الدهر فى قرون كاملة، وما أكثر ما يتعلم الطفل فى هذا الجهاد! نعم إن «إميل» سيضل غير مرة وسيتفق له أن يخسر لقطاته أو يعيبها على اعتقاده أنه حصل عليها سالمة من كل نقص، ولكن لا شىء فى هذا فان مثله من اليافعين إذا غلبته العقبات المادية وجد عليها وبعثه ذلك على الانتقام لنفسه منها فلا يلبث أن يظفر بها .

كأن مشاهدة المناحت واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات الأرض إلى فن العمارة، فسيذكر «إميل» إذا عرض له فى طريقه ما فى المدن من الأبنية العظيمة أن حجارتها نحتت من قاع البحار القديمة، وإذا رأى المعابد والقصور أحضر نوع حجارتها فى ذهنه الصخرة التى نحتت منها والمخلوقات العضوية القديمة التى صارت هذه الصخرة رمسا (٢) لها .

العلم الذى يحصله الانسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعا ولكنه يكون متينا راسخا، خذ لذلك مثلا الزهرة التى تجنى من غور بعد اقتحام ما كان دونها من العقبات يكون لها فى ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون لزهرة رآها بلا عناء مجهزة محفوظة فى إحدى صحف المجموعات النباتية، وما يجمعه المرء بنفسه من المحار والصدف على شاطئ البحر يدرب بصره على إدراك ما يميزه من صفاته الظاهرة أكثر مما يدرب به على ذلك ما يوجد منه مرتبا ومعنونا فى رواق معد له؛ فالبحث يكسب البصر واليد دربة ومرانة .

---

(١) الخرق : بضم الخاء عدم احسان العمل . (٢) الرمس : القبر .

أَنَا لَا أَشُكُّ فِى أَنَّ التَّجَارِبَ الْكِيمْيَائِيَّـةَ وَالطَّبِيعِيَّةَ مُفِيدَةٌ لِمَنْ مُنِحُوا الْمَيْلَ إِلَى التَّعَلُّمِ، وَلٰكِنِّى أَرَى أَنَّ عَامَّةَ الْأَطْفَالِ قَدْ يُبْدُونَ مِنَ الإرْتِيَاحِ إِلَى الْعِلْمِ مَعْمُولًا بِهِ فِى الصِّنَاعَةِ وَمِنَ الانْفِعَالِ بِمَـا يَرَوْنَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّـا يُبْدُونَهُ لِمِثْلِ هَـٰذِه التَّجَارِبِ، وَقَلَّمَـا يُوجَدُ مَعْمَلٌ مِنَ الْمَعَامِلِ الْكَبِيرَةِ إِلَّا وَهُوَ أَيْضًا مَدْرَسَةٌ كُبْرَى لِلعَقْلِ، فَمَـا أَبْهَرَ مَا يُرَى فِيهِ مِنْ قُوَى الطَّبِيعَةِ مُقَيَّدَةً وَمُطْلَقَةً «وَمِنْ كُلٍّ» مُؤَلَّف مِنْ عَجَلَاتٍ وَأَسْنَانٍ تَسْحَقُ الْحَجَرَ سَحْقًا، وَتَمْضُغُ الْحَدِيدَ مَضْغًا، وَتَقْطَعُ الْخَشَبَ قَطْعًا، وَآلَافٍ مُؤَلَّفَـةٍ مِنْ أَنْبَاضِ[1] الْبُخَارِ الَّذِى يُحَرِّكُ جِسْمَ هَذَا الْكُلِّ، وَإِنْسَـانٍ اسْتَبْدَلَ بِأَعْضَائِهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ الصُّلْبِيَّةَ فِى كَدِّهِ وَكَدْحِهِ، فَخَلَتْ مَحَلَّهُ وَجَرَتْ عَلَى مُقْتَضَى إِرَادَتِهِ، وَقَامَ هُوَ عَلَيْهَا يُلَاحِظُ مُجَاهَدَاتِهَا الْعَجِيبَةَ بِعَيْنٍ قَرِيرَةٍ سَاكِنَةٍ، نَعَمْ إِنَّ هَـٰذَا الْمَشْهَدَ لَا يَأْخُذُ أَوَّلَ الْأَمْرِ إِلَّا بِبَصَرِ الْيَافِعِ وَلٰكِنَّهُ مَتَى كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الشَّوْقِ إِلَى الْعِلْمِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سَبَبِ هَـٰذِهِ الْحَرَكَاتِ الاسْتِقْلَالِيَّـةِ، وَعَمَّا لِلْمَوَادِّ بَعْضِهَا فِى بَعْضٍ مِنَ التَّأْثِيرِ الْمُتَنَاوِبِ، وَبِالْجُمْلَةِ عَنْ سِرِّ الطُّرُقِ الَّتِى تُحِيلُ الْمَـادَّةَ الْفِطْرِيَّةَ إِلَى مَحْصُولَاتٍ صِنَاعِيَّةٍ.

لَيْسَ أَحْقَرُ الْأَشْيَاءِ أَقَلَّهَا إِثَارَةً لِلشَّوْقِ فِى صُنْعِهِ دَائِمًـا، وَلَا مُلَاحَظَتُـهُ أَقَلَّ جَدْوَى فِى التَّعْلِيمِ، فَعُلْبَةُ الْكِبْرِيتِ وَالدَّبُّوسُ وَالشَّمْعَةُ — كَمَا بَيَّنَـهُ فَارَادَاى[2] حَقَّ الْبَيَانِ — لَهَـا بِعِلْمَىِ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمِيَاءِ تَعَلُّقٌ يُدْرِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَيَعْرِفُهُ لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ.

---

(١) الانباض جمع نبض وهو حركة القلب واستعير هنا لحركة البخار فى المكبس لمشابهتها لحركة القلب.

(٢) فاراداى عالم انجليزى من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه فى الكهرباء ولد سنة ١٧٩٤ ومات سنة ١٨٦٧ مسيحية.

أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ تَحْصِيلَ عِلْمِ عِدَّةٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ وَالِاخْتِصَاصِ بِهِ يَقْتَضِي أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ أَضْعَافَ عُمُرِهِ، وَلِذَلِكَ لَا أَرْجُو مِنْ « إِمِيلَ » إِذَا رَأَى غَيْرَهُ يَشْتَغِلُ بِحِرْفَةٍ أَنْ يُحِيطَ خُبْرًا بِأَسْرَارِ الْعَمَلِ فِيهَا، عَلَى أَنَّ الشُّبَّانَ أَقَلُّ حَاجَةً إِلَى الْوَقْتِ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِ، فَلَوْ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّعَالِيمِ أَحْسَنُوا فِي تَوْجِيهِهِ إِلَى غَايَتِهِ مَا شَكَكْتُ قَطُّ فِي أَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي بَيْنَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَالثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ يَتَعَلَّمُ فِي الْمَعَامِلِ شَيْئًا كَثِيرًا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ إِنَّ لَدَيْنَا فِي جَمِيعِ الْمُدُنِ الْكُبْرَى بَلْ وَفِي الْقُرَى كَثِيرًا مِنْ مَعَاهِدِ الْعَمَلِ الَّتِي لَوِ اخْتَلَفَ الطِّفْلُ إِلَيْهَا لَأَدْرَكَ بِالْعِيَانِ وَالْحِسِّ بَعْضَ قَوَانِينِ الْمَادَّةِ وَتَعَلَّمَ حُبَّ الْعَامِلِ وَتَعْظِيمَهُ، وَلَكَانَ أَقَلَّ فَائِدَةٍ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مُلَاحَظَةُ طُرُقِ الصِّنَاعَةِ أَوِ الزِّرَاعَةِ إِنْ لَمْ يُبَاشِرْ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا بِيَدَيْهِ، وَتِلْكَ مَزِيَّةٌ أُخْرَى لَهُ ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَصِحُّ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ أَنْ تُغْفَلَ هَذِهِ الْيَنَابِيعُ الْمُتَدَفِّقَةُ لِلْعِرْفَانِ وَتُبْخَسَ حُقُوقُهَا مِنَ الْعِنَايَةِ، وَتَكُونَ دِرَاسَةُ الْأَلْفَاظِ هِيَ مَوْضُوعَ الِاهْتِمَامِ وَالرِّعَايَةِ (١) .

الشذرة التاسعة

انْتِقَادُ تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ الْيُونَانِيَّةَ وَاللَّاتِينِيَّةَ وَإِقْرَائِهِمْ كُتُبَهُمَا

تَنَاظَرْتُ مَعَ هِيلَانَةَ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي ضَرُورَةِ تَعْلِيمِ « إِمِيلَ » تَيْنِكَ اللُّغَتَيْنِ وَإِقْرَائِهِ مَا أُلِّفَ فِيهِمَا مِنَ الْكُتُبِ، وَلَسْتُ ذَاكِرًا لَكَ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاظَرَاتِ إِلَّا مُلَخَّصَهَا،

(١) ما أبلغ هذا البيان فى الحض على تعليم الأحداث العلم فى دور الصناعة ولعمرى أنها لهى الطريقة المثلى للتعليم الكافلة لارتياض نفوسهم بأصول العلم لما فيها من قرنه بالعمل ومشاهدة آثاره فيه . المترجم

فأقول : الواجب أن يربى كل طفل تربية من ينبغى أن يكون من كبار الرجال، فتلك هى الوسيلة التى يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم فى مستقبله، ولهذا كان حقا على المربى أن يتعرف طبعه ويبحث فى ضروب ميله ويخبر أنواع استعداده العملى، ولما كان الفضل والامتياز يحصلان فى هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه أن يبحث فى هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده .

فالذى أعيبه فى طريقة المربين عندنا هو إغفال ما للناشئين من القوى وضروب الاستعداد الذاتية وعدم اعتبارها فى شىء من التربية ، ذلك أنك ترى بعض الناشئين مثلا قد ولد رحالة ليضرب فى الأرض ويجوب آفاقها ، وأخص حاجة له فيما خلق لأجله هى معرفة اللغات الحية ليتفاهم بها مع الأجانب فى بلادهم ، فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهملتين انقطع التخاطب بهما من على وجه الأرض، وترى آخر خلق ميالا إلى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به فى بحر من الكتب ماله من قرار، وتجد ثالثا أعد للتجارة ورابعا سخر للزراعة لا يراعى ما لكل منهما من الميل إلى ما أعد له، بل يتبع فى حقهما ما قضت به العادة وجرى عليه العرف ، وهو أنه لا بد لمن يريد الاشتهار بالعلم فى هذه الدنيا من سجنه فى المدرسة ثمانى سنين ، كم رأينا من متعلمى اللاتينية واليونانية من يقضى عليهم بأن لا يتعلموهما فى حياتهم، لأنهم متى خرجوا من المدارس واشتغلوا بمصالحهم قل وأيم الحق أن يخطر ببالهم تصفح

كتاب فرجيل (١) أو ديوان عمير (٢) والنظر في تحفهما البالية التي قضوا في مطالعتها كثيرا من ساعات النصب والسآمة ، ولست أقصد بقولي هذا تجريد أية معرفة من معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقا ، ولكن لا حرج على إن ارتبت في أن ما يخسره كثير من التلاميذ من زمنهم في تعلم تينك اللغتين يساويه ما يعود عليهم من الفوائد بتعلمهما .

أنا أعلم كل ما للمنتصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما ، فله أن يقول إن معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب لغتنا ، وإنه لا يسع أحدا من الناس إنكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير المبارك في عقول الناشئين الذين تغذوا بلبان معارف الأقدمين حق التغذية ، وإن مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية ، وتعارض عصرنا — الذي تساوت فيه الناس وانمحت درجات التفاضل بينهم واشتغل أهله بالحقائق الثابتة دون غيرها — بعصور الأبطال وما سما وأفاد من مخترعات الخيال وتستر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الظاهر بدون أن تغير من طبيعتنا شيئا ، ثم إن بعد أهل تلك العصور عنا ومباينتهم لنا في الأخلاق والعوائد مما يساعدنا أيضا على أن نبصر من خلال كتبهم الشعرية ضياء منتهى الكمال المطلوب .

---

(١) فرجيل هو شاعر لاتيني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح .

(٢) عمير هو أشعر شعراء اليونان الأقدمين لا يعلم مكان ولادته ولا تاريخها و بعضهم عرب اسمه هومير ويكتب بالفرنسية هكذا (Homere) .

وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَـذِهِ الْكُتُبَ حَافِلَةٌ بِالْأَنَاشِيدِ الْوَطَنِيَّـةِ الَّتِي كَانَ مِنْ آثَارِهَا مَا تَرَاهُ فِي عَهْدِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَمِيلِ مِنَ احْتِقَارِ الْمُلُوكِ وَجَرَادِيلِ الْخُيَلَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَلَقَدْ كَفَتْ نَفْحَةٌ هَبَّتْ مِنْ رُومِيَةَ أَوْ مِنْ أَثِينَـةَ فِي إِثَارَةِ بُغْضِ السُّلْطَانِ الْمُطْلَقِ بِقُلُوبِنَا فِي الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ ، فَإِنَّ حُكَمَاءَ هَذَا الْقَرْنِ وَزُعَمَاءَ الْفِتْنَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ فِيـهِ قَـدِ اسْتَمَدُّوا مِمَّـا وَعَوْهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمَدْرَسِيَّةِ أَصْلَحَ الصُّوَرِ لِإِيقَـاظِ الْعُقُولِ ، وَبَثِّ رُوحِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي النُّفُوسِ ، وَكَانَ لِلْخَيَالَاتِ الْغَابِرِينَ فِي ذَلِكَ الْجِهَادِ الَّذِي قَامَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ مِنَ الْبَلَاءِ (١) مَا كَانَ لِلْأَحْيَاءِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا تَقُلْ لِبَنِي غَرَاقُوسَ (٢) وَبُرُوتُوسَ (٣) وَقَاتُونَ أُوتِيقَـا (٤) إِنَّهُمْ قَـدْ مَاتُوا ، بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ يُعِينُونَنَـا عَلَى كِفَاحِنَا ، وَيُعَاضِدُونَنَـا فِي جِهَادِنَا ، وَيُسْمِعُونَنَا مِنْ أَصْوَاتِهِمْ وَيُشْهِدُونَنَـا مِنْ أُسَاهُمْ (٥) مَا يُقَوِّي عَزِيمَتَنَا عَلَى السَّعْيِ وَرَاءَ الْحُرِّيَّةِ ، الَّتِي هِيَ غَايَةُ النُّفُوسِ الْأَبِيَّةِ .

أَنَا لَا أُنَازِعُ فِي أَنَّ مَعْرِفَةَ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ قَدْ تَكُونُ مِنَ الرِّيَاضَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْمُفِيدَةِ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : إِنَّ لِرِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَرْبِيَـةِ الْعَقْلِ طُرُقًا شَتَّى ، وَإِنَّ مِنَ الظُّلْمِ الْفَاحِشِ قَصْرَ مَعْنَى التَّعَالِيمِ عَلَى فَرْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلُومِ ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَالِمًـا يُشَارُ إِلَيْـهِ بِالْبَنَانِ ، وَخَطِيبًا بَاهِرَ الْبَيَانِ ، وَسِيَاسِـيًّا حَصِيفَ الْجَنَانِ — وَفِي أَمِرِيكَةَ مَا يَشْهَـدُ لِصِحَّةِ ذَلِكَ — وَهُوَ لَمْ يَقْرَأْ فِي حَيَاتِهِ كُتُبَ « أَرِسْطُو » (٦)

---

(١) البلاء : العمل . (٢) غراقوس حاكم رومانى اشتهر فى اسبانية ورزق ولدين سميا بالغراقيين وكانا من قضاة الشعب . (٣) بروتوس أحد قتلة القيصر الرومانى .

(٤) وأما قانون أوتيقا فهو حفيد قانون القديم وهو ضابط رومانى كان من حزب بومباى وبعد أن شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى أفريقية وقتل نفسه .

(٥) أساهم جمع أسوه وهى القدوة . (٦) أرسطو حكيم يونانى مشهور .

وَلَا دِيمُوسْتِينَ (١) وَلَا شِيشِيرُونَ (٢) بِاللُّغَةِ الَّتِي أُلِّفَتْ بِهَا ، ذَلِكَ أَنَّ مُرَاقَبَتَهُ بِنَفْسِهِ لِلْأُمُورِ وَمُعَامَلَتَهُ لِلنَّاسِ وَاخْتِلَاطَهُ بِهِمْ وَدِرَاسَتَهُ لِآدَابِ لُغَتِهِ وَاسْتِعْدَادُهُ الْفِطْرِيّ كَثِيرًا مَا تُغْنِيهِ عَنِ الزَّخَارِفِ الْمَدْرَسِيَّةِ ، فَرَأْيِي هُوَ أَنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي تَحْتَفُّ بِالطِّفْلِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ الذَّاتِيَّةِ هِيَ الْوَاجِبُ التَّعْوِيلُ عَلَيْهَا فِي تَحْدِيدِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَنْبَغِي سُلُوكُهَا فِي تَرْبِيَتِهِ ، فَإِنَّ طُرُقَ التَّعْلِيمِ إِنَّمَا أُوجِدَتْ لِلْأَحْدَاثِ وَلَمْ تُوجَدِ الْأَحْدَاثُ لَهَا .

لَمَّا أَعْلَمْ حَقَّ الْعِلْمِ ضُرُوبَ اسْتِعْدَادِ «إِمِيلَ» وَلَا حَالَةَ عَقْلِهِ حَتَّى أَحْكُمَ عَلَى أَلْيَقِ أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ بِهِ وَأَشَدِّهَا مُلَاءَمَةً لِطَبْعِهِ ، وَالَّذِي أَرْجُوهُ لَهُ هُوَ أَنْ لَا يَكُونَ بَعِيدًا عَنِ الْعُلُومِ وَلَا عَنْ آدَابِ اللُّغَةِ ، وَلَسْتُ أَرَى مِنْ وُجُوهِ الِاعْتِرَاضِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْمَعَارِفِ سِوَى مَا يَقْتَضِيهِ تَعَلُّمُ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ مِنَ الزَّمَنِ ، فَإِنَّ إِنْفَاقَ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ مِنَ الْعُمُرِ فِي تَحْصِيلِ لُغَتَيْنِ مُهْمَلَتَيْنِ تَحْصِيلًا فِي غَايَةِ النَّقْصِ غَالِبًا هُوَ إِسْرَافٌ كَبِيرٌ فِي عَصْرٍ لَا يُحَصِّلُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مُتَوَسِّطَ الْمَعَارِفِ الضَّرُورِيَّةِ إِلَّا بِإِنْفَاقِ مُعْظَمِ حَيَاتِهِ ، وَإِنِّي بَاحِثٌ الْآنَ فِيمَا إِذَا كَانَتْ إِضَاعَةُ ذَلِكَ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ فِي تَحْصِيلِهِمَا لَازِمَةً لِطَبِيعَةِ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي يُصَادِفُهَا الْمُتَعَلِّمُ فِيهِ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِهَا وَأَنَّ مِنَ الْمَيْسُورِ التَّغْيِيرَ فِيهَا وَالتَّقْلِيلَ مِنْهَا .

(١) ديموستين أشهر خطيب يونانى أثار مقدونية على فيلوبس وألب أثينة على الاسكندر .

(٢) شيشيرون واسمه مرقس طوليوس دو أفصح خطباء الرومانيين ولد سنة ١٠٦ قبل المسيح وقتل سنة ٤٣ قبله .

أول سبب — فيما أرى — لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو إفراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للأطفال ، لأنهم يبدأونهم به قبل أن يكونوا تعلموا أو راقبوا شيئاً بأنفسهم ، فتراهم لجهلهم كيفية صوغ الألفاظ وتركيب الأساليب التي هي قوالب المعاني لا يكادون يتمتمون[1] بلغتهم نفسها مضبوطة ، ولحبسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجناً تتعاقب عليه الأجيال الناشئة تكفيراً لسيئة جهل آبائهم الأولين ، فهم لا يعرفون شيئاً من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحاب البيتية والجواذب الأهلية وهي التي كانت تحبب العمل إليهم وتشعر قلوبهم قدره ، فأصبحوا لا تصل إليهم حرارتها إلا من بعيد جداً ، ففي أول عمل لهم يمرنون به قواهم الناشئة تفاجئهم ألفاظ وحشية ، وصيغ نحوية ، وتراكيب مجهولة ؛ فيتصيدون اتفاقاً بأيديهم العسراء من محابرهم الكدراء ، ضروباً من مخالفة القياس ، وأنواعاً من ضعف التأليف ، تجري بها أقلامهم ، ولا تدركها أفهامهم ، فرحمى لهم من حيارى ذاهلين ، لا ينفعهم تعاقب التمارين ، ولا تتابع الأمثال ، فليس تكرار الأغلاط والخطآت الواحدة في تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة إلى إصلاحها .

أنا أحب أن يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئاً من العالم وأن ينفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات ، فإن كل وقعة روقبت تزيد في نفس مراقبها لذة وتنمي فيه شعور الحاجة إلى المعرفة ، فإذا حصل له يكسبه

(١) يتمتمون يعجلون في كلامهم ولا يفهمون السامع .

بَعْض معانٍ بيّنة صار بهذه الواسطة أحسن اسـتعدادًا لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مُبهمة من الألفاظ .

ثم إن من أسباب طول المدة التي تقضى في تعلم اليونانية واللاتينية — على ما أرى — أن المربين يعلمونهما للأطفال قبل أن يطلعوهم على شيء من أحوال الرومان واليونان ، والإنسان لا يحسن تعلم لغة قوم إلا في بلادهم . ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما « إميل » بأن أجعل له من آثار أهلهما بلادًا يتعلمهما فيها ، وفي هـذا المقام تظهر فائدة إنشاء معاهد التعليم التي من قبيـل القصر البلّوري ، نعم إني على يقين من أن مشاهـدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومثل المعابد والمباني الأثرية العامة لا تعين التلميذ على فهـم شعر عُمير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينية إذا اقترن تعليمهما بتعليم تاريخ قوميهما وما يشهد لهم من دلائل التقدم القديم لا تبقيان لغتين مندثرتين اندثارًا تامًا كما لو علمتا مجردتين .

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيرًا بسبب إجالتها العقل في آثار الغابرين ، وسياحتها بالنفس في أعمال الماضين ، ولأن سن الايفاع هي السن التي يسهل فيها اندماج اليافـع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو أن معنى الاسـتقلال الذاتي لا يظهر إلا قليلًا في هـذا الطور من الحياة ، فبكثرة هـذا النوع من المعيشـة مع اليونان والرومان فيما بقي من آثارهم ينتهي التلميذ بأن يهتم بأخلاقهم وعاداتهم وشؤونهم قبل أن يعرف لغتهم ، فتراه

يُتَابِعُ بِعَقْلِهِ الْأُسْطُولَ اللَّاتِينِيَّ فِي سَلَامِين (١) وَيَشْهَدُ خَلْفَ بُومْبَاي (٢) وَاقِعَةَ فِرْسَالَا (٣)، وَلَا يَسْبِقَنَّ إِلَى خَاطِرِكَ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ الْفِكْرِيَّ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَنِ لَيْسَ هُوَ إِلَّا وَهْمًا مَحْضًا، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِمَّا كَانَ فِي الْمَاضِي قَدْ مَاتَ مَوْتًا تَامًّا .

لَمْ تَجِدْ طَرِيقَتُنَا فِي تَعْلِيمِ اللُّغَتَيْنِ اللَّتَيْنِ نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنْهُمَا نَفْعًا لِأَنَّهَا لَا تَزَالُ عَلَيْهَا مِسْحَةٌ مِنْ تَعَالِيمِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَهِيَ الَّتِي طَبَعَهَا عَلَيْهَا الْقِسِّيسُونَ وَالرُّهْبَانُ، إِذْ لَا تَزَالُ الْعَقَبَاتُ تَقُومُ فِي سَبِيلِ دِرَاسَةِ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ دِرَاسَةً صَادِقَةً، وَأَوَّلُهَا مَا لِلدِّينِ الْمَسِيحِيِّ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْوَسَاوِسِ فِي آلِهَتِهِمِ الَّتِي تَرَاهُ عَلَى قَهْرِهِ إِيَّاهَا لَا يَزَالُ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مُضِرَّةٌ حَتَّى فِي انْهِزَامِهَا أَمَامَهُ، فَإِنَّ رِجَالَ هَذَا الدِّينِ مَعَ اسْتِئْثَارِهِمْ عَلَى تَوَالِي الْقُرُونِ بِاللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ وَاحْتِكَارِهِمْ مَعْرِفَتَهَا كَانُوا يُعْنَوْنَ فِي تَعْلِيمِهِمْ بِإِزْهَاقِ ذَلِكَ الرُّوحِ الَّذِي أَلْهَمَ الصُّنَّاعَ مَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ تُحَفِ الصَّنَائِعِ وَطُرَفِهَا، وَكَانَتْ فُنُونُ الْوَثَنِيِّينَ وَآدَابُ لُغَاتِهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ الَّتِي اهْتَمَّ أُولَئِكَ الرِّجَالُ بِحِفْظِهَا، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْتَرِسُونَ كُلَّ الِاحْتِرَاسِ مِنْ إِظْهَارِ آخِرِ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ أَسْرَارِهَا لِلْأَحْدَاثِ، وَكَانَ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أَنْ لَا يُزِيلُوا عَنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ إِلَّا طَرَفًا مِنْ حِجَابِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ لَا بُدَّ لِمَا يَعِيهِ الْخَلَفُ مِنْ آثَارِ السَّلَفِ أَنْ يَرُدَّهُمْ يَوْمًا إِلَى عِبَادَةِ الطَّبِيعَةِ وَجَمَالِهَا، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ رُؤَسَاءُ الدِّينِ لَا يَفْتَأُونَ يُذَكِّرُونَ النَّاشِئِينَ بِأَنَّ آلِهَةَ الْوَثَنِيِّينَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا إِلَّا الْكِبْرِيَاءُ وَالْكَذِبُ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي النَّظَرُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ مَعَ الِاسْتِرْشَادِ فِي ذَلِكَ بِهَدْيِ الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ .

(١) سلامين : وتسمى الآن كولورى هى جزيرة فى خليج أثينة .
(٢) بومباى : قائد رومانى شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافرا .
(٣) فرسالا : مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بومباى

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس فى تعليم « إميل » تينك اللغتين وإقرائه كتبهما ، فإنه لابد لمن يزاول دراسة أمر من الأمور أن يكون له فيه شىء من الاعتقاد، فما ضره لو أنه أخلص فى الاشتغال بهرقل[1] وأعماله ؟ ومن ذا الذى ينقم منه إن قدم قربانا للإلهات العفيفة[2] ولمنروة[3] الحكيمة الأبية . فإن فى كشف حقيقة الأشخاص الخرافيين الذين وجدوا فى خيال الأقدمين ، وكانت حياتهم ملائمة كل الملاءمة لخيال اليافعين ، وفى إزالة الوهم من عقول هؤلاء فى شأنهم ، تعجيلا بزعزعة عقيدتهم فى النوع الإنسانى ، ولا يظن ظان أنى أقصد بما أقول أن أقف « إميل » عند الوثنية فإنى إنما أريد بهذا القول أنه لا بد لمن يريد النفوذ إلى أسرار لغة قوم من اختلاس آلهتهم .

الشذرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مثل هاتين اللغتين فى فتنة العقل والتغرير به كمثل الفتانات الخرافية التى كانت تظهر فى بحر صقلية وتستهوى الملاحين بشجى صوتها فتوردهم فى شعابه موارد الهلكة ، فإنهما بعلو مكانتهما وجلال خطرهما فى دراسة اللغات ، وبخداعهما العقل أحيانا فى آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان

(١) هرقل بطل خرافى مشهور بأعماله العجيبة .

(٢) الالهات العفيفة فى أساطير اليونان هى الاهات الفنون التسعة بنات المشترى .

(٣) منروة — أو منرفا — هى فى الاساطير المذكورة الاهة الحكمة والفنون والحرب .

الاستعداد الحقيقي أكلا، وقد يكون الذنب في ذلك على الأمرين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية، فإن أحدا لا يرتاب في كون تينك القوتين من المواهب الخلقية الميمونة، بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سببا للإفراط في تنميتهما، فإنك ترى التلميذ الذي تربى على طريقتنا يصف لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته، ويفوه أمامك بجمل من القول المنثور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان لم يشعر هو بشيء منها قط، ويبدى من الهيج والانفعال في بعض أحوال لا علاقة له بها من حياة غيره ما لا أثر له في نفسه، ولو أنك سألته أن يتغنى بذكر الأشجار وظلالها، والأنعام ورعاتها، والربيع وأزداره، لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ما قاله فيها فرجيل(١) وهوراس(٢) من النعوت والأوصاف؛ ومع أنه قد يكون خيرا له أن يذهب إلى المزارع ويرى بنفسه ما يحصل فيها وكيف يحصل تراه شديد الاحتراس من موافاتها خشية أن يخسر فيها اللاتينية وما تواضع عليه الأقدمون من الصور اللفظية لتأدية ما كان يعرض لأذهانهم من المعاني والأفكار، وإذا استوصفته قتالا انبرى(٣) يصف لك ما استعمل فيه من الآلات، وكيف كان اصطدام الجيشين، بألفاظ مطنطنة، وعبارات مجلجلة وهو لم يشهد شيئا من

---

(١) راجع الهامش عدد (١) من تعليقات الشذرة التاسعة .

(٢) هوراس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسيح .

(٣) انبرى اعترض .

ذَلِكَ الْبَتَّةَ ، فَإِذَا كَانَ مُرَادُكَ اخْتِبَارَهُ فِي مُحَاضَرَةِ الْعَدُوِّ وَجَدْتَهُ قَدِ انْتَهَى مِنْ حِصَارِهِ كَمَا انْتَهَى فِرْتُوتُ (١) .

عَرَفْتُ فِيمَا سَبَقَ تِلْمِيذًا كَانَ يَبْدُو عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ مَخَايِلِ النَّجَابَةِ نَالَ إِكْلِيلًا مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى قَرْضِهِ شِعْرًا وَصَفَ فِيهِ زَجَّ سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لَمْ يَرَ فِي عُمُرِهِ سَفِينَةً وَلَا بَحْرًا .

نَعَمْ إِنَّ الشُّبَّانَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لَا يَكَادُونَ يَنْفَلِتُونَ مِنَ الْمَدَارِسِ إِلَّا وَهُمْ رَافِضُونَ لِآثَارِ السَّلَفِ نَابِذُونَ لَهَا ظِهْرِيًّا (٢) ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا مَعْنَى لِهَذَا إِلَّا أَنَّهُمْ يَعْتَاضُونَ عَنْ مُثُلِ الْغَابِرِينَ مُثُلَ الْحَاضِرِينَ ، لِأَنَّ مَحْوَ طَيَّاتِ التَّقْلِيدِ وَغُضُونِهِ مِنَ النَّفْسِ وَإِرْجَاعَهَا إِلَى صَقَالَتِهَا الْفِطْرِيَّةِ لَيْسَ مِنَ السُّهُولَةِ بِالْمِقْدَارِ الْمُتَوَهَّمِ ، فَإِنَّنَا كُلَّ يَوْمٍ نَقْرَأُ فِي وَصْفِ الْكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ الْمُبْتَدِئِينَ قَوْلَ وَاصِفِيهِمْ فِي الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِنَّهُ نَابِغَةٌ يُفَتِّشُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلْيَقُلْ لِي رَبُّهُ هَذَا الْفَتَّاشُ أَيْنَ أَضَلَّ نَفْسَهُ حَتَّى أَصْبَحَ يَنْشُدُهَا .

إِنَّ تَرْبِيَةً تَكُونُ بِدَايَتُهَا إِضْلَالَ وِجْدَانِ الِاسْتِقْلَالِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِأَجْلِ الِاهْتِدَاءِ إِلَيْهِ تَلَمُّسُهُ سِنِينَ طَوِيلَةً لَمِنَ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ .

(١) فرتوت هو كاهن مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١٧٣٥ م . وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الأشراف الكرام . والمؤلف يلمح الى واقعة لهذا المؤرخ وهى أنه كان يكتب تاريخا لحصار رودس وانتظر طويلا ورود أنباء صحيحة له عنه فلم تحضر فأتم تاريخه قبل ورودها ثم قال انى متكدر من ذلك ولكن قد انتهيت من حصارى .

(٢) ما أشبه الليلة بالبارحة فقد فشا فى أبنائنا هذا الداء بتقليدهم الفرنجة على غير هدى ولا بصيرة ولعمرى إنه العقوق بعينه والغرور بعينه ورينه أى بكذبه وغشاوته . المترجم .

أنا لا أشتهي ولا أرجو أن يكون « إميل » ميالًا إلى وقف نفسه على دراسة آداب اللغة، ولو أني وهيلانة دأبنا في تحبيبها إليه وأفلحنا في حجب حالة عقله بزخارف الذاكرة لأخفقنا في مسمانا إلى غايتنا المطلوبة، فاتقاء لهذا الخطر تراني مصممًا على إرجاء تعليمه اللغات القديمة وإقرائه كتب مؤلفيها، وقد جعلت له مشاهدة الأشياء مقدمة على علم الألفاظ فأصبحت علومه على ما فيها من النقص لها أصول في الخارج ترجع إليها، ودعائم (١) في الواقع تستقر عليها. وسعيت في إيتائه ما هو لازم للإنسان في بحثه عن الحسن والحق من آلات الضبط والدقة العقلية أكثر جدًا من سعيي في الإفضاء إليه بما لي أو بما لغيري من المعاني.

وقبل أن أجعل البحث في مثل الأقدمين في مكتبته سأعنى كل العناية بتنبيهه إلى أن هذه المثل لا تقلد، فإنه من السخف المحقق أن نباري الغابرين مباراة نحن على يقين من غلبنا فيها من قبل أن ندخلها، وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لأنفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة؟ والذي لا غضاضة علينا في أخذه عن كتاب اليونان والرومان إنما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الإنشاء وترتيب المعاني والدقة في التعبير عنها وانتقاء الألفاظ اللائقة بها، فكما أن من يعاشر بعض خواص الأجانب يقتبس شيئًا من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجبًا لمشابهته لهم بحال من الأحوال، كذلك معاشرة الأقدمين بواسطة ما تركوه من آثارهم توحي إلينا شيئًا من عوائد العقل واللسان المناسبة لسائر الأقوام المستضيئين بضياء العرفان.

(١) الدعائم جمع دعامة بكسر الدال وهي عماد البيت وكل ما يرتكز عليه الشيء فهو دعامته.

التَّقْلِيدُ الخَسِيسُ — سَوَاءٌ أَقُلِّدَ فِيهِ الغَابِرُونَ أَمِ الحَاضِرُونَ — لَا يَقْتَصِرُ سُوءُ أَثَرِهِ عَلَى إِضْعَافِ الذَّوْقِ وَالمَيْلِ الَى الفُنُونِ بَلْ يَسْلُبُ النَّاشِئِينَ أَيْضًا شَرَفَ النَّفْسِ وَكَرَامَتَهَا ، فَلَشَدَّ مَا يَنْخَدِعُونَ بِمَا تُؤَدِّيهِ لَهُمُ الأَلْفَاظُ عِنْدَ قَبُولِهِمْ إِيَّاهَا مِنَ المَعَانِي صَحِيحَةً أَوْ فَاسِدَةً ، لِأَنَّ أَسَالِيبَ الإِنْشَاءِ وَالأَلْفَاظَ وَالجُمَلَ تَفْعَلُ فِي نُفُوسِهِمْ مَا يَفْعَلُهُ السِّحْرُ الحَقِيقِيُّ ، فَتَرَاهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا يَقُولُونَ وَيَكْتُبُونَ وَالحَقُّ أَنَّهُمْ يُرَدِّدُونَ مَا فَكَّرَ فِيهِ المُفَكِّرُونَ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ بَعْضِ الأَبَاطِيلِ الَّتِي تُحَاوِلُ مِنْ قُرُونٍ عَدِيدَةٍ إِطْفَاءَ نُورِ العَقْلِ ، ذَلِكَ أَنَّ ضُرُوبَ الاِسْتِعْبَادِ مُتَلَازِمَةٌ فَمَنْ قَبِلَ وَاحِدًا مِنْهَا فَقَدْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ الاِنْقِيَادَ إِلَى جَمِيعِهَا ، أَلَا تَرَى الشَّابَّ المُتَعَلِّمَ الَّذِي اعْتَادَ تَقْلِيدَ مَا يَصِفُهُ المُقَلَّدُونَ بِالمُثُلِ الحَسَنَةِ يُصَاحِبُهُ فِي سِيرَتِهِ وَأَطْوَارِهِ رُوحُ اللِّينِ وَالاِنْقِيَادِ الَّذِي أَلِفَهُ مِنَ التَّقْلِيدِ فَتَجِدُهُ يَجْبُنُ وَيَفْزَعُ عِنْدَ كُلِّ عَزِيمَةٍ ذَاتِيَّةٍ .

نَعَمْ إِنَّهُ قَدْ يُخَاطِرُ بِحَيَاتِهِ فِي بِرَازٍ أَوْ يُعَرِّضُهَا لِلهَلَكَةِ فِي سَاحَةِ قِتَالٍ ، لِأَنَّهُ يَرَى ذَلِكَ مُسْتَحْسَنًا فِي نَظَرِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا دُعِيَ إِلَى مُقَاوَمَةِ عَادَةٍ بَرْبَرِيَّةٍ أَوْ تَأْيِيدِ حَقٍّ قَلَّ نَاصِرُوهُ ، وَرَأَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الاِسْتِهْدَافَ لِلسُّخْرِيَةِ وَالزِّرَايَةِ عَلَيْهِ ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ نُكُصَ الجَبَانِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الرِّعْدِيدِ .

مَثَلُ هٰؤُلَاءِ المَخْلُوقِينَ المُجَرَّدِينَ عَنْ ذَوَاتِهِمْ يَجِدُونَ طَرِيقَ عَيْشِهِمْ ذَلُولًا وَيَأْتِيهِمْ رِزْقُهُمْ بِلَا نَصَبٍ ، وَلَكِنْ مَا أَكْثَرَ مَا يَسُومُونَ (١) أَنْفُسَهُمْ مِنَ الخَسْفِ (٢) !

---

(١) يسومونهم الخسف : يولونهم اياه ويريدونهم عليه .

(٢) الخسف : النقيصة .

وما أحط ما يسفلون بها إليه من دركات[1] الذل ! عرفت امرأة برزة[2] محبوبة حسنة المحاضرة وكانت أرملة ولها ولد كان قبلة آمالها، فبدا لها يوماً من الأيام أن تنشئه على أحسن آداب المواضعة المعروفة، فرأت أن الاستشهاد بأقوال الكتاب اللاتينيين في المقامات المناسبة من المحاورة والتمثل بأشعارهم وإيراد أمثالهم من الأمور التي لا بأس بها، بل رأته يكسو المحاور إذا كان حسناً برداً من الخطر[3]، ويلقي عليه مسحة من جلال القدر، فأرسلت ولدها إلى المدرسة، فغادرها يوم دخلها خفيف العقل، لم يستفد من العلم إلا قشوراً، محبوباً عند الناس، ولكونه أوتي ذاكرة مباركة كان يتكلم في كل موضوع، ويناقش كل شيء ولا يبدي رأياً إلا قوبل بالاستحسان، لأنه يسهل على كل إنسان أن يرضي الناس عنه إذا سلم لهم ما يقولون ولم يعارضهم في شيء من آرائهم، فكان ثرثاراً[4] فاقد الخلق، حسن الصورة عقيم الفكر، أرادت والدته أن تصيره رجلا من الأكياس، أو نائباً لأحد الحكام، أو معتمداً سياسياً لحكومته في بعض البلدان، وإن أحببت أن تعرف ماذا صيرته قلت إنها صيرته طفيلياً[5].

طريقتنا في التربية تظهر بادئ الرأي سخيفة مضحكة، وإن جاز أن تكون مما يتعاصى على الأفهام إدراكه، وربما لا تطابق أية طريقة غيرها مطابقتها لمقاصد حكامنا ونظامنا السياسي.

---

(١) دركات: جمع دركة وهي المنزلة اذا اعتبرت النزول ويقابلها الدرسة اذا اعتبرت الصعود.

(٢) البرزة المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويختلف اليها القوم.

(٣) الخطر: رفعة القدر. (٤) الثرثار: كثير الكلام.

(٥) الطفيلي الذي يدخل وليمة ولم يدع اليها والمراد به هنا من يتداخل في أمور الناس بلا حساب.

التَّلامِيذُ فِي مَدَارِسِنَا مُفْتَرِعُونَ مَدِينُونَ تُبَكِّرُ الحُكُومَةُ بِتَأْهِيلِهِمْ لِعَمَلِهِمْ عَلَى نِظَامٍ مَعْنَوِيٍّ يَشِفُّ عَنْ حِذْقِ وَاضِعِهِ ، فَأَنْتَ تَرَى القَائِمِينَ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ يُوزِعُونَ عَلَيْهِمْ مَتَاعًا مِنَ الآرَاءِ وَالعُلُومِ الَّتِي يَجِبُ تَقَلُّدُهَا فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ ، مُرَاعِينَ فِي ذَلِكَ الدِّقَّةَ العَسْكَرِيَّةَ الَّتِي تُرَاعَى فِي تَوْزِيعِ مَتَاعِ الجُنْدِ وَيُنَادُونَهُمْ « الْهُوَيْنَا »(١) أَيُّهَا الأَحْدَاثُ إِيَّاكُمْ أَنْ تَحِيدُوا عَنِ الخُطَّةِ المَضْرُوبَةِ لَكُمْ ، نَعَمْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُوَلُّونَهُمْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يُصْغُونَ إِلَى نِدَائِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَحَيَّزُونَ إِلَى فِئَةِ الآخِذِينَ بِحُرِّيَّةِ النَّظَرِ وَيَتَضَاعَفُ عَدَدُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَلَكِنْ لَشَدَّ مَا يُلَاقُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ العِقَابِ ، فَإِنَّهُمْ يُحْرَمُونَ مِنْ تَقَلُّدِ الأَعْمَالِ العِلْمِيَّةِ فِي المَدَارِسِ الجَامِعَةِ ، وَمِنَ القِيَامِ بِالأَعْمَالِ الإِدَارِيَّةِ فِي الحُكُومَةِ ، فَلَا يُوَلَّى أَحَدُهُمْ شَيْئًا مِنْهَا ، وَفَوْقَ ذَلِكَ تَرَاهُمْ إِنْ لَمْ يَسِيرُوا سِيرَةً مَرْضِيَّةً أَخَذَتِ الحُكُومَةُ عَلَى نَفْسِهَا تَعْلِيمَهُمْ كَيْفَ يَسِيرُونَ بِمَا تُتَابِعُهُ لَهُمْ مِنْ ضُرُوبِ الإِيذَاءِ ، وَمَا تَبْلُوهُمْ بِهِ مِنَ العُقُوبَاتِ وَالنَّكَبَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَلَا غَرْوَ فَإِنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ حَاكِمٍ مَاهِرٍ ، وَالذَّنْبُ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ قَبْلُ أَنَّ لَهُمْ وَالِيًا يَقُومُ عَلَيْهِمْ وَأُسْتَاذًا يُرْشِدُهُمْ .

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الفَلَاحَ الَّذِي أَرْجُوهُ «لإِمِيلَ» وَكَانَ الَّذِي يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ كَرَامَتِهِ وَشَرَفِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، كَانَ نَصِيبُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنِّي مَحْضَ الإِعْجَابِ بِهَا دُونَ أَنْ أَرْضَاهَا لِتَرْبِيَتِهِ . اهـ

---

(١) الهوينا : التؤدة والرفق وفي اصطلاح الجيش معناها مهلا .

الشذرة الحادية عشرة

(في المؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها)

أجد في نفسي انبعاثاً كثيراً إلى اعتقاد أنه لا شيء أضر على كتاب الأقدمين وأدعى إلى هجر مؤلفاتهم من إطراء المعلمين إياهم واعتيادهم الإعجاب بما كتبوا .

ذلك أن هؤلاء بإلزامهم الطفل حفظ ما يختارونه له من هذه المؤلفات وإرشادهم إياه إلى ما يجب عليه أن يراه فيها من ضروب المحاسن خشية أن يقصر في احترام آثار سلفه ، وإكراههم له على ملاحظة جميع ما فيها حتى علامات الفصل والوصل — بذلك كله لا يفلحون غالباً إلا في أن يكرهوها إليه وهي أحسن أعمال عقل الإنسان .

فالإفراط في الوقاية من جانب المعلم يصير سبباً للضعف من جانب المتعلم ، وإفراط ذلك في إعجابه بما يعلمه يذهب بالحمية من نفس هذا فيما يتعلمه .

والمقصود من التعليم على أي حال إنما هو إنشاء القوة الحاكمة في نفس الطفل ، وأنا في شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على تلك الطريقة ، فإنه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامتثال ما يكفي لأن يروا الحسن فيما يمدح لهم والقبح فيما يذم (وفي التلاميذ من هم كذلك) لا تكون أذواقهم من أجل ذلك أسمى من أذواق غيرهم ولا أكثر منها دربة ، بل هذا مما يدعو إلى سلبهم قوة تمييزهم الأمور بأنفسهم ، فتكون همتهم في مستقبلهم مصروفة إلى تلقي آراء من تعتبر آراؤهم حجة من الناس لا إلى النظر في الأمور والحكم عليها حكماً مستقلاً .

سَأَدَعُ ابْنِي وشَأْنَهُ فِي انْتِقَاءِ كُتُبِهِ فَلَا أُجَنِّبُهُ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْهَا ضَارًّا بِالْأَخْلَاقِ، لِأَنِّي أَوَدُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ صَاحِبَ الخِيَارِ فِيمَا يَفْضُلُ فِي نَظَرِهِ مِنْ كُتُبِ الآدَابِ، فَإِذَا ضَلَّ ذَوْقُهُ فِي الاخْتِيَارِ عَوَّلْتُ فِي رَدِّهِ إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ عَلَى ضُرُوبِ نُمُوِّ عَقْلِهِ لَا عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ كَدَرِي مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْبِيخِ وَالتَّأْنِيبِ، وَمَعَ كَوْنِي لَا أَضِنُّ عَلَيْهِ بِالْإِرْشَادِ مَتَى سَأَلَنِي إِيَّاهُ تَجِدُنِي أَقْصِدُ أَنْ يَلْتَمِسَ فِيمَا يُطَالِعُهُ تَنْمِيَةَ أَفْكَارِهِ وَتَرْبِيَةَ ضُرُوبِ وِجْدَانِهِ الذَّاتِيِّ .

نَعَمْ إِنِّي قَدْ أَشْتَهِي أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ بَعْضَ كُتُبٍ مَخْصُوصَةٍ وَأَغْتَبِطُ لَوْ أَنَّهُ اتَّفَقَ مَعِي فِي التَّأَثُّرِ بِمَا فِيهَا، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُنِي مُحِقًّا فِي اقْتِضَاءِ ذَلِكَ مِنْهُ، لِأَنَّ الإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ مُفِيدًا لَا بُدَّ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ نَفْسِ المُعْجَبِ، وَلِأَنَّ الإِنْسَانَ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ مُنْفَرِدًا كَانَ أَوْ مُجْتَمِعًا يَتَصَوَّرُ لِلْحُسْنِ كَمَالًا يُطَابِقُ — بِالضَّرُورَةِ — بَعْضَ أَحْوَالٍ تَتَعَلَّقُ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَنَافِعِ أَعْضَائِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّنَا لَا نَكَادُ نَعْرِفُ الآنَ مَا قَرَأْنَاهُ فِي عَهْدِ شَبِيبَتِنَا مِنَ الكُتُبِ وَلَا مُؤَلِّفِيهَا، وَلَا نُحِسُّ بِشَيْءٍ مِنَ المَيْلِ إِلَى كُتُبِ الأَدَبِ الَّتِي طَالَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشُّعَرَاءِ أَوِ الكُتَّابِ الَّذِينَ كَانُوا أَسَاتِذَتَنَا فِيهِ بِكُتُبِهِمْ مَنْ يَصْحَبُنَا فِي شَيْخُوخَتِنَا إِلَّا النَّزْرُ اليَسِيرُ اهـ .

الشذرة الثانية عشرة

لا يسلم وجه الشمس من كلف

قضيةٌ لا محيص من تسليمها فإننا فى طور الانتقاد الذى لا ينفلت من تحليله وتفتيشه شيء، فقد تناول الأديان وآداب اللغات والتاريخ والأوضاع القومية، فلا تجد عبادة من العبادات إلا وقد وجه إليها العلم ضروبا من البحث لا قبل لها بمقاومتها، وأصبح ما كان يخاله الناس من اللغات والنقوش البربائية والحروف معميات لا سبيل إلى الاهتداء إلى معانيها، وقد نبذت مغالقها[1]، وألقت بين يدى العلم مقاليدها[2]، وأسلمت إليه أسرارها، ولم يغن عن الأغاليط التى شيبها مر الدهور أنها قبعت[3] رؤسها فى ظلماتها وسترت نواجمها[4] فى حنادسها[5]، فإنه لم يبق فى مكنتها أن تفلح فى التغرير بالعقل بما لها من القدم، فقد عرف سبب حدوثها وكشف الستار عما كانت ترتعد له فرائص الأقدمين من المجردات الخيالية فعرف الانسان نفسه وكله دهش واستغراب لخوفه وفزعه، لأنه قد عرف اليوم كيف نشأت الآلهة[6]

---

(١) المغاليق : جمع مغلاق وهو ما يغلق به . (٢) المقاليد جمع مقلد وهو المفتاح .

(٣) قبعت : اختفت واستترت . (٤) نواجم جمع ناجمة وهى ما ظهر وطلع .

(٥) الحنادس : جمع حندس وهو الأسود الشديد السواد والمراد بها الظلمات الحالكة .

(٦) يشبه كلام المؤلف ها هنا أن يكون تقريرا لمذهب الماديين ويدل بفحواه على أنه لا يعتقد بالله ولا بملائكته ولا بصحة المذاهب الدينية فى هذين المعنيين وينسب الى النواميس الكونيـة كل ما كان وما يكون ويزعم أن العلم قد هـداه الى أصل معنى الالوهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو فى النظار وما يؤدى اليه من الأشر والبطر. كيف يصل العقل الى معرفة كنه الاله وهو لم يصل الى معرفة نفسه ! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، والعذر له ولأمثاله أنهم نشأوا على دين مناقض للعقل ولعله يريد بالآلهة الآلهة الباطلة كآلهة الوثنيين والمجوس والصابئين وغيرها فان العقل السليم والعلم الصحيح يوجبان وجود الإله العلى الكبير المتصف بكل صفات الجلال والكمال المنزه عن جميع صفات النقص .

وَرَأَى مَذَاهِبَ كَانَ لَهَا مَا لِلْبَدِيهِيَّاتِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالرُّسُوخِ تَضَاءَلَتْ وَتَلَاشَتْ أَمَامَ الْعِلْمِ بِالنَّوَامِيسِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ هَـذِهِ الْمَذَاهِبَ فَوْقَهَا، وَأَبْصَرَ أَسْرَارًا مُسْتَغْلِقَةً كَانَتْ تَعَاصَتْ عَلَى الْعَقْلِ أَذْعَنَتْ إِلَيْهِ الْآنَ فَمَضَى يَحْكُمُ فِيهَا بِكَشْفِ أَصْلِهَا وَبَيَانِ مَنْشَئِهَا .

مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِجْحَافِ عَدَمُ اعْتِبَارِ هَـذِهِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْمَدَارِسَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ نَتَائِجِ بَحْثِهِ إِلَّا بَعْدَ قَرْنٍ مِنْ ظُهُورِهِ لَوْ دَخَلَهَا .

(انْتِقَادُ آدَابِ اللُّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ)

أَنَا لَا أُرِيدُ الْآنَ أَنْ أَشْتَغِلَ مِنْ وُجُوهِ الانْتِقَادِ إِلَّا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِآدَابِ اللُّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ فَأَقُولُ : قَدِ اعْتَادَ الْمُعَلِّمُونَ أَنْ يُفْرِدُوا هَـذِهِ الْآدَابَ بِالدَّرْسِ دُونَ بَقِيَّةِ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ كَمَا لَوْ كَانَتْ آدَابُ كُلِّ لُغَةٍ فَرْعًا مُسْتَقِلًّا عَنْ تِلْكَ الْآثَارِ، وَلَا أَرَاهُمْ يَسْتَنِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِلَى وَهْمٍ عُنِيتُ مِنْ قَبْلُ بِدَحْضِهِ وَلِهَـذَا تَرَانِي ذَكَرْتُ « لِإِمِيلَ» أَسْمَاءَ آلِهَةِ عُمَيْرَ (هُومِيرَ) وَمَا وَرَدَ مِنْ صِفَاتِهِمْ فِي أَسَاطِيرِ الْهُنُودِ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ أَشْهَرَ وَقَائِعِهِمْ وَسَيَكُونُونَ مِنْ مَعَارِفِهِ الْقُدَمَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كَانُوا يُوَاصِلُونَ الْأَسْفَارَ وَيَجُوبُونَ الْأَقْطَارَ، وَكَيْفَ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَبْدُو فِي هَيْآتٍ مُتَبَايِنَةٍ وَهُوَ أَمْرٌ لَمَّا يَجِئْ وَقْتُهُ .

ذَكَرْتُ مِنْ شُعَرَاءِ الْأَقْدَمِينَ عُمَيْرَ وَلِهَـذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَوَدُّ لَوْ أَدْرِي مَا الَّذِي يَعُودُ عَلَى التَّلَامِيذِ مِنْ تَفْهِيمِ الْمُعَلِّمِينَ إِيَّاهُمْ : أَنَّ دِيوَانَيْهِ الْمَوْسُومَ أَحَدُهُمَا بِالْعِلْيَاذِ

(الألياذة) والثاني بالعُديسي هُما مِن ابتِكارِ رجُلٍ مِنَ الغابِرين إذا كانَ جميعُ النَّاس اليوم يعلمون كيف تولَّدتِ القصصُ الشعريَّةُ الحماسيَّةُ في الأُمم القديمة والحديثة.

لا ريب أنَّ في هذه القصص محاسنَ كُبرى وعِبرًا جليلة، غير أني سأتحامى كُلَّ التَّحامي أن أجعل سيرة أخيل (١) مثلًا نموذجًا «لإميل» يحتذيه في سيرته، فإنَّ هذا البطل – الَّذي عبث ولها عن مصلحة أُمَّتِه وقعد عن منازلة أعدائها في حومة الوغى أن أبى عليه قومُه جارية رقيقة كانت محلًّا لأطماعه، وكان بهذا سببًا في طول مدَّة رزايا الحرب وشدائدها – لم يكن حقيقًا برضا الآلهة عنه وميلهم إليه، فهم باشتغالهم به وإعانتهم إيَّاه على خصمه لشجاعته غير مراعين إغفاله لواجبه قد جعلوا عاقبة الحرب عبرة سيئة وهي ظفره بهكتور (٢) أي ظفر الطَّيش الحربيِّ بالوطنيَّة الصَّحيحة.

لم يقتصر الأقدمون فيما جهلوا من الأمور على نُكرهم بعض الأُصول الَّتي هي الآن أساس وجدان الانسان، بل تركوا لنا ميراثًا من الأباطيل والمذاهب الفاسدة الَّتي تدعو دراسة كتبهم إلى بقائها إن لم يقارنها الإحتراس والحذر، فإنَّ سحر ما يحفظ النَّاس من آثارهم قد حمى كثيرًا من المظالم القوميَّة قرونًا عديدة من وثبات العقل ولا يزال يذودها عنها، وإنَّ المغرم منَّا بالمطالعة المفرط في المعيشة بين كتبه المفرط فيها بين أبناء وقته يرى أكثر أوقاته قليل التَّأثُّر جدًّا بما شاع

(١) اخيل فى أساطير اليونان هو بطل يونانى أبواه تيتيس وبسيلى قتله باريس فى حصار طروادة .

(٢) هكتور فى أساطير اليونان هو ابن بريام وعقيبة وزوج اندروماك وولد استنياكس قتله اخيل أخذا بثار باترقل .

فِي النَّاسِ مِنَ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَرْجِعُ أَصْلُهَا إِلَى أَخْلَاقِ الْأَقْدَمِينَ وَعَوَائِدِهِمْ .

الْحَضَارَةُ الْيُونَانِيَّةُ كَانَ لَهَا مِنْ وُجُوهِ الْحُسْنِ مَا يُثِيرُ الْإِعْجَابَ بِهَا ، وَلَوْ أَنَّ «إِمِيلَ» كَلِفَ بِدِرَاسَتِهَا كَلَفًا صَادِقًا لَمَا كُنْتُ إِلَّا فِي غَايَةِ الرِّضَا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ خُدْعَةَ (١) التَّشَدُّدِ فِي مَيْلِهِ إِلَيْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ وُجُوهِ الْقُبْحِ أَيْضًا ، فَلَشَدَّ مَا احْتُقِرَ فِيهَا الرَّقِيقُ وَبُخِسَتْ قِيمَتُهُ وَنُسِيَتْ حُقُوقُ الْبَائِسِينَ وَالْمَغْلُوبِينَ فَلَمْ يَحُضَّ عَلَيْهَا أَحَدٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا صُيَيْحَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا انْبَعَثَتْ مِنْ أَعْمَاقِ وِجْدَانِ الْإِنْسَانِ وَوَصَلَتْ إِلَيْنَا بَعْدَ اخْتِرَاقِ حُجُبِ مَا مَرَّ مِنَ الْأَزْمَانِ ، وَلَكَمْ هَلَكَ فِي سَبِيلِ تِلْكَ الْحَضَارَةِ مِنْ أَجْيَالٍ وَبَادَ مِنْ أَنْسَالٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ يُعْنَى بِتَخْفِيفِ مَضَضِ الْبُؤْسِ الَّذِي كَانَتْ تُقَاسِيهِ الدَّهْمَاءُ ، وَلَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ يَسْتَوْجِبُ لِلْعَامِلِ أَدْنَى حَقٍّ مِنَ الْحُقُوقِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ إِلَّا لِأَيْدِي الطَّغَامِ (٢) ، نَعَمْ إِنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْحَضَارَةِ وَمَنْظَرَهَا كَانَ مُونِقًا (٣) فَإِنَّ مَا ازْدَانَتْ بِهِ مِنَ الْفُنُونِ وَالشِّعْرِ وَالدِّينِ السَّمْحِ وَالْآلِهَةِ الْبَاسِمِينَ فِي وُجُوهِ الْأَبْطَالِ كَانَ يَكْسُو تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمُغْتَبِطَةَ بُرُودًا جَمَعَتْ كُلَّ مَا لِلْكَمَالِ الْمَنْشُودِ مِنْ ضُرُوبِ الْعِظَمِ وَالْبَهَاءِ وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْمَخْبَرِ لَا بِالْمَنْظَرِ .

التَّارِيخُ الرُّومَانِيُّ هُوَ دُونَ التَّارِيخِ الْيُونَانِيِّ بِكَثِيرٍ لَا لِأَنَّ رُومِيَةَ لَمْ تُنْتِجْ رِجَالًا كِبَارًا بَلْ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُفْرِطُ فِي عِبَادَةِ الْقُوَّةِ ، وَقَدْ لَاقَتْ جَزَاءَ هَذَا الْإِفْرَاطِ ، فَإِنَّهَا

(١) الخدعة من يخدعه الناس .

(٢) الطغام أوغاد الناس ولئامهم الواحد والجمع فيه سواء .

(٣) مونقا : معجبا .

بعد أن استعبدت غيرها من الأمم آل أمرها إلى استعباد نفسها . فلتقل لى هذه الأمة الفاتحة — وقد أظهرت للعالم ما للفتح من النتائج اللازمة — ما هى الأمم التى علمتها والشعوب التى أصلحت شؤونها ؟ أرى الناس تثملهم أخبار غزواتها وتهزهم أحاديث نصراتها ولا أرى أحدا منهم يستقصى أسباب مصائبها ليشفى من جنون الحرب ويبرأ من هوس القتال .

إنى إذا أقرأت « إميل » اليونانية واللاتينية وبحثت له بذلك ينبوع الآداب القديمة والتاريخ كان قصدى منه ولا شك توسيع عقله وتنمية إدراكه، بيد أنى أرمى إلى غاية أخرى أمكن فى نفسى من هذا وهى أن أنشئ فى نفسه الاستعداد للسلوك فى هذا الكون، ذلك لأن ما تتضمنه تلك الآداب من أنى الإقدام النفسى والإخلاص فى العمل وحب الوطن أشد فى قلب اليافع تأثيرا وأبلغ فى نفسه موعظة من جميع ما يقوله الخطباء ويوصى به الحكماء ، بل فى نفس التحمس الذى يبدو منه فى استحسانها بذل لنفسه، لأنه يخرجها من معقل امتناعها ويخلعها عن عرش صلفها ليسويها بمن استحق الحياة استحقاقا صحيحا، وإنى لأقنط من فلاح الطفل الذى لا يروقه(١) شىء ، وأما من آنس من نفسه التأثر بما لغيره من بهاء العظمة ورونقها فذلك الذى أوتيت نفسه سرا من أسرار الله . إن فضائل الغابرين أبلغ من فضائل الحاضرين فى خلب الخيال بما عليها من مسحة القوة والبسالة ، وأعمال اليونان والرومان لبعدها عنا بحسب ترتيب الأزمان يحليها البعد والغرابة ببعض السمات التى قد تغالى(٢) بها فتجعل لها من القيمة فوق ما تستحقه،

(١) يروقه : يعجبه . (٢) تغالى بها : تبالغ فى قيمتها .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَزِيدُهَا إِلَّا لَجَاجَةً(١) فِي دَعْوَةِ النَّاشِئِينَ إِلَى إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِ قَدْرِهَا، وَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ مُخْطِئٍ فِي التَّعْوِيلِ عَلَى تَأْثِيرِ الْأَقْدَمِينَ فِي تَرْقِيَةِ أَفْكَارِ وَلَدِي وَتَهْذِيبِ خُلُقِهِ .

عَلَى أَنِّي أَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ جَمِيعَ مَا خَلَّفُوهُ لَنَا لَا يَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ عَلَى السَّوَاءِ، فَسِيبِيُونُ(٢) الَّذِي جَنْدَلَ أَنِّبَالَ(٣) وَدَمَّرَ قَرْطَاجَةَ مَثَلًا بِالْبَطَلِ الَّذِي سَأَسْتَرْعِي إِلَى سِيرَتِهِ ذِهْنَ «إِمِيلَ» كَلَّا ! بَلْ سَأُوَجِّهُ كُلَّ هِمَّتِي إِلَى تَفْهِيمِهِ أَنَّ مَا يُلَاقِي مِنَ الْهَزَائِمِ إِجْلَالًا لِوِجْدَانِ الْحَقِّ أَعْلَى مَنْزِلَةً وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنَ الِانْتِصَارِ بِبِيضِ الصِّفَاحِ وَسُمْرِ الرِّمَاحِ ، وَأَنَّ الْمَجْدَ الصَّحِيحَ إِنَّمَا هُوَ فِي عُلُوِّ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا ، وَسَأَقُولُ لَهُ : أَرَأَيْتَ الْيَوْمَ الَّذِي انْتَصَرَتْ فِيهِ رُومِيَةُ عَلَى قَرْطَاجَةَ؟ فَذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي وَفَى فِيهِ رِيجُولُوصُ(٤) بِعَهْدِهِ فَانْطَلَقَ إِلَى إِفْرِيقِيَةَ وَحْدَهُ لَا يَثْنِيهِ عَنْهُ لَجَاجَةُ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ وَلَا دُعَاءُ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ مُلَاقٍ حَتْفَهُ وَسَاعٍ إِلَى هَلَاكِهِ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ظَهَرَ أَنَّ رُومِيَةَ قَدْ بَرَزَتْ(٥) عَلَى قَرْطَاجَةَ فِي صِدْقِهَا وَوَفَائِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ

---

(١) اللجاجة الالحاح .

(٢) سيبيون واسمه اميليان الملقب بالافريقي الثانى كان رابع أولاد بولص اميل ولد فى سنة ١٨٥ ومات فى سنة ١٢٩ ق م تبناه عمه الذى هو ابن الافريقى الأول من أسرة سيبيون وكان على يده انتهاء الحرب الثالثة بين رومية وقرطاجة فكانت هى خاتمة هذه الحروب فانه أخذ قرطاجة فى سنة ١٤٦ ق م .

(٣) انيبال هو قائد قرطاجة تولى قيادة الجيش فى الحرب الثانية التى حصلت بين قرطاجة ورومية وبعد انتصاره فى مواطن كثيرة هزمه سيبيون فانتحر بالسم تخلصا من انتقام الرومانيين وأما قرطاجة فهى مدينة افريقية قديمة . .

(٤) ريجولوص قائد رومانى قتله القرطاجيون لأنه أرسل من قبلهم الى رومية للفاوضة فى المبادلة بالأسرى فتكلم فى مجلس الشيوخ بما ينافى هذا الطلب وعاد الى قرطاجة فمات صبرا . (٥) برز عليه : فاقه .

تبرزها عليها فى غير هاتين الفضيلتين إلا أمرا مرتهنا بوقته إذ كان لا بد لقرطاجة من الغلب والقهر .

لا مراء فى أن الجمهورية الرومانية أيام مجدها وعلوها كانت تسفر عن أخلاق شريفة وطباع كريمة ، وليس كذلك حالها فى عصر تدليها واضمحلالها ، ولو أنى أردت تبصير «إميل» علة هذا التدلى لحصرتها فى إعواز (١) الفضائل الجمهورية إعوازا كان سببا لنجاح الحكم المطلق فى رومية وطول مدته . فلست أخشى على الحرية ما قد ينتابها من الأخطار المادية ولا أخاف على رومية أن يقف بأبوابها التركينيون (٢) أو بورشينة (٣) يبتغون الاستيلاء عليها مادام فيها أمثال موشيوس سيفولا (٤) ، إنما الذى أخافه على أمة من الأمم هو خسة الضمائر ولؤم السرائر .

نفوسنا هى مواطن الظلم ومكامن البغى فالذى علينا هو أن نحاربه فيها ونجليه عنها قبل محاربة الملوك الظالمين و إجلاء الجبابرة الغاشمين ، من أجل هذا لم يك ينفع بروتوس (٥) وأنصاره أن يقروا بطن القيصر فإن قلب رومية كان مقروحا بالداء القيصرى .

---

(١) أعواز الفضائل نقصها أو فقدانها .

(٢) التركينيون هم بعض ملوك رومة الأولين .

(٣) بورشينة هو ملك اترورية حاول اعادة التركينيين الى ملك رومية فهدده موشيوس سيفولا فولى مذعورا .

(٤) موشيوس سيفولا هو رجل رومانى أراد أن يقتل بورشينة ملك اترورية فأخطأه وقتل كاتب اسراره وأراد أن يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى فى جذوة نار مستعرة .

(٥) بروتوس واسمه مرقص جوليوص احد قتلة قيصر الرومان .

كَانَ أَوْلَى بِذَلِكَ الرَّجلِ وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِعَ تَاجَ الْمُلْكِ مِمَّنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا لَهُ أَنْ يَرْجِعَ أَوَّلًا الَى قَلْبِهِ فَيَنْتَزِعَ مِنْهُ كِبْرَ الأَشْرَافِ ثُمَّ يَنْتَزِعَ إِنِ اسْتَطَاعَ مِنْ نُفُوسِ قُرَنَائِهِ مَا عَلِقَ بِهَا مِنَ الرَّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ الَّتِي تَقْتَضِي وَازِعًا يَرُدُّ مِنْ جِمَاحِهَا وَيَكُفُّ مِنْ نَزَعَاتِهَا ، وَلَوْلَا تَقْصِيرُهُ فِي ذَلِكَ لَاسْتَحَقَّ مَا أَتَاهُ مِنَ الأَعْمَالِ الدَّالَّةِ عَلَى الشَّهَامَةِ وَالبَسَالَةِ أَنْ تَبْيَضَّ بِهِ صُحُفُ التَّارِيخِ، بَلْ كَانَ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الأَعْمَالِ أَنْ تُؤَخِّرَ اسْتِقْرَارَ حُكْمِ الاسْتِبْدَادِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقُومَ بِالأُمَّةِ مِنْ وَهْدَةِ انْحِطَاطِهَا .

حَدَثَتْ فِي أُخْرَيَاتِ أَيَّامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ أَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ شَوَّهَتْ مَحَاسِنَهَا كَالنِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ الْوَحْشِيِّ وَإِهْدَارِ الدِّمَاءِ وَضُرُوبِ التَّعْذِيبِ وَالأَطْمَاعِ الْخَسِيسَةِ وَبَيْعِ الضَّمَائِرِ وَتَنَاوُبِ أَرْسَالِ (١) الضُّعَفَاءِ الأَوْغَادِ التَّعَلُّقَ بِعَجَلَةِ الظَّافِرِ . عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ يَظْهَرُ فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ قَرَارَةِ الدَّهْمَاءِ (٢) الْمَنْهُوكِينَ الْمُنْحَطِّينَ بَعْضُ الأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ظُهُورَ الصُّخُورِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى مَا حَوْلَهَا مِنَ الْمِيَاهِ الْمُنْخَفِضَةِ . وَلَا قُنُوطَ مِنَ ارْتِفَاعِ شَأْنِ الْحُرِّيَّةِ مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ أُبَاةٌ لِلضَّيْمِ مُوقِنُونَ بِظَفَرِهِمْ فِي الذَّوْدِ عَنْهَا ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهَا وَقَدْ يُلَاقُونَ الْهَزِيمَةَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ انْدِثَارَهَا انْدِثَارًا لَا قِيَامَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا تَزْهَقُ رُوحُ الأَمَلِ مِنْ حَيَاتِهَا مَتَى انْحَازَتِ الْعُقُولُ بَعْدَ كَلَالِهَا وَهِيَ صَامِتَةٌ إِلَى حُكُومَةٍ مُطْلَقَةٍ، لَكِنَّهَا سَاكِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ، تَلِينُ لِلْمَحْكُومِينَ كُلَّمَا شَعَرَتْ بِازْدِيَادِ أَمْنِهَا وَزَوَالِ مَخَاوِفِهَا ، فَأَضَرُّ

(١) الأرسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء .

(٢) الدهماء : جماعة الناس .

نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا هُوَ الْحُكْمُ الِاسْتِبْدَادِيُّ الْمُجَرَّدُ مِنَ الصَّرَامَةِ وَالْقَسْوَةِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ أُغُسْطُسَ لِلرُّومَانِ .

كَانَ عُجْبُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ لَا يَزَالُ يَتَغَذَّى بِبَعْضِ ضُرُوبٍ مِنَ الْغُرُورِ غَرِيبَةٍ ، كَكَوْنِهَا لَا تَزَالُ خَيْرَ أُمَّةٍ بَلْ أَمِيرَةَ الْأُمَمِ ، وَكَوْنِ أَعْلَامِهَا وَأَلْوِيَتِهَا لَا تَزَالُ مُبَجَّلَةً فِي الْخَارِجِ ، وَكَوْنِهَا تَنْتَصِرُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ ، وَكَوْنِهَا صَاحِبَةَ الْآلِهَةِ وَصُحُفِ الْكَاهِنَاتِ ، وَالْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ وَالْآثَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْأَجَانِبَ ، وَكَوْنِهَا جَدَّدَتْ بِنَاءَ رُومِيَةَ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْأَبَدِيَّةُ مِنْ قَوَاعِدِهَا إِلَى سُقُوفِهَا — كُلُّ هَذَا صَحِيحٌ وَلَكِنْ وَاحَسْرَتَاهُ ! فَلَيْسَتْ تَعْبِئَةُ الْجُيُوشِ وَلَا إِنْشَاءُ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ وَلَا بِنَاءُ الْمَعَابِدِ مِمَّا يُغْنِي عَنِ الْأُمَّةِ مِنْ سُقُوطِهَا شَيْئًا ، فَقَدْ بَقِيَ مَعْبَدُ الْمُشْتَرِي الْمُسَمَّى بِالْقَابِيتُولِ فِي رُومِيَةَ بَعْدَ فَنَاءِ الرُّومَانِ .

لَيْسَ لِي إِلَّا كَلِمَةٌ أَقُولُهَا فِي شُعَرَاءِ عَصْرِ أُغُسْطُسَ وَهِيَ : إِنَّ أَحْسَنَ هَؤُلَاءِ الشُّعَرَاءِ قَطْعًا فِي نَظَرِ الْمُعَلِّمِينَ هُمَا : (فِرْجِيلُ) وَ (هُورَاسُ) فَهُمَا اللَّذَانِ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ أَنْ تُجْعَلَ كُتُبُهُمَا فِي أَيْدِي النَّاشِئِينَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَإِنْ كَانَ كِلَاهُمَا قَدْ تَجَرَّدَ فِي مُعْظَمِ مَا كَتَبَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَكَرَامَتِهَا ، أَلَمْ يُلَاحِظْ مَنْ قَرَأَ عَنِينِيَةَ(١) فِرْجِيلَ أَنَّ نَفْسَ مَغْزَاهَا مَلَكِيٌّ وَهُوَ مَغْزَى مَا كَانَ يَرِدُ — عَلَى مَا أَرَى — فِي ذِهْنِ شَاعِرٍ زَاهِرِ الْخَيَالِ فِي أَيَّامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَمِيلَةِ فَقَدْ وَصَفَ فِرْجِيلُ مَمْدُوحَهُ الْمُسَمَّى (عَنِي)

(١) عنيية فرجيل : قصيده قالها فى مدح عنى وهو أمير طروادى بن انشيز والزهرة ، وصفه فيها بأنه مؤسس النسل الرومانى .

بِالإنسانِ الَّذِى تجلّتْ فيهِ العِنايةُ الإلهيةُ، وتوحّدتْ فى شخصِهِ الأمّةُ وبأنّهُ المُنجى لأمّتِهِ، المؤسّسُ لجيلِهِ، ومثلُ هذهِ المعانى يُرى عليها أنّها موسومةٌ بميسمِ(١) المُلكِ الّذى برزتْ فى عهدِهِ، ومطبوعةٌ بطابعِ القرنِ الّذى ظهرتْ فيهِ، وسواءٌ أكانتْ حسنةً أم قبيحةً من حيثُ الفنّ، فهى تشفُّ عن حالةِ العقولِ فى هذا العصرِ، وتُسفرُ عنِ الخطّةِ الّتى رسمتها لنفسها الحكومةُ الذاتيةُ حتّى فى نفوسِ الخيارِ منَ الأمّةِ.

إنّ أجودَ الأشعارِ وأحسنَها ليسَ فى استطاعتِهِ أنْ يحجبَ دناءةَ النفسِ، ولا أنْ يسترَ خسّةَ الطبعِ. ولقدْ كانَ شعرُ اللاتينِ قدوةً سيّئةً لخلفِهِمْ بما كانَ يصدرُ عنهُمْ منْ ضروبِ التّمليقِ الخسيسِ وأنواعِ المدائحِ الّتى كانوا يطرونَ بها أغسطسَ تحقيقًا لأغراضِهِمْ ونيلًا لأمانيِهِمْ، فأسّسوا بهِ فى الدُّنيا منْ حيثُ لا يشعرونَ وظيفةَ الكتّابِ والشّعراءِ المتزلّفينَ، على أنّ فرجيلَ و«هوراسَ» كانا أميرَى هذهِ الصّناعةِ. ولمْ يكنْ غيرُهُما فيها إلّا عيالًا عليهِما.

أُلخّصُ لكَ ما تقدّمَ فأقولُ: إنّ دراسةَ آثارِ الأقدمينَ تختلفُ ثمراتُها باختلافِ الطّريقةِ الّتى تُباشَرُ بها فإجلالُ هؤلاءِ بلا قيدٍ ولا تمييزٍ ولا نقدٍ يؤدّى إلى ما تؤدّى إليهِ جميعُ ضروبِ الوثنيّةِ وهوَ صغارُ النّفسِ وضعتُها، ذلكَ بأنّ ما يؤثرُ عنهُمْ منَ المحفوظاتِ والخرافاتِ والكتبِ والأشعارِ الحسنةِ لهُ منَ الظّلمِ والتّحكّمِ فى النّفوسِ ما لا تقلُّ الخشيةُ منهُ على النّاشئينَ، عنْ خشيةِ ظلمِ الحكّامِ الغاشمينَ(٢)، وتحكّمِ

---

(١) الميسم: المكواة يوسم بها الحيوان و يعلم شبه بها سلطان الملك وقهره.

(٢) الغاشمين جمع غاشم وهو الظالم والغاصب.

الطُّغاةِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وَبِهَـذا يَبْطُلُ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّهُ يُوجَدُ الْيَوْمَ مِنْ تَلَامِيذِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ مَنْ يَلْتَمِسُونَ فِي عُلُومِ الْبَيَانِ وَسَائِلَ لِلذَّوْدِ عَنْ مَصَالِحِ الْغَابِرِينَ وَمَغَالِطَاتِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرُومُونَ مِنْهَا دُرُوعًا حَصِينَةً لِلْحُرِّيَّةِ تَكُفُّ عَنْهَا عَوَادِيَ الْبَاغِينَ .

نَحْنُ عَلَى مَا فِينَا مِنَ النَّقَائِصِ كُلِّهَا أَحْسَنُ مِنَ الْأَقْدَمِينَ حَالًا وَأَرْفَعُ شَأْنًا ، وَإِنْ جَازَ عَلَيْنَا التَّدَلِّي وَالانْحِطَاطُ كَمَا جَازَ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّ فِينَا قُوَّةَ النُّهُوضِ وَالارْتِفَاعِ إِلَى مَا انْحَطَطْنَا مِنْهُ ، وَأَنَّ لَنَا عَلَيْهِمْ فَضْلًا كَبِيرًا بِسُمُوِّ وِجْدَانِنَا ، فَكَأَنَّنَا بِتَأَخُّرِنَا عَنْهُمْ فِي الْوُجُودِ قَدْ أَخَذْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ نَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ ، لِأَنَّ وِجْدَانَ الْوَاجِبِ كَوِجْدَانِ الْحَقِّ يَنْمُو وَيَرْتَقِي بِمُرُورِ الزَّمَانِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهُ لَا يُنْكَرُ مَا لِلْحَضَارَةِ الْحَاضِرَةِ مِنْ ضُرُوبِ التَّأْثِيرِ فِي النُّفُوسِ وَالْعُقُولِ إِلَّا مُكَابِرٌ خَبِيثُ الطَّوِيَّةِ ، وَلَسْتُ أُرِيدُ بِمَا قُلْتُهُ أَنَّنَا أَصْبَحْنَا بِهَـذِهِ الْحَضَارَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْأَقْدَمِينَ أَخْلَاقًا فَاضِلَةً ، وَطِبَاعًا بَاسِلَةً ، وَمَعَارِفَ وَاسِعَةً ، وَتَحَمُّسًا فِي الْمَيْلِ إِلَى الْحُسْنِ . لَا ! أَلْبَتَّةَ ، بَلْ أُرِيدُ أَنَّ مَعَانِيَ الْعَدْلِ وَاحْتِرَامِ حَقِّ الْغَيْرِ قَدْ شَاعَتْ فِينَا وَرَسَخَتْ فِي نُفُوسِنَا فَصِرْنَا أَكْثَرَ مِنْهُمُ اهْتِمَامًا بِمَنْ يُخَالِفُونَنَا فِي الْعَنَاصِرِ وَالْأَحْوَالِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْأَقَالِيمِ وَأَلْوَانِ الْجُلُودِ ، فَنَحْنُ الْآنَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُنَا مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ أَقَلُّ مِنَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ بُعْـدًا عَنْ كُلِّ مَا لَهُ مَسَاسٌ بِالْإِنْسَانِيَّةِ (١) .

(١) قد أبدع أراسم كل الابداع فى المقارنة بين بعض رجال التاريخ اليونانى والرومانى وبعض عهود قياصرة الرومان وبعض وفى بيان العبر التاريخية التى تستفاد من تاريخ المملكة الرومانيـة ووضع للمؤرخين مثالا حسنا وقدوة صالحة لانتزاع هذه العبر من الحوادث فينبغى لكل مؤرخ أو مدرس أن يحتذيها وإلا كان عمله غير مجد ، وأما مفاضلته بين الغابرين والحاضرين وتفضيله هؤلاء على أولئك ففيها نظر لانه ان صح ان معانى العدل واحترام الغير قد شاعت فى الناس من حيث هم أفراد فليس بصحيح شيوعها فيهم من حيث هم جماعات وأمم فلا تزال الأمم القوية تحتقر الأمم الضعيفة وتغمطها حقوقها — المترجم .

الشـــذرة الثالثة عشرة

السَّفَرُ مِنْ أَرْكَانِ التَّرْبِيَةِ

إِنَّ لِمَا تَتَأَثَّرُ بِهِ النَّفْسُ وَتَحْفَظُهُ الذَّاكِرَةُ فِي الصِّغَرِ مِنَ اللُّصُوقِ وَالتَّمَكُّنِ مَالَا يَغْبَى(١) عَلَى أَحَدٍ، هَذَا شكسبير(٢) يَدْعُو حَالُهُ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مُعْظَمَ الْفَضْلِ فِي بُلُوغِهِ تِلْكَ الْمَكَانَةَ الْعَالِيَةَ فِي الشِّعْرِ يَرْجِعُ إِلَى نَشْأَتِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ نَهْرِ الآوُنَ(٣) الْأَنِيقِ الَّذِى تَفِيضُ مِيَاهُهُ عَلَى مَدِينَةِ استراتفورد(٤) وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَوْدِيَةِ الْخِصْبَةِ الْغَنِيَّةِ بِالشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَمُجَاوَرَتِهِ لِغَابَةِ أَرْدَانَ(٥) الَّتِي كَانَتْ مُتَنَزَّهًا لَهُ فِي سِنِيهِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَتَبَ فِيمَا بَعْدُ الْقِصَّةَ الْهَزْلِيَّةَ الَّتِي عَنْوَانُهَا «كَمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى» اتَّخَذَ هَذِهِ الْغَابَةَ نَفْسَهَا مَحَلًّا لِأَهَمِّ مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاظِرِهَا، وَمَثَّلَ أَمَاكِنَهَا لِلنُّفُوسِ، وَجَلَّى مَوَاقِعَهَا لِلْأَذْهَانِ، بِأَوْجَزِ الْعِبَارَاتِ، وَأَوْضَحِ الْاشَارَاتِ، لَمْ يَكُنْ هَذَا إِلَّا لِكَوْنِهِ مَعَ نُزُوحِهِ(٦) عَنْ مَرْكَزِ استراتفورد الَّذِى هُوَ مَسْقَطُ رَأْسِهِ لَمْ يَنْسَ مَنْظَرَ هَذَا الرِّيفِ بَلْ حَفِظَهُ فِي مَطْوًى مِنْ مَطَاوِى نَفْسِهِ . وَهَذَا أوليفا رجولد سميث(٧) ذُو الْعَقْلِ الثَّاقِبِ وَالذَّكَاءِ الْمُتَوَقِّدِ، لَمْ يُذْهِلْهُ حِينَ أَقَامَ فِي لُونْدُرَة مَا شَاهَدَهُ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ وَالتَّشَوُّشِ عَنْ ذِكْرِ قَرْيَةِ (لِشْوَى) الَّتِي نَشَأَ فِيهَا، وَلَمْ يَنْسَهُ مَا كَانَ يَرَاهُ هُنَاكَ مِنْ جَدْوَلِ الْمَاءِ

(١) يغبى عليه الأمر لم يفطن له . (٢) شكسبير هو أشعر شعراء الانجليز كما مر .
(٣) نهر الآون هو أحد أنهار انكلترة المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد .
(٤) استراتفورد أهم مدينة فى مركز استراتفورد . (٥) غابة أردان هى فى هذا المركز أيضا .
(٦) نزوحه بعده . (٧) أولفيار جولد سميث هو شاعر وقصصى انجليزى شهير ولد سنة ١٧٢٨ ومات سنة ١٧٧٤ مسيحية .

وَالطَّاحُونِ وَالْكَنِيسَةِ وَفُنْدقِ الْحَمَائِمِ الثَّلَاثِ وَسِيَاجِ الْعِضَاةِ (١) وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِهَا، بَلْ مَدَحَهَا فِى الْقِصَّةِ الَّتِى كَتَبَهَا بَعْدُ وَسَمَّاهَا الْكُمَيْتَ (الأَبْرَنَ). وَكَانَ وَاشنجتُونُ إِرْفِنجُ (٢) الْكَاتِبُ الْمَجْرِيُّ الرَّحَّالَةُ الَّذِى اسْتَهْوَى النُّفُوسَ بِبَدَائِعِ ظَرْفِهِ، وَخَلَبَ الأَلْبَابَ بِدَقَائِقِ وَصْفِهِ، يَحْمَدُ اللهَ (تَعَالَى) أَنْ أَنْشَأَهُ عَلَى ضِفَافِ بَحْرِ أُوتْسُونَ (٣) وَيَقُولُ: إِنَّ مَا كَسَبَهُ طَبْعِى الْمُخْتَلِفُ الْعَنَاصِرِ مِنَ الْخَيْرِ وَالتَّهَذُّبِ يَصِحُّ أَنْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَحَبَّتِى لِهَذَا النَّهْرِ فِى صِغَرِى، فَقَدْ كُنْتُ فِى حِدَّةِ الْحَمِيَّةِ الصِّبْيَانِيَّةِ أَكْسُوهُ بَعْضَ الْخَصَائِصِ النَّفْسِيَّةِ وَأَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ رُوحًا يَقُومُ بِهَا وَأُعْجَبُ بِمَا فِى طَبْعِهِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الأَنْهَارِ الَّتِى تَبْسِمُ صَفَحَاتُهَا عَنْ خِدَاعٍ، وَتُضْمِرُ السُّوءَ بِمَا تَحْتَهَا مِنَ الشِّعَابِ الْمُهْلِكَةِ وَالصُّخُورِ الْغَدَّارَةِ، بَلْ هُوَ طَرِيقٌ مَائِىٌّ بَهِيجٌ جَمَعَ إِلَى عِظَمِ عُمْقِهِ كَثْرَةَ اتِّسَاعِهِ، يَحْمِلُ السُّفُنَ الَّتِى تُوكَلُ إِلَى أَمْوَاجِهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَنِيَّةٍ شَرِيفَةٍ، وَكُنْتُ أَتَخَيَّلُ نَوْعًا مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُجْبِ فِى اسْتِقَامَةِ مَجْرَاهُ وَسَكِينَتِهِ وَسَلَامَتِهِ الْبَاهِرَةِ.

إِنَّمَا مَثَّلْتُ بِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِمُ النَّفْسِيَّةِ فِى حَيَاتِهِمْ، غَيْرَ أَنِّى لَا أَرْتَابُ أَبَدًا فِى أَنَّ مَا يَحْتَفُّ بِالنَّاسِ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأُمُورِ الْخَارِجِيَّةِ لَا يُحْدِثُ فِى نُفُوسِ جَمِيعِهِمْ أَثَرًا وَاحِدًا وَأَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِى دَرَجَةِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وَأَنَّ مَا شَاهَدَهُ الإِنْسَانُ فِى صِغَرِهِ يُلَازِمُهُ فِى كِبَرِهِ وَيَصِيرُ جُزْءًا مِنْ نَفْسِهِ،

(١) العضاة بكسر العين جمع عضاهة وعضة وهى الشجرة العظيمة الشائكة.

(٢) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصى أمريكى ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨٥٩

(٣) بحر أوتسون هو خليج متسع على السواحل الشمالية للقسم الانكليزى فى أمريكة.

وَمَا تَحْجُبُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ يَافِعٌ لَا يُجَانِبُهُ فِي كِبَرِهِ ، بَلْ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي صُورَةِ خِلْقَتِهِ وَفِي مَجْرَى أَفْكَارِهِ .

لَيْسَ كُلُّ مَا يُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ مِمَّا تَتَنَاوَلُهُ مَشَاعِرُهُ يَصْلُحُ عَلَى السَّوَاءِ لِحِفْظِ صِحَّةِ عَقْلِهِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ (مِلْتُونَ)[1] كَانَ يَتَأَلَّمُ وَيَشْكُو مُرَّ الشَّكْوَى ـ وَهُوَ يَتَلَقَّى دُرُوسَهُ فِي مَدْرَسَةِ (كِمْبِرِدْجَ) الْكُلِّيَّةِ ـ مِنْ ضَوَاحِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مُعَلِّلاً شَكْوَاهُ بِأَنَّهَا خِلْوٌ مِنَ الظِّلَالِ الْوَارِفَةِ[2] الَّتِي تَجْذِبُ إِلَاهَاتِ الشِّعْرِ وَتُؤْوِيهَا ، وَكَانَ (رُوبِرْتُ هُولُ) الْكَاتِبُ الْإِنْجِلِيزِيُّ الذَّائِعُ الصِّيتِ الَّذِي كَانَ يَتَعَلَّمُ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ (مِلْتُونَ) بِقَرْنٍ وَنِصْفٍ يَنْسِبُ أَوَّلَ نَوْبَةٍ أَصَابَتْهُ مِنْ نَوْبَاتِ الْجُنُونِ إِلَى اسْتِوَاءِ الْأَرْضِ بِمَرْكَزِ (كِمْبِرِدْجَ) وَخُلُوِّهَا مِنَ الرُّبَى وَالْهِضَابِ ، الشَّجْرَاءِ .

النَّاسُ وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي دَرَجَاتِ تَأَثُّرِهِمْ بِفَقْدِ مَا هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لَا أَظُنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَأَثَّرُ الْبَتَّةَ بِمَا يَكُونُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالْمَنَاقِصِ فِي الْمَنَاظِرِ الرِّيفِيَّةِ الَّتِي يَرَاهَا عَلَى الدَّوَامِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا قَلِيلاً لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَلَشَدَّ مَا يَبْلُغُ هَذَا التَّأَثُّرُ السَّيِّءُ مِنْ أَذْهَانِ الْأَطْفَالِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْبَالِغَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَالْخَيَالِ مَا يَكْفِي لِمُفَاعَلَةِ مَا يَحْتَفُّ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، فَحَسْبُهُ فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ أَنْ يَخْتَرِقَ قَلْبَهُ شُعَاعٌ مِنْ أَشِعَّةِ الْحُبِّ ، أَوْ يَكُونَ فِي نَفْسِهِ وِجْدَانٌ قَوِيٌّ ، أَوْ تَجْتَمِعَ فِي ذِهْنِهِ بَعْضُ الْمَعَانِي حَتَّى يَرْتَقِيَ بِالرِّيفِ الْمُبْتَذَلِ الَّذِي لَا قِيمَةَ لَهُ فِي ذَاتِهِ مِنْ شُيُوعِ الِابْتِذَالِ ، إِلَى الِاخْتِصَاصِ بِشَرَفِ الْخَيَالِ ، وَلَيْسَ هَكَذَا حَالُ

(١) ملتون شاعر انجليزى شهير ولد سنة ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤

(٢) الوارفة المتسعة الممتدة .

الحَدَثِ الَّذِى بَيْنَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَالثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، فإِنَّهُ فِى هَذِهِ السِّنِّ لَا عَمَلَ لَهُ فِى فِطْرَةِ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِى اسْتِعْدَادِهِ إِذْ ذَاكَ مَا يَكْسُوهَا بَهَاءً، وَيَزِيدُهَا رَوْنَقًا وَرُوَاءً[1]، بَلْ هُوَ يَتَأَثَّرُ بِهَا كَمَا هِىَ، فَمِنَ الْفَوَائِدِ الْكُبْرَى لَهُ أَنْ يُولَدَ أَوْ يَتَرَبَّى بِالْقُرْبِ مِنْ بَعْضِ الْمَنَاظِرِ الْكَوْنِيَّةِ الْعُظْمَى كَمَنْظَرِ نَهْرٍ جَمِيلٍ أَوْ بُحَيْرَةٍ أَوْ جَبَلٍ أَوْ غَابَةٍ .

مَنْظَرُ الرِّيفِ فِى (كُورْنُوَاى) مَنْظَرٌ مَهِيبٌ غَيْرَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا تَغَيُّرَ فِيهِ، وَلَيْتَ هَذِهِ الْبِلَادَ كَانَتْ أَكْثَرَ أَشْجَارًا مِمَّا هِىَ الْآنَ، فَإِنَّ مَثَلَ الْيَافِعِ الَّذِى لَا يَرَى إِلَّا نَاحِيَةً مِنْ نَوَاحِى الْكَوْنِ كَالصُّخُورِ أَوْ الْبَحْرِ كَمَثَلِ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ إِلَّا كِتَابًا وَاحِدًا .

لَا بُدَّ فِى تَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ خُصُوصًا فِى صِغَرِهِ مِنْ تَنَوُّعِ الْفَوَاعِلِ لِتَتَنَوَّعَ آثَارُ انْفِعَالِهِ بِهَا، ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ يَمِيلُ إِلَى بَعْضِ الْمَنَاظِرِ دُونَ بَعْضٍ، حَتَّى يَكُونَ هَذَا الْبَعْضُ الَّذِى يَمِيلُ إِلَيْهِ كَطَبْعِهِ فِى الِاخْتِصَاصِ بِهِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ ضُرُوبَ الْحُسْنِ فِى الطَّبِيعَةِ تُقَابِلُهَا فِى نُفُوسِ النَّاسِ مُنَاسَبَاتٌ ذَاتِيَّةٌ، وَلَيْسَ الْمَنْظَرُ الَّذِى يَتَخَيَّرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ يَأْتِيهِ عَلَى الدَّوَامِ عَفْوًا، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ السَّعْىِ وَرَاءَ تَحْصِيلِهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْشَأُ اتِّفَاقًا فِى سَهْلٍ مِنَ السُّهُولِ وَيَكُونُ مَيْلُهُ لِلْمَنَاظِرِ الْجَبَلِيَّةِ، وَيُوَافِقُ هَذَا قَوْلُ أَحَدِ الْكُتَّابِ فِى وَصْفِ رَجُلٍ لَا أَذْكُرُ الْآنَ مَنْ هُوَ : إِنَّهُ عَرَبِىٌّ وُلِدَ فِى ظِلِّ شَجَرَةِ تُفَّاحٍ بِنُورْمَنْدِيَة[2] .

---

(١) الرواء حسن المنظر .

(٢) نورمندية اقليم من الأقاليم الفرنسية القديمة التى دخلها العرب الفاتحون .

بلغ « إميل » السنّ التي تبدو فيها حاجةُ الناشيء إلى الاختلاط بما حوله ، والمربون يخدعون هذه الحاجة في معظم المراهقين ، بإيتائهم قصصاً في الأسفار هي ولا ريب أدعى الكتب إلى التفاتهم إليها واشتغالهم بها ، غير أنه مما لا نزاع فيه أن وصف البلاد بالغاً ما بلغ من قوة البيان وضبط التحرير لا يرتقي في تأدية العلم بها إلى درجة المعاينة ، بل هو أدنى منها كثيراً فلا يمكن أن يستغنى به عنها . من أجل ذلك كانت سن الثالثة أو الرابعة عشرة هي السن التي يظهر بها هوس الملاحة في رؤوس الصغار من سكان البلاد المجاورة للبحر كانجلترة ، فكم من هؤلاء الصغار البسلاء يصيبهم من ولوعهم بالتجوال في الأقطار السحيقة مرض لا يحد ولا يوصف ! كما يصيب العصفور الخطاف في الفصل الذي يهاجر فيه رفاقه ، فيتسللون من بيوت أهليهم فلا يعودون إليها في حياتهم . وأما سكان البلاد الأخرى فإن حب السفر لا يكون في الكثير منهم إلا حاجة وقتية لأنهم بعد أن يقضوا سبع سنين على سفر يركبون فيه متن المهالك (١) يرجعون إلى أوطانهم فيعيشون معيشة الاستقرار .

الذي يدهشني من المربين هو قعودهم حتى الآن عن البحث في الانتفاع بالأسفار في التربية وجعلها ركناً من أركانها ، إن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم إلى الزمن ، قلت إن السفر إلى أمريكة مثلاً لا يقتضي الآن من الزمن أكثر مما يلزم لتعليم التلميذ شكل الكرة الأرضية تعليماً فيه شيء من الحق ، على ما في السفر

(١) المتن : الظاهر واستعير للسفينة تشبيها لها بالمطية التي يركب على ظهرها وإنما سميت متن المهالك لأنها معرضة للعطب في كل وقت .

ومعاينة الأشياء من الفوائد الكثيرة التي لا يستفيدها المتعلم من أي درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية . وإن قيل إن ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذي يخيف المربين منه ويصدهم عنه ، قلت قد نهمت هذا الاعتراض ، إلا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة ، وإنما أكبر العوائق في هذه السبيل هو حذر الآباء والأمهات وخوفهم على أولادهم ، فإن فكرة غياب الغلام الغر عن نظر أمه ، ووكله لأمواج البحار ، ومخاوف الأسفار ، وتخليته ونفسه مما يهيج نفوس الأمهات وتثور له قلوبهن ، لا جرم أن اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والإجلال ، ولكن ينبغي أن يفهمهن القائمون على التربية أن ليس في الغياب شيء يقطع أواصر الرحم ، وأن عرى المحبة والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة مهما اتسعت مسافة البعد بينها ، وأنه لا خوف من الحرية إلا على الأبناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة . على أنه لا يصح أن تكون محبة الوالدين لأولادهما الأعزاء مقصودًا بها لذتهما ، بل لا بد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهم ، فإن رحمتهما بهم تدب إليها شبهة الأثرة(١) إذا انحصرت في إبقائهم في كنفهما(٢) وإن أخل ذلك بتلك المصلحة .

وفوق ذلك فإنه لم يكن من العبث أن استعملت في أيامنا هذه قوة البخار في طي المسافات الشاسعة وتقريب الأقطار المتنائية ، وأبعدت الملاحة في فتوحاتها

---

(١) الأثرة : اختيار الشيء والاختصاص به دون الغير .

(٢) كنف الشيء : جانبه وناحيته وظله وكنف الانسان : حضنه

ورخصت للناس أسعارها ، فأصبح السفر إلى البلاد المسامتة لنا من أسفل معتبرا عند شبان الإنجليز من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر ، وقد شعر النوع الإنساني بنمو أجنحته للرقي فلا محيص من التسليم ، وأنا أخشى أن لا تغني حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر ، ولا الجدول الإطلانطيقي شيئا مما يجده خلفنا في نفوسهم من الحمية والحاجة إلى رؤية العالم .

جميع الأمم الحرة أمم رحالة لا يعوقها بعد المسافات ، ولا اختلاف الأقاليم ، ولا العقبات المادية ، بل ولا تعلقها المتين الأعمى بالزاوية التي تعيش فيها من الأرض .

القوانين التي جرى عليها توزيع أجيال النوع الإنساني على البلدان قد تحدد بعضها بالفطرة ، وبعضها بالتاريخ ، وكثير منها بسياسة الحكومات ، ومازال الحاكمون في كل عصر يعنون أشد العناية بأن يعيش المحكومون ويموتون في الأرض التي ينبسط عليها سلطانهم ، سواء في ذلك الأغنياء منهم والفقراء ، وقد استنتجوا من كون هذا الأمر مفيدا لمصالح ملكهم أنه من الفروض التي لهم على رعاياهم ، ونجحوا في إقناعهم بذلك ، وكان من أوهام المربين ، وخيالات الشعراء ، وأفكار رجال الدين ، ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس في القلوب غريزة يشترك فيها الإنسان والعجماوات ، وهي حبه للمكان الذى ولد فيه ، نعم إنها من الغرائز الحسنة ، ولا تنس أنها هي السبب في تألف الجماعات ، ولكن لا يعزب (١) عن

---

(١) لا يعزب : لا يغيب .

ذكرك أيضا أنه يسهل أن يساء استعمالها ليبقى المستضعفون من الناس عبيدا للأقوياء الناشمين .

لما كانت جماعات الإنسان فى بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها فى بقعة من بقاع الأرض، كانوا معتادين من صغرهم المعيشة فى الأماكن التى يجدون فيها ما يقتاتون به، ووصلت بهم هذه الحالة إلى حد أنهم قد عدوا هذه العادات الانحصارية من الفضائل، وأما أنا فلا أعدها إلا معيبة، ولا أقدرها بما لا تستحق، فما زال الفلاح اللاصق بأرضه يقلبها ويزرعها أدنى منزلة على الجملة من المدنى ، والمدنى نفسه يستفيد ويرتقى كثيرا إذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم .

الأمم التى تكون عالة على أرضها، أجنبية عن لغات غيرها، فى وسعها - ولا شك - أن تقوم بعظائم الأمور وجلائل الأعمال، لكنها تكون أكثر من غيرها استهدافا لقوارع[1] البغى السياسى، فإنها لا تتأثر من تعطيل القوانين، ولا من أبطال كفالات الحرية، ولا من دوس حقوق الأفراد واهتضامها، ذلك لأن أبناءها يلتصقون وهم كالمستميتين بقطعة الأرض التى تؤويهم، وقد دنسها الدم الذى سفكه عدوها الظافر وجعل منه قربانا لسيفه، فالاغتراب أشد رهبة فى صدورهم من جميع المصائب، ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القومية من كل ناحية ، فإذا نفى بعض ذوى الوجاهة والنفوذ من الأحزاب المستضعفة، إما بحكم الضرورة أو بما يتخذ من طرق القهر فى زمن الفتنة، كان النفى أبلغ المحن فى نفوسهم ألما، فتراهم حيارى

(١) القوارع : جمع قارعة وهى النازلة الشديدة .

لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ، وَلَا مَاذَا يَصْنَعُونَ ، وَقَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَهُمْ خَارِجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ صَحْرَاءَ يَعُوزُهُمْ فِيهَا الدَّلِيلُ، قَفْرًا مُوحِشًا لَا يَجِدُونَ فِيهِ الْأَنِيسَ.

وَأَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي يَعْتَادُ أَفْرَادُهَا مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ قَطْعَ أَجْوَازِ[1] الْبِحَارِ، وَلَا يَكُونُونَ بِمَعْزِلٍ عَنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى وَعَوَائِدِهَا، وَيَدْرُسُونَ أَبْعَدَ ضُرُوبِ الْحَضَارَةِ عَنْهُمْ وَأَشَدَّهَا اخْتِلَافًا، فَإِنَّهَا لَا يَكُونُ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَلَيْهَا سَبِيلٌ، وَلَا يَخْشَى بَنُوهَا بَطْشَ الْقَوَانِينِ الْخَاصَّةِ، وَلَا التَّغْرِيبَ، بَلْ يَكُونُونَ أَصْدَقَ مِنْ فِلِيبُّسَ[2] الثَّانِي إِذَا قَالُوا مُتَشَبِّهِينَ بِهِ : « مَا كَانَتِ الشَّمْسُ لِتَغْرُبَ عَنْ حُكُومَتِنَا » .

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّ عَادَةَ السَّفَرِ قَدْ تُضْعِفُ فِي الْأَحْدَاثِ الْعَاطِفَةَ الْوَطَنِيَّةَ، فَأُجِيبُهُ : إِنِّي لَا أَمِيلُ قَطْعًا إِلَى عُمُومِ مَعْنَى الْوَطَنِيَّةِ وَاتِّسَاعِهِ، فَمَا أَتْعَسَ مَنْ تَكُونُ الدُّنْيَا كُلُّهَا وَطَنًا لَهُ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ إِنْسَانًا إِلَّا بِشَرْطِ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَى طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْبَيْتِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ لُغَةٌ وَأُمَّةٌ خَاصَّتَانِ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ الْحَقِيقِيَّ يَضِيعُ كَثِيرٌ مِنْ مَعْنَاهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ رَوَابِطِ الْوَثَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ، الَّتِي كَثِيرًا مَا تُشَوِّهُهُ وَتَبْخَسُ قِيمَتَهُ، فَلَيْسَ الْوَطَنُ مُطْلَقًا عِبَارَةً عَنِ الْجَبَلِ أَوِ السَّهْلِ أَوِ الْغَدِيرِ الَّذِي يُولَدُ الْإِنْسَانُ بِجِوَارِهِ اتِّفَاقًا ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْقَرْمَدِ[2] أَوِ الْحَجَرِ، وَلَا هُوَ بِالْمَكَانِ الَّذِي يَحْصُرُهُ سَطْحٌ يُقَدَّرُ بِالْفَرَاسِخِ الْمُرَبَّعَةِ، كَلَّا ! لَيْسَ الْوَطَنُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مَعْنًى يَقُومُ بِالذِّهْنِ ، بَلْ تَارِيخُ الْأُمَّةِ، بَلْ

(١) فليبس هو ابن أمنتاس أحد ملوك مقدونية الخمسة الذين تسموا بهذا الاسم حكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٣٦ ق . م وفتح بلادا كثيرة .

(٢) القرمد : الآجر المحرق .

آثارُ سَلَفِها ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : إِنَّهُ وُجُودٌ كُلِّيّ تَشْعُرُ جُزْئِيَّاتُهُ بِالْمَعِيشَةِ فِيهِ ، وَلَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَضِيعُ فِي رُكُوبِ مَتْنِ الْبِحَارِ وَلَا فِي اجْتِيَازِ الْمَفَاوِزِ وَالْقِفَارِ ، إِذَا نُقِشَ عَلَى لَوْحِ الْقَلْبِ وَارْتَاضَتْ (١) بِهِ النَّفْسُ .

جَاءَتْنَا أَخْبَارٌ مِنْ بِلَادِ الْبِيرُو بِوَاسِطَةِ بَعْضِ مَعَارِفِنَا تَحْمِلُ عَلَى الاعْتِقَادِ بِأَنَّ دُولُورِيسَ قَدْ سُلِبَتْ أَمْوَالُهَا بِتَوَاطُئٍ حَصَلَ بَيْنَ أَقَارِبِهَا ، وَقَدِ اسْتَفْتَيْنَا الْعَارِفِينَ بِالْقَانُونِ فَكَادُوا يُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْغَامِضَةَ لَا يَنْجَلِي غُمُوضُهَا وَلَا يَنْكَشِفُ سِرُّهَا إِلَّا فِي الْبِيرُو ، وَأَنَّهَا تَقْتَضِي أَنْ نُوَسِّطَ فِيهَا صَدِيقًا نَعْهَدُ إِلَيْهِ بِمَصْلَحَةِ الْفَتَاةِ الْمَهْضُومَةِ ، فَنَقَّبْنَا عَنْ هَذَا الصَّدِيقِ فَلَمْ نَقَعْ عَلَيْهِ .

صَنَائِعُ الْبِرِّ يَسْتَلْزِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَإِنَّنَا وَإِنْ لَمْ نَتَبَنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ الْأَجْنَبِيَّةَ قَدِ الْتَقَطْنَاهَا ، وَآوَيْنَاهَا إِلَى بَيْتِنَا ، وَصَارَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْنَا إِنْصَافُهَا فِي بَلَدِهَا .

فَكَّرْتُ فِي أَنْ أُسَافِرَ بِنَفْسِي لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَصْلَحَةِ ، فَرَأَيْتُ غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ تُدَافِعُنِي عَنْ تَنْفِيذِ هَذَا الْقَصْدِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ قَطْعُ تِلْكَ الشُّقَّةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ النَّفَقَاتِ ، وَعَدَمُ احْتِمَالِ الْفَوْزِ بِالْحَقِّ فِي الدَّعْوَى ، وَالرَّوَابِطُ الَّتِي تَرْبِطُنِي بِالْبَقَاءِ فِي أُورُبَّةَ ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَإِنَّ سَبْعِينَ اعْتِرَاضًا قَوِيًّا قَدْ وَقَفَتْ بِي مَوْقِفَ الْمُتَرَدِّدِ بَيْنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ ، فَقَدْ تَعَاهَدْتُ أَنَا وَهَيْلَانَةُ بَعْدَ الَّذِي ذُقْنَاهُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ أَنْ لَا نَفْتَرِقَ ، وَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَ فِي مُكْنَتِهَا احْتِمَالُ سَفَرٍ شَاقٍّ كَهَذَا ، وَلَوْ أَنَّهُ اقْتَضَى أَنْ تَحْتَمِلَ مَضَضَ الْفُرْقَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً لَمَّا تَرَيَّثَتْ (٢) فِي اطِّرَاحِ خَاطِرِهِ .

(١) ارتاضت : تخلقت واعتادت . (٢) تريثت : تأخرت .

على أنَّ هذا الخاطر لا يزالُ يُساورُنى، والحالةُ التى أصبحنا فيها بسببِ كفالتِنا لتلكَ الفتاةِ العزيزةِ علينا، وما يلحقُنا من تبعاتِ التقصيرِ فى شؤونِها، لم تكد تتركُ لى حريّةَ الاختيارِ فى السفرِ، بل قد شعرتُ بواردٍ يأمرُنى به أمرًا .

وأقولُ على أىّ حالٍ : أفلا يجوزُ أن يكونَ الإنسانُ منافقًا يتخذُ المقدورَ من حيثُ لا يشعرُ ستارًا لإخفاءِ نفاقِه ؟ أفلا يصحُّ أننا مع اعتقادِ امتثالِنا فى العملِ لحكمِ الضروراتِ نتبعُ فى أغلبِ أعمالِنا ما توحيه إلينا شهواتُنا، أو نمزجُ المصلحةَ التى نتخيلُ أننا نقومُ بها لغيرِنا بشىءٍ من الأثرةِ، أو يكونُ ميلِى الغريزىُّ إلى التجوالِ هو الذى قد تنبَّه فى نفسى، واجتهدتُ فى مواراتِه بحجابِ صنيعةِ المعروفِ، أو أن تكونَ لى غايةٌ خاصةٌ أو سببٌ خفىٌّ يدفعُنى إلى تغييرِ الهواءِ الذى أنا فيه ؟

لستُ أقطعُ بشىءٍ من ذلكَ، ولكنِّى كلما تساءلتُ خُيِّلَ لى أنَّ قصدِىَ الأولَ إنما هو نفعُ الولدينِ اللذينِ أخذتُ على نفسِى تربيتَهما .

لو كانَ فى وُسعِى أن لا أستفتِىَ إلا ميلِى وذوقِى، لجازَ أن لا تكونَ البيرو هىَ المكانَ الذى أتخذُه من الأرضِ موضوعًا للدرسِ والتعليمِ، وذلكَ لفرطِ بعدِها، ولكن ما أوسعَ السفرَ إليها من ملعبٍ يتجلَّى فيه كثيرٌ من الوقائعِ والمرائى ! إذ يرى المسافرُ سمواتٍ مجهولةً له، يعمرُها من الكواكبِ ما لا ينيرُ أقطارَنا الكامدةَ (١) ليلًا، وبحارًا مشحونةً بالغرائبِ، وسواحلَ قاصيةً (٢) أبرزَها للعيانِ فعلُ الجبالِ الناريّةِ، وخليطًا من الأجيالِ الآدميّةِ التى لم يتمَّ امتزاجُها ولم تُسفرْ أخلاقُها عن تاريخٍ تامٍّ .

(١) الكامدة : المتغيرة اللون . (٢) قاصية : بعيدة .

سِنُّ الْمُرَاهَقَـةِ هِيَ السِّنُّ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا التَّأَثُّرُ قَوِيًّا، فَهِيَ الَّتِي تَنْتَقِشُ فِيهَا عَلَى الْمُخِّ صُـورَةُ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ أَتَمَّ انْتِقَاشٍ وَأَدَقَّهُ ، وَعِنْدَ « إِمِيلَ » الْآنَ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ — إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا — مَا يَكْفِي لِاشْتِغَالِهِ بِالْكَوْنِ، وَسَيُؤَهِّلُهُ دَرْسُ الْوَقَائِـعِ الْكَوْنِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ لِدَرْسِ الْمَعْقُولَاتِ، فَإِنَّ تَعْلِيمَ فَنِّ الْأَلْفَاظِ وَمُحَسِّنَاتِ اللُّغَةِ لِحَدَثٍ لَمْ يُشَاهِدْ شَيْئًا بِنَفْسِهِ وَيُرَاقِبُهُ وَيُحِسُّ بِهِ كَنَثْرِ الزَّهْرِ فِي كَهْفٍ اه .

الشذرة الرابعة عشرة

التَّرْبِيَةُ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ

عَنْ مِينَاءِ لُونْدُرَةَ فِي ٣ مارس سنة — ١٨٦

فِي الْبَحْرِ : — تَقَرَّرَ أَنْ يُقْلِعَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقِلُّنَا فِي يَوْمَيْنِ وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَنَامُ فِيهَا مِنَ الْآنِ .

ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مُنْذُ سِـتَّةِ أَسَابِيعَ إِعْلَانًا بِأَنَّ سَفِينَةً تُسَمَّى الْمُونِيتُورَ تُسَافِرُ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى بِلَادِ الْبِيرُو ، فَلَمْ أَلْبَثْ عِنْدَ وُصُولِي إِلَى لُونْدُرَةَ أَنْ سَأَلْتُ عَنْهَا وَلَاقَيْتُ رُبَّانَهَا فِي أَحْوَاضِ الْمِينَاءِ وَهُوَ رَجُلٌ فِي نَحْوِ الثَّانِيَـةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ، أَسْمَرُ قَصِيرٌ بَادِنٌ (١)، تُؤْذِنُ بَدَانَتُهُ بِأَنْ تَنْتَهِيَ بِسِمَنٍ مُفْرِطٍ مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عِيشَةِ الْجِدِّ وَالنَّشَاطِ، وَيُطْرِي النَّاسُ خِبْرَتَهُ وَمَتَانَةَ سَفِينَتِهِ، وَإِنِّي قَلَّمَا صَادَفْتُ وَجْهًا أَطْلَقَ مِنْ وَجْهِهِ، وَلَا أَدَلَّ مِنْهُ عَلَى الذَّكَاءِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لِي

---

(١) البادن : العظيم البدن بكثرة اللحم .

أنه عرف في أستراليَة رُبّانًا جسورًا انقطع للملاحة لا يعرف غيرها، كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقًا، فلما علم أنى صديق صديقه أقبل على بصدر رحب وقلب سليم، وكان من نتيجة هذا التعارف أن اتفقنا على أن أكون طبيبًا للسفينة كما كنت لهذا الصديق، وأن يكون «إميل» تلميذًا بحريًا في مدة السفر.

لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الأمر لما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل، فاجتهدت في تسكين روعها مبينًا لها مقاصدي منه.

بلغ «إميل» الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة، وأصبح طويل القامة قوي الجسم، يتمتع بصحة تامة، من أسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذي جرى عليه، وقد بدا لي أن اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية، وشد أعصابه، وتذليل عضلاته، بأعمال تقتضى من المهارة مثل ما تقتضيه من الشجاعة الحقيقية، فإني وهيلانة ما قصدنا قطعًا أن نجعله واحدًا من أجنة العلم الفاسد، الذين لا حياة لهم إلا في رؤسهم، فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين(١) الذين أعجزهم الدرس عن العمل، فليس هذا هو الكمال الذي نطلبه «لاميل»

رأيت الناس في مكان لا يحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة، فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ، فهم يتلفون بناهم، وينهكون أجسامهم، ولا أدرى أى قصد لهم في ذلك سوى تحصيل مجموع من المعاني

---

(١) المخدج : هو الذى يولد ناقصا بعد تمام مدة الحمل .

تتحجر فى أذهانهم ، تواضعوا على أن يسموها علماً ! ! غير أنى فى شك من أن ما يحصله المتعلمون من تلك المعانى يعوضهم شيئاً مما خسروه فى سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم .

ولست أقصد بقولى هذا تثبيط المتعلمين عن العلم ، فإن الإنسان خلق ليعلم ، وإنما أريد أن يفهموا أن العمل البدنى والعمل العقلى متكافئان فى لزومهما لتقوية العقل وإحصافه(١) ، فعلينا أن نربى كل ما وهبه الله لنا ولا نستخف بشىء منه .

إستشرت «إميل» قبل اعتزامى على هذا الفكر فألفيته مملوء النفس به ، لأنه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخراً بتعلمه حرفة ، ويجب فى هذا المقام أن أبين مرادى ، وهو أنى لا أعتقد بحال أن من حقى أن أختار لولدى عملاً تقوم به معيشته ، كما أنى لا أدعى لنفسى حق إلزامه الإيمان بعقيدة دينية أو سياسية ، على أنه لم يأت وقت التفكير فى الحرفة التى ينبغى أن يشتغل بها ، ولا أدرى هل يعرف بنفسه ما يلائمه من الحرف أو لا ، فإن تربيته فى غاية البعد عن نهايتها ، بل هى فى بدايتها ، ولكنى أرى أنه مهما حذق(٢) المربى فى التبكير بإنشاء الطفل على الميل إلى النفع والطمع فيه ، لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ، ولقد عرف «إميل» مما تلقاه على والدته من الدروس شرف العمل وكرامته ، فتراه يتخيل الآن أنه سيكسب أجرة سفره بتسلقه شرع السفينة ، وهو تخيل غير صحيح إلا فى جزئه ، غير أنى تحاميت كل التحامى إزالة هذا الوهم من نفسه ، وتركت له أن يفخر بأنه يطعم

(١) إحصاف العقل : إحكامه . (٢) حذق المربى : مهارته .

خبزه الجاف بكده ونصبه ، فإن أقل ما فى هذا أنه مفخرة كنت أكون جديراً باللوم لو أنى حرمته منها .

ثم إن التعلم فى سفينة تجارية مفيد ومقو للعقل ، خصوصاً إذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شهور ، فحرية الانسان على ظهر البحار هى أن لا يخضع إلا إلى الواجب ، فطاعة البحار فى الحقيقة فيها شىء من الإختيار ، وهذه هى الخاصة الفارقة بينه وبين الجندى ، فالرجل الذى يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبدى من قوتها ما يكفى لامتثال أمر الربان وهو يعلمه بقول موجز ما جهله من تلك النواميس ، يكون قد جمع فى عمله هذا بين الاستقلال والحكمة .

لست أبالغ لنفسى البتة فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة ، فأنا أعلم أن «إميل» لن يكون بحاراً لمجرد ما يمارسه من ضروب التمرن فى حبال السفينة ، بيد أن بلاءه فى ذلك لا يمكن أن يتخلف عنه استفادته منه ، فإنه بواسطته يتعلم شيئاً من أحوال البحر ، وبه يعرف أجزاء السفينة الأساسية وما يطلق عليها من الأسماء ، فكثير من أترابه لا يعرفون شيئاً من أمر هذه الدنيا السابحة .

أخص ما أعنى به فى هذا الأمر أن يحصل فى ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى ، وما يلزم للانسان فى مقاومتها أو قهرها من ثبات الجأش وحضور الفكر ، وسيكون هذا أعظم درس له فى سفره ، ومما لا يسعنى إلا أن أضحك منه أننى أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين(١) ، الذين ربوا من صغرهم

(١) المتبطلين : المتعطلين .

كِبْرًا وَغُرُورًا، إِنَّهُمْ مُلُوكُ الْخَلْقِ ، فَهَلَّا وَصَفُوهُمْ أَيْضًا بِأَنَّ أَيْدِيَهُمُ الْبَيْضَاءَ الرَّقِيقَةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِتَقُودَ عَجَلَةَ الشَّمْسِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ! رُوَيْدًا أَيُّهَا الْمُعَلِّمُونَ، قِفُوا بِهَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ أَمَامَ الْبَحْرِ فَانْظُرُوا مَا يَعْتَرِيهِمْ مِنَ الرُّعْبِ خَشْيَةَ أَنْ تَبْصُقَ أَمْوَاجُهُ الْكَثِيفَةُ فِي وُجُوهِهِمْ .

وَأَمَّا «إِمِيلُ» فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الْآنَ مَا يَجِبُ أَنْ يَبْذُلَهُ الْإِنْسَانُ فِي سَبِيلِ سِيَادَتِهِ عَلَى الْفَوَاعِلِ الْكَوْنِيَّةِ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعَهَا فِي كِفَاحٍ مُسْتَمِرٍّ لِيَحْفَظَ سُلْطَانَهُ عَلَى عَرْشِ الْمَاءِ .

حَادَثْتُ الرُّبَّانَ، وَهُوَ رَجُلٌ شَهْمٌ ، فِي شَأْنِ وَلَدِي وَكَاشَفْتُهُ بِفِكْرِي فِي تَرْبِيَتِهِ، فَفَهِمَ حَقَّ الْفَهْمِ الدَّرْسَ الَّذِي أَرَدْتُ تَعْلِيمَهُ إِيَّاهُ، وَهُوَ أَنَّ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَى الشُّبَّانِ أَنْ يَعْتَبِرُوا الْعَمَلَ الْعَقْلِيَّ جَزَاءً لِلْعَمَلِ الْبَدَنِيِّ وَمُكَافَأَةً عَلَيْهِ .

الشذرة الخامسة عشرة

مَا يُتَعَلَّمُ فِي السَّفِينَةِ

فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ مَارِسَ بَلَغْنَا مِينَاءَ جِرَافِسَنْد[1]، حَيْثُ سَلَّمَ مُعَرِّفُ[2] التَّامِيزِ[3] زِمَامَ سَفِينَتِنَا إِلَى مُعَرِّفِ الزُّقَاقِ (الْبُوغَازِ) الَّذِي أَخَذَ الْآنَ عَلَى نَفْسِهِ إِبْلَاغَنَا مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

---

(١) جرافسند هي احدى موانى انكلترة وموقعها في الجنوب الشرقي للوندرة .

(٢) المعرف : الدليل .

(٣) التاميز نهر من أنهار انكلترة يمر باكسفورد ولوندرة و يصب في بحر الشمال .

فِي نَحوِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْمَسَاءِ بَرَزَ الرُّبَّانُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ ، وَتَعَهَّدَ بِنَفْسِهِ مَا شُحِنَ فِيهَا مِنَ الْمُؤَنِ كَالْمَاءِ وَالْبُقْسُمَاطِ وَبَرَامِيلِ اللَّحْمِ الْمُمَلَّحِ وَاسْتَوْثَقَ مِنْ سَلَامَتِهَا ثُمَّ قَضَيْنَا لَيْلَتَنَا عَلَى الْمَرْسَاةِ .

وَقُرْبَ حَدِّ الظَّهِيرَةِ مِنَ الْغَدِ سَارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ تَجُرُّهَا بَاخِرَةٌ صَغِيرَةُ الْحَجْمِ شَدِيدَةُ الْقُوَّةِ تُسَمَّى «نلسن» ، وَفِي وَقْتِ مُرُورِنَا حِيَالَ(١) مَنَارَةِ « نُور » هَبَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ فَأَمْكَنَتْنَا مِنْ مَدِّ بَعْضِ الشُّرُعِ(٢) ، ثُمَّ تَغَيَّرَ لَوْنُ الْمَاءِ فَصَارَ ذَا خُضْرَةٍ كَدْرَاءَ .

كَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ هِيَ الْمُعَيَّنَةَ لِتَرَوُّلِي إِلَى حُجُرَاتِ الْمُسَافِرِينَ لِعِيَادَتِهِمْ فِيهَا ، وَلَيْسَ الْقِيَامُ بِشُؤُونِ الصِّحَّةِ فِي سَفِينَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ كُبْرَى مِنَ الْأَعْمَالِ (الْوَظَائِفِ) الَّتِي يُؤْجَرُ صَاحِبُهَا بِلَا نَصَبٍ وَلَا كَدٍّ ، فَإِنَّ « الْمُونِيتُور » تَحْمِلُ خَمْسَةً وَثَلَاثِينَ رَاكِبًا مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى ، وَقَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْوَى عَلَى أَوَّلِ صَدْمَةٍ لِلْبَحْرِ عَدُوِّ الْإِنْسَانِ وَيَكُونُ آمِنًا مِنَ الْعِثَارِ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَرَضِهِ إِلَّا هَيْلَانَةُ وَامْرَأَتَانِ أُخْرَيَانِ أَوْ ثَلَاثٌ .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ بَلَغْنَا حَوَالَيِ الْكُثْبَانِ ، فَأَلْقَى مُعَرِّفُ الزُّقَاقِ(٣) (الْبُوغَازِ) مَقَالِيدَ السَّفِينَةِ إِلَى رُبَّانِهَا ، وَنَزَلَ بِالسَّاحِلِ ، ثُمَّ رَجَعَتِ الْبَاخِرَةُ الْجَارَّةُ بَعْدَ إِبْلَاغِنَا هَذَا الْمَكَانَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ ، وَوَكَلَتْنَا إِلَى قُوَانَا أَيْ إِلَى شُرُعِ سَفِينَتِنَا ، وَلَمَّا رَأَى الْمُسَافِرُونَ وَالْمَلَّاحُونَ أَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ هِيَ آخِرُ مَوْقِفٍ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ بِالِاقْتِرَابِ مِنَ الْبَرِّ حَمَّلَ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الْمُعَرِّفَ رَسَائِلَ لِأَصْدِقَائِهِمْ تَتَضَمَّنُ بِالْبَدَاهَةِ آخِرَ وَدَاعٍ لَهُمْ .

(١) حيال : ازاء . (٢) الشرع : جمع شراع وهو قلع السفينة . (٣) الزقاق فى الأصل : الطريق الضيق والسكة سواء أكانت نافذة أم غير نافذة وأستعير هنا للمجاز من الماء يكون بين أرضين موصلا لبحرين .

جَاءَ دَوْرُ الْبَحَّارَةِ الْآنَ فِي الْعَمَلِ فَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ بِهِمَّةٍ وَإِقْدَامٍ ، وَاشْتَغَلَ الضَّابِطُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي لِلسَّفِينَةِ بِتَرْتِيبِ الْحَرَسِ ، فَعَيَّنَا لِكُلِّ حَارِسٍ عَمَلَهُ ، ثُمَّ تَدَلَّى مِنْ جَمِيعِ السَّوَارِي وَهِيَ فِي نِصْفِ ارْتِفَاعِهَا أَنْسِجَةٌ طَوِيلَةٌ نَفَخَتْهَا الرِّيحُ وَصَفَقَتْهَا (١) ، فَانْتَشَأَتِ السَّفِينَةُ تَمِيدُ (٢) ، وَكَأَنَّهَا شَعَرَتْ بِاسْتِقْلَالِهَا مِنْ وَقْتِ أَنْ ثَابَتْ (٣) إِلَيْهَا أَجْنِحَتُهَا ، وَكَانَتْ قُبَيْلَ هَذَا تَبْدُو عَلَيْهَا عَلَائِمُ الْكَآبَةِ وَالْخَجَلِ أَنْ تُرَى مَقُودَةً بِغَيْرِهَا .

أُدِيرَتْ عَلَى الْمَلَّاحِينَ كَأْسٌ مِنْ خَمْرِ عَسَلِ السُّكَّرِ اسْتَحَقُّوهَا كُلَّ الِاسْتِحْقَاقِ بِكَدِّهِمْ وَنَصَبِهِمْ .

مِمَّا عَرَفْتُهُ مِنَ الْأَمَاكِنِ فِي مَسِيرِنَا (بيشى هد) وَهُوَ رَأْسٌ فِي أَمِيرِيَّةِ (قُونْتِيَّة) صَاسِقْس ، وَجَزِيرَةُ وَايْت وَسْتَارَت بُو يِنْت ، وَقَدْ صَارَ الْمَاءُ الْآنَ ذَا نُضْرَةٍ بَهِيجَةٍ ، تَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ أَعْشَابٌ بَحْرِيَّةٌ تُشْبِهُ التِّبْنَ الطَّوِيلَ . صَادَفَتْنَا سَفِينَةٌ رَاجِعَةٌ إِلَى إِنْجِلْتِرَة فَخَاطَبْنَاهَا بِأَعْلَامِنَا الْمُلَوَّنَةِ وَسَأَلْنَاهَا بِهَذِهِ اللُّغَةِ السِّرِّيَّةِ أَنْ تُبَلِّغَ سَفَرَ سَفِينَتِنَا مَكْتَبَ الْمِلَاحَةِ لِشَرِكَةِ لِيُود .

انْتَهَيْنَا مِنَ اجْتِيَازِ الزُّقَاقِ (الْبُوغَازِ) فَخَرَجْنَا مِنْهُ وَكَانَ الْجَوُّ صَحْوًا فَصَعِدَ الْمُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ لِاسْتِنْشَاقِ النَّسِيمِ الْبَارِدِ .

قَلَّمَا رَأَيْتُ اللُّجَّ (٤) مَرَّةً لَمْ يَكُنْ مَرْآهُ فِيهَا مَثَارًا لِلْعَجَبِ فِي نَفْسِي ، وَلَكِنَّ أَخَصَّ مَا شَغَلَ ذِهْنِي مِنْهُ الْآنَ هُوَ جُمْلَةُ الْعُلُومِ الَّتِي اسْتَفَادَهَا الْإِنْسَانُ مِنْ مُمَارَسَةِ الْبَحْرِ :

---

(١) صفقتها : ضربتها . (٢) تميد : تتحرك . (٣) ثابت : رجعت .

(٤) اللج : معظم الماء .

أنْظُرْ إِلَى النِّظَامِ الْكَوْنِيّ تَجِدْ عِلْمَ الْهَيْأَةِ الَّذِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنْهُ إِنَّمَا تَوَلَّدَ مِنَ الْمِلَاحَةِ، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَنَّ حَاجَةَ الْانْسَانِ إِلَى الإِهْتِدَاءِ فِي سَيْرِهِ عَلَى ظَهْرِ الْبِحَارِ دَفَعَتْهُ إِلَى دَرْسِ الْفَلَكِ لَكَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ لَا يَخْطُرَ بِبَالِهِ أَصْلًا أَنْ يَتَقَصَّى(١) سِرًّا مِنْ أَسْرَارِهِ، فَاحْتِيَاجُهُ إِلَى السَّعْيِ فِي طَلَبِ الْغِنَى هُوَ الَّذِي اضْطَرَّهُ إِلَى قِيَاسِ الزَّمَانِ وَالْأَبْعَادِ قِيَاسًا مَضْبُوطًا، فَتَرَى الْمَلَّاحَ السَّاذَجَ مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ حَائِزًا بِالتَّحْقِيقِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ الْعَمَلِيَّةِ، سَلْهُ إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ تَجِدْ كَلَامَهُ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى مَا قَرَّرَهُ الْعَالِمُ الَّذِي قَضَى سِنِينَ كَامِلَةً فِي دَارٍ مِنْ دُورِ الْكُتُبِ، وَإِذَا كُنَّا الْآنَ قَدْ أَنْشَأْنَا نَظُنُّ أَنَّ لِلرِّيَاحِ وَالزَّوَابِعِ قَانُونًا فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا جُمِعَ مِنْ مُلَاحَظَاتِ الْبَحَّارَةِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي السُّفُنِ الْمُوَزَّعَةِ عَلَى جَمِيعِ الْبِحَارِ، فَأَصْبَحَ أَشَدُّ الْفَوَاعِلِ الْكَوْنِيَّةِ اسْتِعْصَاءً عَلَى الضَّبْطِ مُنْقَادًا إِلَى قَانُونٍ، وَدَخَلَ أَبْعَدُ الْحَوَادِثِ عَنِ النِّظَامِ فِي نِظَامِ الْعِلْمِ الْعَامِّ، وَكَشَفَتِ الْمَسَابِيرُ(٢) أَغْوَارَ قَعْرِ الْمُحِيطِ وَقِفَارَهُ الْمَفْرُوشَةَ بِأَسْلَابِ(٣) فَرَائِسِهِ، وَأَضْحَى الْآنَ مِنَ الْمَيْسُورِ رَسْمُ خَرِيطَةٍ لِتَيَّارَاتِ الْبَحْرِ السُّفْلِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّ الْفَضْلَ فِيمَا عَرَفْنَاهُ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ عَنْ شَكْلِ الْعَالَمِ رَاجِعٌ إِلَى الْمَلَّاحِينَ.

خُلِقَ الْبَحْرُ مِثَالًا لِلْأَزَلِ(٤)، لِأَنَّهُ مِثَالٌ لِلْحَرَكَةِ، فَتَشْهَدُ تَوَلُّدَ الْيَابِسَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ وَانْعِدَامَهَا، وَارْتِفَاعَ الْجِبَالِ، وَمَا وَقَعَ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ مِنْ ضُرُوبِ فِعْلِ الْأَرْضِ وَانْفِعَالِهَا

(١) يتقصى: يبلغ الغاية فى تعرفه. (٢) المسابير: جمع مسبار وهو الآلة التى يسبر بها أى يمتحن بها الغور. (٣) الأسلاب: جمع سلب وهو ما يسلب.

(٤) إن اراد بكونه مثالا للازل بعد عهد خلقه فذلك صحيح وان أراد أنه قديم أزلى فذلك غير صحيح لأنه مخلوق حادث — المترجم.

ممّا لا يزالُ يرتجفُ منهُ فؤادُهُ ، وهوَ اليومَ كما كانَ في مبدإِ العالمِ لا يعتورهُ نصبٌ في جهادِهِ وجلادِهِ ، فتراهُ يعضُّ بعضَ سواحلِهِ ويقرضُ ما يقاومهُ منَ الصخورِ الصوَّانيةِ ، ويقتلعُ بعضَ أجزاءِ الأرضِ منْ أماكنَ مختلفةٍ ، فينقلُها منْ أحدِ نصفيها إلَى النصفِ الآخرِ ، ليبنِيَ بها سواحلَ جديدةً وجزرًا ورءوسًا لا بدَّ أنْ يهدمَها بعدُ ، ويبدأَ بهِ علَى العملِ يتحوَّلُ منْ مكانٍ إلَى مكانٍ علَى تعاقبِ العصورِ بالقوّةِ الساكنةِ التي توجدُ فيما لا يموتُ منَ الأشياءِ (١) ، وكما أنَّهُ رحمٌ (٢) للخلائقِ العضويةِ الأولَى هوَ أيضًا أكبرُ مستودعٍ للحياةِ .

منَ المحقّقِ الّذى لا مريةَ فيهِ أنَّ ممارسةَ البحرِ قدْ وسَّعتْ دائرةَ علومنا ، ولكنَّا قدِ استفدنا منهُ ما هوَ أجلُّ منَ العلمِ نفسِهِ ، ألَا وهوَ ما يتحلَّى بهِ الرجالُ منَ الفضائلِ التي ينمّيها في النفسِ الجهادُ مع المحيطِ المخوفِ ، فلولا هذا الجهادُ لما عرفَ الإنسانُ شيئًا يستحقُّ المعرفةَ ، فما أمثلَ الملاحةَ طريقةً للتربيةِ ! فذلكَ المربِّي القاسي العبوسُ وأعني بهِ البحرَ يبثُّ كلَّ يومٍ في أذهانِ غلمانِهِ الّذينَ يتغذَّونَ بلبانِ معارفِهِ أنَّ النفوسَ متساويةٌ ، وأنَّ الفلاحَ إنَّما هوَ في الاعتمادِ عليها ، ويعلّمهمْ منَ البسالةِ ما لا تزعزعهُ الخطوبُ ، ومنَ الصبرِ ما يقوونَ بهِ علَى احتمالِ كلِّ ضروبِ الحرمانِ واقتحامِ جميعِ المخاطرِ ، ومنْ ذا الّذى في وسعِهِ أنْ يصفَ

---

(١) يشعر هذا القول بأن قائله يعتقد أزلية البحر وأبديته وهى عقيدة باطلة يستدل على بطلانها من قوله نفسه ، لأن ما دأبه التحول يستحيل عليه القدم والبقاء ، وجميع ما نسبه اليه من الأفعال هو فيه منفعل مقسور لا فاعل مختار ، وما الأزلية والابدية إلا لله الواحد القهار "كل شيء هالك إلا وجهه" — المترجم .

(٢) الرحم بيت منبت الولد .

مَا آتَى الجَنَانَ مِن الثَّبَاتِ ، وَمَا أَلْبَسَ النَّفْسَ مِنْ دِرْعِ القُوَّةِ ، وَهُوَ وَإِنْ غَلَبَهُ الْمَلَّاحُونَ بِمُثَابَرَتِهِمْ عَلَى قَهْرِهِ وَثَبَاتِهِمْ فِي طَلَبِ الظَّفَرِ بِهِ ، يَحِقُّ لَهُ فِي نَفْسِ هَذَا الْغَلَبِ ، أَنْ يَفْخَرَ بِغَالِبِيهِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ وَهُمْ تَلَامِيذُه .

الشذرة السادسة عشرة

(التَّرْبِيَةُ بِسَفَرِ الْبَحْرِ)

يوم ١٤ مارس سنة ١٨٦

إِضْطَرَّتْنَا الرِّيحُ إِلَى أَنْ نَجْتَازَ خَلِيجَ بِسْكَاى (١) ، وَقَدْ أَكَّدَ لِي الرُّبَّانُ أَنَّهُ وَأَمْثَالَهُ يَتَحَامُونَ مَا اسْتَطَاعُوا التَّوَرُّطَ فِي هَذَا الْمَجَازِ الَّذِي يَهَابُ اسْمَهُ الْمَلَّاحُونَ أَنْفُسُهُمْ ، وَهُوَ عَلَى شِدَّةِ تَلَاطُمِ الأَمْوَاجِ فِيهِ لَمْ يَعُقِ السَّفِينَةَ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَرُبَّمَا حَدَا بِي ذَلِكَ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مِنَ الْبِحَارِ مَا هِيَ كَبَعْضِ النَّاسِ فِي كَوْنِهَا أَمْثَلَ مِمَّا اشْتَهَرَتْ بِهِ (٢) .

مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ أُتِيحَ لِي فَرَاغٌ مِنْ عَمَلِي فَشَغَلْتُهُ بِدَرْسِ سَفِينَتِنَا ، فَإِذَا هِيَ دُنْيَا صُغْرَى تَطْفُو عَلَى الْمَاءِ ، جَعَلَتْهَا جَمِيعُ الْعُلُومِ وَالصِّنَاعَاتِ مِيقَاتًا (٣) لاجْتِمَاعِهَا ، تَرَى الْمَلَّاحَ فِيهَا يُلْجِئُهُ عَوَزُهُ إِلَى اسْتِئْنَافِ (٤) التَّمَدُّنِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَكَأَنَّهُ رُوبِنْسُنُ (٥) فِي جَزِيرَتِهِ ، يَخْتَرِعُ مُعْظَمَ الْفُنُونِ النَّافِعَةِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا ، ذَلِكَ أَنَّهُ لِخُلُوِّهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ يَتَوَلَّى

---

(١) خليج بسكاى ويسمى أيضا خليج قشقونى هو خليج فى المحيط الاطلنطيق واقع غربى فرنسة وشمالى إسبانية . (٣) الميقات الموعد الذى جعل له وقت .

(٥) يومىء الى روبنسن كروزو صاحب القصة المشهورة الذى كان فى جزيرة مقفرة يخترع كل مايحتاج إليه من أمر المعيشة .

بنفسه غسل ثيابه وفراشه وإصلاحها ، وتدلك نظافة حجرته دلالة كافية على ما سيكون عليه بيته الخلوى فى مستقبله ، فقد أوتى هذا الليث البحرى من غرائز العناية بالبيت ما أوتيته النملة (١) .

من مزايا السفينة أيضا أنها تؤدى إلى كل من ترتاح نفسه للعمل من ركابها عملا يشغله ، فقد عاود قوبيدون الاشتغال بالطهاية (٢) التى سبق له أن شرف بإجادتها فى أسفار سالفة ، وجعلت زوجته قهرمانة (٣) ، واختصت هيلانة بمساعدتى فى التمريض وبالعزف على المعزف (البيانو) تسرية للسآمة عن المسافرين وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعه .

جاز «إميل» التمرينات الأولى وصارت قدمه قدم بحار ، وأنشأ يتسلق سلالم الحبال التى على جانبى السفينة ، وهو يؤدى الأعمال التى يعلمه الملاحون تأديتها بما يكفى من الحذق المنتظر من غر (٤) مثله ، ومعيشة المتعلمين البحريين أمثاله فى سفينة تجارية ، على ما فيها من النصب والعناء معيشة صحية ، فإن تعرضه لنسيم البحر يشهى إليه الطعام ، حتى إنه ليكاد يلتهم حوتا من الحيتان المسماة بالكلاب البحرية لو قدم إليه ، ولله خفته ونضارته فى قميصه الأزرق ذى الطوق المنكسر الذى يبين نحره : جاءنى غدوة اليوم إثر عمل شاق بالنسبة لطفل مثله وألقى برأسه بين ركبتى وهو يتصبب عرقا ، فأحببت أن أشجعه ، لا أن أطريه (٥) ، لأن الاطراء هو سم

(١) كل من يراقب أحوال النمل يعرف مبلغ ماله من الدراية والحذق فى بناء مساكنه وتدبيرها . المترجم

(٢) الطهاية : معالجة اللحم وغيره بالطبخ أو الشى حتى ينضج . (٣) القهرمانة : الوكيلة .

(٤) الغر الساذج الذى لا تجربة له . (٥) أطريه : أبالغ فى مدحه .

النُّفُوسِ، يُفْرِطُ فِيهِ الآبَاءُ لِأَبْنَائِهِمْ بِمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَمْيَاءِ، فَهُمْ بِذَلِكَ يُعَوِّدُونَهُمْ إِرْضَاءَ غَيْرِهِمْ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ فِي رَأْيِي أَنْ يُعَلِّمُوهُمْ إِرْضَاءَ وِجْدَانِهِمْ (١)، مِنْ أَجْلِ هَذَا اقْتَصَرْتُ عَلَى ضَمِّ وَلَدِي إِلَى صَدْرِي وَتَقْبِيلِهِ، غَيْرَ أَنِّي أَحْسَسْتُ حِينَئِذٍ بِالْعَبْرَةِ فِي عَيْنِي، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدِ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْمُلَاطَفَةَ مِنِّي مَدْحًا لَهُ، لِأَنَّهُ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِي لِلْمُضِيِّ الَى عَمَلِهِ مَمْلُوءَ الْقَلْبِ بِالْفَرَحِ، وَلَا إِخَالُ أَحَدًا يُنْكِرُ اسْتِحْقَاقَهُ لِهَذَا الْمَدْحِ أَي لِتِلْكَ الْمُلَاطَفَةِ.

لَيْسَ فِي السَّفِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَهْتَمُّ بِأَنْ يَكُونَ نَافِعًا مِنْ جِهَتِهِ حَتَّى «لُولَا»، فَقَدْ فَاجَأَتْهَا بِالْأَمْسِ وَبِيَدِهَا كِتَابٌ كَانَتْ تُطْلِعُ عَلَيْهِ طِفْلَةً فِي الْخَامِسَةِ مِنْ عُمْرِهَا اتَّخَذَتْهَا صَدِيقَةً وَتُعَلِّمُهَا فِيهِ الْهِجَاءَ. اهـ

الشذرة السابعة عشرة

طَرِيقَةُ صَيْدِ خَنَازِيرِ الْبَحْرِ

يوم ٩ مَارِس سنة — ١٨٦

نَحْنُ الْآنَ تُجَاهَ جَزِيرَةِ (مَادِيرَة)، تَجْرِي بِنَا السَّفِينَةُ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ كَانَتْ مِنْ بِدَايَةِ سَفَرِنَا تَهُبُّ مِنَ الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ، وَقَدْ أَحْدَقَتْ بِنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ قُطْعَانٌ عَدِيدَةٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ الْبَحْرِيَّةِ، وَأَنْشَأَتْ تَمْرَحُ فِي الْمَاءِ وَتَلْهُو بِالزَّبَدِ الْمُتَخَلِّفِ عَلَى غَوَارِبِ (٢) الْأَمْوَاجِ مِنَ انْشِقَاقِهَا بِحَيْزُومِ (٣) السَّفِينَةِ فِي مَسِيرِهَا، فَبَادَرَ جَمِيعُ الرُّكَّابِ إِلَى السَّطْحِ

---

(١) الوجدان فى اللغة مصدر وجد، وفى اصطلاح العصر الحاضر حاسة باطنة يميز الانسان بها الخير من الشر. (٢) غوارب الأمواج : أعاليها. (٣) حيزوم السفينة : وسط صدرها الذى يشق الماء.

لِمُشَاهَدَتِهَا، وَكَانَ مِنْ « لُولَا » لَمَّا رَأَتْهَا أَنْ قَالَتْ : وَيْكَأَنَّ(١) هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ مُغْتَبِطَةٌ(٢) بِمَعِيشَتِهَا، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُصَبْ بِمَرَضِ الْبَحْرِ فِي حَيَاتِهَا .

إِسْتَعَدَّ ضُبَاطُ السَّفِينَةِ لِصَيْدِهَا، فَوَقَفَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ السَّارِي الْمُقَدَّمِ وَرَمَى خُطَّافًا كَانَ مَعَهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا ظَنَّ أَنَّ إِصَابَتَهُ أَيْسَرُ، وَحِينَئِذٍ جَرَّ الْمَلَّاحُونَ الْحَبْلَ الْمُعَلَّقَ بِهِ الْخُطَّافُ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا خِفَافَ الْأَيْدِي أَشِدَّاءَ السَّوَاعِدِ، وَإِلَّا وَجَدَ الْخِنْزِيرُ الْمُصَابُ وَسِيلَةً لِلرُّجُوعِ إِلَى الْمَاءِ وَالانْفِلَاتِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَقَدْ نَجَحُوا فِي الرَّمْيَةِ الثَّانِيَةِ فَاصْطَادُوا أَحَدَهَا، وَمِمَّا شَاهَدْتُهُ فِيهِ أَنَّ كَبِدَهُ تُشْبِهُ كَبِدَ الْخِنْزِيرِ الْبَرِّيِّ، وَلَحْمَهُ أَقَلُّ جَوْدَةً مِنْ لَحْمِ الثَّوْرِ، عَلَى أَنَّهُ يُحْضِرُهُ فِي الذِّهْنِ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِطَعْمِهِ فَبِلَوْنِهِ، لِأَنَّهُ أَحْمَرُ ضَارِبٌ إِلَى السَّوَادِ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ لَحْمِهِ زَيْتٌ جَيِّدٌ لِلاسْتِصْبَاحِ يُسْتَعْمَلُ فِي السَّفِينَةِ . اهـ

الشذرة الثامنة عشرة

(وَصْفُ مَا يُرَى فِي الْبَحْرِ مِنَ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ)

يوم ٢ مارس سنة — ١٨٦

نَحْنُ الْآنَ مَارُّونَ أَمَامَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَرَهَا — وَهِيَ مُرْتَسِمَةٌ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ الْمُتَّسِعِ — إِلَّا كَرُؤْيَا الْحَالِمِ ، وَقَدِ اضْطَرَّتْنَا الرِّيَاحُ الْمُتَنَاوِحَةُ(٣) إِلَى التَّوَغُّلِ فِي الْمُحِيطِ .

---

(١) ويكأن : أى عجب منها فكأنها . (٢) مغتبطة : أى مبتهجة على حسن حال ومسرة .

(٣) المتناوحة المتقابلة أو التى تهب من جهات مختلفة متعاقبة .

إننا منذ سفرنا نشعر بارتفاع الحرارة ارتفاعاً عظيماً، غير أن هذا اليوم هو أخص يوم أحسسنا فيه بدخولنا إقليماً غير إقليمنا، حتى إن « لولا » نفسها على ما بها من شدة التأثر بالبرد خلعت ثياب الشتاء وارتدت ثوباً وردياً .

كان غروب الشمس بالأمس من أجل المناظر وأبهاها، وكان الليل بهيجاً والقبة السماوية المظلمة تزهو بلآلئ النجوم التي هي كالرمل عدداً، ومالى وذكر أسمائها، فلا فائدة في ذلك، ويكفيني أن أسميها بالنور، ومما ميزناه منها الزهرة، التي مع كفها عن دعوى الألوهية واقتناعها بأن تكون فى مصف الكواكب، لم يضل عنها ميلها إلى التغنج النسوى، فلا تزال تحب أن ترى نفسها فى مرآة البحر (١) .

فى نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الأسود، الذى كان مشدوداً حول الأفق يلأم (٢) السماء بالماء، رويداً رويداً، ثم بدا من بين حافتيه ضوء مخضر يحاكى ماء البحر فى لونه، فانتشر على الأمواج وهو ضوء الفجر، وساعة طلوع الفجر فى العروض التى نحن فيها الآن من الساعات المشهودة، على قصرها وقصر مدة الشفق أيضاً، فإنه يخيل للرائى فيها أن العالم بأسره مضاء بالكهرباء، وربما كان قصر مدة الشفقين سبباً فى ذلك .

مما حملناه معنا فى السفينة ديك صغير وضعناه مع دواجن أخرى فى أحد أقفاصها، أسمعنا صياح التنبيه والإيقاظ ثلاث مرات، فكان لصوته الشبيه بصوت

(١) يقول إن الزهرة التى كانت الهة الجمال عند الأقدمين — مع زوال صفة الالهية عنها - مازالت فى انعكاس ضوئها على سطح البحر شبيهة بالمرأة الحسناء فى تدللها وترائيها فى المرآة .

(٢) يلأم يوصل ويجمع .

الْبُوقِ تَأْثِيرٌ مُحْزِنٌ قَابِضٌ فِي نُفُوسِنَا بِسَبَبِ أَحْوَالِ الْغُرْبَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، وَكَانَ يَسْرِي إِلَى الْقُلُوبِ بِلَا عَائِقٍ، لِأَنَّهُ كَانَ يُذَكِّرُ الْمُسَافِرِينَ بِأُورُبَّتِهِمِ الْقَدِيمَةِ وَأَرْضِهَا، وَمَعِيشَةِ الْمُزَارِعِ وَمَا يُعَالِجُهُ الْمُزَارِعُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ .

ثُمَّ تَتَابَعَ انْمِحَاءُ الْكَوَاكِبِ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَخَذَتْ تَنْطَوِي فِي أَعَالِيهَا وَتَصْطَبِغُ بِاللَّوْنِ الْأَزْدَرَخْتِيِّ (١) .

ثُمَّ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَإِذَا الْأَمْوَاجُ نَفْسُهَا وَقَدْ مَلَكَهَا الْإِجْلَالُ وَتَوَلَّاهَا الْإِعْظَامُ، يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا خَشَعَتْ لِهَذَا الْيَنْبُوعِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الضِّيَاءِ وَالْحَيَاةِ ، وَصَارَتِ السَّمَاءُ كُلُّهَا جَذْوَةَ نَارٍ، وَتَرَقْرَقَتْ سُبُحَاتٌ (٢) مِنَ النُّورِ الذَّهَبِيِّ عَلَى صَدْرِ الْمُحِيطِ الَّذِي نَهَدَتْ (٣) مِنْهُ الْأَرْضُ بِالتَّدْرِيجِ تَتَلَأْلَأُ بَهَاءً وَنَضْرَةً .

لَمْ يَقَعْ بَصَرِي عَلَى «إِمِيلَ» وَ «لُولَا» مَعًا إِلَّا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَحْدَهَا مِنَ النَّهَارِ، رَأَيْتُهُمَا جَاثِيَيْنِ (٤) جِثْيَةَ عِبَادَةٍ وَاسْتِغْرَاقٍ فِي الْمُشَاهَدَةِ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلِ اقْتَرَبَ كِلَاهُمَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ إِدْرَاكِ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ بِمُرَاقَبَةِ جَمَالِ الْكَوْنِ وَبَهَائِهِ ؟ . ا هـ

---

(١) اللون الأزدرختى هو لون مجتمع من الأزرق والوردى وهو منسوب الى الأزدرخت وأحسبه شجرة فارسية زهرها بين الأبيض والأزرق والضارب الى الحمرة شبه به لون السماء قبيل طلوع الشمس .

(٢) سبحات : أضواء .

(٣) نهدت : برزت .

(٤) جاثيين : جالسين على ركبهما .

الشذرة التاسعة عشرة

« وَصْفُ الْأَسْمَاكِ الطَّيَّارَةِ وَكِلَابِ الْبَحْرِ »

« وَطَرِيقَةِ صَيْدِهَا وَضَوْءِ الْمَاءِ لَيْلًا »

نَحْنُ الْآنَ سَائِرُونَ تَحْتَ خَطِّ السَّرَطَانِ ، وَيُرَى عَلَى «لُولَا» أَنَّهَا لِغَرَارَتِهَا (١) تُقَلِّبُ وَجْهَهَا فِي السَّمَاءِ تَفْتِيشًا عَنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الْبَشِعِ الشَّبِيهِ بِالسَّرَطَانِ الْبَحْرِيِّ فِي شَكْلِ أَرْجُلِهِ ، كَمَا هُوَ مَرْسُومٌ فِي التَّقَاوِيمِ الَّتِي جُعِلَ فِيهَا مِنْ عَلَامَاتِ مَنْطِقَةِ فَلَكِ الْبُرُوجِ ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَسْتَهْدِفُ لِسُخْرِيَةِ «إِمِيلَ» وَزِرَايَتِهِ .

تَجْرِي بِنَا السَّفِينَةُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ لَهَا ، تُزْجِيهَا (٢) رِيَاحٌ شَدِيدَةٌ وَقَدْ مُدَّتْ جَمِيعُ شُرُعِهَا فَجَعَلَتْ حِبَالُهَا تَصِرُّ صَرِيرًا . ذَلِكَ أَنَّا أَرَدْنَا اغْتِنَامَ هَذِهِ الرِّيَاحِ الْإِنْقِلَابِيَّةِ (٣) الَّتِي يُسَمِّيهَا الْإِنْجِلِيزُ رِيَاحَ الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ التِّجَارِيَّةَ .

يَتَدَرَّجُ النَّهَارُ فِي النَّقْصِ ، وَيَكَادُ الْآنَ يُسَاوِي اللَّيْلَ .

تَنْقَذِفُ مِنْ بَاطِنِ الْمِيَاهِ أَسْرَابٌ كَالْغُيُومِ مِنَ السَّمَكِ الطَّيَّارِ وَتَسِفُّ (٤) سَفِيفَ الْخُطَّافِ (٥) ، فَبَيْنَمَا كَانَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ الْبُسَلَاءِ يُوقِدُ مِدْخَنَتَهُ (عُودَ دُخَانِ التَّبْغِ) الْبَارِحَةَ إِذْ لَطَمَهُ جَنَاحٌ بَارِدٌ مُنَدًّى عَلَى خَدِّهِ فَتَوَلَّاهُ مِنْ ذَلِكَ دَهَشٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ الْتَفَتَ حَوْلَهُ فَإِذَا هُوَ بِسَمَكَةٍ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ ، وَيَنْدُرُ أَنْ تَصِلَ أَمْثَالُهَا فِي انْقِذَافِهَا إِلَى هَذَا الِارْتِفَاعِ ، وَإِنَّمَا جَذَبَهَا إِلَيْهِ ضَوْءُ الْمِدْخَنَةِ .

---

(١) غرارتها : سذاجتها وعدم تجربتها . (٢) تزجيها : تسوقها وتدفعها .

(٣) الرياح الانقلابية هي التي تهب بين دائرتي الانقلابين من منطقة فلك البروج . (٤) تسف : تمر على وجه الأرض . (٥) الخطاف : العصفور الأسود المدعو عند العامة عصفور الجنة .

أخوف سكان البحر الأخرى التي لم يرها «إميل» حتى الآن وأهيبها بلا نزاع كلاب البحر، وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة، وقد اصطادوا غدوة اليوم واحداً من هذه العفاريت - كما يقولون - لأنهم أطلقوا عليها أبشع الأسماء كلها - وذلك بواسطة هبرة (١) من لحم الخنزير زنتها نحو خمسة أرطال، ألقوها إليه، وكان منظر صيده مؤثراً، فاسترعى أبصار جميع المسافرين، وبعثهم على الصعود إلى ظهر السفينة لمشاهدته، وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس، وهو احتياط أراه ضرورياً على ما فيه من القسوة، لأنه شوهد غير مرة أن إغفاله كان سبباً في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه أثناء معالجته التفلت من أيدي صائديه. ويأكل الملاحون أحياناً صغار كلاب البحر، غير أنهم يقرون بألسنتهم أن لحمها غير جيد، وهم إذا قتلوا هذه الحيوانات فإنما يبعثهم على قتلها بغضهم لها.

ولشد ما يؤذونها بسبب هذا البغض! وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها التقم فلاناً أو فلاناً من أصحابهم، فإن لم يكن هو الذي التقمه كان أخاه أو أحد أقاربه، ولقد حاولت صدهم عن ممارسة هذه الألاعيب الوحشية مبيناً لهم أن الإنسان لا ينبغي له أن يعذب عدوه بعد غلبه، فذهب نصحي أدراج الرياح، ولكني آمل أن لا تفوت «إميل» هذه العبرة.

تبقى لكلاب البحر بعد موتها في السفينة رائحة خبيثة لا تزول إلا بعد بضعة أيام، وهكذا الأشرار يؤذون حتى بعد موتهم من يسعون لخلاص الناس من شرهم.

(١) الهبرة بفتح الهاء وسكون الباء، القطعة من اللحم لا عظم فيها.

قَلَّمَا يَفْهَمُ الأَطْفَالُ مِنَ القَوَانِينِ شَيْئًا إِلَّا قَانُونَ القِصَاصِ، ذَلِكَ أَنَّ المَلَّاحِينَ اصْطَادُوا دَلْفِينًا(١) عَشِيَّةَ اليَوْمِ الَّذِى اصْطَادُوا فِيهِ كَلْبَ البَحْرِ، فَمَا كَانَ مِنْ «لُولَا» إِلَّا أَنْ قَالَتْ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرًا يَشِفُّ عَنِ الرَّحْمَةِ، لَقَدِ اسْتَحَقَّ هَذَا، فَإِنِّى رَأَيْتُهُ الْتَهَمَ كَثِيرًا مِنَ الأَسْمَاكِ الطَّيَّارَةِ الجَمِيلَةِ .

لَقَدْ صَدَقَتْ، فَإِنَّ مَا الْتَهَمَهُ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا لُقْمَةً وَاحِدَةً مِنْ لُقَمِهِ، وَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أُكِلَ، وَقَدْ أَثْبَتَهَا المَلَّاحُونَ لَهَا بِجَعْلِهِ عَشَاءً لَهُمْ، وَلَحْمُ هَذَا الحَيَوَانِ إِذَا غُلِيَ فِي المَاءِ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الجَوْدَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ نَاشِفًا .

فِي نَحْوِ الدَّرَجَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ وَالدَّقِيقَةِ الثَّلَاثِينَ مِنَ العَرْضِ الشَّمَالِيِّ، أَنْشَأْنَا نَرَى فِي السَّمَاءِ بُرْجًا جَدِيدًا يُسَمِّيهِ المَلَّاحُونَ صَلِيبَ الجَنُوبِ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنْ خَمْسَةِ نُجُومٍ .

وَعَجِيبَةٌ أُخْرَى أَبْصَرْنَاهَا فِي ذَلِكَ المَكَانِ، وَهِيَ أَنَّ المِيَاهَ تُضِيءُ لَيْلًا، وَقَدْ رَاعَ مَنْظَرُهَا «إِمِيلَ» و «لُولَا» فَلَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يُفِيقَا مِنَ التَّلَذُّذِ بِجَمَالِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ بَعَثَ فِيهِمَا شَيْئًا مِنَ الخَوْفِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا سَأَلَنِي مَنْ ذَا الَّذِى أَوْقَدَ النَّارَ فِي البَحْرِ، فَفَسَّرْتُ لَهُمَا بِمَا فِي وُسْعِي مَا أَعْلَمُهُ مِنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الحَادِثَةِ الَّتِي لَمْ تُعْلَمْ تَمَامَ العِلْمِ، وَقَدْ عَلَّلَ العُلَمَاءُ وُجُودَ هَذَا الضَّوْءِ فِي المَاءِ بِوُجُودِ حَيَوَانَاتٍ مُضِيئَةٍ تُشْبِهُ النَّبَاتَاتِ فِيهِ.

كَانَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْ شِدَّةِ سُطُوعِهِ بِحَيْثُ إِنَّ «إِمِيلَ» تَنَاوَلَ كِتَابًا مِنْ جَيْبِهِ وَقَرَأَ فِيهِ عَلَى انْعِكَاسِهِ عَنِ الأَمْوَاجِ المُلْتَهِبَةِ هَذَا البَيْتَ مِنْ قَصِيدَةٍ لِشِكْسْبِير وَتَعْرِيبُهُ :

خَيْرُ جُزْءٍ فِيَّ رُوحِي . وَهِيَ بِالتَّحْقِيقِ رُوحُكْ

---

(١) الدلفين : صنف من خنازير البحر .

نَعَمْ إِنَّ اللهَ (سُبْحَانَهُ) لَمْ يُفِضْ عَلَيْنَا جَمِيعَ رُوحِهِ، وَمَا أَقَلَّ مَا أُفِيضَ عَلَيْنَا مِنْهُ! غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْقَلِيلَ الَّذِى يَهَبُهُ لَنَا يَتَّصِلُ بِرُوحِنَا (١) اتِّصَالاً حَقِيقِياً.

وَالَّذِى يُدْهِشُنِى مِنْ حَادِثَةِ ظُهُورِ الضَّوْءِ فِى الْبِحَارِ أَنَّهَا تَقَعُ عَادَةً فِى أَحْلَكِ اللَّيَالِى. اه

الشذرة العشرون

(طَرِيقَةُ صَيْدِ السَّلَاحِفِ الْبَحْرِيَّةِ)

يوم ٣ أبريل سنة — ١٨٦

صِرْنَا تِجَاهَ الرَّأْسِ الْأَخْضَرِ، وَلَمَّا رَأَى الْمَلَّاحُونَ سُكُونَ الرِّيحِ فِى هَذَا الْمَكَانِ أَدْلَوْا قَوَارِبَهُمْ وَسَبَحُوا لِصَيْدِ السَّلَاحِفِ الْبَحْرِيَّةِ، وَهَذِهِ السَّلَاحِفُ مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَظْهَرَ قَرِيبًا مِنْ سَطْحِ الْمَاءِ فَتَكُونَ كَأَنَّهَا نَائِمَةٌ فَوْقَهُ، فَتُصْطَادَ بِنَوْعٍ مِنَ السِّهَامِ لَهُ أَرْبَعَةُ أَسْنَانٍ يُسَمِّيهَا مَلَّاحُو الْإِنْجِلِيزِ بِالْحُبُوبِ، وَكُلُّ مَا يُصَابُ مِنْهَا بِتِلْكَ السِّهَامِ يُجْذَبُ بَعْدَ صَيْدِهِ إِلَى الْقَوَارِبِ بِوَاسِطَةِ حِبَالٍ تَكُونُ فِى أَيْدِى الرُّمَاةِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ اصْطَادُوا مِنْهَا فِى سَاعَتَيْنِ ثَمَانِىَ، زِنَةُ كُلٍّ مِنْهَا مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ إِلَى خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ رِطْلًا انْجِلِيزِيًّا.

---

(١) يعنى بالروح الإلهى ما به حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله ليس لغيره صنع فيه فأضيف اليه — المترجم.

الشذرة الحادية والعشرون

(فخامة منظرى الشروق والغروب فى بعض الجهات)

يوم ٤ أبريل سنة — ١٨٦

أعوزتنا الرياح الإنقلابية التى كانت مواتية لنا أحسن المواتاة (١) على جرينا فى فضاء المحيط، وعوضنا عنها الآن رياحا خفيفة متناوحة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للأفق، وانتقبت (٢) السماء فى مواضع متفرقات منها بسحب بيضاء وسفرت فى مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة . وللشمس فى هذا المكان شروق يخطف الأبصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله، وأما غروبها ففخم جليل . اه

الشذرة الثانية والعشرون

أفاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء

يوم ٩ أبريل سنة — ١٨٦

تمطرنا السماء شآبيب (٣) ووابلا حارا، وكل ما نراه يؤذن باقترابنا من خط الاستواء، فترى الملاحين على ظهر مقدم السفينة مشتغلين بوضع لحى (٤) كاذبة لهم وتغطية رءوسهم بعوار (٥) من الشعر، وارتداء ثياب بشعة، حتى إنه ليخيل للرائى أنهم

(١) المواتاة : الموافقة .

(٢) انتقبت المرأة فى الأصل شدت النقاب أى البرقع على وجهها واستعير هنا للتغطية والاحتجاب .

(٣) الشآبيب جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . (٤) اللحى جمع لحية وهى شعر الذقن .

(٥) العوارى جمع عارية وهى الشعر المستعار .

فى أمس عيد المرافع، ويشهد «إميل» (١) هذه الضروب من الإستعداد شهادة الخائف لعلمه حق العلم بما سيلاقيه، فإن كل تلميذ بحرى لم يجتز خط الاستواء لا بد أن يقتحم صنوف بلائه ومحنه كما هى العادة، فلا تزال شعائر الملاحين القديمة متبعة، وإن كانت قد فقدت كثيرا من مظاهرها الصبيانية الوحشية التى كانت تجعلها مخوفة جدا فى قلب المبتدئ فى الملاحة، وعلى كل حال فالملاح طفل ولولا ذلك لما لاعب المخاطر ملاعبة الباسل المقدام.

الشذرة الثالثة والعشرون

سرعة تغير الإقليم فى بعض الأماكن، والأعاصير المائية

يوم ١٣ أبريل سنة — ١٨٦

إصطبغ «إميل» بالمعمودية البحرية، فصار الآن من أولاد إله البحر. حالة الجو فى اختلاف وتغير، فبين رياح شديدة إلى سكون عام، ومن مطر هتان (٢) إلى شمس محرقة، ترمى رءوسنا بسهام أشعتها العمودية.

لفتنا الربان إلى إعصار (٣) من الأعاصير المائية التى يخشاها الملاحون بحق ورأيناه من مسافة بعيدة، وأكثر ما تثور هذه الأعاصير فى جهة خط الاستواء.

---

(١) المرافع عند المسيحيين أيام معلومة تسبق الصوم يكثر فيها الرفث والمجون.

(٢) الهتان، الغزير.

(٣) الاعصار هو الريح الهائجة تأتى بالنار فتحرق ما يصادفها.

الشذرة الرابعة والعشرون

تَبَادُلُ السُّفُنِ صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ

يوم ١٥ أبريل سنة — ١٨٦

صَادَفَتْنَا سَفِينَةٌ قَافِلَةٌ(١) مِنَ الْهِنْدِ أَوْ مِنَ الصِّينِ إِلَى بِرِيطَانِيَةَ الْعُظْمَى وَآذَنَتْنَا بِإِشَارَاتِهَا أَنَّهَا مُسْتَعِدَّةٌ لِحَمْلِ مَا نُحَمِّلُهَا مِنَ الْكُتُبِ ، وَلَمَّا كَانَ تَبَادُلُ صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ مِمَّا تُحْفَظُ بِهِ الْمَوَدَّةُ فِي الْبَحْرِ أَرْسَلْنَا لَهَا بَعْضَ صُحُفٍ انْجِلِيزِيَّةٍ مَضَى عَلَى نَشْرِهَا سِتَّةُ أَسَابِيعَ ، وَلَكِنَّ أَخْبَارَهَا يَكُونُ لَهَا مِنَ الْجِدَّةِ عِنْدَ رُكَّابِهَا مَا لِصُحُفِ الصَّبَاحِ عِنْدَ سُكَّانِ لُونْدُرَةَ ، وَكَتَبْتُ وَكَتَبَ « إِمِيلُ » كَلِمَتَيْنِ لِصَدِيقِنَا الدُّكْتُورِ وَارِنْجِتُونَ .

الشذرة الخامسة والعشرون

مَوْتُ أَحَدِ الْمَلَّاحِينَ وَالِاحْتِفَالُ بِجِنَازَتِهِ فِي السَّفِينَةِ وَبَيَانُ الْحَقِيقَةِ فِي سَبَبِ تَأَثُّرِ الْأَطْفَالِ بِفَاجِعَةِ الْمَوْتِ

يوم ٣٠ أبريل سنة — ١٨٦

تَتَنَاقَصُ الْحَرَارَةُ وَيَتَدَرَّجُ الْهَوَاءُ فِي الْبُرُودَةِ لِأَنَّنَا صِرْنَا فِي خَطِّ الْجَدْيِ(٢) .

مُنْذُ يَوْمَيْنِ آلَمَ نُفُوسَنَا فَقْدُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِنَا .

ذَلِكَ أَنَّ قِطْعَةً مِنْ قِطَعِ الْأَخْشَابِ الْمُنْحَرِفَةِ الْوَضْعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي السَّفِينَةِ لِشَدِّ حِبَالِهَا لَمْ يَكُنْ رَبْطُهَا وَثِيقًا فَأَتَتْ عَلَيْهَا نَفْحَةٌ مِنَ الرِّيحِ فَهَوَتْ بِهَا عَلَى السَّطْحِ

---

(١) قافلة : راجعة .

(٢) الجدى هنا برج فى السماء ملاصق لبرج الدلو وخطه هو خط الطول المار به .

فصادمت في هويتها رأس ذلك الملاح وهو قائم على الحراسة، فلم آل (١) جهدا في تجريب جميع الوسائل الفنية لإيقاظه وتنبيهه، ولكني لم أفلح لأنه لم يبق فيه أدنى علامة على الإدراك، فسرى الوجوم (٢) في السفينة لأن هذا الملاح الباسل كان محبوبا عند رفقائه، وصاح الربان بصوت أجش (٣) وقد بدت على وجهه آثار الحزن مع انتقابه (٤) بالتجلد بأن تنقل الجثة إلى غرفته.

استولى سكون الحداد على السفينة فما كنت ترى على ظهرها إلا أنظارا تشف عن الأسى، ووجوها نكرتها الأشجان، وأسدل الليل على البحر بالتدريج حجب ظلماته كلها، وأرخى عليه سدول أحزانه، فما رأيته قبل تلك الليلة بهذا المقدار من العظم والكآبة، وكانت الأمواج باصطخابها تشكو شكوى الأحياء من مضض المصيبة، حتى خيل لي أنها نفوس تناجي نفوسنا.

واربّاه! ما كان أشأم هذا الصخب المتقطع الناشئ من ملاطمة الأمواج لألواح سفينة تقل ميتا!.

أقبل النهار وأدبر الليل، بيد أن أضواء الشمس في إشراقها لم تقو على قشع ما غشي النفوس من سحب الأكدار الليلية، فبقيت جميع القلوب متلوجة متبلدة بضرب من الهول، ذلك أن وجود الميت في بيت يبث فيه على الدوام الحزن مشوبا بالإجلال والرعب، والسفينة بيت مضطرب، فما يسهل انفصامه من

(١) لم آل لم اقصر. (٢) الوجوم: السكوت والعجز عن التكلم من شدة الغم.
(٣) الصوت الأجش هو الصوت الغليظ. (٤) انتقابه: تستره.

عُرى المودّة بين من تطاوحت بهم النوى من العائشين في البرّ تأكّد بين العائشين في السّفينة بسبب اشتراكهم في الحاجات والمخاطر .

تخلّف يعقوب في ذلك الصّباح عن إجابة داعي الشّمس المشرقة : وعهدنا به أنّه كان على الدّوام أوّل من يسمع دويّ صوته الشّديد على ظهر السّفينة ، فأصبح وقد قضي عليه أنْ لا يكون هو الصّائح بكلمة « تمام » .

كان من أسباب اشتغال قلوب المسافرين والملّاحين بالحزن أيضًا ارتقابهم لما كان قريب الوقوع من دفن الميت ، ومع كون أعمال التّجهيز كانت تؤدّى في سكون كأنّها من وراء حجاب ، كنّا نخالس (١) الملّاحين في بعض الأماكن روحات وجيآت خفيّة ، وقد أحدّت (٢) السّفينة بتنكيس الأعلام الّتي تزهو ذروتها عادة بارتفاعها فوقها فخرًا بالأمّة المنتسبة إليها ، وفي نحو السّاعة العاشرة برز الرّبّان على ظهرها ثمّ أقبل على ملّاحيه وقال بصوت منخفض : قد حلّت ساعة النّحس ، فعليّ بالرّبّان الثّاني ، وأخبروه بأنّنا مستعدّون ، ويعلم الله مقدار ما يشقّ عليّ من تأدية هذا الفرض ، ولكن من الواجب القيام بالواجب .

رتّب الملّاحون أكوام الحبال الّتي كانت تعوق السّير بتبعثرها على سطح السّفينة ، ورفعوا أحد الأجزاء الّتي نتألّف منها جدرانها ، فكان من ذلك نافذة شبيهة بالكوّة ، كنّا نرى منها البحر يتراوح بين الصّعود والهبوط .

(١) نخالس نأخذ في نهزة ومخاتلة .

(٢) أحدّت رفعت أعلام الحداد وهي علامات الحزن .

كَانَ نَاقُوسُ السَّفِينَةِ يَطِنُّ ، فَيَحْدُثُ عَنْ طَنِينِـهِ الْمُؤْلِمِ إِذَا انْتَشَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَمْوَاجِ أَثَرٌ مُحْزِنٌ يُغَادِرُ جَمِيعَ الْقُلُوبِ وَاجِفَةً (١) .

لَمَّا كَانَتِ السَّفِينَةُ خِلْوًا مِنَ الْقِسِّيسِينَ كَانَ مِنَ الْعَادَاتِ الْمُضْطَرِدَةِ فِي مِثْـلِ هَـذِهِ الْحَـالَةِ بِإِنْجِلْتِرَةَ أَنْ يُعْهَدَ بِصَـلَاةِ الْجَنَازَةِ إِلَى رُبَّانِهَـا ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخَذَ الرُّبَّانُ مَجْلِسَهُ وَهُوَ مَكْشُوفُ الرَّأْسِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ ، وَالْتَفَّتْ عَلَيْهِ حَلْقَةٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ وَالْمَلَّاحِينَ يَحُفُّهُـمُ الْوَقَارُ وَالْخَشْـيَةُ عَلَى تَشَوُّشِ هَيْآتِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ ، يَنْتَظِرُونَ الْبَدْءَ فِي الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ .

أَشَارَ الرُّبَّانُ إِلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ بِأَنْ يَهْبِطَا مِنْ أَحَدِ سَلَالِيمِ السَّفِينَةِ الضَّيِّقَةِ ، فَلَمْ يَلْبَثَا أَنْ صَعِدَا يَحْمِلَانِ الْمَيِّتَ عَلَى نَعْشٍ كَبِيرٍ مُنَقَّبٍ ، وَقَدْ لُفَّ فِي قِطْعَةٍ مِنْ نَسِيجِ الشِّرَاعِ خِيطَتْ عَلَيْـهِ ، وَكَانَ مِنَ الْمَيْسُورِ تَقْـدِيرُ ثِقْلِهِ بِمَـا كَانَا يُعَانِيَانِهِ مِنَ الْجُهْدِ فِي حَمْلِهِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْعَادَةَ تَقْتَضِي فِي مِثْلِ هَـذَا الْمَقَامِ أَنْ يُوضَعَ فِي الْكَفَنِ مَعَ الْجُثَّةِ قَذِيفَتَا مِدْفَعٍ (الْقَذِيفَةُ الْكُرَةُ الَّتِي تُقْذَفُ مِنَ الْمِدْفَعِ) إِحْدَاهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهَا وَالْأُخْرَى عِنْدَ رَأْسِهَا .

مَا بَرَزَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْمَشْؤُومَةُ مِنْ سُدْفَةِ السَّلَالِمِ (السَّدْفَةُ بِفَتْحِ السِّينِ مُشْتَدَّةُ الظُّلْمَةِ) حَيْثُ كَانَتْ تَبْدُو مِنْهَا بِبُطْءٍ ، حَتَّى اقْشَعَرَّتْ لِمَرْآهَا أَبْدَانُ الْحَاضِرِينَ ، وَقَدْ بُسِطَ عَلَى صَدْرِ الْمُتَوَفَّى عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ السَّفِينَةِ عَلَيْهِ شَارَاتُ السُّفُنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ .

أَنْشَأَ الرُّبَّانُ يَتْلُو صَلَاةَ الْجَنَازَةِ بِصَوْتٍ شَدِيدٍ مُعْتَادِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَوِرُهُ اللِّينُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ ، فَتَتَخَلَّلُهُ نَغَمَاتٌ ضَعِيفَةٌ مُهْتَزَّةٌ كَأَنَّهَا تَنْبَعِثُ مِنَ الْقَلْبِ ،

---

(١) واجفة خافقة مضطربة .

وكان ما يحصل في نفسه من التنازع بين التمالك (١) والسكينة التي يراها لازمة لكرامته من حيث هو رجل، وبين عاطفة الرحمة التي كان يكاد يبدي بها — يكسو وجهه هيأة غريبة جمعت بين القسوة والرحمة .

وكان كاتب السفينة يتلو في ذلك الكتاب عينه الحكم الإنجيلية، وما كان يسع أحدا من السامعين أن لا يعترف بشيء من الجلال لهذا الضرب من التحاور في معنى الموت بين رجلين مستهدفين في كل يوم لآلاف من المعاطب، قد شهد كلاهما كثيرا من إخوانهما يتخرمون (٢) من حولهما، ويثوون (٣) في ظلمات البحر السرمدية .

هذا الذي كانا يتناوبان تلاوته لم يك يشبه الصلوات بحال، فالكنيسة الإنجليزية لا يصلى فيها قط على المتوفين) بل كان عبارة عن فكر مأخوذة من التوراة في معنى قصر الأجل ومصوغة في قوالب تشبيهات شعرية، كتشبيه الحياة بعشب البوادي، يخضر في الصباح ويذبل في المساء، أو بالظل يسرى على الماء، وتشبيه جمال الرجل والمرأة شوهته السنون بثوب أكلته الأرضة (٤) ، وكان جميع الحاضرين يفهمون نص هذه العبارات العبرية لأنه كان مترجما إلى الإنجليزية .

على أن الساعة الأخيرة قد اقتربت، فكف الربان عن التلاوة، وأخذ يرقب عظم اتساع السماء والماء، ثم صوب نظره آخر مرة إلى ذلك الشيء وهو مدرج في نسيج

(١) التمالك : ملك النفس وضبطها . (٢) يتخرمون : تأخذهم المنية .
(٣) يثوون : يقيمون . (٤) الأرضة دويبة تأكل الخشب .

يَعرِفُ النَّاظِرُ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِهِ شَكْلَ آدَمِيٍّ مَعْرِفَةً مُبهمَةً، وَقَدْ وُضِعَ عَلَى شَفَا الْفَوْهَةِ الَّتِي صُنِعَتْ فِي جِدَارِ السَّفِينَةِ لِيُلْقَى مِنْهَا فِي الْبَحْرِ .

وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا إِشَارَةٌ مِنَ الرُّبَّانِ أَنْ سُمِعَ صَوْتٌ غَلِيظٌ رَخْوٌ لِسُقُوطِ رَجُلٍ مَيْتٍ فِي الْبَحْرِ، فَشُوهِدَ لِلْأَمْوَاجِ فَوَرَانٌ شَدِيدٌ، فَتَرَجْرُجٌ خَفِيفٌ، فَدَوَائِرُ مِنَ الْمَاءِ مُتَدَاخِلٌ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَلَا شَيْءَ .

إِلْتَأَمَ الْآذِيُّ (الْمَوْجُ) عَلَى الْجُثَّةِ كَمَا يَلْتَئِمُ بَلَاطُ اللَّحْدِ؛ وَقَالَ الرُّبَّانُ بِصَوْتٍ خَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ وَالْانْفِعَالُ : أَنْتَ فِي وَدِيعَةِ الْبَحْرِ (١)

كُنْتُ فِي كُلِّ الْمُدَّةِ الَّتِي اسْتَغْرَقَهَا أَدَاءُ هَذِهِ الشَّعَائِرِ أَرْقُبُ «إِمِيلَ» حِينًا فَحِينًا فَأَجِدُهُ شَدِيدَ التَّأَثُّرِ، وَأَمَّا «لُولَا» فَكُنْتُ أَرَاهَا بَاكِيَةً .

يَرْجِعُ تَأَثُّرُ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ إِلَى سَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ تَجْهِيزَ الْمَيِّتِ كَانَ مَقْرُونًا بِمَا يَهُزُّ الْقُلُوبَ مِنَ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ، وَثَانِيهِمَا أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا شَهِدَا الدَّفْنَ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ لِجَهْلِهِمَا الْمَوْتَ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ ، نَعَمْ إِنَّهُمَا كَانَا يَعْرِفَانِ بِالتَّحْقِيقِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صَائِرٌ إِلَى الْفَنَاءِ؛ فَقَدْ شَهِدَا حَيَوَانَاتٍ تَزُولُ، وَإِخْوَانًا يَتَخَطَّفُونَ مِنْ حَوْلِهِمَا، غَيْرَ أَنِّي فِي شَكٍّ قَوِيٍّ مِنْ كَثْرَةِ اشْتِغَالِهِمَا بِهَذِهِ الطَّوَارِئِ الطَّبِيعِيَّةِ وَوُقُوفِهِمَا بِالْفِكْرِ عِنْدَهَا، وَالْإِنْسَانُ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا تَفَكَّرَ فِيهَا بِنَفْسِهِ ، وَلَا أَعْدَمُ.

(١) ما كان البحر ليؤتمن على وديعة، فما أضيع ودائعه البشرية ! ولو أنه استودعه الله لكان خيرا لأنه سبحانه خير مودع — المترجم .

وإنما يلقى على تبعة هذا الجهل، لأنى أعلم أنه كان ينبغى، من أجل إنشاء «إميل» على الأصول القديمة التى يحبها ذلك الواهم، أن أربيه على الخوف، وأن أحيط له الحياة فى مواعظى بوعيد القبر ومخاوف الخلود، ولكن ما حيلتى إذا كنت لم أجد من نفسى إقداماً على ذلك، فإنى رأيته كثير الاغتباط بالحياة، فصرفت جل عنايتى فى تحبيب الواجبات إلى نفسه، لا فى دناءة التخويف من عقاب الآخرة أو التأميل فى مثوباتها الغيبية.

المواعظ المحزنة لا تربى الوجدان، بل تكدر صفاءه وتزعجه؛ فواشوقاه إلى الساعة التى يتأثر فيها اليافع بمشهد الموت، فيأنس من نفسه الحاجة إلى سبر غور ما قدر له فى أخراه (١).

الشذرة السادسة والعشرون

أقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة.

يوم ٦ مايو سنة — ١٨٦

الرياح باردة والسماء كدراء، وتزعم «لولا» أن سفرنا استغرق الربيع والصيف والخريف وأننا داخلون فى الشتاء، وحقيقة الأمر هى أن أقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة.

---

(١) ما كرهه المربى لولده من انشائه على الخوف من العقاب والرجاء فى الثواب غير مكروه، ووصفه هذين الأمرين بالدناءة غير صحيح، وأمله فى أن ولده يسبر غور ما قدر له فى أخراه وهم ظاهر، وخدعة زينها له شكه فى اليوم الآخر — المترجم.

صَارَتِ الأَمْوَاجُ مِنَ الثِّقَلِ وَالضَّخَامَةِ بِحَيْثُ أَصْبَحَ مَسِيرُ السَّفِينَةِ شَاقًا وَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ خَبِيثَةٌ فَهِيَ تَرْفَعُنَا إِلَى الشَّرْقِ نَحْوَ جَزَائِرِ فُوقْلَنْد (١) .

الشذرة السابعة والعشرون

وَصْفُ بَعْضِ أَنْوَاعِ الطُّيُورِ الَّتِي فِي زُقَاقِ (بُوغَازِ) مَاجَلَّانَ وَطَرِيقَةُ صَيْدِ نَوْعٍ مِنْهَا

يوم ٧ مايو سنة — ١٨٦

إِقْتَحَمْنَا مَدْخَلَ زُقَاقِ (بُوغَازِ) مَاجَلَّانَ (٢) وَهُوَ مَجَازٌ خَطِرٌ، وَرَأَيْنَا هُنَاكَ طُيُورًا يُسَمِّيهَا الْمَلَّاحُونَ حَمَامَ الرَّأْسِ، الْوَاحِدَةُ مِنْهَا فِي حَجْمِ الْبَطَّةِ الْبَرِّيَّةِ، أَحَدُ نِصْفَيْهَا أَبْيَضُ وَالثَّانِي أَسْوَدُ، وَكَانَتْ تَحُومُ حَوْلَنَا أَسْرَابًا، وَتُصْطَادُ بِشِبَاكٍ تُمَدُّ عَلَى كَوْثَلِ السَّفِينَةِ (مُؤَخَّرِهَا) فَتَنْشَبُ فِيهَا أَجْنِحَتُهَا فِي غُدُوِّهَا وَرَوَاحِهَا عَلَيْهَا، وَتَتَوَرَّطُ فَلَا تَسْتَطِيعُ انْفِكَاكًا .

وَشَاهَدْنَا طَائِرًا آخَرَ أَثَارَ التَّعَجُّبَ فِي نَفْسِ « إِمِيلَ » بِعُلُوِّ قَامَتِهِ وَارْتِفَاعِ طَيَرَانِهِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْبَطْرُوشِ (٣) .

(١) جزائر فوقلند هي أرخبيل في المحيط الاطلانطيق شرقي بوغاز ماجلان ملوك للانجليز .

(٢) زقاق ماجلان واقع بين بتاغونية وتيردوفو « أرض النار » عثر عليه رحالة برتغالي اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الأرض .

(٣) البطروش طائر من فصيلة الطيور الراحية الأرجل (لأرجلها راحة كراحة اليد) يعيش في بحار استراليــة .

الشذرة الثامنة والعشرون

كَثْرَةُ الزَّوَابِعِ فِى رَأْسِ الْقَرْنِ

يوم ١٠ مايو سنة — ١٨٦

رَأْسُ الْقَرْنِ حَقِيقٌ بِأَنْ يُسَمَّى رَأْسَ الزَّوَابِعِ ، فَقَدْ هَاجَتْ عَلَيْنَا فِيهِ هَيْجَةٌ خِلْنَا فِيهَا أَنَّ الْمُحِيطَ بِأَجْمَعِهِ يَنِيخُ بِكَلْكَلِهِ عَلَى سَفِينَتِنَا الضَّئِيلَةِ ، عَلَى أَنَّهَا تُقَاوِمُ وَتَجْرِى مَعَ مَا يُلَاطِمُهَا مِنَ الْأَمْوَاجِ وَيَتَقَاذَفُهَا مِنَ الْمَهَاوِى ، لَا يُقْعِدُهَا عَنْ ذَلِكَ زَمْجَرَةُ الْبَحْرِ ، فَهُوَ بَهِيمَةٌ كُبْرَى وَجَدَتْ مَنْ يَرُوضُهَا .

الشذرة التاسعة والعشرون

« شَجَاعَةُ الْمَلَّاحِينَ وَتَفْضِيلُهَا عَلَى شَجَاعَةِ الْجُنُودِ »
« وَبَيَانُ أَنَّهَا تُكْتَسَبُ بِالتَّعَلُّمِ »

يوم ١٤ مايو سنة — ١٨٦

إِنْتَهَيْنَا مِنَ الطَّوَافِ بِالرَّأْسِ ، وَلَكِنْ مَا أَعْظَمَ مَا بَذَلْنَا فِى سَبِيلِ ذَلِكَ مِنَ الْجُهْدِ ، وَمَا أَشَدَّ مَا عَانَيْنَا مِنَ الْمَشَاقِّ ! فَقَدْ كَانَتِ الرِّيحُ تُزَفْزِفُ (١) ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ زَفْزَفَةً بَلَغَتْ مِنَ الشِّدَّةِ إِلَى حَدِّ أَنَّ سَارِى سَفِينَتِنَا الْأَكْبَرَ كَانَ فِيهَا يَتَنَوَّدُ تَنَوُّدَ (٢) الْقِصْدَةِ (٣) مِنْ يَبَسِ الْحَشِيشِ .

---

(١) تزفزف تهب شديدا .

(٢) يتنود يتحرك .

(٣) القصدة بكسر القاف القطعة مما يكسر .

لَمْ يَكُنْ يُؤلِمُنَا عَلَى ظَهرِ السَّفِينَةِ سِوَى أَيْدِى الْبَحَّارِينَ فِي مُمَارَسَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا كَانَ أَشَدَّنِى إِعْجَابًا فِي نَفْسِي بِسِيرَتِهِمْ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ، الَّتِي قَضَيْنَاهَا فِي مُكَافَحَةِ الْبَحْرِ وَمُغَالَبَةِ الْخَطَرِ! فَلَيْسَتْ بَسَالَةُ الْمَلَّاحِ مِنْ قَبِيلِ بَسَالَةِ الْجُنْدِيِّ، وَلَكِنَّهَا تَفْضُلُهَا فِي رَأْيِى، لِأَنَّ الْمَلَّاحَ بِمَالَهُ مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْمَوْجُودَاتِ وَالْفَوَاعِلِ الْكَوْنِيَّةِ يُكَافِحُ الْمَوْتَ مُوَاجَهَةً، فَلَا يَحُولُ بَيْنَهُمَا إِلَّا سُمْكُ لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ، وَلَيْسَ غَرَضُهُ مِنَ الْكِفَاحِ إِبَادَةَ نُظَرَائِهِ، بَلْ هُوَ فِي مُدَافَعَتِهِ عَنْ حَيَاتِهِ يَعْمَلُ لِتَنْجِيَتِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَنَاهِيكَ(١) بِالْبَحْرِ عَدُوًّا، أُوتِيَ مِنَ الْعُدَدِ مَا هُوَ أَشَدُّهَا رَهْبَةً فِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ، فَإِنَّكَ تَرَى السَّفِينَةَ — عَلَى وَهْنِهَا وَكَوْنِهَا لَيْسَتْ إِلَّا دُولَابًا مِنَ الْخَشَبِ — تُطَارِدُهَا الرِّيحُ وَالْبَرْدُ وَالْبَرْقُ وَجِبَالٌ مِنَ الْمَوْجِ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تُقَاوِمُ قُوَى كَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ بِرُمَّتِهَا .

وَلَا مُشَابَهَةَ أَيْضًا بَيْنَ قَدْرِ الْمَلَّاحِ وَبَيْنَ مَا يُفَاخِرُ بِهِ السُّفُسْطِيُّ(٢) مِنَ اجْتِرَائِهِ عَلَى مُعَانَدَةِ الْقَدَرِ بِاسْتِدْلَالَاتِهِ الدَّقِيقَةِ اجْتِرَاءً بَارِدًا خَالِيًا مِنَ الْعَمَلِ، هَيْهَاتَ، فَإِنَّ قَدْرَ الْمَلَّاحِ هُوَ مَا يَتَجَلَّى فِي عَمَلِهِ مِنْ قُوَّةِ نَفْسِهِ وَهِمَّتِهَا، فَتَرَاهُ مَعَ اسْتِعَانَتِهِ بِرَبِّهِ لَا اسْتِمْسَاكُهُ بِدِينِهِ لَا يَعْتَمِدُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، أَعْنِي عَلَى صِحَّةِ بَصَرِهِ وَضَبْطِ حَرَكَاتِهِ وَقُوَّةِ أَعْصَابِهِ، فَإِنْ قَهَرَهُ عَدُوُّهُ سَلَّمَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرَى آخِرَ سِلَاحٍ لَهُ قَدْ تَحَطَّمَ .

تِلْكَ الْبَسَالَةُ تُكْتَسَبُ بِالتَّعَلُّمِ، وَهَذِهِ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ تَسْرِى بِالْمُعَاشَرَةِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ «إِمِيلَ» كَانَ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْمِلَاحَةِ شَدِيدَ الرَّوْعِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ ذَهَبَ عَنْهُ

---

(١) ناهيك كلمة تعجب معناها حسبك .

(٢) السفسطى الذى ينكر الحسيات والبديهيات وغيرها .

رَوْعَهُ بِالتَّأَسِّي بِرِفْقَائِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْتَجِفَ فُؤَادُهُ وَتَتَزَلْزَلَ قَدَمَاهُ أَمَامَ هؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ وَهُمْ ثَابِتُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ ، كَانُوا يَشْغَلُونَهُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِإِدَارَةِ الْمِمَصَّاتِ (الطُّلُمْبَاتِ) وَمُعَالَجَةِ الْحِبَالِ ، فَلَا شَيْءَ يَعْمَلُ كَالْعَمَلِ الْبَدَنِيِّ فِي تَقْوِيَةِ الْقَلْبِ ، فَبَطَالَةُ الْمُسَافِرِينَ هِيَ الَّتِي عِنْدَ أَدْنَى هَيْعَةٍ (١) تَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ وَأَدْمِغَتَهُمْ بِالْخَيَالَاتِ ، وَأَمَّا الْمَلَّاحُ فَلَيْسَ لِلْخَوْفِ مُتَّسَعٌ فِي وَقْتِهِ .

مِنْ مَزَايَا الْمِلَاحَةِ أَيْضًا أَنَّ مَا فِيهَا مِنْ مُكَافَحَةِ الْخَطَرِ يُنَمِّي فِي قُلُوبِ الْمَلَّاحِينَ حُبَّ الْحَيَاةِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَحْسَبُ أَنَّ الِانْتِحَارَ لَا يَكَادُ يَكُونُ مَعْرُوفًا بَيْنَهُمْ ؟ .

الضَّجَرُ مِنَ الْحَيَاةِ مِنْ مُمَيِّزَاتِ الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ ، وَهُوَ أَخْوَفُهَا عِنْدِي عَلَى الشُّبَّانِ وَأَشَدُّهَا إِيلَامًا لِنَفْسِي ، فَإِنِّي أَرَى الْأَطْفَالَ يُولَدُونَ غَيْرَ مُبَالِينَ بِشَيْءٍ ، سَائِمِينَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، خَامِدِي الْإِحْسَاسِ ، مَيِّتِي الْقُلُوبِ ، فَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ إِذَا انْكَشَفَ لَهَا وَهْمُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِيمَا كَانَتْ تَعْتَقِدُهُ وَاقِعًا ، تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّهَا مَاتَتْ قَبْلَ انْكِشَافِهِ ! وَكَمْ مِنْ فَتًى كَسُولٍ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَلَمْ يُعَامِلْهُ الْجَدُّ (٢) إِلَّا مُعَامَلَةَ الْغُلَامِ الْعَارِمِ ، يَصِيحُ قَائِلًا « مَا فَائِدَةُ الْحَيَاةِ » ؟ وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِي هُنَا أَنْ أَبْحَثَ عَنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الْمُلِمَّةِ بِالنُّفُوسِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَإِنَّمَا غَرَضِي أَنْ أَقُولَ لِكُلِّ هؤُلَاءِ الْمُتَبَرِّمِينَ (٣) : « أُنْظُرُوا إِلَى الْمَلَّاحِ تَجِدُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَرَفَ قِيمَةَ الْحَيَاةِ ، لِأَنَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَذُودُ عَنْهَا أَخْطَارًا حَقِيقِيَّةً لِغَايَةٍ نَافِعَةٍ ، وَبِذَلِكَ صَارَ أَهْلًا لِأَنْ يَقْدُرَهَا حَقَّ قَدْرِهَا » .

(١) الهيعة : صوت الفزع .
(٢) الجد بفتح الجيم معناه هنا الحظ والبخت .
(٣) المتبرمين : المتضجرين .

مِنْ أَجْلِ هذه الأَسْبابِ كُلِّها أَرى أَنَّ « إِمِيلَ » الآنَ في وِلايَةِ مُعَلِّمِينَ حاذِقِينَ، وأَمَّا « لُولا » فإنَّها والحقُّ يُقالُ لَمْ تُبْدِ مِنَ البَسالَةِ شَيْئاً يُذْكَرُ، لأَنَّها لَبِثَتْ مُخْتَبِئَةً في إِحْدَى زَوايا حُجْرَتِها، فكانَتْ كالنَّعامَةِ الَّتِي يُؤَكِّدُ العارِفُونَ بأَخْلاقِها أَنَّها تَتَوَهَّمُ أَنَّ غَمْرَ رَأْسِها في الظَّلامِ مَنْجاةٌ لَها مِنَ الخَطَرِ المُلِمِّ بِها، وذَلِكَ ما اضْطَرَّ هيلانَةَ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُدْوَةً لَها في الإِقْدامِ تَسْكِيناً لِرَوْعِها، وكانَ هذا مُوجِباً لِلإِعْجابِ بِها بِحَقٍّ .

شَجاعَةُ النِّساءِ المَحْمُودَةُ

مِنَ الخَطَإِ أَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنْ لا فائِدَةَ في الشَّجاعَةِ لِلنِّساءِ، فإِنَّهُ إِنْ كانَ يُرِيدُ بِها الشَّجاعَةَ الحَرْبِيَّةَ فإِنِّي قَلِيلُ الاعْتِدادِ بِها في الرِّجالِ، فأَكُونُ أَقَلَّ اعْتِداداً بِها في المَرْأَةِ المُتَرَجِّلَةِ، ولَكِنْ لا يَعْزُبُ عَنْ ذِهْنِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْ ضُرُوبِ الأَقْدارِ غَيْرُ واحِدٍ، فإِنَّ النِّساءَ مُسْتَهْدَفاتٌ لِلْمَخاطِرِ الَّتِي نَحْنُ عُرْضَةٌ لَها، ومُضْطَرَّاتٌ لِمُغالَبَةِ ما نُغالِبُهُ مِنْ حَوادِثِ الكَوْنِ الخارِجِيِّ، وقَدْ يُوجَدُ مِنَ الأَحْوالِ ما تَتَوَقَّفُ حَياتُهُنَّ فِيها بَلْ وحَياةُ أَطْفالِهِنَّ عَلَى سَكِينَتِهِنَّ ورَباطَةِ جَأْشِهِنَّ، فَقُوَّةُ العَزِيمَةِ وثَباتُ الجَنانِ هُما مِنَ الأَخْلاقِ الَّتِي تَحْتاجُ إِلَيْها المَرْأَةُ كَما يَحْتاجُ إِلَيْها الرَّجُلُ .

مِنَ المَصائِبِ أَنْ تَسُوءَ تَرْبِيَةُ الفَتَياتِ إِلَى حَدِّ أَنْ يَتَوَهَّمْنَ أَنَّ تَكَلُّفَ ضُرُوبِ الفَزَعِ القاتِلِ عِنْدَ كُلِّ مُناسَبَةٍ، خُصُوصاً بِحَضْرَةِ الشُّبَّانِ مِمَّا يَلْفِتُ الأَنْظارَ إِلَيْهِنَّ، فَيَقُولُ مَنْ يَراهُنَّ في هذه الحالَةِ إِنَّهُنَّ يَقْصِدْنَ أَنْ يَظْهَرْنَ في شَكْلِ الحَمائِمِ المَرُوعَةِ، ويَجْمُلُ أَنْ يُوعَظْنَ بِأَنَّ الخَوْفَ لا حُسْنَ فِيهِ مُطْلَقاً، وأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِنَّ لأَنْفُسِهِنَّ إِذا أَحْدَقَ بِهِنَّ الخَطَرُ أَنْ يَجْتَهِدْنَ في اسْتِشْعارِ الاطْمِئْنانِ والسَّكِينَةِ، إِنْ

كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَصِرْنَ مَثَارًا لِلإِعْجَابِ وَالاسْتِحْسَانِ، وَلَا صِحَّةَ لِمَا يَعْتَقِدْنَهُ عَلَى مَا يَظْهَرُ. مِنْ أَنَّ ثَبَاتَ جَنَانِ الْمَرْأَةِ يُسِيءُ خُلُقَهَا، بَلْ أَجِدُ جَمَالًا وَشَرَفًا فَائِقَيْنِ فِي تِلْكَ الذَّاتِ، إِذَا كَانَتْ مَعَ تَجَرُّدِهَا مِنَ الْمَقْدِرَةِ عَلَى الْمُهَاجَمَةِ، بَلْ وَمِنْ قُوَّةِ الْمُدَافَعَةِ، تَقْتَحِمُ الْخَطَرَ بِقُوَّةِ جَأْشٍ تُكَافِئُ قُوَّةَ الرَّجُلِ.

أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِنَ الْأَوْهَامِ السَّخِيفَةِ اعْتِقَادَ أَنَّ جَفَاءَ الطَّبْعِ مِنْ لَوَازِمِ الشَّجَاعَةِ، وَلَكِنِّي أَوَدُّ لَوْ أَدْرِي مَتَى شُوهِدَ أَنَّ الشَّجَاعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ غَيَّرَتْ مِنْ رِقَّةِ الْمَرْأَةِ وَرَحْمَتِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِهَا، حَاشَاهَا مِنْ هَذَا، وَإِنَّ الْجُبْنَ وَالْأَثَرَةَ لَهُمَا اللَّذَانِ يُوجِبَانِ قَسْوَةَ الْقَلْبِ وَغِلَظَهُ.

سَلْ أُمًّا جَبَانًا أَنْ تَشْهَدَ عَمَلًا جِرَاحِيًّا يُعْمَلُ فِي جِسْمِ وَلَدِهَا لِتُسَلِّيَهُ وَتُسَرِّيَ مِنْ أَلَمِهِ، تُجِبْكَ بِأَنَّهَا شَدِيدَةُ الْإِحْسَاسِ، كَثِيرَةُ التَّأَثُّرِ، وَبِئْسَ الْعُذْرُ عُذْرُهَا، فَمَا مُرَادُهَا إِلَّا الِاحْتِمَاءُ مِنْ كُلْفَةِ التَّسْخِيرِ. ثُمَّ لَا يَتَخَيَّلَنَّ أَحَدٌ أَنَّ قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ وَالسُّلْطَانَ عَلَى النَّفْسِ أَوِ الشَّجَاعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا فِي طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْأَعْمَالِ هُمَا الْحَرْبُ وَالْمِلَاحَةُ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ مَنْفَعَتَهَا تَتَعَدَّى إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأُخْرَى، لِأَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ مُهَدَّدَانِ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعِيشَانِ بَيْنَهُمْ بِآلَافٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْمَعَاطِبِ، وَلِأَنَّ الْبَحْرَ لَا يَقْصِدُ إِلَّا إِزْهَاقَ أَرْوَاحِنَا، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَعْرِضُ لَنَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْخَطِرَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا تَنَقُّصُ أَعْرَاضِنَا وَالذَّهَابُ بِحُرُمَاتِنَا. اهـ

الشـــــذرة الثلاثون

مَرَحُ « لُولَا » فِي السَّفِينَةِ بَعْدَ زَوَالِ الْخَطَرِ

يوم ٣٠ مايو سنة — ١٨٦

تَشُقُّ سَفِينَتُنَا «الْمُونِيتُورُ» بِجَلَالَةِ خَطَرِهَا عُبَابَ[(١)] أَمْوَاجِ الْمُحِيطِ الْهَادِئِ، وَتَتَّخِذُ لَهَا فِيهِ سَبِيلًا، وَقَدْ عَادَتْ « لُولَا » بَعْدَ زَوَالِ الْخَطَرِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالسُّرُورِ، فَهِيَ تَمْرَحُ وَتَعْدُو عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ حَافِظَةً لِتَوَازُنِهَا ، وَتَبْدُو قَدَمَاهَا الصَّغِيرَتَانِ فِي خَبَبِهَا مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهَا كَأَنَّهُمَا فَأْرَتَانِ . اهـ

الشذرة الحادية والثلاثون

(وَصْفُ جُزُرِ جَوَانْ فِرْنَانْدِزَ)

وَبَيَانُ أَنَّ إِحْدَاهَا هِيَ الَّتِي كُتِبَتْ عَنْهَا قِصَّةُ « رُوبِنْسُن كُرُوزُو الْمَشْهُورَةُ »

يوم ٢٥ مايو سنة — ١٨٦

رَسَوْنَا غَدَاةَ الْيَوْمِ فِي جَوَانْ فِرْنَانْدِزَ لِضَبْطِ مِقْيَاسِ الزَّمَنِ (الْكُرُونُومِتْرِ)، وَهٰذِهِ الْبُقْعَةُ مُرَكَّبَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ ثَلَاثِ جُزُرٍ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا مَجْمُوعٌ مُتَلَاصِقُ الْأَجْزَاءِ ، وَتُسَمَّى الْأُولَى مَاسَاتِيِيرَةَ وَالثَّانِيَةُ مَاسَافُوِيرَةَ وَالثَّالِثَةُ إِسْلَادُ وُلُوبُوس ،

---

(١) عباب الأمواج معظمها وآرتفاعها وكثرتها .

وهي صخرة تكاد تكون جرداء، أكثر الثلاث تطوحا نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر)، لأن القياطس تأوى إليها طلبا للراحة والدفء.

الجزيرتان الأوليان ماساتيرة وماسافويرة معشوشبتان[1] شجراوان[2]، ومع اجتهاد الحكومة التابعتين لها في تعميرهما لا تزالان قفرا، لا يعمرهما إلا المعز الوحشية وهي كثيرة فيهما، ويقال إنها كانت تزيد عن ذلك لو لم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقاتلها وتفترسها، وليت شعرى إلى أية حالة تصير هذه الكلاب إذا أبادت جميع ما هنالك من المعز؟ لا بد أن يأكل بعضها بعضا. وجزيرة جوان فرناندز تذكر بواقعة عظيمة جرت فيها وهي:

أنه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الإنجليزى دامبير على ماساتيرة، فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو إسكندر شالكرك، إثر مشاجرة احتدمت بينهما، ترك هذا التعس في هذه الجزيرة القفر غير مزود إياه إلا بشيء يسير من الغذاء والعدد، فعاش هنالك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته، وفي سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادى الثيران الوحشية أن نزلا بالجزيرة، فعثرا على ذلك الرجل، فرقا لحاله وحملاه معهما إلى أوربة.

وكان شالكيرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع، فاستعان بها دانيال دوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذى عرفه الناس جميعا، ولشد ما يبديه الآن «إميل» و«لولا» من الاهتمام بمطالعة وقائع روبنسن كروزويه. اهـ

(١) معشوشبتان: كثيرتا العشب. (٢) شجراوان: كثيرتا الشجر.

الشذرة الثانية والثلاثون

« الوُصُولُ إلَى خَليج قَلّاو ووَصْفُهُ »

« وذِكْرُ نوعٍ مِنَ الطَّيرِ في تِلْكَ الجِهَـــةِ »

يوم ٥ يونيه سنة — ١٨٦

يا بُشْرى! هَذِهِ أَرْضٌ! هَذِهِ أَرْضٌ!

بعـد أنْ سافرنا تِسعِين يوماً دَخلْنا خَليجَ قَلّاو، وهُوَ مِن أبهى مَناظِرِ الدُّنيا، وأبصرْنا جَزيرةَ لُورنزُو ترتفـعُ حِيالَنا، أقُـولُ ترتفـعُ، وأقَلُّ ما في هـذا اللَّفظِ أنّهُ حَقيقةٌ في استِعْمالِهِ هُنا، فقدْ نتجَ مِنْ حِسابِ أَحَدِ العُلمَـاءِ أنّ سَواحِلَ سَانْ لُورنْزو كَسَواحِلِ الشّاطِئِ المُجاوِرِ لَهَا، ارتفعتْ عَنْ سَطْحِ البَحْرِ خَمْسًا وثَمانينَ قدمًا إنْجليزيّة مِنْ عهدِ العُصورِ الّتِي يَعرِفُها التّاريخُ.

صُخُورُ هذِهِ الجَزيرَةِ يَعمُرُها آلافٌ مؤلّفةٌ مِنَ الطُّيورِ، أخُصُّ بالذِّكرِ مِنها طائرًا رأسُهُ أسمرُ إلَى السِّنجابِيّـةِ (١) وبطنُهُ أبيضُ ناصعٌ وذنبُهُ أسودُ، يُقـالُ إنّهُ هُوَ الّذي يحصـلُ مِنهُ أهـلُ الجَزيرةِ السّمادَ المعروفَ بالغُوانُو، وهو ثروتُهم الكُبرى، لأنّ الذّهبَ والفِضّةَ كادَا ينْضُبانِ مِنْ مَعادِنِ بِلادِ البِيرُو، فهِيَ تتسلّى عَنِ الحِرمانِ مِنْهُما ببَيعِ القَذَرِ، ولا غَرْوَ فالذّهبُ مُذهِبٌ ومُفسِدٌ، والقَذَرُ مُوجِدٌ ومُخْصِبٌ. اهـ

---

(١) السنجابية : لون السنجاب .

الشذرة الثالثة والثلاثون

« بَيَانُ فَوَائِدِ الْعِقْبَانِ »

يوم ٦ يونيه سنة — ١٨٦

رَسَوْنَا فِي مِينَاءِ سِيُودَالْ دُولُوسْ رِيسْ .

أَخَصُّ مَا أَدْهَشَ «إمِيلَ» و «أُولَا» عِنْدَ هُبُوطِهِمَا عَلَى الْبَرِّ كَثْرَةُ الْعِقْبَانِ الَّتِي تَسْكُنُ سَوَاحِلَ هَذِهِ الْجِهَةِ ، فَإِنَّهَا تُرَى عِنْدَ كُلِّ خَطْوَةٍ فِي الشَّوَارِعِ وَعَلَى سُطُوحِ الْمَسَاكِنِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهَا طَائِفَةً تَبْلُغُ السِّتِّينَ أَوِ الثَّمَانِينَ نَائِمَةً ، وَهِيَ جَاثِمَةٌ عَلَى جِدَارٍ وَرُؤُوسُهَا مُخْتَبِئَةٌ تَحْتَ أَجْنِحَتِهَا ، ذَلِكَ أَنَّهَا لَيْسَ مِنْ خُلُقِهَا الْجَفَلَانُ ، وَلَا تَخْشَى مِنَ السُّكَّانِ شَيْئًا ، لِأَنَّهُمْ يُجِلُّونَهَا ، هَذِهِ الطُّيُورُ فِي غَايَةِ الشَّرَهِ ، وَشَرَهُهَا نَفْسُهُ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ ، لِأَنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى حِفْظِ الصِّحَّةِ فِي الْمُدُنِ ، وَكَانَ «لإمِيلَ» فِيمَا أَرَى أَخْطَاءٌ غَرِيبَةٌ فِي شَأْنِهَا ، فَإِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ الزِّرَايَةَ عَلَيْهَا مِمَّنْ دَرَسُوا أَخْلَاقَهَا فِي الْكُتُبِ كَانَ يَتَخَيَّلُهَا سَلَّابَةً تَسْكُنُ الْهَوَاءَ ، أَكَّالَةً دَنِيئَةً لِلرِّمَمِ ، فَلَمْ يَمْضِ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلَائِلُ حَتَّى زَالَ الْوَهْمُ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ خِلَافُ مَا كَانَ يَتَوَهَّمُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّهَا مُحْتَسِبَةٌ[1] سَخَّرَهَا الْخَالِقُ (سُبْحَانَهُ) فِي الْبِلَادِ الْحَارَّةِ لِلْقِيَامِ عَلَى تَنْظِيفِ الطُّرُقِ الْعَامَّةِ ، فَهِيَ تُنَقِّيهَا مِمَّا يُلْقَى عَلَى الْأَبْوَابِ مِنَ الْقُمَامِ وَاللُّحُومِ الْفَاسِدَةِ وَمِمَّا يُطْرَحُ فِيهَا مِنَ الْجِيَفِ ، وَيَدُلُّ مَا تُبْدِيهِ هَذِهِ الطُّيُورُ مِنَ الْاطْمِئْنَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالثِّقَةِ بِهِ حَقَّ الدَّلَالَةِ عَلَى شُعُورِهَا بِنَفْعِهَا لَهُ .

الْمَسَافَةُ بَيْنَ قَلَاوٍ وَلِيمَةَ فَرْسَخَانِ إِسْبَانْيُولِيَانِ وَسَنَبْلُغُهَا غَدًا . اه

(١) المحتسب مأمور من قبـل الوالى لضبط الموازين والقيام على الشئون الصحية وغيرها شبهت به العقبان اتيانها ببعض أعماله .

الشذرة الرابعة والثلاثون

التَّرْبِيَةُ بِالْمُعَايَنَةِ

يوم ١٢ يونيه سنة — ١٨٦

مَدِينَةُ لِيمَةَ فِي نَظَرِي كَثِيرَةُ الشَّبَهِ جِدًّا بِإِحْدَى مُدُنِ أُورُوبَةَ، وَإِنَّ الأُورُبِيَّ الَّذِي يُسَافِرُ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَقْطَعُ فِي ذَلِكَ خَمْسَةَ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَثَمَانِينَ مِيلًا إِنْجِلِيزِيًّا لَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُلَاقِيَ بَعْدَ هَذَا السَّفَرِ مِنْ تَرْكِهِمْ هُنَاكَ مِنَ الْيَسُوعِيِّينَ وَالْمُحْتَالِينَ وَالْبَغَايَا وَالرَّاهِبَاتِ وَمَعَاهِدِ الْفُجُورِ .

فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَوَارِعُ لَهَا مِنَ الرَّوْنَقِ مَا يُنَاسِبُهَا، وَفِيهَا مَيْدَانٌ أَنِيقٌ يُدْعَى «بِالبلازامايِر» ، فِي وَسَطِهِ بِرْكَةٌ فَخْمَةٌ مِنَ الْبُرُنْزِ، يَنْبَثِقُ مِنْهَا الْمَاءُ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَاضٍ، عَلَى أَنَّ هُنَاكَ جَدْوَلًا يَخْتَرِقُ الْمَدِينَةَ أُفَضِّلُهُ كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ، وَهَذَا الْجَدْوَلُ الْمُسَمَّى بِالرِّيمَاقِ يَأْخُذُ مِيَاهَهُ مِنْ مَثَالِجِ جِبَالِ الْقُورْدِيير ، وَبَعْدَ أَنْ يَجْرِيَ ثَلَاثِينَ فَرْسَخًا يَصِلُ إِلَى لِيمَةَ فَيَقْسِمُهَا إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ تَقْرِيبًا ، وَلَسْتُ أَدْرِي أَضَلَالٌ أَمْ حَقٌّ أَنْ أُحِسَّ بِبُرُودَةِ مِيَاهِهِ إِذَا غَمَسْتُ إِصْبَعِي فِيهَا كَأَنَّ مَاءَ الثُّلُوجِ لَمْ يُمْهِلْهُ انْدِفَاعُهُ أَنْ يَسْخُنَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ .

لَيْسَتِ الْحَرَارَةُ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ مِنَ الشِّدَّةِ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي قَدْ يُتَوَهَّمُ، مَعَ كَوْنِهَا لَا تَبْعُدُ عَنْ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ إِلَّا عَشْرَ دَرَجَاتٍ؛ وَتُعَلَّلُ هَذِهِ الْحَالَةُ بِعِلَلٍ مُخْتَلِفَةٍ، غَيْرَ أَنَّ أَخَصَّهَا وَضْعُ الْمَدِينَةِ ، فَإِنَّ الْمُحِيطَ الْهَادِئَ يَكْتَنِفُهَا مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهَا،

وَيَكْنُفُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ جِبَالُ الْقُورْدِيِيرِ الْقَائِمَةُ شَرْقِيَّهَا مُكَلَّلَةً بِالثُّلُوجِ الدَّائِمَةِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُسَاعِدُ بِلَا رَيْبٍ عَلَى تَرْطِيبِ الْجَوِّ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ فَرْسَخَانِ إِسْبَانْيُولِيَّانِ، وَلَا تَبْعُدُ الْجِبَالُ عَنْهَا إِلَّا ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ فَرْسَخًا، فَكَأَنَّ الْبَحْرَ وَالْجِبَالَ مِنْطَقَةٌ مُزْدَوِجَةٌ تَمْنَطِقُ بِهَا السَّاحِلُ لِتَقِيَهُ شِدَّةَ الْحَرَارَةِ.

الَّذِي يُدْهِشُ (إِمِيلَ) وَ(لُولَا) كَثِيرًا هُوَ أَنَّنَا بِحَسَبِ مَنْزِلَةِ الشَّمْسِ الْآنَ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، مَعَ أَنَّنَا فِي شَهْرِ يُونْيَه، عَلَى أَنَّ الْحَقَّ أَنْ لَا شِتَاءَ فِي بِلَادِ الْبِيرُو، فَإِنَّ السَّنَةَ فِيهَا تَنْقَسِمُ إِلَى فَصْلَيْنِ: فَصْلِ الرُّطُوبَةِ وَفَصْلِ الْجَفَافِ، فَفَصْلُ الرُّطُوبَةِ يَبْتَدِئُ مِنْ شَهْرِ إِبْرِيلَ وَيَسْتَمِرُّ إِلَى أُكْتُوبَرَ، وَفِيهِ يَغْشَى الْمَدِينَةَ ضَبَابٌ ثَقِيلٌ فَاتِرٌ يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْبِلَادِ بِالْغُرُوِي، وَقَدْ يَبْلُغُ أَحْيَانًا مِنَ الْكَثَافَةِ وَالْإِسْفَافِ (الدُّنُوِّ مِنَ الْأَرْضِ) ـ خُصُوصًا فِي الْغَدَاةِ ـ حَدًّا لَا نَكَادُ نَرَى فِيهِ مَا هُوَ شَدِيدُ الْقُرْبِ مِنَّا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا الْحِجَابَ يَتَمَزَّقُ فِي شَهْرِ أُكْتُوبَرَ أَوْ نُوفَمْبَرَ فَتَرْتَفِعُ قُبَّةُ السَّمَاءِ سِنْجَابِيَّةَ اللَّوْنِ، وَلَا يَلْبَثُ الطَّلُّ أَنْ يَتَلَاشَى بِحَرَارَةِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ النَّفَاذَةِ، وَحِينَئِذٍ يَبْتَدِئُ فَصْلُ الْجَفَافِ أَيِ الصَّيْفُ.

لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا فَصْلُ الرُّطُوبَةِ الْفَصْلُ الْمُمْطِرُ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْضِي قَرْنٌ وَلَا تَسْقُطُ عَلَى طُولِ هَذَا السَّاحِلِ كُلِّهِ قَطْرَةٌ مِنْ مَطَرٍ، عَرَفْتُ ذَلِكَ لِأَنِّي مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ كُنْتُ أَسْأَلُ شَيْخًا مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ: هَلْ تَذْكُرُ أَنَّكَ شَهِدْتَ مَطَرًا فِي حَيَاتِكَ؟ فَكَانَ جَوَابُهُ لِي «قَطْ» فَسَأَلْتُهُ عَنْ عُمْرِهِ فَقَالَ إِنَّهُ ثَمَانُونَ سَنَةً.

الضَّبَابُ نَدًى يُحِيلُ التُّرَابَ إِلَى وَحْلٍ، وَيَكْفِي لِإِخْصَابِ الْأَرْضِ هُنَا إِخْصَابًا مُتَوَسِّطًا، عَلَى أَنَّهُ يُوجَدُ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنْ بِلَادِ الْبِيرُو وِدْيَانٌ وَرُبًى قَرِيبَةٌ مِنَ

الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية، إذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عما قليل حافلة بالنباتات، فالأرض لا تسأل السماء إلا أن تتصدق عليها بالماء .

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصلين حرارة، على أن الناس هنا يؤكدون لي أنهم يجدونه مبردا بما يهب من نسيمي البر والبحر، فكأن هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما، فيهب نسيم البحر على الجملة حوالى الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوبه متراوحا بين الشدة واللين إلى غروب الشمس، ثم يركد ويستتب السكون، فإذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشى جاء دور نسيم البر الذى يهب من الجبال فيبقى على هبوبه إلى الغداة .

فى رأيى أن سكان ليمة أشد ما فيها غرابة وأدعاه إلى المراقبة، فلا أظن أنه يوجد فى سكان بقعة أخرى من بقاع الأرض ما يوجد فى ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم، وفى ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة، ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين (وأعنى بهم الأشخاص الموجودين فى أمريكة ممن هاجروا إليها من الدنيا القديمة، خصوصا أعقاب البيوت الإسبانيولية العتيقة ومن الهنود والزنوج والخلاسيين (١) وغيرهم من الأصناف، فترى من ألوان وجوههم كلما تقفتهم (٢) الأبيض الشاحب والأصفر النحاسى والأسود الكهربى وما يتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدة من اشتباك الأرحام واختلاط الأنساب،

(١) الخلاسى هو الذى يولد بين أبوين أحدهما أبيض والثانى أسود .

(٢) تقفتهم : لقيتهم .

وَإِنِّى إِذَا اعتبرتُ فِى الحُكمِ عليهِم مَا قَامَ بنفسِى مِنْ آثارِ الانفعالِ برؤيتهم لأول مرةٍ حكمتُ بأنهم متشابكونَ بالأرواحِ كما تشابكوا بالأشباحِ .

تمتازُ النساءُ البيضُ والخلاسياتُ عن غيرهِنَّ بعينينِ نجلاوينِ (١) سوداوينِ تتوقدانِ ذكاءً، وبشعورٍ طويلةٍ غدائرُها (٢) الثقيلةُ مرسلةٌ، ولونٍ تتلاءمُ وضاحتهُ الفطريةُ حدةَ الشمسِ، وأنفٍ مع خلوهِ من شبهِ الأنوفِ اليونانيةِ لا يعوزهُ شيءٌ من القنا (٣)، وفمٍ مزدانٍ بالثنايا الجميلةِ على ما قد يكونُ فيه من السعةِ أحيانًا، وقامةٍ وسيطةٍ معتدلةٍ، وقدمينِ بلغتا من الصغرِ حدًّا يدعو إلى العجبِ، ويدينِ صيغتا صياغةً دقيقةً، وجملةُ القولِ فى وصفهنَّ أنَّ صورتهنَّ هى صورةُ «لولا» إذا كبرت .

أنا لا أعلمُ إلى الآنَ شيئًا من أخلاقهنَّ، اللهمَّ إلا ما يظهرُ لى من أنهنَّ (أعنى الغنياتِ منهنَّ) يقضينَ أوقاتهنَّ بينَ الزهورِ والعطورِ والأقراصِ العطريةِ والمربياتِ والحلاوى، ولئن اعتمدتُ فى الحكمِ عليهنَّ على ما أسمعهُ عنهنَّ ممن يحتفونَ بى، لقلتُ إنهنَّ يقسمنَ وقتهنَّ بينَ دسائسِ العشقِ وشعائرِ العبادةِ ، ولا إخالُ أحدًا لا يدهشُ إذا علمَ أنَّ الأديارَ والكنائسَ تشغلُ من المدينةِ ربعها، ومما أكدهُ لى أهلُ ليمةَ أنَّ الرجالَ منهم شديدو الغيرةِ على نسائهم، ولكنى لا أعتقدُ شيئًا مما يقولونَ، فإنهم لو كانوا كذلكَ حقيقةً لما أباحوا لهنَّ الذهابَ للاعترافِ فى أغلبِ الأوقاتِ (٤) . اهـ

(١) نجلاوين واسعتين . (٢) غدائرها : ذوائبها أى الشعور التى تكون فى أعلى الرأس .

(٣) القنا مصدر فى الانف أى ارتفع اعلاه واحد ودب وسطه وسبغ أى طال طرفه .

(٤) ليتأمل المفكر ما فى هذه العبارة من التعريض بعادة الاعتراف عند المسيحيين وما فيها من مظان التهم والريب ، وليذكر أنها صادرة من رجل ينتسب الى المسيحية — المترجم .

الشذرة الخامسة والثلاثون

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ لِيمَةَ وَأَحْوالِهِمْ وَأَهْلِ بَيْتِ « لُولَا » وَوَالِدَيْهَا

يوم ٣٠ يونيه سنة — ١٨٦

مَا لَبِثْتُ مُنْذُ وَصَلْنَا إِلَى لِيمَةَ أَنِ الْتَزَمْتُ الاشْتِغَالَ بِمَصَالِحِ دُوأُورِيس، وَأَوَّلُ شَيْءٍ رَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ الْبَدَاءَةَ بِهِ فِي هَـذِهِ السَّبِيلِ أَنْ أَجْمَعَ تَفَاصِيلَ مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ الأَخْبَارِ الْمَوْثُوقِ بِهَا فِي شَأْنِ مَوْلِدِهَا وَوَالِدَيْهَا، وَدُونَكَ بِالإِيجَازِ نَتِيجَةَ مَا هَدَتْنِي إِلَيْهِ أَبْحَاثِي :

أَمَّا وَالِدُهَا فَهُوَ مِنْ بَيْتٍ إِسْبَانْيُولِيٍّ كَانَ رَحَلَ إِلَى بِلَادِ الْبِيرُو وَاسْتَوْطَنَهَا بَعْدَ الْفَتْحِ بِزَمَنٍ يَسِيرٍ ، وَأَمَّا وَالِدَتُهَا فَكَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ ذَوَاتِ اللَّوْنِ ، وَيَعْنِي بِهِنَّ الْخِلَاسِيَّاتُ بِحَسَبِ اصْطِلَاحِ النَّاسِ هُنَا، وَكَانَتْ مَعَ احْتِوَاءِ عُرُوقِهَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّمِ الْهِنْدِيِّ، لَا يَتَأَتَّى لِعَيْنٍ غَيْرِ عَيْنِ الْمُسْتَعْمِرِ الْخَالِصِ الْغَيُورِ أَنْ تَكْتَشِفَ فِيهَا بَقَايَا سِمَاتِ صِنْفِهَا الَّتِي انْمَحَى أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِهَا ، فَإِنَّهُ لَا قُدْرَةَ لِغَيْرِ الْمُسْتَعْمِرِينَ عَلَى أَنْ يُمَيِّزُوا فِي الذَّاتِ الْجَمِيلَةِ لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ مَا يُسَمِّيهِ الإِنْجِلِيزُ بِأَثَرِ ظِلْفِ الشَّيْطَانِ الْمَشْقُوقِ، فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ هَذَا الأَثَرَ حَتَّى فِي شَكْلِ الأَظَافِرِ .

وَيَحِقُّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ، مَعَ خُضُوعِ هَذِهِ الْبِلَادِ لِلْحُكُومَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَمَعَ تَشَابُكِ الأَجْيَالِ فِيهَا، لَا يَزَالُ بَعْضُ الْبُيُوتَاتِ الإِسْبَانْيُولِيَّةِ يَرَوْنَ مِنَ الإِمْتِيَازِ أَنْ يُثْبِتُوا صَرَاحَةَ أَنْسَابِهِمْ وَنَقَاوَتَهَا مِنَ الإِخْتِلَاطِ ، وَأَنْ يَحْرِصُوا عَلَى بَقَائِهَا كَذَلِكَ ،

فإنَّ هـذا في رأيهم شارةٌ من شارات الشرف ، وفي رأي غيرهم والحق يقال نعمةٌ يحسدونهم عليها ، يدلك عليه أن الخلاسيين في الطبقة الخامسة بل وفي الطبقة السادسة يدعوهم تجبهم إلى التألم من أن يعرفهم الناس بهذه الصفة ، حتى إنهم ليبذلون كل ما يملكون لو ضمن لهم الانفكاك من أماراتها ، التي تراها مع نهايتها في الخفاء وقرب تلاشيها تنم على خسة أصلهم ، كما تقرر في الآراء والأفكار .

ذلك ما حدابي إلى أن أحدث نفسي غالبا بأن معيشة الناس مجتمعين ربما كانت في بدايتها مؤسسة على حاجتهم إلى احتقار بعضهم بعضا .

ومهما يكن من ذلك الأمر فقد كان زواج ذلك الإسبانيولي الحر بتلك الخلاسية معتبرا عند كل أهل بيته من سوء الحظ ، لأنه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات(١) متعلقة بالجيل الأحمر ، ورسخت فيها شديد الرسوخ ، وكانوا يرفعون عقيرتهم افتخارا بأنهم لا ينفكون عن تخير الأمهات ، ولا أدري أكان هذا من أسباب الفرقة بين الزوجين فيما بعد أم لا ، غير أنه قد عرف أن اقترانهما لم يقرن بالهناء والغبطة ، فقد ماتت هذه الفتاة الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد أن وضعت بنتا .

لم يطوح والد « لولا » بنفسه في الأعمال البحرية تطويحا تاما إلا من بعد تأيمه(٢) ، وكانت السفينة التي غرقت به حيال سواحل بتزانس ملكا له ، وقد أجمع

---

(١) الخزعبيلات الأمور المضحكة .

(٢) تأيمه صيرورته أيما أي مصابا بفقد زوجته .

النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْفَخْرِ بِبِنْتِهِ وَأَنَّهُ لِعَزْمِهِ عَلَى تَرْبِيَتِهَا تَرْبِيَةً أَعْلَى مِنَ الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا أَغْلَبُ النِّسَاءِ فِي لِيمَةَ، حَمَلَهَا مَعَهُ لِيَضَعَهَا فِي إِحْدَى مَدَارِسِ لُونْدُرَةَ الدَّاخِلِيَّةِ .

كَانَ يُحِبُّ هَذِهِ الطِّفْلَةَ ، وَفِي هَذَا أَقْوَى مُوجِبٍ لِلظَّنِّ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّقَهَا بِمَزِيدِ الِاحْتِرَاسِ وَالْعِنَايَةِ فِي أَدَوَاتِ السَّفِينَةِ قَبْلَ أَنْ تَغْتَالَهُ الْأَمْوَاجُ .

بَلَغَ خَبَرُ الْغَرَقِ مَا وَرَاءَ الْبِحَارِ، غَيْرَ أَنَّهُ شَاعَ أَيْضًا فِي لِيمَةَ أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ شَمِلَتِ الرَّجُلَ وَبِنْتَهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ مَا أَرْسَلْتُهُ أَنَا وَهِيلَانَةُ مِنَ الرَّسَائِلِ إِعْلَامًا بِنَجَاةِ «لُولَا» وَمُطَالَبَةً بِحُقُوقِهَا قَدْ حَجَزَهَا مَنْ لَهُمْ مَصْلَحَةٌ فِي إِعْدَامِهَا .

مَا نَجَا مِنَ الْغَرَقِ إِلَّا مَلَّاحٌ وَاحِدٌ لَمْ يَرْجِعْ بَعْدَهُ إِلَى لِيمَةَ قَطُّ لِسَبَبٍ لَا أَعْلَمُهُ فَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَ مَا أُذِيعَ هُنَاكَ عَمْدًا مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةِ .

لَمَّا وَصَلْنَا إِلَى لِيمَةَ عَرَفَتْ «لُولَا» بِلَادَهَا — إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا — مِنْ خِلَالِ مَا حَفِظَتْهُ ذَاكِرَتُهَا مِنْ آثَارِهَا فِي الصِّغَرِ، غَيْرَ أَنَّ هَـذِهِ الْبِـلَادَ لَمْ تَعْرِفْهَا قَطُّ، فَقَدْ كَانَ مَنْ عَرَّفْتُهُمْ بِهَا مِنْ آلِ بَيْتِهَا يَتَظَاهَرُونَ بِالرِّيبَةِ فِيهَا، فَيَقُولُونَ نَعَمْ إِنَّهُمْ كَانُوا سَمِعُوا بِسَفَّانٍ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ وَبِأَنَّهُ عَمُّهُمْ أَوِ ابْنُ عَمِّهِمْ ، وَلَكِنْ مَا الدَّلِيـلُ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ الَّتِي عَرَّفْتُهُمْ بِهَا بِنْتُـهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُحِقِّينَ كُلَّ الْحَقِّ أَنْ يَعْتَقِدُوا مَوْتَهَا، وَأَمَّا مَا قَدَّمْتُهُ لَهُمْ مِنَ الْأَوْرَاقِ الدَّالَّةِ عَلَى ثُبُوتِ نَسَبِهَا لَهُ فَكَانُوا يَتَعَلَّلُونَ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَهُمْ لَا يَفْهَمُونَهَا، بَلْ هُمْ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَكَلَّفُوا قِرَاءَتَهَا .

ذَلِكَ مَا اضْطَرَّنِي إِلَى أَنْ أَقْصِدَ الْعَارِفِينَ بِالْقَانُونِ ، فَكَانَ رَأْيُهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَنَّهَا مِنَ الْقَضَايَا الْمُعْضِلَةِ الْمُرْتَبِكَةِ، وَأَنَّهَا تَقْتَضِي فَرَاغًا وَإِسْلَافَ نُقُودٍ وَعَنَاءً كَثِيرًا

مِنْ عَبَثِ المُحَامَاةِ (١)، وَأَنْتَ تَعْلَمُ حَالَةَ القَضَاءِ فِي بِلَادِنَا، وَهُوَ فِي بِلَادِ البِيرُو أَدْنَى مِنْهُ أَيْضًا إِلَى الطُّفُولِيَّةِ .

عُمَّالُ الحُكُومَةِ الَّذِينَ سَأَلْتُهُمْ فِي هَـذَا المَوْضُوعِ وَإِنْ كَانَ أَغْلَبُهُمْ يَنْتَمِي إِلَى بَيْتِ وَالِدِ الفَتَاةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ بَعْضَ المَـالِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ـ وَفِي قَوْلِهِمْ أَمَارَاتُ الرِّيبَةِ ـ إِنَّ جُلَّ هَذَا المَـالِ ضَاعَ فِي سَدَادِ دُيُونِ المُتَوَفَّى، وَالَّذِي ظَهَرَ لِي أَشَدَّ الظُّهُورِ هُوَ أَنَّ المُضِيَّ فِي هَـذِهِ القَضِيَّةِ يَجُرُّ إِلَى تَشْوِيشِ كَثِيرٍ مِنَ المَصَالِحِ الخَاصَّةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا اتَّسَعَتْ بِمُصِيبَةِ السَّفَّانِ . تِلْكَ هِيَ حَالَةُ الأُمُورِ .

الشذرة السادسة والثلاثون

« فَوَائِدُ الشَّدَائِدِ ــ بَذْلُ النَّفْسِ لِلْمَحْبُوبِ أَوَّلُ الحُبِّ »

يوم ١٥ يوليه سنة ــ ١٨٦

كَانَ مِنَّـا خُرْقٌ وَطَيْشٌ كَادَتْ عَوَاقِبُـهُ تَكُونُ عَلَيْنَا خَسَارًا مُبِينًا ، ذَلِكَ أَنِّي وَ « إِمِيلَ » وَ « لُولَا » خَرَجْنَا عَشِيَّةَ أَمْسِ نَتَنَزَّهُ وَالسَّاحِلَ مُمْتَطِينَ أَفْرَاسًا، فَأَوْغَلْنَا فِي سَيْرِنَا مُعْتَسِفِينَ وَلَا يَلْبَثُ الإِنْسَانُ بِأَدْنَى بَحْثٍ فِي شَكْلِ هَذِهِ السَّوَاحِلِ الظَّاهِرِيِّ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ البِلَادَ نَشَأَتْ مِنَ الزَّلَازِلِ الأَرْضِيَّةِ .

---

(١) عبث المحاماة ما لها من الطرق والحيل فى تشويش القضايا وتأجيل الفصل فيها ويظهر أن هذا من لوازمها بدليل وجوده فى أغلب البلدان ــ المترجم .

مِنْ أَسْمَى الأَفْهَامِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا حِكْمَةُ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ ـ عَلَى مَا أَرَى ـ (١) إِدْرَاكُ أَنَّ لِلنَّاسِ فَوَائِدَ فِيمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَإِنَّ لَهَا دَخْلًا عَظِيمًا فِي تَكْوِينِ الْعَالَمِ الْمَادِيِّ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَذِهِ الْمَصَائِبُ؟ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَتَوَلَّاهَا الْاِضْطِرَابُ عَمَّ الْفَزَعُ كُلَّ مَنْ عَلَى ظَهْرِهَا مِمَّنْ يَشْهَدُونَ زِلْزَالَهَا، وَرَأَيْتَ الْحَيَوَانَاتِ جَافِلَةً حَيْرَى لَا تَدْرِي مَاذَا يُرَادُ بِهَا .

وَإِنَّ لِمَنْ شَهِدَ الزَّلَازِلَ مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ قِصَصًا عَنْهَا يَرْوُونَهَا لِلْأَجَانِبِ تُحَاكِي قِصَصَ التَّوْرَاةِ، فَكَأَيِّنْ (٢) مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ بِالْأَمْسِ عَامِرَةً سَعِيدَةً أَصْبَحَتْ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، فَلَا يَجِدُ الْبَاحِثُ عَنْهَا فِي عَرَصَاتِهَا إِلَّا أَطْلَالًا بَالِيَةً وَرُسُومًا دَارِسَةً (٣)، وَإِذَا انْقَضَتِ الزَّلَازِلُ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ مُدَّةَ الشَّهْرِ التَّالِي لِوُقُوعِهَا إِلَّا قِصَصَهَا الْمُحْزِنَةَ، فَمِنْ رِجَالٍ ذَهَبَتْ عُقُولُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ، وَأَمْوَالٍ لَعِبَتْ بِهَا أَيْدِي الضَّيَاعِ، وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ وَشُيُوخٍ خَرَّتْ عَلَيْهِمْ بُيُوتُهُمْ تَخْنُقُهُمْ رَدْمُهَا .

---

(١) لقد طاش رأيه فان القرآن الكريم نطق بهذه الحكمة التي عدها حديثة في آيات كثيرة جدا، كقوله تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» وقوله تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب»، وقوله تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» وتداولها المسلمون في منثورهم ومنظومهم ولكنه لا يعلم ذلك .

(٢) وكأين يعني وكثير من القرى . أو وكم من قرية .

(٣) دارسة، عافية أي ضائعة آثارها .

لا يسلم تاريخ هذه الزوايا من اختلاط القصص به، فمما يحكيه الناس هنا أنهم شاهدوا في زلزلة ليلية على وميض البروق المشؤم أن الأرض قد انشقت وبرزت هياكل قدماء الأنقين (١) من قبورها ثم عادت فغيبت في هذه المهاوى التي ما لبثت أن التأمت عليها .

سكان شطوط المحيط في هذه البلاد أشد تعرضا للمعاطب فإن البحر في بدء الزلزال يتقهقر عن الأرض كأنه قد ملكه الذعر، ثم يعاود الكرة وقد هاج غضبه، واشتد صخبه ولجبه (٢)، وهنالك تتكسر أناجر السفن وتتقطع سلاسلها، وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دورانا، وأما جسور المياه فإنها تستسلم لضغط الأمواج فتفتح أبوابها للخراب والهلاك .

وللبيرويين من المعرفة الصحيحة بما لأرضهم، التي استودعوها حياتهم وعيالهم وآمالهم، من ضروب الختل ما يجعلهم في عامة أوقاتهم على حذر منها، فتراهم لا يذوقون النوم إلا غرارا (٣)، مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم لأقل لغط أو أدنى رجة سائلين ما الخطب؟ فإذا قيل زلزلة برزوا جميعا .

على أن لهم بهذا القطر الذي تميد بهم أرضه كلف العاشقين لجماله وخصبه، فإنك تجد في البقاع المزروعة منه حقول الذرة وقصب السكر والقطن والفواكه الإسبانيولية، كالبرتقال والليمون والرمان والتين والزيتون، قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كالموز والأناناس ، فتلك الأرض المتزلزلة حبلى بالحياة

(١) الأنقين جمع أنق وهو أحد أشراف قدماء الهنود بأمريكة .

(٢) لجبه : هياجه واضطرابه . (٣) غرارا : أى قليلا .

فهى تنمو وتعلو وتتنفس، ولا ينبغى أن ينقم منها أنها فى عملها هذا تشوش عمل الإنسان أحياناً بما لها من صنوف التدمير وضروب التخريب .

لم يسلم الشاطئ الذى كنا نتنزه عليه من فعل الزلازل الأرضية التى لا شك فى أنها تبتدئ من سلسلة جبال الأنذز(١)، فإن الإنسان فيما يلاقيه هنالك من الشقوق والأنجاد والأغوار التى لا تلبث بعد انخسافها أن ترتفع، لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية .

كانت « لولا » تسير على الساحل وكلها زهو وعجب باستقبالها « إميل » فى بلادها ومرحبتها إياه، غير مفكرة فى شىء عسى أن يكون من الحبائل تحت هذا الساحل المتباين الذى دعثرته(٢) العواصف والأعاصير، فهمزت جوادها بحدة مفرطة وأخذت به شطر(٣) البحر، وكنا نحن نتبعها ولكن من بعد لبلادة فرسينا، على أن «إميل» لم يلبث أن خف إليها خفة المستيئس، لما نبهته هيعاتى إلى الخطر الذى كانت ملاقية له، فلما بلغ تلك الفارسة المرحة لم تكن إلا على نحو مائة متر من هوة بين صخرتين كان لا محيص(٤) لها من التردى(٥) فيها بجوادها مرسلة الشعر فى الهواء مشرعة السوط، فأخذ بعنان فرسها وقسره على التحول يسرة فرفع يديه قائماً على رجليه. ثم ما لبث أن وقف كأنه ألهم الوقوف بغتة .

---

(١) سلسلة جبال الانذز هى سلسلة عظيمة من الجبال فى أمريكة الجنوبية .

(٢) دعثرته : هدمته وكسرته . (٣) شطر البحر : جهة البحر أو ناحيته .

(٤) لا محيص : لا مفر . (٥) التردى : السقوط فى الهوة .

وأمَّا «لولا» فقد امتقعت (تغيّر لون وجهها) وارتعدت فرائصها لأنّها كانت أبصرت الهوة وشكرت «لإميل» همّته بأن قبلته تقبيلاً يشف عن الوداعة وسلامة القلب كالذي يقع من أخت لأخيها .

وفي يقيني أنّ هذه الحادثة لم تزد شيئاً على ما يضمره كل منهما للآخر من المحبة والوداد ، ولكني أحسب أني لاحظت من عهد حصولها فرقاً دقيقاً في رعايات « إميل » لها بزيادة تحدّبه (تعطفه) عليها ، فكأنّ بذل النفس للمحبوب أول الحب .

ذلك أمر لا بدّ أن تكشفه لنا الأيام ، لأني وهيلانة قد عوّدنا هذين الغلامين أن نصدقهما لمجرد قولهما فلا إخالهما يجسران على غشنا . اهـ

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثار والمدن المجهولة في البيرو والموازنة بين القوى والأعمال

يوم ٢٨ يوليه سنة — ١٨٦

كثيراً ما نلاقي هنا هنوداً أصليين يشتغل بعضهم بالتماس الثلج من رءوس الجبال ونقله على ظهور البغال إلى (ليمة) ، حيث يعتبر من أوائل مشتهيات المائدة ، وبعضهم ينقل الملح إليها من سواحل البحر على قطعان اللامة[(١)] .

(١) اللامة حيوان من حيوانات البيرو بأمريكة يشبه الجمل ، وقطعان جمع قطيع وهو الطائفة من الغنم أو الإبل .

يَالَهُ مِنْ بَوْنٍ بَعِيدٍ بَيْنَ مَا عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْهُنُودُ الْآنَ مِنَ الذُّلِّ وَالشَّقَاءِ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالرَّخَاءِ ! . .

مَعَابِدُ الْأَنْقِينَ الَّتِي يُرْشِدُ أَهْلُهَا السَّائِحَ إِلَى زِيَارَتِهَا، وَطَرِيقُهُمُ الْحَرْبِيُّ الْمَشْهُورُ الَّذِي اخْتَطُّوهُ لِمُقَاتِلَتِهِمْ، وَنِظَامُ رَيِّهِمِ الْعَجِيبُ الَّذِي كَانُوا يُبْلِغُونَ بِهِ مِيَاهَ الْجَدَاوِلِ الصَّغِيرَةِ إِلَى الْحُقُولِ، بِمَا كَانُوا يَحْتَفِرُونَهُ مِنَ الْخَنَادِقِ لِيُخْصِبُوا بِهِ مِنَ الْأَرَضِينَ مَا صَارَ بَعْدَهُمْ مَحْلًا، — كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْمِلُ عَلَى الِاعْتِقَادِ بِأَنَّ الْأَجْيَالَ الْأَصْلِيَّةَ، الَّتِي كَانَتْ مُتَوَطِّنَةً وَسَطَ أَمْرِيكَةَ، وَقَفَتْ فِي سَبِيلِ تَقَدُّمِهَا بِحُلُولِ الْجِيلِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي انْقَضَّ عَلَيْهَا فِي بِلَادِهَا انْقِضَاضَ الْعُقَابِ فَعَاقَهَا عَنْ رُقِيِّهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَسْعَى إِلَيْهِ، وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْبِرَنَا بِمَا كَانَ يَحْصُلُ لَوْ أَنَّهُمْ أُمْهِلُوا حَتَّى بَلَغُوا أَمْثَالَ تَمَدُّنِهِمِ الصَّحِيحِ ؟ رُبَّمَا كَانَ انْعَكَسَ الْأَمْرُ، فَذَهَبَ مِثْلُ خِرِيسْتُوفَ كُلُومْبَ مِنْ حُمْرِ الْجُلُودِ فَكَشَفَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةَ .

قَبَائِلُ الْهُنُودِ الَّتِي لَمْ تَخْضَعْ إِلَى الْيَوْمِ لِلْحُكُومَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ تَحْذَرُ مَا يُقَدَّمُ لَهَا مِنَ الْهَدَايَا وَمَا تُوعَدُ بِهِ مِنَ الْمَزَايَا عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ :

« الرُّومَ أَخْشَى » (١)

(١) «الروم أخشى» جزء من بيت شعر لشاعر لا تبنى أذكر منه شطره الأول وترجمته : «الروم أخشى وإن هم قدموا تحفا» .

وَلَمْ تُفْلِح الحُكُومَةُ فِي إِرْسَالِ الدُّعَاةِ إِلَيْهِمْ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ لَفْظَ إِنْجِيلٍ فِي فَمِ الأَبْيَضِ مَعْنَاهُ الاسْتِعْبَادُ لِجِيلِهِمْ وَمُصَادَرَتُهُمْ فِي أَرْضِهِم (١).

يَعْتَقِدُ بَعْضُ أَهْلِ لِيمَةَ أَنَّ مِنَ المُدُنِ البِيرُووِيَةِ أَوِ المَكْسِيكِيَّةِ القَدِيمَةِ مَا لَا تَزَالُ مَوْجُودَةً لَمْ يَبْلُغْهَا الفَاتِحُونَ مِنْ إِسْبَانِيَةَ، وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ أَيْنَ هَذِهِ المُدُنُ لَا تَجِدُ مِنْهُمْ أَحَدًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيبَكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، ثُمَّ إِذَا قُلْتَ كَيْفَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ سَائِحِي اليَوْمِ لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهَا؟ أَجَابُوكَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الأَقْوَامَ القُدَمَاءَ سُكَّانَ تِلْكَ المُدُنِ مَكْنُوفُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِالصَّحَارَى وَالآجَامِ وَالمُسْتَنْقَعَاتِ وَسَلَاسِلِ الجِبَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ العَقَبَاتِ الكَثِيرَةِ، وَبِذَلِكَ حَفِظُوا اسْتِقْلَالَهُمْ، عَلَى أَنَّ الوُصُولَ إِلَيْهِمْ يَقْتَضِي وَطْءَ قَبَائِلَ مُتَوَحِّشَةٍ، تَمْنَعُ الأَجَانِبَ مِنْ دُخُولِ أَرْضِهَا، وَتَجْزِي عَلَيْهِ بِالقَتْلِ مِثْلَ الهُنُودِ البُسَلَاءِ (أَنْدِيُوسْ بَرَاڤُوسْ)، وَهُمْ جِيلٌ حَرْبِيٌّ يَسْكُنُ الهِضَابَ الوَاقِعَةَ شَرْقِيَّ البِيرُو وَ(أُقُونْتْسُوس) وَيُقَالُ إِنَّهُمْ مِنْ أَكَلَةِ لُحُومِ البَشَرِ.

وَلَقَدْ ذَهَبَ فَرِيقٌ آخَرُ مِنَ البِيرُووِيِّينَ فِي دَعَاوِيهِمْ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى القَوْلِ بِوُجُودِ المُدُنِ المَذْكُورَةِ، بَلْ قَالُوا إِنَّ بَعْضَ رُكَّابِ التَّعَاسِيفِ (٢)

(١) ليعتبر بذلك الشرقيون عامة والمسلمون خاصة وليفكروا طويلا فيما جر عليهم التسامح مع الأجنبي من بلاء الاستعمار الذى صيرهم عبيدا فى بلادهم وأزال من نفوسهم حمية الدين وعزة الانتساب للوطن فأصبحوا لا يأبهون لاحتلال الأمم الغربية لبلادهم واستئثارهم بمرافقها ومصالحها دونهم والهتهم مصالحهم الذاتية وشهواتهم الجسمانية عن النظر فيما يصلحهم من حيث هم جماعات وأمم فذهبوا أباديد (مبددين) وأمسوا طرائق قددا (طوائف متفرقة الأهواء) فمن لنا بأمثال تلك القبائل الأبية النفوس الحية الأنوف التى أنفت أن تبيع حريتها بأغلى الأثمان، لتعلمنا كيف نحب أوطاننا ونفتديها بكل عزيز لدينا، وكيف ينبغى أن نعيش أحرارا فى بلادنا، وإن فيما ذكره عنهم المؤلف لدرسا مفيدا وعظة نافعة وعبرة لأولى الألباب (المترجم)

(٢) ركاب التعاسيف الذين يسلكون مجاهل البيد والصحارى دون الطرق المعروفة .

الحاملي الذكر المرتفقين(١) من التجار وطلاب المهن، زاروها المرة بعد المرة، ومن هؤلاء الزوار من انقطع ذكرهم فلم يسمع عنهم شيء، ومنهم من حكوا ما عاينوه منها، فهم مصدر ما عرف عنها، غير أنهم لبعدهم عن الحضارة بل وعن العلم لم يخبروا بما كشفوه إلا بعض التجار الرحل أو الصيادين، ولم يستطع هؤلاء عند حكايتهم لما وعوه(٢) أن يؤدوا لمن سمعوا منهم إلا أخبارا مبهمة جدا، والذي ينبغي أن يعتقد في مثل هذه الأحاديث هو أنه يحسن قبل نبذها واعتبارها من الأساطير أن يفكر فيها مرتين، لأنها على كل حال ليست بعيدة عن الحقيقة بعد أن كشف إستفنس(٣) وغيره من السائحين الذين جابوا وسط أمريكة ما كشفوا من الآثار الحقيقية، وبعد الأبحاث التي حصلت وسط الغابات الكثيفة ولم يشهدها إلا الببغاآت والقردة، وخصوصا بعد أن ثبتت للعالم صحة بعض الآثار المروية عن الهنود ثبوتا واضحا، من أطلال المدن المكشوفة مثل قوبان، وقيشي، وأوقوزينجو، وبالانقا، وغيرها من المدن الكثيرة المدفونة تحت جذور الأشجار من قرون طويلة.

نعم إن موضوع البحث والنظر هاهنا ليس مدنا بائدة، بل هو مدن حية قد يعثر فيها إن وجدت على تاريخ جيل من أجيال البشر برمته، ومعابدهم وآلهتهم وقسيسيهم وشرائعهم وعوائدهم.

---

(١) المرتفقين الذين يتداولون المرافق وهي كل ما ينتفع به.

(٢) وعوه حفظوه. (٣) استفنس هو سائح أمريكي شهير.

رُبَّمَا مَالَ «إِمِيلُ» وَ«لُولَا» إِذَا سَمِعَا مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَاتَّقَدَتْ بِهَا مُخَيِّلَتُهُمَا إِلَى أَنْ يُبَاشِرَا الْبَحْثَ عَنْ تِلْكَ الْمُدُنِ الْمَجْهُولَةِ، فَإِنَّ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمَا فِي سِنِّ الْمُرَاهَقَةِ لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَقَبَاتِ، وَلَا يَحْسُبُ لَهَا حِسَابًا، فَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَبِيهَانِ بِعَامَّةِ النَّاسِ، وَلَوْ أَنِّي ثَبَّطْتُ عَزْمَ هَذَيْنِ الْقَرْنَيْنِ(١) الصَّغِيرَيْنِ وَأَخْمَدْتُ تَوَقُّدَ ذِهْنِهِمَا لَلُمْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنِّي انْتَهَزْتُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ فَقُلْتُ لَهُمَا إِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي بِلَادِ الْبِيرُو كَمَا فِي غَيْرِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَلْزَمُ كَشْفُهَا، غَيْرَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَزِنُ قُوَاهُ بِطَبِيعَةِ مَا يُرِيدُ مُبَاشَرَتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ . اهـ

الشــذرة الثـامنة والثلاثون

« التَّرْبِيَةُ بِالتَّأْثِيرَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ »

يوم ١٤ أغسطس سنة — ١٨٦

صَادَفْنَا غَدَاةَ الْيَوْمِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ لِيمَةَ زِنْجِيًّا آتِيًا إِلَيْهَا يَلْتَمِسُ رِزْقَهُ مِنْ عَرْضِ حَيَوَانٍ يُسَمَّى الْبُومَةَ، وَهُوَ الْمُمَثِّلُ لِلْأَسَدِ فِي أَمْرِيكَةَ، كَانَتْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْمُتَوَحِّشِينَ اصْطَادَتْهُ حَيًّا، وَكَانَ رَبُّهُ وَهُوَ شِبْهُ مُشَعْوِذٍ(٢) يُؤَمِّلُ أَنْ يَنَالَ بَعْضَ النُّقُودِ مِنْ عَرْضِهِ عَلَى النَّظَّارَةِ (الْمُتَفَرِّجِينَ) .

---

(١) القرنين : الكفؤين : النظيرين فى الشجاعة .

(٢) المشعوذ : من يعمل الشعوذة وهى خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى به الشىء فى رأى العين على خلاف أصله .

كان هذا الرجل على شدة فاقته وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوبا بصبية زنجية عليها طمر[١] أزرق، رأيت في مشيتها قزلا[٢]، فسألتها بالإسبانيولية التي لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت، فكان جوابها أن أرتني إحدى ساقيها، فإذا فيها جرح دام، ورأيت قدميها قد ورمتا ورما مفرطا، ولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة في لحمها، وهي التي تسبب عنها الجرح قطعا ثم خبث[٣] بما اعتوره من المشي والوصب[٤] ولدغ الحشرات، فإن هذين المسافرين كانا آتيين من مسافة بعيدة جدا.

مازلت بهذه الشوكة حتى نجحت في سلها، ثم ضممت أجزاء الجرح بعضها إلى بعض، ولما لم أجد خرقة أعصبه بها ناولتني «لولا» منديلها، ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة إلى خلع نعليها ووضع قدميها المرضوضتين فيهما، فلاءمتاهما أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهذه المسكينة، فأعربت «لولا» عن شكرها ثم غادرناهما ومضينا في سبيلنا.

إنبعثت «لولا» إلى عملها هذا بباعث من بواعث الخير القلبية، إلا أنها ما لبثت أن أدركت صعوبة الاحتفاء في أرض صلبة خشنة كأرض البيرو، فإن طرقها لا مشابهة بينها وبين مخارف[٥] البساتين الكبرى في انجلترة.

---

(١) الطمر: الثوب البالي. (٢) القزل: العرج.

(٣) خبث: فسد. (٤) الوصب: المرض.

(٥) المخارف جمع مخرف وهو الطريق بين الأشجار.

أنشأ «إميل» أولا يسخر من حيرة صديقته فى مسيرها حافية، ولكنه لتأثره من صنيعها دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة .

لم يكن الباقي من طريقنا طويلا جدا، ومع ذلك وقف «إميل» فى أثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثا متبعا فى ذلك نصيحتى، وفى آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشعوذ يقود البومة، وعرفت «أولا» الصبية الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتهما فى يدها، فما كان أشد غمها لهذا المرأى، أنظر كيف بخستها عطيتها وكيف استعملتها !

فسريت عنها ما خامر قلبها من الكدر بأن قلت لها : إن العادة طبع ثان، وإن هذه الصبية لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الاحتفاء[1]، على أن نية إسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو أخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لايصال النفع إليهم .

والذى رأيته خيرا من هذه العظة كلها هو أن ما وجده قلبها الطاهر من السرور باحتمال «إميل» إياها قد دلها فيما أرى على أن الإنسان لا يخسر شيئا مما يسديه من المعروف اهـ .

(١) الاحتفاء مشى الانسان حافيا والانتعال مشيه فى نعلين .

الشذرة التاسعة والثلاثون

«بيان فخامة مشاهد الجبال»

يوم ٢٨ أغسطس سنة — ١٨٦

زُرْنَا بَعْضَ أَجْزَاءٍ مِنْ جِبَالِ الْقُورْدِيَيْر ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَقَ (لِإِمِيلَ) أَنْ شَاهَدَ مِثْلَ هَذِهِ الْجِبَالِ الَّتِي يَصِحُّ أَنْ تُسَمَّى بِالْأَلْبِ[1] الْأَمْرِيكِيَّةِ ، فَرَاعَهُ كُلَّ الرَّوْعِ مَا لِهَذَا الْخَلْقِ الْهَائِلِ مِنْ مَظَاهِرِ الْفَخَامَةِ وَالْعِظَمِ ، مَعَ أَنَّنَا لَمْ نَبْلُغْ مِنْهَا إِلَّا أَدْنَى شِعَافِهَا .

لَا بُدَّ أَنْ أُلَاحِظَ هُنَا أَنَّ الْقُدَمَاءَ كَانُوا قَلِيلِي التَّأَثُّرِ بِمَا لِلْجِبَالِ الشَّامِخَةِ مِنَ الْمَحَاسِنِ الرَّائِعَةِ ، فَإِنَّا لَمْ نَرَ لِشُعَرَاءِ اللَّاتِينِ مِنَ الْكَلَامِ فِيهَا إِلَّا النَّذْرَ الْيَسِيرَ ، وَمُعْظَمُ مَا قَالُوهُ اسْتِهْجَانٌ وَاسْتِقْبَاحٌ ، وَقَدْ يَحْدُو بِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ كَانَ يَلْزَمُ أَنْ يَدْهَمَهُمْ مِنَ الْكَوَارِثِ الْمُحْزِنَةِ مَا تَهْتَزُّ لَهُ نُفُوسُهُمْ ، وَأَنْ تَسْتَضِيءَ بَصَائِرُهُمْ بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَيَتَمَكَّنَ مِنْهَا الْإِسْتِعْدَادُ لِلْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَزَايَا الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ ، وَلَوْ تَمَّ لَهُمْ هَذَا لَأَدْرَكُوا أَنَّ فِي سَيَّارِنَا الَّذِي نَعِيشُ عَلَى ظَهْرِهِ (الْأَرْضِ) مِنَ الْمَظَاهِرِ الْهَائِلَةِ الْبَدِيعَةِ مَا يَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ الْحَقِيقِيِّ اهـ .

(١) جبال الألب هى سلسلة جبال عظيمة فى أوربة .

الشذرة الأربعون

«إِنْتِهَاءُ قَضِيَّةِ لُولَا بِالصُّلْحِ وَعَزْمُ الدُّكْتُورِ إِرَاسْمَ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى أُورُبَّةَ»
« وَتَرْكِهِ قُوبِيدُونَ وَزَوْجَتَهُ هُنَاكَ »

يوم ٢ سبتمبر سنة — ١٨٦

كَسَبَتْ (لُولَا) دَعْوَاهَا وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ خَسِرَتْهَا، فَكِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ جِهَةِ النَّظَرِ .

إِضْطُرِرْنَا إِلَى الْمُصَالَحَةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الِارْتِبَاكِ لِمَا يَقْتَضِيهِ الْفَصْلُ فِيهَا مِنَ الِانْتِظَارِ أَشْهُرًا بَلْ سِنِينَ، فَعَرَضَ عَلَى الْخَصْمِ أَنْ يُعْطُوا بِنْتَ السَّفَّانِ مِقْدَارًا زَهِيدًا مِنَ النُّقُودِ وَبَعْضَ مَا كَانَ لِوَالِدِهَا مِنَ الْأَرَضِينَ، وَالْأَرْضُ هَا هُنَا لَا قِيمَةَ لَهَا الْيَوْمَ أَصْلًا، مَا لَمْ يَسْتَغِلَّهَا صَاحِبُهَا بِنَفْسِهِ أَوْ بِوَاسِطَةِ وَكِيلٍ لَهُ يُقِيمُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ .

فَأَمَّا أَنَا وَهِيلَانَةُ فَمَا جِئْنَا لِنُقِيمَ فِي (لِيمَةَ) ، بَلْ قَدِ انْتَهَتْ مُهِمَّتُنَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا السَّفَرُ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ تَلَقَّيْتُ مَكْتُوبًا مِنَ الدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونَ يَدْعُونِي إِلَى لُونْدُرَةَ لِأُمُورٍ نَافِعَةٍ لِي بَيَّنَهَا فِيهِ .

وَأَمَّا قُوبِيدُونُ وَجُورْجِيَةُ فَإِنَّهُمَا خَبِيرَانِ بِفَنِّ الزِّرَاعَةِ خُصُوصًا زِرَاعَةَ الْأَقْطَارِ الْحَارَّةِ، وَلَيْسَا مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ، وَأَمَانَتُهُمَا تَقُومُ بِكُلِّ مَا فِي بِلَادِ الْبِيرُو مِنَ الذَّهَبِ، وَلَا أَرَى مَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَهْدِ إِلَيْهِمَا بِزِرَاعَةِ أَطْيَانِ (لُولَا) .

وَإِنَّهُ لَيَشُقُّ عَلَيَّ مُفَارَقَةُ هَذَيْنِ الشَّهْمَيْنِ، غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنَّ إِقْلِيمَ انْجِلْتِرَةَ لَمْ يُخْلَقْ لِمِثْلِهِمَا مِنَ الزُّنُوجِ، وَأَمَّا إِقْلِيمُ جَنُوبِ أَمْرِيكَةَ فَإِنَّهُ يُؤْذِنُ بِأَنْ سَيَكُونُ لَهُمَا فِيهِ بِتَوَالِي الْأَيَّامِ مُنَاخٌ(١) جَمِيلٌ وَوَطَنٌ سَعِيدٌ اهـ .

(١) المناخ : محل الاقامة .

الشذرة الحادية والأربعون

بَيَانُ مَا عَادَ عَلَى «إِمِيلَ» مِنَ الفَوَائِدِ فِي هَذَا السَّفَرِ

يوم ١٠ سبتمبر سنة — ١٨٦

رَجَعَتِ السَّفِينَةُ الَّتِي كَانَتْ حَمَلَتْنَا مِنْ لُونْدُرَةَ إِلَى قَلَّاوَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ، وَيَعْلَمُ اللهُ مَتَى يَكُونُ مَجِيئُهَا، وَلِهَذَا رَأَيْنَا بَدَلًا مِنَ اجْتِيَازِ رَأْسِ القَرْنِ أَنْ نَرْكَبَ هَذِهِ المَرَّةَ فِي سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ عَلَى نُهَيْرِ الأَمَازُونِ (١)، تَسِيرُ بِنَا وَالشَّاطِئَ حَتَّى تَبْلُغَ سَوَاحِلَ البَرَازِيلِ، حَيْثُ نَجِدُ سَفِينَةً تَكُونُ مُسَافِرَةً إِلَى انْجِلْتِرَةَ، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ أَقْصَرُ مِنَ الأُولَى بِمَسِيرَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا.

تَنْوِي (أُولَا) أَنْ تَعُودَ مَعَنَا، لِأَنَّ بِلَادَهَا لِقِلَّةِ مَا عَرَفَتْهُ مِنْهَا لَمْ تَبْعَثْ فِي نَفْسِهَا شَيْئًا مِنَ الرَّغْبَةِ فِي تَوَطُّنِهَا، وَلِأَنَّهَا تَعْلَمُ فَوْقَ ذَلِكَ أَنَّنَا نُحِبُّهَا.

مَا نَدِمْتُ عَلَى هَذَا السَّفَرِ بِحَالٍ، «فَإِمِيلُ» قَدْ قَضَى وَقْتَهُ هُنَا فِي الإِلْتِفَاتِ إِلَى العِلْمِ وَالإِمْعَانِ فِي مَسَائِلِهِ، فَهُوَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِهِ الآنَ نَاقِلًا إِلَيْهَا مَجَامِيعَ فِي عِلْمِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ، بَلْ حَامِلًا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا: ضُرُوبَ الإِنْفِعَالِ الكَثِيرَةِ بِمَا رَأَى، وَصُنُوفَ الذِّكْرِ لِمَا وَعَى، وَقَدْ تَرَبَّى طَبْعُهُ فِي مَدْرَسَةِ الإِخْتِبَارِ وَالحَيَاةِ الَّتِي لَا يُرَبِّي الرِّجَالَ غَيْرُهَا.

---

(١) المعروف أن الأمازون أكبر أنهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهير أحد فروعه القريبة من ليمة.

نَعَمْ إِنِّي لَا أَعْنِي بِهَذَا القَوْلِ أَنْ أُلْزِمَ جَمِيعَ مَنْ هُمْ فِي سِنِّهِ مِنَ الْمُرَاهِقِينَ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ بِقَدْرِ ابْتِعَادِهِ ، وَلَكِنَّ رَأْيِي الَّذِي لَا أَحُولُ عَنْهُ هُوَ أَنَّهُمْ لَوْ خَرَجُوا قَلِيلًا مِنَ أَصْدَافِهِمْ وَرَأَوْا الْكَوْنَ فِي الْكَوْنِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهُ فِي الْكُتُبِ لَغَنِمُوا مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْطُرُ فِي الْوَهْمِ . اه

الكتاب الرابع

في تربية الشاب

الرسالة الأولى

(من «إميل» إلى والده)

عن مدينة بن في ٨ يناير سنة — ١٨٦

وصف معيشته — نادى الطلبة الألمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة — تفكر «إميل» في أمره — تألمه من عدم فهمه اللغة الألمانية — ذكره «لولا» — استيحاشه من غربته

إنتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لا بد من تأديته، وصرت أدعى منذ أسبوع بالسيد الطالب.

من المفروض على أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب: أما نهاري فأصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائهما، والمقارنة بين اللغات وغير ذلك، وأما ليلي فأقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا، وأما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولديا(١)، وبعد العشاء تارة

(١) الصولدي جزء من عشرين جزءا من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وخمس.

آوى إلى حجرتي، وطورًا أتنزه في المدينة، ولما أطلع على أسرار طائفة الشبان كلها لكوني أجنبيًا، على أن أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة إلى مدخن (مكان لتدخين التبغ)، يجتمع فيه بعض الطلبة الألمانيين، فما فتح بابه حتى رأيتني تائهًا مغمورًا بسحاب مركوم من الدخان، حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته، وكان يخيل إلى أنه يمتد إلى غير نهاية، وكنت أسمع أصواتًا وأغاني وقهقهات ولا أبصر شيئًا من الصور الحية، وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب، كأنما تسبح منه في بحر لجي، وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه، بين صفين من الموائد خيل إلى أنها تعوم في الضباب، ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المنسدل على القاعة كلها، ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوهًا آدمية، لأن بصرى كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والأنس به، ولم ينكشف عني الحجاب كشفًا تامًا إلا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث أقيم مصطلى عظيم، فرأيتني في جمع حافل من الشبان على رءوسهم القلنسوات، وفي أيديهم أكواب الجعة، وفي أفواههم المداخن، وبين هذا التشويش واللغط عثرت على حلاق (جمع حلقة) من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة، ولم تعقهم عن المداومة على الشرب والتدخين.

لم تعتد أذني سماع الأصوات الألمانية اعتيادًا يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه، على أني فهمت من فحوى ما سمعته أنهم يتناظرون في مقاصد ووسائل

بعضها أسمى من بعض تتعلق بإصلاح أحوال البشر ، وكانت البراهين والنكت والمعانى تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تتقذف بين أنفاس الدخان ، ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ، ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين إلى بيوتهم ، وقد جعلوا يغنون جهارا فى وسط الشارع أغانى مبتذلة ، ولم يبد عليهم حينئذ ما يدل على أنهم ذاكرون لما تداهدوا عليه من إصلاح شؤون الكون .

أخص غاية للطلبة من اختلافهم إلى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هى أن يلوا (١) عملا من أعمال الحكومة ، فكلهم يؤمل أن يكون خادما لها على تفاوت بينهم فى ذلك ، فإذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلا ، رأيته يتقدم إليها حاملا شهادته راجيا أن توليه أحد الأعمال الخالية فى إدارتها ، ومعظم هذه الأعمال لا يولى إلا بالامتحان ، ولا يناله إلا من يظهر أنهم أعلم من غيرهم ، وحينئذ يعول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالأعمال المستقلة ، ولا أدرى أهذه الحالة ، وهى فرط الرغبة فى تقلد المناصب العامة ، هى التى ينبغى أن ينسب إليها التغير الذى يحصل فى عقول شبان الدكاترة عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر .

فالواقع هو أنه ليس بين أخلاق الطلبة وأخلاق غيرهم من الألمانيين أدنى مشابهة .

---

(١) يلوا عملا يقومون به .

الطَّلَبَةُ يَتَظَاهَرُونَ بِالتَّنفج(١) وَالشُّذُوذِ وَالعَرْبَدَةِ، وَيُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَرَى غَيْرَهُمْ مِنَ الأَلْمَانِيِّينَ أَنَّهُمْ مُمْتَلِئُونَ سَكِينَةً بَلْ جُمُودًا وَبَلَادَةً، وَالأَوَّلُونَ مَشْهُورُونَ بِالمَيْلِ إِلَى الثَّوْرَةِ، وَبِحُبِّ الحُكُومَةِ الجُمْهُورِيَّةِ، وَبِعَدَمِ المُبَالَاةِ بِالخَوْضِ فِي أَيِّ بَحْثٍ نَظَرِيٍّ، وَبِالهُجُومِ عَلَى جَمِيعِ المَسَائِلِ سِيَاسِيَّةً كَانَتْ أَوْ دِينِيَّةً أَوْ قَوْمِيَّةً بِمَا يُدْهِشُ مِنْ جُرْأَةِ الجَنَانِ، وَبَقِيَّةُ الأُمَّةِ يَظْهَرُ عَلَيْهِمِ التَّشَدُّدُ فِي الاِسْتِمْسَاكِ بِالعَوَائِدِ القَدِيمَةِ وَبِالحُكُومَةِ المَلَكِيَّةِ، وَتَرَى الطَّلَبَةَ يَتَبَاهَوْنَ بِاحْتِقَارِهِمْ جَمِيعَ المُمَيِّزَاتِ الَّتِي لَا مَنْشَأَ لَهَا إِلَّا اتِّفَاقُ النَّسَبِ(٢)، عَلَى حِينِ أَنَّ أَوَاسِطَ النَّاسِ يُجِلُّونَ أَلْقَابَ الشَّرَفِ إِجْلَالًا لَا حَدَّ لَهُ . فَتَرَى الفَرِيقَيْنِ كَأُمَّتَيْنِ مُتَمَايِزَتَيْنِ، وَلَيْسَ لِلطَّلَبَةِ فِي الحَقِيقَةِ ارْتِبَاطٌ بِبَاقِي الأُمَّةِ إِلَّا رَغْبَتُهُمُ العُظْمَى فِي أَنْ يَلُوا لَهَا بَعْدَ مُبَارَحَةِ الجَامِعَةِ أَعْمَالًا رَسْمِيَّةً، عَلَى أَنَّ هَذَا الإِرْتِبَاطَ كَافٍ فِي عَدَمِ اكْتِرَاثِ الحُكُومَةِ كَثِيرًا بِمَا يُبْدُونَهُ مِنْ حِدَّةِ أَفْكَارِهِمِ الحُرَّةِ .

دَعَتْنِي سِيرَةُ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي سِيرَتِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِي وَلَا مَقَامَ لِي بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ لَمْ يَقِفْ بِي الاِخْتِيَارُ حَتَّى الآنَ عَلَى صِنَاعَةٍ نَافِعَةٍ أَشْتَغِلُ بِهَا، وَإِذَا أَرَدْتَنِي عَلَى الاِقْرَارِ لَكَ بِمَا أَجِدُهُ، قُلْتُ إِنِّي أَحْيَانًا آنَسُ مِنْ نَفْسِي فُتُورًا فِي الهِمَّةِ، وَضَعْفًا فِي العَزِيمَةِ وَأَسَائِلُهَا عَمَّا أَصْلُحُ لَهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَأَنَا ضَائِقٌ بِذَلِكَ صَدْرًا، نَعَمْ إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مِنِّي تَقَدُّمًا سَرِيعًا مُنَاسِبًا لِحَالِي فِي العُلُومِ وَدَرْسِ كُتُبِ المُتَقَدِّمِينَ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ أَوْ خَمْسٍ مَضَتْ، وَمَا ذَلِكَ وَلَا شَكَّ إِلَّا مِنَ

---

(١) التنفج افتخار الانسان بأكثر مما عنده .

(٢) اتفاق النسب أى مصادفة أن يكون للمرء نسب شريف .

الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَهَّلْتَنِي بِهَا أَنْتَ وَوَالِدَتِي لِلْعَمَلِ الْعَقْلِيِّ، وَهِيَ مُرَاقَبَةُ الْأُمُورِ وَالْأَسْفَارُ وَمَا تَلَقَّيْتُهُ مِنْكُمَا مِنَ الدُّرُوسِ النَّافِعَةِ، وَلَا أَشُكُّ أَنَّ لِي طَمَعًا فِي الْعِلْمِ، وَلَكِنَّنِي أُجْهِدُ فِكْرِي فِي اسْتِقْصَاءِ مَا يُعْوِزُنِي مِنَ الْخَصَائِصِ (١)، فَآوِنَةً أَتَوَهَّمُ أَنِّي أُحِسُّ فِي نَفْسِي بِرُوحٍ إِلَهِيٍّ يُقَدِّرُنِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَسَاعَاتٍ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي قَدْ فَنِيتُ فِي عَجْزِي وَتَجَرَّدْتُ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي، وَتَارَةً تَمْلِكُنِي الْأَفْكَارُ، وَطَوْرًا يَسْتَحْوِذُ عَلَيَّ وِجْدَانُ الْحَاجَةِ إِلَى الْعَمَلِ، وَالَّذِي أَرَاهُ يَقِينًا أَنِّي لَمْ أَجِدْ إِلَى الْآنَ اسْتِقَامَةً وَاسْتِقْرَارًا فِيمَا لِنَفْسِي مِنَ الْقُوَى، إِنْ صَحَّ أَنْ يُطْلَقَ ذَلِكَ عَلَى مَا لِشَابٍّ مِثْلِي مِنَ الشَّهَوَاتِ الْقَوِيَّةِ، الَّتِي تَدْعُوهُ إِلَى السَّعْيِ لِإِدْرَاكِ مَقَامٍ لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .

لَمَّا بَلَغْتُ مَدِينَةَ «بُنّ» مُنْذُ شَهْرَيْنِ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنِّي عَلَى عِلْمٍ بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ لِمَا قَرَأْتُهُ مِنْهَا فِي الْكُتُبِ، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ تَبَيَّنَ لِي خَطَائِي فِي ذَلِكَ، وَمَنْشَأُ هَذَا الْخَطَإِ أَنِّي كُنْتُ أُحْسِنُ قِرَاءَةَ الصُّحُفِ، وَعَنَاوِينِ الْحَوَانِيتِ، وَأَسْمَاءِ الشَّوَارِعِ، وَمَا عَلَى الْجُدُرِ مِنَ الْإِعْلَانَاتِ، فَإِنَّ الْجُدُرَ هُنَا كَمَا تَعْلَمُ تَتَكَلَّمُ بِالْأَلْمَانِيَّةِ، فَإِذَا جَرَتْ حَوْلِيَ الْمُحَاوَرَاتُ أَصْغَيْتُ إِلَيْهَا، وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ إِلَّا أَصْوَاتًا لَا أَفْقَهُ شَيْئًا مِنْ مَعَانِيهَا، وَكُنْتُ مُطْلَقَ الْبَصَرِ أَسِيرَ السَّمْعِ، لِأَنَّ مِنَ الْأَسْرِ الْمَعْنَوِيِّ الْحَقِيقِيِّ أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَفْهَمُ لُغَتَهُمْ، كَانَ الْغُلَامُ الَّذِي فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمُرِهِ — وَهُوَ فِي هَذِهِ السِّنِّ لَا يَعْرِفُ مِنْ تِلْكَ اللُّغَةِ إِلَّا التَّلَعْثُمَ بِبَعْضِ أَلْفَاظِهَا — يَعْرِفُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ، حَتَّى إِنِّي لَمَّا كُنْتُ أُحَاوِلُ مُخَاطَبَتَهُ كَانَ يُنْغِضُ (٢) إِلَيَّ رَأْسَهُ اسْتِهْزَاءً كَأَنَّهُ يَقُولُ : «إِلَيْكَ عَنِّي فَلَسْتُ أَفْقَهُ لَكَ قَوْلًا» .

---

(١) الخصائص جمع خصيصة وهي الميزة . (٢) ينغض رأسه يحركها انكارا .

كُنْتُ بين أولئك القوم كالأصم الأبكم الذي فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الإشارات، فهل يمكن أن ينشأ عن الأمواج الصوتية إذا اختلف انتقالها إلى الأذن اختلافاً يسيراً باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض .

استأت جداً من هذه العزلة، فجاهدت جهاداً عظيماً في التجرد من الإنكماش الذي أجده من حيائي الطبيعي، وأنشأت اليوم أنطق بالألمانية نطقاً مفهوماً، وإني لأعلم أنه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها، ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع أصواتها من أفواه جميع الناس في هذه البلاد، وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فيما أرى، بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها، فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران، فما استطعت في سرعة تحاورهما أن أفهم كلمة منه، اللهم إلا ما كان من تحية المساء وهي "ليلتك سعيدة" .

مثل اللغات الأجنبية — إن لم أكن واهماً — كمثل دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه، في كونه كان يحجب عني بادئ بدء رؤية ما كان فيه من الأشياء والأشخاص، فهي حجاب سيزول على التعاقب، وآمل أن سيظهر لي النور عما قليل .

أرجوك أن تنوب عني في تقبيل «لولا»، وأود لو أدري هل هي مواظبة على سقي الأزهار، وتمام العناية بالطيور، وتنسيق(١) مجاميع الأعشاب والدفائن(٢)؟ وآمل منك إيصاءها بأن تذكرني كما أذكرها . اهـ

(١) تنسيق : ترتيب . (٢) الدفائن جمع دفينة وهي آثار الأقدمين التي كانت مدفونة في باطن الأرض .

إذا أنا كتبتُ إليك فقد كتبتُ إلى والدتي، فأنتما في قلبي لا تفترقان، ولهذا لا أزيدها شيئاً إلّا أسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة، التي كنتُ أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت، ومن أنسي بقربكما عند اصطلاء النار ليلاً، فإني هنا في وحشة أيّ وحشة. أختمُ لكَ هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل، على ضوء مصباح يعلوه عاكس ضوئيّ، يسقط منه نورٌ ضاربٌ إلى الخضرة، وفي إحدى زوايا حجرتي ساعةٌ دقّاقةٌ، من الصنف الذي يصوت تصويت الطائر المعروف بالكوكو، عند انقضاء كلّ ساعة، تكرّر تكتكتها التي لا تتغيّر، وأسمع حسيس احتراق الحطب في التنّور (١)، وصرير الباب من صفق (٢) الريح إيّاه، وأرى البدر خارج الحجرة شاحب الوجه، يرنو (٣) إليّ من خلال ستارتين كبيرتين موشّاتين (٤) بصور الأشجار والأزهار، ما بين بيضاء وحمراء، وقد أحسستُ باغرورواق عينيّ، مع أنّ هذه الأشياء في ذاتها لا تدعو إلى الحزن، ولكن لا تلمني فإنّي ما زلتُ طفلاً، ولستُ آسى على بلادي، وإنّما آسى على مفارقة مهدي، فإنّي أحبكما وأرجو من هذه الجهة على الأقلّ أن أعيش طول عمري طفلاً اهـ.

---

(١) التنور الكانون يخبز فيه .

(٢) صفق الريح ضربها .

(٣) يرنو يديم النظر اليه بسكون الطرف .

(٤) موشاتين منقوشتين .

الرسالة الثانية

« من اراسم الى اميل »

عن لوندرة فى ١٣ فبراير سنة ــ ١٨٦

(فِرَاقُ الْوَلَدِ لِوَالِدَيْهِ سُنَّةٌ فِطْرِيَّةٌ ــ الْعِلْمُ فِي أَلْمَانِيَةَ ــ نَقْدُ الطَّالِبِ مَا يَقْرَؤُهُ مِنْ أَفْكَارِ غَيْرِهِ ــ الْقَصْدُ(١) فِي عُلُومِ الْمَعْقُولَاتِ ــ نَفْعُ الْأُمَّةِ بِالْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ ــ اخْتِيَارُ الشَّابِّ الْعَمَلَ الَّذِي يَشْتَغِلُ بِهِ بَعْدُ ــ بَيَانُ أَنَّهُ لَا حُرِّيَّةَ لِأُمَّةٍ يَتَكَالَبُ شُبَّانُهَا عَلَى تَوَلِّي أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ ــ التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُلْحِدِينَ ــ بَيَانُ أَنَّ الرَّأْيَ الْعَامَّ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ شُورَى ــ خِدْمَةُ الْأُمَّةِ لِذَاتِهَا لَا لِلْجَزَاءِ) .

إِذَا كُنْتَ يَا عَزِيزِي «إِمِيل» تَأَلَّمُ مِنِ اسْتِيحَاشِكَ ، فَنَحْنُ نَأْلَمُ مِنْ فِرَاقِكَ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ وَالرِّضَا بِمَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَبْرَحَ لُونْدْرَةَ ، وَأَتَخَلَّفَ مَنْ أَقُومُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَرْضَى لِمُرَافَقَتِكَ إِلَى حَيْثُ أَنْتَ الْآنَ لَكُنْتُ فِيهِ مُتَرَدِّدًا ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَسِيرُ سِيرَةَ الرِّجَالِ ، الطُّيُورُ تُحِبُّ أَفْرَاخَهَا ، وَلَكِنَّهَا مَتَى آنَسَتْ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَكْفِي لِاسْتِقْلَالِهَا بِنَفْسِهَا فِي الطَّيَرَانِ شَجَّعَتْهَا عَلَى تَجْرِيبِ أَجْنِحَتِهَا فِيهِ ، سُنَّةُ اللهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَهَبَ الْحُرِّيَّةَ لِجَمِيعِ الْبَرَايَا .

أَنْتَ تَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنِّي لَمْ أُرْسِلْكَ إِلَى « بُنْ » إِلَّا لِأُسَهِّلَ عَلَيْكَ دَرْسَ لُغَةِ الْأَلْمَانِيِّينَ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ إِلَى الْآنَ قَدِ اسْتَقْلَلْتَ فِي تَعَلُّمِكَ ، فَكُنْتَ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ وَحَقِيقَتِهِ أُسْتَاذًا لِنَفْسِكَ وَمُرْشِدًا ، وَلَيْسَ مَا أَخَذْتَهُ عَنِّي

(١) القصد : معناه هنا الاعتدال .

مِنَ الدُّرُوسِ شَيْئًا يُذْكَرُ ، وَلَكِنْ قَدِ اقْتَضَتْ أَحْوَالُ هَذَا العَالَمِ أَنْ تُوجَدَ مَذَاهِبُ وَطُرُقٌ ، لَا بُدَّ فِي تَعَلُّمِهَا أَنْ تُلْتَمَسَ مِنْ يَنَابِيعِهَا ، وَأَلْمَانِيَةُ فِي يَوْمِنَا هَذَا هِيَ مُقْتَبَسُ (١) نُورِ العِرْفَانِ ، وَهِيَ الْبِلَادُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ لَهَا الْفَضْلُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالنَّقْدِ وَآدَابِ اللُّغَةِ ، وَمَدَارِسُهَا الْجَامِعَةُ مَحَطُّ رِحَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَفَاضِلِ الْأَسَاتِذَةِ وَجَهَابِذَةِ (٢) الْعُلَمَاءِ ، وَلَسْتُ مَعَ ذَلِكَ أَدْعُوكَ إِلَى قَبُولِ تَعَالِيمِهِمْ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَتَلَقِّي أَقْوَالِهِمْ وَآرَائِهِمْ قَضَايَا مُسَلَّمَةً ، إِذَنْ أَكُونُ قَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ جَمِيعِ الْأُصُولِ الَّتِي أَسِيرُ عَلَيْهَا ، فَلِلْإِنْسَانِ شَيْءٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْمَحَ بِهِ لِأَحَدٍ أَلَا وَهُوَ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ ، فَالْعُلُومُ الَّتِي تَتَلَقَّاهَا فِي الْجَامِعَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّسِعَ بِهَا نِطَاقُ عَقْلِكَ ، وَيَقْوَى بِهَا إِدْرَاكُكَ ، مَا لَمْ تُرَاقِبْ مَا فِيهَا مِنْ أَفْكَارِ غَيْرِكَ مُرَاقَبَةً ذَاتِيَّةً ، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَنْهَكَ قُوَاكَ الَّتِي أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي الْعَمَلِ ، بِفَرْطِ الْإِنْكِبَابِ عَلَى دِرَاسَةِ الْمَعْقُولَاتِ بَالِغَةً مَا بَلَغَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ وَبُعْدِ الْغَوْرِ ، فَإِنَّ الْبَحْثَ فِي الْمَعْقُولَاتِ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا أَدَّى الْبَاحِثَ إِلَى وَسِيلَةٍ يَنْفَعُ بِهَا نُظَرَاءَهُ ، وَالْمُحِبُّ لِنَفْسِهِ مَنْ يَقْصُرُ ثَمَرَةَ فِكْرِهِ وَدَرْسِهِ عَلَيْهَا ، لَامِرَاءَ فِي أَنَّ الِاتِّصَافَ بِالْعِلْمِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ ، وَلَكِنْ أَجَلُّ مِنْهُ وَأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُحِبًّا لِوَطَنِهِ ، نَافِعًا لِأَهْلِهِ ، وَلَا يَعْزُبْ عَنْ ذِهْنِكَ أَنَّ أَلْمَانِيَةَ لَيْسَتْ بِلَادَكَ ، وَأَنَّ آثَارَ سَلَفِكَ هِيَ حِكْمَةُ الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ ، وَأَنَّ أُمَّكَ هِيَ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ .

---

(١) مقتبس أى مكان الاقتباس أى الأخذ والمراد به هنا مكان الاستفادة من العلم .

(٢) جهابذة جمع جهبذ وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الردىء .

آلمتني عبارة من مكتوبك، وهي قولك : «إنى أحيانًا آنس من نفسى فتورًا فى الهمة، وضعفًا فى العزيمة، وأسائلها عما أصلح له من الأعمال وأنا ضائق بذلك صدرًا»، فاعلم أنه ليس من الضرورى لتحقق النفع فى الإنسان أن يكون من كبار الرجال، فأيما رجل صدقت نيته فى فعل الخير، وصح قصده للنفع، فإنه يغير من حالة القوم الذين يعيش فيهم بقدر ما من التغيير، وعلى كل حال ليست الحياة إلا نتيجة القيام بفروض صغيرة، فمن أداها كلها بما فى وسعه من الوسائل كان فى الغالب أفضل ممن يسعى فى الإشتهار بعمل خطير. وليس شىء من أفكارنا ولا من أعمالنا بضائع علينا، فإن آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس، أو فيمن يخلفوننا، ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن الحركات الكبرى، التى غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمارة، لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين؟ كلا ! بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء واشتهارهم إلا صورة منعكسة لفضائل أولئك ومساعيهم المحمودة (١).

إقنع بأن تكون كما أنت، مع مواصلة السعي فى تنمية غرائزك وتوسيع نطاق مواهبك، بالدأب فى العمل والمدارسة، وإذا احتجت فى بعض أوقاتك إلى تكبير دائرة وجودك، فتصفح دواوين الشعراء الحقيقيين، وكتب أئمة النظار المشهورين، وتمتع بما تجده فى نفسك عند مطالعتها من عظم القدر وسمو المكانة الذى يسرى إليك منهم، فإن فى ذلك غبطة لا يحيط بها الوصف، فإذا هبطت من هذه

(١) ما أجمل هذا القول وادله على انصاف قائله وعرفانه لكل امرئ قيمة عمله وادعاه الى تنشيط العاملين المخلصين — المترجم .

المقامات العلى، لم تعدم حولك من النفوس الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يغنيك الاشتغال بهم عن الإهتمام بغيرهم، ومن صنائع البر (١) ما فيه تسلية لك عما يعوزك من الخصائص، واعلم أنه لا يتألم مما في عقله من مواضع الضعف والقصور إلا محب لنفسه، أو خبيث، وأما من يستسلم ويرضى بقسمته، ويتعلم ليعمل، فإنه لا يطلب فوق ما قسم له من العقل شيئاً، بل يكون مغتبطاً به غير حاسد لغيره (٢).

أراك أيضاً تغلو في الاهتمام باختيار ما تمارسه من الأعمال، فإنه وإن كان مما لا مرية فيه أن كل فرد من الناس يجب عليه أن يعيش من كسبه وكده، وإني أغتم لو رأيتك مفرطاً في هذا الأمر الذي هو أول فرض على الإنسان — ينبغي أن تعلم أن جملة الدروس التي تتلقاها الآن، مع كونها تؤدي إلى جميع الحرف، لا تفتح لك باب واحدة منها، ولا أرى في ذلك ما يدعو إلى كدرك، لأن كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك، فإن لم يفدك في نفسك، فقد تجد فيه وسيلة لنفع غيرك، على أن ما في الكون من طوائف الأمور المختلفة، وطبقات الحوادث المتباينة، مرتبط بعضه ببعض، فلا بد في معرفة أمر منها معرفة صحيحة من معرفة أمور كثيرة لها بهذا الأمر تعلق بعيد، ولست بهذا القول ألزمك السعي في تحصيل ما يسمى بالعلم العام، الذي هو ضرب من الخيالات والأوهام، وإنما أريد به تفهيمك

(١) صنائع جمع صنيعة، وهي الاحسان والمراد بها أعمال الخير.

(٢) نعما هي التربية التي يكون من مبادئها الرضا بما قسم الله بين خلقه من المواهب، فان فيها تعويداً للناشئين على طمأنينة القلب، وسكون النفس، والانصراف الى العمل، لتنمية ما أوتوا من الملكات، لأن الضعيف منها والقليل لا يقوى ولا يكثر إلا به — المترجم.

أَنَّ لِلْعُلُومِ قَضَايَا عَامَّةً لَا بُدَّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرِ حُدُودِهَا الْأَصْلِيَّةِ قَبْلَ تَفَرُّغِكَ لِتَحْصِيلِ عِلْمٍ مِنْهَا عَلَى حِيَالِهِ .

أَنْتَ وَلِيُّ أَمْرِكَ فِي الْحُكْمِ عَلَى مَا يُلَائِمُكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَسْأَلَكَ عَدَمَ التَّأَسِّي (١) فِي ذَلِكَ بِإِخْوَانِكَ مِنَ الطَّلَبَةِ ، فَكُنْ كَمَا يُرْشِدُكَ إِلَيْهِ خُلُقُكَ وَمَيْلُكَ ، إِمَّا طَبِيبًا ، أَوْ مُحَامِيًا ، أَوْ مُهَنْدِسًا ، أَوْ صَانِعًا ، أَوْ آلِيًّا ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ أَنْ لَا تَكُونَ عَامِلًا لِلْحُكُومَةِ .

أَيُّ حُرِّيَّةٍ تُرْجَى لِقَوْمٍ يَتَطَلَّعُ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنْ شَبَابِهِمْ إِلَى الْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ عُمَّالِ حُكُومَتِهِمْ؟ قَدْ كَانَ فَنُّ ظُلْمِ الْحُكَّامِ لِلنَّاسِ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْفُنُونِ الصَّعْبَةِ الْكَثِيرَةِ الْمُشْكِلَاتِ ، الَّتِي يَلْزَمُ لِتَعَلُّمِهَا اسْتِعْدَادٌ خَاصٌّ وَنَفْسٌ كَنَفْسِ مَكْيَافِيلَ (٢) ، وَأَمَّا الْآنَ فَيَظْهَرُ مِنْ أَحْوَالِ الرَّعِيَّةِ أَنَّهُمْ يُعْنَوْنَ أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِكِفَايَةِ حَاكِمِهِمْ مُؤْنَةَ اسْتِعْبَادِهِمْ بِالْحِيلَةِ أَوِ الْقَهْرِ ، لِأَنَّهُمْ يَتَهَافَتُونَ عَلَى احْتِمَالِ نِيرِ عُبُودِيَّتِهِ ، فَأَيُّ مَلِكٍ أَوْ عَاهِلٍ يَجِدُ حَوْلَ أَرِيكَتِهِ رُءُوسًا خَاضِعَةً ، وَأَطْمَاعًا سَافِلَةً نَهِمَةً كَأَطْمَاعِ الْكِلَابِ الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا قَضْمُ (٣) الْعِظَامِ ، مَادَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْوَافِرَةِ مَا يُنْفِقُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَمِنَ الْمَنَاصِبِ وَأَلْقَابِ الشَّرَفِ وَالرُّتَبِ الْكَثِيرَةِ مَا يُوَزِّعُهُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ .

لَيْسَ الْإِلْحَادُ وَالْوَقَاحَةُ مَقْصُورَيْنِ عَلَى أَحْدَاثِ أَلْمَانِيَةَ ، فَإِنَّكَ حَيْثُمَا حَلَلْتَ تَجِدُ مِنَ الشُّبَّانِ مَنْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِشَيْءٍ وَلَا يُوَقِّرُونَ شَيْئًا ، فَكُنْ مِنْهُمْ عَلَى حَذَرٍ ؛

---

(١) التأسي الاقتداء .

(٢) مكيافيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن كتبه كتاب الأمير وهو مختصر فى السياسة المفسدة للاخلاق .

(٣) القضم الأكل بأطراف الأسنان .

لأنّ هذا الفُسوقَ العقليّ يُساعِدُ قطعًا على تثبيتِ الأوضاعِ القديمة، ذلك أنّ هؤلاءِ الّذين يدّعون لأنفسهم حرّيةَ الفكرِ لم يخلصوا من قيدِ الأثَرة، ومن هذه الجهة تأخذُ الحكومةُ منهم بالنّواصي والأقدام، أعني أنّ عبادتهم لنجحِ مساعيهم، وطمعهم في الوصولِ إلى ما يبتغون، وظمأهم إلى المناصبِ والتمتّع بمرتّباتها الجسيمة، لا تلبثُ أن تدعوهم إلى توقيرِ النّظامِ الّذى سنّته الحكومةُ وإجلاله، وإنّى لا أعتدُّ بجراءةِ العقلِ ما لم تصحبها بسالةُ النّفسِ وتنزّهها عن الأغراض، ثمّ إنّه مهما كان بلوغُ كلّ أمنيّةٍ(١) فى الدّنيا ممكنًا بمحضِ هوى الغيرِ ورضاه، لم يعدمِ المستبدّون عبيدًا متحمّسين فى خدمتهم، يعملون لهم ما يشاؤون، وتجدُ من كانوا من الشّبانِ بالأمسِ منطقيّين متحذلقين(٢) يصبحون وهم أكثرُ النّاسِ سجودًا للقوّةِ واستكانةً(٣) للسّلطان.

وِلايةُ أعمالِ الحكومةِ هى بلاءُ الأممِ فى هذه الأيّام، فالبلادُ الّتى رئيسُ حكومتها هو الّذى يوزّعُ مناصبها، لا يمكنُ أن تكونَ آراءُ النّاسِ فيها إلّا نتيجةَ عملٍ حسابىٍّ لما يربحُ منها، فإذا وقعَ خطأٌ سياسىٌّ أو دينىٌّ من الحاكم، وكان ينتجُ للموافقين عليه بعدَ الحسابِ عشرةَ آلافِ فرنكٍ مثلًا، فإنّه يصيرُ حينئذٍ صوابًا، وإذا أتى أمرًا خسيسًا ودفعَ ضعفَ هذا المقدار، قيلَ إنّه قامَ هذه المرّةَ بما تدعو إليه الهمّةُ والبسالةُ، فيجبُ الإخلاصُ له.

---

(١) الأمنية كل ما يتمناه المرء من محابه .

(٢) متحذلقين مظهرين الحذق .

(٣) الاستكانة الذل والخضوع .

يلهج الناس كثيرا بذكر الرأى العام ويقولون إنه أقوى كفالة للحق والحرية، وهو صحيح إذا كان أمر الأمة بيدها، وكانت هى التى تلى شؤون إدارتها، وأما إذا كان حالها غير هذا فالرأى العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد(١)، فإن أكفل وسيلة لظلم الأمة هى إعدام شرف النفس من أفرادها، وإزهاق روح الاستقلال بينهم، بتحبيب الحكومة القائمة إليهم، وحملهم على رجاء بقائها. ورب قائل يقول إن عدد العمال فى الحكومة لا يذكر فى جانب السواد الأعظم من الأمة، فأجيبه إن هذا الاعتراض عبث، لأنه قد نسى أن بإزاء كل عامل نال منصبا ألفا من الناس يطلبونه، ويرجون رجاء قويا أن ينالوه يوما من الأيام، فعالم العمال يكاتفه(٢) عالم آخر من السائلين، ومن ورائهم جميع طلاب الأموال، وإذا كان تحرير الناس من الاستعباد لا يتأتى إلا متى أعانوا عليه بإرادتهم، فأى وسيلة تبعثهم على إرادة التفصى(٣) من ربقته(٤)، إذا كان فريق منهم، وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم، قد بلغت بهم الحال إلى أن يكون استعبادهم قوام معيشتهم، والفريق الآخر يغبطونهم على هذه النعمة، ولا يأسفون إلا على عجزهم عن مشاركتهم فيها.

لست أقصد بهذا القول أن من لوازم المناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها، أو الساعين فى تقلدها، حاش لله، فإنها فى الحكومات الحرة، كحكومة أمريكة

(١) هذا القول من أصح الحقائق، يشهد له الواقع من أحوال الأمم ووقائعها — المترجم.

(٢) يكاتفه يمشى معه كتفا لكتف. (٣) التفصى: التخلص.

(٤) الربقة: القيد.

مثلًا، مِنْ شأنها أَنْ تُنمى فيهم قُوَّة العزيمة ومكارِم الأخلاق، لأنَّ الحُكْمَ في اختيارهم راجعٌ إلى انتخاب الأُمَّة، ولأنَّهم إنّما يمرُّون بالأعمال مرورًا، ولأنَّ جميع الولايات لا تلبث أَنْ يعود أمرها إلى الأُمَّة فتقلدها مَنْ تشاء، ومن هنا يُعلم أنِّي لا أتكلم عن الأمم التي حكوماتها مؤسسة على الشورى، وإنَّما أتكلم عن الأمم التي تولى الأعمال فيها بالمحاباة والهوى، فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم في تقلد تلك الأعمال، لأنَّ حكوماتها لا تبغي في الحقيقة إلَّا نفوسًا سلسة القياد، تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الإدارية، وطباعًا لينة عطفت على كل ناحية، فلم تبق لها وجهة ذاتية، وعقولًا مثقفة — ولو لم تسم عن عقول العامة — تستعمل زخرف القول في تصوير ما وضع من النظام بصورة معقولة، وإنِّي لتمر بي ساعات أحدث فيها نفسي بأنَّ من ظلم الشعوب أَنْ يلوموا حكامهم على استعبادهم، فأي معنى للومهم إذا كانوا قد جعلوا مقادتهم بأيديهم، وكان الآباء لا يتمنون لأبنائهم إلَّا تقلد المناصب ذات الرواتب العظيمة، التي لا عمل فيها، بدلًا من صرفهم إلى وجوه الكسب الأخرى، بل إذا كان كل الناس يؤملون أَنْ يكونوا عالة على المصلحة العامة، ويودون لو أنَّ للحكومة من العقل والوداعة ما يكفي لمنعها من الإنتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد، فما أسخف عقولهم! إذ جعلوا أنفسهم ترابًا ثم هم يدهشون من وطء الحكام إياهم!!

أنا لا أُنكر أنَّ نيل الشاب منصبا من المناصب الكثيرة المقررة في الحكومة أسهل عليه كثيرًا من أَنْ يفتح لنفسه بابًا للكسب في قومه، بجدارته وأهليته الذاتية،

ولهذا لا يلبث الإنسان أن يعرف الأمم التي اعتادت الإرتزاق من حكوماتها، لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الأعمال وابتكارها، فترى فيها الصناعة والزراعة والتجارة تنساق في مجرى العادة بتكلف وجهد، والأموال تحذر الخروج من جيوب المتمولين، والتقاويم التجارية التي تأبى الحكومة حمايتها، يشق عليها — كما يقال — أن تطير بأجنحتها، والصناعات الحرة تحوم حول السلطان لنيل الأعمال بالمحاباة، وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة، وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان، وتتدلى بتدلى الحياة العامة التي يحطها سلطان رجل واحد، وحاجة التغذى من يد الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتملقين .

كأني بك تقول لي : إن ذلك الذي وصفت عيب في شكل من أشكال الحكومة، وذنب لمجموع الأمة التي ترتضى هذا الشكل، وإنه ليس مما يعتد به كثيراً أن يزيد عدد عمال الحكومة واحداً أو ينقص واحداً، لأنهم جيش لا يعد؛ فأجيبك على هذا بأني لست أجهل أن واحداً من الناس ليس في قدرته أن يغير أحوال أمة بأسرها، ولكن إذا ارتكن كل فرد من أفرادها على هذه المغالطة، فاستسلم للتيار المحتوم الذي يسوق غيره، فلا ينبغي أن يرجى شرف للأوضاع القومية، ولا حرية للناس. إن الأمم إذا تدلت وفشت فيها عدوى التأسي، وجب على كل إنسان، حقيق بأن يسمى إنساناً، أن يرفع لها من نفسه لواء المجد، ويدعوها إلى النهوض، فإنها لا تنهض من انحطاطها إلا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية .

وكم من رجل يشكو من خسة السرائر في قومه، ويتألم من دناءة نفوسهم، وهو

شَرِيكٌ لَهُم بِالوَاسِطَةِ فِي فِعْلِ مَا أَدَّاهُمْ إِلَى هَذِهِ الحَالَةِ، بِكَثْرَةِ خَشْيَتِهِ وَتَحَرُّجِهِ فِي سِيرَتِهِ! فَإِنَّهُ إِذَا تَعَفَّفَ هُوَ عَنْ تَوَلِّي المَنَاصِبِ الرَّسْمِيَّةِ قَدْ يُرِيدُهَا لِابْنِ أَخٍ لَهُ أَوْ لِأَحَدِ اللَّائِذِينَ بِبَيْتِهِ، وَبِهَذَا يَصِيرُ شَرِيكًا فِي الضَّرَرِ الَّذِي يَنْدُبُ سُوءَ مَغَبَّاتِهِ.

هَذِهِ يَا بُنَيَّ أَفْكَارِي، قَدْ أَفْضَيْتُ بِهَا إِلَيْكَ صَرَاحَةً، فَإِنْ كُنْتَ رَاغِبًا فِي بُلُوغِ مَنْصِبٍ رَسْمِيٍّ فَوَسِيلَتُكَ إِلَيْهِ مُيَسَّرَةٌ جِدًّا، وَهِيَ أَنْ تَذِلَّ وَتَسْتَكِينَ، وَأَمَّا إِذَا فَضَّلْتَ كَرَامَةَ نَفْسِكَ وَاسْتِقْلَالَكَ وَشَرَفَكَ عَلَى المَزِيَّةِ الَّتِي تَجِدُهَا فِي سُهُولَةِ فَتْحِ بَابِ الكَسْبِ وَسُرْعَتِهِ، فَإِنِّي أُهَنِّئُكَ عَلَيْهِ مِنْ صَمِيمِ فُؤَادِي، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَعْرِفَ مَا أَنْتَ دَاخِلٌ فِيهِ، فَإِنَّكَ بِتَنَازُلِكَ عَنْ رِعَايَةِ الحُكُومَةِ تَضْطَرُّ إِلَى كَسْبِ قُوتِكَ بِالعَمَلِ وَالجِهَادِ، وَلَا تَجِدُ مِنْ أَحَدٍ حَمْدًا عَلَى كَدِّكَ وَنَصَبِكَ، وَتَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْخَرُونَ مِنْ بَسَالَتِكَ وَإِقْدَامِكَ، فَعَلَامَ يُحِبُّونَكَ إِذَا كُنْتَ تُسَفِّهُهُمْ وَتُزْرِي عَلَيْهِمْ بِالنَّهْجِ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ فِي عَمَلِكَ وَفِكْرِكَ؟.

إِخْدِمِ الأُمَّةَ وَلَا تَرْجُ مِنْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَإِنَّهَا لَا تَمْلِكُ مَا تَجْزِيكَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِهَا شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِ البِلَادِ، وَلَا مِنْ أَلْقَابِ الشَّرَفِ، وَلَا مِنْ وَسَائِلِ التَّنْوِيهِ وَإِعْلَاءِ الذِّكْرِ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تُنْكِرُ مَا لَكَ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ فِي خِدْمَتِهَا، فَلَيْسَ عَلَيْكَ حِينَئِذٍ إِلَّا الاعْتِمَادُ عَلَى قُوَاكَ الجَسَدِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ ... وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الإِنْكَارِ المُتَوَقَّعِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرُوعَكَ، فَلَيْسَتْ أَهَمُّ مَسْأَلَةٍ لِلإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ أَنْ يَبْلُغَ مَقَامًا سَامِيًا، بَلِ المَسْأَلَةُ الكُبْرَى هِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْرُهُ أَعْلَى مِنَ المَقَامِ الَّذِي يَشْغَلُهُ.

وَأَمَّا أَخْبَارُ البَيْتِ فَمِنْهَا أَنَّ «لُولَا» عَهِدَتْ إِلَيَّ إِعْلَامَكَ بِأَنَّ طُيُورَكَ وَزُهُورَكَ فِي حَالَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَنَّ دَفَائِنَكَ بَعْدَ أَنْ حُفِظَتْ فِي بَطْنِ الأَرْضِ مِلْيُونَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً

مِنَ السِّنِينَ سَالِمَةً مِنَ التَّغَيُّرِ تَغَيَّرَتْ قَلِيلًا مِنْ غُبَارِ لُنْدُرَة وَدُخَانِهَا ، وبِأَنَّهَا قَدْ رَتَّبَتْ مَجْمُوعَ حَشَائِشِكَ وَأَنَّهَا أَشَدُّ لَكَ ذِكْرًا مِنْكَ لَهَا .

وَفِي الْخِتَامِ أُقَبِّلُكَ أَنَا وَأُمُّكَ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ وَنَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَائِمًا عَلَى عِلْمٍ بِدُرُوسِكَ وَمَقَاصِدِكَ وَحَالَةِ مَعِيشَتِكَ فَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِكَ يَعْنِينَا اهـ .(١)

الرسالة الثالثة

مِنْ «إِمِيل» إِلَى أُمِّهِ فِى ١٢ مايو سنة ١٨٦ —

إِفْضَاؤُهُ إِلَيْهَا بِحُبِّهِ لِقَيْنَةٍ مِنَ الْمُمَثِّلَاتِ — كَيْفَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا — اسْتِعْلَامُهُ سِيرَتَهَا — تَمَنِّيهِ إِنْقَاذَهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ — طَلَبُهُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ أُمِّهِ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ لَهَا بِالْحُبِّ .

إِنِّي مُنْذُ عَرَفْتُ نَفْسِي أَبُثُّكِ جَمِيعَ مَا يَسُوءُنِي وَمَا يَسُرُّنِي ، وَمَا أَكْرَهُ وَمَا أُحِبُّ ، وَأُكَاشِفُكِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا أَكْتُمُ عَنْكِ شَيْئًا ، حَتَّى إِنِّي لَمَّا كُنْتُ بِحَضْرَتِكِ مَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْبَيَانِ ، لِأَنَّكِ كُنْتِ تُطَالِعِينَ أَفْكَارِي فِي عَيْنَيَّ ، وَتُبْصِرِينَهَا تَجُولُ عَلَى جَبِينِي ، وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ لِي فِي حَيَاتِي أَسْرَرْتُ فِيهَا سِرًّا ، وَلَيْتَ شِعْرِي أَأَبُوحُ بِهِ

---

(١) قد تضمنت هذه الرسالة الحكيمة الجامعة من عيوب الحكم المطلق وافساده لأخلاق الأم مالا يستطيع أحد أن يمارى فى صحته ، لأنه يحس به و يشهده ، فليكن ذلك داعما على ذكر من الوالدين والمربين الذين يعنيهم أن ينشئوا أولادهم أحرارا وليوصوهم بما أوصى به هذا الرجل الحكيم ولده فى خاتمة الرسالة .
[المترجم]

إِلَى قَصَبِ نَهْرِ الرِّينِ؟ إِذًا لَتَضَاحَكَتْ مِنِّي كَمَا تَضَاحَكَتْ مِنْ أُذُنَي الْمَلِكِ مِيدَاسَ (١)، أَمْ أَبُثُّهُ إِلَى الْقَمَرِ؟ لَا! فَقَدْ سَمِعَ كَثِيرًا مِنْ أَمْثَالِهِ، أَمْ أُكِنُّهُ فِي قَلْبِي؟ إِذًا لَأَنْبَتَنِي عَلَيْهِ سَرِيرَتِي، مَا أَنَا بِفَاعِلٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أُودِعَهُ صَدْرَ أُمِّي.

عَلَى أَنَّ الْإِفْضَاءَ بِهِ لَيْسَ مِنَ السُّهُولَةِ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي كُنْتُ أَتَوَهَّمُهُ، فَإِنِّي مَا أَنْشَأْتُ أَخُطُّ هَذِهِ السُّطُورَ الْأُولَى مِنْ مَكْتُوبِي، حَتَّى ارْتَعَشَتْ يَدِي وَخَفَقَ قَلْبِي، وَلَسْتُ إِخَالُكِ إِلَّا سَاخِرَةً مِنِّي، وَلَكِنَّ أَقَلَّ مَا أَنَا وَاثِقٌ بِهِ مِنْكِ أَنَّكِ لَنْ تَجِدِي (٢) عَلَيَّ إِنْ صَدَّقْتُكِ الْخَبَرَ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ إِفْشَائِهِ وَهُوَ: أَنِّي أُحِبُّ.

الْآنَ أَرَاكِ تَسْأَلِينَنِي، مَنْ هِيَ الَّتِي تُحِبُّهَا؟ وَأَيْنَ رَأَيْتَهَا؟ وَأَيْنَ عَرَفْتَهَا؟ وَفِي هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ مَا يَزِيدُنِي حَيْرَةً وَارْتِبَاكًا.

فِي مَدِينَةِ «بِنْ» مَلْعَبٌ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ مَشْهُورٌ بِحُسْنِ اخْتِيَارِ الْقِصَصِ التَّمْثِيلِيَّةِ، فَمِمَّا يُمَثَّلُ فِيهِ قِصَّةُ مَرْيَمَ اسْتِوَارْت (٣)، وَقِصَصُ شِيلَارْ (٤)، وَقِصَّةُ غُويت،

---

(١) ميداس بحسب ما جاء فى أساطير اليونان هو ملك، فريجية وهو قطر من أقطار آسية الصغرى، اشتهر بواقعتين نذكر احداهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع وهى ان أبولون بن المشترى حكمه فى المناظرة التى قامت بينه وبين بان اله الرعاة فى الموسيقى والشعر والفنون، وكان بان صديقا للملك فحكم له فلم يكتف أبولون فى الانتقام من ميداس بسلخ جلده حيا، بل جعل له بدلا من أذنيه أذنى حمار، فغطاهما ميداس بتاج حتى لا تظهرا للناس ولما علم أن حلاقه لا بد له من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يلبث أن ثقل عليه الكتمان فاحتفر حفرة فى الأرض بمعزل عن الناس وأسر فيها قوله «ان الملك ميداس أذنى حمار» فاتفق بعد حين أن نبتت فى هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول .

(٢) تجدى تغضبى وقد سبق تفسيرها .

(٣) مريم استوارت هى بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية ومريم لورين — ولدت سنة ١٥٤٢م وماتت سنة ١٥٨٧م تزوجت بولى عهد فرنسة (من أول حكم فرنسيس الثانى) وبعد موت زوجها رجعت الى ايقوسية وتزوجت بهنرى درنلى ثم بالكونت بوثويل ثم ثار عليها رعاياها فلاذت باليصابات ملكة انجلترة التى حبستها ١٩ سنة ثم أمرت باعدامها .

(٤) شيلار شاعر ألمانى ولد سنة ١٧٥٩م ومات سنة ١٨٠٥ ومن أشهر قصصه المخزنة والنهبة والانشتين وغليوم تل .

عَنْ فَوْسْتَ وَمَرْغَرِيتَهُ(١) وَغَيْرِهَا مِنَ القَصَصِ الشَّهِيرَةِ، وَلِلْمُوسِيقِي وَالأَغَانِي الْمُوَقَّعَةِ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَلْعَبِ يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، تَحِلُّ فِيهَا مَحَلَّ الْأَدَبِيَّاتِ وَالوَقَائِعِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا تَرْوِيحُ نَفْسِي مِنْ عَنَاءِ الدَّرْسِ، وَثَانِيهِمَا إِيلَافُهَا أَصْوَاتَ اللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ ، فَمِنْ نَحْوِ شَهْرٍ ابْتَدَأَتْ قَيْنَةٌ(٢) بَافْيِيرِيَّةٌ(٣) فَتِيَّةٌ تَغَنَّى عَلَى الْمُوسِيقِي هُنَاكَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا غَنَّتْهُ قِصَّةُ النَّبِيِّ مِنْ تَوْقِيعِ مَايِرْبِير، فَبَلَغَتْ مِنَ الإِجَادَةِ فِي تَغْنِيَتِهَا إِلَى حَدِّ أَنَّ جَمِيعَ طَلَبَةِ الْجَامِعَةِ كَانُوا يَلْهَجُونَ بِذِكْرِهَا، كَأَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الآيَاتِ، فَجَرَيْتُ مَعَهُمْ فِي مَسَاقِ الإِعْجَابِ بِهَا، وَلَمَّا انْطَلَقْتُ إِلَى الْمَلْعَبِ وَرَأَيْتُهَا دَاخِلَةً فِي بَاحَةِ التَّمْثِيلِ كَانَ كُلِّي عُيُونًا تُبْصِرُ وَآذَانًا تَسْمَعُ، وَلَيْسَ صَوْتُهَا هُوَ الَّذِي اشْتَدَّ إِعْجَابِي بِهِ، مَعَ كَوْنِهِ مِنْ أَنْدَى الْأَصْوَاتِ وَأَنْدَرِهَا، بَلِ الَّذِي مَلَأَنِي إِعْجَابًا هُوَ مَا فِي تَغْنِيَتِهَا مِنَ الرُّوحِ ، بَلْ مَا فِي خَلْقِهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالإِتْقَانِ ، فَبِتُّ لَيْلِي كُلَّهُ أَحْلُمُ بِهَا ، وَلَا يُفَارِقُنِي طَيْفُهَا، وَكُنْتُ أَرَاهَا بَيْنَ الْأَفْلَاكِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَأَسْمَعُ أَنْغَامَ الْكَوَاكِبِ الْمُوسِيقِيَّةَ ، فَكَأَنَّ فِيثَاغُورِسَ(٤) كَانَ يُحِبُّ قَيْنَةً مِثْلِي عِنْدَ مَا كَانَ يُحَدِّثُ تَلَامِيذَهُ عَنْ حُسْنِ أَلْحَانِ النُّجُومِ .

وَلِخَوْفِي مِنَ انْقِضَاءِ إِعْجَابِي بِهَا فِيمَا يَلِي مِنَ التَّمْثِيلِ ، عَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى أَنْ لَا أَخْتَلِفَ إِلَى الْمَلْعَبِ لَيَالِيَ تَغْنِيَتِهَا ، وَلَكِنِّي مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوفِيَ بِعَهْدِي، وَقَدْ

(١) غويت واسمه جان ولف جانج هو أكبر كاتب ألمانى ولد فى فرنك فورسيرلين سنة ١٧٤٩ م ومات سنة ١٨٣٢م وفوست اسم لشخص خرافى مشهور فى حكايات الألمان بانه تعاهد مع الشيطان .

(٢) القينة فى اللغة الأمة المغنية أو الأمة مطلقا والمراد بها هنا المرأة المغنية .

(٣) بافيرية نسبة الى بافيير احدى ولايات المانية .

(٤) فيثاغورس فيلسوف يونانى ولد فى ساموس سنة ٤٦٩ ومات سنة ٥٧٠ م أقام بمصر وبابل مدة طويلة ثم رجع الى بلاد اليونان وأسس مدرسة فى كروتون وهو أول من قال بالتناسخ وعرف نظام العالم الحقيقى .

انتفى عنى كثيرًا خوف إقلالى من التحمس فى حبها، بما كشفته فيها على توالى الأيام من الخصائص الجمة التى لم أكن لاحظتها من قبل، ولا بد من الاعتراف لك بأنى كنت أجلس فى الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئيًا لها، وقد حسب لحظى مرة أو مرتين أنه لاقى لحظها ... ولكن ربما كان هذا ضلالا ووهما، ومع أن التمثيل كان يمكث أكثر من أربع ساعات، كنت دائما أجده فى غاية القصر، وأغادر مقعدى فى ختامه وقلبى مفعم بما لا يوصف من الاضطراب.

خطر فى ذهنى أن أخاطبها بأبيات من الشعر، أنظمها وأرسلها إليها غير ممضاة منى، على يد بواب الملعب الهرم، ففعلت وكنت أقول فى نفسى وقت نظمها: أقل فائدة لى منها أن تعلم أن واحدا من الناس يحبها، ولكنها كانت أبياتا رديئة، وأقربها ما كانت تؤدى نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل، وهذا ما دعانى إلى عدم اعتقاد صحة ما قيل من أن الشعر من لوازم الحب، كما قرأته ذات مرة فى بعض الكتب، وليس فى قدرة أحد — حاشا المصطفين من الخلق — أن يعبر عن كل ما يجده فى نفسه، ويا ليتنى كنت واحدا من هؤلاء النوابغ الممتازين.

كنت من مساعى فى التقرب من هذه الفتاة واقفا عند الحد الذى بينته لك، فبينما أنا فى يوم من أيام الآحاد أجوب المتنزه الذى تجتمع فيه نساء المدينة فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر إذا بها أقبلت آخذة نحوى فى مخرف[1]، فخطر ببالى أولا أن أتنكب هذا المخرف بسلوك إحدى السبل المقاطعة له، لأنه كان يخيل لى أنى

(١) المخرف الطريق المحفف بالاشجار كما مر ذلك.

سأصعق مما قام بنفسي من ضروب الانفعال والاضطراب، غير أني تثبت ومشيت مشية الجندي الباسل الذاهب إلى حومة الوغى، فرأيتها في بزة بالغة من الرونق غايته على بساطتها، وآرباه! كم وددت لو كنت في تلك الساعة قفازها، أو زهرة قلنسوتها، أو مظلتها، التي تقيها حر الشمس؟ أقول ذلك وأنا أعلم أنه كان مني قبيحاً، ولكن لا ينبغي أن أكتم عنك شيئاً من مواضع ضعفي.

في اللحظ خاصة الجذب، فإني كنت أشعر من لحظي إذا رنوت إليها أن كله إقرار وتصريح بالحب، ولما مر كل منا حذاء صاحبه، جرى على وجهي لألاء(١) حسنها كما يجري لمعان البرق، ولم أجسر على الإلتفات خلفي إلا بعد أن جاوزتها بثلاثين خطوة، فرأيتها قد بعدت عني مهرولة، غير أني بصرت في المسافة التي بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح إياه، فما تريثت في التقاطه، فإذا هو منديلها، قد سقط منها ... أو تعمدت إسقاطه، فعدوت خلفها، ودفعته إليها فأظهرت الدهش من ضياعه، وتلطفت في إسداني الشكر على رده، وراقني أن سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية، فلاح في ذهني أن أعرفها أني صاحب الشعر الذي أرسل إليها، ولكني كنت من شدة الإضطراب الذي استولى على نفسي بحيث لم أستطع تحريك شفتي بكلمة، ولا بد أن تكون حسبتني أبله.

يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه أن الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرهم في ذلك أنهم لم يجبوا في حياتهم، فإن منديلها وهو قطعة من النسيج البانستي(٢)

(١) اللألاء الضوء واللمعان.

(٢) البانستي نسبة الى بانست وهو أول صانع لهذا النسيج.

الرَّقِيقِ كَانَ يَتَضَوَّعُ (١) عَنْ عِطْرٍ لَطِيفٍ لَنْ أَنْسَاهُ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِهَذَا اللِّقَاءِ انْطَلَقْتُ إِلَى مَا حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الرُّبَى (٢) الزَّاهِرَةِ فَجَنَيْتُ بَاقَةً مِنْ أَلْطَفِ مَا وَجَدْتُهُ مِنَ الزُّهُورِ الْبَرِّيَّةِ وَأَدَّلْهَا عَلَى الْعَفَافِ ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ التَّمْثِيلِ خَبَّأْتُهَا فِي قَلَنْسُوَتِي الْمَدْرَسِيَّةِ ، وَأَخَذْتُ مَجْلِسِي فِي الْمَلْعَبِ ، فَغَنَّتْ كَعَادَتِهَا بِصَوْتٍ يَسْمُو بِسَامِعِيهِ إِلَى السَّحَابِ ، وَلَكِنْ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الَّتِي لَاقَيْتُهَا فِي الطَّرِيقِ أَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَكْمَلُ مِنْ قَيْنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ اسْتِعْدَادُهَا لِلتَّغْنِيَةِ مَثَارًا لِلْإِعْجَابِ . وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ مِنْ غِنَائِهَا وَانْصَرَفَ اسْتِعْدَادُهَا جَمِيعُ السَّامِعِينَ ، فَهَطَلَتْ حَوْلَهَا بَاقَاتُ الزَّهْرِ مِنْ غُرَفِ الْمَلْعَبِ وَالْكَرَاسِي الْمُقَابِلَةِ لِبَاحَتِهِ ، وَآنَ لِي أَنْ أُلْقِيَ إِلَيْهَا بَاقَتِي ، فَاهْتَمَمْتُ غَايَةَ الِاهْتِمَامِ بِأَنْ تُبْصِرَنِي عِنْدَ إِلْقَائِهَا ، مَعَ تَظَاهُرِي بِالِاخْتِفَاءِ خَلْفَ جِيرَانِي ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا فَعَلَتْهُ حِينَئِذٍ ؟ لَقَدْ أَهْمَلَتْ كُلَّ مَا أَلْقَاهُ غَيْرِي مِنَ الْأَزْهَارِ النَّادِرَةِ مِثْلِ زَهْرِ الْكَامِلِيَّةِ (٣) وَزَهْرِ التِّينِ الْهِنْدِيِّ وَالْوَرْدِ ذِي الْأُشْنَةِ ، وَعَمَدَتْ إِلَى بَاقَتِي الْحَقِيرَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ أَزْهَارٍ بَرِّيَّةٍ فَتَنَاوَلَتْهَا وَضَمَّتْهَا إِلَى قَلْبِهَا ، أَفَلَا تَرَيْنَ فِي ذَلِكَ بُرْهَانًا عَلَى حُبِّهَا لِي ؟

سَتَقُولِينَ لِي : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا ، وَقَدْ تَكُونُ مُخَالِفَةً تَمَامَ الْمُخَالَفَةِ لِمَا تَخَيَّلْتَهُ مِنْهَا ، وَإِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَكَ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّلَ نَفْسَكَ بِالْأَمَانِيِّ وَالْأَوْهَامِ أَنْ تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَخْلَاقِهَا ، وَكَيْفِيَّةِ مَعِيشَتِهَا ، فَأُجِيبُكِ : إِنَّ هَذَا أَيْضًا لَمْ يَفُتْنِي ، وَأُقِرُّ بِأَنِّي لَمْ أَقِفْ مِنْ ،

(١) يتضوع يتحرك فينتشر منه العطر .

(٢) الربى جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض .

(٣) الكاملية : زهرة يابانية جلبها الى أوربة مرسل دينى اسمه كاملى فنسبت اليه .

تجرى سيرتها إلا على أخبار لا يزال فيها شيء من الغموض، ولم يجتمع لدىّ في هذا الصدد إلا أقوال في غاية التعارض والتناقض، فأنت تعلمين مقدار ما للشبان فيما بينهم من القسوة على النساء، ولا سيما الممثلات، فقد بلغ الحسد من إفساد خلق الإنسان إلى حد أن جعل من لذاته تمزيق أعراضهن، مع ما لهن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام، ولست بمخف عنك شيئا مما يقولون، فبعضهم ينسب لها من هنات(١) الشباب ما يفير(٢) دمى ويثير غضبي، وبعضهم يقول إنها تعيش مع أمها في حى منعزل عن المدينة، وقد أرانى الطلبة هذه الأم تصحبها ليلا عند خروجها من الملعب فلم أجد بينهما مشابهة ما، وإن أردت الوقوف على شيء من نعتها، فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر(٣) شاربها، وإني لمتألم من تصور أن مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المدرة، ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية، فمن الفضل أن تعامل بجميع ما يجب لفتاة مخلصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم .

على أننا إن سلمنا حصول أسوء ما يتأتى حصوله منها، وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائما مرضية، أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها، وعلى من يعاشرونها من الناس ؟ إني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغا أستبعد معه أن لا تكون لها نفس زكية، وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشرا فاضلا كريما . وآرباه ! أى فخر أناله لو أتيح لى أن أمد يدى إلى تلك

(١) هنات الشباب الأفعال الموجبة للوم التى تحصل فيه .

(٢) يفير يجعله يفور .   (٣) ذر شاربها طلع شعر فوق شفتها العليا .

الرُّوحِ الْمَلَكِيَّةِ ، فَأَنْتَاشَهَا(١) مِنْ دَرْكِ الانْحِطَاطِ الَّذِى هَبَطَتْ فِيهِ ، لِتَعُودَ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْفَضِيلَةِ .

هَا أَنَا ذَا قَدْ كَشَفْتُ لَكِ مَكْنُونَ سِرِّى ، وَنَجَوْتُ بِهَذَا الإِعْتِرَافِ مِنْ شَدِيدِ زَجْرِ سَرِيرَتِى ، وَالْآنَ أَقَعُ بَيْنَ يَدَيْكِ رَاجِيًا مِنْكِ غُفْرَانَ خَطِيئَتِى .

الرسالة الرابعة

(من هيلانة إلى ولدها)

عن لندرة فى ٢٣ مايو سنة — ١٨٦

فِي بَيَانِ وُجُوبِ عَدَمِ تَدَاخُلِ الْوَالِدَيْنِ فِي حُبِّ وَلَدِهِمَا وَتَلَطُّفِ الْأُمِّ فِي نُصْحِهِ وَبَيَانِ انْخِدَاعِهِ

لَقَدْ رَاقَنِى مِنْكَ يَا بُنَىَّ الْعَزِيزَ صَرَاحَتُكَ ، وَمُوَافَقَةُ سِرِّكَ لِعَلَانِيَتِكَ ، وَإِنِّى مُجْتَنِبَةٌ كُلَّ الاجْتِنَابِ مُمَازَحَتَكَ فِي غَانِيَتِكَ الَّتِي نُطْتَ بِهَا أَمَانِيَكَ ، وَمَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ مَا قَصَصْتَهُ عَلَىَّ فِي شَأْنِهَا لَا يَخْلُو مِنْ أُمُورٍ تَدْعُونِي إِلَى التَّفَكُّرِ ، وَتُبِيحُ لِي أَنْ أُنَبِّهَكَ فِي أَمْرِهَا إِلَى تَفَاصِيلَ إِخَالُهَا مُرِيبَةً ، أَتَحَامَى أَنْ أُجَرِّدَ تِلْكَ الْأَمَانِىَّ مِنْ زُهُورِهَا وَأُعَرِّيَهَا مِنْ رُوَائِهَا(٢) ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَذْكُرَ أَنَّكَ شَابٌّ غِرٌّ(٣) ، لَمْ تَخْتَبِرْ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّكَ وَآأَسَفِى ! — : لَسُرْعَانَ مَا تَتَعَلَّمُ أَنْ لَا تَغْتَرَّ بِالظَّوَاهِرِ ، وَعَسَى اللهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ خَسَارًا عَلَيْكَ .

---

(١) فانتاشها أى انقذها . (٢) روائها : حسنها . (٣) الغر : عديم التجربة .

قد تعاهدت أنا وأبوك على عدم التداخل في محباتك بحال من الأحوال ، فأنت حينئذ آمن ضروب عذلي وتأنيبي ، ولكنك بما صرت ولي نفسك مسئول عن جميع ما يقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام ، واعلم أن من هو في مثل سنك يكون شديد الارتياح إلى الاغترار والانخداع ، فكم من شاب يحسب من الحب ما ليس هو إلا اضطرابا في مشاعره ، وسرابا(١) يبدو لحواسه ، لأن الحب الصحيح هو الإستيلاء على نفس المحبوب ، ولا يبلغه إلا من كان حقيقا به وأهلا له .

لم يعلق بنفسي أدنى أثر مما للناس في الممثلات من الأوهام ، وإنهم لظالمون في حكمهم على كثير منهن ، وحاشا أن أحكم على تلك القينة التي فتنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها ، وإنما أنبهك إلى أنك ليس لك حتى الآن أدنى وجه صحيح في أن تستنتج من بعض أحوالها معك أنها تفضلك على غيرك من عبادها ، فمن غرور الشبان أن يعتقدوا أنهم محبوبون لأنهم محبون ، على أني أسلم لك أن قلبها ملك لعواطفك ، فالذي تعرفه منها ، والذي تتلمسه من وراء حبها ، ليس من الخصائص المقومة للمرأة في شيء ، لأنك إنما تعشق منها تغنيها وحسنها ودعابتها(٢) ، وهي مزايا تستفيد العامة منها أكثر مما يستفيده الرجل الذي قد تصير صاحبة له ، فهل تدري ما يبقى لتمثال حبك الذي تعبده من المحاسن ، إذا زال عنه زخرف الملعب ورونقه وغرور العشق وخدعه ؟ .

(١) السراب ما يرى كالماء في نصف النهار وقت اشتداد الحر .

(٢) دعابتها لعبها ومزاحها .

أنت نفسك — فيما يظهر لي — مرتاب من ماضي سيرتها، لأنك تتمنى لو أتيح[1] لك إنقاذها من الدرك الذي هي فيه، وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع، ومعاذ الله صيانة لشرف المرأة نفسه أن أعتقد أن ذنوبها لا تكفر، بل أسلم ما قلته من أن الحب قد يمحو بعض الأدناس، ولكنا لا نعلم كثيرًا من أمثال النساء اللاتي أبن[2] إلى الرشد بعد الغي، ثم إني لا أظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على البسالة من الصعوبات والعوائق، فإن إنقاذ الخاطئات الذي يحسن الطيش لبعض الشبان الأغرار أن يدعوه لأنفسهم، يلابسه في معظم الأحيان من الكبر والعجب أكثر مما يصاحبه من الإخلاص الحقيقي، فكأنهم بهذا يعتقدون أن ملائكة العشق اللاتي أهبطن إلى حضيض[3] الرذيلة ليس لهن من الصلف والإباء مثل ما لهم.

إن من يحاول ذلك العمل يجب أن يكون بالغًا من قوة النفس ولطف الذوق مبلغًا عظيمًا، يسمو به عن الغض[4] من المرأة الخاطئة وإذلالها، ثم هل أنت في سنك هذه تأنس من نفسك قوة وإقدامًا على كتمان الغيرة؟ فإنها تبكيت ومؤاخذة للمرأة التي لم تكن طول حياتها عفيفة، وهل لك من السلطان على نفسك ما يكفي لإخفاء ما يكون في معظم الأحيان مثارًا للريبة منك. وهو ندمك على إجلالك لمثل تلك المرأة، مع أنه لا يسمح به عادة إلا للزكية الطاهرة؟ فإذا كنت لم تستكمل

---

(١) أتيح: قدر. (٢) ابن رجعن.

(٣) الحضيض القرار من الأرض عند منقطع الجبل والمراد به هنا السفالة والدناءة.

(٤) الغض الانتقاص.

هٰذه الصفات ، فخلِّ الجهاد عنك لأنه لا يكون من ورائه إلا زيادة من تزعم إنقاذها خسرا .

من الأمهات من يكتبن لأبنائهن في هذا الموضوع على أسلوب مغاير لهذا تمام المغايرة ، فقد يؤنبنهم ويجتهدن في تخويفهم من عواقب طيشهم ، وغير الأمهات ربما لا يرين في كل هذا إلا مقدمة لواقعة من الوقائع الشائع حصولها بين الشبان ، وهفوة عادية من هفوات الطلبة ، وربما قلن فوق ذلك وهن مبتسمات : تهوينا ، تهوينا ، فمن الواجب إقالة عثرات الشبان . وأما أنا فأعلم أنك جاد فيما كتبت وإلا لما أفضيت إلى بسرك ، ولهذا أجبتك بالجد ، ولست أخاف عليك إلا أن تكون خدعة لما في خيالك من التوقد الذي هو من لوازم سنك ، ومن العبث القول بالتسامح في أمر الحب ، فليس أحد يسلم عليه(١) بالاستخفاف به ، لأنه إذا لم يرفع النفس ويزكيها ، فإنه يسفلها ويدسيها(٢) ، وحسبي ما قلته في هذا الموضوع ، فلا أزيدك عليه شيئا .

جاءتنا أخبار من البيرو ، فقد كتب إلينا فوبيدون وجوزجية بأنهما يذكرانك أنت و « لولا » ذكرا كثيرا .

ومما ينبغي أن تعلمه أيضا أن « لولا » تفكر في اختيار مهنة لها ، فقد قالت لي من أيام مضت « أريد أن أتعلم حرفة من أجل أن ... » وما عتمت(٣) أن فرت إلى حجرتها قبل أن تتم كلامها ، وقد احمر وجهها خجلا .

---

(١) يسلم عليه : ينجو منه . (٢) يدسيها : يغويها ويفسدها .

(٣) عتمت : لبثت وتأخرت .

وأُرانى أدركتُ مرادها، وهو أنَّ المرأةَ التى لا مالَ لها ولا حرفةَ ليستْ حرَّة، فإذا تزوجتْ فإنما تتزوجُ فى الغالبِ مقامَ زوجها ومكانتَه؛ و«لولا» لعزَّةِ نفسها وإبائها تتذمَّرُ من هذا الاحتياجِ ولا ترضى الاستكانةَ له، فهى تريدُ أنْ تقولَ يومًا ما لمنْ يروقها من الناسِ: إنَّ فى استطاعتى أنْ أعيشَ بعملى، وإنى إذا أخلصتُ فى تحصيلِ الاغتباطِ والسعادةِ لكَ فذلكَ لأنى أحبُّكَ.

استودعكَ اللهَ يا بنىَّ العزيزَ وأوسعُ صدرى على الدوامِ لتلقِّى أسرارِكَ ومشاركتِكَ فى آلامكَ، وأبعثُ لكَ فى هذا قبلةَ الحبِّ الذى لا يتغيرُ، ألا وهو الحبُّ الذى لكَ فى قلبِ أمِّكَ (١). اه

الرسالة الخامسة

من «إميل» إلى أبيه
المدرسة الجامعة

فى ١٠ يوليه سنة — ١٨٦

كلَّفتنى أنْ أجعلكَ على علمٍ بدروسى، فموافاةً لرغبتكَ أقولُ: الجامعةُ التى أختلفُ (٢) إليها بناءٌ فى غايةِ الجدةِ، وتفتحُ قاعاتُها للتدريسِ فى فصلِ الصيفِ من الساعةِ السابعةِ صباحًا إلى الساعةِ الأولى بعدَ الظهرِ، ومن الساعةِ الثالثةِ بعدهُ إلى الساعةِ

(١) ليتأمل الشبان والمشتغلون بالتربية فيما احتوته هذه الرسالة القيمة من الآداب الرائعة والعظات الرشيدة وحسن التلطف فى بيان خدع الحب الدنس والتنبيه الى الاحتراس من الوقوع فى حبائله، ومن لنا بأمهات كهذه الأم الحكيمة البارة بولدها فى حزمها وسداد رأيها — المترجم.

(٢) اختلف: سبق تفسيرها.

السَّادِسَةِ، وَتَنْقَسِمُ دُرُوسُ الْأَسَاتِذَةِ فِيهَا إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، فَالأُولَى تُلْقَى بِالضَّرُورَةِ مجَّانًا، وَيَدْفَعُ الطَّلَبَةُ فِي مُقَابِلِ تَلَقِّي الثَّانِيَةِ «فِرِيدِرِيكِين» ذَهَبًا (٥٠ فرنك) كُلَّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَتَنْقَسِمُ جَامِعَةُ «بن» مِثْلَ كُلِّ الجَامِعَاتِ فِي أَلْمَانِيَةَ إِلَى أَرْبَعِ مَدَارِسَ اخْتِيَارِيَّةٍ، إِحْدَاهَا لِلْقَوَانِينِ، وَالثَّانِيَةُ لِلْحِكْمَةِ، وَالثَّالِثَةُ لِلطِّبِّ، وَالرَّابِعَةُ لِلْإِلَهِيَّاتِ، وَيَتَعَلَّقُ بِكُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْمَدَارِسِ الأَرْبَعِ فُرُوعٌ مُخْتَلِفَةٌ يَدْرُسُهَا فِيهَا رِجَالٌ اخْتِصَاصِيُّونَ فِيهَا .

الجَامِعَةُ تُخَلِّي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي وَقْتِنَا، إِمَّا بِإِضَاعَتِهِ أَوْ بِالانْتِفَاعِ بِهِ، لِأَنِّي لَا أَرَى لِأَحَدٍ مِنْهَا أَدْنَى تَفْتِيشٍ وَلَا أَقَلَّ هَيْمَنَةٍ (١) عَلَيْنَا فِي سِيرَتِنَا، عَلَى أَنِّي أَعْتَقِدُ مَا قُلْتُهُ لِي كَثِيرًا مِنْ أَنَّ النِّظَامَ التَّأْدِيبِيَّ النَّاجِعَ هُوَ مَا يَفْرِضُهُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَلْتَزِمُ اتِّبَاعَهُ .

لَا مِرَاءَ فِي أَنَّ أَسَاتِذَةَ جَامِعَتِنَا مُتَضَلِّعُونَ مِنَ الْعُلُومِ، غَيْرَ أَنِّي كَثِيرًا مَا شَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَتَتَبَّعَ سِلْسِلَةَ أَفْكَارِهِمْ فِي الدُّرُوسِ، لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَفْكَارَ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهَا وَاضِحَةً، وَثَانِيهِمَا أَنِّي لِقِلَّةِ تَعَوُّدِي تَصْوِيرَ فِكْرِي بِالْأَلْمَانِيَّةِ حَتَّى الْآنَ، أَجِدُ مِنَ الصُّعُوبَةِ فِي فَهْمِ تِلْكَ الْأَفْكَارِ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ غَيْرِي مِنَ الْمُتَعَوِّدِينَ . وَيُدْهِشُنِي مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ عَلَى سُمُوِّ مَكَانَتِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَبُعْدِ صِيتِهِمْ، مَغْبُونُونَ فِي أَجْرِ عَمَلِهِمْ، إِذَا اسْتَدْلَلْتُ عَلَى هَذَا بِمَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ مِنْ رِقَّةِ الْحَالِ (٢)، وَبِقَنَاعَتِهِمْ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَيْشِ، وَرَثَاثَةِ مَلْبَسِهِمُ (٣) الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ وَسِخًا . وَفَقْرُهُمْ

(١) الهيمنة : الرقابة . (٢) رقة الحال قلة المال . (٣) رثاثة ملبسهم أى بلاها وخلقها .

هَذَا يُؤلِمُنِي وَيَزِيدُهُمْ فِي نَفْسِي إِجْلَالًا عَلَى إِجْلَالِهِم الَّذِى تَدعُونِى إِلَيْهِ مَعَارِفُهُمْ، فَأُولَئِكَ رِجَالٌ يُحِبُّونَ الْعِلْمَ لَا لِكَسْبِ الْمَالِ، وَلَا لِلتَّمَتُّعِ بِالْحُطَامِ، وَإِنَّمَا يُحِبُّونَهُ لِمَا يُحَصِّلُهُ لِلْعَقْلِ مِنْ لَذَّاتِهِ وَضُرُوبِ اغْتِبَاطِهِ (١) .

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْمُدَرِّسِينَ يَرْتَجِلُونَ الدُّرُوسَ مُطْنِبِينَ فِيهَا ، وَبَعْضُهُمْ وَهُمُ الأَكْثَرُونَ يَأْتُونَ بِهَا مَكْتُوبَةً فَيُلْقُونَهَا عَلَى الطَّلَبَةِ، وَهَؤُلَاءِ يُصْغُونَ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ وَيَكْتُبُونَ مَا يَعْلَقُونَهُ مِنْهُ، وَقَدْ وَضَعْتُ لِنَفْسِي نَمَطًا فِي اخْتِزَالِ الْكِتَابَةِ، وَهُوَ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَشُكُّ فِي قُصُورِهِ لِأَوَّلِيَّتِهِ، يُمَكِّنُنِي مِنْ إِثْبَاتِ الْحُدُودِ الأَسَاسِيَّةِ لِمَا أَسْمَعُهُ مِنَ الْجُمَلِ .

يَنْقَسِمُ الطَّلَبَةُ بِاعْتِبَارِ مَذَاهِبِهِمْ إِلَى كَاثُولِيكِيِّينَ، وَبُرُوتِسْتَانْتِيِّينَ مُتَشَدِّدِينَ، يَعُدُّ بَعْضُهُمْ نَفْسَهُ لِلأَعْمَالِ الْخِطَابِيَّةِ ، وَحُكَمَاءَ يَجْتَهِدُونَ فِي تَأْوِيلِ الْمَذَاهِبِ تَأْوِيلًا مُطَابِقًا لِلْعَقْلِ، وَمَادِّيِّينَ وَهُمْ قَلِيلٌ، يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ زَمَنَ الدِّيَانَاتِ قَدِ انْقَضَى، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي إِضَاعَةُ الْوَقْتِ فِي الْعُكُوفِ عَلَى مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِنْ هَوَاجِسِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَأَحْلَامِهَا .

رَأَيْتُكَ دَائِمًا تَجْتَنِبُ الْخَوْضَ مَعِي فِي الْمَذَاهِبِ وَالأَسْرَارِ الدِّينِيَّةِ ، وَاسْتَنْتَجْتُ مِنْ سُكُوتِكَ عَنْهَا أَنَّكَ قَصَدْتَ مِنِّي الاِسْتِقْلَالَ بِنَفْسِي فِي الاِعْتِقَادِ، وَلَقَدْ حَمَلْتَنِي

---

(١) كذلك كان شأن العلماء وطلاب العلم عندنا فى الأيام الخالية ، كما تشهد به آثارهم وما حفظه لهم التاريخ من سيرهم المحمودة، وقد خلف من بعدهم خلف لا يتعلمون العلم إلا بمقدار ماينالون به ورقة قليلة الفائدة تسمى شهادة يسألون بها قوتهم من الحكومة ثم تنقطع صلتهم به فيحرمون قطوفه الشهية ولذاته العقلية وهذا هو السر فى نضوب العلم وانقطاع النبوغ فيه المترجم .

عظيما، فإني حتى هذا اليوم في غاية البعد عن معرفة ما يستقر عليه فكري في كثير من المسائل التي ترجفني محاولة سبر غورها، على أنه لا بد من الإقرار لك بأني لست مطرحا هذه الطائفة من الأفكار، ولا مغفلا لها، فكم من مرة نظرت إلى السماء في سكون الليل، وحاولت على حداثة سني وجهلي أن أقرأ في نجومها حلا للغز هذا العالم، وإني منذ اليوم الذي شهدت فيه إلقاء جثة الملاح في البحر — وإخالك تذكره — لا ينفك عني التفكير في سر الموت حتى في أحلامي، وقد سألت القبور أن تكشفه لي فلم تحر جوابا، فعمدت من عهد دخولي الجامعة إلى مطالعة ترجمة الفيدا (١) الألمانية والزنداويستا (٢) والتوراة فأثرت قراءتها في نفسي تأثيرا بليغا، وكان يتراءى لي منها عالم جديد، ولكن من خلال ظلمات لا يسعني إلا الإقرار بأنها لم تنقشع، ولست أدري أأعكف على دراسة هذه الكتب أم أعدل عن إماطة هذه الظلمات عما لا يتناهى، فلا أشتغل إلا بما هو ثابت محقق من نتائج العلم.

أنا الآن أحوج إلى إرشادك والاستضاءة بنور علمك مني فيما مضى، ومن ذا الذي أسترشده وأستهديه سواك.

جميع الطلبة يتعلمون المجالدة (٣) والمناضلة (٤) وأنا مقتد بهم في ذلك، فلي كل يوم ساعة أو ساعتان أقضيهما في ممارستهما، لأن في هذه الممارسة تمرينا مفيدا في تقوية

(١) الفيدا كتاب الهنود المقدس وهو اسم عام تحته أربعة كتب خاصة وهي الريجفيدا والساميفيدا والباجورافيدا والآثارفيدا. (٢) الزاندويستا مجموع ما لأتباع زردشت من الكتب المقدسة.

(٣) المجالدة: المضاربة بالسيوف. (٤) المناضلة: المباراة في رمي السهام.

الأَعْضَاءِ وَتَنمِيتِهَا، وَيُؤَكِّدُ الْعَارِفُونَ مِنَ الطَّلَبَةِ أَنَّ أَمْهَرَ الْمُجَالِدِينَ مَنْ يَنْدُرُ التَّحَرُّشُ (١) بِهِ . وَمَعَ أَنِّي لَا أَرْجُو مُطْلَقًا أَنْ أَبْلُغَ فِي الْمُجَالَدَةِ وَالْمُنَاضَلَةِ مَبْلَغَ الْفَارِسِ سَانْ جُورْج (٢)، أَوَدُّ لَوْ أُثْبِتُ فِي قَاعَةِ الْمُمَارَسَةِ ثُبُوتًا كَافِيًا أَنِّي عَلَى عِلْمٍ بِاسْتِعْمَالِ السِّلَاحِ، حَتَّى يَحْسُبَ الطَّلَبَةُ حِسَابِي فَلَا يَسْتَخِفُّونَ بِإِغْضَابِي، فَإِنَّ الْمُبَارَزَةَ كَثِيرَةُ الْوُقُوعِ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَجْرَحُونَ فِيهَا أَحْيَانًا، وَلَكِنْ يَنْدُرُ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ أَنْ يُقْتَلُوا، وَمَنْ يُجْرَحْ مِنْهُمْ لَا يُبَالِي بِخَدْشِ وَجْهِهِ بَلْ يَعْتَبِرُ نَدْبَ (٣) الْجُرُوحِ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ التَّشْوِيهِ لِخِلْقَتِهِ مِنْ مُوجِبَاتِ إِجْلَالِ النِّسَاءِ لَهُ .

أَخْتِمُ مَكْتُوبِي رَاجِيًا أَنْ تَثِقَ مِنِّي بِدَوَامِ مَحَبَّتِي لَكَ وَتَعَلُّقِ قَلْبِي بِكَ اهـ .

الرسالة السادسة

مِنْ إِرَاسْم إِلَى «إِمِيل»

فِي التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكَمِيَّةِ

قَدْ حَزَرْتَ (٤) يَا وَلَدِي مَقَاصِدِي فِي تَرْبِيَتِكَ الدِّينِيَّةِ، فَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَقَائِدِكَ، مَعَ عِلْمِي بِمُخَالَفَتِي فِي هَذَا مُخَالَفَةً تَامَّةً لِمَا تَجْرِي عَلَيْهِ الأُمُورُ عَادَةً؛ ذَلِكَ أَنَّ الطِّفْلَ لَا يَكَادُ يُولَدُ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى أَحَدِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي تَتَنَازَعُ حُكُومَةَ الدُّنْيَا، فَيَتَكَفَّلُ وَالِدَاهُ بِتَقْلِيدِهِ دِينًا، مُحْتَجِّينَ فِيهِ بِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ (وَهُوَ أَمْرٌ بَيِّنُ الْبَدَاهَةِ)

---

(١) التحرش التعرض .

(٢) سان جورج شخص يذكر فى الأساطير أنه أمهر المجالدين والمناضلين .

(٣) الندب جمع ندبة وهى أثر الجرح . (٤) حزرت يعنى قدرت بالحدس والتخمين .

لأن يحكم بنفسه، ويسبق عرف بلاده وعوائد قومه وتقاليد بيته إلى تحديد الدين الذي يجب انتسابه إليه، وهو الإستيلاء على نفسه . قد يقول قائل إن الوالدين إذا فعلا ذلك فهو لأنهما يعتبران أنفسهما نائبين عن الأمة في القيام على المولود قبل أن يعرف نفسه بنفسه، فأجيبه أسلم لك ذلك، ولكني أقول : إن كان من حق الأمة أن تودى إلى المولود دينا، كان حقا عليها أيضا أن تختار له حرفة أو عملا من أعمال الحكومة، وإذا نصير في حكومة دينية اشتراكية .

لا ينبغي أن تجعل ولادة المولود سببا لسلب حريته، فإن انقسام الوالدين في ضروب الوجدان، واختلافهما في الأنظار حتى في أيامنا هذه، يجعل ولايتهما عليه مشكلة مرتبكة، ذلك أنه لا حرب إلا حرب البيوت، فإن شأن الوالدين في الدين غالبا أن يكون الأب كافرا والأم مؤمنة (١)، فكيف يكون الولد إذا تنازعه هذان المؤثران ؟ أقول إنه يكون كأهل زمانه حيران عاجزا، فإنا كثيرا ما نلاقي في الناس شبانا مشغولين بترقيع سرائرهم بخرق من مذاهب المتدينين، يخيطونها مع آراء الأحرار من المفكرين، ونصادف آخرين شاكين حائرين، مع بقاء استمساكهم بأوهام الواهمين، وقد فشا في الناس التباين والتناقض، وعم بينهم التشوش والاختلاط .

وأما أنت فإنك والحمد لله لم تبتل بشيء من هذه المحن، لأني أنا وأمك لم نعتقد أن من حقنا أن نغتنم فرصة نوم عقلك، فندعوك إلى اتباع ما نحن عليه،

(١) هذا شأن خاص بالافرنج ومن قلدهم بلا بصيرة من المسلمين .

بدُونِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رِضَاكَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ لِي، كَكُلِّ إِنْسَانٍ غَيْرِي، رَأْيًا فِي الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ الَّتِي يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِيهَا، وَهُوَ لَا يُلْزِمُكَ شَيْئًا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَحْفِلَ بِهِ .

أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَلَكِنْ لَا تُطِعْ إِلَّا قَلْبَكَ، فَأَنْتَ حُرٌّ، وَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْعَى وَرَاءَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، مُسْتَعِينًا فِي ذَلِكَ بِالْهِمَّةِ وَالْبَسَالَةِ وَالنَّزَاهَةِ ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا السَّعْيُ إِلَى الْيَوْمِ خَارِجًا عَنْ وُسْعِكَ وَبَعِيدًا عَنْ مَقْدُورِكَ، فَيَجِبُ الْآنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَمَلَكَ فِي جَمِيعِ حَيَاتِكَ .

وَمِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكَ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَنِعَ بِشَيْءٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْخَطِيرَةِ، أَنْ تَبْحَثَ فِيهَا وَتَدْرُسَهَا ، فَإِنَّ مَثَلَ مَنْ يَرْفُضُ الْمَذَاهِبَ الدِّينِيَّةَ أَوِ الْحِكْمِيَّةَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِهَا كَمَثَلِ مَنْ يَقْبَلُهَا بِدُونِ بَحْثٍ فِيهَا وَلَا نَظَرٍ، كِلَاهُمَا مُنَاقِضٌ لِنَفْسِهِ ، غَيْرُ مُسَدَّدٍ فِي رَأْيِهِ ، وَلَا شَيْءَ فِي الْحَقِيقَةِ أَدْعَى إِلَى الضَّحِكِ مِنْ وَقَاحَةِ أَحْدَاثِ الدَّكَاتِرَةِ الَّذِينَ يَجْهَرُونَ بِأَنَّ الْمَبَاحِثَ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي أَرْتَاضَ بِهَا أَمْثَالُ دِيكَارْت (١) وَاسْبِينُوزَا (٢) وَبَاسْكَال (٣) وَلَايْبِنْتز (٤) وَهِيجِل (٥) لَيْسَتْ خَلِيقَةً بِالْتِفَاتِهِمْ وَمَيْلِهِمْ ، فَلِلْجَهَلَةِ الْأَغْبِيَاءِ مِنْهُمْ كَلِمَةٌ يَتَطَنْطَنُونَ بِهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَهِيَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ : وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ فِي حَيَاتِهِ صَحِيفَةً

(١) ديكارت هو عالم رياضيّ ومهندس طبيعيّ وأخص ما يعرف به أنه حكيم فرنسي شهير يدعونه أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦ م ومات سنة ١٦٢٠ م

(٢) اسبينوزا حكيم ولد فى أمستردام سنة ١٦٣٢ م ومات سنة ١٦٧٧م .

(٣) باسكال هومهندس كبير وكاتب شهير ولد فى كلير مونت فراند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٠ م اثبت ثقل الهواء فى سنة ١٦٤٨ وفى سنة ١٦٥٤ اعتزل فى بورر و يال دوسان حيث كتب أقليمياته وأفكاره .

(٤) لا يبنتز هو عالم شهير ولد فى لا يبنزج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقه .

(٥) هيجل حكيم ألمانى ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٥١ م .

مِنْ كِتَابِ الْكَوْنِ ، « مَالِى وَلِإِضَاعَةِ وَقْتِى فِى حَلِّ مَا لَا يُسْبَرُ غَوْرُهُ مِنْ مَسَائِلِ وُجُودِ اللهِ ، وَخُلُودِ الرُّوحِ ، ووحْدَةِ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ أَوْتَغَايُرِهِمَا ؟ فَحَسْبِى الِاشْتِغَالُ بِالْعِلْمِ » .

أَنَا لَا أَشُكُّ فِى أَنَّ الْعِلْمَ الْآنَ مُشْتَغِلٌ بِاسْتِئْنَافِ عَمَلِ الدِّيَانَاتِ ، سَالِكًا فِيهِ طُرُقًا أُخْرَى مُغَايِرَةً لِطُرُقِهَا كُلَّ الْمُغَايَرَةِ ، فَإِنَّهُ يَرْجُو مِنَ الْبَحْثِ فِى الْحَوَادِثِ بَحْثًا تَجْرِيبِيًّا وَمُرَاقَبَتِهَا مُرَاقَبَةً قَرِيبَةً ، أَنْ يَصِلَ إِلَى حَقِّ الْيَقِينِ الَّذِى كَانَ أَهْلُ الدِّينِ يَرْجُونَ بُلُوغَهُ مِنْ طَرِيقِ الْهِدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِنِّى لَجَازِمٌ بِأَنَّهُ قَدْ سَلَكَ أَقْوَمَ الْمَنَاهِجِ لِبُلُوغِ الْحَقِّ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَعَسِّرِ مَعْرِفَةُ النَّتَائِجِ الَّتِى يُؤَدِّى إِلَيْهَا بَحْثُهُ ، وَإِذَا فَقِهْنَا حَالَةَ الْمَعَارِفِ عَلَى مَا هِىَ عَلَيْهِ الْآنَ ، وَجَدْنَا شَأْنَهُ الْمُطَّرِدَ أَنَّهُ لَمْ يُفِدْنَا فِى بَعْضِ مَا قَدْ يُهِمُّنَا اسْتِقْصَاؤُهُ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ قَلِيلًا جِدًّا .

فَإِنَّا إِذَا اسْتَثْنَيْنَا عِلْمَ تَرْكِيبِ الْحَيَوَانِ ، لِأَنَّهُ قَدْ أَمْكَنَهُ أَنْ يُؤَدِّىَ إِلَيْنَا مَعْنًى مِنْ مَعَانِى الْإِنْسَانِ ، عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُتَعَارِضَةِ وَالْآرَاءِ الْمُتَنَاقِضَةِ ، وَعِلْمَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، لِأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ لِعُقُولِنَا مَنَافِذَ نَلْمَحُ مِنْهَا عَلَى بُعْدٍ مَنْشَأَ الْحَيَاةِ ، رَأَيْنَا أَنَّ الْعُلُومَ الصَّحِيحَةَ لَمْ تَكْشِفْ لَنَا السِّتَارَ حَتَّى السَّاعَةِ عَنْ عِلَّةٍ مَا مِنَ الْعِلَلِ الْأُولَى الَّتِى هِىَ أَهْيَجُ لِشَوْقِ الْعَقْلِ مِنْ سِوَاهَا ، وَلَكِنْ قَدْ يُجِيبُنِى مُجِيبٌ بِأَنَّ هَذِهِ الْعِلَلَ لَا يَنْبَغِى الِاشْتِغَالُ بِهَا قَطْعًا ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مُتَنَاوَلِ الْعَقْلِ ، فَأَقُولُ لَهُ : مَا هِىَ غَايَةُ عِلْمِكَ فِى هَذَا ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنْ تَجَارِبِ الْإِنْسَانِ فِى بِضْعَةِ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ يُسَوِّغُ تَحْدِيدَ قُوَاهُ وَمَلَكَاتِهِ الْمُتَزَايِدَةِ ؟ أَمْ تُرِيدُ أَنَّهُ يَكْفِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْ يُسْدِلَ الْحِجَابَ عَلَى مَا يَجْهَلُهُ لِيُنِيمَ طَمَعَ عَقْلِهِ وَيُخْمِدَ شَوْقَ إِدْرَاكِهِ ؟ أَنَا لَا أَعْتَقِدُ

مِنْ هذا شيئاً ، بل أقول : إنّ الإنسان لا يسهل عليه الاستخذاء للجهل والاستكانة له ، إمّا لشرف في طبعه أو لخسّة فيه .

ولو أنّه كان يكفي للتخلّص من المسائل المحيّرة أن توصف بأنّها معضلة لا حلّ لها ، لكان التفصّي منها في غاية السهولة . كلّ حيّ يطلب النموّ لجسمه ما عدا الإنسان ، فإنّه هو الّذي يختصّ من بين سائر الكائنات العضوية بطلب الارتقاء بفكره إلى ما وراء حاجاته المادّية ، فطلبه الارتقاء الفكريّ موجود فيه ، سواء سُمّي خيالاً أو غريزة دينيّة ، ولستُ أدري مطلقاً ما عسى أن يعود على العاملين على إزالته من العائدة ، بتكلّف احتقاره والزراية عليه ، ومن ذا الّذي في وسعه منهم أن ينتزعه من النفوس الشعريّة ؟ فإنّ تطلّع الإنسان إلى ما وراء حدود عقله من مقتضيات خلقته ، وليس من حقّنا أن نعتبر بعض الأمور الّتي يتطلّبها الفكر خادعة أو وهميّة لمجرّد أنّها تحيّر عقولنا ، أو تنبو عن إدراكنا ، فأمّا إن كان قصدهم تجريد ما يتصوّره العقل من منتهى غايات الكمال ، ممّا يقارن تصوّره من مروّعات الوساوس والأوهام ، والأعمال المنبعثة عن النفاق والرياء ، فبها ونعمت ، وأمّا مدركات العقل الّتي شغلت من التاريخ مكاناً كبيراً فلا ينبغي التعرّض لها ، بل لا بدّ أن يكون لها أيضاً محلّ في تربية الناشئين .

ومن هذا ترى أنّه لا يزال من حقّ الحكمة أن توجد مع العلم ، وأنّه ليبعد عليهما التنافر والتنافي ، لأنّ من شأنهما التضافر والتوافي .

إنّ كثيراً ممّن يميلون إلى محو دراسة المذاهب الدينيّة والحكميّة ، منقادون في هذا إلى حاجة طبيعيّة للانتقام وهم لا يشعرون ، فإنّهم قد رأوا الحكماء ورؤساء

الْأَدْيَانِ الْمُقَرَّرَةِ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ بَلَغُوا مِنْ تَعَاطِيهِمْ لِلْمَظَالِمِ، وَمُتَاجَرَتِهِمْ بِالسَّرَائِرِ، وَمُقَارَفَتِهِمْ لِلْفَظَائِعِ، مَبْلَغًا لَجَأَ بِالْعَقْلِ فِي اشْمِئْزَازِهِ مِنْ سِيرَتِهِمْ إِلَى الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ، فَالْقِسِّيسُونَ هُمْ دُعَاةُ الْإِلْحَادِ لَا الْمَادِّيُّونَ.

وَمِنَ اللَّغْوِ تَجْسِيمُ أَمْرِ الْإِلْحَادِ، فَإِنَّهُ ذَنْبٌ ضَعِيفٌ فِي ذَاتِهِ، يَتَزَلْزَلُ مَذْعُورًا أَمَامَ وِجْدَانِ الْإِنْسَانِ، وَإِنَّمَا الْآثَامُ الْمُبِينَةُ، وَالْجَرَائِمُ الْقَوِيَّةُ، الْحَقِيقَةُ بِأَنْ تُدَافِعَ نُورَ الْهِدَايَةِ وَالْعِرْفَانِ، هِيَ الَّتِي يَجْرَأُ أَصْحَابُهَا عِنْدَ اقْتِرَافِهَا عَلَى التَّسَتُّرِ بِرِدَاءِ الدِّينِ، نَعَمْ تِلْكَ الْآثَامُ هِيَ الَّتِي تَمْتَازُ بِذَلِكَ الْامْتِيَازِ الْهَائِلِ، وَهُوَ قَلْبُ شُؤُونِ الدُّنْيَا، وَتَشْوِيشُ أَحْوَالِهَا. فَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَحَارُ حِينَ ارْتِكَابِهَا مِنَ الْأُبَّهَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَسْرِي مِنْ عَقَائِدِ مُرْتَكِبِيهَا إِلَى مَا يَغْتَصِبُونَهُ مِنْ ضُرُوبِ السُّلْطَةِ وَالْقُوَّةِ ! تَسْمَعُ بَعْضَ النُّظَّارِ إِذَا رَاعَهُمْ تَغَلُّبُ الشَّرِّ عَلَى الْخَيْرِ، يَصِيحُونَ قَائِلِينَ : لَأَنْ لَا يَكُونَ لَنَا إِلَهٌ خَيْرٌ مِنْ وُجُودِ إِلَهٍ ظَالِمٍ (١).

وَيَعِيبُ آخَرُونَ عَلَى الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكَمِيَّةِ أَنَّهَا لَمْ تُبَيِّنْ لِلنَّاسِ بَيَانًا مُقْنِعًا، شَيْئًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنِظَامِ الْعَالَمِ، وَتَنَازُعِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالِاضْطِرَارِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَنَا أُسَلِّمُ لَهُمْ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ : إِنَّ كُلًّا مِنْهَا قَدْ سَمَا بِفِكْرِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْعُلَى، وَغَيَّرَ أَحْوَالَ الْأُمَمِ، وَهَدَى النَّاسَ إِلَى طَوَائِفِ الْفُنُونِ، وَأَحْيَى مِنَ الطُّرَفِ وَالْمُلَحِ مَا لَوْلَاهُ لَظَلَّ مَحْجُوبًا فِي مَجَاهِلِ الْعَدَمِ، وَكَمْ نَرَى مِمَّنْ يَوَدُّونَ مَحْوَ الدِّينِ

---

(١) أجدر بأمثال هؤلاء النظار أن يسموا عميا فانهم عموا عن سنن الله تعالى فى الكون وجهلوا أن الشر الذى يضجون منه إنما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن، فهم الذين جلبوه على أنفسهم «وما ربك بظلام للعبيد» «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» تعالى الله عن الظلم علوا كبيرا — المترجم.

الْمَسِيحِىَّ مِنْ تَعْلِيمِ النَّاشِئِينَ، مَنْ لَمْ يُحْسِنِ التَّفَكُّرَ فِيمَا كَانَ لِهَذَا الدِّينِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِى آدَابِ لُغَتِنَا، وَأَخْلَاقِنَا وَعَوَائِدِنَا، فَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ رُؤْيَا خَبِيثَةٌ رَآهَا النَّوْعُ الْإِنْسَانِىُّ فِى مَنَامِهِ، وَإِنَّهُ بِنَشْأَتِهِ فِى طَوْرِ التَّدَلِّى وَالْهَمَجِيَّةِ حَبَسَ رُوحَ الشُّعُوبِ فِى ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ(١)، وَكُلُّ ذَلِكَ مَحَلٌّ لِلنَّظَرِ وَالْبَحْثِ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يُقْنِعُوا وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ بِأَنَّ التَّيَّارَ الْفِكْرِىَّ الَّذِى جَاءَ بِهِ ذَلِكَ الدِّينُ فَغَيَّرَ كُلَّ مَا فِى الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُوجِبٌ لِوُجُودِهِ!

أَنَا أَدْعُوكَ إِلَى دِرَاسَةِ هَذَا الدِّينِ، الَّذِى أَنْشَأَ مَدَنِيَّتَنَا الْحَاضِرَةَ إِنْشَاءً حَسَنًا أَوْ سَيِّئًا، خِلَافًا لِلْقَائِلِينَ بِإِبْطَالِهَا، وَأَحُثُّكَ عَلَى أَنْ تَأْخُذَ فِيهَا بِالْجِدِّ وَتَرْجِعَ فِيهَا إِلَى أُصُولِهِ، لِأَنَّ مَا يَخْلُصُ إِلَيْكَ مِنْ مُطَالَعَةِ الْأَنَاجِيلِ، لَا شَبَهَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُؤْخَذُ

---

(١) ما أشنع هذه من مقالة، وأدلها على غباوة قائليها وايغالهم فى الجهالة! فليست الأديان أحلاما للانسان، بل هى حقائق أنزلها الرحمن، ليخرجه بها من ظلمات الهمجية الى نور الحضارة الحقيقية، وقد أطلقت للارواح والعقول — على خلاف ما يزعم الخراصون — عنان التفكير والبحث فى الأكوان، وجعلت جميع المخلوقات مسخرة لها و فى ذمام تصريفها، ألم يسمعوا قول الله سبحانه فى القرآن الحكيم: «قل أنظروا ما ذا فى السموات والأرض. وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» وقوله جل شأنه «ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» وقوله «ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» الى غير ذلك من الآيات الكريمة، وكفى بها برهانا على فساد عقول أولئك الجاحدين بدحض أباطيلهم و يدفع أوهامهم، وليست مقاصد الأديان إلا عمارة الأرض بالعدل ومنع العدوان بين الناس وتطهير النفوس من دنس الشرك ومن الرذائل لتسعد بالحياة الطيبة فى عاجلها ولتستعد للكرامة بجوار ربها فى آجلها، وما ذكره المؤلف من آثار الأديان ليس من مقاصدها فى شىء، بل ربما كان معارضا لهذه المقاصد ان لم تصحب العمل فيه نية الخير والبر بالناس ويجانبه النفاق والرياء — المترجم.

عَنْ رِجَالِ الدِّينِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَأَنْتَ تَرَى فِي الْأَنَاجِيلِ مَثَلاً، أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ يَأْبَى دَائِماً امْتِثَالَ أَيِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَكَانَ يَسْتَهْدِفُ لِزِرَايَةِ الْيَهُودِ عَلَيْهِ وَلَوْمِهِمْ لَهُ، بِمُخَالَفَتِهِ لَهُمْ كُلَّ وَقْتٍ فِي السَّبْتِ، وَالصَّوْمِ، وَغَسْلِ الْيَدَيْنِ قَبْلَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ، وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ يَهْتَزُّ لِسَمَاعِ بَعْضِ الْمَوَاعِظِ الْأَنْجِيلِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِبِدْعٍ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ إِنَّمَا جَاءَ لِيُعْلِنَ لِلنَّاسِ شَرَفَ صِغَارِهِمْ، وَسُمُوَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْهُمْ، وَوُجُوبَ تَكْرِيمِ الطِّفْلِ، وَالْحُنُوَّ عَلَى الْمَرْأَةِ الْخَاطِئَةِ، وَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي غَيْرِ كِتَابِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَجِدُهُ فِيهِ مِنَ الْمَيْلِ الْعَاطِفِ إِلَى كُلِّ مَكْرُوبٍ، وَالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مُهَانٍ وَمُحْتَقَرٍ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْ ضُرُوبِ الْحِرْمَانِ لِلْمُتَكَبِّرِينَ الْمُسْتَأْثِرِينَ، الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْعُلُوَّ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَقَدْ كَانَ لِحُبِّهِ لِلْفُقَرَاءِ، وَلِكَوْنِهِ نَفْسِهِ فَقِيراً، يَتَتَبَّعُ الْأَغْنِيَاءَ عَلَى الدَّوَامِ دُونَ غَيْرِهِمْ بِنُذُرِهِ وَأَمْثَالِهِ الرَّائِعَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تَمَكُّنَ النَّصْرَانِيَّةِ ـ مَعَ مِثْلِ هَذَا الْأَدَبِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ ـ مِنْ تَقْوِيَةِ امْتِيَازِ الدَّرَجَاتِ فِي الْأُمَمِ الْحَالِيَّةِ، وَتَأْيِيدِ مَزَايَا الْأَنْسَابِ وَفَرْطِ التَّغَايُرِ فِي الْغِنَى ـ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِبُلُوغِ رِجَالِهَا فِي الْمَكْرِ حَدَّ الْإِعْجَازِ، فَتِلْكَ الْأُمَمُ الَّتِي تُسَمِّي نَفْسَهَا مَسِيحِيَّةً وَتَعْتَقِدُ أَنَّهَا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ، لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهَا قَطُّ.

إِعْلَمْ أَنَّ مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ فِي وَقْتٍ مَا مِنْ أَوْقَاتِ وُجُودِهِ لَا تُعَدُّ مَعْرِفَةً، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ إِذَا عُرِفَ أَصْلُهُ وَتَارِيخُهُ وَمَصِيرُهُ، وَقَدْ نَتَجَ مِنِ اتِّبَاعِ الْبَحْثِ فِي الْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ، عُلُومٌ كُلُّهَا جَدِيدَةٌ، كَعِلْمِ تَكَوُّنِ الْأَرْضِ، وَعِلْمِ الْأَجِنَّةِ،

فَطُرُقُ الْبَحْثِ هَذِهِ، هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَيْكَ تَطْبِيقُهَا عَلَى دِرَاسَةِ الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ، وَلَيْس عَلَيَّ أَنْ أَتعرَّضَ بِالتَّصْوِيبِ أَوْ التَّخْطِئَةِ لِلنَّتَائِجِ الَّتِي يُؤَدِّيكَ إِلَيْهَا بَحْثُكَ، إِذَا حَسُنَتْ فِيهِ نِيَّتُكَ وَصَحَّتْ عَزِيمَتُكَ، وَغَايَةُ مَا أَبْتَغِيهِ مِنْكَ أَلَّا تَقْبَلَ مِنَ الْأُصُولِ عَلَى أَنَّهُ صَحِيحٌ إِلَّا مَا تَكُونُ قَدْ عَرَفْتَ الْحَقَّ فِيهِ بِنَفْسِكَ.

أَقُولُ ذَلِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَمْرًا عَظِيمًا، وَلَكِنْ مَا حِيلَتِي وَلَا وَسِيلَةَ غَيْرُهُ لِتَنْوِيرِ عَقْلِكَ وَهِدَايَتِكَ، نَعَمْ إِنَّ فِي الدُّنْيَا كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الثِّقَاتِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ، قَدْ عُهِدَ إِلَيْهِمْ تَحْدِيدُ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، فِي الدِّينِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالْأَخْلَاقِ، فَهُمْ يَعْرِفُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ نِصْفَ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنَ النَّاشِئِينَ يَعْتَادُونَ أَنْ يُفَكِّرُوا بِمُخَاخِ بَعْضِ أَفْرَادٍ مِنَ النَّاسِ — إِنْ صَحَّ لِي التَّعْبِيرُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ — عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ أَمْرًا لَنْ تَتَعَلَّمَهُ قَطْعًا فِي مَدْرَسَتِهِمْ، أَلَا وَهُوَ عِلْمُ الْحُرِّيَّةِ، فَإِذَا كُنْتَ تَطْلُبُ الْحُرِّيَّةَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ الْحَقَّ فِي نَفْسِكَ، مُسْتَعِينًا فِي طَلَبِهِ بِجَمِيعِ مَا لَدَيْكَ مِنْ عُدَدِ الِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ، وَإِنَّكَ سَيَحْصُلُ لَكَ غَيْرَ مَرَّةٍ، مَعَ احْتِرَاسِكَ وَتَيَقُّظِكَ، أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ آرَاءَ غَيْرِكَ هِيَ آرَاؤُكَ، وَتُخْطِئَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ أَغَالِيطَكَ، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنَّ قُوتَ الْعَقْلِ كَقُوتِ الْجِسْمِ، لَا يُكْسَبُ إِلَّا بِعَرَقِ الْجَبِينِ، وَأَنَّ مَنْ أَخْلَصَ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْهُدَى فَقَدْ أَظْهَرَ بِهَذَا الْبَحْثِ نَفْسِهِ أَنَّهُ جَدِيرٌ بِالِاهْتِدَاءِ.

وَفِي خِتَامِ مَكْتُوبِي أَقُولُ لَكَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي : إِنِّي وَلِيُّكَ الْحَمِيمُ (١) اهـ .

---

(١) غلب وهم إراسم فى هذه الرسالة صوابه ، وغمر فيها باطله حقه ، وتجلى فيها فرط غروره بالعلم ، ومبالغتــه فى الاعتماد على الوجدان ، وسوء إدراكه لمقاصــد الدين ، ذلك أنه زعم أن العلم يشتغل الآن باســتئناف عمل الديانات بطرق أخرى يؤمل بها أن يصل الى حق اليقين ، وهو وهم لأن أساس الدين الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود متصــف بجميع صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص ، خلق جميع الأكوان وفطرها على أبدع نظام ، وأوحى فى كل كون منها أمره ، ودبر شؤونه بحكمتــه ، وصرف أموره بقدرته ، وأرسل الى عباده رسلا منهم ، إجتباهم من أكملهم فطرة وأقومهم سيرة ، وأكرمهم خلقا ، وأوحى اليهم شرائع يبلغونهم إياها ، تتضمن ما يجب عليهم لخالقهم من التنزيه والتقديس والعبادة الصحيحة والشكر ، وما يجب على كل منهم لنفسه ولنظرائه من الخلق ، لتتم باتباعها السعادة فى العاجل والآجل ، وليست معرفة الوحى من متناول العلم ولا هى مما تجرى فيه تجاربه وبحثه حتى يصل فيه الى حق اليقين ، والله أكبر وأعظم من أن يتناوله الخراصون بأبحاثهم العقيمة وتجاربهم القاصرة ، ولعمرى إنه لا هداية إلا هداية الله التى جاءتنا على ألسنة رسله فليقنع بها العقل وليشكر ربه عليها فان عاقبة الكفران الخسران . وزعم إراسم أن المذاهب الدينية لم تبين للناس بيانا مقنعا ، شيئا من المسائل المتعلقة بنظام العالم ، وتنازع الخير والشر ، والاضطرار والاختيار ، وهو واهم فى ذلك أيضا ، لأن القرآن الكريم مشحون بهذا البيان ، ومن استراب فى ذلك فليقرأ متدبرا قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وقوله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) . وليتدبر قوله جل شأنه فى الانسان (ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . «أى طريق الخير والشر») . وقوله جلت قدرته فى الانسان أيضا (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . وقوله : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما) وقوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . وقد بين علماء الاسلام هذه الموضوعات بيانا شافيا فليرجع إليه من شاء فى مظانه من كتبهم . — ثم انه من السخف أو المغالطة ، تهوينه أمر الالحاد وقوله أنه ذنب ضعيف فى ذاته يتزلزل مذعورا أمام وجدان الانسان ، ولا شك أن من المباهتة التى تقع منه ومن أضرابه لخصومهم ، رميه رجال الدين بأنهم أهل الآثام المبينة والجرائم القوية التى يقترفونها تحت ستار الدين ، وليقل لى بربه إن كان مؤمنا أى هداية ترتجى لمن ران الالحاد على قلبه ، وأى وجدان يهديه بعد أن عميت بصيرته ؟ — وما أشنع قوله فيما يقوله الملحدون فى الدين ، من أنه رؤيا خبيثة رآها النوع الانسانى فى منامه ، " انه محل للنظر والبحث " ، فان القائل بذلك مستريب فى دينه وهو على غير بينة منه .

الرسالة السابعة

مِنْ « إميل » إلى أمه

عَنْ مَدِينَةِ بن فى ٢٨ سبتمبر سنة — ١٨٦

« فِي ابْتِدَاءِ الْعِشْقِ وَغُرُورِ الشَّابِّ الْغِرِّ بِالْمَعْشُوقَةِ »

لَقَدْ كَانَ قَوْلُكِ حَقًّا أَيَّتُهَا الْوَالِدَةُ الْعَزِيزَةُ، فَإِنِّي قَدْ خَدَعْتُ نَفْسِي، وَلَا حَقَّ لِي فِي الشَّكْوَى بِحَالٍ مِمَّنْ كُنْتُ أُحِبُّهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنِ الْتَزَمَتْ لِي شَيْئًا، وَلَا وَعَدَتْنِي الصِّدْقَ فِي حُبِّي، بَلْ هِيَ، بِمَا كَانَتْ مَغْمُورَةً فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ التَّبْجِيلِ وَالتَّكْرِيمِ، تَفَضَّلَتْ فَقَبِلَتْ مِنِّي اعْتِبَاطًا صُنُوفَ إِجْلَالِي وَدَلَائِلَ إِعْظَامِي، وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْهَا لِي تَشْرِيفًا كَبِيرًا، وَأَظُنُّ أَنَّ مِنْ كُفْرَانِ نِعْمَتِهَا أَنْ أَتَّهِمَهَا بِخِيَانَتِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَنْبِهَا أَنْ كُنْتُ جَادًّا فِيمَا لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِ غَيْرِي إِلَّا هَازِلًا .

غَيْرَ أَنِّي إِنْ قُلْتُ لَكِ إِنِّي كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي أَمْرِهَا دَائِمًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ كُنْتُ كَاذِبًا، فَإِنَّ الصَّدْمَةَ الَّتِي هَدَمَتْ صَرْحَ غُرُورِي بِهَا، تَلَتْهَا سَاعَةُ دَهَشٍ وَذُهُولٍ، خُيِّلَ إِلَيَّ فِيهَا أَنَّ السَّمَاءَ خَرَّتْ عَلَى رَأْسِي، وَصِرْتُ كَأَنِّي فِي حَيِّزِ الْفَنَاءِ . قَدْ تَقُولِينَ لِي : إِنَّكَ لَسْتَ أَوَّلَ مَنْ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ الضُّرُوبِ مِنِ انْكِشَافِ الْأَبَاطِيلِ وَزَوَالِ الْأَوْهَامِ، وَهُوَ قَوْلٌ لَا رَيْبَ عِنْدِي فِي صِحَّتِهِ، غَيْرَ أَنَّ مَا يَنْتَابُ الْإِنْسَانَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ، يُخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، فَكُنْتُ أُسَائِلُ نَفْسِي هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ فِي الْبَرِيَّةِ مَنْ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا فِي الْخِيَانَةِ؟ أَوَ لَيْسَ الْحُسْنُ إِلَّا نِقَابًا لِلنِّفَاقِ ؟ وَأَقُولُ إِنَّهَا لَشَدَّ مَا سَخِرَتْ مِنِّي لِسَلَامَةِ نِيَّتِي وَسُرْعَةِ تَصْدِيقِي ... وَأُحِسُّ بِقُشَعْرِيرَةِ الْغَيْرَةِ تَدِبُّ فِي جِسْمِي حَتَّى تَبْلُغَ نُخَاعَ عِظَامِي .

وَأَوَّلَ يَوْمٍ قَامَتْ بِنَفْسِي فِيهِ الرِّيَبُ مِنْ صِدْقِهَا ، فَرَرْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ هَائِمًا على وَجْهِي كَالْمَجْنُونِ ، أَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ ، وَقَدْ تَعَاقَبَتْ عَلَى بَصَرِي فِي مَسِيرِي مَشَاهِدُ جَمَّةٌ مِنْ سَنَابِلِ الْحِنْطَةِ الْمُدْرِكَةِ ، وَالْقَنَابِرِ الْمُغَرِّدَةِ ، وَمَا فِي الْهَوَاءِ مِنَ الرَّوْحِ الْخَافِقِ وَجْدًا وَحُبًّا ؟ وَالْمَزَارِعِ وَالطَّوَاحِينِ الَّتِي تَنْكَشِفُ لِلرَّائِي ، فِي أَمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْ خِلَالِ حُجُبِ الْأَشْجَارِ ، وَقَدْ مَزَّقَتْهَا يَدُ الرِّيحِ ، وَخَرِيرِ الْمَاءِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ يَنَابِيعِهِ الْمُنْسَحِبَةِ تَحْتَ الْخُضْرَةِ ، وَالدِّيَكَةِ الْمُغْتَبِطَةِ الْمُتَغَطْرِسَةِ وَاقِفَةً عَلَى الدِّمَنِ وَرَافِعَةً عَقِيرَتَهَا (١) بِزُقَائِهَا (٢) النَّفَّاذِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ، وَأَسْرَابِ الْعَصَافِيرِ ثَائِرَةً مُتَعَاقِبَةً فِي الْجَوِّ مُتَنَاقِرَةً ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَاظِرِ الَّتِي لَوْلَا هَذِهِ الْأَحْوَالُ لَهَزَّتْ نَفْسِي وَشَرَحَتْ صَدْرِي ، فَلَمْ تَلْفِتْنِي عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ فِي ذِهْنِي وَهِيَ أَنَّهَا تَغُشُّنِي .

لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ اللَّيْلُ قَدْ جَنَّ ، فَلَمَحْتُ شَبَحًا مُبْهَمًا يَسْرِي وَجُدْرَانَ الْبُيُوتِ كَأَنَّهُ ظِلٌّ ، فَلَمَّا بَلَغَ مُنْعَطَفَ الشَّارِعِ سَقَطَ عَلَيْهِ سَاطِعُ نُورِ الْغَازِ الْمُنْعَكِسِ ، فَأَرَانِي أَنَّهُ فَتَاةٌ شَاحِبَةُ اللَّوْنِ رَثَّةُ الثِّيَابِ ، تَحْمِلُ طِفْلًا عَلَى يَدَيْهَا ، وَلَسْتُ أَدْرِي تَمَامَ الدِّرَايَةِ لِمَاذَا خَطَرَ بِفِكْرِي لِرُؤْيَتِهَا أَنَّهَا خُدِعَتْ ثُمَّ هُجِرَتْ ، وَسَأَلْتُ نَفْسِي سُؤَالَ مُحْنَقٍ (٣) هَلْ تَنْقَسِمُ النِّسَاءُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ ، طَائِفَةٍ خَادِعَةٍ وَطَائِفَةٍ مَخْدُوعَةٍ ؟ تَأَثَّرْتُ (٤) هَذِهِ الْفَتَاةَ بَعْضًا مِنَ الزَّمَنِ ، يَجْذِبُنِي إِلَيْهَا نَوْعٌ مِنَ الْعَطْفِ لَا أَعْرِفُ سِرَّهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، فَلَمَّا كَانَتْ تَمُرُّ عَلَى نُورِ مِصْبَاحٍ كُنْتُ إِخَالُنِي أَقْرَأُ فِي وَجْهِهَا خَاطِرَ

---

(١) عقيرتها : صوتها . (٢) الزقاء : صياح الديكة .

(٣) محنق : مغتاظ . (٤) تأثرت : تتبعت .

الانتحار، وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث إني كنت أود لو أجد السبيل إلى عمل من أعمال البر، وما عتمت الفتاة أن دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة، ينتهي إلى فناء تكتنفه أطلال[1] دارسة، وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق، فرفعت الغطاء بإحدى يديها العاريتين واتكأت بمرفقيها على فم البئر، وأرسلت بصرها في غيابتها[2] وعليها سمة القنوط، وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب، فألقى نوره الأغثر[3] على بلاط الفناء المتوحل، وكنت إذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بإمعان، لأني لم يكن بقي عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار، وكنت أقول في نفسي أقل ما في الأمر أني ها هنا لأمنعها منه، وما كنت أجسر حتى هذه الساعة أن أظهر لها، خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الساعة غضاضة وذلة، فبعد أن تروت هنيهة كان جبينها الكئيب في أثنائها مسرح الانفعال والإضطراب، نظرت إلى ولدها، وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها، ثم هرولت داخلة أحد الأكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها.

هذا كل ما علمته، ويحتمل أن يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي، وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير، إذا فرض أن من الخير تنجية نفس من الموت، كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت إلى الكفر به ولعنه.

---

(١) اطلال جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار المتهدمة.

(٢) غيابتها: قعرها.

(٣) الأغثر: ما لونه كالأغبش التي تخالطه حمرة.

كَأَنِّى بِكِ تَسْأَلِينِي : كَيْفَ ظَهَرَ لَكَ أَنَّكَ كُنْتَ أُلْعُوبَةً لِهَوَى امْرَأَةٍ طَائِشَةٍ أَجِيرَةٍ ؟ فَأَسْتَأْذِنُكِ فِي تَنْزِيهِكِ عَنْ سَمَاعِ تَفَاصِيلِ هَذَا الْأَمْرِ ، لِأَنَّهَا لَا تَلِيقُ بِكِ ، وَيَكْفِينِي فِي ذَلِكَ أَنْ أُخْبِرَكِ بِأَنَّهَا كَانَتْ تُحَرِّضُ طَالِبِينَ أَوْ ثَلَاثَةً غَيْرِي عَلَى التَّقَرُّبِ مِنْهَا ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بِقَبُولِ مَسَاعِيهِمْ ، وَهَذَا يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ أَمِيرٍ وِرْتِمْبُورْغِيٍّ (١) يُقَالُ إِنَّهَا تُحِبُّهُ لِمَالِهِ ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبْصَرَ أَحَدٌ فِي حَيَاتِهِ نَظِيرَةً لِتِلْكَ الْمَرْأَةِ ؟

لَمْ يَكُنْ هَمْلِيتُ (٢) مِثْلِي فِي سُوءِ الْحَظِّ لَمَّا كَانَ يَقُولُ لِمَعْشُوقَتِهِ "أُوفِيلْيَا" « أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ اسْمُكِ الْخَوَرُ » فَإِنَّ اسْمَ صَاحِبَتِي هُوَ الْكَذِبُ وَالْمَكْرُ وَالْغِشُّ . هَذَا هُوَ التِّمْثَالُ الَّذِي بَخَّرْتُهُ بِبُخُورِ أَمَانِيَّ ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَيْنَ الْإِلَهَاتِ الْعَفِيفَاتِ مَكَانًا ، وَكُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ دَنَتْ مِنِّي الْكَوَاكِبُ فَانْتَزَعْتُهَا مِنْ نِظَامِهَا وَنَظَمْتُ لَهُ مِنْهَا إِكْلِيلًا ، عَلَى أَنَّ لِي أَمْرًا يُسَلِّينِي ، وَهُوَ أَنِّي لَمْ أُدَنِّسِ الْحُبَّ فِي حَالِ جُنُونِي بِهِ .

فَاعْلَمِي يَا أُمَّاهُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ مِنْ حَقِّي أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكِ غَيْرَ خَجِلٍ ، لِأَنَّ خَطِيئَتِي إِنَّمَا كَانَتْ سُوءَ حُكْمٍ ، لَا ارْتِكَابًا لِشَيْءٍ مِنَ الْفُجُورِ (٣) ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُقَلِّلُ مِنِ اسْتِمَاحَتِي لِعَفْوِكِ ، فَاغْفِرِي لِوَلَدِكِ هَفْوَتَهُ حَتَّى يُمْكِنَهُ أَنْ يَغْفِرَهَا لِنَفْسِهِ . اهـ

---

(١) ورتمبورغى نسبة إلى ورتمبورغ احدى ولايات ألمانية .

(٢) . همليت هو أمير جوتلاند الذى تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذى قتله أخوه بالسم وقد مر ذكره وهو الذى كتب عنه شكسبير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدانيمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفسا وعاصمتها فيبورغ .

(٣) الفجور : الانبعاث فى المعاصى والزنى والفسق — نعم هذا الخلق الذى يمكن الشاب من ضبط نفسه والتغلب على هواه وعدم استسلامه لنزواته ويحبب إليه التزام الفضيلة والتجافى عن مزالق الرذيلة — المترجم .

الرسالة الثامنة

مِنْ هيلانة إلى «إميل»

عَنْ لُونْدُرَة فِي ١٠ أكتوبر سنة — ١٨٦

«غُرُورُ الشَّابِّ فِي الْحُبِّ وَبيَانُ حقيقته»

إعْلَمْ يَا وَلَدِيَ الْعَزِيزَ أَنَّ مَا نَقَعُ فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْغَيِّ هُوَ الَّذِي يَهْدِينَا سَبِيلَ الرُّشْدِ، وَأَنَّ مَا نَقْتَرِفُهُ مِنَ الذُّنُوبِ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُنَا — إِذَا تَأَلَّمَتْ مِنْهُ ضَمَائِرُنَا — بِأَنَّ لَنَا فِي نُفُوسِنَا قَانُونًا زَاجِرًا، وَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي رَأْيِي هِيَ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ كِلَيْهِمَا لِنَتَعَلَّمَ.

لَمْ تُدْهِشْنِي نِهَايَةُ قِصَّتِكَ، وَسَأَتَحَامَى كُلَّ التَّحَامِي أَنْ أَعِيبَ سِيرَتَكَ فِيهَا، لِأَنَّكَ قَدْ عِبْتَهَا بِنَفْسِكَ، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا كَانَ فِي وُسْعِي تَأْدِيَتُهُ إِلَيْكَ مِنَ النَّصَائِحِ قَبْلَ خِتَامِهَا الْمُحْزِنِ لِيُسَاوِيَ مَا وَعَظَتْكَ بِهِ تَجْرِبَتُكَ الذَّاتِيَّةُ. إِنَّ فِي أُمُورِ الْكَوْنِ لَعَدْلًا، وَإِنَّ الدَّهْرَ لَيَضْطَرُّهَا إِلَى أَنْ تَظْهَرَ لِلنَّاسِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَإِنْ كَانَ يَلَذُّ لِمُخَيِّلَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ تُزَيِّنَهَا بِالْأَلْوَانِ الْمُمَوَّهَةِ وَتُغَشِّيَهَا بِالْأَسْتَارِ الْحَاجِبَةِ، وَبِهَذَا كَانَ الدَّهْرُ أُسْتَاذَنَا جَمِيعًا.

عَلَى أَنِّي إِنْ لَمْ أُقِرَّ لَكَ بِأَنَّ مَكْتُوبَكَ الْأَوَّلَ سَبَّبَ لِي أَشَدَّ ضُرُوبِ الْقَلَقِ وَالْحَيْرَةِ، كُنْتُ قَدْ كَتَمْتُكَ بَعْضَ الْحَقِّ، نَعَمْ قَدْ كَانَ لِي مِنَ الثِّقَةِ بِطِيبِ عُنْصُرِكَ، وَبِمَا أَعْرِفُهُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الشَّرَفِ، مَا يَكْفِينِي لِلاطْمِئْنَانِ بِأَنَّكَ لَا تَسْتَفِلُ لِارْتِكَابِ دَنِيئَةٍ مَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ السِّنِّ خِدَعَ الْقَلْبِ، وَجَمَحَاتِ

الْعُجْبِ الْمَفْتُونِ، وَأَمَانِيِّ الْبَسَالَةِ الْخَادِعَةِ ، فَمِمَّا يُوجِبُ الْأَسَفَ أَنَّ أَصْدَقَ النَّاسِ فِي الْحُبِّ، وَأَخْلَصَهُمْ لَهُ ، هُمْ كَذَلِكَ أَشَدُّهُمْ تَعَرُّضًا لِمَخَاطِرِ دَسَائِسِهِ ، وَأَمَّا الشُّبَّانُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ قُدْوَةً لَهُمْ فِي سِيرَتِهِمْ، فَإِنَّ قُلُوبَهُمُ الْجَامِدَةَ لَا تَخْدَعُ بِكَذِبِ الظَّوَاهِرِ ، وَهُمُ الَّذِينَ جُعِلَتْ لَهُمُ الْمَحَبَّاتُ الْمُهَيِّجَةُ ، كَمَا جُعِلَتِ الْخُمُورُ الْمُتَبَّلَةُ لِلسِّكِّيرِينَ .

تَرَاهُمْ يَبْذُلُونَ مِنَ الْهِمَّةِ وَالنَّشَاطِ فِي تَحْصِيلِ الْغِبْطَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا فِي أَسْوَإِ عَيْشٍ وَأَنْكَدِهِ، هَؤُلَاءِ الْجَوَّالُونَ فِي مَيْدَانِ الْغَرَامِ، الْمُتَعَاطُونَ لِدَسَائِسِهِ، قَدِ اعْتَاضُوا عَنِ الْحُبِّ بِظِلِّهِ (أَعْنِي الظَّرْفَ وَالْكِيَاسَةَ فِي مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ) وَإِنَّ خِسَّةَ عَوَاطِفِهِمْ لَتَدُلُّ عَلَى خُلُوِّهِمْ مِنَ الْإِدْرَاكِ ، وَهُمْ شَبِيهُونَ عِنْدِي بِأَشْجَارِ الصَّفْصَافِ الْجَوْفَاءِ الَّتِي تُصَادَفُ عَلَى حَافَّةِ السَّوَاقِي (الْأَنْهَارِ الصَّغِيرَةِ) فِي أَنَّهَا لِتَعَفُّنِ قُلُوبِهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا حَيَاةٌ إِلَّا فِي قُشُورِهَا .

الْأُمَمُ الَّتِي لَا تُجِلُّ رِجَالُهَا نِسَاءَهَا، وَلَا نِسَاؤُهَا أَنْفُسَهُنَّ، غَيْرُ جَدِيرَةٍ بِالْحُرِّيَّةِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ جَمِيعَ عُصُورِ الِاسْتِعْبَادِ وَانْحِطَاطِ النُّفُوسِ، كَانَتْ هِيَ عُصُورَ فَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَالِانْهِمَاكِ فِي الرَّذَائِلِ، فَإِذَا زَالَتْ هَيْبَةُ الدِّينِ مِنَ النُّفُوسِ، وَانْعَدَمَ إِحْسَاسُ النَّاسِ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُرُوضِ الْكُبْرَى، رَأَيْتَ النَّاشِئِينَ إِذَا أَعْوَزَهُمْ مَا يُضَيِّعُونَ فِيهِ أَوْقَاتَهُمْ، يَتَصَيَّدُونَ الْمَلَاذَّ السَّهْلَةَ، فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ هَذِهِ الرَّدَغَةِ (١) فَلَا مَقَرَّ لَكَ فِيهَا .

---

(١) الردغة : الماء والطين والوحل الشديد .

إنى رُبَّمَا كُنْتُ أَعْرَفَ مِنْكَ بِنفسِكَ، لِأَنَّهُ يَتَّفِقُ كَثِيرًا لِمَنْ هُمْ فِى سِنِّكَ أَنْ يَضِلُّوا، فَيَشْطُّوا فِى طَلَبِ مِثَالٍ مِنَ الْوَاقِعِ لِمَا يَتَخَيَّلُونَهُ مِنْ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِيمَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوهَا مَنَاطًا لِحُبِّهِمْ، وَهُوَ قَرِيبُ الْمَنَالِ مِنْهُمْ، حَاضِرٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. أَرَى أَنَّكَ فَوْقَ حَنَقِكَ عَلَى مَنْ غَرَّتْكَ، نَادِمٌ عَلَى أَنْ كُنْتَ غَيْرَ صَادِقٍ فِى مَحَبَّتِكَ، فَتَأَمَّلْ فِى بَاطِنِ مَا تَحْفَظُهُ ذَاكِرَتُكَ، تَجِدْنِى قَدْ أَصَبْتُ الْمَرْمَى فِيمَا أَقُولُ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَاتٍ مِنْ أَتْرَابِكَ تُفَكِّرُ فِيهَا، وَلَا تَتَكَلَّمُ فِى شَأْنِهَا، وَتَذْكُرُ مَلَامِحَ وَجْهِهَا، وَابْتِسَامَهَا وَنَبَرَاتِ صَوْتِهَا، وَكُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، حَتَّى ثَنِيَّاتِ حُلَّتِهَا تَمَامَ الذِّكْرِ، وَإِنَّ مِثَالَهَا الطَّاهِرَ لَيَسْرِى سَرَيَانَ الشُّعَاعِ فَوْقَ كِتَابِكَ، إِذَا فَتَحْتَهُ لِتَقْرَأَ فِيهِ مَا صَنَّفَهُ الشُّعَرَاءُ، وَأَنْتَ تَوَدُّ لَوْ تُشَاهِدُ مَعَهَا كُلَّ مَا فِى الْكَوْنِ مِنَ الْجَمَالِ، وَتَسْمَعُ جَمِيعَ مَا لِلْبَرِيَّةِ مِنَ الْأَغَارِيدِ، وَهِىَ الَّتِى يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا مَا تَتَخَيَّلُهُ مِنْ مَعْنَى الْفَضِيلَةِ، وَتَوَدُّ مِنْ أَجْلِهَا لَوْ تَكُونُ أَفْضَلَ الْفُضَلَاءِ، فَتِلْكَ الذَّاتُ هِىَ الَّتِى تُحِبُّهَا، فَإِنْ لَمْ تَأْنَسْ مِنْ نَفْسِكَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، لَمْ تَكُنْ حَتَّى الْآنَ إِلَّا طِفْلًا، وَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْتَقِدَ فِى نَفْسِكَ أَنَّكَ مُحِبٌّ. فَالْحُبُّ الْحَقِيقِىُّ هُوَ الَّذِى يَرْفَعُ النَّفْسَ وَيَبْعَثُ عَلَى طَلَبِ الْخَيْرِ، وَعَلَى أَنْ يَقْتَضِىَ الْمُحِبُّ مِنْ نَفْسِهِ لِمَحْبُوبِهِ كُلَّ مَا يَقْتَضِيهِ لِنَفْسِهِ مِنْهُ، لِأَنَّ الْحُبَّ هُوَ إِنْصَافُ الْقَلْبِ.

فَإِذَا تَرَبَّصْتَ حَتَّى يَحْصُلَ فِى نَفْسِكَ هَذَا الْوِجْدَانُ الطَّاهِرُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُدَنِّسَ اسْمَهُ بِإِجْرَائِهِ عَلَى لِسَانِكَ قَبْلَ حُصُولِهِ، وَإِلَّا نَدِمْتَ فِيمَا بَعْدُ أَنْ لَوَّثْتَ شَفَتَيْكَ بِالْكَذِبِ.

وَلِلشُّبَّانِ خَطَأٌ آخَرُ فِي الْحُبِّ، وَهُوَ تَوَهُّمُهُمْ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بِدَسَائِسَ وَوَقَائِعَ كَالَّتِي تُرْوَى فِي الْقِصَصِ، ازْدَادَتْ لَذَّتُهُ وَكَثُرَ الابْتِهَاجُ بِهِ، فَلَيْسَ الأَمْرُ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ. لِأَنَّ فِي الْحُبِّ مِنَ الْعَظَمَةِ الذَّاتِيَّةِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ زَخَارِفِ الْخَيَالِ، فَالْفَلَّاحُ الْبَارُّ إِذَا رَاحَ إِلَى بَيْتِهِ مَسَاءً، بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ عَمَلِهِ، وَجَلَسَ لِتَنَاوُلِ مَرَقَتِهِ وَأَخَذَ يَلْحَظُ زَوْجَتَهُ وَهِيَ تَغْزِلُ أَوْ تَخِيطُ بِجَانِبِ الْمُصْطَلَى(١)، ثُمَّ يَمْسَحُ رُؤُسَ أَوْلَادِهِ غِلَاظِ الْوَجَنَاتِ مُنَادِيًا كُلًّا مِنْهُمْ بِاسْمِهِ، وَيَذْكُرُ فِي نَفْسِهِ زَمَنَ تَرَقُّبِهِ لِزَوْجَتِهِ «جَنَّة» يَوْمَ الأَحَدِ، فِي ظِلِّ شَجَرَةِ الدَّرْدَارِ الْكُبْرَى فِي الْمَزْرَعَةِ، وَيَرَاهَا لَا تَزَالُ غَضَّةَ الْحُسْنِ، مَوْفُورَةَ الشَّبَابِ — كَانَ أَبْهَجَ خَيَالًا أَضْعَافًا كَثِيرَةً مِنْ حَظِيِّ(٢) الآلِهَةِ مِنَ الآلِهَاتِ الْحُبِّ الْجَدِيدَةِ.

الشَّبَابُ هُوَ سِنُّ الأَمَانِي وَالأَحْلَامِ، وَطَوْرُ الْخَيَالَاتِ وَالأَوْهَامِ، ثُمَّ إِنَّ كَثْرَةَ الْمُطَالَعَةِ لَا ثَمَرَةَ لَهَا فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ إِلَّا إِفْسَادُ حُكْمِ الْقَلْبِ، عَلَى أَنَّ الْحُبَّ فِي غَايَةِ الْغِنَى عَنِ الْقِصَصِ الْخُرَافِيَّةِ، لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ تَارِيخِ لِأَصَحِّ مَا فِي فِطْرَتِنَا مِنْ ضُرُوبِ الْوِجْدَانِ وَأَشَدِّهَا اسْتِقْلَالًا. فَوَيْلٌ لِمَنْ لَا يَعْشَقُ وَيَتَوَلَّهُ إِلَّا فِي الْحُلْمِ، لِأَنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْكَشِفَ وَهْمُهُ إِذَا حَانَ وَقْتُ انْتِبَاهِهِ.

يَجِبُ عَلَيْكَ قَبْلَ اهْتِمَامِكَ بِاخْتِيَارِ امْرَأَةٍ تُحِبُّهَا، أَنْ تُوجِدَ لِنَفْسِكَ بَيْنَ النَّاسِ مَقَامًا، فَإِنَّ كُلَّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَرَفْعِ شَأْنِكَ فِي نَظَرِ نَفْسِكَ، وَمُغَالَبَةِ مَا لِلأَثَرَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَيْلِ الأَعْمَى، وَبُلُوغِ مَا لِلإِنْسَانِ مِنَ الشَّرَفِ، يُفِيدُ الْمَرْأَةَ

(١) المصطلى : محل الاصطلاء والاستدفاء بالنار.
(٢) الحظى المحبوب المرفوع المنزلة.

الَّتِي سَتُحِبُّهَا كَمَا يُفِيدُكَ ، وَكُنْ وَاثِقًا بِأَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ مِنْكَ فِي حَقِّهَا كَثِيرًا ، إِذَا كَانَ يُهِمُّكَ أَنْ تَكُونَ أَهْلًا لِإِجْلَالِهَا لَكَ ، حِفْظًا لِشَرَفِكَ وَصَوْنًا لِعِرْضِكَ .

حَاشِيَةٌ : فَاتَنِي أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنَّ « لُولَا » تَتَعَلَّمُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقْبَلَهَا جَمْعِيَّةُ الطَّبِيبَاتِ بِلُونْدُرَةَ فِي عِدَادِهِنَّ وَكُلُّنَا نُحِبُّكَ (١) اهـ

الرسالة التاسعة

مِنْ « إِمِيلَ » إِلَى أَبِيهِ

عن هَيْدِلْبِرغ فى ١٨ يناير سنة — ١٨٦

«أَلْإِسْتِقْلَالُ فِي الْعِلْمِ — حِكْمَةُ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَالْاِجْتِمَاعِ وَالْمَدَنِيَّةِ»

«الِاعْتِمَادُ عَلَى الْعَقْلِ دُونَ الْخَطَابَةِ — حُبُّ الْوَطَنِ»

غَادَرْتُ مَدِينَةَ «بُنْ» وَنَقَلْتُ كُتُبِي — وَهِيَ كُلُّ مَا أَمْلِكُهُ تَقْرِيبًا — إِلَى مَدِينَةِ «هَيْدِلْبِرغ» . وَمِنْ نِظَامِ الْمَدَارِسِ الْجَامِعَةِ فِي أَلْمَانِيَةَ أَنَّهُ يَجُوزُ لِطَلَبَتِهَا مُطْلَقًا أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ إِحْدَاهَا إِلَى الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ ضَيَاعٌ لِحُقُوقِهِمْ فِيمَا نَالُوهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا التَّنَقُّلَ يُمَكِّنُ الطَّلَبَةَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ إِلَى دَرْسِ أَنْبَغِ الْأَسَاتِذَةِ وَأَشْهَرِهِمْ فِي كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْعُلُومِ الْبَشَرِيَّةِ .

---

(١) لقد أصابت هيلانة الحق ونطقت بالحكمة فى بيانها البليغ لمعنى الحب الطاهر ، وبلغت غاية التلطف فى دلالة ولدها على من هى جديرة بحبه ، وهى تربه «لولا» التى تتلمذت معه بلبان الفضيلة وتربت مثله فى كنف ذينك الزوجين الحكيمين تربية جمعتهما أو اعمرها فامتزجت روحها بروحه وتناسبا طبعا وشيمة فصار كل منهما خليقا بحب صاحبه . المترجم .

إخالني تعلمت كثيرًا من دروس هؤلاء الأساتذة المفيدة، ولكني كل يوم أتبين أن تعليم المدارس بجملته لا يمكن أن يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي، الذي يجري فيه على ما ترشده إليه سريرته.

أرى مذهبين يتنازعان عقول البشر، أعثر عليهما أينما وجهت فكري، فأجدهما في العلم، والحكمة، والدين، والسياسة، ومقتضى المذهب الأول أن العالم خلق مقسورًا، أي أن كل ما فيه خصص بإرادة أزلية، وأن صور الحياة في الكائنات الحية ثابتة لا تتغير، فتندمج الأصول بعضها في بعض، وتنتج الفروع ناقلة مخصصات كل نوع عن مثال أزلي له، ومقتضى المذهب الثاني أنه وجد مختارًا بمعنى أن الكائنات لم توجد من العدم، بل استحالت من طور إلى طور، وأن القوى لم تسبق في الوجود بل نمت، وأن الأنواع النباتية والمعدنية (هكذا في الأصل ولعل صوابه والحيوانية) مستمرة البقاء غير أنها تتغير وترتقي على مقتضى نواميس طبيعية.

وإذا انتقلت من العلم إلى التاريخ، وجدت هذا الاختلاف بعينه في آراء الناس، فيرى بعضهم أن التمدن قديم وجد مع الإنسان، يعني أن الاجتماع أوجدته قدرة أعلى من قدرة البشر، وأن أية أمة من الأمم ليس لها أن تختار قوانينها وأوضاعها، وأن للحكومة مثلًا لا تحيد عنها الأمم حتى تسقط في مهاوي الفوضى، ويرى بعض آخر خلافًا للأولين أن الإنسان نشأ متوحشًا، أي أنه كان فردًا متقن الخلقة، ففر من بين الحيوانات، وأنشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكانته في البرية، بعد أن خلق نفسه — إن صح التعبير على هذا النحو — وأن الأمم

قَدْ مَرَّتْ فِي أَطْوَارِ نُمُوِّهَا بِبَدَايَا أَوْضَاعٍ ، لَمْ تَلْبَثْ أَنِ ابْتَعَدَتْ مِنْهَا بِتَأْثِيرِ التَّرَقِّي الَّذِي لَا رَادَّ لَهُ ، فَكَمَا أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ بِنَفْسِهَا ، يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ وَيُؤَلِّفُ مُجْتَمَعَهُ بِقُوَاهُ الذَّاتِيَّةِ .

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الدِّيَانَاتِ وَصَدَّقْتَ أَقْوَالَ مُؤَوِّلِيهَا ، كَانَتْ كُلُّهَا مُوحَاةً مِنَ اللهِ ، فَإِذَا سَأَلْتَ خُصُومَهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ فِيهَا ، قَالُوا إِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ تَدْخُلُ فِي قَوَانِينِ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ الْمَأْلُوفَةِ .

وَمَا أَشَدَّ التَّبَايُنَ وَأَوْسَعَ مَسَافَةَ الْخُلْفِ ، إِذَا سَأَلْتَ أَهْلَ وَطَنِي عَنْ آرَائِهِمْ فِي الْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ ! وَقَدِ اسْتَخْلَصْتُ مِنَ اخْتِلَافِ طُرُقِ النَّظَرِ هَذِهِ نَتِيجَةً ، هِيَ أَنِّي مَعَ بَحْثِي فِي أَفْكَارِ غَيْرِي وَآرَائِهِ ، لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعَوِّلَ إِلَّا عَلَى شَهَادَةِ عَقْلِي وَسَرِيرَتِي ، هَذِهِ هِيَ السَّبِيلُ الَّتِي صَمَّمْتُ عَلَى سُلُوكِهَا ، وَهِيَ الَّتِي أَرْشَحُهَا لِي أَنْتَ أَيْضًا ، وَيَبْعُدُ كُلَّ الْبُعْدِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الضَّرُورَةُ الْمُلْجِئَةُ لِي إِلَى الْحُكْمِ بِنَفْسِي عَلَى الْأُمُورِ مَدْعَاةً إِلَى الْكِبْرِ وَالصَّلَفِ ، بَلْ هِيَ تَبْعَثُ فِي نَفْسِي الذِّلَّةَ وَالِاسْتِكَانَةَ ، لِأَنِّي أَكُونُ مُضْطَرًّا فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَى الْإِعْتِرَافِ لِنَفْسِي بِأَنِّي لَا أَعْرِفُ شَيْئًا ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتَدَرَّعَ بِالْإِقْدَامِ وَأَنْ أُوَسِّعَ نِطَاقَ مَعَارِفِي ، وَأَخْتَلِسَ مِنَ النَّظَرِ فِي الْحَوَادِثِ مُقَدِّمَاتِ اقْتِنَاعِي ، وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الْخَطَابِيَّةُ ، الَّتِي كُنْتُ أَعْتَقِدُ فِي سَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ أَنِّي أُدْرِكُ بِهَا مَا لَا حَدَّ لَهُ مِنَ الْعَوَالِمِ ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا شَبِيهَةٌ بِتِلْكَ الْأَصْدَافِ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا الْأَطْفَالُ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى آذَانِهِمْ ، مُتَخَيِّلِينَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ فِيهَا اصْطِخَابَ الْبَحْرِ .

عَلَى أَنِّى لَا أَدْرُسُ وَأَبْحَثُ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَكُونَ عَالِمًا ، فَكُلُّ مَا يَنْتَهِى إِلَيْهِ طَمَعِى يَنْحَصِرُ فِى فَهْمِ حَاجَاتِ الْعَصْرِ الَّذِى أَعِيشُ فِيهِ وَالْأَخْذِ بِنَاصِرِ الْحَقِّ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَى بِلَادِى ، أَوْ أَعِيشَ غَيْرَ مُبَالٍ بِمُجَاهَدَاتِهَا ، فَإِنِّى وَإِنْ وُلِدْتُ فِى بِلَادٍ أَجْنَبِيَّةٍ ، أَجِدُ فَرَنْسَةَ حَيْثُمَا نَظَرْتُ ، فَإِنَّهَا تَبْدُو لِى فِى انْتِصَارِهَا الْكَثِيرِ الَّذِى انْتَشَرَ فِى أَرْجَاءِ الدُّنْيَا ، وَأَرَاهَا حَتَّى فِى مَصَائِبِهَا الَّتِى نَزَلَتْ بِهَا ، عِقَابًا لِرَجُلٍ مِنْ رِجَالِهَا عَلَى تَغَطْرُسِهِ وَتَجَبُّرِهِ ، هَذَا الْوَطَنُ الَّذِى مَا رَأَيْتُهُ فِى حَيَاتِى ، هُوَ فِى نِسْبَتِهِ إِلَىَّ أُمِّى الثَّانِيَةُ ، فَلَا يُذْكَرُ إِلَّا وَيَقْشَعِرُّ جِلْدِى لِذِكْرِهِ ، وَلَا يُنْتَقَصُ(١) إِلَّا وَيَتَبَيَّغُ(٢) دَمِى كُلُّهُ انْتِقَامًا لَهُ . وَلَيْسَ الَّذِى يُثِيرُ إِعْجَابِى بِهِ هُوَ غَزَوَاتُهُ وَوَقَائِعُهُ الْحَرْبِيَّةُ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَارِيخُ مُكَافَحَاتِهِ وَثَبَاتِهِ الْبَاسِلَةِ فِى طَرِيقِ الْحُرِّيَّةِ ، وَإِنِّى أُحِبُّ مُفَكِّرِيهِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِيهِ وَهُمْ يَضْحَكُونَ . وَأُعْجَبُ بِكُتَّابِهِ الَّذِينَ يُهَيِّجُونَ الْقُلُوبَ وَهُمْ لِنُورِ الْعِلْمِ يَبُثُّونَ ، فَأَنَا مِنْ صَمِيمِ قَلْبِى مِلْكٌ لَهُ ، وَبِمَا فِى نَفْسِى مِنَ الْأَمَلِ فِى خِدْمَتِهِ يَوْمًا مَّا تَجِدُنِى مُغْتَبِطًا وَمُعْتَزًّا بِالِانْتِسَابِ إِلَيْكَ(٣) . اهـ

(١) ينتقص أى يقع فيه الناس ويذمونه .

(٢) باغ الدم وتبيغ ثار وهاج .

(٣) إن ما زعمه "إميل" فى هذه الرسالة من اكتفائه فى البحث عن الحق ، فيما اختلف الناس فيه من مدركات العقول ، بشهادة عقله وسريرته ، فيه من الغرور والوهم مافيه ، فان هداية العقل ناقصة لأنه لا مجال له فيما وراء استعداده ، ولأن السريرة والوجدان ليست إلا حاسة باطنة كما قلنا فيما سبق يتناورها الخلل وتصيبها العلل ، ولولا ذلك لاهتدى الناس جميعا الى الحق ، ولانقطعت بينهم مادة الخلاف ، وإنما الهداية الكاملة التى لا يعتورها النقص ولا تؤدى الى ضلال إنما هى هداية الله المستفادة من وحيه الى رسله فمن تبعها فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عنها فان له معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى — المترجم .

الرسالة العاشرة

(من ابراسم الى ولده)

عن لوندرة فى ٥ فبراير سنة — ١٨٦

بَيَانُ وُجُوبِ أَنْ يَكُونَ لِلشَّابِّ الْمُتَعَلِّمِ رَأْيٌ فِي سِيَاسَةِ بِلَادِهِ

لَا حَقَّ لَكَ يَا عَزِيزِي « إِمِيلَ » فِي أَنْ تَكُونَ بِلَا رَأْيٍ سِيَاسِيٍّ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ يَعِيشُ فِي قَوْمٍ وَيَظْهَرُ مُعْتَزِلًا لِمَا يَتَعَارَضُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَصَالِحِ، غَافِلًا عَمَّا يَتَقَاسَمُ عُقُولَهُمْ مِنَ الْمَذَاهِبِ، فَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَقَارَةِ وَالْخِسَّةِ ، وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَنْشَأَ بَيْنَ الْمُتَوَحِّشِينَ، بَلِ الْمُتَوَحِّشُونَ يَشْتَغِلُونَ بِمَصَالِحِ قَبِيلَتِهِمْ بِغَيْرَةٍ وَحَمِيَّةٍ .

نَعَمْ قَدْ كَانَ رُؤَسَاءُ الْحُكُومَاتِ أَكَّدُوا لِلنَّاسِ فِي الْأَزْمَانِ الْغَابِرَةِ، أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِسِيَاسَتِهِمْ وَتَدْبِيرِ شُؤُونِهِمْ، وَكَانَ عَمَلُ الرَّعَايَا عَلَى هَذَا الْفَرْضِ قَدْ قُصِرَ عَلَى الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ لِأَوَامِرِهِمْ، فَكَانُوا مِلْكًا لِوُلَاتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ، كَمَا تُمْلَكُ الْأَرْضُ، وَلَا حَقَّ لِلْأَرْضِ فِي أَنْ تَثُورَ عَلَى الْيَدِ الْعَامِلَةِ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْبِلَادِ الْمُهْتَدِيَةِ بِهَدْيِ الْعِلْمِ مِنْ أَنْصَارِ هَذَا الْحَقِّ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَزْعُمُهُ الْمُلُوكُ إِلَّا النَّزْرُ الْيَسِيرُ، وَقَدْ قَضَى الْعَقْلُ عَلَى بَعْضِ الْمَذَاهِبِ السِّيَاسِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى أَنَّ السَّلَاطِينَ كَانُوا يَسْقُطُونَ مِنْ عُرُوشِهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عِنَايَةُ اللهِ تَأْخُذُ سِلَاحَهَا لِنَصْرِهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَيْسُورِ لِلْأُمَمِ كُلَّ الْيُسْرِ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنْهُمْ (١) .

(١) ما ادّعاه الكاتب من تأكيد بعض الملوك لرعاياهم أنهم مرسلون من عند الله أمر ثابت فى التاريخ بل قد بلغ الغلو فى هذه الدعوى ببعضهم ان ادّعى الألوهية ، والصحيح المعروف لذوى العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين أنهم عبيد استخلفهم الله فى الأرض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم ، فان =

هَـذَا السُّلْطَانُ الْمَعْصُومُ الَّذِى لَمْ يَكَدْ يَبْقَى لِلإِنْسَانِ جَرَاءَةٌ عَلَى ادِّعَائِهِ لِلأَشْخَاصِ فِى وَجْهِ عِبَرِ التَّجْرِبَةِ الزَّاجِرَةِ، لاَيَزَالُ يُدَّعَى لِلأَوْضَاعِ الْبَشَرِيَّةِ، فَلاَ تَكَادُ أَيَّةُ حُكُومَةٍ مِنَ الْحُكُومَاتِ تَسْتَقِرُّ حَتَّى تَدَّعِىَ أَنَّهَا حَلَّتْ مَحَلَّ الْمَحْكُومِينَ فِى أَفْكَارِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ .

وَلا يَخْفَى أَنَّ الْبِلَادَ الَّتِى وُضِعَتْ حُكُومَتُهَا عَلَى هَذَا النَّمَطِ، يَكُونُ مِنْ عَادَةِ شُيُوخِ بُيُوتِهَا لِفَرْطِ حِرْصِهِمْ وَبُلُوغِهِمْ فِيهِ حَدَّ الْجُبْنِ، أَنْ يَعِظُوا شُبَّانَهَا بِأَنْ لاَيَشْتَغِلُوا بِالسِّيَاسَةِ .

تَسْمَعُ الأَبَ مِنْهُمْ يَقُولُ لِابْنِهِ « يَا بُنَىَّ إِنَّ لَكَ أَنْ تَغْتَنِىَ وَتَتَزَوَّجَ وَتَجْعَلَ لِنَفْسِكَ فِى النَّاسِ ذِكْرًا، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكَ الاشْتِغَالُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، لِوُجُودِ رِجَالٍ عَهِدَ إِلَيْهِمِ الْحَاكِمُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْصِلُوا فِى جَمِيعِ الْمَسَائِلِ، وَيُوَزِّعُوا الْمَثُوبَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ عَلَى النَّاسِ، فَهُمْ كَمَا تَقُولُ التَّوْرَاةُ أَنْفَاسُ مِنْخَرَيْهِ الَّتِى تُحْرِقُ أَمْوَالَ الْمُعَانِدِينَ لِلنِّظَامِ الْمُقَرَّرِ، كَمَا تُحْرِقُ السَّمُومُ[1] نَبَاتَ الْمَزَارِعِ ، فَالأَحْزَمُ لَكَ أَنْ تُخَلِّىَ

= أحسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم « ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله أن الذين يضلون عن سبيل لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . ومايزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحا على اطلاقه ، فان القوانين الالهيـة المحفوظة من التحريف هى أس العـدل والحرية وهى موافقة للعقل لا مصادمة له ، واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم ، وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره من ذلك ، لا يدل إلا على أنه جهل أن الله لا ينصر إلا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة فى خلقه ، وأنه تنزه أن يحتاج فى النصرة الى الاستعانة بعدة أو سلاح . « إنما أمرنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

(١) السموم : الريح الحارة .

بَيْنَ الْحُكُومَةِ وَعَمَلِهَا، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ رَأْيٍ، فَلَا بَأْسَ فِي أَنْ تَخْتَارَ لِنَفْسِكَ مَا يُلَائِمُهَا مِنَ الْآرَاءِ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَقْصُرَهُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ لِلْمَرْءِ مِنَ الْإِشْتِغَالِ بِمَصَالِحِ غَيْرِهِ، «وَالْعَاقِلُ مَنْ يَتَوَقَّى إِدْخَالَ أُصْبُعِهِ بَيْنَ الشَّجَرَةِ وَلِحَائِهَا» (١).

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْحُرَّةُ فَالْأُمُورُ فِيهَا تَجْرِي عَلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ، فَلَا يَكَادُ طَالِبُ الْعِلْمِ فِيهَا يَمْلِكُ الْيَسِيرَ مِنْ فَصَاحَةِ الْمَنْطِقِ، حَتَّى يُمَارِسَ الْمُنَاظَرَةَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَكُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَرِيفًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَمِيَ إِلَى حِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ، وَهُمْ بَعِيدُونَ كُلَّ الْبُعْدِ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ فِي مُجَاهَدَاتِ الْمَعِيشَةِ السِّيَاسِيَّةِ ضَرَرًا بِالْمَعِيشَةِ الْبَيْتِيَّةِ، بَلْ هُمْ يُجِلُّونَ الْفَضَائِلَ الْخَاصَّةَ، عَلَى نِسْبَةِ اتِّسَاعِهَا وَامْتِدَادِهَا فِي مَيْدَانِ الْفُرُوضِ الْعَامَّةِ، وَلَوْ أَنَّ وِجْدَانَ الْعَدْلِ كَانَ قَاصِرًا عَلَى الْمُعَامَلَاتِ الْخَاصَّةِ، لَعُدَّ مِنَ الظُّلْمِ فِي حَقِّ عَامَّةِ النَّاسِ (٢).

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، قُلْتُ إِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ خُلِقَتْ لِتَكُونَ أَحْرَارًا، وَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ يَزْعُمَ زَاعِمٌ أَنَّ مِنْهَا مَنْ هِيَ مُفْرِطَةٌ فِي الطَّيْشِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ غَالِيَةٌ (٣) فِي التَّحَمُّسِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ غَايَةٌ فِي الْجَهْلِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ مُتَنَطِّعَةٌ (٤) فِي التَّأَنُّقِ (٥)، فَقَدْ نَسِيَ أَنَّ الْوَسِيلَةَ إِلَى تَرْقِيَةِ أَخْلَاقِ الْأُمَمِ إِنَّمَا هِيَ تَرْقِيَةُ أَوْضَاعِهَا وَقَوَانِينِهَا، وَلَا مِرَاءَ فِي أَنَّ

(١) المثل العربيّ «لا تدخل بين العصا ولحائها» ولحاؤها قشرها.

(٢) يعنى بذلك ان شعور الانسان بوجوب العدل لو كان قاصرا على معاملة كل فرد فى نفسه لكان بالنسبة لمجموع الناس فينبغى أن يكون الشعور بوجوب العدل عاما.

(٣) غالية: مبالغة. (٤) متنطعة: متشددة.

(٥) التأنق: عمل الشيء بالاتقان والحكمة.

هذه الأوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء، وأنه من الحمق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها، لأن جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة أن الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم، فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلي عنها، وقد يرخون زمامها أحيانا حذقا منهم في تصريفها وحزما، ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرتجعون تصريف شكيمتها(١) إلى أيديهم. ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطى ويوهب، بل هي مما يغنم بالجهاد والمكافحة، فشدة كفاح العقول والعزائم، وجملة إخلاص المخلصين الحاملين، وتصلب من لا يستخذون(٢) للذل من أفراد الأمة، هي التي بضرورة الأحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على إرجاعه إلى نصابه، ورده إلى أربابه، وما يحصل من التعذير(٣) في أثناء الجهاد لا يلبث أن يزول، وما يعقبه من الرقى دائم لا فناء له، فإن القاطع يبلى(٤) بعمله في المقطوع.

ليس من قصدي مطلقا أن أبعث في نفسك كراهة الأمة التي خلقت للمعيشة فيها، فأنت صاحب الحكم على أهل زمانك، ولكن حذار من الإحتقار لغيرك والاستخفاف به، فإن عصرنا سيشتهر في التاريخ بخطوبه ومصائبه، لأننا قد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد، وهي حكومة الإصلاح، والحكومة المقيدة، والجمهورية، وحكومة نابليون، وليست العصور التي تعمني وتؤلمني هي

(١) شكيمتها : هنا معناها مقادتها .
(٢) يستخذون : يخضعون .
(٣) التعذير : العقاب .
(٤) يبلى : يضمحل ويفنى .

التي تسعى فيها أمة عظيمة لتحصيل الحرية من خلال الحوادث ، وإنما هي التي تخلد فيها إلى الدعة من غير أن تنال حريتها .

إن لداتي (١) من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية، وأنا أشتهي بمجامع قلبي أن يكون الناشئون أسعد منهم حظا وأوفر غبطة، ولكن ينبغي لهم أن يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا .

نحن غلونا (٢) فيما رجوناه من تصاريف الزمان، وكلما سألت نفسي عن سبب مصائبنا، خلتني أجده في عيوب تربيتنا السياسية ، فأشدنا بعدا عن الإيمان يؤمن بالمعجزة، ذلك أنه يعتقد إمكان تغيير أحوال الأمة بأمر من أوامر حاكم مطلق مؤقت الحكومة، أو على الأقل بأمر مجلس حاكم . شهدت فرنسة غير مرة تلاشي بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها، وحبوط مقاصد لبعض الطامعين من رجالها ، الذين كانوا يدعون المستقبل لأنفسهم، ثم إنها لما انتصرت إنتصارها العقيم القصير المدة، كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين ألقى إليهم الاتفاق والمصادفة زمام سياستها، نعم إن شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ، ولكن ينبغي أن تكون الأمة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ضروبها. مضى زمن المسحاء، فلن يرى بعد الآن، لا في شكل حكومة منتخبة ولا في صورة حكومة تأتي إلى الدنيا بالنور والهدى، فعلينا أن نخلص أنفسنا من خداع الناس، ونطهرها

(١) لداتي الذين هم من سني .

(٢) غلونا أي تشددنا وتجاوزنا الحد .

مِنْ وَثَنِيَّةِ الْأَوْهَامِ ، لِأَنَّ الْأُمَمَ لَا تَنَالُ حُرِّيَّتَهَا بِاتِّفَاقٍ ، وَلَا بِسُلْطَةٍ غَيْبِيَّةٍ(١) فَائِقَةٍ لِلطَّبِيعَةِ ، وَلَا بِالْبَخْتِ ، فَلْتَنْظُرْ فَرَنْسَةُ فِي نَفْسِهَا تَجِدْ أَنَّ بَخْتَهَا هُوَ عَزِيمَتُهَا .

أَنْتَ حَدَثٌ وَمُغْتَرِبٌ عَنْ بِلَادِكَ ، فَوَسِيلَتُكَ إِلَى خِدْمَتِهَا هِيَ أَنْ تَنْفِيَ عَنْ عَقْلِكَ الْجَهْلَ وَالْأَوْهَامَ وَالْأَضَالِيلَ الَّتِي تَبْذُرُ فِي الدُّنْيَا بُذُورَ الطُّغَاةِ الْغَاشِمِينَ ، إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ أَدَّيْتَ فِي سَعْيِكَ إِلَى الْحُرِّيَّةِ شَيْئًا مِنَ الْعَمَلِ . التَّعَلُّمُ ائْتِمَارٌ بِالشَّرِّ لِاسْتِئْصَالِهِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ نِظَامُ تَرْبِيَتِنَا بِرُمَّتِهِ مِنْ شَأْنِهِ تَجْرِيدُ أَبْنَاءِ الْوَطَنِ مِنْ مَلَكَةِ الِاسْتِقْلَالِ بِالْفِكْرِ وَالْإِرَادَةِ ، لَكَانَتْ فَرَنْسَةُ قَدِ اهْتَدَتِ الطَّرِيقَ إِلَى الْحُرِّيَّةِ مِنْ زَمَانٍ بَعِيدٍ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ يَنْبُوعَ مَا أَصَابَنَا مِنْ ضُرُوبِ الْعَجْزِ ، وَإِمَّا أَنْ أَكُونَ مُخْطِئًا خَطَأً فَاحِشًا . لَا حَقَّ لَنَا أَنْ نَعِيبَ عَلَى التُّرْكِ(٢) اعْتِقَادَهُمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ،

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعنى الله جل شأنه فى حرية الأمم أثر من آثار المذهب المادى القائل بأن لا وجود لهذه السلطة ، نزه الله عقولنا من لوثه .

(٢) يعنى بالترك المسلمين . وعيبه على الترك وغيرهم اعتقادهم بالقضاء والقدر جهل منه بحقيقة هذه العقيدة وما لها من الآثار الحسنة فى أحوال من يفقهون حقيقتها ، فمقتضاها الايمان بأن كل ما يقع فى الوجود انما يكون فى زمانه ومكانه بعلم الله و بمشيئته على سنن ثابتة قدرها بحكمته ومقاصد سامية دبرها على وفق ارادته اقرارا له ، بالألوهية المبرأة من كل عيب ، وتنزيها لعلمه المحيط أن يعتوره النقص ، ولارادته الكاملة أن يلحقها العجز ، ولا منافاة البتة بين هذه العقيدة وبين أن يكون الانسان حرا فى عمله وفكره فى دائرة امكانه ، ولو تأملت فيما كان عليه سلفنا الصالح من شدة الاستمساك بها وما أفادهم من الصبر فى مواطن البأس ، وبذل المهج فى اعلاء كلمة الحق ، وما أكسبهم ذلك من العزة والسلطان على الأمم ، ونظرت الى ما هو حاضر بين أيدينا الآن من جهاد أبطال مراكش وقائدهم العظيم عبد الكريم فى سبيل تحرير بلادهم من الاسبانيين المغيرين عليها ومصابرتهم فى الكفاح مع ما بينهم وبين عدوهم من التفاوت فى العدد والعدد وتمكنهم بذلك من طرده واجلائه عنها لتبينت ان ذلك من آثار تلك العقيدة التى يزعم الجاهلون من الافرنج ومن تبعهم أنها من أسباب انحطاط المسلمين وتأخرهم ، ولا يقدح فى ذلك ما حصل لهم من الانكسار فيما بعد لانضمام فرنسة الى اسبانية فى قتالهم وانقطاع النسبة لهذا السبب بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدد . — ولعمرى ان داء الانتحار الذى فشا فى أوربة وانتقلت عدواه الى الشرق لا علة له الا فقدانها وعدم ارتياض النفوس بها .

فنحن أثبت منهم فيه ألف مرة، ذلك أننا تابعون لبخت يومنا، خاضعون لمقدور سياستنا، مؤدون ميثاق الطاعة لحكومتنا، حتى لو انتقلت إلى أيدي الكفار. وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة وإباء، تراهم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال، يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الأمور، كما لو كان لأي واحد من الناس أن يقنط من أهل زمانه ومن بلاده. إذا ظهر الشر والفساد في الأمة، كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته، أن يجاهد في إزالة سببه، وليس يكفي الرجل الصالح افتخاره أحيانا بأن يتخيل في نفسه عالما آخر يطوي فيه معتقداته ويشرف من أعاليه على أمور دهره فيحتقرها، بل عليه أيضا أن لا يدخر سلاحا في مكافحته.

ليست أمة من الأمم من هذا العجز في شيء، فأنت تعرف كلمة جوفينال[(١)] إذ قال: «لكن لن يعدم المغلوبون سلاحا»، فالذي يبقى من السلاح في أيدي الأمم المغلوبة هو الخطابة وبث الأفكار والمقاومة المعنوية، ولن تخضع الحكومة رعيتها ماداموا لا يستكينون للخذلان، نعم إنها تستطيع في ليلة واحدة أن تسلب حقوقهم وأموالهم، وتعدم من يسخطونها منهم، وترهب أنذالهم، وتخدع جهالهم، ولكن هيهات أن يكون هذا هو ظفرها النهائي بهم عنوة، لا تظفر بهم إلا متى أزهقت روح الكرامة الانسانية من نفوسهم. الأمة الحرة وهي أمة المستقبل تزيد وتنمو في ظل حكومة الاستبداد، وستنتصر إذا تقوت بما تكتسبه من المعارف، وبما

(١) جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الأول من الميلاد ومات في عهد الأنتونيين وهم بيت من بيوت الملك في رومة.

يُوجَدُ فِيهَا مِنْ عَوَاطِفِ الإِنْصَافِ، الَّتِي تَخْلُصُ إِلَيْهَا مِنَ الْبَحْثِ فِي حَقَائِقِ الأُمُورِ، وَبِمَا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي يَخْتَلِسُهَا الْعِلْمُ مِنَ الطَّبِيعَةِ .

لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ مَخْلُوقًا لِأَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلًا سِيَاسِيًّا، فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مَلَكَاتٍ وَمَيْلٍ خَاصٍّ، وَلَكِنْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْتَئِيَ لِنَفْسِهِ رَأْيًا فِي مَصَالِحِ عَصْرِهِ وَبِلَادِهِ، وَلَسْتَ مُلْزَمًا أَنْ تَأْخُذَ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضٍ وَلَا مِنْ آرَائِي، فَكُلُّ جِيلٍ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ بِنَفْسِهِ، وَمُلْزَمٌ أَنْ يَسْتَرْشِدَ فِيهِ بِمَا يَسْتَجِدُّ مِنْ حَاجَاتِ أُمَّتِهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَكْفِيكَ أَنْ تَطْعَنَ فِي الْأَوْضَاعِ الْقَدِيمَةِ لِهَدْمِ بُنْيَانِهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَ لَكَ الْعِلْمُ كَذِبَهَا أَوْ عَدَمَهَا، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَظْفَرَ بِخَصْمِكَ فَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَنْوَرَ فِكْرًا .

إِنَّ مَا يَشْكُو مِنْهُ جَمِيعُ النَّاسِ فِي أَزْمَانِ التَّدَلِّي، مِنْ خُمُودِ النُّفُوسِ وَأَثَرَةِ التَّوَاكُلِ(١) وَبَلَهِ الِاسْتِسْلَامِ لِضَرُورَةِ الْأَحْوَالِ، مَنْشَؤُهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَيْضًا، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِيكٌ فِي الْهَلَاكِ الْعَامِّ، إِمَّا بِسُكُوتِهِ وَإِمَّا بِامْتِنَاعِهِ اخْتِيَارًا عَنِ الْعَمَلِ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْأَزْمَانَ هِيَ الَّتِي يَأْنِي(٢) فِيهَا لِلنُّفُوسِ الْأَبِيَّةِ أَنْ تَشْتَدَّ وَتَثْبُتَ فِي تَيَّارِ الدَّمَارِ، فَعَلَيْنَا إِنْ لَمْ نَأْنَسْ مِنْ نُفُوسِنَا كِفَايَةً فِي الْقُوَّةِ، أَنْ نَسْتَعِينَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمُ الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ، وَمَنْ مَاتُوا مِنَ الْكُتَّابِ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ الِاسْتِبْدَادَ وَيُعَالِجُونَ عَمَى الْبَصَائِرِ، قَبْلَ أَنْ يَجْنُوا ثِمَارَ كَدِّهِمْ، وَمَنْ خَرُّوا مِنْ مَنَابِرِهِمْ مِنَ الْخُطَبَاءِ مُخَضَّبِينَ بِدِمَائِهِمْ،

---

(١) التواكل : اتكال كل إنسان على غيره .

(٢) يأنى : يدنو و يقرب .

وَمَن حُكِمَ عَلَيهِـمْ مِنَ الْعُقَلاَءِ بِشَاقِّ الأَعْمَـالِ ، وَشُكِّلوا (١) خِلاَلَ الْقُرُونِ الْمَـاضِيَةِ فِي سَلاَسِـلِ الْعُبُودِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَلْنَتَأَمَّلْ فِي مَاضِينَا ، فَإِنَّا نَجِدُ فِيـهِ مِنَ السُّجُونِ وَالْمَنَافِي وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، مَا يَشْهَدُ لَنَـا بِنَزَاهَةِ مَقْصِدِنَا نَزَاهَةً لاَ تُدَافَعُ . أَلاَ إِنَّ لِوَاءَ الْحُرِّيَّةِ يُظِلُّ جَمِيعَ الْمُقَاوِمِينَ ، وَالْمَكْرُوبِينَ ، وَالْمَهِيضِينَ (٢) ، فِي سَـبِيلِ تَأْدِيَةِ مَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ ، وَبِهَذَا اللِّوَاءِ سَيَكُونُ لَنَـا الْفَوْزُ وَالظَّفَرُ ، وَعَلَى هَذَا الاعْتِقَادِ أُقَبِّلُكِ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ . اهـ

الرسالة الحـادية عشرة

(وَهِيَ خَاتِمَةُ الْكِتَابِ)

مِنَ الدُّكتُورِ وَارِنْجتُونَ إِلَى زَوْجَتِهِ

« بَيَانُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَسْعَى إِلَى إِنْشَاءِ وَلَدِهِ حُرًّا لِتُجْتَثَّ »

« بِذَلِكَ جَرَاثِيمُ الشُّرُورِ الْمُحْزِنَةِ لِلأُمَّةِ » .

عَنْ لوندرة فى ١٤ مايو سنة ١٨٦

شَهِدْتُ بِالأَمْسِ أَيَّتُهَـا الْحَبِيبَةُ الْعَزِيزَةُ عِيدًا أَهْلِيًّـا ، أَقَامَهُ الدُّكْتُورُ إِرَاسْمُ وَزَوْجَتُهُ احْتِفَالاً بِبُلُوغِ وَلَدِهِمَا الْوَاحِدَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَكَانَ عَدَدُنَا اثْنَيْ عَشَرَ صَـــدِيقًا .

---

(١) شكلوا : قيدوا من خلاف .

(٢) المهيضين : المكسورين .

كَانَ الْعِيدُ وَلِيمَةَ رِجَالٍ زَانَتْهَا الْمَهَابَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَمْ يَمْنَعْ كَوْنُهَا كَذَلِكَ مِنِ انْتِعَاشِ جَمِيعِ قُلُوبِ الْمَدْعُوِّينَ ابْتِهَاجًا وَسُرُورًا ، وَفِي خِتَامِ الْمَائِدَةِ ابْتَدَأَ رَفْعُ الْأَقْدَاحِ، لِتَعَاطِي الرَّاحِ عَلَى مَحَبَّةِ «إِمِيلَ»، جَرْيًا عَلَى الْعَادَةِ الانْجِلِيزِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَقَامَ إِرَاسِمُ وَاسْتَأْذَنَ فِي أَنْ يَشْرَبَ نَخْبَ وَلَدِهِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي أَفْصَحَ مَقَالًا مِنْهُ حِينَئِذٍ، فَقَدْ أَفَاضَ فِي الْقَوْلِ عَنِ الْفُرُوضِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الشَّابِّ فِي مَعِيشَتِهِ الْقَوْمِيَّةِ، وَعَنِ التَّرْبِيَةِ وَوُجُوبِ أَنْ تَكُونَ عَمَلَ كُلٍّ مِنَّا فِي جَمِيعِ حَيَاتِهِ، وَعَنِ الْأَزْمَانِ الْحَاضِرَةِ وَاقْتِضَائِهَا مِنَ الْمُفَكِّرِ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِالْآرَاءِ الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى الْبَحْثِ وَالِاخْتِبَارِ، وَأَنْ يَثْبُتَ عَلَيْهَا، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَلَيْسَ فِي وُسْعِي أَنْ أُؤَدِّيَ إِلَيْكَ أَثَرَ هَذَا الْخِطَابِ الْأَبَوِيِّ الَّذِي كَانَتْ مَزِيَّتُهُ الْكُبْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَخُطَبِ الْخُطَبَاءِ .

وَمَا فَرَغَ مِنْهُ حَتَّى اتَّجَهَتْ جَمِيعُ الْأَبْصَارِ نَحْوَ « إِمِيلَ » — وَأَنْتِ قَدِ اسْتَطَعْتِ مِنْ مُنْذُ عَوْدِهِ مِنْ انْجِلْتِرَةَ أَنْ تَعْرِفِي مَا هُوَ مُتَحَلٍّ بِهِ مِنْ ثَبَاتِ الرَّأْيِ وَعُلُوِّ الْأَدَبِ وَسَعَةِ الْمَعَارِفِ — فَشَكَرَ لِأَصْدِقَاءِ أَبِيهِ أَنْ تَفَضَّلُوا بِإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الْعِيدِ الْبَيْتِيِّ الْحَقِيرِ، بِعِبَارَاتٍ تَشِفُّ عَنْ لُطْفِ ذَوْقِهِ وَمَزِيدِ تَوَاضُعِهِ، ثُمَّ ارْتَقَى إِلَى الْكَلَامِ عَنْ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْعَامَّةِ فَبَيَّنَ الْخُطَّةَ الَّتِي يُؤَمِّلُ أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهَا فِي النَّاسِ، بِأَلْفَاظٍ جَلِيَّةٍ مُؤَدِّيَةٍ تَمَامَ الْمَعْنَى — وَقَدْ أَحَسَّ كُلُّ مَنْ سَمِعَ قَوْلَهُ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا فَاهَ بِهِ صَادِرٌ عَنْ فِكْرِهِ الْمُسْتَقِلِّ .

ثُمَّ تَعَاقَبَتِ الْكُئُوسُ وَتَوَالَتِ الْأَنْخَابُ، وَبَيْنَمَا كُنَّا عَلَى أُهْبَةِ الْقِيَامِ مِنَ الْمَائِدَةِ الْتَفَتَ إِلَى وَالِدَيْهِ، وَآذَنَهُمَا (١) بِأَنَّ لَدَيْهِ خَبَرًا يُرِيدُ أَنْ يُعْلِمَهُمَا إِيَّاهُ، وَقَدْ لَوَّنَتْ جَبِينَهُ

(١) آذنهما أعلمهما .

حِينَئِذٍ حُمْرَةُ الْخَجَلِ، مَعَ أَنَّ مَلَامِحَ وَجْهِهِ كُلَّهَا كَانَتْ تُعْرِبُ عَمَّا فِيهِ مِنْ ثَبَاتِ الرُّجُولِيَّةِ .

مَا كَانَ أَشَدَّ دَهَشِي وَدَهَشَ الْحَاضِرِينَ إِذْ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ : — بِصَوْتٍ قَوِيٍّ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِحْتِشَامِ — إِنَّهُ مِنَ الْأَمْسِ مُتَّفِقٌ مَعَ دُولُورِيس عَلَى التَّزَوُّجِ بِهَا .

ثُمَّ أَعْقَبَ هَـذَا الْإِخْبَارَ أَنِ انْحَنَى أَمَامَ وَالِدَيْهِ قَائِلًا : « هَلْ لِي أَنْ أَرْجُو مِنْكُمَا اسْتِحْسَانَكُمَا لِهَذَا الْإِخْتِيَارِ ؟ » .

هُنَالِكَ غَشِيَتْ وَجْنَتَيِ الْفَتَاةِ السَّمْرَاوَيْنِ سَحَابَةٌ مِنْ حُمْرَةِ الْخَجَلِ، وَأَغْضَتْ عَيْنَيْهَا، فَلَأْلَأَتْ بَيْنَ أَهْدَابِهِمَا السَّوْدَاءِ الطَّـلَّةِ عَبَرَاتُ الْفَرَحِ وَالْهَنَاءِ .

لَمْ تَجِدِ السَّيِّدَةُ هَيْلَانَةُ جَوَابًا لِمَسْأَلَةِ ابْنِهَا إِلَّا إِكْبَابَهَا عَلَى عُنُقِهِ تُقَبِّلُهُ، وَقَدْ كَادَتْ تَخْتَنِقُ سُرُورًا وَاغْتِبَاطًا، وَأَمَّا إِرَاسْمُ فَإِنَّهُ مَعَ تَأَثُّرِهِ مِثْلَهَا مِمَّا سَمِعَ مِنْ وَلَدِهِ، كَانَ أَمْلَكَ مِنْهَا لِعَوَاطِفِهِ . وَأَجَابَهُ بِصَوْتٍ يُنْبِئُ عَنْ سَكِينَتِهِ وَوَدَاعَتِهِ فَقَالَ: « إِذَا كُنْتَ تُحِبُّهَا فَهِيَ ابْنَتِي » ثُمَّ قَبَّلَ هَذِهِ الْفَتَاةَ الْحَسْنَاءَ بِصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ وَنَفْسٍ مُنْبَسِطَةٍ .

فِي خِلَالِ هَذَا الْمَنْظَرِ الْمُؤَثِّرِ طَرَقَ الْبَرِيدُ بَابَ الشَّارِعِ طَرْقَتَيْنِ، فَاضْطَرَبَ كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ، وَكَانَ يَحْمِلُ رِسَالَةً كَانَ يُرَى مِنْ غِلَافِهَا أَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ بِلَادٍ بَعِيـدَةٍ .

كَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ «لإِمِيل» فَاسْتَأْذَنَ فِي فَضِّ خِتَامِهَا، لِأَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ عَرَفَ فِي عُنْوَانِهَا خَطَّ قُوبِيدُونَ، وَقَرَأَهَا وَكَانَتْ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ الرَّكِيكَةِ — انْجِلِيزِيَّةِ زَنْجِيٍّ — فَإِذَا هِيَ تَتَضَمَّنُ تَهْنِئَةً مِنْ هَـذَا الْإِفْرِيقِيِّ الْبَارِّ « لإِمِيلَ » بِعِيدِ مِيلَادِهِ وَرَجَاءَهُ —

كما هي العادة — عود كثير من أمثاله عليه بالغبطة والهناء، وتشتمل فوق ذلك على خبر سار، وهو أن الزروع التي زرعت في أرض « لولا » قد نجحت بفضل حذقه وحذق زوجته، وأنها ربما كفأت لها صداقها عند الزواج .

إني على جذلي باغتباط أصدقائنا، محزون لتفكري في مفارقتهم لنا، لأن هذه الوليمة العيدية كانت وليمة وداع أيضا، فهم راجعون إلى فرنسة، يدعوهم إليها ما وقع فيها أخيرا من الحوادث السياسية، وحب مسقط رءوسهم، وإني مشيعهم بأحسن آمالي لهم، ولست أنسى كلمة من كلمات إراسم الأخيرة، التي فاه بها عند مصافحتنا، بصوت ملؤه الوقار والهيبة، وهي قوله : على كل منا أن يسعى في جعل ولده رجلا حرا، فإنا بذلك نجتث جراثيم الشرور المحزنة للأمة اه

المترجم : فرغت من ترجمة هذا الكتاب المفيد قبيل ظهر يوم الإثنين غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ للهجرة النبوية الموافق للثالث والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٠٦ للميلاد المسيحي وتم طبع الطبعة الأولى بمطبعة مجلة المنار بمصر القاهرة سلخ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هجرية — ثم تم طبعه في المطبعة المذكورة للمرة الثانية في جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هجرية — ثم تم طبعه للمرة الثالثة بمطبعة السعادة في شهر رجب سنة ١٣٤٣ هجرية . ثم تم طبعه للمرة الرابعة في مطبعة دار الكتب المصرية في النصف الأول من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق للأيام الأخيرة من شهر أبريل والأولى من شهر مايو سنة ١٩٣١ ميلادية، فالحمد لله على نعمة التمام ١ه

كلمة المترجم الختامية

للطبعة الثالثة

الآن وقد فرغ من طبع هذا السفر الجليل الخطر العظيم الأثر، بعد ما بذلته من عناية وجهد فى تصحيحه، وتهذيبه، وشرح ما غمض من ألفاظه، وفى التعليق على ما لا يلائم أحوالنا الإجتماعية من أفكار مؤلفه، مما خلته كافيا لدفع ما قد يعلق بأذهان مطالعيه من الشبه والأوهام، أقدمه مرة ثالثة لأبناء وطنى الأعزاء، مكررا لهم الشكر على سابق احتفائهم به، وحسن تقبلهم إياه، راجيا ممن سبقت له منهم قراءته أن يستأنفها، فإن الإستفادة من الكتب لا تحصل إلا بمطالعتها مرارا، لترتاض النفوس بما وعت، وتستظهر القلوب ما أودعت، وحاثا حديث العهد منهم بمعرفته أن يصطفيه لنفسه جليسا يلتذ بحديثه فى أوقات فراغه وأنيسا يلهو به فى ساعات راحته.

«فخير مكان فى الدنا سرج سائح * وخير جليس فى الزمان كتاب»

على أنى لست فى حاجة إلى هذا التزويق والتشويق ففى حسن وضعه وجمال تنسيقه وبلاغة بيانه عنه غناء.

وأرجو أن لا يفوت قارئيه، خصوصا المؤمنين منهم بالرجعى، أن ما احتوى عليه من أصول التربية لم يقصد به إلا تنمية الأجسام والعقول والملكات، لتقوى بها على احتمال ما خلقت له من الكدح والنصب فى سبيل هذه الحياة المادية، كما هو الشأن فى معظم ما يكتبه علماء الإفرنج فى هذا الصدد، فقد قصروا أكبر همهم، وصرفوا جل عنايتهم، فى البحث فى القوى المادية وطرق الانتفاع بها، وبذلوا ولا يزالون يبذلون كل جهودهم الفكرية، وجميع مواهبهم العقلية، فى استكمال لذات

الحياة وتخفيف أوصابها وآلامها، وتحصيل أسباب السعادة فيها، وقطعوا النظر جملة عما يؤهل النفوس للقاء باريها في الدار الآخرة، والحظوة فيها بقربه ورضوانه، وهو المقصود الأسمى من هذه الحياة الدنيا، بل هم قد فتنوا كثيرا من الناس عن الدين الذي هو سبيل الفوز في تلك الدار، بتسريب الشبه إلى عقائده، وإلقاء جراثيم الشكوك في أصوله ومذاهبه، حتى أضلوهم عن سواء السبيل، فرغبوا بحاجاتهم — على تفاهتها وحقارة خطرها — عن الآجلة التي هي مصير الإنسان ومستقره، على ما أعد للمتقين فيها من النعيم، والملك الكبير، واللذة التي لا يشوبها ألم، والسرور الذي لا يعكره حزن.

فليأخذ مطالعوا هذا الكتاب بأحسن ما يقرأون منه لدنياهم، ولا ينسوا تربية أرواحهم وتزكيتها، ومن أراد منهم تربية نفسه على أقوم الأخلاق، وتنشئتها على أكمل الآداب، لإعدادها للحياة الخالدة، والنعيم المقيم، فسبيله إليه استظهار كتاب رب العالمين، واقتفاء آثار النبيين، والتزام هدى سيد المرسلين، واتباع سنن أصحابه الهادين المهتدين، «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ أسأل الله جل شأنه أن يوفقني وإياهم للاقتداء بهم والسير على مناهجهم وهو حسبنا وبه ثقتنا والحمد لله على التمام وله الشكر في البدء والختام. عبد العزيز محمد

إصلاح خطأ

وقعت بعض أخطاء مطبعية أثناء الطبع فأثبتناها هنا ليستدركها القارئ في الصحف التي جاءت فيها وهي :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١	١٧	عل	على
٣	١٢	يمنعى بفتح العين	ضمها
٣	١٤	همزة أسفل يا خلائية	كسرة
٧	٥	منعة بتسكين النون	فتحها
٢٢	١٣	الخلق بتشديد الياء مع كسرها	التشديد مع الفتح
٣٧	١٦	سأؤدى بفتح الهمزة الأولى	ضمها
٣٩	١٦	قدم بضم الدال	كسرها
٤٠	١	السليخ	السليم
٤٠	١٤	اكلمه بضم الميم	فتحها
٤٣	٢٣	حباته	حياته
٤٩	١٤	هضم بكسر الضاد	فتحها
٥٧	١٦	تمييز (مكررة) بتشديد الياء الأولى مع كسرها	كسرها فقط
٥٩	١٦	يكون بضم الياء	فتحها
٦١	٩	تبدلت بسكون التاء	كسرها
٦٣	٢	تحققنا	ارتضنا
٦٥	١٣	حراسة بفتح الحاء	كسرها
٧٦	١٧	يضعفون بفتح الياء	ضمها
٨٥	١٣	الشيء بضم الهمزة	فتحها
٩٣	٤	يين بياءين	بين بياء و ياء
٩٦	٦١	تجنيت بضم التاء الثانية	فتحها
١٠٢	١٤	لتخلف بفتح الخاء	تسكينها

صحيفة	سطر	خطــأ	صــواب
١١١	١٥	معدة بضمتين على التاء	فتحتان
١١٣	١٣	استخفافه بكسر الفاء الثانية والهاء	ضمهما
١١٤	٣	يوجد	يجد بفتح الياء وكسر الجيم
١١٨	١٥	من بفتح النون	كسرها
١٢٢	١٣	الوانها بكسر النون	فتحها
١٤٥	٦	حياتهم بتسكين الميم	كسرها
١٤٧	١١	فاعطه بالف غير مهموزة	الف مهموزة
١٤٨	١٢	الألوهية بفتح التاء	كسرها
١٥٥	٣	النواضع بالنون بعد اللام	بالتاء
١٦٤	١٤	اسنان بكسر السين وتشديدها	تسكينها
١٦٤	١٩	اسنان بضمة واحدة على النون الثانية	ضمتان
١٦٥	١٩	احساس بكسرة واحدة أسفل السين الثانية	كسرتان
١٨٢	١٥	من بتسكين النون	كسرها
١٨٢	١٦	منيلاس بتسكين النون	كسرها
١٨٦	١٨	لحاجة بحاء وجيم وكسرتين تحت التاء	جيم وجيم وفتحتان فوق التاء
٢٠١	١٤	ما بفتح الميم	الفتح مع التشديد
٢٠٣	١	نبذة بالتاء	هاء
٢١٢	٥	ادرك بضم الكاف	فتحها
٢١٢	١٤	غرق بتسكين الراء	فتحها
٢١٢	١٧	الطفل بفتحة مشددة على الطاء	الكسر مع التشديد
٢١٩	١٦	قلنسوة بفتح السين	ضمها
٢٢٢	١٠	الحدث بكسر الدال وفتحها	فتحها
٢٢٤	٩	خلقت بتسكين التاء	كسرها
٢٤٢	٤	يذهب بكسرة أسفل الهاء	عدمها
٢٤٤	٨	قتلهم بفتح اللام	ضمها
٢٤٤	١٥	فلنغنم بفتح الميم	تسكينها
٢٤٦	١٦	عدم بكسر الميم	فتحها

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٤٨	١٨	ما بفتح الميم	فتحها مع التشديد
٢٥٠	١٥	وأنا	وانى
٢٥١	١١	بمنا ظيرهم بسكون الميم الثانية	كسرها
٢٥١	٢١	المصطخبة بلا تفسير	المصطبخة : شديدة الصوت
٢٥٢	١٤	لانجادهم، سبيلا	لانجادهم سبيلا
٢٥٢	٢٠	القاصف الشديدة	القاصف : الريح الشديدة
٢٥٤	١٧	المركب بكسر الكاف	فتحها
٢٥٥	١	قو بيدون بضم النون	فتحها
٢٥٥	١٣	كتلة بفتحتين على التاء الثانية	كسرتان أسفلها
٢٥٦	٨	لأحد بكسرتين أسفل الدال	كسرة واحدة
٢٥٦	١٦	والعشرون	والثلاثون
٢٥٨	٤	وإنه بكسر الهمزة	فتحها
٢٧٥	١٣	أشد بتشديد الدال فقط	التشديد مع الفتح
٢٧٦	١٤	ما بفتح الميم فقط	الفتح مع التشديد
٢٩٧	٧	يحط بضم الطاء وتشديدها	الفتح مع التشديد
٣٣٢	٢	الحرق بضم الراء	تسكينها
٣٣٢	٦	وجد بضم الواو	فتحها
٣٣٣	٦	للعقل	للطفل
٣٣٧	١٤	قصر بضم الراء	فتحها
٣٣٨	٤	تحتف بفتح الفاء مع التشديد	الضم مع التشديد
٣٤٦	١٦	مثل بضم الميم	فتحها
٣٥٤	١٦	تنتج بفتح التاء الأولى	ضمها
٣٨٤	١٦	الشمال بكسر الشين مع التشديد	فتحها مع التشديد
٤٠٤	٢	تتزلزل بضم اللام الثانية	فتحها
٤١٣	١٣	)	عادمه

صحيفة	سطر	خطـــأ	صـــواب
٤١٦	٨	مؤسسة بضمتين على التاء	فتحتان
٤٣٠	٢٠	المناخ بفتح الميم	ضمها
٤٤٩	١١	وتزرى بضم الواو	فتحها
٤٥١	٢٦	والنهبة والأنشتين	النَهَبَةُ ووالانشتين
٤٥٧	١٥	زهورها بفتح الزاى	ضمها
٤٦١	١٥	اختلف بفتح الفاء	ضمها
٤٦٤	١٦	جميع بفتح العين	ضمها
٤٨١	١	حقيقة الحب وخطأ الشبان فيه	التعريض فى الحب
٤٨٢	١	التعريض فى الحب والتنقل فى المدارس الجامعة	حقيقـــة الحب وخطأ الشبان فيه
٤٨٣	١	المذهبان اللذان يتنازعان عقول البشر	التنقل فى المـــدارس الجامعة
٤٨٤	١٣	الاختلاف بكسر الفاء	فتحها
٤٨٥	٥	رجعت بفتح التاء	ضمها
٤٨٥	٥	وصدقت بفتح القاف وتسكين التاء	تسكين القاف وضم التاء
٤٨٥	٦	سألت بفتح التـــاء	ضمها
٤٨٧	٧	يتعارض بفتح الضاد	ضمها
٤٨٨	١٥	سبيل لهم	سبيل الله لهم
٤٩١	١٢	لـما بكسر اللام وفتح الميم	فتحهما معا وتشـــديد الثـــانية
٤٩٢	٥	تبذر بفتح الراء	ضمها

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

تصميم الغلاف : عمرو الكفراوى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة